

«ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً ، أي أنه سبحانه يعطي المهاجر أشياء تجعل من كان يستضعفه ويستلذه يشعر بالخزي إلى درجة أن تكون أنفه في الرغام .

والمتضعف في أرض ما يجد من يضيق عليه حركته ، لكنه عندما يهاجر في سبيل الله سينجد سعة ورزقا .

ويتابع الحق الآية : «ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ، ولا أحد يعرف ميعاد الموت . فإن هاجر إنسان في سبيل الله فقد لا يصل إلى المراغم ، لأن الموت قد يأتيه ، وهنا يقع أجره على الله . فإذا كان سبحانه قد وعد المهاجر في سبيله بالمكان الذي يرغب أنف خصمه وذلك سبب ، ومن مات قبل أن يصل إلى ذلك السبب فهو قد ذهب إلى رب السبب ، ومن المؤكد أن الذهاب إلى رب السبب أكثر عطاءً . وهكذا نجد أن المهاجر رابح حياً أو ميتاً .

«ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ، وكلمة «وقع أجره على الله» أي سقط أجره على الله . كأن الحق سبحانه وتعالى يقول للعبد : أنت عندما هاجر إلى أرض الله الواسعة ، إن أدركك الموت قبل أن تصل إلى السعة والمراغم ، فأنت تذهب إلى رحابي . والمراغم سبب من أسبابي وأنا المسبب .

وحتى نفهم معنى : «وقع أجره على الله» علينا أن نقرأ قوله الحق :

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النمل)

والوقوع هنا هو سقوط ، ولكنه ليس كالسقوط الذي نعرفه ، بل هو الذهاب إلى الله . ولماذا يستخدم الحق هنا «وقع» بمعنى «سقط» ؟

هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام : حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ، فإذا ما أدرك العبد الموت فالجزاء يسعى إليه وهو عند الله ،

ويعرف الجزء من يلعب إليه معركة كاملة .

ومكنا يجب أن نفهم قوله الحق :

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُتْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ
مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ۝﴾

(سورة النمل)

والله غفور رحيم حتى لمن تواتر قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركب الإيمان ويتدارك ما فات ، لأن الله يغفر ما فات إن حاول العبد نساوكة . والهجرة تقتضي ضرباً في الأرض ، وتقتضي الجهاد .

ويعد أن جعل الله للإسلام أركاناً ، جاء لحمل المسلم ما يمكن أن يؤديه من هذه الأركان ، فركان الإسلام هي : الشهادة ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، والمسلم ينطق بالشهادة ويؤدي الصلاة ، ولكنه قد لا يملك مالاً ، لذلك يعفيه الحق من الزكاة . وقد يكون صاحب مرض دائم فلا يستطيع الصوم ، فيعفيه الله من الصوم . وقد لا تكون عنده القدرة على الحج فيعفيه الحق من الحج . أما شهادة « لا إله إلا الله » وأن محمداً رسول الله ، فقد لا يقولها المسلم في العمر إلا مرة واحدة . ولم يبق إلا ركن الصلاة وهو لا يسقط عن الإنسان أبداً ما قامت فيه صلاحية لأدائها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة) (١) .

ولأن الصلاة هي الركن الذي لا يسقط أبداً فقد جمع الله فيها كل الأركان ، فعند إقامة الصلاة يشهد المسلم ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وخلال الصلاة يصوم الإنسان عن الطعام والشراب ، وإضافة إلى ذلك يصوم ويمتنع عن الكلام أيضاً ، وهكذا نجد الصلاة أوسع في الإنساك من ركن الصيام . فالإنسان وهو يقيم

الصلاة يحبس نفسه عن أشياء كثيرة قد يفعلها وهو صائم ، فالصوم - مثلاً - لا يمنع الإنسان من الحركة إلى أى مكان لكن الصلاة تمنع الإنسان إلا من الوقوف بين يدي الله .

إذن فالصلاة تأخذ إمساكاً من نوع أوسع من إمساك المؤمن في الصيام . والزكاة هي إخراج جزء من المال ، والمال باق به الإنسان من الحركة والعمل . والحركة والعمل تأخذ من الوقت . وحين يصلى المسلم فهو يركى بالأصل ، إنه يركى بهذا الوقت الذى هو وعاء الحركة ، إذن ففي الصلاة زكاة واسعة .

والحج إلى البيت الحرام موجود في الصلاة ؛ لأن المسلم يتحرى الاتجاه إلى البيت الحرام كقبلة في كل صلاة ، وهكذا .

ولذلك اختلفت الصلاة عن بقية الأركان . فلم تشرع بواسطة الوحى ، وإنما شرعت بالمباشرة بين رب محمد ومحمد صلى الله عليه وسلم . ولأن هذه هي منزلة الصلاة نجد الحق يحذرننا من أن يشغلنا الضرب في الأرض عنها ، بل شرع سبحانه صلاة مخصوصة اسمها « صلاة الحرب وصلاة الخوف » حتى لا يقول أحد إن الحرب تمنعنا من الصلاة ، ففي الحرب يكون من الأولى بالمسلم أن يلتزم بمنهج ربه . كذلك في السفر يشرع الحق قصر الصلوات :

﴿ وَإِذَا حَضَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَسَّ عَلَيْكُمْ جُنَاحُ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْشِيَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا أَعْدَاؤُمْ يُبِينُونَ ﴾ (١١)

والضرب في الأرض مقصود به أن يمشى المؤمن في الأرض بصلابة وحزم وقوة . والفصر في الصلاة هو اختزال الكمية العددية لركعاتها . وفي اللغة « اختصار »

«اقتصار» . «الاقتصار» أن تأخذ بعضاً وتترك بعضاً ، «الاختصار» هو أخذ الكل بصفة موجزة . مثل ذلك عندما تختصر كتاباً ما فنحن نوجز كل المعاني التي فيه في عدد أقل من الكلمات .

وقد يفكر إنسان في أن يكتب خطاباً ، ثم يقول لنفسه : سأرسل برقية في الموضوع نفسه . وهنا لا بد أن يختزل الكلمات لتحمل معاني كثيرة في ألفاظ موجزة .

والإسهاب - كما نعلم - لا يأخذ من الوقت مثلياً يأخذ الإيجاز ؛ فعندما يريد الإنسان الإيجاز فهو يفتح ذهنه - في وقت أطول - ليصل إلى المعاني في كلمات أقل .

ويحكى عن سعد زغلول - زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية - أنه كتب رسالة لصديق فاطال ، وأنهى رسالته بهذه الكلمات :

ولم أعتذر إليك عن التطويل فليس عندي الوقت الكافي للإيجاز . ويحكى التاريخ عن الخليفة المسلم الذي أراد أن يهدد قائد الروم . فكتب إليه : لما بعد : فسأتيك بجيش أوله عندك وآخره عندي . وهكذا أوجز الخليفة حجم الخطر الداهم الذي سيواجه ملك الروم من جيش هرمم سيملا الأرض إلخ .

وينقل التاريخ عن أحد قادة العرب وموقفه القتالي الذي كان صعباً في «دومة الجندل» أنه كتب إلى خالد بن الوليد كلمتين لا غيرهما «إياك أريد» ولم يقل أكثر من ذلك ليتضح من هذا الإيجاز حجم المعاناة التي يعانيها . وقد أوردنا هذا الكلام ونحن بصدد الحديث عن القصر والإيجاز .

والقصر في الصلاة هو أن يؤدي المؤمن كلاً من صلاة الظهر والعصر والمساء ركعتين بدلاً من أربع ركعات ، أما الصبح والمغرب فكلهما على حاله ، الصبح ركعتان ، والمغرب ثلاث ركعات . وحكمة مشروعية ذلك أن الصلاة في وقت الحرب تقتضي ألا ينشغل المقاتلون عن العدو ، ولا ينشغلوا أيضاً عن قول الحق :

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْثُوتًا﴾

فإذا شرع الله للخوف صلاة ، وللحرب صلاة فمعنى ذلك أنه لا سبيل أبداً لأن ينسى العبد المؤمن إقامة الصلاة . وإذا كانت الصلاة واجبة في الحرب فلن تكون هناك مشاغل في الحياة أكثر من مشاغل الحرب والسيف . وصلاة الحرب - أي صلاة الخوف - جاء بها القرآن ، أما صلاة السفر فقد جاءت بها السنة أيضاً ، وفيها يقصر المؤمن صلواته أيضاً :

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ كُنْتُمْ أَنْ يَفْسِدَ كُفْرُوكُمْ إِلَّا الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ٥٥﴾

(سورة النساء)

ولورأى الكافرون المؤمنین مصطفوین جميعاً فی الصلاة فقد یهجمون علیهم هجمة واحدة . ولذلك شرع الحق قصر الصلاة .

ويكون الخطاب من بعد ذلك موجهاً للرسول صلى الله عليه وسلم :

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ
مَلَأَيْتُم مِّنْهُم مَّعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا
فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ مَلَأَيْتُم أُخْرَىٰ لَّئِنْ
يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ
وَأَسْلِحَتُهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ
أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ

أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا
حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١١٢﴾

وحين يقول الحق : « فلتقم طائفة منهم » نفهم أن ينقسم المؤمنون إلى طائفتين : طائفة تصل مع رسول الله ، وأخرى تترك العدو وتحمل المؤمنين .

ولكن كيف تصل طائفة خلف رسول الله ولا تصل أخرى وكلهم مزمونون يطلبون شرف الصلاة مع رسول الله ؟ ويأمر الحق أن ينقسم النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة ليصل بكل طائفة مرة ، ليحرف كل مقاتل بالصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقصر الصلاة - كما عرفنا - ينطبق على الصلاة الرباعية وهي الظهر والمغرب والعشاء أما صلاة الفجر وصلاة المغرب فلا قصر فيها ، فليس من المتصور أن يصل أحد ركعة ونصف ركعة ، وفي علم الحساب نحن نجبر الكسور إلى الرقم الأكبر .

وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بمئات متعددة ، ولا مانع من أن نلم بها إماماً عاجلاً ، لأن تعليم هذه الصلاة عادة يكون واجباً على الأئمة والعلماء الذين يصلون بالجيوش في حالة الحرب . ولصلاة الخوف طرق وكيفيات : كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينقسم الجيش إلى قسمين ، قسم يصل معه وقسم يرقب العدو ، ويصل بكل فرقة ركعتين .

وهناك طريقة أخرى وهي أن يصل بطائفة وفرقة ركعة واحدة ، ثم ينصرفون وتأتي الطائفة التي حلت الطائفة الأولى في أثناء الصلاة لتصل هذه الطائفة الثانية ركعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنا يسلم رسول الله لأنه أنهى الصلاة .

وبعد ذلك تصل الطائفة الأولى الركعة الثانية التي عليها في القصر وتسلم ، ثم تصل الطائفة الثانية الركعة الثانية التي عليها في القصر وتسلم .

وهناك كيفية ثالثة وهى أن تأتى الطائفة الأولى تصلى مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم ركعة ، ولا يصلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم معها الركعة الثانية بل يظل واقفا قائما إلى أن تخرج من صلاتها بالتسليم لتنادى الطائفة التى تقف فى مواجهة العدو لتصلى خلف النبى صلى الله عليه وآله وسلم الركعة الثانية بالنسبة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم بينما هى الركعة الأولى بالنسبة إليها ، ويظل النبى صلى الله عليه وآله وسلم قاعداً إلى أن تأتى الطائفة الثانية بركعتها الثانية ويسلم النبى صلى الله عليه وآله وسلم بها وتنال الطائفة الأولى بشرف بدء الصلاة مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتغطى الطائفة الثانية بشرف السلام معه صلى الله عليه وآله وسلم .

وهنا نسال : هل هذه الصلاة بهذا الأسلوب مقصورة على عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم وانما به لأن الصلاة معه هى الشرف ؟ فكيف يصلى المقاتلون الخوف بعده صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال العلماء : إذا كنت تعتبر القائمين بأمر القيادة هم خلفاء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الولاية فتقام صلاة الخوف على صورتها التى جاءت فى القرآن ، ولكن إذا كان لكل جماعة إمام فلتصل كل جماعة صلاة القصر كاملة خلف الإمام .

« وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فتفطم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم » وهذه الأسلحة المقصود بها الأسلحة الحقيقية مثل السيف أو الرمح أو النبل أو البندقية فيأخذها المقاتل معه ، أما من معه سلاح ثقيل فلن يأخذه بطبيعة الحال إلى الصلاة .

« فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » والقول القرآنى هنا ليس مجرد ألفاظ تقال ولكنها ألفاظ لها مدلولات من رب العالمين ، فمن قدموا إلى الصلاة أولاً : تركوا خلفهم من يحميهم .

ولكن الطائفة الثانية التى سوف تترك المواقع من أجل الركعة الثانية خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبالهم مشغول بدواتهم ويحمية من يصلون ، فلعلهم حين يذهبون إلى الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلهيهم المسألة ، لذلك قال الله : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » وهكذا نجد أن الطائفة الأولى ملزمة بأخذ السلاح ، والطائفة الثانية ملزمة بأخذ الحذر والسلاح .

وقد يقول قائل : صحيح إن الأسلحة تؤخذ ، ولكن كيف يؤخذ الخنزير وهو عملية معنوية ؟

ونقول : إنه سبحانه يصور المعنويات ويحسمها تجسيم الماديات حتى لا يغفل الإنسان عنها ، فكأن الخنزير آلة من آلات القتال ، وإياك أيها المقاتل أن تغفل عنها .

وهذا أمر يشيع في أساليب القرآن الكريم ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

والدار هي مكان باستطاعة الإنسان أن يتبوءه ويقيم به ، فما معنى أن يتبوء الإنسان الإيمان وهو أمر معنوي ؟ . إنه سبحانه في هذا القول يصف الأنصار الذين أكرموا وفادة المهاجرين ، والدار - كما نعرف - هي المكان الذي يرجع إليه الإنسان ، والإيمان هو مرجع كل أمر من الأمور .

إذن فقد جعل الحق سبحانه الإيمان كأنه يتبوء ، أي جعله شيئاً ينزل الإنسان فيه ، والإيمان كذلك حقاً ، والدار في هذا القول منصوب بها هنا المدينة المنورة ، حيث استقبل الأنصار المهاجرين .

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهُ ، فَإِنَّكَ هُمْ الْمَقْلُوحُونَ ۝ ٩ ﴾

(سورة الحشر)

وهكذا يحسم الحق المعنويات لفهم منها الأمر وكأنه أمر حسي ، تماماً كما قال الحق : « فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة » .

وهذا ما يوضح لنا لماذا أمر الله أن يأخذ المسلمون الخنزير والأسلحة ، لأن المقاتل يجب أن يخاف على سلاحه ومناعه . فلو فقدوا المقاتل لفقد أداة القتال ولصارت

أدوات قتاله قوة لعدوه . فحين يأخذ المقاتل السلاح من عدوه ، يتحول السلاح إلى قوة ضد العدو .

لذلك كان التحذير من فقد الأسلحة والأمتعة حتى لا تضاف قوة السلاح والمناع إلى قوة العدو ؛ لأن في ذلك إضعافاً للمؤمن وقوة لخصمه . وعلمو الإسلام يود أن ينقل المسلمون عن الأسلحة والمناع ، والمؤمن ساعة الصلاة يستغرق بيقظته مع الله ، ولكن على الإنسان ألا يفقد يقظته إن كان يصلي أثناء الحرب ، فلا يصح أن يشي الإنسان سلاحه أثناء القتال حتى وهو يصلي ، فالقتال موقوف لله ، فلا تفصل القتال في سبيل الله عن الصلاة لله .

«ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم والغفلة هي نسيان طارئ على ما لا يصح أن ينسى ، وفي هذا تحذير واضح ؛ لأن الغفلة أثناء القتال هي حلم للكافرين حتى يحققوا هدفهم المتمثل في قول الله : « فيميلون عليكم ميلاً واحدة » . فمعسكر الكفر يتمنى أن يهجم على المؤمنين في لحظة واحدة ، هذا هو المقصود بقوله : « فيميلون عليكم ميلاً واحدة » .

ولكن لئلا نر من بعد ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَلُّوا جُدْرَكُمْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ أَعْدَاءَ الْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة النمل)

ونجد هنا أن كلمة « الجدر » تكررت ، وسبحانه بجلال جبروته أعد للكافرين عذاباً مهيناً ، وفي ذلك بشارة منه أن الكافرين لن ينالوا من المؤمنين شيئاً ، فليأذا جاء الأمر هنا بأخذ الجدر ؟ . إن أخذ الجدر لا يعني أن الله تخلص عن المؤمنين ، ولكن لتنبيه المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب ، ولا يغفلوا عن المسبب لأنه سبحانه هياً وأعد العذاب المهين للكافرين . « إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً » .

وهذا ما يجب أن نفهمه حتى لا يتوهم أحد أن الله عتلهما به كثيراً بضرورة الأخذ بالجدر ثم أنه يتخلى عنا ، لا . إنه سبحانه يوضح لنا أن نأخذ بالأسباب ولا نهملها

وهو الغافل وإن الله أحد للكافرين علاناً مهيناً .

ومن بعد ذلك قال الحق :

﴿ فَإِذَا قُضِيََتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا
وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا
مَّوْقُوتًا ١٥٧ ﴾

كان المؤمن مطالب بالآيسوف ويؤخر الصلاة عن وقتها ، وأن يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنبه ، وذلك لتكون الصلاة دائماً في بؤرة شعور الإنسان ، بل إن المؤمن مطالب بذكر الله حتى وهو يشايف عدوه وينزله ، فهو يعمل السيف ولسانه رطب بذكر الله ويقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

والإنسان حين يسبح الله حتى وهو في حالة الاشتباك مع العدو لا ينسأ الله . والمؤمن قد يؤخر الصلاة في حالة الاشتباك مع العدو والالتحام به ، ولكن عليه أن يدفع قلبه ونفسه إلى ذكر الله ، ففي وقت الصلاة يكون مع ربه فليذكره قائماً وقاعداً وفي كل حال ، وبعد أن يطعن المسلم لوقفة القتلى فليفيض الصلاة . وأنه لا يترك ربه أبداً بل وهو في الحرب يكون ذلك منه أولى ؛ لأنه في حالة الاحتياج إليه سبحانه ، والقتال يدفع المؤمن إلى الاستعانة بربه ، وإذا كان المسلم يعرف أن الله في أوقاته تجليات ، فلا يحرم واحد نفسه من هذه التجليات في أي وقت ، وذكر الله يقرب العبد من مولاه - سبحانه - مع عبده إذا ذكره ، فإن كان الإنسان مشغولاً بالأطمئنان وقت الخوف والقتال فليذكر الله ليدعم موقفه بالقوة العليا .

وقوله الحق : « إذا أصبأتم فأقيموا الصلاة » أى إذا انتهى الاشتباك القتلى
فعلى المؤمن أن ينتقل من ذكر الله أثناء الاشتباك إلى الصلاة التى حان مبادتها أثناء
القتال . فقد كان ذكر الله وقت الاشتباك من أجل ألا يضيع وقت الصلاة بلا كرامة
لهذا الوقت ، وبلا كرامة للقاء العبد مع الرب . وبهذا كل ذلك ؟ وبأى القول
العصل : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً »

وقد أوضح لنا الحق صلاة الخوف ، وشرح سبحانه لنا ذكره إذا ما جاء وقت
الصلاة فى أثناء الاشتباك القتلى ، وإذا ما اتفق توقيته مع وقت الصلاة ، وشرحت لنا
سنة النبى صلى الله عليه وسلم كيفية قصر الصلاة فى أثناء السفر ، لماذا كن ذلك ؟ لأن
الصلاة فرض لا غنى عنه على الإطلاق « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً
موقوتاً » . أى أن الصلاة لها وقت .

ولا يصح أن يفهم أحد هذا المعنى . كما يفهمه البعض . بأن صلاة الطهر - على
سبيل المثال - وقتها عند من الطهر إلى العصر ، وصحيح أن الإنسان إذا حاش حتى
يصلى الطهر قبيل العصر فإنها تسقط عنه ، ولكن ماذا يحدث لو مات العبد وقد فات
حيه وقت بسعها ؟ إذن فقد أثم العبد ، ومن يضمن حياته حتى يؤدى الصلاة مؤجلة
عن سرعد أدائها ؟

وقد يقول قائل : أحياناً أسمع أذان الصلاة وأكون فى عمل لا أستطيع أن أتركه ،
فقد أكون فى إجراء جراحة أو ركباً طائرة . ونقول : أسألك الله إذا كنت فى هذا
العمل الذى تتحين أنك غير قادر على تركه وأردت أن تنفى حاجة ، فهاذا نصع ؟
إنك تذهب لقضاء حاجتك ، فلماذا استقطعت جزءاً من وقتك من أجل أن تنفى
حاجتك ؟ وقد نجد قوماً كافرين يسهلون لك مؤنك عن دورة المياه لتنفى
حاجتك .

وساعة يراك هؤلاء وأنت تصلى فأنت ترى على وجوههم سمة الاستبشار ، لأن
فيهم العبودية العظمية لله ، وتجد منهم من يسهل ذلك ويحضر لك ملاءمة لتنفى
فوقها ، ويقف فى ارتعاش سببه العبودية العظمية لله ، فلا تقل أبداً : إن الوقت
لا ينسح للصلاة ، لأن الله لا يكف أبداً عبده شيئاً ليس فى مسعته ، والحق كلف
العبد بالصلاة ومعها الوقت الذى بسعها .

وفيه المثل الأعلى ، نحن نرى رئيس العمال في موقع ما يوزع العمل على عماله بما
يسع وقت كل منهم ، فيما بالتنا بالرب الخالق ، ولنتلك يقول الحق :
﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(من الآية ٢ ومن الآية ٣ سورة الطلاق)

والصلاة ورق عبودي بحورك من أى خوف ، وفضتها لا حدود له لأن فريضتها هو
الخالق المهي ، فكيف نبجل على نفسك أن تكون موصولا بربك ؟
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ
فَأِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٠٤﴾

وهذه الآية تذكيرة لنا بكيفية الرد من من يدعوون للتحرر ويحولون إظهار الإسلام
بأنه يصلح للعصر الذي نحياه عندما تؤدله ونطرحه لمرادات العصر ، ناسين مرادات
الإسلام ، فهم يقولون : لقد شرع الحق الحرب في الإسلام لرد العدوان . ونقول
لهم : صحيح أن الحرب في الإسلام لرد العدوان ، والحرب في الإسلام أيضاً هي
لتوسيع المجال الحرية الاعتقاد للإنسان .

إن الذي يحيف هؤلاء أن يكون القتال في الإسلام فريضة ، فيقاوم المسلمون
الظلمين في أى مكان . وهذه محاولة من أعداء الإسلام لصرف المسلمين حتى
لا يقاوموا قهر الناس والظلمين عليهم ؛ لأن أعداء الإسلام يعرفون تماماً قوة الإسلام
الكبنة والتي يببها لمن يؤمن به حياً ، ويستخدع بعض المسلمين بدعاوى أعداء
الإسلام الذين يقولون . إن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لرد العدوان .

ولذلك نقول هؤلاء وأولئك : لا ؛ إن الإسلام جاء بالقتال ليحرر حق الإنسان

في الاعتقاد والمسلم مطلوب منه أن يعلن كلمة الله ، وأن يقف في وجه من يقاوم إعلانها ، ولكن الإسلام لا يفرض العقيلة بالسيف ، إنما يحمي بالسيف حرية المعتقد ، فالحق يقول : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم » أي لا تضعفوا في طلب القوم الذين يحاربون الإسلام ، والابتغاء هو أن يجعل الإنسان شيئاً بغية له ، أي هدفاً وغاية ، ويحتل لها كل تخطيطات الفكر ومتعلقات لطاقة ، كأن الإنسان لا يرد انقوم الكافرين فقط ملحة يهاجمون دار الإسلام ، ولكن على المسلم أن يتفهم أيضاً امتثالاً لقول الله : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم » . عمل المسلمين أن يُعلنوا كلمة الله ويدعوا الناس كافة إلى الإيمان بالله . وهم في هذه الدعوة لا يحرصون كلمة الله ، لكنهم يرفعون السيف في وجه الجبروت الذي يمنع الإنسان من حرية الاعتقاد . إن على المسلمين رفع الجبروت عن البشر حتى ولو كان في ذلك مشقة عليهم لأن الحق قال :

﴿ كَيْفَ تَقْبَلُونَ الْقِتَالَ وَهُمْ كَرَاهُوا لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وقد خلق الله في المؤمن القدرة على أن يتغى عدو الإسلام ليرفع الجبروت عن غيره من البشر ، صحيح أن الحرب مسألة مكروهة من البشر وليس رحلة سهلة ، ولكنها أحياناً تكون واجبة ، والدين لمذكروا الحرب العملية الثانية عرفوا أن « تشرشل » جاء رئيس لوزراء بريطانيا بعد « تشمبرلين » الذي عرف عنه أنه رجل سلام ، وحاول « تشمبرلين » أن يماطل ويلوح بالسلام مع ألمانيا حتى تستعد إنجلترا بالحرب ، وعندما استعدت إنجلترا أعلن « تشمبرلين » أن سياسته غير نافعة ، وجاء « تشرشل » وقاد دفعة الحرب ، وقال للإنجليز : « انتظروا أيهاً سوداء وانتظروا الجمع ».

لقد قال تشرشل ذلك للإنجليز ، حتى إذا ما جاء الواقع بأقل من قوله ، فهم يستبشرون ويفرحون .

والحق سبحانه يقول : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم إل تكونوا تألمون فأنهم يألمون كما تألمون » . إن الحرب ترهقهم أيضاً كما ترهقكم ، لكنكم أيها المؤمنون تبتارون على الكافرين بما يلي . « وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله علياً حكيماً » . فأنتم

وهم في الالم سواء ، ولكن الاختلاف هو أن المؤمنين يرجون ما لا يرجوه الكافرون ، إن المؤمنين يعمدون خطه دخولهم الحرب أن الله معهم وهو الذي ينصرهم ومن تمت منهم يذهب إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وهذا ما لا يرجوه الكفرة .

والحق سبحانه وتعالى يطالب العنة المؤمنة التي انتهت قصية عقيدتها إلى الإيمان بالله واحد ، هو - سبحانه - أنشأهم وخلقهم وإليه يعودون ، وهذه القصية تحكم حركات حياتهم ، إنه - سبحانه - يعالهم أن يؤدوا مطريات هذه القصية ، وأن يدافعوا عن هذه العقيدة التي تثبت للناس جميعاً أنه لا معبود - أي لا مطاع - في أمر إلا الحق سبحانه وتعالى

وحين تحكم هذه القصية أناساً فهي توحد اتجاهاتهم ولا تتصارف مع حركاتهم ، ويصبحون جميعاً متعاونين متساندين متعاضدين ، لذلك جعل الله الطائفة للمؤمنين خير أمة أخرجت للناس ، لأن رسولها صلى الله عليه وسلم خير رسول أرسل للناس ، وطلب الحق من أهل الإيمان أن يجاهدوا الكافرين والمنافقين لتصو رقعة الإيمان ، يكدر صدور حركة الحياة .

والحق يعامل خلقه كبشر ، إنه خدمهم ويعلم طوائفهم وغر لزمهم ولا يخاطبهم على أنهم ملائكة ، وإنما يخاطبهم على أنهم بشر ، وهم أشير ، ومن الأغيار أن يصفو هم أمر العقيدة مرة ، وأن تعكر عليهم شهواتهم صفو العقيدة مرة أخرى ، لذلك يؤكد لهم أن طريق العقيدة ليس مفروشاً بالرياحين والبرود ، وإنما هو مفروش بالآشواك حتى لا يتحمل رسالة الحق في الأرض إلا من صبر على هذه البلايا وهذه المحن . فلو كانت القصية على طرف النمام^(١) أي سهنة التناول لا مشقة في الحصول عليها وتذكر بدون آلام وبدون متاعب فسيذهبها كل إنسان ويصبح غير مأمون على حل العقيدة

من أجل ذلك لم ينصر الله لإسلام أولاً ، إنما جعل الإسلام في أول أمره ضعيفاً مضطهداً ، لا يستطيع أهله أن يحجموا أنفسهم ، حتى لا يصبر على هذا الإيذاء

(١) النمام : عصب لا يطول له زهر يسهل إكله وفطكه .

إلا من دافق حلاوة الإيمان مما يجعله لا يشعر بمرارة الاضطهاد ووطأة التعذيب ومشقته . فقال الحق سبحانه وتعالى : « ولا تهوا في ابتغاء القوم » أى لا تضعموا في طلب القوم .

وكلمة « لا تهوا في ابتغاء القوم » أى في طلبهم تدل على أن الأمة الإسلامية ليس مطلوباً منها فقط أن تدفع عن نفسها عدواناً ، بل عليها أن تطلب هؤلاء الذين يعمون في وجه الدعوة بتؤذيهم حتى يتركوا الناس أحراراً في أن يختاروا العقيدة .

إذن فالطلب منه سبحانه . ألا تهوا ولا تضعموا في طلب القوم الذين يعمون في وجه الدعوة . ثم قال سبحانه . « إن تكفروا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » أى إنه إذا كان يصيبكم ألم الحرب والإعداد لها ، فإنهم أيضاً يحاربون قوماً يصيبهم ألم المراقع والحروب والإعداد لها ؛ فإنهم وهم متساوون في إدراك الألم والمشقة والتعب ، ولكن يجب ألا تغفلوا عن تقييم القوة فلا تهملوها ؛ لأنها هي القوة المرجحة . فأنتم تريدون عليهم أنكم ترجون من الله ما لا يرجون . والأشياء يجب أن تقوم بغاياتها والثواب عليها لا يقولن أحد أبداً « هذا يساوى ذلك » . فلا يحمل أحد قضية الثواب على العمل . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في شرح هذه المعادلة حتى نكون الأدهان على بينة منها إعداداً وخصوصاً للحرب واحتمالاً لآلامها :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَوْنَ سَاءَ إِلَٰهًا حَتَّىٰ الْحُسَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

عليكم أيها الكافرون أن تعلموا أن الذي ينتظرنا هو إحدى الحسين . . إما أن نتصبر ونظهركم ، وإما أن نستشهد منتصر بالحياة الأخرى . وماذا عن تربص المؤمنين بالكافرين :

﴿ وَتَحْنُ تَرَبَّصْنَ بِهِمْ أَنْ يَخْتَارُوا بَيْنَ يَدَيْنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

كلمة من - إذن - هي الراجعة في المعادلة ؟ إنها كفة المؤمنين ، لذلك قال الحق : « ولا تهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » فلا تضعموا أيها المؤمنون في طلب القوم لأنهم يألمون كما تألمون ، ولكن

لكم مرجعاً أصل وهو أنكم ترجون من الله ما لا يرجون

ويذيل الحق قضية حث المؤمنين على طلب الكافرين وكيف يزيد المؤمنون على الكافرين بأنهم يرجون من الله ما لا يرجوه الكافرون فيقول : « وكان الله علياً حكيماً » إنه عليم بكل ما يصيب المؤمن من ألم ، فلا تعتقد أيها المؤمن أن لك أجراً سيضيع منك ، فالشوكة التي تشاك بها في القتال محسوبة لك ، وهو سبحانه وتعالى حين يتركك تألم أمام الكافر كما يألم . فذلك لحكمة هي أن تدير إلى القتال وأنت واثق من قدرة إيمانك على تحمل تبعات هذا الدين .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . (ما يصيب المؤمن من شوكة مما فوقها إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة)^(١) .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال في سبيل نصرة دينه لم يحرم المؤمنين من توجيه يدهم أيضاً حركة الحياة ، لماذا ؟ لأنه علم أن قوماً يؤمنون به ويتصوون تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، فيوضح : أن انصرواكم أيها المؤمنون تحت لواء الإسلام له تبعات ، فأنتم أول من يطبق عليه حكم الله ، ولإياكم أن تطبوا أنكم بإيمانكم وإعلان إسلامكم لله وانصاعكم لرسول الله قد أحدثتم شيئاً مبركاً عن بقية خلق الله ، فكما قلنا لكم دافعوا لكم ولدافعوا المذنبين نقول لكم أيضاً : دافعوا أنفسكم ؛ لأن واحداً قد ينضم إلى الإسلام وبعد ذلك يظن أن الإسلام سيعطيه فرصة ليكون له غير على غيره ، ومثل هذا الإنسان : نقول لا . ولذلك يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له :

﴿ إِنَّمَا أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ
النَّاسِ بِمَا أَرَدَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْغَائِبِينَ
خَصِيماً ١٥ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه ؛ يتكلم فيما يتعلق بالفعل بصحة التعظيم والجمع . مثال ذلك قوله : « إنا أنزلنا » . وهذه « نون الجلالة » حيث يتطلب نزول القرآن قوى متعددة لا تتوافر إلا لمن له الملك في كل الكون . ولضرب لذلك مثلاً والله المثل الأعلى . . إنا نجد أن رئيس الدولة أو الملك في أى بلد يصدر قراراً فيقول : « نحن فلانا أصدرنا لقرار » . والملك أو الرئيس يعرف أنه ليس وحده الذى يصدر القرار ، ولكن يصدره معه كل المتعاونين معه وكل العاملين تحت رئاسته . فما بالك بالحق الأعلى سبحانه وتعالى ؟ لذلك نحى بكلم سبحانه فيما يتعلق بالذات يكون الحديث بواسطة ضمير الأفراد فيقول :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝ ﴾

(سورة طه)

ولا يأتى هنا ضمير الجمع أبداً ، ولا تاتى « نون التعظيم » . ولكن فى هذه الآية نجد الحق يقول : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » . ونرى « نون التعظيم » واضحة ، فالقرآن كلام الله ، ونزول القرآن يتطلب صفات متعاضدة . سبحانه مرة يقول :

﴿ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۝ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة النكبات)

ومرة يقول :

﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتَنَ عَلَيْهِمْ ۝ ﴾

(من الآية ٥١ سورة النكبات)

ومرة ثالثة يقول .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرٌ مُّزَكَّرٌ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾

(سورة الأنبياء)

ما الغاية من الإنزال ؟ الغاية من الإنزال أن يوجد على لأرض منهج يحكم حركة الحياة . والقرآن قد أنزل إلى الرسول وإلى من آمن بالرسالة . وحين يقول الحق : « أنزلنا عليك » فمعنى ذلك نزول التكليف . وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » فعلينا أن

نعرف أن كل شيء يحىء من الحق فهو يرسل إليها منه سبحانه ، وكلمة « أنزل » تشعر السامع أو القارئ بها أن الجهة التي أنزلت هي جهة أعلى ، وليست مساوية لمن أنزل إليه ، وليست أدنى منه أيضاً

وكلمة « أنزلنا » تدل على أن جهة أنزلت ، وجهه أنزل إليها ، وشيء أنزلت الجهة إلى المنزل إليه . والكتاب هو المنزل . والذي أنزله هو الله . والمنزل إليه هو رسول الله وأمه . وهل أنزل الحق سبحانه الكتاب فقط أو أنزل قبل ذلك كل ما يتحقق بمقومات الحياة ؟

وعندما نقرأ هذا القول الكريم .

﴿ يَذَرُكَ أَدَمَ قَدْ أَرْنَا عَلَىٰ لِبَاسٍ يُرَارِي سَوَاءَ تَمَكَّرَ وَرَيْسًا وَلِبَاسٍ اتَّقَوْنِي ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الاحزاب)

إنه لباس جاء من أعلى ، لذلك استحسن الحق كلمة « أنزلنا » وهو ليس لباساً فقط ولكنه أيضاً يزركم مأخوذ من ريش الطائر لأنه لباسه وريته ، فهو لا يوارى العورة بحسب ولكنه جميل أيضاً ، والأهل منه أنه لباس التقوى

لقد جاء الحق بالمقوم للحياة سترأ ورمادية ، وبعد ذلك أنزل الحق لباس التقوى وهو الخير . فاللباس الأول يوارى عورة مادية ، ولباس التقوى يوارى العورات القسية والمعنوية ، وكل ذلك إزال من أعلى . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَرْسَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَرْسَلْنَا فِيهِ بَنَاتٍ شَدِيدَاتٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فكلمة « الإنزال » تدل على أن كل ما جاء من قبل الحق الأعلى إلينا ، فهو نازل إليها بشيء يعالج مادتنا وقوامها ، وشيء يعالج معنوياتنا وقيمنا .

ويقول الحق في الآية التي نحن بصدد تناولها الآن : « إنا أنزلنا إليك الكتاب » وحين يطلع الكتاب فلعن ينصرف إلى الكتاب الجامع للانع المهين على سائر

الكتب وهو القرآن ، وإن كان « الكتاب » يطلق على المكتوب الذي نزل على أي رسول من الله سبحانه وتعالى .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » والحق هو الشيء الثابت الذي لا يأتي واقع آخر لينقسه . وعلى سبيل المثال : أنت في حياتك العادية حين تقول قضية صدق تحكي بها واقعا حدث مهما تكررت روايتك لهذه التفاصيل عدة عشرين سنة فهي لا تتغير ؛ لأنها مطابقة للواقع . وأنت حين تقولها تستحضر الواقع الذي حدث أمامك . ولكن إذا حدث إنسان بقضية كذب لا واقع له . فماذا يكون موقفه ؟ سيحكي القضية مرة بأسلوب ، وإن مر عليه أسبوع فهو ينسى بعضاً مما قاله في أول مرة فيحكي وقائع أخرى ، ذلك أن ما يرويه ليس له واقع ؛ لذلك يقول كلاماً متغيراً لما قاله في المرة الأولى ، وهنا يعرف السامع أن هذه المسألة كاذبة .

إذن فالحق هو الشيء الثابت الذي لا ينقصه واقع أبداً . وأنزل الله الكتاب بالحق أي أنزله بالتفاصيل الثابتة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ، فهو ثابت لا ينقصه واقع .

ويقال في حياتنا للتلميذ الساجح من أساتذته . لقد أعطيتك المرتبة الأولى عن زملائك بالحق . أي أن هذا التلميذ قد أخذ حقه لأنه يستحق هذه المكانة . ونزله الحق سبحانه : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » أي إن أنزال الكتاب على سيدنا رسول الله ليبلغه جاء ملتصقا ومرتبعا بالحق ولا ينك عنه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل لأن ينزل عليه الكتاب . ووحد معنى بجانب معنى في القرآن هو من أسرار إشعاعات الكلمات القرآنية ، فهي لا تتناقص ولكنها توصع بحكمة الخالق لتجلب لنا المعاني .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس » وهذا يوضح لنا أن حكومة الدين الإسلامي وعلى رأسها الحاكم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاء لا ليحكم بين المؤمنين به فقط ، بل ليحكم بين الناس . ومن شرط الحكم بين الناس القيام بالعدل فيما يختصمون فيه ، فلا يقولن واحد : هذا مسلم ، وذاك كافر ، فإذا كان الحق مع الكافر فلا بد أن تعطيه له ، وإذا كان الحق مع المسلم فيجب أن تعطيه له ؛ لأنك لا تحكم بين المؤمنين فقط ولكنك تحكم بين الناس .

وانت إن حكمت بين الناس حكماً يتفق مع منطق الواقع والحق تجعل الذي حكم له يشهد أن دينك حق ، فعندما يكون الحق مع الكافر ، وتحكم على المؤمن بالحكم الحق الذي لا حيف فيه حتى وإن كان عقاباً ، فللكافر يفرغ نفسه على أنه لم يكن من أهل هذا الدين الذي يعترف بالحق ويحكم به ولو كان على مسلم . وأيضا يعرف المسلم ساعة يحكم عليه لصالح واحد غير مسلم أن المسألة ليست نسبة شكلية إلى الإسلام ، ولكنها نسبة موضوعية ، فلا يظن أحد أن الإسلام قد جاء ليحلي مسلماً على أي إنسان آخر ، ولكن الإسلام قد جاء ليأخذ الجميع بمنطق الحق ، ويطبق على الجميع منهج الحق ، وليكون المسلم دائماً في جانب الحق .

وسبحانه وتعالى يعطي هذه القضية لواقعة حدثت معاصرة لرسول الله . والوقائع التي حدثت معاصرة لرسول الله كانت بمثابة استدراك السوء للأحكام ، فالقضية تحدث وينزل فيها الحكم ، وبوجاهات الأحكام مبنية وسقطت ونزلت مرة واحدة ، فقد تحدث الحادثة ويكون لدى المؤمنين الحكم ويحاولون البحث عنه في الكتاب . لكن إذا ما جاء الحكم ساعة ونوع الحادثة فهو ينصب عليها ، ويكون الأمر أدهى للإذعان له ؛ لأنه ثبت وأيد ووثق بواقعة تطبيقية .

والحكم الذي نزل هو . « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » . وعندما يقول سبحانه « أراك » أو « علمك » فلتعلم أن تعليم الله هو أكثر تصديقاً من رؤيتك الإنسانية ، وكأنك تمثل الشيء الذي يعلمه لك الله وكأنه مجسد لما لك ، وليس مع العين أين .

والواقعة التي حدثت هي : كان في « بني ظمر » واحد اسمه « طعمة بن أبيرق » وسرق « طعمة » درعاً ، وهذا الدرع كان « لقتادة بن النعمان » . وخاف « طعمة » أن يحتفظ بالدرع في بيته فيعرف الناس أنه سرق الدرع . وكان « طعمة » فيما يبدو مشهوراً بأنه نص ، فذهب إلى يهودي وأودع عنده الدرع ، وكان الدرع في جراب دقيق . وحينما خرج به « طعمة » رحله صار الدقيق يتثر من خرق في الجراب وتكون من الدقيق أثراً في الأرض إلى بيت اليهودي وكان اسمه « زيد بن السمير » ، وعندما تتبعوا أثر الدقيق وجدوه إلى بيت طعمة ، ولكنه حلف ما أخفاها وما له بها

علم فتركوه واتبعوا أثر الدخيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأحسنوها وقالوا : « لقد سرق بن السمين » . وهنا قال ابن السمين : « أنا لم أسرق الدرع ولكن أودعه عندي » طعمة بن أبيرق . وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء « بنو ظفر » وهم مسلمون « وطعمة بن أبيرق » منهم وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حكمت حل المسلم ضد اليهودي مستكون المسألة ضد المسلمين وسيوجد العار بين المسلمين .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل رسوله لِيَمْدُدَ مَتَجِ الْغَرَائِزِ ابْشِرِيَّةً .
والغريزة البشرية بحسب اندفاعها وقصر نظرها قد تتصور أن الحكم على المسلم
وبطريقة لليهودي هو إصعاف للمسلمين . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يفهم الأمر
بالفط فَيَتَرَلَّ عَلَى رَسُولِهِ :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَادَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ

١٠٤

(سورة النساء)

أى يالك أن تقول : إن هذا مسدم ولا يصح أن نلصق به الجريمة التى ارتكبها حتى لا نكون شبة عليه ، وإياك أن تفتش ارتفاع رأس اليهودى ؛ لأن عمالك لعلاً قد ظهر من بين المسلمين . ومن الشرف للإسلام أن يعاقب أى إنسان ارتكب خطأ لأنه مادام قد انتسب للإسلام فعليه أن يصون هذا الانتساب . وعقاب المسلم عن خطأ هو شهادة للإسلام على أنه لم يأت ليُجامل مسلماً . وعلى كل مسدم أن يعرف أنه دخل الإسلام بحق الإسلام .

لقد نظر بعض السطحيين إلى قوله الحق : « ولا تكن للخائنين خصيماً » قائلين : إن كان هناك نهي أو عائن أو مستغل لقوته فأتركه ولا تنظر إليه ولا تلتفت حتى لا يسب لك نعباً . وهؤلاء يقولون : لا ، فسيبنا وتعالى يقول : « ولا تكن للخائنين خصيماً » و « اللام » التي في أول « الخائنين » هي للمصكية أي أن الحق يأمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا يقف موقفاً لصالح الخائن ، بل عليه أن يتخاصم لصالح الحق .

وقد حاول العلماء أن يقربوا المسافة فقالوا : ربما لا يتنبه أحد لمسألة اللام وأنها هنا للنفعية ، فيكون المنهى عنه أن يقف مسلم موقفاً يتنفع نخات ، بل لا بد أن يكون على الخائن وليس معه . فاللام هنا تكون بمعنى « عن » . كأن الحق يقول : ولا تكن من الخائنين حصيها . أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين .

ولمذا لم يقل الحق « عن » بدلاً من « اللام » ؟ يقول : إن الغية من الدفاع عن الخصم أن ترجع أمره وتكون به لا عليه ، لذلك جاء الحق بـ « اللام » هنا من أجل أن يعرف العاية من « عن » واضحة . فاللام تفيد ألا يتنفع المسلم خائناً ، فلا تكون المسألة له . ولذلك جاء الحق بها ليوضحاً واختصاراً لنعرف أن رسوله لن يقف في جانب الخائن ولن يأتي له بما ينفعه . ولذلك قال العلماء : إن اللام هنا بمعنى « عن » والقرآن فيه الكثير من مثل هذا .

وبعض الناس يقول : لماذا لا يأتي باللفظ الواضح الذى يجعلنا نعرف المعنى مباشرة ؟ ونقول : إن الملحظية هنا مفيدة لنعرف في أى صف يقف القرآن والرسول المبلغ عن ربه ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَإِذَا تَنَادَّ سِحْرُهُمْ ؕ ائْتَيْنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ ؕ أَبَاؤُكُمْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا لَكُمْ تُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة سبا)

القاتل هم الذين كفروا ، والمقول له هو الحق . وبعض الناس كان يفترض أن المطلق يقتضى أن يقول الكفار : إنك سحر مبين . وكان الآية هى : وإد تئل آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم أنت سحر مبين . ولنلاحظ أنهم لم يقولوا للحق ، ولكنهم قالوا عن الحق . ولم يقولوا للحق ذلك ، بل قال بعضهم لبعض . و« الحق » هنا تحدث عنه وليس مخاطب . فقالوا عنه : إنه سحر مبين

ومثلك آية أخرى يقول الحق فيها :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾

(س الآية ١١ سورة الاحزاب)

والقاتل هنا هم الذين كفروا . والمقول لهم هم الذين آمنوا . والمقصود هو . أن الذين كفروا قالوا للذين آمنوا لو كان الإسلام خيراً ما سبقتمونا إليه .

ولكن الحق سبحانه أورد : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » ، وذلك ليدلنا على أنهم قالوا ذلك في غير محضر المؤمنين ، بل هم يتبدلون هذا القول فيما بينهم .
والأمر أن القول من الكافرين للمؤمنين لكان السياق يقتضي أن يكون : لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه .

ومن بعد ذلك يقول الحق .

﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

والأمر بالاستغفار يحىء على مجرد وجود خطر التردد بين نصره المسلم أو نصره اليهودي ، فلم يكن الرسول قد نصر أحداً على أحد بعد ، ولكن مجرد هذا الخطر يتطلب الاستغفار . والذي يصدر الأمر بذلك هو الحق سبحانه لرسوله ، ولا اعتراض ولا غصاصة أن يمدل لنا ربنا أمراً ما .

أو أن كل خطاب من هذا اللون موجه لمن جعل المسألة موضع مساومة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقول « بنى ظفر » عندما أرادوا ألا يحكم الرسول على اللص الذي من بيتهم ، وثمحكوا في الإسلام . لذلك يأمر الحق الذين حدثوا رسول الله عن هذا الموضوع بالاستغفار ، أو أن يستغفر الرسول لهم الله ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا رغبة في ألا يفضح أمر المسلمين .

وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ وَلَا تَجِدُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّافًا أَشِيمًا ﴾

وسبحانه يريد أن يشيع هذه القضية بحثاً ، فقد كان يكفي أن يقول لنا ما سبق . لكنه يريد أن يحسم مثل هذه الأمور ؛ فلا مجادلة في الذين يختانون أنفسهم . والجمل كما نعرف هو القتل . وحين يقتل الإنسان شيئاً ، مثل أن يحضر بعضاً من الشعر أو الصوف أو الليف ويجعلها ليصنع حبالاً ، فهو يقتل هذا المزل ليقويه ويجعله غير هش وقابلًا للشد والجلب ، ولذلك يقال عن مثل هذه العملية : إنا نجعل الحبل حتى يعطيه القوة . وكذلك شأن الخصمين ؛ كل واحد منهما يريد تقوية حجته ، فيحاول جاهداً أن يقويها بما يشاء من أساليب في القول ولحنه أو الفصاحة في الأسلوب . لذلك يأتي الأمر إلى الرسول . لا تقو مركز أي إنسان يختلن نفسه .

والقرآن حين يعدل عن يخونون أنفسهم إلى « يختانون أنفسهم » ، فلا بد أن لهذا معنى كبيراً ؛ لأن الخيانة هي أن تأخذ غير الحق . ومن المحتمل أن يخون الإنسان غيره ، لكن أيمَنَ المَقُول أن يخون الإنسان نفسه ؟ إن مثل هذه العملية تحتاج إلى احتمال كبير ، فقد يخون الإنسان غيره من أجل مصلحة نفسه ، أو يعطي نفسه شهوة ومعصية عليها عقوبة ، وهذه خيانة للنفس ؛ لأن الإنسان في مثل هذه الحالة يغفل عن العقوبة الأجلية بالشهوة العابرة العاجلة .

وهكذا نرى أن الذي يخون الناس إنما يخون - خشناً - مصلحة نفسه . وإذا ما خان الإنسان نفسه فهذا ليس سهلاً ويطلب احتمالاً ، ولذلك يقول الحق : « وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّافًا أَشِيمًا »

والآية التي تحدثت من قبل ذلك عن هذا الموقف لم تأت بكلمة « خوائين » ولكن جاءت بالخائنين ، وهنا يأتي الحق بكلمة خَوَّانٍ . وفيه فرق بين « خائن » ، و« خَوَّان » ، فـ« خائن » تصلر منه الحياة مرة واحدة ، أما الخَوَّان فتصلر منه الحياة



مراراً . أو يكون المعنى هو : أن الخائن تصدر منه الخيانة في أمر يسير صغير ، أما الخوأن فتصدر منه الخيانة في أمر كبير . إذن . فمرة ثلث المبالغة في تكرير الفعل ، وأخرى في تضخيم الفعل .

ومن لطف الله أنه لم يقل « حائن » ؛ لأن الخائن هو من خان مرة عابرة وانتهى الأمر ، ولم يخرج الله عن دائرة السر إلا إذا اتخذ الخيانة طبعاً وعادة وحرفة . وقد جاءت لسيدنا عمر - رضي الله عنه - امرأة أخذت ولدها بسرقة ، وأراد عمر - رضي الله عنه - أن يقيم على ذلك الولد الحد ، فبكت الأم قائلة : يا أمير المؤمنين والله ما فعل هذا إلا هذه المرة . قال عمر : كذبت . والله ما كان الله ليأخذ عبداً بأول مرة .

ولذلك يقولون : إذا حرفت في رجل سيئة انكشفت وصارت واضحة . فلتعلم أن لها أخوات ، فله لا يمكن أن يفضح أول سيئة ؛ لأنه سبحانه يجب أن يستر عباده ، لذلك يستر العبد مرة وثانية ، ثم يستر العبد في السيئة فيفضحها الله : « إن الله لا يحب من كان خواراً أثياً » ، والإثم أظنع المعاصي . والقوم الذين ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستشفوا عنه لابن أبيرق لكي يحكم له الرسول ضد اليهودي ، لماذا صنعوا ذلك ؟ لأنهم استظفروا أن يفضح أمر مسلم ويرا يهودي ، استحيوا أن يحدث هذا ، وعالج القرآن هذه القضية وذلك ليأتي بالحشية التي دعتهم إلى أن يفعلوا هذا ويقص على مثل هذا الفعل من أساسه ، فقال :

﴿ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ
وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ
اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾

إنهم يطلبون البراءة أمام الناس في أن « طعمه » لم يفعل السرقة ، ولكن هل يملك الناس ما يملكه الله عنهم ؟ . إنه سبحانه أحق بذلك من الناس . فإذا كنتم تريدون

التسمية في قضاء الأرض ملزمتهم على قضاء السماء . وهذه القصيدة يجب أن تحكم حركة المؤنس ، فإذا ما فكر إنسان مسروب إلى الإسلام أن يفعل شيئاً يعضب الله عليه أن يفكر : أنا لو فعلت ذلك لفضحت نفسي أو فضحت ولدي أو مضحت أسرى أو فضحت المسلمين ، وعلى الإنسان المسلم ألا يخشى الناس إن فعل أخ له شيئاً يهين المسلمين ، بل عليه أن يأخذ على يديه ويردّه عن فعله . ونقول لمن يستتر عن الناس : أنت استخفيت من الناس ، ولم تستخف من الله ؛ لذلك قأنت غير مأمون على ولاية .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » ، وكلمة « معهم » هذه تريد أن تحمل المؤمن مصداقاً أن الله لا تخفى عليه خافية ، إنه من الممكن أن يستتر الشخص عن الناس ، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يستتر عن الله ؛ لأن الله مع كل إنسان في الخفية والجلوة والسر والعلن . فإن قلد واحد على الاستخفاء من الناس فهو لن يفلت على الاستخفاء من الله .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » إذ يبينون ما لا يرضى من القول « وبيت » أي أنه يفعل أمره في الليل ؛ لأن الناس كانت قلجاً إلى بيوتهم في الليل ، ومعنى « بيت » أن يصبح مكيدة في البيت ليلاً ، وكل تدبير يخفيه اسمه « بيت » حتى ولو كان في وضوح النهار ، ولا بيت إنسان في خفاء إلا رغبة منه في أن ينقض عنه عيون الرائيين . فنقول له : أنت تنقض العيون التي مثلك ، لكن العيون الأزلية وهي عيون الحق فلن تقدر عليها

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾

(سورة النساء)

حين نسمع كلمة « محيط » فلنعلم أن الإحاطة هي تطويق المحيط للمحاط ، بحيث لا يستطيع أن يفلت منه علماً بحاله التي هو عليها ولا قدرة على أن يفلت منه ما لا وعاقبة ، فهو سبحانه محيط علماً لأنه هو الذي لا تخفى عليه خافية ، ومحيط قدرة فلا يستطيع أن يفلت أحد منه إلى الخارج . وسبحانه محيط علماً بكل جزئيات الكون وتفاصيله وهو القادر فوق كل شيء . فإذا ما سمعنا كلمة « محيط » فممتناها أن



الحق سبحانه وتعالى يحيط ما يحيط به عبداً بكل جزئياته فلا تستطيع جزئية أن تهرب من علم الحق . وسبحانه يحيط بكل شيء قدرة فلا يستطيع أن يفلت من ماله شيء من الجراء الحق .

وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا :

﴿ هَآأَنَآ أَنْتُمْ هَآؤِلَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ
الدُّنْيَا فَمَن يُجَدِّلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَم
مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

والذي جادل من ابن أبيرق كان يريد أن يجرى مساحته أمام الناس ويدين اليهودي ، وفي أنه قد جادل أمام بشر عن شر ، فهل تنتهي المسألة بهذا اليسر ؟ لا ، لأن الدنيا ليست دار جزاء . وهب أنه أفلت من العقوبة البشرية ، أفلت من عقوبة الله في الآخرة ؟ لا ، إذن فالذي يجادل يريد أن يعصى على قضاء الأرض ، ولن يستطيع أن يعصى حل قضاء الحق ، ولن يجد من يجادل عن مثل هذا الخطأ يوم القيامة . وليس هذا فقط ، ولكن الحق ينبل الآية : ألم من يكون عليهم وكيلاً ؟ أى فمن إذن يستطيع أن يكون وكيلاً عن هؤلاء يوم القيامة ؟ . ونعرف أن الوكيل هو الشخص الملقب الذي يختاره بعض الناس ليكون قادراً على إقناع من أمامه . فمن يستطيع أن يقوم بذلك العمل أمام الله ؟ لا أحد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ
اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

وسبحانه وتعالى حينما خلق الخلق جعلهم أهل أهوار ، لذلك لم يشأ أن يخرج مذنباً بلذنب عن دائرة قلبه ورحمته ، بل إنه - سبحانه - شرع التوبة للذنوب حماية للمجتمع من استئراء شره . فلو خرج كل من ارتكب ذنباً من رحمة الله ، فسوف يمان المجتمع من شرود مثل هذا الإنسان ، ويصبح كل عمله نقمة مستطيرة الشر على المجتمع إذن فالتوبة من الله ، مشروعية وقبولة ، إنما هي حماية للبشر من شراسة من يصنع أول ذنب . وهكذا جاءت التوبة لتحمي الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة .

إن الذين وقفوا في محاولة تبرئة « ابن أبيرق » انقسموا إلى قسمين : قسم في بآله أن يرى « ابن أبيرق » ، وقسم في بآله ألا يفضح مسلماً . وكل من القسمين قد أذنب . ولكن هل يخرجهم هذا الذنب من رحمة الله ؟ لا ، فسبحانه يقول : « يجد الله عفورا رحيماً » والحق يعفو عن تلك المسألة . إن القسمين جميعا أصبحوا مطالبين بعمل طيب بعد أن أوضح لهم الرسول ، وفهموا مراد الحق . وسبحانه يفيهم في الصف الإيماني ، وقد حكم رسول الله عن « ابن أبيرق » لصالح اليهودي ، وبعد ذلك ارتد « ابن أبيرق » ، ودعب إلى مكة مصاحباً لإمادة الخيانة ، فقتب حائطا على رجل ليسرق محتاه فوقع الحائط عليه فهاك .

والحق سبحانه يضح المعايير ، فمن يرتكب ذنباً أو يظلم نفسه بخطيئة ثم يستغفر الله يجد الله عفورا رحيماً . ونلاحظ أن بعض السطحيين لا يفهمون جيداً قول الحق : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله عفورا رحيماً » يتساءلون : أليس الذي ارتكب العمل السيء قد ظلم نفسه ؟

ونقول : إن دقة القرآن توضح لنا المعنى ، بمعنى عمل سوءا أضرب هذا العمل آخرين ، إنه خير الذي ارتكب شيئاً يضر به نفسه فقط ، فالذي سرق أو قتل أو اعتدى على آخر قطعاً أو ضرباً أو إهانة ، مثل هذه الأفعال هي ارتكاب للسوء ، فالسوء هو عمل يكرهه الناس ، ويقال : فلان رجل سوء ، أي يلتقي الناس بما يكرهون .

لكن الذي يشرب الخمر قد يكون في عزلة عن الناس لم يرتكب إساءة إلى أحد ،

لكنه ظلم نفسه ، لأن الإنسان المسلم مطلوب منه الولاية على نفسه أيضاً ، والمنهج يحبس المسلم حتى من نفسه ، ويحسب النفس من صاحبها ، بذليل أننا نأخذ من يقتل غيره بالمقوية ، وكذلك يحرم الله من الجنة من قتل نفسه انتحاراً .

وهكذا يرى حاية المنهج للإنسان وكيف تحوطه من كل الجهات ، لأن الإنسان فرد من كون الله ، والحق يطلب من كل فرد أن يحسب نفسه . فإن صنع سواء أى أضر بشيره ، فهذا اسمه «سوء» . أما حين يصنع فعلاً يضر نفسه فهذا ظلم النفس :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ عَمَلُوا غُلُوبًا اتَّبَعُوا نَجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَاسْتَفْقَرُوا لَهُمْ دُفْعًا ۚ وَمَنْ يُعْرِضْ الذُّرْبَ إِلَّا اللَّهَ وَلِيُصِرُوا عَلَىٰ فَعْلِهِمْ وَأَهُمْ يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهل فعل الفاحشة مخالف لظلم النفس ؟ إنه إسداء لغيره أيضاً ، لكن ظلم النفس هو الفعل الذي يسيء إلى النفس وحدها . أو أن الإنسان يصنع سيئة ويمتنع نفسه بها لحظة من اللحظات ولا يستحضر عقوبتها الشديدة في الآخرة . وقد عهد إنساناً يرتكب المعصية ليحقق لغيره منة ، مثال ذلك شاهد الزور الذي يعطى حق إنسان لإنسان آخر ولم يأخذ شيئاً لنفسه ، بل باع دينه بدينه غيره ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« يأتونوا بالأعمال متكون فتنة كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمس كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض الدنيا » (١) .

« ومن يعمل سريرة أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله فقيراً رحيماً » والله غفور رحيم أولاً وثانياً ، والعبد الثائب يرى مغفرة الله ورحمته

ويقول الحق من بعد ذلك :

(١) رواه مسلم والترمذي وأحمد .

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٣﴾

ويورد الحق كلمة « كسب » عندما يتناول أمراً خيراً فعلة الإنسان ، ويصف ارتكاب الفعل السيء بـ « اكتسب » ، لماذا ؟ لأن فعل الخير عملية فطرية في الإنسان لا يستحي منه ، لكن الشر دائماً هو عملية يستحي منها الإنسان ، لذلك يجب أن يقوم بها في خفية ، وتحتاج إلى اتصال من الإنسان .

ولنضرب هذا المثل بالإيضاح - والله المثل الأعلى - نحن نجد الرجل ينظر إلى وصاة زوجته بكل ملكاته ، لكنه لو نظر إلى واحدة أخرى من غير عارفه فهو يقوم بعملية الخداع ملكات النفس حتى يتلصص ليرى هذه المرأة . ويحاول التحايل والافتعال ليتلصص على ما ليس له . ولذلك يقال عن الخلال : إنه « كسب » ويقال عن الحرام : إنه « اكتساب » .

فلذا ما جاء القرآن للبيئة وقال : « كسب سيئة » فهذا أمر يستحق الانتباه ، فالإنسان قد يعمل السيئة ويتم عليها بمجرد الانتهاء منها إن كان من أهل الخير ، ونجده يربح نفسه ويلومها ويحرم على ألا يعود إليها . لكن لو ارتكب واحد سيئة وسعد بذلك وكأنها حققت له كسباً ويفخر بها متناسياً الخطر الجسيم الذي سوف يواجهه يوم القيامة وللعصير الأسود ، وهو حين يفخر بالمعصية في ذلك إعلان عن فساد الفطرة ، وسيادة الفجور في أحباقه ، وهو يختلف من ذلك الذي تقع عليه المعصية ولحظة ما يتذكرها يتشعر بدنه ويستغفر الله .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » فإياك أيها الإنسان أن تظن أنك حين تظلم أحداً بعمل سوء قد كسبت الدنيا ، والله لو علم الظالم ماذا أعد الله للمظلوم لضمن على عدوه أن يظلمه . واضرب هذا المثل للإيضاح - والله المثل الأعلى دائماً - هب أن رجلاً له ولدان . وجاء ولد منها وضرب أخاه أو خطف منه شيئاً يملكه ، ورأى الأب هذا الحادث ، فلين يكون قلب الأب ومع من يكون ؟

إن الأب يتف مع المظلوم ، ويحاول أن يرضيه ، فإن كان الأخ الظالم قد أخذ منه شيئاً يساوى عشرة قروش ، فالأب يعرض الابن المظلوم بشيء يساوى مائة قرش .
ويعيش الظالم في حسرة ، ولو علم أن والده سيكرم أخاه المظلوم لما ظلمه أبداً . إذن فالظالم قمة من قمم الخباء .

ومن ضمن المفارقات التي تروى مفارقة تقول : إن كنت ولا بد معتاباً فاختب أبوك . ولا بد أن يقول السامع لذلك : وكيف اختب أبى وأمى ؟ فيقول صاحب المفارقة : إن والدك أولى بحسناتك ، بدلاً من أن تعطى حسناتك لعنوك ، ابعدت ممن تحبهم وأعطتهم حسناتك . وحيثية ذلك هي . لا تكن أيها المعتاب أحق لك لا تختب إلا عن عداوة ، وكيف تعطى لعنوك حسناتك وهي نتيجة أعمالك ؟

ونعرف ما فعله سيدنا الحسن البصري ، عندما بلغه أن واحداً قد اختابه . فإرسل إلى المعتاب طبقاً من البلع الرطب مع رسول ، وقال للرسول : اذهب بهذا الطبق إلى فلان وقل له : بلغ سيدى أنك اعتبت بالأمس فأهديت له حسناتك ، وحسناتك بلاشك ألتمن من هذا الرطب . وفي هذا إيضاح كاف لثم الغيبة .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً » ونعلم أنه إذا جاءت أى صفة من صفات الحق « داخلية » صورة كينونة أى مسبوقه - كان ، فليأتم أن تأخذوا « كان » على أنها وصف لما حدث في زمن ماضٍ ، ولكن لتقل « كان ومازال » . لماذا ؟ لأن الله كان أولاً ، فهو غفور رحيم قبل أن يوجد مفعول له لو مرحوم ، فإنه ليس من أهل الأخيار ، والصفات ثابتة له ، لأن الزمن في الأحداث يتغير بالنسبة للأخيار فقط ، وعلى سبيل المثال نجد الواحد من البشر صحيحاً في زمن ومريضاً في زمن آخر .

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضي إلا أصحاب الأخيار . وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا في أصحاب الأخيار . وما دام الله هو الذي يغير ولا يتغير فلن يغيره زمن ما ، بل كان في الأزل غفوراً رحيماً ، ولا يزال أيضاً غفوراً رحيماً . وكذلك كان علم الله أزلياً وحكمته لا حدود لها .

ويعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا
فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾

قالوا : إن الخطيئة هي الشيء غير المتعمد ، مثال ذلك حين نعلم التلميذ قاعدة من قواعد النحو ، ثم نطلب منه أن يطالع نصاً من النصوص ، وننتفت لنجد التلميذ قد نصب الفاعل ورفع المفعول ، ونصحح له الخطأ ، إنه لم يتعمده ، بل نسي القاعدة ولم يستحضرها . ونطل نصحيح له الخطأ إلى أن يتذكر القاعدة استحوية ، وبالتدريج يصبح الإعراب ملكة عند التلميذ فلا يخطئ .

والخطيئة - إذن - هي الخطأ غير المتعمد . أما الإثم فهو الأمر المتعمد . فكيف إذا رمى واحد غيره بإثم ارتكبه أو خطيئة ارتكبها هو . . ما حكم الله في ذلك ؟

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾

(سورة النساء)

لقد ارتكب الخطيئة أو الإثم ، وباليه اكتمل بهذا ، لا ، بل يريد أن يصعد الجريمة بارتكاب جريمة ثالثة وذلك بأن يرمى بالخطيئة أو الإثم بريئاً ، إن إثمه مركب ، ولذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » واستخدام الحق هنا لكلمة « احتمل » وليس « حل » ، نؤكد لنا أن هالك علاجاً ومكابدة وشدة ليحمل الإنسان هذا الشيء الثقيل ، فالجريمة جريمتان وليست واحدة ، لقد فعل الخطيئة ورمى بها بريئاً ، وفعل الخطيئة يندم هل فعلها مرة ، ويندم أيضاً على الصاقها بغيره ، إذن فهي حل هل أكتابه . ونعلم أن الإنسان ساعة يقع أسير صغار العداوة ، يهون عليه أن يصنع العصية ، ولكن بعد أن يبدأ صغار العداوة فالندم يأتيه . قال الحق :

﴿وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ أَبِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قُرْبًا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَهُ يُتَقَبَّلُ مِنَ
الْآخَرِ قَالَ لَا تُنْسِكُ قَالَ إِنَّمَا يَنْتَقِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَعَبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(سورة المائدة)

هابيل - إيدن - يسأل قابيل : وما ذنبي أنا في ذلك ، إن الله هو الذي يقبل القربان
وليس أما فلاناً فقلني ؟

ويستمر القول الحكيم :

﴿لَنْ يَسْعَتْ إِلَىٰ بَدَايَةِ تَقَاتُلِي مَا أَنَا بِسَلِيطٍ بِدَىٰ إِلَيْكَ لِأَقْتُلُكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(سورة المائدة)

وماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(سورة المائدة)

كأن مسألة القتل كانت عملية شاقة وليست سهلة ، وأخذت مغالية . وعلى سبيل
المثال : لن يقول أحد : « لقد طرعت الحبل » ولكن هناك من يقول : « أنا طرعت
الحديد » وسعار الغضب جعل قابيل ينسى كل شيء وقت الجريمة ، وبعد أن
ونعت ، وهذا سعار الغضب الذي ستر موارين القيم ، هنا ظهرت موازين القيم
ناصعة في النفس

ولذلك نجد من يرتكب جريمة ما ، ويتجه بعد ذلك لتسليم نفسه إلى الشرطة ،
وهو يفعل ذلك لأن سعار الجريمة انتهى وظهر ضوء موازين القيم ساطعاً . وعلى ذلك
نعمهم قول الحق . « فقد احتمل هتاناً وإثناً مبيناً » .

وهذا يدل على أن من يصنع جريمة ثم يرمى البريء بالإثم إنما يرتكب خطيئاً
يتطلب مثاقفة وتنازحه نفسه مرة بالدم ، لأنه فعل الجريمة ، وتنازحه نفسه مرة ثانية
لأنه رمى بريئاً بالجريمة ، لذلك قال الحق . « فقد احتمل هتاناً وإثناً مبيناً » وساعة

سمع كلمة « بهتان » فهي مأخوذة من مادة « بهت » . والبهتان هو الأمر الذي يتعجب من صدوره من فاعله . مثال ذلك قوله الحق في شرح قصة سيدنا إبراهيم مع النمرود ، حيث يقول سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِيَهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

فإذا كان موقف الرجل ؟

﴿ فَهِيَ الْآلِي كَفَر ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أي أنه سمع شيئاً عجبياً يخبره عن أن يتكلم ، فقد جاء له سيدنا إبراهيم بأمر عجيب لا يخطر على باله ، ولا يستطيع أن يجد منه مفرأ ، فكان الأمور المحالمة لخلق الحق والمطلوب القيم أمور غريبة عن الناس إنها هي البهتان ، والدليل على ذلك أنها أمور يستتر فاعلها عن الناس .

وإذا ما نظرنا إلى القضية التي نزلت الآية بسببها وجدنا أن سارقاً سرق وأراد أن يبرئ نفسه وأن يدخل في الجريمة بريئاً . ويلصقها به ، وأن يرتكب المجرم الجريمة فهذا يحمته إثمأ . أما أن ينقل الجريمة إلى سواء هذا يدل على وجود طاقة أخرى حتى يحمي ما فعله ، وهذا صعب على النفس ، ولا يتعجب أحد لسماع شيء . لا إذا كان هذا الشيء مخالفاً لما هو مأثور ومعروف . وإن في الحوار بين سيدنا إبراهيم والنمرود لدليلاً واضحاً وناضحاً ، فعندما قال النمرود :

﴿ أَنَا أَخْبَرُ وَلَيْتَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

قصد بذلك قدرته على أن يقتل إنساناً ، ويترك إنساناً آخر لمسهة . وهنا عاجله سيدنا إبراهيم بالقضية التي نبهته ولا يدخل فيها هذا التهاكك اللفظي . فقال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِيَهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَهِيَ الْآلِي كَفَر ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى أن النمرود سمع قولاً عجيباً وليس هذه من الذكاء ما يحتاط به إلى دفعه ، وكذلك الرجل الذى صنع الخربة ثم رمى بها غيره احتاج إلى طاقة تتحمل هذا ، مما يدل على أن العطرة السليمة كارهة لفعل القبيح . فإذا ما فعل الإنسان دنياً فقد حمل بهتاناً ، وإذا ما عدى ذلك إلى أن يجعله إلى برىء ، فذلك يعنى أن الأمر يحتاج إلى طاقة أخرى .

إذن فقوله الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » أى أنه احتمل أمراً صعباً يهت السامع ويتعجب كيف حدث ذلك . ويحتمل من يفعل ذلك الإثم أيضاً .

. والإثم - كما عرفنا - هو السيئة المستندة . ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه القضية - إن الله سبحانه وتعالى يحيطك يا محمد بعنايته وبرعايته وينظرك ، وإن حاول بعض من قليلي الإيمان أن يخرجوك عن هذه المسألة ، وأن يزعموا لك أن نبريء مذنباً لتجرم آخر برئاً وإن كان المذنب مسلماً وإن كان البريء غير مسلم ، والله لم يرسل محمداً ليحكم بين المؤمنين فقط ، ولكن صدر هذه الآية بوضع لنا أن الله أرسل رسوله ليحكم باحق : « لتحكم بين الناس » أى ليحكم بين الناس على إطلاعهم . فإياك حين تحكم أن تقول : هذا مسلم وذلك كافر أو تقول : هذا مسلم وذلك من أهل الكتاب ، بل كل الناس أمام قصايا الحق سواء .

ولذلك أخذ لرسول صلى الله عليه وسلم تلك الجرعة الإيمانية التي جاءت بها حادثة من الحوادث ليقول بعد ذلك في قصة المخزومية حينما سرقت ولراد أن يفهم عليها الحد ، وكلمه حبيب أسامة بن زيد في أن يرفع عنها الحد ، فقال رسول الله :

« عاتشة رضى الله عنها أن قریشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجرد عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب فقال : « أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإن سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت محمد يدها » (١)

هذا القول مستخلص من القضية السابقة . ويفوق سبحانه وتعالى .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ
طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ
إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ
عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ
تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ١١٢

وهنا تتساءل : هل هم أحد بإضلال رسول الله ؟ علينا أن نفهم أن و لهم
نوحان : هم إنقاذ ، وهم تزيين . وقد رفض رسول الله هم الإنقاذ ، ودفعه الله عنه
لأنه سبحانه وتعالى يحوط رسوله بفضله ورحمته ويأتي بالأحداث ليعلمه حكماً
جديداً . وفضل الله على رسوله ورحمته جعل لهم منهم هم تزيين فقط وحفظ الله
رسوله منه أيضاً . وعندما تعلم الرسول هذا الحكم الجديد ، صار يقضي به من بعد
ذلك في كل قضايا الناس . فإذا ما جاء حدث من الأحداث وجاء له حكم من السماء
لم يكن يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالفضل لله لأنه يزيد رسوله تعليماً

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النمل)
وكان قصد الذين دافعوا عن « ابن أبيرق » أن يزينوا لرسول الله ، وهذا هو هم
التزيين لا هم الإنقاذ . وكان الهدف من التزيين أن يضرروا الرسول ويضلوه والعيذ
بالله ، ليأخذوه إلى غير طريق الحق وغير طريق الهدى ، وهذا أمر يضر رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فهو أن رسول الله يرى المذهب الذي يعلم أنه مذهب لا يستقر في
ذهن المذهب أن قضايا الدين ليست جادة ، أما البريء الذي كان مظلوماً أن يديه
رسول الله ماذا يكون موقفه ؟ لا بد أن يقول نفسه . إن دين محمد لا صدق فيه لأنه
يعاقب بريئاً . إذن فهم التزيين يضر بالرسول عبد المبرأ وعند من يراد إلصاق الجريمة

به . لكن الله سبحانه يرسله بالمفصل وبالرحمة عن هذا أيضا
 ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ مِنْهُمْ أَنْ يُصَلُّوكَ وَمَا يُصَلُّونَ إِلَّا أَنْعَمَهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ
 وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

(من الآية ١١٤ سورة النساء)

لقد أنزل الحق كتاباً ليفصل في القضية ويرول الحكم بعد وقوع تلك الحادثة ، بما
 جاء ليبين صمن ما يبين سر نزول القرآن مجيئاً ، لأن القرآن يعالج أحداثاً وفعيية ،
 فيترك الأمر إلى أن يقع الحدث ثم يصب على الحدث حكم الله الذي يرسل من السماء
 وقت حدوث الحدث ، وإلا كيف يعالج القرآن الأحداث لو نزل مرة واحدة بينما
 الأحداث لم تقع ؟ لذلك أراد الله أن تنزل الأحداث أولاً ثم يأتي الحكم وقد سين
 أن قال الكفار :

﴿يَوَلَّا نَرَىٰ عَلَيْهِ الْفُرْءَانُ بِجُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الفرقان)

لا ، فقد أراد الله القرآن مجيئاً ومتفرقاً ومقسطاً لماذا ؟

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾

(من الآية ٣٦ سورة الفرقان)

فكلما حدثت هزة للنفوس في اللبد والخصومة الشديدة ومن العباد الذي كان عليه
 الكفر وردد لهم للحق - وهم يعرفونه كما يعرفون آبائهم - ينزل نجم من القرآن ،
 وفي شعب البشر مع الرسول تنزل رحمة السماء تثبت الفؤاد ، فإن تعب الفؤاد من
 شعب الناس ، آيات اتصال الرسول بالسماء وبالنوحى تسبى عنه هذه المتاعب
 ورسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الدعوة كانت تحدث له كل يوم هزات ،
 لذلك كان في كل لحظة يحتاج إلى تثبيت . وعندما ينزل النجم القرآني بعد العراك مع
 الخصوم فإن حللوا النجم القرآني تهوون عليه لأمر ، وإذ ما جاء للرسول صلى الله
 عليه وسلم أمر آخر يعكر صفوه ، فهو يتظر حللوه النوحى لتتزل عليه ، وهذا معنى
 قوله الحق

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الفرقان)

أى أنزلناه متجهاً لتثبت به فؤادك . ولو نزل القرآن جملة واحدة لفلل من مرات اتصال السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يريد مداومة اتصال السماء به . بدليل أن الوحي عندما فتر جلس الرسول يطالع إلى السماء ويتشوق . لماذا ؟ ففى بداية النزول أرفقه الوحي ، لذلك قال الرسول : « فضمنى إليه حتى بلغ منى الجهد » (١)

ورأه خديجة - رضى الله عنها - (وإن جبينه ليتفصد عرقاً) فأتصل جبريل بملكه ونورانيته برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بشرته لا بد أن يحدث تغييراً كيميائياً فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الخارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . يا رسول الله كيف أتيتك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » (٢)

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يواجه المتاعب وأراد الله بفترة الوحي أن يحس محمد حلاوة الوحي الذى نزل إليه ، وأن يشتاق إليه ، فالشوق يعين الرسول على تحمل متاعب الوحي عندما يحى . ، ولذلك نجد أن عملية تفصد العرق لم تستمر كثيراً ، لأن الحق قال :

﴿ وَلَئِنَّكَ لَمِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن الحق أصبح لرسوله : إنك ستجد شوقاً وحلاوة ولذة فى أن تستقبل هذه الأشياء .

(١) روى البخارى فى كتاب بدء الوحي

(٢) روى البخارى فى كتاب بدء الوحي

﴿كَذَلِكَ يُنْشِئُ فِيهِ فُؤَادَكَ وَرَبَّنَا تَرْتِيلًا﴾

(من الآية ٣١ سورة الفرقان)

وهكذا كان القرآن ينزل منجياً ، على فترات ، ويسمع الصحابة عدداً من آيات القرآن . ويحفظونها ويكتبونها كُتُبُ الرُوحى ، وبعد ذلك تاتي معجزة أخرى من معجزات القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنزل سورة كاملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن يسرى عنه يقول للكتابة : اكتبوا هذه . ويرتب رسول الله الآيات بموافعها من السورة . ثم يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة في الصلاة ويسمع المصلون الترتيل الذي تكون فيه كل آية في موقعها ، وهذا دليل على أن المسألة مدروسة دراسة دقيقة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يحكى إنما يحكى صدقاً .

وَالَا فَقُولُوا لِي . كيف ينزل الوحي على رسول الله بسورة بأكملها ويملأها للكتابة ، ثم يقرأها في الصلاة كما نزلت وكما كتبها أصحابه ، كيف يحدث ذلك إن لم يكن ما نزل عليه صدقاً كاملاً من عند الله ؟ ونحن قد نجد إنساناً يتكلم لمدة ربع ساعة ، لكن لو قلنا له : أعد ما تكلمت به فلن يعيد أبداً الكلمات نفسها ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الآيات كما نزلت . مما يدل على أنه يقرأ كتاب الله المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنه تنزيل من حكيم حميد . ولذلك يقول الحق :

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

(سورة الحديد)

أي لا يأتونك بمحاكاة تحدث إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً فيها . إذن لم يكن للقرآن أن ينزل منجياً إلا ليشت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تنابع الهوام التي يتعرض لها ، وأراد الله أن يشر اتصال السماء برسول الله صلى الله عليه وسلم على الثلاثة والعشرين عاماً التي استغرقتها الرسالة .

والترتيل هو التنجيم والتفريق الذي ينزل به القرآن فيقرأه الرسول في الصلاة مثلاً نزل عليه قبل ذلك دون تحريف أو تبديل ، والحق يقول :

﴿ سَقِرْفُكَ فَلَا تَدْسِقْ ﴾ ①

(سورة لاهل)

وكل حادثة تحدث ينزل لها ما يناسبها من القرآن . كما حدثت حادثة سرقة دس
أبيري فزل فيها الحكم والحق بقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله
عليك عظيماً »

فإذا ما علمك الله - يا رسول الله - ما لم تكن تعلم بزول الكتاب ، فهل أنت
يا سيدي يا رسول الله مشرع فقط بما نزل من الكتاب ؟ لا ، فالكتاب معجزة وفيه
أصول المنهج الإيماني ، ولكن الله مع ذلك هوذا رسول الله عليه وسلم أن
يشرع ، وتلك هبة لم تكن لرسول قبله ، بدليل قوله الحق -

﴿ وَمَا أَسْكُرُ الرُّسُولَ فُطْرُوهُ وَمَا نَهَكَرُ عَنْهُ فَأَتَّبُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة المشر)

فالرسل من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم يتناولون ما أخذوه عن الله ، ويميز
سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم بتفويض التشريع . وأوضح الحق أنه علّم رسوله
الكتاب والحكمة ، والحكمة مقصود بها السنة ، فسبحانه القائل

﴿ وَأَذْكُرْ مَا يَنْتَلِي فِي يَوْمِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وسبحانه صاحب الفضل على كل الخلق وصاحب الفضل على رسوله : « وأنزل
الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً »
ولما أن نلاحظ أن فضل الله « تكرر في هذه الآية مرتين . ففضل الله الأول في هذه
الآية أنه خصه من أن تفضله طائفة وتنتهي به عن الحق ، ثم كان فضل الله عليه ثانياً
أنه أنزل عليه الكتاب بكل أحكامه وأعطاه الحكمة وهي التفويض من الله لرسوله أن
يشرع . إذن فالحق سبحانه وتعالى جعل من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم امتداداً
لوحيه . ولذلك إذا قيل من قوم يحاولون التشكيك في حديث رسول الله : إن الصلاة
لم تأت في القرآن .

نقول سائين الواحد منهم : هل تؤدي الصلاة أم لا ؟

فيقول : إني أصلي ..

فيقول له : كم فرضاً تصل ؟

فيقول : خمسة فروض .

فيقول : هات هذه الفروض الخمسة من القرآن . وسوف يصيبه البهت ، وسيلتبس عليه أمر تحديد الصبح بركعتين والظهر بأربع ركعات ، والعصر بثلاث ، والمغرب بثلاث ، والعشاء بأربع ركعات . وسيعترف أخيراً أنه يصل على ضوء قول الرسول : (صلوا كما رأيتموني أصلي)^(١) وهذه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » ، وقد نجد واحداً من أهل السطحية واللباجة يقول : القرآن يكرر الكلمات في أكثر من موقع ، ولماذا يذكر فضل الله في صدر هذه الآية ، ويذكره مرة أخرى في ذيل نفس الآية ؟

نقول : أنت لم تلاحظ فضل الله في الجزئية الأولى لأنه أنقذ رسوله من همّ التزيين بالحكم على واحد من أهل الكتاب ظليماً ، وفي الجزئية الثانية هو فضل في الإمام بأنه علم رسوله الكتاب والحكمة وكان هذا الفضل عظيماً حقاً

وساعة يذهب هؤلاء الناس ليحدثوا الرسول في أمر طعمة ابن أبيرق ، ألم يجلسوا معاً ليتدارسوا كيف يقلت طعمة بن أبيرق من الجرمية ؟

لقد قاموا بالتداول فيما بينهم لأمر طعمة واففقوا على أن يذهبوا للرسول ، فكانت الصلة قريبة من السجوى . ولذلك حرص أدب الإسلام على أن يحترم كرامة كل جليس ثالث مع اثنين فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ؛ لأن ذلك يحزنه .

وقد يكون الأمر جاثراً لو كان المجلس أربعة ، فواحد يتحدث مع آخر ، وهناك يستطيع اثنان أن يتناجيا . إذن فالسجوى معناها المسألة ، والمسألة لا تكون إلا عن أمر لا يحبون أن يشيع ، وقد فعل القوم ذلك قبل أن يذهبوا إلى لرسول ليكلموا عن

(١) رواه البخاري والبيهقي في المسند الكبير

حادثة طحمة بن أبيرق ، ولذلك يوضح الحق أمر هذه النجوى ، فيقول القول
الحق :

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ
وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤)

وسبحانه يوضح أمر هذه النجوى التي تحمل التبييت للإضلال ، ولكن ماذا إن
كانت النجوى لتحين على حق ؟ إنه سبحانه يستثنى هنا ، لذلك لم يصدر حكماً
جائزاً ضد كل نجوى ، واستثنى منها نجوى من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين
الناس ، بل ويهزى عليها حسن الثواب . لذلك قال : « ومن يفعل ذلك ابتغاء
مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . ويستخدم الحق هنا كلمة « سوف » ، وكان
من الممكن أن يأتى القول « فسؤتيه أجراً عظيماً » لكن لدقة الأداء القرآنى البالغة
جاءت بأبعد المسافات وهى « سوف » .

ونعرف أن جواب شرط الفعل إذا ما جاء على مسافة قريبة فنحن نستخدم
« السين » ، وإذا ما جاء جواب الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم « سوف » .
وجاء الحق هنا بـ « سوف » لأن مناط الجزاء هو الآخرة ، فإليك أيها العبد المؤمن أن
تقول : لماذا لم يعطى الله الجزاء على العطيء فى الدنيا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم
يقبل : « فسؤتيه » ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » بما يدل على أن الفضل
والإكرام من الله ، وإن كان عاجلاً ليس هو الجزاء على هذا العمل ، لأن جزاء الحق
لعباده المؤمنين سيكون كبيراً ، ولا يدل على هذا الجزاء فى الآخرة إلا « سوف » .
ونعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين هى أمته الإيمانية بشىء فهو ينها
بالآخرة ، ولتنظر إلى بهمة العقبة عندما جاء الأنصار من المدينة لمبايعة رسول الله :

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله عصاية من أصحابه : يا أيها الذين آمنوا لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بيهتان فتفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف ، فمن وفى منكم فأجره من الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كغمار له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه^(١) .

لقد انحلت نفسك يا رسول الله ونحن نريد أن نأخذ لأنفسنا ، ماذا لنا إن نحن وفينا بهذا ؟ ولتر عظيمة الجواب والهامية الرد ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم :
(لكم الجنة)

كان في استطاعة رسول الله أن يقول لهم : إنكم ستتصرون وإنكم ستأخذون مشارق الأرض ومغاربها وسيأتى لكم خير البلاد الإسلامية كلها . لكنه بحكمته لم يقل ذلك أبداً فقد يستشهد واحد منهم في قتال من أجل نصرته دين الله ، فإذا سيأخذ في الدنيا ؟ . إنه لن يأخذ حظه من التكريم في الدنيا ، ولكنه سيأخذ الجزاء في الآخرة . لذلك جاء بالجزاء الذي سيضمن الكس ، وهو الجنة ليذهب على أن الدنيا أمانة من أن يكون جزاء الله محصوراً فيها ، ويحضر كل المؤمنين من أن يطلبوا جزاء الآخرة ، ونعلم جميعاً هذه الحكاية ، ونجد رجلاً يقول لصاحبه : أعجبني ؟ فأجاب صاحب : نعم أعجبك . فسأل السائل : على أى قدر تحبني ؟ قال صاحب : قدر الدنيا . أجاب الرجل : ما أتعجبني حثلك !!

يقول الحق : « ومن يفعل ذلك ابتغاه مرضيت الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » ومن صاحب « نؤتيه » والماعل لهذا المطاء ؟ إنه الحق سبحانه وتعالى الذى وصف الأجر بأنه أجر عظيم . وكان الحق يبلغنا :

- يا معشر الأمة الإيمانية اتبعوا بمنهج رسول الله وامتزجوا به تتكبروا معه شيئاً واحداً . ولما كنتم أن يكون لكم رأى منفصل عن المنهج ؟ فهو مبلغ عن الله ، فمن آمن به فليكنتم به . ولذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - ساعة

حدثوه في حكاية الإسراء والمعراج بجده يسأل محدثه : أقال رسول الله ما قلتموه . ؟ فيقولون : بلى ، لقد قال فبرد عليهم الصديق : إن كان قال فقد صدق ، فالصديق أبوبكر لا يحتاج إلى دليل هل صدق ما قال رسول الله .

وبلى الحق بالمقابل فيقول :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ
الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَاهُ مَا قَوْلُ
وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١٦٥﴾

وكلمة « يشاقق » تدل على أن شقاً قد حدث في أمر كان ملتصقاً ، مثلاً نشق قطعة الخشب فتجعلها جزئين بعد أن كانت كتلة واحدة . وأنتم أيها المؤمنون قد التحمت بمنهج رسول الله إيماناً ، واعترفتم به رسولا ومبلغ صدق عن الله ، فليحكم أن تشرعوا هذا الالتحام . فإن جاء حكم وحاول أحد المؤمنين أن يخرج عنه ، فهذا شقاق للرسول والعياد بالله . أو لمعنى ومن سلك غير الطريقة التي جاء بها الرسول بأن صار في شق وشرع الله في شق آخر .

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى » نعم فقد تبين الهدى للمسلم حينما آمن بالله خالقاً ورباً . وآمن بالرسول مبلغاً وهو بطلنك قد أسلم زمامه إلى الله . ولذلك قلنا : إن عمل العقل هو أن ينظر في أدلة الوجود الأعلى الله ، فإذا ما آمن الإنسان بالوجود الأعلى الله ، بقيت مرتبة ، وهي أن يؤمن الإنسان بالرسول المبلغ عن الله ، لأن قصارى ما يطلبه العقل من الدليل الإيمان على وجود الله أن وراء الإنسان ووراء الكون قوة قادرة حكيمة حاملة لبيها كل صفات الكمال .

إن العقل لا يستطيع معرفة اسم هذه القوة . ولا يستطيع العقل أن يعرف على مطلوباتها ؛ لذلك لابد من البلاغ عن هذه القوة ، وإذا تبين للإنسان الهدى في

الوجود الاعلى وفي البلاغ من الله فلا بد للإنسان أن يلتزم بالمنهج الذي جاء به المبلغ عن الله . وفعل الإنسان مطلوب القوة العليا ، لأن الله قد أمر به ، ولأن رسول الله قد بلغ الأمر أو فعله أو أقره . أما إذا دخل الإنسان في محامكات فإننا نقول له : راجع إيمانك بالله أولاً وإيمانك برسول الله ثانياً . لذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١٥٥ ﴾

(سورة التوبة)

والهدى - كما نعرف - هو الطريق الموصل إلى الغاية . فكل فعل من أفعال الخلق لابد له من هدف . ومن فعل فعلاً بلا هدف يعتبر المجتمع فلاناً للتمييز . أما إذا كان الإنسان صاحب هدف فهو يتعرف على جدية هدفه وأهميته ويبحث له عن أفضل طريق ، هذا الطريق هو ما نسميه الهدى . ومن يعرف الطريق الموصل إلى الهدى لم يتبع غير سبيل المؤمنين فهو يشاقق الرسول ، ولا يلتزم بمنهج الإيمان ولا يلتزم به ، ومن يشاقق إنما يرجع عن إيمانه .

وهكذا نعرف أن هناك سبيلاً وطريقاً لرسول ، ومؤمنون اتبعوا الرسول بالتحام بالمنهج ، ومن يشاقق الرسول يخالف المنهج الذي جاء به الرسول ، ويخالف المؤمنين أيضاً .

والحق هو القاتل :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ۖ

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

فليس للحق إلا سبيل واحد . ومن يخرج عن هذا السبيل فما الذي يحدث له ؟ . ها هي فتى إجابة الحق : « نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » . ولكي يأتى لفظ من المحتمل أن يكون أدلة شرط ويحتمل أن يكون اسماً موصولاً مثل قولنا : مَنْ يذاكر يسبح . بالضم فيهما ، و « من » هنا هي اسم موصول ، فالذى يذاكر هو مَنْ يسبح . وقد نقول : مَنْ يذاكر يسبح . بالسكون وهنا « مَنْ » شرطية .

وفي الاسم للوصول نجد الجملة تسير على ما هي ، أما إذا كانت شرطية ، فهناك الجزم الذي يقتضي سكون الفعل ؛ ويقتضى - أيضاً - جواباً للشرط . ومن « تصلح أن تكون اسماً موصولاً ، وتصلح أن تكون أداة شرط ، وتتعرف - عادة - على وضعها بما يأتي بعدها . مثال ذلك قوله الحق :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع » ونجد « يتبع » هنا عليها سكون الجزم ، وهذا يدل على أن « من » شرطية .

وتختلف القراءة لو اعتبرنا « من » اسم موصول ؛ لأن هذا يستدعي ترك الفعل « يشاقق » في وضعه كفعل مضارع مرفوع بالضممة ، وكذلك يكون « يتبع » فعلاً مضارعاً مرفوعاً بالضممة ؛ عند ذلك نقول : « نوليه ما تولى وبصليه » . ولكن إن اعتبرنا « من » أداة شرط - وهي في هذه الآية شرطية - فلا بد من جزم الفعل فتقرأ « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى » . وكذلك نجزم الفعل المعطوف وهو قوله : (ويتبع) ويحرم جواب الشرط وما عطف عليه وهو قوله : (تولى) (وبصليه) والجواب وما عطف عليه مجزومان يحذف حرف العلة وهي الياء من آخره « ويتبع » غير سبيل المؤمنين تولى ما تولى وبصله جهنم وساءت مصيراً ، ومعنى « تولى » أي قرب ، ويقال : فلان ولي فلان ، أي صار قريباً له . ومن يتبع غير سبيل المؤمنين ، فالحق لا يبرئه بل ويقربه من غير المؤمنين ويكبله إلى أصحاب الكفر . وها هو ذا الحق سبحانه يقول : « أنا أضفي الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه »^(١) .

فالذي يحتاج إلى الشرك هو من به زاوية من ضعف ، ويريد شريكاً ليقويه فيها . وعلى سبيل المثال - والله المثل الأعلى - لا نجد أحداً يشارك واحداً على تجارة إلا إذا كان لا يملك المال الكافي لإدارة التجاره أو لا يستطيع أن يقوم على شأنها . وسبحانه حين يعلمنا : « أنا أضفي الشركاء من اشرك . من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه »^(١) .

أي أن له مطلق القوة المعاملة التي لا تحتاج إلى معونة ، ولا تحتاج إلى شريك ؛ لأن الشركة أول ما تشهد فإنها تشهد ضعفاً من شركك واحتياجاً لغريب . ولذلك

(١) قوله مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

والحق هنا يشكلم من إنسان لم تحدث له توبة عن الشرك غواصين ، لأن الإيمان يجب ما قبله أى يقطع ما كان قبله من الكفر والذنوب التى لا تتعلق بحقوق الآخرين كظلم العباد بعضهم بعضاً . ومن عظمة الإيمان أن الإنسان حين يؤمن بالله وتخلص النية بهذا الإيمان ، وبعد ذلك جاءه قدر الله بالموت ، فقد يعطيه سبحانه نعمها يفوق من عاش مؤثراً لفترة طويلة قد يكون مرتكباً فيها لبعض السيئات فينال عقابها .

مثال ذلك « عبيد بن جراح » فحينما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد قال عبيد بن جراح : ألا تنصرون محمداً والله إنكم لتعلمون أن نصرت حق عليكم فقاتلوا : اليوم يوم السبت فقال : لا سبت . وأخذ سيده ومضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتل حتى أثبتته الجراحة (أى لا يستطيع أن يقوم معها) فلما حضره الموت قال : أموالى إلى محمد يضعها حيث شاء . فلم يصل فى حياته ركعة واحدة ومع ذلك نال مرتبة الشهيد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عبيد بن جراح سيوف يهود وسلمان سائق فارس وهلال سائق الحبشة » .

وسبحانه يبلغنا هنا : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وهه المثل الأهل نرى فى حياتنا مجتمعاً قد تقوم فيه ثورة أو انقلاب ، ونجد قادة الثورة أو الانقلاب يرون واحداً يفعل ما شاء له فلا يفترون منه إلى أن يتعرض للثورة بالنقد أو يحاول أن يصنع انقلاباً ، هنا تتم محاكمته بتهمة الحياة العظمى ، فما بالناس بالذى يخرج عن نطاق الإيمان كلية ويشرك بالله ؟ سبحانه لا يغفر ذلك أبداً ، ولكنه يغفر ما دون ذلك ، ومن رحمة الله بالخلق أن احتفظ هو بإضافة الغفران حتى لا يصير الناس إلى ارتكاب كل المعاصى . ولكن لا بد من توبة العبد عن الذنب . ويعلم أن العبد لا يتم طرده من رحمة الله لمجرد ارتكاب الذنب . ويعلم أن هناك فرقاً بين من يأتى الذنب ويفعله ويقره وهو يعلم أنه مذنب وأن حكم الله صحيح وصالح ، لكن نفسه ضعفت ، والذي يرد الحكم عن الله . وقد نجد حيناً يريد أن يرتكب الذنب فيلتصم له وجه حل ، كقول بعضهم : إن الربا ليس حراماً . هذا هو رد الحكم على الله . أما العبد الذى يقول : إننى أعرف أن الربا حرام ولكن ظروف قاسية وضروقات ملحة . فهو عبد حاسر فقط لا يرد الحكم على الله ، ومن يرد الحكم على الله هو - والعياذ بالله - كافر .

ضل ضلالاً بعيداً . والمشرِكُ معها أخذ من متع حياته قسبائه مخلوقة ، فإن بقيت له المتع فليسوف يتركها ، وإن لم تبق له المتع فهي تخرج منه . إذن ، هو إما تارك للمتعة بالموت ، أو المتع تاركة له بحكم الأعيار ، فهو بين أمرين : إما أن يفوتها وإما أن تفوته . وهو راجع إلى الله ، فلماذا ما ذهب إلى الله في الآخرة واحساب ، فالآخرة لا زمن لها ، ولذلك ما أطول شقاءه بجزئته ، وهذا ضلال بعيد جداً . أما الذي يفضل قليلاً فهو يعود مرة أخرى إلى رسله . ومن المشركين بالله هؤلاء الذين لا يجادلون في الألوهية الحق ولكنهم يجعلون لله شركاء . وهناك بعض المشركين ينكرون الألوهية كلها وهذا هو الكفر . فهناك إذن مشرك يؤمن بالله ولكن يجعل له شركاء .

ولذلك نجد أن المشركين على عهد رسول الله يقولون عن الأصنام :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾

(من الآية ٣ سورة الرمر)

ولو قالوا . لا نذبح لهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، مثلاً ، لكان من الجائز أن يدخلوا في عبادة الله ، ولكنهم يشتون العبادة للأصنام ؛ لذلك لا نفر من دخولهم في الشرك . ويقول سيلفا إبراهيم عن الأصنام .

﴿ قَالَتْهُمْ عَدُوِّيَ إِلَّا رَبُّ الْمَتِينِ ﴾

(سورة الشعراء)

إنه يضع الاستثناء ليعدد بوضوح قاطع ويقول لقومه :

إن ما تعبدونه من الأصنام ، كلهم عدوي ، إلا رب العالمين . كان قوم إبراهيم كانوا يؤمنون بالله ولكن وضعوا معه بعض الشركاء . ولذلك قال إبراهيم عليه السلام عن الله :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن الشرك ليس فقط إنكار الوجود لله بل قد يكون إشراكاً لغير الله مع الله وإن لم يعبدوه ويدعوه في مصالحهم :

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِىَ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ نَارٍ يُدْعُونَ
إِلَّا مَشِيطَانَا مُرِيدًا﴾ (١١٧)

وه « إن » هنا بمعنى ما ، ف « إن » مرة تكون شرطية ، ومرة تكون نافية . مثل قوله
في موقع آخر :

﴿إِنْ أَمْنَهُمْ إِلَّا الْآلِهَىٰ وَلَهُمْ﴾

(من الآية ٢ سورة النجم)

أى إن الحق يقول : « إن أمهاتهم إلا الآلهى ولدهم » . وكذلك « إن » في قوله :
« إن يدعون من دونه إلا إنا » ، وكان العرب يسبون إلى المرأة كل ما هو هين
وضيف ولذلك قال الحق :

﴿أَوْ مَنْ يَشْرَأُ فِي الْحَبْلَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١١٨)

(سورة الزخرف)

فالإناء في عرف العرب لا تستطيع الصر أو الدفاع ، ولذلك يقول لشاعر :
وما أدرى ولست أخصال أدرى أقوم آل حصن أم مساء

والقوم هنا مقصود بهم الرجال لأنهم يقومون لمواجهة المشكلات فلهاذا تدعون مع
الله إنائاً ؟ . هل تفعلون ذلك لأنها ضعيفة ، أو لأنكم تقولون : إن الملائكة بنات
الله ؟ . وكانوا يعبدون الملائكة وحدهما تريدون القسمة ماذا تجعلون لله البنات ؟ .
على الرغم من أنه سبحانه خلق البنين والبنات .
ولذلك قال الحق :

﴿تِلْكَ إِذْ أَوَسَّاهُ ضَبْرًا﴾ (١١٩)

(سورة النجم)

أى نسمة جائرة لم يراع فيها العدل .

وعندم ننظر إلى الأصنام كلها نجد أن أسماءها أسماء مؤنثة :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَوَّةَ أَثَاقِيَّةَ الْآخَرَىٰ ۝ ﴾

(سورة النجم)

وكذلك كان عندك صنم اسمه « إيساف » و « نائلة » ، فهل هذه الأصنام إناث ؟ وكيف تدعون النساء والنساء لا ينصرون ولا يثمنن ؟ . وهل ما تعبدون من دون الله أصنام بأسماء إناث ، أو هي نساء ، أو هي ملائكة ؟

والحق يقول : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » والأسلوب هنا أسلوب قطع أي ما يدعون إلا إناثاً ، تماماً مثلما تقول « ما أكرم » لا زهداً ، وهذا نفس الإكرام لغير زيد ، وإثبات للإكرام لزيد . فساعة يقول الحق : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » فغير الإناث لا يدعونهم ، ولذلك يعطف عليها الحق : « وإن يدعون إلا شيطاناتاً مریداً » .

واستخدم الحق في صدر الآية أسلوب القصر ، وأسلوب القصر معناه أن يقصر الفعل على المقصور عليه لا يمتداه إلى غيره ؛ فهم يعبدون الإناث ، هذا قصر أول ، ثم قصر ثاني هو قوله الحق : « وإن يدعون إلا شيطاناتاً مریداً »

وكان خدام الأصنام يدعون أن في جوف كل صنم شيئاً يتكلم إليهم ؛ لذلك كان لا بد أن يكون في جوف كل صنم شيطان يكلمهم .. وكان ذلك لونا من الخداع ، فالشياطين ليست جنّاً فقط ولكن من الإنس أيضاً

هناك سيدة وتعلم يقومون على خدمة الآلهة ويريدون أن يجعلوا للآلهة سلطاناً ونفوذاً حتى يأمن الخير للآلهة كالقرايين والنور ويسعد السادة بذلك ؛ لذلك كانوا يسأجرون واحداً له صوت أجش يتكلم من وراء الصنم ويقول : ادبحوا لي كذا ، أو هاتوا لي كذا . تماماً كما يحدث من الدجالين حتى يشتوا لأنفسهم سلطاناً . وهكذا كان الذي يتكلم في جوف هذه الأصنام إما شيطان من الجن ، وإما شيطان من الإنس . والشيطان من « الشطن » وهو « البعد »

ووصف الشيطان بأنه مرید يتطلب ما أن نعرف أن هنالك كلمة « مراد » وكلمة

«مريد» . وكل الأمور التي تغيب عن الحس مأخوذة من الأمور الحسية . وعندما نحسك مادة «المهم والراء والذال» نجد كلمات مثل «أمرد» و «امرأة مرداء» و «شجرة مرداء» ، و «صرح عمرد» .

إن المادة كلها تدور حول اللمس الأملس . فأمرد تعني أملس ؛ أي أن منابت الشعر فيه نعومة . وصرح عمرد كصرح بلفيس أي صرح مصقول صقلًا ناعماً للوجه أنها اشتبهت في أنه ماء ، ولذلك كشفت عن ساقها خوفاً أن يتل ثوبها . والشجرة المرداء هي التي لا يمكن الصعود عليها من قرط نعومة ساقها تماماً كالنخلة فإنه لا تبقى عليها الفروع ، ولذلك يدقون في ساق هذه النخلة بعض المساهير الكبيرة حتى يصعدوا عليها .

والشيطان المريد هو المتمرد الذي لا تستطيع الإمساك به . إذن . فد «مرد» و «مريد» و «عمرد» و «مرداء» و «أمرد» ، كلها من معومة اللمس .
«وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً»

وعندما يحاول العصاة الإمساك بالشيطان في الآخرة يقول لهم :

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتَكُمْ فَأَسْجَبْتُمْ لِي﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وهو بذلك يتماهى من الذين اتبعوه ؛ لأنه لم يكن يملك قوة إقناع أو قوة قهر ، فقط نادى بعضاً من الخلق فزاحت أبصارهم واتبعوه من قرط خيالهم .
والشيطان موصوف بأن الله طرد من رحته . فالخلق يقول :

﴿لَمَنْهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ

فَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (١١٨)

لماذا هذا اللعن ؟ لقد أذن الشيطان وعصى الله . وأدم أذن أيضاً وعصى الله .

فليذا لعن الله الشيطان ، ولماذا عفا الله عن آدم ؟ نجد الإجابة في القرآن :

﴿ قُلْنَا أَهَآدَمُ مِنْ رَبِّهِ ؕ كَلَّمَتْ فَتَبَّ عَلَيْهِ ؕ إِنَّهُ هُوَ الْكُذِّبُ الرَّجِيمُ ۝٢٧﴾

(سورة البقرة)

ونعرف هذا القول ، لأن هناك فرقاً بين أن يرد المخلوق على الله حكماً ، وفعل المعصية للغفلة .

فحين أمر الحق إبليس بالسجود لآدم قال إبليس .

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وهذا رد للحكم على الله ، ويختلف هذا القول عن قول آدم وحواء ، قالوا :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

وهكذا نجد أن آدم قد اعترف بحكم الله واعترف بأنه لم يقدر على نفسه . ولذلك فيحظر كل واحد أن يأني إلى ما حرم الله ويقول : لا ، ليس هذا الأمر حراماً لكن إن كان لا يقدر على نفسه فليعترف ويقول : إن ما حرم الله حرام . لكنني غير قادر على نفسي . وبذلك يستبعد الكفر عن نفسه ، ويكون حاصياً فقط ولعل التوبة أو الاستغفار بذهبان عنه سيئات فعله . أما من يحمل ما حرم الله فهو يصر على الكفر ، وطمس الله على بصيرته نتيجة لذلك .

وسبحانه وتعالى يصف الشيطان بقوله - سبحانه - : « لعنه الله » أي طرده من رحمته . ولينظف ابن آدم لحياتل الشيطان وليحذره ، لأنه مطرود من رحمة الله .

ولو أن سيدنا آدم أهمل فكره لفقد قول الشيطان وكينه ، فذلك أن كيد الشيطان ضعيف . ولكن آدم عليه السلام لم يتصور أن هناك من يقسم بالله كذباً . فقد أقسم الشيطان :

﴿ وَقَامَهُمَا إِلَىٰ لَحَايِمَ النَّارِ ۖ يَمِينٌ ۝٢٨﴾

(سورة الأعراف)

وكانت غفلة آدم - عليه السلام - لأمر إرادته الله وهو أن يكون آدم خليفة في هذه الدنيا ، لذلك كان من السهل أن يرموس الشيطان لآدم ولزوجه :

﴿ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِبَدْنِيهُمَا مَا لَوْ رِى عَنَّهُمَا مِنْ سَوَاءٍ تَبَيَّنَا وَقَالَ مَا نَهَىٰ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾

(سورة الأعراف)

وأنغوى الشيطان آدم وحواء بأن الله قد نهاهما عن الأكل من تلك الشجرة حتى لا يكونا ملكين ، وحتى لا يستمررا في الخلود . ولو أن آدم أحسن فكره في المسألة لقال للشيطان : كل أنت من الشجرة لتكون ملكاً وتكون من الخالدين ، فانت أيها الشيطان الذى قلت بحوف شديد لله :

﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾

(من الآية ٢١ سورة الحجر)

والحق يريد لنا أن نتعلم من غفلة آدم ، لذلك لا بد للمؤمن أن يكون يقظاً .

فسبحانه يقول عن الشيطان : ولعنه الله وقال لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً .

والقرآن الكريم حين يعالج قضية ما بهذه القضية تحتاج إلى تدبر . ونلاحظ أن إبليس قد تكلم بذلك ولم يكن موجوداً من البشر إلا آدم وحواء ، فكيف علم ما يكون في المستقبل من أنه سيكون له اتباع من البشر ؟ وكيف قال : لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ؟ .

لقد عرف أنه مادام قد قدر هل أبيهم آدم وأمههم حواء فسوف يقدر هل أولادهما ويأخذ بعضاً من هؤلاء الأولاد إلى جانبته ، قال ذلك غناً من واقع أنه قدر هل آدم وهل حواء . والذين اتبعوا إبليس من البشر صدقوا إبليس في ظنه . وكان هذا الظن ساعة قال : لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً .

وأخذ إبليس هذا الظن لأنه قدر هل آدم وحواء مع أن آدم وحواء قد أخذوا

التكليف من الله مباشرة ، فيما بالك بالأولاد الذين لم يأخذوا التكليف مباشرة بل عن طريق الرسل . إذن كان ظن إبليس مبنياً على الدليل فالظن - كما نعلم - هو نسبة راجحة وليس مبنية ، ويقابلها القوم وهو نسبة مرجوحة :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة سبأ)

ولذلك قال إبليس أيضاً :

﴿ إِنِّي أَنْتَرْتُكَ بِكَ بِعَرْمِ الْيَمِينِ لِأَخْنِكَ فُرَيْشَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الإسراء)

وقال كذلك :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْرِيَنَّهُمْ أَتَجِبُ ۝٨٧﴾

(سورة ص)

عندما إبليس قد قال : « لا تخذن من هبائك نصيباً مفروضاً »

فهذا اعتراف بأنه لو يستطيع أن يأخذ كل أولاد آدم . والقروض - كما نعلم - هو المقطع . ويقال من الشيء المفروض : إنه المقطوع الذي لا كلام فيه أبداً .

وبما وسيلة إبليس - إذن - لأخذ نصيب مفروض من بني آدم ؟

وبوضع الخلق لنا وسائل إبليس ، على لسان إبليس :

﴿ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَيَّيْتَهُمْ وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَيَبْيَكُنَّ
عَادَاتُ الْأَنْعَامِ وَالْأَمْثَلُ فَلَيُفْخِرْنَ خَلْقَ اللَّهِ

وَمَنْ يَشْغِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٣﴾

في هذه الآية تفصيل لطرق أخذ إبليس نصيب مفروض من بني آدم . فيبليس هو القاتل كما يحكي القرآن :

﴿لَا تُعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

وعرفت من قبل أنه لن يقعد إلا على الطريق الطيب ؛ لأن طريق من اختار السلوك السيئ لا يحتاج إلى شيطان ؛ لأنه هو نفسه شيطان ؛ لذلك لا يذهب إبليس إلى الخبثاء ، ولكنه يقف على باب المسجد ليرى الناس وهي تعمل الخير فيوسوس لهم ، وفي هذا إجابة لمن يقولون : إن ابوسلوس تأتيني لحظة الصلاة . والصلاة - كما نعلم - هي أشرف موقف لعباد ؛ لأنه يقف بين يدي الرب ؛ لذلك يحاول الشيطان أن يلهي الإنسان عنها حتى يحبس عنه الثواب . وهذه الوسوس ظاهرة صحيحة في الإيمان ، ولكنها تحتاج إلى البقطة ، فساعة ينزع الشيطان الإنسان نعمة فلهذا تذكر قول الحق :

﴿وَأَمَّا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تُرْجِعْ فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠١ سورة الأعراف)

وعندما نستعبد بالله فوراً يعرف الشيطان أنك متبته له ، حتى ولو كنت تقرأ القرآن في أثناء الصلاة ووسوس لك الشيطان ، قطع القراءة واستعذ بالله ، ثم واصل القراءة والصلاة ، وحين يعرف الشيطان أنك متبته له مرة واثنين وثلاثاً فهو يعتمد عليك فلا يأتى لك من بعد ذلك إلا إذا أحسن منك غفلة .

وبين لنا الحق طريقة الشيطان في أخذ النصيب المتروك من عباد الله فقال عن إبليس : « ولأضلّهم » . والإضلال معناه أن يسلك الشيطان بالإنسان سبيلاً غير مؤدٍ لل غاية الحميدة ، لأنه حين يسلك الشخص أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية المنشودة ، فمعنى ذلك أنه اهتمى ، أما إذا ذهب بعيداً عن الغاية ، فهذا هو

الضلال . والحق سبحانه وتعالى يوصيه مسج الهداية أعطانا أقصر طريق مستقيم إلى الغاية ، فإذا ما انحرفنا هنا أو هناك ، فالانحراف في البداية يتسع حتى نتصل إلى غير غاية .

وصربنا ندباً هذا المثل وقبلنا : إن هناك نقطة في منتصف كل دائرة نسي مركز الدائرة ، فإذا ما انحرف المنهج إليها بنسبة واحد على الألف من المليمتر فتتسع مسافة ابتعادها كلها سار على نسبة الانحراف نفسها ، يروم أنه يفترض في أن كل خطوة بخطوها تنهي له القرب إلى الغاية .

لقد ضربنا مثلاً توضيحياً بـ «الكشك» الذي يوجد قبل محطات السكك الحديدية ، حيث ينظم عمل «الكشك» التهامات القطارات على القضبان المختلفة ويتيح لكل فطو أن يتوقف عند رصيف معين حتى لا تتصادم القطارات ، ومن أجل إنجاح تلك المهمة نجد عامل التحويلات في هذا «الكشك» يحرك قضيباً يكون سمكه في بعض الأحيان علناً من المليمترات ، ليتصلق هذا القضيب بقضيب آخر ويدلك يسمح لعجلات القطار أن تنقل من قضيب إلى آخر .

الضلال - إذى - أن يسلك الإنسان سبيلاً غير موصل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوة في هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد ، والإضلال من الشيطان يكون بترينه الشر والقيح للإنسان ليحمه عن مسالك الخير والفضيلة .

ومن بعد ذلك يأتي على لسان الشيطان ما قاله الحق في هذه الآية : «ولأمنيتهم ، والأمل هي أن ينصب الإنسان في خياله شيئاً يستمتع به من غير أن يحطو له خطوة عمل تقر به من ذلك ، ومثال ذلك الإنسان الذي نراه جالساً ويمنى نفسه قائلاً : سيكون عندي كذا .. وكذا وكذا ولا يتقدم خطوة واحدة لتحقيق ذلك .

ولذلك يقول الشاعر تسلية لنفسه :

مَنْ .. إن تكن حقاً .. تكن أحسن المني

وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

أى أنه استمتع بهذه الأمان في أحلام اليقظة سواء أكانت هذه الأحلام امتلاك قصر لم سيارة أم غير ذلك . وكى أمنية لا تحفز الإنسان إلى عمل يقربه منها هى أمنية كاذبة ، ولذلك يقال : « إن الأمان بضاعة الخمقى » والشيطان يخنى الإنسان بأنه لا يوجد بعث ولا جراء .

ومن بعد ذلك يقول الشيطان : « ولأمرهم فليبتكن آذان الأنعام » والبتك هو : النطح . والأنعام : هى الإبل والبقر والغنم ، أى قطع آذان الأنعام . والقرآن نال فى الأنعام :

﴿ ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ مِّنَ النَّسَائِنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدُكُمْ حَرَّمَ أَمَ الْإِنْسَيْنِ
أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنْسَيْنِ يَتَّقُونِ يَعْلَمُونَ كُنْتُمْ مَّسْجُونِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ
اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدُكُمْ حَرَّمَ أَمَ الْإِنْسَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْإِنْسَيْنِ ﴾

(الآية ١٤٢ وجزء من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

لر كان الزوج يطلق على « الاثنين » لكان العدد أربعة فقط ، ويعلمنا التعبير القرآنى ويوضح لنا أن تفرق جيداً لفهم أن معنى كلمة « زوج » ليس أبداً « اثنين » ، ولكن معناها : واحد معه غيره من نوعه أو جنسه . فيقال عن فردة الحذاء « زوج » لأن معها فردة أخرى ، ومثال آخر أبها : كلمة « توأم » التى نظى أنها تعنى « اثنين » ، لكن المعنى الحقيقى أن التوأم هو واحد له توأم آخر ، فإذا ما أردنا التعبير عن الاثنين قلنا : « توأمان » .

وحين أورد من خطط الشيطان « ولأمرهم فليبتكن آذان الأنعام » فهنا قصة ونحن نعرف أن المنتصمين بالضلالات يصنعون لهم سلطة زمنية حتى يربطوا الناس بأشخاصهم هم . وكان المشركون على الأصنام يقومون على خدمتها ، ولم يلاحظ أحد أنه من الغباء تقبل فكرة أن يخدم البشر الآلهة ، فالإله هو القيوم على خلقه برعاهم ويعفون بأسياهم ، وكان هؤلاء الناس هم المنتصمين بخيئة الغفلة عند البشر ، وكانوا يعيشون سدة ليعملوا الخير ، وبطيعة الحال فالشيطان من البشر أو الجن يجهلها

وسيلة ، فيجلس في جوف الصنم ويتكلم فيأخذ السدنة والخدم هذه لمسألة لترويج
اندماجات للصنم ، فيأن الأغبياء له بالانعام من الإبل والبقر والغنم يذبحونها
ويأكلونها ولذلك كان السدنة دائماً وفي أغلب الحالات أهل سمعة لأنهم أهل
بطنة ، والنبي صل الله عليه وسلم قال :

(إن الله يفضي الخبر السمين)^(١) .

فمثل هذا الخبر يستسهل أكل خبر الناس والانتفاع به ، فهو يتجمع بضلالات
الناس ، ومن يتنفع بالضلالة يرى أن حظه في أن نستمر الضلالة ، مثله في ذلك مثل
المتنعم من تجارة المخدرات إنه يتعنى أن يتعاطى الناس جميعهم المخدرات ..
وعندما تقوم حملات لمقاومة المخدرات بغضب ويحزن

ومثل ذلك أيضاً تاجر السوق السوداء الذي يصيبه العم عندما تأتي البضائع على
قدر حاجات الناس ونكفيهم . فكل فساد مستر وراءه أناس يتنعمون به . وعندما
يرى المتنعم بالفساد حبة إصلاح يغضب ويحاول أن يجد وسيلة لاستمرار الفساد ،
ولهذا كان السدنة يفتغون في الأصنام لتصدر أصواتاً ليطلبوا من وراء ذلك مطالب
من الأغبياء المصدقين لهم ، مثلهم مثل الدجالين الذين نسمع عنهم حيث يقول
الواحد منهم لأهل المريص : إن على المريص عقرتنا ، والعفريت يطلب ناقة أو
ذبيحة أو دما

هكذا كان يفعل السدنة ، ويحاولون بشق الطرق من الخيل والخدم حتى يأخذوا
من الغافلين السذج الإبل والبقر والغنم . وعندما يقطع صاحب الإبل أو البقر أو
الغنم أدن كى واحدة منها ، فهنا يعني أنها مندورة للأصنام ، والأصنام بطبيعتها
لا تأكل ولكن السدنة يأكلون .

وفي آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة يونس)

(١) أخرجه الترمذي في أسباب النزول ، وعند أبي نعيم في الطب النبوي وهو أبو الهيثم السمرقندي في حديثه لأبي
لثة الهادي مروجا .

ويورد الحق أيضاً في هذا الأمر :

﴿ تَمْسِيَةً رَّوْجٍ مِّنَ الصَّارِ أَتَيْنَ وَمِنَ الْمَرْآتَيْنِ قُلْ ءَالِدُكُمْ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ
أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ
أَتَيْنَ وَمِنَ الْغَنَاقَتَيْنِ قُلْ ءَالِدُكُمْ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْإِنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمُ اللَّهُ بِهِذَا قُلْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
لِّيُضِلَّ النَّاسَ وَيُزَيِّرَ عِلْمَ إِنْ أَنَّى لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

فهو المحرم هو « الذكران » أو الأنثيان أو الذي اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ .

لا شيء من هذه كلها محرم ، فقد خلقها الله كلها ورقاً حلالاً . والنعمة نفسها
تعرف وظيفتها ، ونلاحظ في الريف المصري عندما تُغتنق جاموسة أو بقرة أو غرور
بالحلل . أو يصاب بأذى أو مرض فإنه ينلم ويد عنه فيقال : « لقد طلب
الحلال » ، كأن البهيمة تقول لصاحبها : الحقني بالذبيح لنستفيد من لحمي
وتتعجب لأن الحمار مثلاً لا يفعل ذلك ، لأن لحمه غير مهلل . لكن البهيمة تعرف
فائدتها بالنسبة للإنسان فتد رقبها طابة الذبيح ، كما نعرف أنها في أثناء حياتها تخدم
الإنسان إما في أن تحمل الأثقال ، وإما أن تأخذ منها اللبن أو الوبر أو الصوف أو
الشعر ، ولحظة ما يدهمها ويغشاها ويصيبها خطر فهي تمد رقبها كأنها تطلب الذبيح
لنستفيد الإنسان من لحمها ، فهي مسخرة للإنسان ونعرف ذلك إلهاماً وتسخيراً .

ولماذا الله قد جعل لنا كل هذا . فلم يقبل لحم غير المحرم وتحليل غير
الحلال ؟ لكن السدنة كانوا يفعلون الأعاجيب للسيطرة على الناس ، فإذا ما ولدت
الناقة أربعة أبطن وجاءت بالمولود الخامس ذكراً يقول السدنة : يكفى أنها جاءت
بأربعة بطون وأنت بالخماس فحلاً ذكراً ويشقون لذن الناقة ويتركبوها ، وعندما
يراهن أحد ويخذلها مشقوقة فالعرف يقضى بالآلة تستخدم في أي شيء ، لا في
الرضاعة ، ولا في الحمل ولا يجلب لبنها ولا تمنع من المياه أو الكلاً وتسمى

« البهيمة » ويأخذها السبى في أى وقت ؛ لأهم لا يريدون تخزين اللحوم ، يريدونها حية ليذبحوها في الوقت الذى يترامى لهم ، ولذلك قلل الحق :

﴿ مَا حَمَلَ الْفَخْرُ مِنْ بَيْمَرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الناقة)

والبهيمة - إذن - هى الناقة التى نبحر أذاعها - أى تشق - فذلك يعنى أنها جاءت بأربعة أبطن تبدأ ثم جاءت بالذكر فى البطن الخامسة وسببها صلحها للأصنام . والبهيمة سائبة مع وجود سائبة أخرى ، وهى وإن لم تأت بأربعة أبطن ولا بالذكر فى البطن الخامسة ولكن صاحبها يقدمها نلراً أو هدية لأحد الأصنام . وتسمى « سائبة » لأن أحداً لا يقوم حل شأنها ، ولكنها ترعى فى أى أرض وتشرب من أى ماء ولا أحد يأخذ من لبنها أو يركبها ، ويأخذها السبى وقت احتياجهم للحوم الطازج الخفى . وإذا ولدت الشاة أنثى جعلوها لهم ، وإن ولدت ذكراً جعلوه لأهنتهم ، وإن ولدت ذكراً وأنثى لم يذبحوا الذكر لأهنتهم وقالوا عن الشاة : وصلت أعضاها فهذه هى الوصيلة ؛ لأن الناس كانت تحتفظ بالإناث من البهائم فهى وعاء النفس ؛ لذلك فهبة الفحل للسبى كان أمراً مقصوداً عليه . ويقول الشاعر

والما أمهات القوم أوحية مستحدثات وللأحساب آباء

ونرى فى المزارع أن إناث المواشى تحتاج إلى فحل واحد ؛ وقد يكون فى البلدة كلها فحل واحد أو اثنان لإناث الماشية من النوع نفسه ، ويفرح الأطفال فى الريف حين تلد الماشية ذكراً ؛ لأنه سيتغذى قليلاً ثم يتم ذبحه ويأكلون منه ويفضبه الأطفال حين تلد الماشية أنثى لأنه سيتم تربيته ، ولن يأكلوا منها .

أى أنهم قديماً عندما كانت الماشية تلد فى بطن واحد أنثى وذكراً لا يذبحون الذكر ويقولون : الأنثى وصلت أعضاها ويضمن الذكر حياته ويستخدم كفحل ليلقح بقية الإناث ، ويقال عنها : الوصيلة .

هكذا نجد البهيمة هى الناقة التى أنجبت خمسة أبطن آخرها ذكر ، والسائبة وهى النلو من أول الأمر ، والوصيلة وهى التى ولدت أنثى ومعهما ذكر ، فيقال وصلت الأنثى أعضاها ، أى قدمت له الحياية والحام هو الذكر الذى نتجت من صلبه هشة

أبطن فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا موحى وقالوا : هي ظهروه .

وهناك من يتحدث في عصرنا قائلًا . أنا نيان ، لا أكل اللحم ، حل الرخم من أن الواحد منهم قد ينبع إنساناً ويدهى الحزن حد ذبح دجاجة ، ونقول هؤلاء : انتبهوا ، إن الله قد سخر لنا هذه الأنعام وهي نفسها تحب أن ينتفع بها .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق : « ولا مرهم فليبتكن آذان الأنعام » وعرفنا أنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل إرضاء سدنة الأصنام ، هؤلاء السدنة الذين أحبوا أن تظل هذه الأصنام وهذه الأنعام المرسودة من أجلها . ولذلك أقول دائماً : آه من أن يرتبط رجل دين بمسائل دنيا ، فهذا مصدر للخوف من أن يزيغ الدين لمصلحة الأهواء .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق على لسان الشيطان : « ولا مرهم فليخبرن خلق الله » . وكشف لنا الحق كيف صار للشيطان أمر على هؤلاء الناس ، مع أن الأمر يجب أن يكون لله وحده ، ونسأله : كيف يخبرون من خلق الله ؟ وكل شيء هو من خلق الله .

والخلق - كما نعلم - إيجاد من عدم ، وسبحانه خلق كل شيء وجعل لكل كائن وظيفة ما ، فهو خلق عن حكمة لغاية ، وهذه الغاية موجودة في علم الخالق أولاً . والله المثل الأعلى - نجد المستحدث الصناعي في الأسواق كمسألة الملابس مثلاً ونعرف أن الذي صممها إنما صممها من أجل راحة الناس ، وقد فكر في هذا الهدف قبل أن يصنع ويصمم الآلة التي تؤدي هذا العمل فتريح الناس من تعب غسل الملابس بأيديهم ، وكذلك من صمم « الميكرون » أراد في البداية هدفاً هو أن يصل الصوت لمن هو بعيد ، ثم بدأ البحوث والتطبيقات من أجل أنه يصل إلى الغاية وانقصد .

والحق سبحانه وتعالى خلق كل خلق من خلقه لغاية ، فإن استعملنا مخلوقه لغايته ، فلن نفع في محطوره تغيير خلق الله ، ولكن لو استعملنا المخلوق لغير الغاية فهذا هو التمييز لخلق الله ، وساعة نريد فهم لفظ من الألفاظ فلتنبه في القرآن عن

نظائره ، وقد سجد في لقرآن نفسه ما يفسر القرآن نفسه ، فخلق يقول هنا :
« فليخبرن خلق الله » ، وفي موقع آخر يقول :

﴿الْأَلَهَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق المعروف نراه في الكائنات ، وهناك ما لا نراه أيضاً ، والأمر مقصود به
قوله الحق :

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾

(من الآية ٨٢ سورة يس)

وآية أخرى تقربنا أكثر من هذا الموضوع :

﴿نَظَرْتُ أَنفِىَّ فَمَنَ النَّاسِ عَلَىَّ لَا يَدْبِرُنِى لِيَخْلُقِ اللَّهُ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الروم)

وهذا يعنى أن خلق كله على أصل المطرة . فإذا ما حاول أحد أن يغير المطرة
فهذا تغيير لخلق الله . ه المطرة إذن ؟ إنها الصماء الأولى في النفس والطبيعة .
وعنال ذلك حين يوجد الإنسان في بيئة لا تكذب فلن يعرف في حياته الكذب .
وعندما يوجد الإنسان في بيئة لا تسرق فلن يعرف ما السرقة ؛ فالإنسان إنما يتعرف
على الموضات من النقص المجتمعي ، بدليل أن الملدن الى طبقت الشريعة
الإسلامية وتم قطع عدد قليل من الأيدي عنوة وحداً في السرقة انتهت فيها
لسرقة . وشأ حين لم يرسارفاً . ومن يترك شيئاً في مكان ما يضل في مكانه إلى أن
يعود صاحبه ليحده . هذه هي الفطرة السليمة ، ودليلاً على أن المطرة سليمة
طبيعتها هو أننا نجد أن الذي يحاول صنع أمر ما يخالف المطرة إنما يتلصص
ويستتر ، لأنه يعرف أن هذا الأمر غير سليم

لقد ضربت المثل على ذلك بالرجل حين ينظر إلى زوجته ، إنه ينظر بكل ملكاته ،
أما إن نظر - والعياذ بالله - إلى عخدم غيره فهو يتلصص ليختلس النظر بعيداً عن
الآخرين . فالإنسان حين يرتكب إثماً يتكلم شيئاً متاعراً ومغفراً لطبيعته
والتكلف هو الإتيان بشيء خارج عن الفطرة الإنسانية . وتغيير كل ما يتعلق بالفطرة
هو تغيير لخلق الله .

وصور الفساد لا تأتي إلا من هذه الناحية .

كيف ؟

إنما نرى الخلق قد خلق للزوجين الذكر والأنثى . ومحمد من الرجال من يمشى
- أى أنه يحاول أن يكون أنثى - وقد يتصرف كما تسلك المرأة وتتصرف ريتين برينتها
ويتحدث ، هذا إنسان يريد أن يغير خلق الله . وكذلك قد يجد امرأة تريد أن
تسترجل ، فهي تريد أن تغير خلق الله .

ولذلك فإن نرى استاداً عالم هو الدكتور حسن جاد - أمدته الله بالعافية - وهو
شاعر ورميل لى وبشأن معاً ، رأى هذه الظاهرة ، مدبرة محارلة البعض تغيير خلق
الله فقال قصيدة مشهورة جاء فيها :

من حيرت من الدين اللاتى - حيرت بين الفنى وبين الفتاة

الشاعر يعلن حيرته ؛ لأنه لا يتعرف على العارق بين الفنى والفتاة ، فهو بعض
الأحيان صادراً من الدين واللات معاً لأن الفنى يشبه الفتاة ، واعتادة تنشئه
بامتق على الرعم من احتماط كل منهما بخصائص نوعه ، وبما يميزه عن النوع
الأخر . وبعض النساء يقمن بأحرار لتغيير الخلقة ، كنوع شعر الطواحب من
مابته وإعادة رسم مكته بوضع خط بالعلم الملون ، ويقصص ذلك نبت الشعر من
جديد ، فتتحول إلى شكل قبيح وتسمى أن الجمال إبداع تقاسيم ، فقد يكون سر
جمال واحدة أن يكون شعر الحاحيين كثيماً ، وقد يكون سر الجمال للمرأة اتساع
العم ، أو طول الأنف

لقد سمعت أن أنف كليوباترا لو كان قصيراً بعض الشيء لشعر وجه التاريخ
واحق سبحانه وتعالى كما ورع الأمرجة على العباد ورع أيضاً أسلوب الخلق ي يغطي
هذه الأمرجة . ألا ترى في الحياة اليومية شهاً يتقدم الخطية فتاة فلا تعجبه ، أو
لا يعجبها ، وأبى آخر فيعجب بانفتاة نفسها وتعجب الفتاة به . هو سبحانه الذى
أنشأ السيل العظمى ليتوهم الخلق بهذا السيل . وقد تحول فتاة أن تغير من خلق
الله فتسبب بذلك فساداً للسيل العظمى .

وقد تريد المرأة أن تجمع حمراً خديها فى لون الورد فتضع عليها بعضاً من

المساحيق ، إلا تعلم هذه المرأة أن روحها وأقاربها يعرفون أنها قد صمتت ذلك بمواد خارجية ، وملا يكون موقعها عندما يراها زوجها في الصباح وقد أمسدت الألوان بشرتها ، وماذا يكون موقعها عندما تتقدم بها السن وتكون المسحيق قد خفت مسام جلدتها ومنعت الجلد من التنفس ، ويحول شكلها باستمرار سوء فعلها إلى كائن أقرب إلى وجه القرد والعباد بالله ؟ لقد غيرت بسوء العمل حق الله .

وكذلك الأطافر التي يتم حنقها بطمعت من « البلاستيك » الملون هل نطن واحدة أن هناك رجلاً قد يتصور أن هذا هو لون أطافرها الطبيعي ؟ . إن الأطافر ذات لون أراحه الله بحكمه ، لها نظام ، فليذا تحرم المرأة أطافرها من الحياة الطبيعية ومن نعمة تنفس الهواء ، فالأطافر تنفس أيضا . وقد يفتي واحد بأنه يصح للمرأة أن تنوصب بعد أن تصبح هذا الطلاء ، وأقول : اتق الله ، فهذه ليست أصابغا ، لأن الأصباغ تتخلل الجلد أو الظفر ولا يذهب لون الصبغة إلا بذهب الجلد أو الظفر . مثل الحنة - وفي هذه الحالة يصل الماء في الظهيرة إلى الجلد ، أما طمقة البلاستيك التي على الظفر فلا تُزال إلا بمادة كيميائية وبمكس إزالتها وهي لون من الطلاء وليست صبغة ولا يصل الماء معها في الغسل أو الوضوء إلى البشرة

ومن تعمل ذلك إنما تخدع نفسها ومن يعجب بها . ولنا أن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعدل من مزاج لكون فيعطى للإنسان سكناً وممتعة ولكن توازن عاطفي وعقلي ، فلو أراد الله لخذ المرأة التوهج لتثير غرائز الرجل لخلق الله الخدين على هذا الأسلوب ، لكنه أراد للمخدود أن تكون بألوانها الطبيعية حتى تهيج الغرائز على قدر القوة التي في الرجل ، وعندما تكبر المرأة نجد جمالها قد ذبل قليلا على قدر سبب ذبول قدرة الرجل ، فبهبانه يعطى على قدر الطاقة حتى لا تتحول المسألة إلى إهانة للغرائز فقط .

إن هناك فرقا بين تصريف الغرائز وإهانة الغرائز وإلحاحها ، وما يحدث من وسائل التجميل هو تموير لخلق الله . وكذلك المرأة التي تحدث وشها^(١) ، أو الرجل الذي يفعل ذلك إنما يغيران من خلق الله ، ولو كان الحس يرى أن مثل هذه الأعمال تريد من الجمال لفعلها « فليغيرن خلق الله » .

(١) الوضوء ما يكون من غرض الإبر، في البدن ، ولذا ومراعاة عليه تسخرج من بين يمين النبي يسمى « شبح » حتى يورق، ثم أو يضر

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً ، والولى للشيطان هو الذى يليه ويقرب منه . ومن فعل ذلك فقد ترك الأفضل وذهب إلى الأضعف الذى يورده مهاوى وموارد الهلاك ، ويخسر الخسران الواضع والمحيط من كل الجهات ، ولا انفلات من مثل هذا الخسران .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ
الْأَعْرُورُ ۝ ﴾

وهذا يعنى أن الشيطان يقدم الوعود الكاذبة لمواليه ويخبرهم بشيء يسره ، فالوعد هو أن يخرج أحد آخر بشيء يسره أن يوجد .

والمثال على ذلك نراه فى الحياة العادية فالإنسان منا يحب ماله الذى قد جاءه بالتعب ، والصدقة فى ظاهر الأمر تنقص المال ، ليقول الحق :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُّكُمُ الْفَقْرَ ﴾

(من الآية ٢٦٨ سورة البقرة)

لماذا ؟

لأن الشيطان يوسوس فى صدر صاحب المال فائلاً : « إنك عندما تصدق يعرض الملك عليك بتقص . وويل لمن يرضخ لوسوس الشيطان ، لأنه يورده مولود التهلكة ، والشيطان أيضاً يقدم الأمان الكاذبة فى الوسوس : « ومنهم » . ومثال ذلك ما جاء على لسان المنصهر على أخيه بلون من الاستهراء والعياذ بالله :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

المختصر بقول : مادام الله قد أعطاني في الدنيا ، وما دامت مهمة الله هي العطاء الدائم فلا بد أن يعطيني ربي في الآخرة أصعاف ما في الدنيا ؛ ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد في الآخرة ، فهذا كان جزاؤه ؟ .

لقد رأى أسرار زراعته وعرف سوء مصير العرور ، لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً « وما يمدهم الشيطان إلا عروراً » .

فما هو العرور ؟ . هالك « غرور » - بضم العين - ، و « غرور » - بفتح العين - . والعرور - بضم العين - هو الشيء يُصوّر لك على أنه حقيقة وهو في الواقع وهم . والغرور - بفتح العين - هو من يفعل هذه العملية ، ولذلك فالعرور - بفتح العين - هو الشيطان ؛ لأنه يزين للإنسان الأمر الوهمي ، ويؤثر مثلها يؤثر اسراب ؛ فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يخيل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك .

﴿ كَسْرَابٍ بِفَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الْطَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وكذلك العرور ، حيث يزين الشيطان شيئاً للإنسان ويوهمه أنه سيستمتع به . فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يفصل لنا الحق أسرار الكمار فيقول عنها :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِفَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الْطَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ

يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ قُرْآنَهُمْ يُحْسِبُهُمُ اللَّهُ سَرِيعَ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

ويفاجأ الكافر بوجود الله الذي كان كافراً به ، ويصير أمام نكبتين : نكبة أنه كان ظاهراً إلى ماء فلا يجده فيخيب أمره ، والنكبة الثانية أن يجد الله الذي يحاسبه على الإنكار والكفر .

ويقول الحق :

﴿ وَفَلْيَمَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ شَيْءٍ لِيَجْعَلَنَّ لَهُم مَّا عَشَوْا ﴾ ﴿٤٠﴾

(سورة الفرقان)

وقد يأتي واحد ويدعى لنفسه الإنسانية ويظن أنه يتكلم باسم الله يقول :

- من هؤلاء الناس الذين قدموا للبشرية كل هذه المخترعات التي أفادت الناس كالموصلات وغيرها ، أبصرون إلى عذاب ؟ ويقول : هؤلاء سيأخذون جزاء الكفر ؛ لأن لواحد منهم قد عمل أعماله وليس في ياله الله بل قام بتلك الأعمال وفي ياله عبقرية الابتكار والإنسانية وهو يأخذ من الإنسانية التكريم ، وعليه أن يطلب أجره ممن عمل له وليس ممن لم يعمل له ، وينطبق عليه قول الرسول :

عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت لحلم لي قال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل لحب أن ينق فيها إلا أعطت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جوادء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار) (١) .

ولم يغمطهم الله جزاء أعمالهم في الدنيا ، فقد أخذوا من الدنيا كل التكريم .

ورزق سبحانه فضل هذه بلواهب على الناس الذين في بالهم الله ؛ لذلك ترى المسلم غير المتعلم يركب الطائرة ليحج بيت الله ويسجل أحاديث الإيمان على شرائط ليسمعها من لم يحضر وشاهد هذه الشهيرة ، إذن هؤلاء الكافرون مسحرون للمؤمنين لأنهم أتاحوا لهم الانتفاع بعلمهم واكتشافاتهم ، والمؤمنون أيمس مطالبون بأن يأخذوا بأسباب الله ليأثروا كرم الله في عطاء العلم ، بل إن ذلك واجب عليهم يأثمون إذا لم يقوموا به حتى لا يكونوا حالة على سواهم ، فلا يستدلون .

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في الجهاد وأخرجه كذلك النسائي والترمذي وابن ماجه .

« وما يعلمهم الشيطان إلا غرورا » وماذا يكون نصيب هؤلاء في الآخرة ؟ يقول سبحانه :

﴿ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُحَدُّونَ عَنْهَا
بَحِيصًا ﴾

وكلمة « مأوى » معناها المكان الذي يضطر الإنسان إلى أن يأوى إليه ، فهل هذا الاضطراب يكون اندفاعاً أو جذباً ؟ سبحانه يقول عن النار إنها ستنتقل قاتلة :
﴿ نَارٌ مِنْ شَرِيدٍ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة ق)

كان النار تستجلب أصحابها . وهم لن يجدوا عنها محيصاً ، أى لا مهرب ولا مفر ولا معدي ، وكان باستطاعة الواحد منهم أن يفر من مخلوق مثله في دنيا الأغيار ، ولكن حين يكون الأمر لله وحده فلا مفر .

﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والمقابل لذلك يورثه الحق :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مَسْكَنَةٌ يَدْخُلُوهَا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
اللَّهِ قِيلًا ﴾

وحين يأتي سبحانه بأمر يتعلق بالكفار وعقابهم فالنفوس مهتأة ومستعدة لتسمع من المقابل ، فإذا كان جزاء الكفار بنظر الإنسان من أن يكون منهم ، فالنفس السامعة تنجذب إلى المقابل وهو الحديث عن جزاء المؤمنين أصحاب العمل الصالح . وسبحانه قال من قبل :

﴿سَوْفَ نُقَرِّبُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(من الآية ١١٤ سورة النجم)

وهذا يقول : « سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار » . ولتيقن من الله والواقع به يعلم أنه لا توجد مسافة تبعده عن عطاء الله ، مثال ذلك حينما سأل النبي أحد الصحابة وكان اسمه الحديث بن مالك الأنصاري (كيف أصبحت يا حارث ؟) .

قال : أصبحت مؤمناً حقاً . لقد أجاب الصحابي بكلمة كبيرة المعان وهي الإيمان حقاً ، لذلك قال الرسول : انظروا تقولون إن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟

أجاب الصحابي : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت بذلك ليل وأضلمت نهارى ، وكأني أنظر إلى عرش ذي بربر وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاعون فيها (يتصايحون فيها) .

فقال . « يا حارث . عرفت فللم ثلاثا »^(١) .

والحق ساعة يقول : « س » وساعة يقول : « سوف » فلكل حرف من الحروف الداخلة على الفعل ملحظ ومغزى وكل عطاء من الله جميل . « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار »

والجنة - كما قلنا من قبل - على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهي الجنة بحق ، أما جنة الدنيا فهي الممكن أن يتصوَّح نباتها وشجرها وييس ويتناثر ، أو يصيبها الجلب ، أما جنة الآخرة فهي ذات الأكل الدائم ، وإن لم تطلق كلمة « الجنة » من

١- رواه الطبراني في الكبير وابن جرير في المحلى وضعفه الدارقطني وابن حبان .

أى قيد أو وصف بل قيدت ، فالقصد منها معنى آخر ، كقول الحق :

﴿ إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة القلم)

وقوله سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِرَبْوَةٍ أَصْلَبَهَا وَارْبِلٌ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

والجنة بربرة هي البستان على مكان عال ، وهي ذات مواضع أعلى مما وصل إليه العلم الحديث ، لأن الأرض إذا كانت عالية لا تستطيع المياه الجوفية أن تغدو جذور النبات المزروع في هذه الأرض ، فيظل النبات أنحصر النون ، ويقول الحق عن مثل هذه الجنة :

﴿ فَكَانَتْ أَكْثَلُهَا ضَمَقِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

ويريد على ذلك أنها بربرة ، وأنها تروى بالمطر من أعلى ، ومن الظل ، فتعتمد الرى من المطر للجذور، والظل لغسل الأوراق . كل ذلك يطلق على الجنة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ويظمتنا سبحانه على احتفاظها بنضرتها ونضرتها ، وأول شيء يمنع الخضرة هو أن يقل الماء فتذبل الخضرة

ونجد القرآن مرة يقول : « جنات تجري تحتها الأنهار » وهذا يعنى أن منبع المياه بعيد . ومرة أخرى يقول : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ويعنى أن منبع المياه لن يحجزه أحد ، لأن الأنهار تجري وتنبع من تحتها . وبعد الحق المؤمنين أصحاب العمل الصالح بالخلود في الجنة ، والخلود هو المكث طويلاً ، فإذا قال الحق : « خالدون » أي أنها أبداً ، أى أن المكث في الجنة يستقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وهذا وعد من ؟ « وعد الله حقاً ومن صدق من الله قبيلاً » . وحيى بعدك من

لا يخرج شيء عن إيماد وعنده ، فهذا هو وعد الحق - سبحانه - . أما وعد المساوي لك في البشرية فقد لا يتحقق ، لعله ساعه إنفاذ الوعد بغير رأيه ، أو لا يجد الوجود واليسار والسعة والعنى فلا يستطيع أن يوفى بي وعد به ، أو قد يتغير قلبه من ناحيتك ، لكن الله سبحانه وتعالى لا تتأوله الأغيار ، ولا يعجزه شيء ، وليس معه إله آخر يقول له لا . إن وعده سبحانه لا رجوع فيه ولا يحصى عن تحقيقه

قول الله هنا « وعد الله حقاً ومن صدق من الله قليلاً » هو كلام من ليوضح لكل واحد منا : أنا لا أريد أن أستفهم منك ، لكنه جاء على صورة الاستفهام لتكون الإجابة من الخلق إقراراً منهم بصدق ما يقوله الله ، أيوجد أصدق من الله ؟

وتكون الإجابة : لا يمكن ، حاشا لله ، لأن الكذب إنما يأتي من الكذاب ليحقق لنفسه أمراً لم يكن الصدق ليحققه ، أو الخوف من يكذب عنده ، والله مزه عن ذلك ، فلذا قال قولاً فهو صدق .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ
مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ٢٦٧

والأمية - كما حرما - هي أن يطمح الإنسان إلى شيء محتج مسعد بدون رصيد من عمل ، إن الحق سبحانه وتعالى حينما استغلف الإنسان في الأرض طيب منه أن يستقبل كل شيء صالح في الوجود استقبال المحافظ عليه ، فلا يفسد الصالح بالفعل ، وإن لولد الإنسان طموحاً إلى ما يسعد ، فعليه أن يزيد الصالح صلاحاً .

والمثل الذي نضربه لذلك ، عندما يوجد بشر يشرب منها الخمر ، فهذه البئر لها

حراف وجوانب وأطراف ، وتفسد البثر إذا جاء أحد هذه الحراف والجوانب ما فيها من الأثرية لطمر البثر .

ومن يرد استمرار صلاح البثر فهو يتركها كما هي وبذلك يترك الصالح على صلاحه . وإن شاء إنسان أن يطمع إلى عمل مسعد تمتع له ولغيره فهو يعمل ليزيد الصالح صلاحاً . . . كان يأتي إلى جوانب البثر ويبقى حولها جداراً من الطوب كي لا يتسلل التراب إلى الماء أو على الأقل يصنع خطاً للبثر ، فإن طمع الإنسان أكثر فهو يفكر في راحة الناس ويحاول أن يوفر عليهم المصائب إلى البثر ليعملوا جوارهم ويرحمهم فيمكروا في رفع المياه بمضخة ماصة كابسة إلى صهريج عال ، ثم يخرج من هذا الصهريج الأنابيب لتصل إلى البيوت ، فيأخذ كل واحد المياه وهو مرتاح ، إنه بذلك يزيد الصالح صلاحاً .

أما إن أراد الإنسان أن يطمع إلى تمتع دون عمل . فهذه هي الأمانى الكاذبة . ولو ظل إنسان يحلم بالأماني ولا ينفذها بخطة من عمل . . فهذه هي الأمانى التي لا ثمرة لها سوى الخيبة والتخلف .

إن فالأمنية هي أن يطمع إنسان إلى أمر تمتع مسعد بدون رحمة من عمل ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أعطانا من كل شيء سبباً ، ونلاحظ أن الحق قد قال :

﴿ فَاتَّبِعْ نَبِيَّآ ﴾

(سورة الكهف)

أى أن الإنسان مطالب بأن يصنع أشياء تُرقى أصاليب الحياة في الأرض ، فانه ضمن للإنسان الخليفة مقومات الحياة الضرورية ، وعندما يريد الإنسان الترف والتنعم فلا بد أن يكدح . ومثال ذلك : لقد أعطى الحق الإنسان المطر فيمرل الماء من السماء ، وينزل ماء المطر في مجار مكدحة ، حضرها المطر لنفسه ، وقد يكون في كل مجرى تراب من صخور أو طمي ، لذلك يقوم الإنسان بترويق المياه ، ويرفعها في صهاريج لتأليه إلى المنزل ، وبدلاً من أن يشربها بيده من النهر مباشرة ، يصنع كوباً جميلاً . وصنع الإنسان الكوب في البداية من الفخار ، ثم من مواد مختلفة كالنحاس ثم البلور . وهكذا نجد أن كل طرف يحتاج إلى عمل يوصل إليه ، فلوست المسألة بالأمانى .

وكذلك الانتساب إلى الدين ، ليست المسألة أن يمثل الإنسان ويتسبب إلى الدين شكلاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليحكم بين الناس جميعاً ، ولا يمكن لواحد أن يتسبب شكلاً إلى الإسلام ليأخذ المميزات ويتميز بها عن بقية خلق الله من الديانات الأخرى ، لا ، فالإنسان محكوم بما يدين به . والمسلم أول محكوم بما داد به .

كذلك قال الحق : « ليس بآمانيكم » والخطاب هنا لمن ؟ إن كان الخطاب للمؤمنين فالحق يوضح لهم : يا أيها المؤمنون ليست المسألة مسألة أمانى ، ولكنها مسألة عمل ، لأن انتسابكم للإسلام لا يعفيكم من العمل ، فكم من أناس يمررون الدنيا وتنقضي حياتهم فيها ولا يصنعون حسنة ، فإذا قيل لهم : ولماذا تعيشون الحياة بلا عمل ؟ يقولون : أحسننا الظن بالله . ونسمع الحسن البصري يقول هؤلاء : ليس الإيمان بالثمنى ولكن ما وقروا القلب وصدقه العمل ، إن قوماً ألثمهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله وكلبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له

وسبحانه يقول هؤلاء : « ليس بآمانيكم » . أما إن كان الخطاب موجهاً لغير المؤمنين ، فالحق لم يبع عطاء الدنيا لمن أخذ بالأسباب حتى ولو لم يؤمن . أما جراء الآخرة فهو وعد من سبحانه للمؤمنين الذين عملوا صالحاً ، وهو الوعد الحق بالجنة ، هذا الوعد الحق ليس بالآمانى بل إن الوصول إلى هذا الوعد يكون بالعمل .

إذن فقد يصح أن يكون الخطاب بـ « ليس بآمانيكم » شاملاً أيضاً للكفار والمنافقين وأهل الكتاب . وكان للكفار بعض من الأمانى كقول المنكر للبحث :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾

(سورة الكهف)

هذه هي أمانى الكفار . ولن يتحقق هذا الوعد بالجنة لأهل الكتاب ، فقد قال الحق عن آمانيهم :

﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن صَبَرًا وَهُدًى وَتَوَكَّلَ عَلَىٰ رَبِّهِ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وقالوا :

﴿لَنْ نَحْنَأَ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

كل هذه أمانى حادثة ؛ لأن منتهج الله واحد على الناس أجمعين ، من انتسب للإسلام الذى جاء حاثماً فليعمل ؛ لأن القصة الواضحة التى يحكم بها الله خلقه هى قوله سبحانه : « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجند له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وأبو هريرة رضى الله عنه يقول : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سئدوا وقاربوا فإن نى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والكبة ينكبها » (١) .

وقال بعض العلماء : المراد بالسوء فى هذه الآية هو الشرك بالله ؛ لأن الله وعد أن يعمر بعض الذنوب . واستند فى ذلك إلى قوله الحق :

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كُفُورٍ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الطه)

كان الجزاء المألوم يكون للكفار ، أما الذين آمنوا ، فالإيمان يرفعهم إلى شرف المنزلة لقبيل الله توبتهم ويغفر لهم ، فسبحانه الحق جعل الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينها ، وجعل صلاة الجمعة إلى صلاة الجمعة كفارة لما بينها ، وجعل الحج كفارة لما سبقه ، وكل ذلك امتيازات إيمانية . أما جراء الكفار فهو : « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجند له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

ولا يقال فلان لا يجند إلا إذا بحث هذا الشخص عن شيء فلم يجده ، فالإنسان بفاته لا يستغنى ، ولكن من يعمل سوءاً فليبحث نفسه عن ولى أو نصير وليس يجند .

والرلى هو الذى يلى الإنسان ، أى يقرب منه ، ومثلها النصير والمعاون ، ولا يلى

الإنسان ولا يقرب منه إلا من أحبه . وما دام قد أحب قوياً صعباً ، فهو قادر على الدفاع عنه ومعاونته .

ولمذا أورد الحق هنا « الولي » ، و« النصير » ؟ . والولي - كما عرفنا - هو القريب الذي يلي الإنسان ، أما كلمة « نصير » فتوحى أن هناك معارك وحصومة بين المؤمن وغيره ، وهناك قوة كبرى قد يظهر للإنسان أنها لا تسأل عنه لأنه في سلام ورضاء ، إن هذه القوة عندما تعلم أن هناك حصوماً للمؤمن تأتي لنصرته ، يسيراً لا يجهد الكافر ولياً أو نصيراً ، ولن يجهد من يقرب منه ولن يجهد من ينصره إن حضته الأحداث ، وعرض الأحداث هو الذي يجعل الناس تتعاطف مع المصاب حتى إن البعيد عن الإنسان يعزع إليه لينصره ، لكن أحداً لا ينصر على الله .
ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ
أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝١٢٤﴾

وجاءت كلمتا « ذكر » و« أنثى » هنا حتى لا يفهم أحد أن مجيء الفعل بصيغة التذكير في قوله (يعمل) أن المرأة معصية منه ؛ لأن المرأة في كثير من الأحكام نجد حكمها مطبوعاً في مسألة الرجل ، وفي ذلك إجماع بأن أمرها مبني على الستر

لكن الأشياء التي تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى » . وجاء سبحانه بها بلفظة (من) التي تدل على التبعية . أي على جريء من كل يقول . « ومن يعمل من الصالحات » ولم يقل : « ومن يعمل الصالحات » لأنه يعلم خلقه . فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، هناك من يحاول عمل بعض من الصالحات حسب قدرته . وللطوبى من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه .

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة من صلاحها ، فليقله الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد ، هذه هي أول مرتبة ، ومن بعد ذلك يترقى الإنسان في الأعمال الصالحة التي تتفق مع خلافته في الأرض ، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان في الأرض هو عمل صالح ، فالذي يرفض طريقاً حتى يستريح الناس من التعب عمل صالح ، وحرثة الموصلات للبشر حتى يصعدوا إلى غايتهم عمل صالح ، ومن يعمل على ألا يشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح . وقد يصح الإنسان الأعمال الصالحة وليس في باله إله كعلماء السور المتقدمة غير المؤمنة بإله واحد . كذلك لعلهم الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان ، كرفض طرق وصناعة بعض الآلات التي يتفنع بها الناس ، وقاموا بها للطموح الكسفي ، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف وخدم الإنسانية وينطبق عليه أنه عمل صالحاً ، لكنه غير مؤمن ، لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التي عصوا لها ، وليس لهم جزاء عند الله .

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَسْأَلُونَ نَقِيرًا ۖ ﴾ (١٦)

(سورة النحل)

قد يقول البعض إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءاً وبعد من يقول : من يعمل سوءاً هو الذي يجب أن يتلقى العقاب ، وتلقبه العقاب أمر ليس فيه ظلم ، والحق هو المقاتل .

﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِثْلُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يونس)

ومن يصنع الحسنه بأحد عشرة أمثاله . وقد يكون الجزاء سبعائة ضعف ويأتيه ذلك فضلاً من الله ، والفضل من الله غير مفيد وهو فضل بلا حدود ، فكيف يأتي في

هذا المقام قوله تعالى : (ولا يظلمون نقيراً) وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن ، ونقول : إن الفضل من الخلق خير ملزم لهم ، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهري ، وفي آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة ، وفي شهر آخر لا يعطيه سوى أجره ، وهذه الزيادة إعطائها ومسحها فضل من صاحب العمل . أما الفضل بالنسبة لله فأمره مختلف ، إنه غير محدود ولا رجوع فيه . وهذا هو معنى (ولا يظلمون نقيراً) ، فسبحاته لا يكتفى بجزء صاحب الحسنة بحسنة ، بل يعطى جراء الحسنة عشر أمثالها وإلى سبعائة ضعف ، ولا يتراجع عن الفضل ، فالتراجع في الفضل - بالنسبة لله - هو ظلم للعبد . ولا يقلون الفضل من الله بالفضل من البشر . فالبشر يمكن أن يتراجعوا في الفضل أما الله فلا رجوع عنده عن الفضل .

وهو الغافل :

﴿ قُلْ يُضِلُّ أَفْهَ وَبَرَحْتِهِ تَبْذُلُكَ طَيْرٌ حُرّاً هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٢٦٦)

(سورة يونس)

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقاً لقوله تعالى : « قل أولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » والنقيير هو : القرعة في ظهره النواة ، وهي لمر ضئيل للغاية . وهناك شيء آخر يسمى « الفتيل » وهو الخلة التي تشبه الخيط في بطن نواة التمر ، وشيء ثالث يشبه الورقة ويعلق النواة واسمه « القطمير » .

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة سعراً مدى فضله سبحانه وتعالى في عطائه للمؤمنين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾

وَهُوَ مُحْسِنٌ وَأَتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿٦٧﴾

ومسألة سمع استفهاماً مثل قوله الحق : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله »
فحسن الاستنباط يقتضى أن نفهم أن الذى أسلم وجهه لله هو الأحسن ديناً ، وفى
حديثنا اليومى نقول : ومن أكرم من زيد ؟ . معنى ذلك أن القائل لا يريد أن يصرح
بأن زيدا هو أكرم الناس لكنه يترك ذلك للاستنباط الحسن . ولا يقال مثل هذا على
صورة الاستفهام إلا إذا كان للمخبر عنه عدداً ومعيناً ، والقائل مطمئن إلى أن من
يسمع سؤاله لن يجد جواباً إلا الأمر المحدد المعين لمسئول عنه . وكان الناس مسألاً
تدير رأسها بحثاً عن جواب للسؤال لن نجد إلا ما حنكه السائل .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » والإجابة على مثل هذا السؤال : لا أحد
أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله . وهكذا نرى أن الله يلقى خبراً مؤكداً فى صيغة
سؤال مع أنه لو تكلم بالخبر لكان هو الصديق كله :

﴿ وَمَنْ أصدقَ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة النساء)

وسبحانه يلقى إلينا بالسؤال ليرك لنا حرية الجواب فى الكلام ، كأنه سبحانه
يقول :

- أنا أطرح السؤال عليك أيها الإنسان وأترك لك الإجابة فى إطار ذمتك وحكمك
فقل لى من أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ؟ وتبحث أنت عن الجواب فلا تجد أحسن
من أسلم وجهه لله فنقول :

- لا أحد أحسن من أسلم وجهه لله . وبذلك تكون الإجابة من المخاطب
إقراراً ، والأكراار - كي نعلم - سيد الأدلة .

«ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله» ونعلم أن الكلمة إذا أضلقت في عدة مواضع فهي لا تأخذ معنى واحداً . بل يتطلب كل موضع معنى يفرضه سياق الكلام ، فإذا قال الله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

فذلك لأن الوجه هو العضو المواجه الذي ترجع به تميزات تبيين وتوضيح ملامح الأشخاص . لأننا بن نتعرف على واحد من كتفه أو من رجله ، بل نتعرف الأشخاص من سمات الوجوه .

وعندما نسمع قول الحق :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

فإننا ننسأل : ما المراد بالوجه هنا ؟

إن أردنا الوجه الذي يشبه وجوهنا فهذا وقوع في المحذور ، لأن كل شيء متعلق بالله سبحانه وتعالى فألحظه على ضوء « ليس كمثله شيء » نفوق ذلك حتى لا يقولن قائل . مادام وجه الله هو الذي لن يهلك يوم القيامة فهل يهلك بده أو غير ذلك ؟ لا : إن الحق حين قال : « كل شيء هالك إلا وجهه » فالقصد بذلك ذاته فهو سبحانه وتعالى منزه عن التشبيه وسبحانه القائل :

﴿ قَائِمًا تَلَوُّوا لَهُمْ رَجَّهُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

إذن وجه الله - هنا - هو الجهة التي يرنضها ، والإنسان يتجه بوجهه إلى الكعبة في أثناء الصلاة . وإياك أن تظن أنك حينما تولي وجهك صوب الكعبة أنها وجه الله ، لأن الله موجود في كل الوجود ، فأى متجه للإنسان سيجد فيه الله ، بلليل أننا نصل حول الكعبة ، ونكون شرق واحد وغرب آخر ، وشمال ثالث ، وجنوب رابع ، فكل الجهات موجودة في أثناء الطواف حول الكعبة وفي أثناء الصلاة ، والكعبة موجودة هكذا للطواف حولها ، ولتكون متجهها إلى الله في جميع الاتجاهات .

﴿قَابَسَمَاءُ تَوَلَّوْا أَنْتُمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

أي الجهة التي ارتضاهما سبحانه وتعالى .

وبمعنى هنا في هذه الآية نرى قول الله : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » .
وأسلم وجهه أي أسلم اتجاهه ؛ لأن الإنسان حين يكون ذاهباً إلى قصد أو هدف أو
غرض ، فيكون وجهه هو اتجاهه ؛ لأن الإنسان لا يسير بظهره . والوجه هنا - إذن -
هو الاتجاه .

ولماذا جاء الخلق بالوجه فقط ، برغم أن المؤمن يسلم مع الوجه كل الجوارح ؟
لأن الوجه أشرف الأعضاء ، ولذلك جعل سبحانه السجود أشرف موقع للعبد ؛ لأن
القائمة العالية وانوجه الذي يحرص الإنسان على نظافته يسجد لله .

إذن أسلم وجهه لله ، أي أسلم وجهته واتجاهه لله ، ومعنى « أسلم » من
الإسلام ، فـ « أسلم » تعني : سلم زمام أموره لواحد . وحين يسلم الإنسان زمامه
إلى مساو له فهذه شهادة لهذا المساوي أنه يعرف في هذا الأمر أفضل منه . ولا يسلم
لما ولا إن شهد له قل أن يلقي إليه بزمامه أنه صاحب حكمة وعلم وتداية عنه
فإن لم يلمس الإنسان ذلك قلن يسلم له . وما أجدر للإنسان أن يسلم نفسه لمن
خلقه ، أليس هذا هو أفضل الأمور ؟

إن الإنسان قد يسلم زمامه لإنسان آخر لأنه يظن فيه الحكمة ، ولكن أبيض أن
يبنى هذا الإنسان حكماً ؟ أنه كإنسان هو ابن أعين ، وقد يتغير قلبه أو أن المسألة
المسلم له بها تكون مستعصية عليه ، لكن عندما أسلم زمامي لمن خلقتي فهذا مستهين
الحكمة . ولذلك قلنا : إن الإسلام هو أن تسلم زمامك لمن آمنت به إلهاً قوياً وقادراً
وحكماً وعيياً وله القيومية في كل زمان ومكان . وحين يسلم الإنسان وجهه لله قلن
يصنع عملاً إلا كانت وجهته إلى الله

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة البقرة)

ولماذا جاءت كلمة « محس » هنا ؟ وقد تكلم صلى الله عليه وسلم عن الإحسان ، ويعرف أننا آمننا بالله غيباً ، لكن عندما ندخل بالإيمان إلى مقام الإحسان ، فبت بعبد الله كأننا نراه فإن لم تكن نراه فهو يرانا . والحوار الذي دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد صحابته وكان اسمه الحارث فقال له : « كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤمن حقا فقلل الرسول صلى الله عليه وسلم : « انظر ما تقول ؟ فإن بكل شيء حقيقة بما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت لذلك ليل وأظلمات نهارى ، وكان أنظر إلى عرش ربه باروا ، وكان أنظر إلى أهل الحبه يترأفون فيها وكان أنظر إلى أهل النار يتصافعون فيها (يتصاحبون فيها) فقال « يا حارث عرفت فالتزم ثلاثاً » (١)

ويعرف الإنسان من أهل الصلاح أنه في لقاء دائم مع الله ، لذلك يضع برنامجاً لنفسه موجزاً أنه يعلم أنه لا يخلو من ظن الله إليه (وهو معكم أينما كنتم) إنه يستحضر أنه لا يحيب من الله طرفه عين فيستحي أن يعصيه .

ويوضح الحديث ما رواه سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما سأل جبريل - عليه السلام - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال له : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٢) .

وعندما تتيقن أن الله ينظر إليك فكيف تمصيه ؟ أنت لا تجرؤ أن تفعل ذلك مع عبدٍ مساوٍ لك . فكيف تفعله مع الله ؟ (٣)

وتسجل العظيمة في قوله الحق : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن وتبوع ملة إبراهيم حنيفاً » لماذا إذن « ملة إبراهيم » ؟ لأن القرآن يقول عن إبراهيم :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ هَكَذَا أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ومعنى كونه « أُمَّةً » : أنه اجماع لكل حصال الخير التي لا تكاد تجتمع في فرد إلا

١- رواه الطبراني في الكبير وأبو يعقوب في المعجم وصنفه الدارقطني وابن حبان

٢- من حديث طويل رواه الإمام مسلم

إن وزعنا الخصال في أمة بأكملها ، فهذا شجاع وذلك حليم والثالث عالم والرابع قوى ، وهذه الصفات الخيرة كلها لا تجتمع في فرد واحد إلا إذا جمعناها من أمة وأراد الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام أن يكون جامعاً لخير كثير موصيه بقوله .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ويقول هنا عن ملة إبراهيم « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » والملة هي الديانة « حنيفاً » أى « مائلاً عن الباطل إلى الحق » والمعنى الغيبي لكلمة « حنيف » أنه هو « المائل » . وكان إبراهيم حنيفاً عن الباطل . ومعنى ترسل الرسل إلى الأتوام يعرف أن الرسل تأتي إذا طمّ الفساد وعم ، وحين تكون المجتمعات قادرة على إصلاح الفساد الذى فيها . فالحق سبحانه يجهل الناس ويظهرهم ، لكن إذا ما بلغ الفساد أوجّه ، فالحق يرسل رسولاً . وحين يأتي الرسول إلى قوم ينتشر فيهم الفساد ، فالرسول يميل من الفساد ، بهذا يكون الميل عن الاعوجاج اعتدالاً . « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالعناية الواضحة « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » فما هي حيثيات الخلّة ؟ لأنه يتبع أفضل دين ، ويسلم له وجهه ، وكان محسباً ، واتبع الملة . وكان حنيفاً ، هذه هي حيثيات الخلّة . وكلها كانت صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام

لقد حدثونا أن جبريل عليه السلام قد جاء لسيدنا إبراهيم عندما ألقاه أهله في اسار ، فقال جبريل يا إبراهيم : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم « أما إليك فلا » ، فقال جبريل فاصأل ربك فقال : « حسبي من سؤالى علمه بحالى » فقال الله : « يا نازكوفى برداً وسلاماً على إبراهيم »^(١) أى أنه لا يطلب من جبريل بدائه شيئاً وتلك قمة الإسلام لله . كما أننا نعرف مدى انس الناس بأبنائها ؛ ونعلم أن إسماعيل قد جاءه ولداً في آخر حياته ، وأوصح له خلق أنه مثليه ، وكان الابنلاء عديه في الصعوبة ؛ فالابن لا يموت ؛ ولا يفته أحد ولكن يقوم الأب بديحه ، فكم درجة من الانتلاء مر بها إبراهيم عليه السلام ؟!

١- من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، وذكر نحوه في تفسير ابن كثير وفي الكشف للزمخشري

وساد إبراهيم لتتميد أمر ربه ، ولذلك نقرأ على لسان إبراهيم عليه السلام .

﴿ يٰٓيٰسُوٓءَ الْاٰرَآءِ اِنِّىۤ اَرٰى فِى الْاٰلَمِ اِنَّ اَذْبَحُكَ فَانْطَرَ مَاذَا تَرٰى ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ويجعل الحق ذلك برؤيا فى المنام لا بالوحي المباشر . ولسطر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام لم يفعل . « افعل ما يد لك يا أبى ، ولكنه قال :

﴿ يٰٓكَأَيَّ اَفْعَلٍ مَّا تُوْمَرُ سَتَجِدُنِىۤ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

أى أن إسماعيل وإبراهيم أسلما معا لأمر الله .

فهاذ فعل الله ؟

﴿ وَتَنبِيْهُۥ اَنْ يَّكْرِهِيْمُ ۝۱۱۱ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْبَاۤ اِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُتَحَنِّنِ ۝۱۱۲ اِنْ هٰذَا هُوَ الْبَلَاءُ الَّذِىۤ اُنۢبِىۡنُ ۝۱۱۳ وَلَلَنَبِيُّۨ يَدِيۡجُ عَظِيْمٌ ۝۱۱۴ وَرَوَّكَّاۤ اَعۡلٰى فِى الْاٰخِرِيۡنَ ۝۱۱۵ سَنُمۡ عَلٰى اِيۡرَهِىۡمَ ۝۱۱۶ كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُتَحَنِّنِ ۝۱۱۷ اِنۡتُمۡ مِّنۡ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِيۡنَ ۝۱۱۸ وَبَشِّرۡهُ بِاَحْسَنۡ نِّبَاۤىۡنَ الصّٰلِحِيۡنَ ۝۱۱۹ ﴾

(سورة الصافات)

ولا يكتفى الحق بإعطاء إبراهيم وإسماعيل أباً ، وله فداء ، ولكن ررق الله إبراهيم بابن آخر هو إسحاق . « وانحمد الله إبراهيم حليلاً »

وجلس العلماء ليسخروا معنى كلمة « خليلاً » ، ويبحثوا ما فيها من صفات ، وكل الأساليب التى وردت فيها . والكلمة مأخوذة من « الخفاء ولا م ولا م » وه الخل . - بفتح الخاء - هو الطريق فى الرمل ، وهو ما سمي به فى عرفنا « عدناً » ، وعادة يكون ضيقاً ، وحبيب يسير فيه انسان فهما يتكاتفان إن كان بينهما ود عال ، وإن لم يكن بينهما ود فواحد يمشى خلف الآخر . ولذلك سموا الاثنين الذين يسيران متكاتفين « خليل » فكلاهما متحليل فى الآخر أى متداخل فيه . و« خليل » أيضاً هو من يسد حلل

صاحبه . والخيل هو الذي يتحد ويتوفق مع صديقه في الجلال والصفات والأحلاق . أو هو من يتحلل إليه الإنسان في مساتره ، ويتحلل هو أيضاً في مسائر الإنسان . والإنسان قد يستقبل واحداً من أصحابه في أى مكان سواء في أصالون أو في غرفة المكتب أو في غرفه النوم . لكن هناك من لا يستمله إلا في أصالون أو في غرفة المكتب .

« واتخذ الله إبراهيم خليلًا » أى اصطفاه احق اصطفاة خاصاً ، والحب قد يُشارك فيه ، فهو سبحانه يحب واحداً وآخر وثالثاً ورابعاً وكل المؤمنين ، فهو القائل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ النَّوَّابِينَ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

وسبحانه القائل :

﴿ لَئِنْ آتَىٰ اللَّهُ بِمَنَّانٍ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة آل عمران)

وهو معلما

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة آل عمران)

ويقول لنا :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة آل عمران)

ويقول أيضاً :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٨ سورة الممتحنة)

لكنه اصطفاى إبراهيم خليلًا ، أى لا مشاركة لأحد في مكانته ، أما الحب عيعم ، ولكن الخلّة لا مشاركة فيها . ولذلك فرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى

قومه قائلاً : (أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر من أي صحابة خليلاً وإن صاحبكم خليل الله تعالى) يعني نفسه (١) .

واسماعيل صبرى الشاعر المصرى الذى كان اسبق من احمد شوقى وكان شيعيا للقبضة . التفت هذا المعنى من القرآن ومن الألفاظ التى دارت عليه فى القرآن ، ويقول :

ولما اتقينا قرب الشوق جهده
خيلين زادا لوعة وعتابا
كان خيلاً في خلال خيله
تسرب أثناء المعنق وغابا

وشاعر آخر يقول :

ففيها خدمة تبقى بها واحداً

ولكن إسماعيل صبري قال ما يفوق هذا المعنى : لقد تخللنا كأن بعضنا قد غاب في البعض الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَكَانَ
 اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ ﴿١٦﴾

ومسبحانه أوضح في آية سابقة أنه لا ولي ولا نصير للكافرين أو للمنافقين .

ويؤكد لنا المعنى هنا : إياكم أن تظنوا أن هناك مَهْرَباً أو محبصاً أو معزلاً أو مفراً ،

۱ - رواہ مسلم و احمد عن ابن مسعود و ابن الجاری (لو كنت متخذاً خليلاً غيري لاتخذت اباً بكم ولكن اخوة

الإسلام وموقفه

ملكه ما في السموات وما في الأرض ، فلا السموات تُؤوي هارباً منه ، ولا من في السموات يعاون هارباً منه ، وسجاته المحيط علماً بكل شيء ، والقادر على كل شيء .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَنَصَّحْنَهُنَّ الَّذِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ وَالسُّتَضْعَفِينَ مِنَ آلِ الْوَلَدَيْنِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۝١٢٧﴾

« يستفتونك » أي يطلبون الفتيا ، ونعرف أن الدين قد مر بمراحل منها قول الحق : (يسألونك) .

وهي تعبير عن سؤال المؤمنين في مواضع كثيرة . ومرحلة ثانية هي « يستفتونك » . وما الفارق بين الاثنين ؟

لقد سألوا عن الخمر والأهلة والمعيص والإتفاق . والسؤال هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه قال :

« ذروني ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم عن أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »^(١)

أى أنه طلب منهم ألا ينشروا ولا يُفتشوا في أشياء قد يحملون بها على أنفسهم تكاليف جديدة ، ومع ذلك سألوه عن رغبة أى حكم يحدد حركة الإنسان في الحياة .

ولو كانوا لا يريدون تحديد حركة حياتهم فلماذا سألوه ؟ . كان السؤال دليلاً على أن السائل قد عشق منهج الله فأحب أن يجعل منهج الله مسيطراً على كل أفعاله ، قاله الذى أجله وأوجزه الله يجب أن يسأل عنه

وأيضاً فالإسلام جاء ليحدد عادات الدنيا مليحة وللعرب ولهم أحكام يسبرون عليها صنعوها لأنفسهم فلم يغير الإسلام فيها شيئاً ، فما أحبوا أن يستمروا في ذلك لمجرد أنه من عمل آبائهم ، ولكن أحبوا أن يكون كل سلوكهم من صميم أمر الإسلام ، لذلك سألوه في أشياء كثيرة

أما الاستفتاء فهو عن أمر قد يوحد فيه حكم ملتبس ، ولذلك يقول الواحد في أمر ما . فلست أنت وحدك في هذا الأمر ، لأن معنى الاستفتاء عدم قدرة واحد من الناس أو جماعة منهم في استنباط حكم أو معرفة هذا الحكم ، ولذلك يردون هذا الأمر إلى أهله .

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

الاستفتاء - إذن - يكون لحكم موجود ، ولكن المستفتى لا يملك القدرة على استنباطه . ولذلك نجد المجتمعات الإسلامية تخصص ذاراً للإفتاء ، لأن المؤمن قد لا يعلم كل الجزئيات في الدين . وقد يعيش حياته ولا يمر به هذه الجزئيات ، مثل أبواب الوقف أو المضاربة أو الميراث ، فإن حدثت له مسألة فهو يستفتى فيها أهل الذكر . فالسؤال يكون محل العمل الرقيب ، أما الفتوى فهي في أمر ليس المطلوب أن تكون المعرفة به عامة . ولذلك يتجه المستفتى إلى أهل الذكر طالباً الفتيا .

والحق يقول . (ويستفتوك في النساء) كأنهم قالوا للرسول : نريد حكم الله فيها يتعلق بالنساء حلاً وحرمة ونصرفاً .



فكيف يكون الجواب ؟ : « قل الله يفتيكم فيها » ولم يؤجل الله الفتوى لاستفتائهم بل سبق أن قاله ، وعلى الرغم من ذلك فإنه - سبحانه - يفتيهم من جليده .

لعل الحكم الذى نزل أولاً ليس على باهم أو ليسوا على ذكر منه .

يقال الحق :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَنَصَّىٰ النَّسَاءَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

أى أن الحق يفتيكم في أمرهن ، ومسبق أن نزل في الكتاب ، آية من سورة النساء . قال الحق فيها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِثْلَهُنَّ وَلَوْلَا تَرُدُّنَّكَ

(من الآية ٣ سورة النساء)

وتوالت آيات من بعد ذلك في أمر النساء .

فقوله الحق : « قل الله يفتيكم فيها وما يتلى عليكم في الكتاب » .

إنما يعلمنا أن الإنسان لا يصح أن يتمجّل الاستفتاء في شيء إلا إذا استعرض قبل ذلك ما عنده من علم لعله يجد فيه الجواب الذى يفتيه عن أن يستحق

ومع أن الاستفتاء في أمر النساء جملة : صغيرات وكبيرات ، بنات وبنات ، فلماذا جاء الجواب في تناسى النساء ؛ لأن النساء الكبيرات هي القادرة على أن يحسن أمرهن ، ولهن ضميريات ، أما الشبية فهي ضعيفة الضميريات ، وعرفنا معنى التيمم ، والتميم حيث لا يبلغ الإنسان البالغ الذى يصح فيه مستقلاً ، فلا يقال لمن بلغ حد البلوغ سواء أكان رجلاً أم امرأة أنه يتيم ، لذلك جاء الجواب خاصاً بتماسى النساء ؛ لأن يتمى النساء هن دائماً تحت أولياء ، هؤلاء الأولياء الذين نسميهم في

عصرنا بعد الأوصياء . وكان للأوصياء حالتان : فإن كانت البنت جميلة وذات مال فالوصى يجب أن يتكهنها ليستمتع بجمالها ويستولي على مالها . وإن كانت دمية فالوصى لا يرغب في زواجها لذلك يعضلها ، أي يمنعها من أن تتزوج ، لأنها إن تزوجت فسيكون الزوج هو الأولى بالمال .

فلاحتاجت هذه المسألة إلى تشريع واضح . وهنا نحن أولاء نجد سيدنا عمر - رضي الله عنه - وكانت له الفراسات التي تسمى الفراسات القلروقية وجاءه واحد يسأله عن أمر بئمة تحت وصايته ، فقال سيدنا عمر :

- إن كانت جميلة فدعها تأخذ خيراً منك ، وإن كانت دمية فخذها زوجة وليكن مالها شافعياً للمعامتها .

ويقول الحق :

﴿ وَمَا يَنْتَظِرُ عَلَيْكُمْ فِي آلِكَتَابٍ فِي يَتَنَصَّى النِّسَاءُ الَّتِي لَا تُزَوِّجُهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

والذي كتب لمن إما أن يكون مهوراً . وإما أن يكون تركة ، وجاء القول الحكيم ليرفع عن المرأة عسف الولي . وجاء الأمر بهذا الأسلوب العالي الذي لا يمكن أن يقوله غير رب كريم ، وسجد مادة « رغب » تعني « أحب » . فإذا ما كان الحال « أحب أن يكون » يقال : « رغب فيه » ، وإذا « أحب ألا يكون » فيقال : « رغب عنه » . ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة البقرة)

ومادامت « عن » جاءت كما في الآية فما بعدها هو المتروك . لكن لو كان القول « رغب في » فهو لأمر محبوب . وكلمة « ترغبون » في هذه الآية سجدها محذوفة الحرف الذي يقوم بالتعدي حياً أو كرهاً ، لأنها تقصد المعنيين . فإن كانت الرغبة في المرأة . تصير « ترغبون في » وإن كانت المرأة دمية وزهد فيها فالقول يكون « ترغبون عن » ولا يفكر أحد غير الله على أن يأل بأسلوب يجمع بين المرفقين المتناقضين . وجاء الحق ليقتل للأمرين معاً .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالقول : « والمستضعفين من الولدان » بجانب اليهيات

وهو الصنف المستضعف الآخر ، أى اليتيم الذى لم يبلغ مبلغ الرجال ، وحيها يتكلم سبحانه عن الولاية والوصاية من مثل هؤلاء فهو يتكلم بأسلوبين اثنين ، وإن لم يكن للإنسان منة استقلال الأسلوب البليغ فقد يقرب : هذا كلام متناقض ، لكن لو تمتع الإنسان بملكة استقلال الأسلوب البليغ فقد يقول : إن عظمت هذا الأسلوب لا يمكن أن يأن به إلا رب كريم . فاحق قال :

﴿ وَلَا تَنْزُتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

قال الله ذلك على الرغم من أن الأموال هي في الأصل ملك للسفهاء ، فإما ليس ماله إلى أن يعود إليه رشده ، وقد جعل الإسلام الأحوه الإيمانية للتكافل والتكافل ، ومساعدة يرى المسلمون واحداً من السفهاء فهم يجبرون على سلوكه حمية لماله من سفهه ، والمال يهان ويحفظ ويحفظ ويطلب من الوصي والولي أن يحميه ، هذا ما قاله الحق في السفهاء .

واحق يتكلم في اليتامى فيقول سبحانه -

﴿ وَابْتَغُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

لأن السفه أو المذر ليس لأى منها سلطة التصرف في المال بل سلطة التصرف تكون للوصى ، ويتسبب المال في هذه الحالة للوصى لأنه القائم عليه والحفظ له ، لكن ما إن يبلغ القاصر الرشد فعل الوصى أن يرد له المال

وبحق إمام آية تصح المواعيد لليتامى من النساء والمستضعفين من الولدان .

﴿ وَمَا يُبَلِّغُ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمِّ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يُولُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْجُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقْرُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة النساء)

ما معنى القيامة لليتامى بالقسط ؟ والقسط - بالكسر - تعنى العدل . وتختلف عن « القسط » - بفتح القاف - وهو يعنى الجور ، قَسَطَ - يَقْسُطُ أى عدل ، وقسط يَقْسُطُ ، أى جار ، فالعدل مصدره « القسط » بالكسر للقاف ، والجور مصدره « القسط » بالفتح للقاف .

وبعض من الذين يريدون الاستدراك على كلام الله سبحانه بنير علم - قالوا .
- يأتى القرآن بالقسط بمعنى العدل فى آيات متعددة ، ثم يأتى فى موقع آخر ليقول :

﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾

(سورة الجن)

وه «القاسطون» هى اسم فاعل من قسط ، ونفون . ومن قال لكم : إن « قسط » تستخدم فقط فى معنى « عدل » ، إنه يستعمل فى « عدل » وفى « جار » ، ومسحابه يقول عن العادلين :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

لقاسط يذهب إلى النار ، وهى مأخوذة من « قَسَطَ يَقْسُطُ » . والقسط يذهب إلى الجنة ، ومقسط مأخوذة من أقسط .

وعندما نرى « أقسط » براها تبدأ حمرة الإزالة ، أى كان هناك جور فأزلناه . أما القسط - بالكسر - فهو العدل من البداية والمقسط هو الذى وجد جوراً فأزاله ، والذى يعصل بين الاثنين هو العمل المضارع ، فعلى العدل هو « يقسط » بكسر السين فى المضارع ، أما يقسط - بضم السين فى المضارع - تعنى « يجور ويعلم » ومن ههنا الدعة نجد اللص الواحد يستعمل لأكثر من معنى ؛ ليتعلم الإنسان لياقة الاستقبال ، وليفهم الكلمات فى ضوء السياق .

وقديماً كانت اللغة ملكة لا صناعة كما هى الآن فى عصرنا . كانت اللغة ملكة إلى درجة أنهم إذا شكلوا الكتاب إلى الموصل إليه يفضى ، ويرد الكتاب إلى مرسله ويقول لمن أرسله : أتشك فى قدرى على قراءة كتابك دون تشكيل ؟ فتشكيل

الكتاب سوء ظن بالكتوب إليه ، وفي عصرنا نجد من يلقي خطاباً يطلب تشكيل الخطب حتى ينطق النطق السليم .

ولحق سبحانه وتعالى بقول : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » وجاء الحكم في قوله الحق : (وآتوا اليتامى أموالهم) وسبحانه ينكلم في المهور والأموال ويرتفع بالأمر إلى مرتبة اعتبار حسن التصرف في أمور اليتامى من المسئولية الإيمانية ، فقد تكون اليتيمة لا مال لها وليست جبهة حتى يطمع فيها أو في مالها ، وفي هذه الحالة يجب على الولي أن يروعاها ويرعى حق الله فيها .

وقوله الحق : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » هو أمر بأد يقوم المؤمن على أمر ليتامى بالعدل ، لأن اليتيمة قد تكون مع الولي ومع أهله ، وقد يكون لليتيمة شيء من الوسيلة ، فسرع إليها الولي بعطف وحنان زائد عن أولاده ، وبنه الحق أن رعاية اليتيمة يجب أن تتسم بالعدل ، ولا تزيد ويقول سبحانه :

« وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً » ليدلنا على أد أمر العمل والقيام به ليس مناط الجزاء ، ولكن أمر النية في الفعل هو مناط الجزاء ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : فعلت ، ولكن قل : فعلت بنية كذا .

إن الذي يسمع عن رأس اليتيم يكون صاحب حظ عظيم في الثواب ، ومن يكفل ليتيم فهو مع النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة . والذي يفكر ذلك هو الله - سبحانه - العليم بالخفايا حسب نية الشخص الذي يقوم بهذا العمل ، فقد يتقرب واحد من يتيم ويتكلف العطف والحنان بينما يقصد التقرب إلى أم اليتيم ؛ لذلك فمناط الجزاء ومناط الثواب هو في النية الدافعة والباعثة على العمل . ولا يخفى أن يقول الإنسان : إن نيتي طيبة ، ولا يعمل ؛ فالحديث الشريف يقول :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(١)

أى لا بد من ارتباط واقتران النية بالعمل ، لأن الله يريد منا أن نعمل الخير وبذلك يمدى الإنسان الخير من نفسه إلى غيره وهذا هو المطلوب ، فوجود النية للخير وحدها لا يكفي ، وإن اعتقد الإنسان النية وأدى العمل فغيره يأخذ غيره ولا يأخذ هو شيئاً سوى التعب . فإن أراد الإنسان أن يكون له ثواب فلا بد من وجود نية طيبة ، وعمل صالح .

ولم يقل الحق : « وما تعملوا من خير فإن الله به عليم » ، لأنه سبحانه عليم لا بعد أن يصنع العمل بل بكمال قدرته يعلم قبل أن نصنع الخير ، وكل شيء كان معلوماً لله قبل أن يخلق الوجود ، ولا يتصور سبحانه إلى أن يقوم الإنسان بالعمل حتى يحصل ويحدث منه العلم ، بل إنه - جل شأنه - يعلم كل شيء عليها أرضاً ، لذلك قال : « فإن الله كان به عليم » ، لأن كل أمر برز في الوجود إنما كان على وفق ما علمه الله أولاً قبل أن يوجد الوجود .

وفي المجال البشري يرى المهندس يتلقى التعليمات من صاحب الأرض الخلاء ويقول له : صمم لي قصراً صغيراً من مساحة كذا ومكوناً من كذا حجرة . وعدد محدود من دورات المياه ، وبعد ذلك يصمم المهندس الرسم الهندسي على الورق حسب أوامر صاحب الأرض . وقد يكون صاحب الأرض دقيقاً فطنا غاية في الدقة فيقول للمهندس : إنني أريد أن تصنع لي نموذجاً صغيراً قبل لباء بحيث أرى تطبيقاً واقعياً بمقياس هندسي مصغر ، وأن تبني الحجرات بقطاعات واضحة حتى أرى ألوانها وكيفيةها .

هكذا العالم قبل أن يوجد ، كان معلوماً علماً تفصيلياً بكل دقائقه وأبعاده عند خالفه ، والنهائج المصغرة التي يصنعها البشر قد يقصر البشر فيها عن صناعة شيء لعدم توافر المواد ، كالجار الذي يقصر في صنع حجرة نوم من خشب المورد لتدريته ، فيستعصم بخشب من نوع آخر ، وذلك خلل في علم وقدرته المنفذ . أما خلق الله فهو يبلغ تمام الدقة ، لأنه - سبحانه - هو الصانع الأول . هذا ما يجب أن نفهمه عندما نقرأ : « فإن الله كان به عليم » .

وبعد ذلك يتكلم الحق عما يتعلق بالنساء فيقول :

﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاصًا
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا
وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ
تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا﴾

وساعة نرى «إن» وبعدها اسم مرفوع كما في قوله :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾

(من الآية ٦ سورة النوبة)

فلنعرف أن «إن» هذه داخلة على فعل ، أي أن ترتيبها الأساسي هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره . وهذا في هذه الآية : يكون التقدير : وإن خافت امرأة من بعليها نشوزاً ، وما الخوف ؟ . هو توقع أمر محزن أو مسيء ؛ لم يحدث بعد ولكن الإنسان ينتظره ، وحين يخاف الإنسان فهو يتوقع حدوث الأمر السيئ . وهكذا نجد أن الخوف هو توقع ما يمكن أن يكون متعباً . وقوله الحق : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ، أي أن النشوز لم يحدث ولكن المرأة تخاف أن يحدث . ورتب الحق الحكم على مجرد الخوف من النشوز لا حدوث النشوز بالفعل ، وهذه لفظة بكل منا ألا يترك المسائل حتى تقع ، بل عليه أن يتلافى أسبابها قبل أن تقع ؛ لأنها إن وقعت ربما استعصى عليه تداركها وإن رأت المرأة بعضاً من ملامح نشوز الزوج فعليها أن تعالج الأمر .

ونلاحظ أن الحق يتكلم هنا عن نشوز الرجل ، وسبق أن تكلم سبحانه عن نشوز المرأة :

﴿وَالَّذِي تَخْتَفُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾

(من الآية ٣٤ سورة النساء)

ما النشور؟ عندما نسمع عن الموسيقى نجد من يقول: « هذه نغمة تشتر » أي أنها نغمة خرجت عن تسلسل النغم وإيقاعه . والأصل فيها مأخوذ من التشتر ، وهو ما ارتفع وظهر من الأرض ، والمفروض في الأرض أن تكون مبسوطة ، فإن وجدت فيها ثلوا فهذا اسمه نشور .

والأصل في علاقة الرجل بزوجه ، أن الرجل قد أخذ المرأة مكملاً له ومودة ورحمة وأنضى إليها وأنضت إليه ، واشترط الفقهاء في الزواج التكافؤ أي أن يكون الزوجان متضاربين ، ولذلك قال الحق :

﴿ الْحَبِيبَتُ قَهْرِيَّيْنِ وَالْحَبِيبُوتُ لِحَبِيبَتٍ وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبَتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

حتى الكفاءة تكون في الطيبة أو الخبيث ، فلا يأتي واحد بل امرأة خبيثة ويزوجها لرجل طيب كي لا تتعبه ، ولا يأتي واحد برجل خبيث ويروجه بامرأة طيبة كي لا يتعبها ، لأن الطيب عندما يتزوج طيبة تربحه وتقدره

وكذلك الخبيث عندما يتزوج خبيثة فإنها يتوافقان في الطباع والسلوك ، وفي هذا توازن ، والخبيث إن لم ينجل من العفوية ، فالحقيقة لا تنجل منها أيضاً ، أما الطيب والطيبة فكلاهما ينجي على مشاعر الآخر ويحافظ على كرامته ، فإن خافت امرأة من بعلها نشوراً أي ارتفاعاً عن المستوى المفترض في المعاملة ، في السكن والمودة والرحمة التي ينبغي أن تكون موجودة بين الزوجين ، وهي قد أنضت إليه وأنضى إليها ، فإن خافت أن يستنص عيبها بنفسه أو بالنفقة أو بإيصالها بالاحتقار ، أو ضاعت منه مودته أو رحمته ، هذا كله نشور . وقبل حدوث ذلك على الزوجة الذكية أن تتنبه لنفسها وترى ملامح ذلك النشور في الزوج قبل أن يقع ، فإن كانت الأسباب من جهتها فعليها أن تعالج هذه الأسباب ، وترجع إلى نفسها وتصلح من الأمر . وإن كانت من تحول كسب مودته مرة أخرى .

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوراً أو إعرضاً والإعراض يعني أنه لم ينشز بعد ولكنه لا يؤانس الزوجة ولا يحدثها ولا يلاطفها على الرغم من أنه يعطيها كل حقوقها . وعلى المرأة أن تعالج هذه المسألة أيضاً . والقضية التي بين اثنين - كما قلنا - وقال الله عنها :

﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكَ إِلَى بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

وقال في ذلك أيضاً :

﴿ هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أن يغطى الرجل المرأة ويغطي المرأة الرجل فهي ستر له وهو ستر لها وحماية .
ونعرف أن المرأة إن دخل عليها أبوها أو أخوها فهي تدارى أى جزء ظاهر من
جسمها ، أما عندما يدخل عليها زوجها فلا تستر ولا تغطي شيئاً .

ونعرف كل رجل متزوج وكل امرأة متزوجة أن بينهما إضاعة متبادلاً ، فقد أباح الله
للرجل من زوجته ما لا يباح لأحد ، وكذلك المرأة ، فلا يقول الرجل أى نعت أو
وصف جارح للمرأة ، وعلى المرأة أن تحافظ كذلك على زوجها ولها أن تذكر أنها
أطلعت على عورته بحق الله ، وأطلع على عورتها بحق الله .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يمس هذا الخلاف قبل أن يقع ؛ لذلك أوجب على
المرأة أن تبحث عن سبب التنزول وسبب الإعراض فقد تكون قد كبرت في العمر أو
نزلت بها علة ومرض وما زال في الرجل بقية من فتوة . وقد يصحح أن امرأة أخرى قد
استهانت ، أو يرغب في الزواج بأخرى لأى سبب من الأسباب ، هنا على المرأة أن
تعالج المسألة علاج العقل والتنازل من نفسها ، فقد تكون غير مريحة وأراد هو
الزواج فلتسمح له بذلك ، أو تتنازل له عن شيء من المهر ، المهم أن يدور الصلح
بين الرجل وزوجته ، وهي مهمة الرجل كما أنها مهمة المرأة .

« فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً » والصلح هنا مهمة الاثنين معاً ؛ لأن
كل مشكلة لا تعدى الرجل والمرأة يكون حلها يسيراً ، والذي يجعل المشكلات
صعبة هم هؤلاء الذين يتدخلون في العلاقة بين الرجل والمرأة ، وليس بينهما ما بين
الرجل والمرأة ، والرجل قد يختلف مع المرأة ويخرج من المنزل ويبدأ ويعود ، فتقول له
الزوجة كلمة تكسر اخلاف لكن إن تدخل أحد الأقارب فالمشكلة قد تتعقد من تدخل
من لا يملك سبباً أو دافعاً لحل المشكلة .

لذلك يجب أن ننتبه إلى قول الحق هـ . « فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما »

وأرى درجاب الصلح بين الرجل والمرأة هو أن يقوم كل منهما بمسئوليته وليتذكر
الاثنان قول الحق .

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ١٩ سورة النساء)

ولا يظن رجل أن هناك امرأة هي مجمع كل الجمال والخير ؛ لأن كل حصان
الخير التي تتطلبها الحياة ، قد لا تتوافر في المرأة الجميلة . بل قد توجد في المرأة التي
ليست على حظ من الحسن ؛ لأن ذات الحسن قد تستند إلى رصيد حسنها . أما التي
ليس لها حظ من الحسن فهي تحاول أن تكون آمنة ومطبعة ومديرة وحسنة التصرف
مع أهل الزوج ؛ لأنها تريد أن تسبق لنفسها رصيد استقاء .

ولذلك نجد اللائق ليس لها حظ من الحسن هي العالوية الكبيرة في حمل أعبه
تكوين الأسرة ، فلا يصح أن يأخذ الرجل الراوية الوحيدة للجمال الحسى ، بل عليه
أن يأخذ لجمال بكل جوانبه وذواياه ؛ لأن الجمال الحسى قد يأخذ بعقل الرجال ،
لكن عمره قصير . وهناك ذوايا من الجمال لا نهاية لها إلا بنهاية العمر .

وقد حدثونا عن واحد من الصالحين كانت له امرأة شديدة المراس والتسلط
عليه ، وهو رجل عيب فقال لها : أه لو رأيته وأنا في دروس العلم والناس
يستشرفون إلى سماعي لقد ظن أنها عندما تراه في مجلس العلم سترتدع ، وتكون
حنونة عليه .

وذهبت لحضور دروس العلم ، وراها ، وظن أن ذلك سيورع هيبه له في قلبها ،
وعاد إليها آخر النهار وقال لها : لقد رأيته ليوم . فقامت رأيتهك وباحسة
مارأيت ، رأيت كل الناس تجلس باثران إلا أنت فقد كنت تصرخ .

وحدثونا عن هذا الرجل أن الله كان يكرمه بالمجد جزاء صبره على امرأته ، وكان المريدون يرون إشرافات الله في تصرفاته ، وماتت امرأته . وذهب المريدون ولم يجدوا عنده الإشرافات التي كانت عنده من قبل . فسألوه : لماذا ؟ فقال : ماتت التي كان يكرمني الله من أجلها .

فكما أن المصنوب من المرأة أن تصبر على الرجل ، فالرجل مطلوب منه أن يصبر على المرأة . والذي يصبر عليها يؤتيه الله خيرها ، ولذلك قالوا : وإن عمران بن حطان كان من الخوارج وكان له امرأة حميلة وكان هو دميم الملامح ، فنظرت إليه زوجته مرة وقالت . الحمد لله فقال لها : على أي شيء تحمدين الله ؟ قالت : على أني وأنت في الجنة . قال . لم ؟ قالت : لأنك رزقت بي فشكرت ، ورزقت بك فصبرت ، والشاكر والصابر كلاهما في الجنة .

ولا يظن واحد أنه سيجد امرأة هي مجمع الجمال والحسن في كل شيء ، فإن كانت متدنية المستوى في جانب مهن متميزة في جانب آخر ، فلا تصيب الاعتبار الذي فيها من أجل قصورها في جانب ما . وزوايا الحيلة كثيرة . وقدنا سابقاً : إنه لا يوجد أحد ابتاعه الله ، بل كلنا بالنسبة لله عبيد . ومادنا جميعاً بالنسبة لله عبيداً وليس فينا ابن له . وسبحانه أعطانا أسباب انفصل عن سواء ، فهناك فرد قد أخذ الامتياز في جانب ، والآخر قد نال الامتياز في جانب آخر . هذا النقص في زاوية ما ، والامتياز في زاوية أخرى ، أراد به الله أن يجعل مجموع صفات ومزايا أي إنسان يساوي مجموع إنسان آخر حتى يتوارد لعالم

فإن وجد الإنسان شيئاً لا يعجبه في المرأة ، ووجدت المرأة شيئاً لا يعجبها في الرجل ، فعلى الرجل أن يضم الزوايا كلها ليرى الصورة المكتملة للمرأة ، وأن تضم المرأة كل الزوايا حتى ترى الصورة المكتملة للرجل .

والرجل الذي ينظر إلى كل الزوايا يحيا مرتاح البال ؛ لأنه يرى من الزوايا لحسنه أضعاف الزوايا التي ليست كذلك ، والذي يرمى هو من ينظر إلى المحاسن . والذي يغضب هو من ينظر إلى المقايص . والمعادل في العصب والرفضا هو من ينظر إلى مجموع هذا ومجموع هـ ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن تبنى الأسرة على السلامة فيوضح لنا :

- لا تنتظر أيها الرجل ولا تنتظري أيها المرأة إلى أن يقع الخلاف ، فما أن تبتدئ البواذر فمليكم بحل المشكلات ، فليس هناك أحد قادر على حل المشكلات مثلكما ؛ لأنه لا يوجد أحد بينه وبين غيره من الروابط والوشائج مثل ما بين الرجل وزوجته ؛ لذلك قال سبحانه . « هلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا » .

إننا في بعض الأحيان نجد الصلح يأخذ شكلية الصلح ، أما موضوع الصلح وهو إنهاء الجموع والمواجيد النفسية فقد لا يوجد ، والذي يعرف الصلح هو أننا نقوم بالشكلية ولا نعالج الأسباب الحقيقية المدفونة في النفوس ، والتي تسرب إلى موضوعات أخرى ؛ لذلك يجب أن يكون الصلح ، ويتم بحقيقته كقول الله تعالى : « أن يصصا بينهما صلحا والصلح خير » وعندما تراضى انفسهم يتم الخير على الزوجين وعلى المجتمع .

وبعد ذلك يتابع الحق : « وأحضرت الأنفس الشح وإن أحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » يوضح لنا سبحانه . أنا خالفكم وأعلم طبائعكم ومخالبكم وأعلم أنني عندما أطلب من المرأة أن تتنازل عن شيء من نفقتها كمهرها أو هدية الخطبة الأولى « الشبكة » ، أو أن تتنازل له عن لبيتها ليقيم عند الزوجة الأخرى . وأعلم أن هذا قد يصعب على النفس ، وكذلك يصعب على الرجل أن يتنازل عن مقاييسه ، إياكم أن يستولى الشح على تصرفاتكم بالسبب لبعضكم البعض وجاء الحق في آية وقال :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكَ إِلَى بَعْضٍ وَاتَّخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غِيبًا ٢١ ﴾

(سورة النساء)

وهنا يقول : « وأحضرت الأنفس الشح وإن أحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » وهناك فرق بين الحقوقي التي قد يتمسك بها أحد الزوجين ، والإحسان الذي يتطوع به . ويعرف ما فعله قاضي فاضل عندما قال لخصمين : أحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟

فسأل واحد : وهل هناك خير من العدل ؟ فقال القاضي : نعم إنه الفصل . فالعدل إعطاء الحق فقط ، والفصل أن يتنازل الإنسان عن حقه بالتراضي لأخيه .

ويسين الحق الآية . « وإن تحسوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، ومبجحاته ونعمالي يريد أن يحل مشكلة نفسية قد تتعرض لها الأسر التي لا توجد فيها خيرة عفسية إيمانية ، لا عند الرجل ولا عند المرأة ، ولو كانت هذه الأسر تملك الخميرة الإيمانية اسبقة وأخذت أحكام الله بحرفها لما وجدت هذه المشكلة ، إنها مشكلة التعدد .

ظاهر الأمر أن الرجل حين يعدد زوجاته يكون محظوظاً ، لأنه غير مقيد بواحدة بل له إلى أربع والمغتزون هي امرأة ، لأنها مفيدة بزواج واحد ، فليست كل امرأة مهضومة ، لأن الزوجة الجديدة تشعر بالسعادة . وقد نجد امرأة قال لها زوجها : ستزواج بثانية ، ورضيت هي بذلك ، بعد أن وازنت بين أمورهما فاختارت خير الأمور .

روى أن امرأة أراد زوجها أن يعطفها لرعبته عنها ، وكان لها منه ولد فقالت لا تطلقني ودعي أقرم على ولدي وتقسم لي فقال : إن كان هذا يصلح فهو أحب إلي فأقرها . إذن فالخمة في زواج الرجل من زوجة أخرى لا نعم كل النساء ، فإن أحدث الزواج العم والحزن عند الزوجة الأولى فهو يحدث سروراً عند الزوجة الثانية والمرأة معذورة في ذلك لأن الرجل أخذ حكم الله في أن يعدد ولم يأخذ مع هذا الحكم أن يعدل . والرجل يظلم المرأة حين يأخذ الحكم الذي في صالحه وهو إباحة التعدد ولا يأخذ من مبيع التعدد وهو المشرع الأعلى - وهو الله - الأمر بأن يعدل بين زوجاته .

لقد جمعت المجتمعات لأهم رأوا الرجل حين يتزوج بأخرى لا يلتفت إلا للزوجة الجديدة ، ويهمل القديمة وأولاده منها ؛ لذلك فالنساء معذورات في أن ينفسن من هذه المسألة . ولو أن الرجل أخذ حكم الله بالعدل كما أخذ إباحة الله في التعدد لحدث التوازن . وحين تعرف المرأة الأولى أن حفظها لن يطبيع لا في نفسها ولا في بيتها ولا في رعاية أولادها . فهي تقول : « من الأفضل أن يكون متزوجاً أمام عيني بدلاً من أن يلبس نفسه في أحراض الناس » .

إذن فالذي يشير المسألة كإشكال أن الرجل يأخذ بعض الكتاب فيعمل به ويفرك بعضه فلا يطبقه ولا يعمل به . والذين يأخذون إباحة الله في التعدد لا يد أن يأخذوه

بأصوله التي وضعها الله في إطار العدالة . وحين يكون للرجل امرأتان مثل سيدنا معاذ بن جبل ، فكل امرأة لها حق في البيت ، ليلة لزوجته وليلة لأخرى مثلاً ، وكان -رضي الله عنه- لا يتزوجاً عند واحدة في ليلة الأخرى مع أن الوضوء قربة لله . والأعجب من ذلك عندما ماتت الزوجتان في المعامير ، أمر بدفن الاثنين في قبر واحد

والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق وأمر بالعدالة في المستطاع ، وعلى الرجل أن يعدل زمناً ، ويعدل نفقة ، ويعدل إسماعه ، ويعدل مؤسرة ومواساة ، والرجل في كل ذلك يستطيع ، لكنه لا يستطيع أن يعدل في ميل القلب ، وهو أمر مكتوم ، لذلك قال الحق :

﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَعِیلُوا كُلَّ الْمِیْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ۝١٣﴾

أى أن العدل الحبی مستحيل . وقال النبي عليه الصلاة والسلام : (اللهم هذا نفسي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك) - يعني القلب - (١)

إذن فيه فرق بين ميل القلب وهو مواجيد نفسي والزوج النفسي . والعملية الزوجانية لا يقدر عليها أحد ، ولا يوجد تقنين يقول للرجل : « أحب فلانة » . إلا إذا أراد الحب العقل ، أما الحب العاصي فلا . والذي يأمر به الشرع هو أن يحب الإنسان بالعقل ، أما حب العاطفه فلا تقصير له أبداً .

وقد يحب الإنسان الدواء المر بعقله لا بعاطفته ويسر الإنسان من صديق جاء بهذا

الدواء من الخارج ، لأن الدواء ميسففيه بإذن الله .

إذن «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل» ، ما هو كل الميل ؟ ويوضحه - سبحانه - بقوله : « فتدروها كالمعقة » وهي المرأة التي لا هي آيم أى لا زوج لها فتطلب الزواج ، ولا هي متزوجة فتستمتع بوجود زوج ، ويحجرها الرجل دون أن يمارس مسئوليته عنها ، فيوضح الحق : أنا لا أطلب منك أن تميل بقلبك هنا ، أو هناك ، لأن هذه المسألة ليست ملكاً لك ، ولكي أريد العدالة في الموضوعات الأخرى ، كأن تسوي في البيوتة والنفقة ، ومطلوبات أولادك ، وأن تعدل بين أرواجك في المؤاساة أما المعنى الآخر وهو ميل القلب فأتانا لا أكذب به

وسبحانه حين يشرع خلفه أعلم بمن خلق ، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف يشأ عنها ميل ، وجعل له غرائز ، وحيلرات في الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على المين لما خلقه ، وبكته - جن وعلا - ينطق الميول لتتم بالبول مصالح الكون عتمة ، فحين يمسح القلب أن يحب ، يعلم سبحانه أن عبارة الكون تشأ بالحب . فلو لم يحب العالم أن يكتشف أسرار الله في خلقه لما حمل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة ، وكل ما يترب عن ذلك من مشقات .

ولو لم يحب الإنسان إتقان عمله لما رأيت عملاً مجوداً . ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمل المشقة في تبيات تربيتهم . إذن فالحب له مهمة . والله لا يريد منا أن نمنع الحب لكنه يريد منا أن نحل معالجب الحب ، فنجعل للمحب مجالاته المشروعة لا أن ينطق الحب في الكون ليعربد في أعراض الناس .

إنك حين تجعل الحب موجهاً إلى خير لا يأتبك منه أو للناس شر . وعندما نظر - مثلاً - إلى دافع وعريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها في الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة في الحياة . ولوم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف أن يشكر شيئاً أو يحترعه ويكتشفه حتى يربحنا نحن البشر ، وما فكر الإنسان في أن يستعمل البحار ليحمل عن الناس مشقت السفر ومشقات حمل الثقل . إن هذا الاكتشاف أراحت باختراع الباصحة أو القطار .

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلى عريزة حب الاستطلاع فيبهي أن نجعلها

في مجامع المشروع فلا يجعلها نجساً على عورات الناس مثلاً ، وكذلك جعل الله ضريبة حب المال في الإنسان ؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل ، ويستفيد الناس من عمله أراد أو لم يريد . كذلك غريزة الجنس جعلها الله في الإنسان ولها سعار ليحفظ بها النوع الإنساني . إنه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقاً بلغ في أعراض الناس . إذن فالغرائز خلقها الله لمهمة . واشترائع جاءت لتحمض لغرائز في مجال مهنتها وتمنع عنها انطلاقاتها المسعورة في غير المجالات التي حددها لها المنهج

إذن قاليل أمر فطري في النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه : أنا خلقت الميل ليخدم في عبادة الكون ، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلموه في هذا الميل ، وحين تعددون الرواحات . لا أطلب منكم البعد عن كل الميل ؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقلي ، ولكن أحب أن تحددوا الميل وتعملوه في محاله القلبي فقط ، ولا يصح أن يتعدى الميل حد أحكمكم إلى ميله القلبي .

أحب أيها العبد المؤمن من شئت وأبغض من شئت ، لكن لا تجعل هذا الحب يقود قلبك لتعطى من تحب خير غيره ظلياً ، وأبغض أيها العبد من شئت ، فلا يستطيع مقنن أن يقن للقلب أن يبغض أو يحب ، لكن يبغضك لا تعديه عن قلبك إلى جوارحك لتظلم من تبغض

ولنا الأسوة في سيدنا عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - حينما مر عليه قاتل أخيه ، ولفت نظره جليس له : هذا قاتل أخيك .

هنا قال عمر - رضي الله عنه - وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟ كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر - رضي الله عنه - . وعندما جاء هذا القاتل ليجلس عمر ، قال له سيدنا عمر . إذا أقبلت هل إلى وجهك عني ، لأن قلبي لا يرتاح لك فسأل الرجل : أو عدم حبك لي يمنعني حقاً من حقوقى ؟ قال عمر : لا

قال الرجل : إنما يبكي على الحب النساء هذا عمر وهو الخليعة ، والرجل من الرعية . لكن عمر الخليعة يحاف من الظلم ، ويمثلك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليعة عمر - رضي الله عنه - فطرة الرضا لمشاعر الحب أو الكراهية ما دامت لا تمس حقوقه كمواطن .

إن الحق سبحانه وتعالى حينها يخلق ميول القلوب يضع أيضاً القاعدة : إياك أيها المؤمن أن تعدى ميل القلب إلى القلب ، ويكون ميل القلب كما تحب . كذلك إن أنت أيها المؤمن تزوجت وبعد ذلك تزوجت امرأة أخرى فالتنج لا يطلب منك أن تعدل العدل المطلق الذي ينصب على شيء لا تحمكه وهو ميل قلبك . ولكن المتنج يصح لك القواعد التي يسير عليها سلوكك فالبك . عليك أن تعدل في قسمه الزمن والنفقة والكسوة وبشاشة الوجه وحسن الحديث . ولا تخضع ذلك لميل القلب ، وبعد ذلك أنت وقلبك أحرار .

ونرى بعضاً من الذين يحبون أن يظهروا بين الناس كفاهم للقرآن أو دعاة تهديد ، يركبون الموجة ضد التعدد . ويقول : قبل أن يركب الواحد منكم الموجة ضد التعدد ، ويقف منه موقف الرافض له مدعياً أنه يفهم النص القرآني ، إننا نقول له : عليك أن تبحث عن أسباب السخط على التعدد ، هي ليست من التعدد في ذاته ، ولكنها تأتي من أن المسلم يأخذ بإحسان الله للتعدد . ولا يأخذ بحكم الله في العدالة . فلو أن المسلم أخذ بالعدالة مع التعدد لا وجدنا مثل هذه الأزمة . ولذلك يقول لواحد من هؤلاء : إن الحق سبحانه وتعالى أمر بلزوم واحدة والاقتصار عليها عند خوف ترك العدل في التعدد فقال :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾

(من الآية ٢ سورة النحل)

ثم جاء في آية أخرى وقال : « ولَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ مَنَاسِبٍ وَلَوْ حَرَصْتُمْ »

ونقول : إن الواحد منكم إن أراد أن يفهم القرآن ، فعليه أن يعلم أن الحق سبحانه لم يقف في هذه الآية عند قوله : (ولو حرصتم) إنما فرع عن عدم الاستطاعة في العدل فقال : « فلا تميلوا كل الميل » إنه - سبحانه - فرع على عدم الاستطاعة في العدل فأمر بعدم الميل كل الميل . وتلك حكمة المشرع الأول الذي يعلم من خلق وكيف خلق . ولو أن الحق لم يفرع على « ولن تستطيعوا » لحاز هؤلاء الذين يركبون الموجة المطالبة بعدم التعدد أن يقولوا ما يقولون ؛ لذلك نقول لهم انتبهوا إلى أن الحق سبحانه أوضح : عدم استطاعتكم للعدل هو أمر أن أعلمه ، ولذلك أطلب منكم ألا تميلوا كل الميل وذلك باستطاعتكم . ومعنى هذا أنه سبحانه قد أبقى الحكم ولم يسلبه .

« فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » . وفي هذا القول أمر بالآلا يترك الرجل زوجته الأولى كالمعلقة وهي المرأة التي لم يتحدد مصيرها ومسايرها في الحياة ، فلا هي مغبر روج متزوج ، ولا هي متزوجة فتأخذ قسمها وحظها من زوجها ، بل عليه أن يعطيها حظها في البيوتة والعفة والملبس وحس الاستقبال والبشاشة والمؤانسة والمواساة .

ويقول الحق من بعد ذلك : « وإن تصلحوا وتقروا فإن الله كان عفواً رحيماً » .

وقوله . « تصلحوا » دليل على أنه كان هناك إفساد موجود والمطلوب أن نقوم بالبحث عن الأسباب التي جعلت الرجل يفسد في علاقته الزوجية ليقصي عليها وبعد ذلك على المسلم أن يستأنف تقوى جديدة في المعاملة على ضوء ما شرع الله وحين يصلح المسلم ما أفسد من جعل الزوجة الأولى كالمعلقة ويعطيها حقها في البيوتة والعفة ورعاية أولادها والإقبال عليها وعلى الأولاد بصورة صبية فالحق سبحانه يعمر ويرحم ، ولا يصلح المسلم ما أفسد إلا وهو يهوى ألا يستأنف عملاً إلا إذا كان على منهج التقى ، ويحمد الحق عفواً لما سبق ورحمياً به

وإن لم يستطع الرجل هذا ، ولا قبلت المرأة أن تنازل عن شيء من قسمها قرصية له تكن الخزفة - ها - أمراً واجباً فليس من المقول أن نحكم الحياة الزوجية والحياة الأسرية بسلاسل من حديد ، ولا يمكن أن نربط الزوجين بمعلم الاتفاق إن كانت القلوب متسامرة وكذلك لا نأمن على المرأة أن تعيش هكذا

إن الذي يقول . لا يصح أن نفرق بين الزوجين ، نقول له : كيف تريد أن تحكم الحياة الزوجية بالسلاسل ؟ والرواج صفة مبنها السكنى والوفاء والرحمة ، فإن انعدمت هذه العناصر فكيف يستمر الزواج وكيف ترهم زوجاً على أن يعيش زوجة لا يحبها ولا يقبلها وترهم زوجة أن تعيش مع زوج لا تحبه ؟ إن التعريق بينهما في مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه ونعالي يبرق الزوج حيراً منها ويررق الزوجة خيراً منه .

وكثيراً ما شهدنا هذا في واقع الحياة ، وعاش الزوج مع الزوجة الحديدة سعيداً ، وعاشت الزوجة مع الزوج الحديدي سعيدة ، أما الذين تشفقوا بمسألة عدم التفريق مع

استحالة الحياة الزوجية وهاجموا الإسلام في هذا المجال . مهم يرددون ما كان عند أهل الغرب : من أن الزواج لا انفصال فيه .

إننا نرى العالم كله الآن مكل النصراني ولبيهود وغيرهم من الملل والنحل يلحاون إلى الطلاق ؛ لأن الأحداث اضطرتهم إلى أن يشرعوا الطلاق ، فكأنهم ذهبوا إلى الإسلام لا على أنه إسلام ، ولكن على أنه حل الوحيد لمشكلاتهم . فإذا ثبت أن الذين يهاجمون جرئية من حزنيات الدين يضطرون إليها تحت ضغط الأحداث فيجب أن تنبههم إلى عدم التسرع والمجلة والحكم على قضايا الدين الإسلامي بأنها غير صالحة ؛ لأن الحق أرغم من لم يكن مسلماً على أن يغذ قضية إسلامية فهو الفائل :

﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ مَّعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾

وسبحانه عنده انفصل الواسع ، وهو القدر أن يرزق الزوج روجة صالحة تطمئن كل مطاله ، ويرزق الزوجة زوجاً آخر يشبع كل احتياجاتها ويقل دماستها لو كانت دمية ، ويعمله الله صاحب عبود نرى نواحي الخير والجمال فيها . وقد نجد رجلاً قد عضته الأحداث بجمال امرأة كان متزوجاً بها وحلته وجعلت أفكاره مشوشة مضطربة وبعد ذلك يرزقه الله بمن تشاق إليه ، بامرأة أمينة عليه ، ويطمئن عندما يقترب منها ن عمله ولا تملأ الهواجس صدره ؛ لأن قلبه قد امتلأ ثقة بها وإن كانت قليلة الخلف من الخيال

« وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ مَّعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا » فإياك أن تظن بأن الله ليس عنده ما يبيع كل إنسان فسبحانه عنده كل ما يبيع كل الناس . وصليته صبح الله مليئة بالأدوية ، وبعض الخلق لا يفقهون في استخدام هذه الأدوية لملاح أمراضهم .

ومن الحكمة أنه سبحانه لا يرغم اثنين على أن يعيشا معاً ومما كثرهما : لأبهما
افتقدا المودة ولرحمة فيما بينهما .
ومن بعد ذلك يعقب الحق بآية :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ
وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ
أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾

وسبحانه هو الذى يرمى الزوج إن افترق عن زوجته ، ويرضى الزوجة إن
افترقت عن زوجها ؛ لأنه - جل وعلا - خلق الدنيا التى لن تضيق بمطلوب الرجل أو
المرأة بعد الانفصال بالطلاق ، لله ملك السموات والأرض وهو القادر على أن يرزق
الرجل امرأة هى خير مما فارق، ويرزق المرأة رجلاً هو خير مما فارقت ، فلا شيء
خرج عن ملك الله وهو الواسع العطاء .

إننا كثيراً ما نجد رجلاً كان يتزوج امرأة ولا تلد ويشاع عنها أنها عقيم ، ويذهب
الإنسان إلى معامل التحليل ، ويقال أحياناً : المرأة هى السبب فى عدم النسل ،
أو : الرجل هو السبب فى عدم النسل ، ويفترق الاثنان ويتزوج كل منهما بآخر ،
فتلد المرأة من الزوج الجديد ، ويولد للرجل من الزوجة الجديدة ؛ لأن المسألة كلها
مرادات الله ، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تفرض على الله بل هو المسبب
دائماً فهو القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَلْقِ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئِنَّآ وَبِهِ
لِغَيْبِ شَاءِ الْكُورِ ١١٠ أَوْ يَزْوِجُهُمْ دُخْرَانًا وَلِئِنَّآ لَفِي شَاءِ عَزِيمٌ

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

(سورة الشورى)

كم صورة إذن عند الخلق هذا الموقف ؟ يجب لمن يشاء إناء ، ويجب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، هي بأربعة مقادير تجري على الرجل والمرأة . وعندما يجب الله أمراً من الإناث يكون سعيداً . وكذلك عندما يجب الذكور ، وعندما يجب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط . فالزوجة نحن أن يكون لها بنت . وإن يجب الخلق لأسرة حرة بين الإناث فقط ، فامرأة والرجل ينميان الابن ، وإن أعصاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التي تقر بها الميرون عادة . والحالة التي تقر بها الميرون عادة مؤخرة .

إن الحالة التي تزهد النفس فيها فالخلق يقرها إلى أوليات الهبة ، فقال أولاً : « يخلق ما يشاء » ، وبعد ذلك : « يجب لمن يشاء إناثاً » ثم ذكر عطاء الذكور ، ثم بأن بالحالة التي يكون العطاء فيها في القمة : « أو يزوجهم ذكراً وإناثاً »

وأخيراً يأتي بالقدر الرابع الذي يجريه على بعض خلقه وهو : « ويجعل من يشاء عقيماً » .

ولماذا يُسر الإنسان بقدر الله حينما يجب الله الإناث أو الذكور ، ويزداد السرور بقدر الله حينما يجب الله - سبحانه - الذكور والإناث . ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيماً ؟ أنتخذ أنت تأخذ القدر الذي عهوا ، وترد القدر الذي ليس من هواك ؟ إن مواقف الأربعة هي قدر من الله

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضى بها .

إنه سبحانه يخلق ما يشاء ويجعل من يشاء عقيماً ، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله فانه قد يقر عينه كي أمر عيوب الآخرين بالإناث أو بالذكور ، أو بالذكور والإناث معاً . وأقسم لكم لو أن إنساناً - أو زوجين - أخذوا قدر الله في الحقم كما أخذاء في غيره من المواقف السابقة برصاً إلا رزقهم الله ، لا أقول بيبي وبنات يرزقونهم في الحمل والتربية وغيره ، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم ، وقد رباهم

غيرهم ، والذي يجعل الأزواج المنتقدين للإنجاب يعيشون في ضيق ، هو أنهم حياتهم ساطعون على قدر الله - والعياذ بالله - فيجعل الله حياتهم ساطعاً . فهو الغافل في حديثه المسمى :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : يقول الله تعالى : (أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى بشير تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً ، تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولاً)^(١) .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول : « والله ما في السموات وما في الأرض » فإياك أن تقول كون الله سيضيق عن ررق الرجل المفارق لزوجته أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لها فيما دهم سبحانه الله قمر العراق كحل لعدم توفيق في حياتها معاً .. فهو سبحانه يعطي عن سعة للروح وعن سعة للروحة . وعليت أيها المسلم أن تطيع منهج الحق كما أطاع كل ما في السموات وكل ما في الأرض ، ثم اسأل نفسك هذا السؤال : من يقضي مصالحك كلها ؟

إنه الحق سبحانه الذي سخر أشياء ليست في طرق قدرتك ، أرغمت الشمس أن تشرق لك بالضوء والحرارة ؟ أرغمت الماء أن يتبخر وينزل مطراً نقياً ؟

أرغمت الريح أن تهب ؟ أضربت الأرض لتقول لها : هذي ما أضعه فيك من بذر بالعصر اللازمة له والمحتاج إليها لتهج النبات ؟ كل هذا ليس في طرق إرادتك بل هو مسخر لك بأمر الله . وإن أردت الاستقامة في أمرك ، لكنت كالسحر في جعل الله لك فيه اختبار ولقلت لله : أنا أحب منهجك يا رب وما يطله مني سائده قدر استطاعتي . فتكون بقلبك وقالبك مع أوامر المنهج وبواعيه ، فينسجم ويتوافق الكون معك كما انسجم الكون المسحور المقهور المسير .

« والله ما في السموات وما في الأرض » ، وهذا تذكير بأن كل شيء مملوك لله وفي

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم في صحيحه ثلاث طرق .

طاعته ، فلا نشد أيها الخليفة لله عن الكون ، فكل ما فيه بخدمك . ولتسأل نفسك . أنتعيش في ضوء منهج الله أم لا ؟ لأن الكون قد نسجم وهو مسخر لله ، ولم يحدث أى خلل فى القوانين الكونية ، وسبحانه القائل

﴿ وَأَسْمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿١﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٢﴾ وَأَقِيمُوا الزُّورَ

بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وهذا إيضاح من الحق تبارك وتعالى : إن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية فانظروا إلى كون ، فالأشياء المسخرة لا يحدث معها خلل على الإطلاق ، ولكن الخلل إنما يأتى من اختيارات الإنسان لغير منهج الله

« ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ، يوصح سبحانه : لقد وصينا الذين أنزلت إليهم المنهج من قبلكم ، ووصيناكم أنتم أهل الأمة الخاتمة أن التزموا المنهج بالأوامر والنواهي ، لتجعلوا اختياراتكم خاضعة لمرادات الله منكم حتى تكونوا مسجدين كالكون الذى تعيشون فيه ، ويصح كل شئ يسير منتظماً فى حياتكم ، ولم يقل الحق هذه القصيدة للمسلمين فقط لكنها قضية كبرى عامة جاء بها كل رسول : « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » .

ولم يقل شرعاً للذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ولم يقل : هرعنا ، إنما قال : « ولقد وصينا » ، وكلمة « وصية » تشعر المتلقى لها بحب الموصى للموصى « ولقد وصيت الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وتقوى الله تعنى أن تفعل أوامر الله وأن تتجنب نواهيه ؛ لحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإن حكماً حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا مسحورون لفصاها المصلحة والخير .

ومن بعد ذلك يقول الحق « وإن تكفروا فإن الله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غياً حيداً » ومقابل الكفر هو الإيمان ، ومن يخرج عن الإيمان فانه غي عنه ، فلا تعتقلوا أيها المحاطون بمنهج الله أننى أستميلكم إلى الإيمان لأبى فى حاجة إلى إيمانكم ، لا ، لكنى أريد منكم فقط أن تكونوا عتمة سلباً ، مجتمعاً سلباً ، وإن تكفروا فيسطل الملك كله لله ، وستظل حتى - ولو كنت متصرفاً - فى قبضة

مرادات ربك . فليس تتحكم في موجد أو في ممت أو في مقدورات . فللكون ثابت وسليم . وجاء القرآن باللمت إلى انتظام الكون بقول الحق :

﴿ أَفَلَمْ يَسْطُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَرَقَهُمُ كَيْفَ بَيْنَهَا وَزَيْنَهَا وَمَا هُمْ بِفُرُوجٍ ①
وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْعِصَى بَارَوْنَا وَبَيْنَ فَيْهَامٍ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ سَبْعٌ ② تُبْصَرُ
وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ③ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ
وَحَبَّ الْحَبِيدِ ④ وَالنَّخْلَ بَايَقَتِ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ⑤ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا
بِهِ بَلَدَةً مِثْلًا كَذَلِكَ أَنْخَرُوهُمْ ⑥ ﴾

(سورة ق)

وفي لحظة من اللحظات يأمر الحق كرواً من كونه ليحتل نظامه فتري الأرض المستقرة وقد قرزلت ، والتي قال عنها سبحانه :

﴿ وَأَنقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمَيِّدَ بِكُمُ ① ﴾

(من الآية ١٥ سورة النحل)

وسبحانه هو الذي يمكنها فيجعلها تضطرب ويحدث في موقع مما زلزالاً ، فتدثر المباني التي عليه حتى تعلم أن الدنيا ليست بحكومة حكماً آلياً ، بل بحكومة بالأسباب ، وزمامها عارال في قيومية المسبب ، ونلتفت مرة إلى بعض من الزوايع من التراب وهي بعلق الميغال الجري كله بحيث لا يستطيع واحد أن ينظر من حلاله ، وهذا لعت من الله لنا يومئذ . لقد صنعت هذه القوانين بقدرتي ، ولن تخرح هذه القوانين عن طلاقة قدرتي .

ونرى بلاداً تحيا على أمطار دائمة تغدق لأرض ، فنجد الخضرة تكتسب الجبال ولا نجد شيراً واحداً دون خصوبة أو خضرة أو شجر ، وقد يظن ظان أن هذه المسألة أمر آلي ، ويأتي الحق ليحري على هذه المنطقة قدر لجفاف فيسمع المطر وتسير الأرضي الخصبة إلى جذب ، وتنفق وتهلك الماشية ويموت البشر عطشاً ، وذلك ليلمتنا الحق إلى أن المسألة غير آلية ولكنها مرادات مُريد

وفي موقع آخر من الكرة الأرضية نجد أرضاً منبسطة هادئة يحلوها جبل جميل ،

وضجاء تتحول قمة الجبل إلى مومة بركان تلقى الحمم وتذف بالبار وتجري الناس لتتقد نفسها ، ولذلك عليها أن تعرف أن عقل العاقل إنما يتجلى في أن يختار مراداته بما يتفق مع مرادات الله ، وعلى سبيل المثال . . لم يؤت العقل البشري القدرة الذاتية على التنبؤ بالزلازل ، لكن الحمار يملك هذه القدرة .

« وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حليماً » وصدر الآية بالمقولة نفسها : « والله ما في السموات وما في الأرض » وذلك لتثبيت وتأكيد ضرورة الطاعة لمنهج الله حتى ينسجم الإنسان مع الكون . ونجىء المقولة مرة ثانية في الآية نفسها ليثبت الحق أنه غنى ، ولا تقل إن المقولة تكررت أكثر من مرة في الآية الواحدة ، ولكن قل : إن الحق جاء بها في صدر الآية لتثبيت معنى ، وجاءت في ذيل الآية لتثبيت معنى آخر ، سبحانه هو الغنى عن العباد :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾

(مر الآية ٢٩ سورة الكهف)

ونجىء « والله ما في السموات وما في الأرض » لإثبات حقيقة أن يطيع العبد مخالفه ونجىء « الله ما في السموات وما في الأرض » في ذيل الآية لإثبات حقيقة غنى الله عن كل العباد . والمقولة نفسها تأتي في الآية التالية حيث يقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ

وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

ونجىء المقولة لثالث مرة لطمأنة الإنسان أن الله يضمن ويحفظ مقومات الحياة . فلن تنمرد الشمس يوماً ولا تشرق . أو ينمرد الهواء ولا يهب . أو تفسد الأرض عليك بعناصرها ، لأن كل هذه الأمور مسخرة بأمر الله الذي خلقك وقد خلقها وقدر فيها قوتك .

ولذلك يوضح ربنا . أما الوكيل الذي أكملكم وأكملكم وأغنيكم عن كل وكيل .

والوكيل هو الذى يقوم لك بمهامك وتجلس أنت مرتاح البال . والإنسان منا عندما يوكل عنه وكيلاً ليقوم ببعض الأعمال يحس بالحاجة على الرغم من أن هذا الوكيل الذى من البشر قد يخطئ أو يضطرب أو يخون أو يفقد حكمته أو يرتشى ، لكن الحق بكامل قدرته يعلم أن العبد أنه الوكيل العاقر ، فلنطمئن إلى أن مقومات وجودك ثابتة ؛ فسبحانه مالك الشمس فلن تخرج عن تسجيرها ، ومالك المياه ومالك الريح ومالك عناصر الأرض كلها . وبإدام الله هو الذى هو الحفظ على كل هذه الأشياء . وهو نعم الوكيل ؛ لأنه وكيل قادر وليس له مصلحة وتعالوا نقرأ هذا الحديث :

فقد ورد أن أعرابيا جاء فأناح راحلته ثم عقنها ثم صلى خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أتى راحلته فأطلق عقلاها ثم ركبها ثم نادى اللهم ارحمنى وعمداً ولا تشرك فى رحمتنا أحداً . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أتقربون هذا أضل أم بعير ؟ » قالوا : بل ، قال : « لقد حطرت^(١) رحمة واسعة . إن الله - عز وجل - خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنباً وإنسها وبهائمها وأشعر عندة نساء وتسعين رحمة أنقولون هو أضل أم بعير ؟^(٢) .

هو إذن كفى بالله وكيلاً وهو نعم الوكيل ، وهو يعلم عباده ويبرئ أنه - سبحانه - هو القيوم بمعنى المبالغة فى القيام ، إذ كل شيء فى الكون يحتاج إلى قائم ، لذلك فهو قيوم . ويوضح الحق لكل إنسان : أبى اجتهد فى العمل وبعد أن تعب بم ملء جفونك لأنى أنا الحق لا تلهى سنة ولا نوم . فهل هناك وكيل أفضل من هذا ؟ وكفى بالله وكيلاً ،

ثم بأتى الحق بحيثية أخرى تؤكد لنا أنه غنى عن الملئ ، فلا يكتفى أن يقول : إنه غنى وإنه خلق كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن كثرت أياها الإنسان فالذنب عليك ، وإن آمنت بالإيمان أمان لك ، وأوضح : إياكم أياها البشر أن تعتقدوا أنكم خلقتُمْ وشرعتم وأصبحتم لا سلطان لله عليكم . لا . فافه سبحانه يقول :

(١) حطرت : منعت وصحرت

(٢) روى أحمد وأبو داود

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ
بِآخَرِينَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ ﴿١٣٣﴾

وبعض العقادين للبصيرة من الفلاسفة قالوا . صحيح أن الله قد خلقنا ولكننا
خرجنا من دائرة نفوذه . لا ، بل سبحانه إن شاء لذهب بكم جميعاً وأن يآخرين ،
وما ذلك على الله بعزيز ، وهو القائل : « وكان الله على ذلك قديراً » .

حين نفراً ، كان « بجانب كلمة » الله « فهي لا تحمل معنى الزمن ؛ فالله قدير
حتى قبل أن يوجد مقدور عليه ، فلم يكن قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل
بصفة القدرة خلق الإنسان ، لأن الله سبحانه وتعالى ليس له أخبار ، لذلك يظل
قديراً وموجود في كل لحظة ، وهو كان ولا يزال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿١٣٤﴾

ومادام الرسل قد أبلغوا الإنسان أن عبد الله ثواب الدنيا والآخرة فلم الغفلة ؟ ولم
لا تأخذ الريادة ؟ ، ولماذا نلجأ إلى صنف الدنيا فقط مادام الحق يملك ثواب الدنيا
من صحة ومال وكل شيء ، وإن اجتهد الإنسان في الأسباب يأخذ نتيجة أسبابه .
فالحق يقول :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ
مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ ﴿١٣٥﴾

ولم يقل الحق : إن « الآخرة » في مقابلة للدنيا ، وأن من يأخذ الدنيا ين يأخذ الآخرة أو العكس ، بل يريد - سبحانه - للإنسان أن يأخذ الدنيا والآخرة معاً ، فيها من تريد ثواب الدني لا تحرم نفسك بالحقيق من ثواب الآخرة . وكلعة « ثواب » فيها ملحظ : فهناك أشياء تفعل بك وإن لم تطلب منها أن تفعل ، وتتفع بعملها وإن لم تطلب من الأشياء أن تفعل . وهناك أشياء أخرى تفعل بحركتك ، فإن تحركت وسعيت وعملت فيها تعطك .

مثال ذلك الأرض ، فإن بذرت فيها تخرج الزرع ، واختلافات المس في الدنيا تقدماً وتأخراً وحضارة وبداءة وقوة وضعفاً إنما تأتي من القسم الذي يفعل الإنسان ، لا من القسم الذي يفعل للإنسان . ويسخر له ، وتقدم بعض البشر في الحضارة إنما جاء لأنهم بحثوا في الماعة والعناصر ، وأنجزوا إنجازات علمية هائلة في المامس ، فإن أردت أن تكون متقدماً عليك أن تتعامل مع العناصر التي تفعل لك ، والامم كلها إنما تأخذ حضارتها من قسم ما يفعل لها ، وهم والمتأخرون شركاء فقط فيها يفعل لهم ويسخر لصالحهم

وإن أردت الارتقاء أكثر في التحضر . فعلينا أن نذهب إلى ما يفعل ويسخر لنا وتعامل معه حتى يفعل لنا . كيف ؟

الشمس تمدنا بالضوء والحرارة ، وسنطيع أن نتعامل مع الشمس تعاملأ آخر يجعلها تفعل لنا ، مثلاً جتنا بعدسة اسمها « العدسة الامة » التي تستقبل أشعة الشمس وتتجمع الأشعة في بؤرة العدسة ، تحدث حرارة تشعل النار ، أى أننا جعلنا ما يفعل لنا يتحول إلى منفعل لنا أيضاً . ويسمون ذلك الطموح الانبعاثي . والمطر يفعل للإنسان عندما ينزل من السماء في وديان ، ويستطيع الإنسان أن يحوله إلى منفعل عندما يضع توربينات ضخمة في مسارات نزوله فينتج الكهرباء .

إذن فحضارات الامم إنما تنشأ من مراحل . المرحلة الأولى : تستخدم ما يفعل لها ، والمرحلة الثانية : ترتقى فتستخدم ما يفعل معها . والمرحلة الثالثة : تستخدم ما يفعل لها كمنفعل لها ، مثال ذلك استخدام الطاقة الشمسية بوساطة أجهزة تجمع هذه الطاقة ارتقاء مع استخدام ما يفعل للإنسان لينفعل مع الإنسان .

وأسمى شيء في الحضارة الآن هو أشعة الليزر التي تصنع شبه المعجزات في دنيا الطب . وكلمة « ليزر » مأخوذة كحروف من كلمات تؤدي معنى تضخيم الطاقة بواسطة الانبعاث الاستحثاثي ، فكلمة « ليزر » - إذن - مثلها مثل كلمة « ليمتد » فاللام من كلمة . والياء من كلمة ، والميم من كلمة ، والتاء من كلمة ، والدال من كلمة ، وذلك لتدل على مسعى .

وترجمة مسعى « ليزر » هو تضخيم الطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثاثي فيه انبعاث تلقائي هو مصدر الطاقة الذي يفعل للإنسان وإن لم يطلبه ، أما الانبعاث الاستحثاثي فينتج عندما يحث الإنسان الطاقة لتعمل له شيئاً آخر . والانبعاث التلقائي منمثل في شمس فتعطي ضوءاً وحرارة . وعندما جلس العلماء في المعامل وصمموا العدسة التي تنتج هذه الأشعة أهاجوها وأثاروها وأخذوها ليصنعوا منها طاقة كبيرة . وهكذا أنتجوا أشعة الليزر التي هي تضخيم للطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثاثي ، ولأن العنوان طويل لقد أخذوا من كل كلمة حرفاً وكونوا كلمة « ليزر » .

إذن فالارتقاءات الحضارية تأتي عن طريق تعامل الإنسان مع القسم الذي يفعل للإنسان، واستحثاث واستخدام ما يفعل له بطريقته التلقائية ليعمل معه كأشعة الشمس مثلاً .

وجئنا بذكر كل ذلك من أجل أن ستوضح آفاق قول الحق : « من كان يريد ثواب الدنيا » . وكلمة « ثواب » إذن توحى بأن هناك عملاً ، فالثواب جزاء على عمل . فإن أردت ثواب الدنيا ، فلا بد أن تعمل من أجل ذلك . فلا أحد يأخذ ثواب الدنيا بدون عمل .

ومن عظمة الحق ولطفه وفضله ورحمته أن جعل ثواب الدنيا جائزة لمن يعمل ، سواء آمن أم كفر ، ولكنه خص المؤمنين بثواب باق في الآخرة .

ولذلك يقال : « الدني متاع » . ويزيد الحق على ذلك : « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً » . ومن الحق أن يوجد طريق يعطي الإنسان جزاءين ثم يفهر همت على جزاء واحد .

وهنا ملحظ آخر : حينما تكلم الحق عن ثواب الدنيا ، دل على أنه لا يد من العمل لأحد الدنيا ، ولم يذكر الحق ثواباً للآخرة ، بل جعل سبحانه الثواب للآتين . الدنيا والآخرة ، إذن فالذي يعمل للدنيا من المؤمنين إنما يأخذ الآخرة أيضاً ؛ لأن الآخرة هي دار جلاء ، والدنيا هي مطية وطريق وسبيل . فكان كل عمل بعمله المسلم ويعمل الله في بآله . فالحق يعطيه ثواباً في الدنيا ، ويعطيه ثواباً في الآخرة .

ويذيل الحق الآية : « وكان الله سميعاً بصيراً » - إنك - ثواب الدنيا والآخرة لا يتأتى إلا بالعمل ، والعمل هو كل حدث يحدث من جوارح الإنسان ، القول - مثلاً - حدث من اللسان ، وهو عمل أيضاً ، والمقابل للقول هو العمل بالأعمال تنقسم إلى قسمين : إلى لأقول وإلى الأفعال . ولتوضح هذا الأمر نقول الحق :

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَحْصُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٨﴾ وَلَا تَكُلُونَ الْوَرَثَةَ أَكْلًا نَمًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وعندما سمع الأغنياء هذا القول عرفوا سلوكهم ، ولما سمع الفقراء هذا القول ، كأنهم قالوا : نحن لا نملك ما نطعم به المسكين ، فكان في قوله تعالى : « وَلَا تَحْصُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » ما يوضح لهم الطريق إلى العطاء . أي حضوا خيركم على العطاء . أي أن الذي لا يملك يمكنه أن يكسب القى ليعطى المسكين ، والحض هو كلام . والكلام نوع من العمل .

والحق سبحانه وتعالى يستمر المؤمنين لينصروا دين الله فيقول :

﴿ يُؤْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

هو سبحانه أعفى الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون في المال وأسقطه عنهم ولم يحاسبهم عليه ، ولكن في الآية نفسها ما يحدد المطلوب من هؤلاء ، وهو أن ينصحوا لله ورسوله . إذن فقير القادر يمكنه أن يتكلم بعمل الخير ويذكر به الآخرين

وينصح به ، هذا هو معنى قول الحق . « وكان الله سميعاً بصيراً » فسيحانه يسمع قول من لا يستطيع ولا يحد لقدرته على سلوك ما ، وسيحانه بصير يرى صاحب كل سلوك .

إذن قلوب الدنيا يحتاج إلى عمل ، والعمل هو انفعال كل جارحة بمطلوبها ، فاللسان جارحة تتكلم ، واليد تعمل ، وكل جوارح الإنسان تعمل ، لكن ما عمل القلوب ؟ عمل القلوب لا يسمع ولا يرى . ولذلك قال الحق عن إخلاص القلب في حديث قلبي :

(الإخلاص سرٌّ من أسرارى استودعته قيب من أحببت من عبادي)^(١) .

وهكذا نعرف أن نية القلوب خاصة بالله مباشرة ولا تدخل في اختصاص رقيب وعتيد وهما المكان المختصان برقابة وكتابة سيرك وعمل الإنسان ، ولذلك نجد الحق يصف ذاته في مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير ، لطيف بعلم ما يدخل ويتخلل في الأشياء ، رقيب بكل شيء وقدير على كل شيء . ونجد الحديث الشريف يقول لنا :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دينا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هجر إليه)^(٢) .

فالعمل يكون ما جوارح ، ومن الجوارح اللسان ، وحتى مصط هذه المسألة لفرق ما بين العمل والعمل . اقرأ وفهم هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ۖ ﴾^(٣)

(سورة الصف)

ونجد المقابل للقول هو الفعل . والكلمة عمل . وبأن يوع آخر من الأعمال ، لا هو قول ولا هو فعل ، وهو « النية القلبية » . وعندما يقول الحق : إنه كان سميعاً بصيراً ، فالعنى أنه سميع للقول ، وبصير بالفعل .

(١) رواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند صحيح ، والآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة كثيرة في هذا الباب .

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهم من أصحاب السنن

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ
شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أُولَٰئِكَ بِهَا مُلَاقَتْكُمْ
أَلْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

رسالة ينادى الحق عباده المؤمنين قائلا : يا أيها الذين آمنوا ، فكانه يقدم حيثية الحكم الذى يأتى بعده ، ونحن نرى القضاء البشرى حين أن يطق بمطوق الحكم ، يورد حيثيته ، فيقول : « بما أن المادة القانونية رقم كذا تنص على كذا ، حكما بكذا » إذن : فالحيثيات تتقدم الحكم . وحيثيات الحكم الذى يحكم به الله هي الإيمان به ، مثل قول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة البقرة)

حيثية الكتابة هنا وفي أى حكم آخر هي إيمان العبد بالله رباً ، فليسمع العبد من ربه . وسبحانه لا يكلف كل الناس بالتكاليف الإيمانية ، ولكنه يكلف المؤمنين فقط . وهو يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فالمؤمن يدخل على الإيمان بقيمة القسط ، فالقسط هو العدل ، والعدل أن يعطى العادل كل رضى حتى حقه . وحق الإله الواحد أن يؤمن به الإنسان ويعترف أنه إله واحد

إن قمة القسط - إذن - هي الإيمان . ومادام المؤمن قد بدأ إيمانه بقيمة القسط وهو الإيمان ، فليجعل القسط سائداً في كل تصرفاته . وإياك أن تجعل القسط أمراً أو حدثاً يقع مرة وينتهى ، وإلا لما قال الحق مع إخوانك المؤمنين « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » .

ولم يقل الحق لك مع إخوانك المؤمنين : كونوا قائمين بالقسط ، بل قال : كونوا قوامين بالقسط ، أى أن المطلوب هو الاستمرارية للسلوك العادل . فصح بقول : « فلان قائم » و « فلان قوام » . ويعرف أن كلمة « قوام » هي صيغة مبالغة . وعلى ذلك يكون الأمر الإلهي لكل مؤمن : لا تقم بالقسط مرة واحدة فقط ، بل اجعله حصلة لازمة فيك ، وتنفعل القسط في كل أمور حياتك . والقسط كما علمنا من قبل في ظاهر أمره هو العدل ، وأيضاً الإقسط هو العدل .

وقد أحدثت كلمة « القسط » ضجة عند العلماء ، وقلنا تعليقا على ذلك . إن المسألة سيرة . . فقسط يقسط قسوطاً أى جار وظلم ، فإذا أذهب الإنسان الجور والظلم يقال : « أقسط فلان » أى أذهب الجور . إذن . « القسط » بكسر القاف - هو العدل الابتدائي ، لكن الإقسط هو عدل أزال جوراً كان قد وقع .

وهب أن أناساً جاموا لقاض فحكم بينهم بالعدل ، فهذا هو القسط ، وقد يستأنف أحد الطرفين حكم المحكمة الابتدائية ووجدت محكمة الاستئناف خطأ في التطبيق فأصدرت حكماً بإزالة الجور ، وهذا الحكم الذى من الدرجة الثانية اسمه إقسط . وهكذا ينتهى جدل العلماء حول هذه المسألة ، فالقسط عدل من أول درجة ، والإقسط يعنى أنه كان هناك جور فرفع ، لأنه مسبوق بهمة اسمها « همزة الإزالة » ، فيقال : أعجم الكتاب . أى أن الكتاب كان فيه عجمة ، أى كان بالكتاب شيء مستتر ونهني عليهم نأزال ما به من عجمة . وتسمى قواميس اللغة « المعاجم » ولواحد معجم أى يعطى معاني الألفاظ فيزيل خفاءها وكذلك معنى « أقسط » أى أزال الجور

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فانت أيها المؤمن قد فعلت بالعقل أول مرتبة في القسط ، ورددت الإيمان إلى الرب فهو المستحق له وعليك إشاعة كل القسط في كل سلوكك .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » ولا يكفي أن يكون المؤمن قائماً بالقسط فقط ، بل لابد أن تكون الشهادة لله . فإذا ؟ .

هب أن رجلاً كافراً بالله - والعياذ بالله - يقيم العدل بين الناس لكنه لا يدخل



بذلك العدل في حثية الإيمان ، فالتى بدخل في حثية الإيمان يكون قائماً بالقسط وفي
 بآله الله وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعة ولا لغاية ولا هوى
 ولا لغرض ، وإنما ليستقيم كون الله كما أراد الله ، وإلا لو حكم أحد بهوى لفسدت
 الأرض ، والحق يقول :

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المؤمنون)

لذلك لا بد أن يكون المؤمن قواماً بالقسط وفي بآله الله ، ولذلك فالقيام بالقسط
 وحده لا يكفي ، ونحن نسمع : فلان عادل ولو أنه من ديانة أخرى غير الإسلام أو
 كان ملحداً . ونقول . هذا العادل من أى دين أو عقيدة غير الإسلام يأخذ ثناء
 البشر لكنه لا يأخذ ثناء الله ولا ثوابه ، ولذلك فالقوام بالقسط يجب أن يفعل بقصد
 امتثال أمر الله لينال الثواب من الله .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » والشاهد في العادة هو من
 يشهد لمصلحة واحد ضد آخر ، وعندما يقر الشاهد بذنب فهو قد شهد على نفسه ،
 والشاهد لمصلحة واحد إنما يفعل ذلك ليرجع الحكم ، والشاهد على نفسه يقر بما
 فعل ، والإقرار سبب الأدلة . وشهادة الشاهد تقدم للقاضي الدليل الذى يرتب عليه
 الحكم . وهكذا يشهد المؤمن على نفسه .

وهناك معنى آخر : أنه يشهد على نفسه ولو كانت الشهادة بجرم وبإلأ عليه ، وهذه
 المعاني من معطيات الإشاعات القرآنية ، فالمؤمن يشهد على نفسه للإقرار ، وقد
 لا تكون الشهادة على النفس بل قد تكون الشهادة واجبة عليه بزيادة لمصلحة غيره
 ولا يخلت فيها الشاهد من السلطان حتى وإن جار السلطان على المؤمن وأصابه بويل
 في نفسه أو ماله ، ومن الناس من أصابه ويل في نفسه أو أهله من السلطان لمجرد
 كلمة حق قيلت . فالسلطان قد لا يأخذ الإنسان بذنبه ، بل قد يأخذ أهل الإنسان
 بهذا الذنب . والحق يوصح للعبد : لا تهتم بذلك ولا تقولن سيعذبون العميال أو
 سيأخذون كل شيء ، إني أنا الموجود المتكامل بعبادى .

ويطلب الحق من المؤمنين . « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو

الوالدين والأقربين ، وحين يشهد الإنسان على نفسه هلن يكون أموه أو أمه أو أحد أقاربه أعز منه .

ثم يدخل بها الحق إلى أن استحضات مخالفة العدالة تدخل فيها الأهواء ، وحين يرجع إنسان الباطل غير الواقع على حق واقع ، فالمرجع هو هوى النفس ، ومشا الهوى أن يكون المشهود عليه غنياً فيحاف الإنسان أن يشهد عليه ، فيمنعه من غير ما .

ولذلك حلد الحق قرامة المؤمنين بالقسط والشهادة لله ولو على النفس أو الأب أو الأم أو الأقارب ، ولا يصح أن يصح أحد من المؤمنين ثراء أو فقر المشهود له أو عليه في البال ، بل يجب أن يكون البال مع الله فقط ، لذلك قال : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

وقد يقول قائل إن الهوى قد ينحاز إلى العنى طمعاً في ثرائه ، فلهذا يذكر الله الفقير أيضاً ؟ ونقول . قد ينحاز الهوى إلى الفقير رحمة بالفقير فيحدث الشاهد نفسه « أنه فقير ويستحق الرحمة » ؛ لذلك يحذرننا الحق من الانحياز إلى الغنى أو إلى الفقير .

ولا دخل للشهادة بثرء الثرى أو بفقر الفقير ؛ لأن العبد المؤمن ليس أولى أو أحق برعاية مصالح الناس من مخالفهم - جل شأنه - ولذلك جاء بالخبيثة المدججة « فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » أى أنك أيها العبد لم تحقق لحداً منها ولكن الله خالق الاثنين وهو أولى سها فليس لك أن تقيم شهادتك على الثراء أو على الفقر لأنك لست القيم على الوجود .

والذى يفسد ويشوش على العدل هو الهوى ، والمثل العربى يقول : « أفة الرأى الهوى » وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى حتى لا تعسد قدرتكم هل اعدل وتجنحوا بعيداً عنه . والتاريخ العربى يحنظ لنا في ذاكرته حكاية رجل فاضل ذهب إلى الخديعة وقال به . أهنى من الفصاء ! فقل الخليعة : فمن يكون بلقضاء إذن وأنت العادل الذى شهد له كل الناس بذلك ؟

فقال القاضي : والله يا أمير المؤمنين لقد عرف الناس حق أن أحب الرطب - أي البلح - وبيننا أنا في بيتي وإذا بالخادم قد دخل ومعه طبق من رطب وكنا في بواكير الرطب ، ومن الطبيعي أن نكون النفس في لحظة عليه فادامت تحبه ، ويتابع القاضي حكايته للمخيلة : فقلت للخادم من جاء به ؟ فأجاب الخادم : إنه واحد صفته كذا وكذا فتذكرت أن من أرسل الرطب هو واحد من المتقاصين أمامي ، فرددت عليه الرطب ، ولما كان يوم الفصص في قضية صاحب الرطب ، دخل الرجل على معرفته فوالله يا أمير المؤمنين ما استويا في نظري هو وخصمه على الرغم من أني رددت الطبق . وهكذا استقال القاضي العربي المسلم من منصب القضاء .

ويتابع الحق سبحانه : « وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان ي عملون خيراً » . أن تلوا في الشهادة واللى هو التحريف . أي تحرفوا الشهادة وبعبورها ، فإن الله بما تعملون خير ، أو أن يتعرض الشخص عن أداء شهادة لأنه يخاف من المشهود عليه ، لذلك يقال : إنه حائف من المشهود عليه ؛ لأن الشهادة ترجح حكم المشهود له ، لهذا فهو يتعرض عن الشهادة ، وإن جاء للشهادة فهو يلف انكليات ويلوى لسانه بها ، لذلك يقول الحق : « وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خيراً » .

إذن فالذى يفسد العدل هو الهوى ، والهوى عمل القلب ، لذلك نحتاج إلى خبرة الخبير اللطيف . فعلينا أن تعلم أن اليات عمل القلوب ، وبذلك صار العمل يقسم الآن أعلامنا إلى ثلاثة أقسام : قول لسان ، وفعل بجوارح غير اللسان ، ونيات قلوب وهوى .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْحِكْمَةِ
الَّذِى أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ

وَكُنُيْهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

بَعِيدًا ﴿١٣﴾

وقد يقول إنسان ما : كيف يقول الحق في صدر هذه الآية منادياً المؤمنين بالإيمان فقال : آمنوا ، وبعد ذلك يطالبهم بأن يؤمنوا ؟ ونقول : فرى في بعض الأحيان رجلاً يجرى كلمة الإيمان على لسانه ويعلم الله أن قلبه غير مصدق لما يقرب ، فتكون كلمة الإيمان هي حق صحيح ، ولكن بالنسبة لمطابقتها لقلبه ليست حقاً وتعرضنا من قبل لقول الحق :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْمِعُوا بِلَاغِ رَسُولِ اللَّهِ إِنَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَكُونُونَ رَاغِبِينَ﴾
﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ﴾

(سورة المنافقون)

لقد شهد المنافقون أن رسول الله مرسل من عند الله ، هذه قضية صدق ، لكن الله العليم بما في القلوب يكشف أمرهم إلى الرسول فيقول :

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

لقد واضعت شهادتهم بألستهم ما علمه الله . لكن القول منهم بخلاف ما في قلوبهم ، فشهد الحق إنهم لكاذبون . ويعلم سبحانه كذبهم في شهادتهم ؛ لأن المنافق منهم لم يشهد صحيح الشهادة ؛ لأن الشهادة الحقة هي أن يوافق القلب واللسان القلب . وبعض من الأعيان الذين يحاولون الاستدراك على القرآن قد عميت بصيرتهم عن الإحساس باللفظ والفهم لأسرارهم ؛ لذلك يتخبطون في الفهم فهم لا يعرفون صماء التلقي عن الله . وقالوا : إن بالقرآن تضارباً ، ولم يعرفوا أن كذب المدفوعين لم يكن في مقابلة إن محمداً رسول الله ولكن في شهادتهم بذلك ، وكذبهم الله في قلوبهم ؛ فشهد الله عنهم ، فقد أعلنوا الإيمان بألستهم ولم تؤمن قلوبهم .

وإن أردنا أن نفهم أن الخطاب للمؤمنين عامة ، بأن يؤمنوا ، فهذا طلب للارتقاء

بزيده من الإيمان ، ولما في قول الحق المثل الواضح في حديثه للنبى ؛ قال الحق :
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالنَّاسُفِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَدِيمًا حَكِيمًا ﴾
 (سورة الاحزاب)

الحق هنا يقول للمتقى الأول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . « اتق
 الله » ، أى بأمره بالقيام دائماً على التقوى .

إذن معنى قول الحق . « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » أن الحق يحاطبكم بلفظ
 الإيمان . ويريد أن يتصل بيمانكم بعد كلامه الحق مع إيمانكم قبل كلامه .
 فلا يقطع ولا يفصم خيط الإيمان أبداً . بل لا بد من المداومة على الإيمان ،
 وإلا يترك مؤمن هذا لشرف . فحين رأى واحد منكم منادى بوصف طلب منه الوصف
 بعده فليعلم أن المراد هو المداومة

وسلم أن الحق هنا يحاطب مؤمنين ومنافقين وأهل كتاب ؛ لذلك فلا بد أن
 تشملهم الآية : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله » لأن الإنسان إن آمن بالله
 فقط ، فهذا يقتضى أن يبحث المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطوب الله إنما جاء به
 رسول ؛ لذلك فالإيمان بالله يقتضى أن يؤمن الإنسان برسول ، لأن مصارى
 ما يعطيك العقل أيها الإنسان أن تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويديره . ولكن
 ما اسم هذا الإله ؟ لا يعرف الإنسان ذلك إلا عن طريق الرسول .

إن هذه أمور لا نعرف بالعقل ولكن لا بد من الإحصار بها ، وكذلك مطلوبات
 الله ؛ وكذلك جراء المؤمنين على حسن إيمانهم ، ولذلك لا بد من محبة رسول
 للملاخ .

إذن فلا بد مع الإيمان بالله أن تؤمن بالرسول . ومادمت أيها المؤمن قد آمنت
 برسوله فلا بد أن تؤمن بالكتب التى جاءت على لسان الرسول . وهذه الكتب تقول
 لك : إن هناك مخلوق لا ترهم وهم الملائكة ، والمَلَكُ يأتى بالوحى ويتنزل به على
 الرسول ، على الرغم من أنك لم تر الملاك فانت تؤمن بوجوده

إذن غالقمة الإيمانية هى أن تؤمن بالله ، ولازمها أن تؤمن برسول الله ، وأن تؤمن

بكتاب مع الرسول ، وأن تؤمن بما يقوله الله عن خلق لا تستطيع أن تدركهم كالملائكة . وهذا الأمر بالإيمان هو مطلوب من أهل الكتاب لأنهم آمنوا برسولهم ، ويطلب منهم أن يؤمنوا برسول الله ربما أنزل عليه

ويترك الحق سبحانه وتعالى خلفه أن يكتشفوا وجوداً لكائنات لم تكن معلومة لأنهم تحدثوا بأن في الكون كائنات أبغنا الله بوجودها ولا ندركها وهم بالملائكة . إذن - فالدليل عندهم يحنهم ويدفعهم إلى الكشف والبحث

والمثال على ذلك الميكروب الذي لم تعرفه البشرية إلا في القرن السابع عشر الميلادي ، وكان الميكروب موجوداً من البداية ، لكننا لم نكن ندركه ، وبعد أن توصلت البشرية إلى صناعة المجاهر أدركناه وعرفنا خصائصه وخصائله وأنواعه ، وما زالت الاكتشافات تسمى إلى معرفة الجند في ، هو جديد بالنسبة لنا ، لكنه قديم في وجوده .

ومعنى ذلك أن الله يوضح لنا . إذا تحدثت أيها الإنسان من صادق على أن في الكون خلقاً لا تدركه أنت الآن فعلياً بالتصديق ، فقبل اكتشاف الميكروب لو حدث الناس أحد بوجود الميكروب في أثناء ظلام العصور الوسطى ما صدقوا ذلك ، على الرغم من أن الميكروب مادة من مادة الإنسان نفسها لكنه صغير الحجم بحيث لا توجد آلة إدراك تدركه . وعندما اخترعنا واكتشف الأشياء التي تصعب صورة الشيء مئات المرات استطعنا رؤيته ، فعدم رؤية الشيء لا يعنى أنه غير موجود .

فلذا ما حدثنا الله عن خلق الملائكة والجن والشیطان الذي يجري في الإنسان يجري الدم ، فهذا يجب أن يُصدق ويؤمن الكافر والملاحد بذلك ، لأنه يُصدق أن الميكروب يدخل الجسم دون أن يشعر الإنسان ، وبعد ذلك يتفاعل مع الدم ثم تظهر أعراض المرض من بعد ذلك ، وقد علم ذلك بعد أن تبين أسباب الرؤية والعلم فهذا كان الله قد خلق أجساماً من غير جسد مادة الإنسان فلماذا لم يصدق الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ

وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴿١﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النكتة)

والمعروف أن الكتاب هو القرآن وهو علم عليه ، أم الكتاب الذي أنزل من قبل
فمعروف أن المراد به هو جنس الكتاب أي كل الكتب التي نزلت على الرسل
السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقال على « الـ » السابقة
لكلمة الكتاب الثانية : « الـ » الجنسية والجس كذا نعلم - تحت أفراد كثيرة
بدليل أن الحق سبحانه وتعالى يأتي بالمفرد ويدخل عليه الألف واللام ويستثنى منه
جماعة ، مثال ذلك :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُفْرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

يوجد « الإنسان » هنا مفرد ، ودخلت عليه « الـ » ، واستثنى من الإنسان جماعة
هم الذين آمنوا ، وهذا دليل على أن « الإنسان » أكثر من جماعة . ولذلك يقولون .
إن الاستثناء معيار العموم . أي أن اللفظ الذي استثنينا وأحذفه وأخرجنا به لفظ
عام .

ويطالب الحق بالإيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل ، فهذا أطلق كلمة « الكتاب »
انصرفت إلى القرآن « لأن » الـ « هما (للعلية) ، مثال ذلك . يقال : « هو
الرجل » ، وهذا يعنى أنه رجل متفرد بزايا الرجولة وشهامتها وقوتها ، فإذا أطلقنا
الكتاب فهي تعنى القرآن ، لأن كلمة الكتاب غلب إطلاقها على القرآن فلا تنصرف
إلا إليه ، أو أنه هو الكتاب الكامل الذي لا نسخ ولا تبديل له ، فـ « الـ » هي للكمال
أما الكتاب الذي أنزل من قبل فهو يشمل التوراة والإنجيل وسائر الكتب ،
والصحف المنزلة على الأنبياء السابقين .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » أي
إن آمن بالله وكفر ببقية ما ذكر في الآية فهو كافر أيضاً

وكان بعض اليهود كعبداً بن سلام ، وسلام بن أخته ، وسلمة بن أخيه ،

وأما وأسيد ابني كعب ، وثعلبة بن قيس ، ويامين بن يمين قد ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا . نحن يؤمن بك وكتبائك وموسى والنوراء وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب وأرسل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن ويكل كتاب كان قبله » فقالوا : لا نفعل . فتزلت فأمنوا كلهم^(١) .

والخطاب والبدء يشمل أيضا المنافقين . أي يأيا الذين آمنوا في الظاهر مفاقا ، أخلصوا الله واجعلوا قلوبكم مصابة لألستكم ، فالنداء - إذن - يشمل المؤمنين ليستدبوا ويستمروا على إيمانهم ، ويضم الكافرين من أهل الكتاب ليؤمنوا بكل رسول وبكل كتاب ، وهو أيضا للمتففين ليخلصوا في إيمانهم حتى تعاقب وتوافق قلوبهم ألستهم

إذن فمن يكفر بأي شيء ذكره الله في هذه الآية فقد كفر بالله .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » و« ضل » أي سار على غير هدى ، فعندما ينزه الإنسان عن هذه المقصود يقال : ضل الطريق ، والنسب « ضل ضلالاً بعيداً » هو من يذهب إلى متاهة بعيدة ، والمقصود بها متاهة الكفر .

وهلك ضلال عن الهدى يمكن استدراكه ، أما الضلال البعيد والغرى في متاهة الكفر فمن الصعب استدراكه ، والضلال متحولون في نقطة البداية ، لكنهم هريقان مختلفان ، فأحدهما يسير في طريق الإيمان وهو متجه دائماً إلى غايته وهي رضا الله بتطبيق مطلوباته ، ويحذر أن يخالف عن أمره ، والآخر انحرف من البداية فوصل إلى متاهة الكفر .

ويقول الحق من بعد ذلك .

(١) الكشاف لجار الله الرضوى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ
كَفَرُوا ثُمَّ ءَرَادُوا كُفْرًا لَّعَنَ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ
وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ ١٣٧ ﴿

وهؤلاء هم المكفرون الذين أعلنوا الإيمان وأبطنوا الكفر وقال الله عنهم .
﴿ وَقَالَتْ طَافِقَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ
وَءَاكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَرْجِعُونَ ﴾ ١٣٨ ﴿

(سورة آل عمران)

إذن ، هم حولوا الإيمان من عقيدة إلى مجرد كلمة تقال ، وكانوا في حاية الحرص
على تأدية مطلوبات الإسلام بالأعمال الظاهرية حتى يدفعوا عن إسلامهم الريبة . أما
قلوبهم فهي مع الكفر ؛ لذلك أرادوا أن يلبسوا في المطق ويتلصوا به .
﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَّا قُلْ لَّ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ
فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

وبعضهم الحق أمام أنفسهم . وبالله عندما يعرفون أنهم مجرد مسلمين باللسان
ولكن قلوبهم لم تؤمن ويخبرهم الرسول بذلك ويقول لهم بلاعاً عن الله : « قل لم
تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . وكانوا أسبق الناس إلى
صفوف الصلاة ، وعندما فضحهم الرسول وأوضح لهم : أنتم لم تؤمنوا ولكنكم
أسلمتم فقط . ها عرفوا أن محمداً قد عرف خبايا قلوبهم بلاغاً عن الله

ولو قالوا : إن محمداً هو الذي عرف هذه الخبايا لما اقتصر اعترافهم به كرسول ،
بل دُعيّا محمداً في النفي وأرادوا أن يجعلوه إلهاً . ولكن رسول الله بحسب الأمر : وبين
هم أن الله هو الذي أبلغني ، بدليل أنه أبلغ أن يقول لهم : « قل لم تؤمنوا » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقر بأن هذا الأمر ليس فيه شيء من عبث بل هو مأمور بالبلاغ عن الله ربه . وفي عصرنا قال برنارد شو : إن الذين يكتذبون أن محمداً رسول من عند الله يريدون أن يجعلوه إلهاً ، فمن أين أتى بهذه لأشباه التي لم تكن معلومة في عصره . . . ٩ .

إن الناس جميعاً مطالبون بالتصديق بمحمد رسولاً من عند الله ؛ لأن قال عن أشياء لا يمكن أن يقوها واحد من البشر . والرسول صلى الله عليه وسلم بذاته يوضح بحسم هذا الكلام ويبين أن هذا ليس من عبثي ، لكنه من عند الله .

« قالت الأعراب أما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » وهذا كشف مخرج ومنطق لما في قلوبهم ؛ لهذا قال السامعون للآية : الحمد لله أن هناك أملاً في أن يدخل الإيمان قلوبنا . وقد دخل الإيمان في قلوبهم بالفعل لأن كلمة (ما) تعيد معنى الإيمان عنهم في الزمن الماضي ولكنها تفيد أيضاً توقع وحصول الإيمان منهم وقد حصل .

« إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم أسوأ ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً ، أي ماتوا على الكفر ، أو آمنوا بموسى ، ثم كفروا بعيسى ، وجاء أناس آخرون آمنوا بعيسى ، وازدادوا كفراً بعدم الإيمان بمحمد ، فليس من بعد محمد صلى الله عليه وسلم استدراك .

ويخبرنا سبحانه بمصيرهم : « لم يكن الله ليغيرهم ولا ليهديهم سبيلاً » لأنهم دخلوا في الإيمان مرة ثم خرجوا من الإيمان . ومعنى سلوكهم أنهم قصدوا الفتنة لأن الآخرين سيأخذونهم وقد أسوأ ، وسيأخذونهم وهم يكفرون ، وسيعملون ذلك بأنهم عندما تحققوا في المسائل العقيدة كفروا وهم يفعلون ذلك ليهوتوا من شأن الإسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَتِّبِ أَصْرًا بِالَّذِي أُرِيَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ السَّارِ

وَأَكْفَرُوا ۚ وَهَرَجَ لَهُمُ الْجَحِيمُ ۚ ﴿٧٢﴾

هم إذن يقصدون المعتنة بإظهار الإيمان ثم إعلائهم الكفر وفي ذلك تشكيك للمسلمين ، ويكون مصير من تردة بين الإيمان والكفر ، وكان عاقبة أمرهم أنهم ازدادوا كفرا بكون مصيرهم ما جاء في قوله . « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » فهم قد دخلوا في الخيانة العظمى الإيمانية التي يحكمها قوله الحق .

﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾

(س الآية ٤٨ سورة النساء)

ويقول الحق عنهم هنا : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » . والهداية - كما نعلم - ترد بمعاني متعددة . فقد يكون المقصود منها الدلالة ، فون شئت تدخل الإيمان وإن شئت لا ، ولا شأن لأحد بك . والمعنى الثاني هو المعونة ، أي يقدم لك الله ما يهديك بالفعل . وعندما تعرض القرآن لهذه المسألة قال :

﴿ وَأَمَّا نُمُودُ فَنَهَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ مَصِيعَةُ الْعَذَابِ

أَهْلُوا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فسبحانه هنا قد ذهب على الهداية ، ولم يقدم لهم الهداية الفعلية لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، فكان الله قد هدى على المنهج الذي يوصل الخير ولنير لكل الناس ، فمن أقبل بإيمان فالحق مجله يهديه المعونة ويعاونه على ازدياد الهدى ، مصداق لقوله :

﴿ إِنَّهُمْ قَنِيَّةٌ ءَامُوا رَبَّهُمْ وَزَادَتْهُمْ هُدًى ﴾

(س الآية ١٣ سورة الكهف)

ولا يريد لهذا المثل أن يغيب عن الأذهان ؛ لذلك أركبه دنيا . شرطى المرور الواقف في بداية الطريق الصحراوي يسأله سائل : داخب إلى الإسكندرية عن الطريق ؛ فيدله على الطريق الموصل للإسكندرية ، هنا قام الشرطى بالدلالة ، ثم شكر الرجل الشرطى وحمد الله على حسن شرح الشرطى ؛ ويحسن ويشعر رجل المرور بالسعادة ، ويحسن الرجل المسافر من عقيب الضريق ، ويركب معه ليشير له على تلك العقبات حتى يتعافاها . أى أنه من بعد الدلالة قد حدثت المعونة . كذلك الحق يدل النفس على الإيمان وعلى المسج ، فالذى يؤمن به يساعده ويخفف عليه

الطاعة ، قال الحق سبحانه في شأن الصلاة :

﴿ وَإِنَّا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْغَاسِقِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

إذن نحن نجد الهداية على مرحلتين : هداية الدلالة ، وهداية الممونة .

ويريد الحق لقضية الإيمان أن تكون قضية ثابتة متصلة بحيث لا نطفو إلى العقل لنناقش من جديد . فبدأ الإيمان لا يتغير في مراحل الرسالات من سيدنا آدم ، إلى أن ختمها بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
وقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ

وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَحْكُمُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(سورة النساء)

إذن سبحانه يريد من المؤمن أن يؤمن باللقمة العليا ، وهي الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه كتاباً ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه رسالة على لسان أي رسول . والذين يؤمنون مرة برسول ثم يكفرون برسول آخر ، أو الذين يؤمنون برسول ثم يكفرون بنسبة الصحابة أو الولد لله ثم يزادون كفراً بالخاتم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم مجال مع الهداية إلى الله ؛ لأن الإسلام جاء بالهداية الخاتمة وليس للسما من بعد ذلك استدراك ، وليس لأحد من بعد ذلك استدراك ، ولذلك قال في أول الآية : « آمنوا ثم كفروا » . ثم آمنوا . ثم كفروا » . وقال في آخر الآية : « ثم ازدادوا كفراً » أي أنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وليس هناك مجال أن ينتظروا رسولاً آخر لينسخوا كفرهم بمحمد ويؤمنوا بالرسول الجديد .

ويوضح سبحانه : لم يكن الله ليهديهم لأنهم هم الذين صرفوا أنفسهم عنه ، فلهذا لا يجمع الهداية ممن قدم يده ومثما إليه ، بل يحلونه في هدايته ، أما من ينقص يده من يد الله فلا يلبسه على الإيمان فانه غنى عنه ، وملام الله غنياً عنه فيستظل في ضلاله ؛ لأن الهداية لا تكون إلا من الله . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى هداية

اخرى ولا هادى إلا هو . ولم يكن الله يهديهم سبيلاً إلى الجنة ؛ لأنهم لم يقدموا
الاسباب التى تؤهلهم للدخول إلى الجنة .

ولذلك يشرحها الله فى آية أخرى :

﴿لَا يَكُنْ اللَّهُ لِيَفْخِرَ لَكُمْ وَلَا لِيَهْدِيَكُمْ طَرِيقًا ۖ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَلِّدِينَ
فِيهَا أَبَدًا﴾

(سورة النجم ١٦٨ ومن الآية ١٦٩ سورة النجم)

وهكذا نجد طريق جهنم معبداً مُدَلَّلاً بالنسبة لهم .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

سمة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر لا تأتى من أصيل فى الإيمان ، بل تأتى
من متلون فى الإيمان ، تبدل له أسباب فيؤمن ، وبعد هذا تبدل له أغيار فيكفر .
وذلك شأن المنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء . فيقول الحق : « بشر المنافقين بأن
لهم عذاباً أليماً » .

ونحن نعلم أن المنافق هو الذى جمع بين أمرين : إعلان إسلام ، وإبطان كفر .
والنفاق مأخوذ من باغواء البريوع ، وهى إحدى جمحوره التى يستتر ويحتفى فيها ،
والبريوع حيوان صحراوى يجادع من يريد به شر فيفتح لنفسه بايين ؛ يدخل أمام
الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر . فإذن انتظره الرجل على باب فالبريوع يخرج
من الآخر .

« بشر المنافقين » والبشارة هى الإخبار بشئ يسر سياتى ربه بعد . وهل المنافقون
ييسرون ؟ لا . إن البشارة تكون بخير ؛ لذلك نتوقع أن ينشر المنافقون
ولا ييسرون ، ولكن الله فى أساليبه البلاغية تعبيرات لتصعيد العذاب . فلو قال :

أنزلهم بعذاب أليم ، لكان الكلام محتملاً ، فهم - كمنافقين - مستعدون لسماع الشر ولكن الحق يقول : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » وذلك هو التهكم والاستهزاء والسخرية ، وهي من معيشت البليغ على أداء مهمته البلاغية . ونسمع المفارقات أحياناً لتعطيتنا صورة أصدق من الحقيقة فإذا جئت إلى بخيل مثلاً ، وقلت له : مرحباً بك يا حاتم . ماذا يكون موقف من يحضر هذا اللقاء ؟

أنت تنقله من واقع البخيل إلى تصور حاتم الطائي أصل الكرم . وبذلك نقلت ابخيل نقلتين : نقله من وضعه كبخيل ، ثم السخرية منه ؛ لأن قولك لبخيل ما : يا حاتم هو تفريع وتهكم وسخرية واستهزاء ، لأنك نقلته من وصف خسيس وحفير إلى وصف مقابل هو سام ورفيع وعظيم تحفيرا له واستهزاء به ، ومن المقارنة يبدو العارق الكبير . وإذا ما جئت مثلاً لرجل طويل جداً ، وقلت مرحباً بك يا قزم . هذه هي المقارنة ، كما تقول لقصير : مرحباً يا عارذ . أو إذا جئت لطويل لتصافحه ، فيجلس على الأرض لتسلم عليك . هذه أيضاً مفارقة وإن جئت لرجل قصير لتصافحه فتجلس على الأرض لتسلم عليه فهذه هي السخرية والتهكم .

وهذه المفارقات إنما تأتي للأداء البلاغي للمعنى الذي يريد استكلم ، فقول الحق : « بشر المنافقين » معناه . أنكم أيها المنافقون قد صنعتم لأنفسكم ما كنتم تحبون ، وكأنكم ما كنتم تحبون لأنفسكم تحبون العذاب . وما كنتم قد صنعتم لأنفسكم تحبون العذاب ، فإنا أبشركم بأنكم ستعذبون . والذي يباقي ألا يريد من ذلك غاية ؟ لذلك يصور له الحق أن غيبته هي العذاب ، فقال الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

إنك حين تريد تصعيد أمر ما ، فأنت تنقل مخاطبتك من شيء إلى الشيء المقابل وهو النقيض ، مثال ذلك : إنسان عطشان لأنه مجوئ أو مسجون وأراد أن يشرب شراباً ماء ، من الممكن أن يقول له الخارس : لا . ويجعله يئس من أن يأتي له بكوب ماء ، أما إن أراد الخارس تصعيد العذاب له فهو يذهب ويأتي بكوب ماء ويقربه منه ، فإذا من السجين يذهب ليأخذ كوب الماء فيسكب الخارس كوب الماء على الأرض هذا هو تصعيد العذاب . وسبحان يقال : « بشر » فالمستمع يفهم أن هناك شيئاً

يسر ، فإذا قال الحق : « بأن لهم عذاباً أليماً » فمعنى ذلك أن الغم يأتي مكرماً . فقد بسط الحق أنفسهم بالبشارة أولاً ، ثم أنهاها بالندارة .

وعلى سبيل المثال - والله المثل الأعلى - يقول الأب لابنه : استذكر يا بني حتى لا ترسب ، لكن الابن يستمر في اللعب ثم يقول الأب : يا بني لقد اقترب الامتحان ولا بد أن تذاكر . ولا يأنبه الابن لكلام الأب ، ثم يأتي الامتحان ويذهب الأب يوم إعلان النتيجة ، فيكون الابن راسباً ، فيقول الأب لابنه : أعتثت لقد رسبت في الامتحان ! فقولته أعتثت تسط نفس الابن ؛ لأنه يتوقع نجاح غير سر ، ويسمع بعدها لقد رسبت تعطيه الشعور بالقبض .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ رسوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » ، « بشر » لها علاقة بالذلولة الاشتقاق ، لأن الانفعالات يظهر أثرها على بشرة وجهه ، فإِنْ كان الانفعال حزن فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض ، وإن كان الانفعال سروراً فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط . وتعكس البشرة انفعالات النفس البشرية من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس ونهم ، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسر ، أو بخبر يحزن ويسوء ، ولكنها غلبت على الخبر السار ، وحصلت الندارة بالخبر الذي يحزن وتنقبض النفس له .

« بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » . والبشارة - كما قلنا - نوحى بأن هناك حسراً ساراً ، فيأتى الخبر غير سار . وكما يقول الحق في آية أخرى يصور بها عذاب الكافرين يوم القيامة وكيف أنه يصعد العذاب معهم :

﴿ وَإِنْ يَسْمِعُونُ يُقَالُوا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ساعة نسمع « وإن يستمعوا يقولوا مجاه » نفهم أن برداً يأتي لهم أو رحمة تنب عليهم ، ولكن الإغاة التي تأتي لهم هي :

﴿ كَانْتَهَى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وسأله السامع أو القارىء هل هذه إغاثة أو تعذيب ؟ وهذا تصوير لتصعيد العذاب ؛ فقلبه الذى يعطى لهم كاهل يصعد الألم فى نفوسهم

والعذاب - كما نعام - يأخذ قوته من المعذب ، فإن كان المعذب ذو قوة محدودة ، كان العذاب محدوداً وإن كان المعذب غير محدود القوة فالعذاب غير محدود ، فإذا ما نسب العذاب إلى قوة القوى وهو الله فكيف يكون ؟ والعذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، هذه الأوصاف كلها تتجمع ولكل وصف منها جهة ؛ فالألم هو إحساس النفس بما يتعبها ، والعذاب العظيم هو العذاب الذى يبلغ القمة ، وقد يبلغ العذاب القمة ولكن المعذب يتجلد ، وعذاب الحق يهوى قلعة متلقى العذاب فلا يقدر أن يكتم الألم ؛ لأن درجه تحمل أى إنسان منها تجلد لا تستطيع أن تدفع الألم ، ومع العذاب العظيم ، نجده أليماً أيضاً ، فيكون العذاب الأليم العظيم مؤلماً للمهابة ، لكن النفس قد تكون متجلدة متأينة ثم تنهار ، حيث لا يكون العذاب مهيباً .

ولأن المنافقين والكمار غارقون فى المادية أثر الله وصف العذاب بأنه أليم لأن الإيلام يكون للمهابة ، ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى بعض الأوصاف للمنافقين فيقول :

﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُفُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ

جَمِيعًا ﴿١٣١﴾

وأول مظهر من مظاهر العناق أن يتخذ المنافق الكافر ولياً له ؛ يقرب منه ويوده ، ويستمد منه النصرة والمعونة ، والمؤانسة ؛ والمجاساة ، ويترك المؤمنين . وعرفنا أن كل من الأعمال البشرية لا بد أن يحدث نهاية تُطْلَقُ منه ، ولا يتجرده العمل عن

العناية إلا في المجنون الذي يعمل الأعمال بدون أي غاية ، لكن العاقل يفعل الفعل لغاية ، وهدف يرجوه . والمنافقون يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين لأي غاية ولأي هدف ؟

ويكشف الحق هذه المسألة فيوضح : أنهم يتخون العزة من الكافرين ، ولذلك اتخذوهم أولياء من دون المؤمنين . وينصهم - جل شأنه - إلى جهلهم ، لأنهم أخذوا طريقاً يوصلهم إلى ما هو ضد العناية .

فماذا يتخون العزة لم يعرفوا أولاً ما العزة ؟ العزة مؤخوذة من معنى مادي وهو الصلابة والشدّة . فالأرض الرّار أي الصلبة التي لا ينال منها المعول ، ثم نقلت إلى كل شديد ، فكل شيء شديد فيه عِرة . والمراد بها هنا : الغيبة والنصر ، وكل هذه المعاني تتضمنها العزة .

فيذا قيل : الله عزيز . أي أنه سبحانه وتعالى غالب على أمره شديد لا يمكن أن يقدر على محله أو مكروه أو قوته أو عقابه أحد . وإذا قيل فلان عزيز أي لا يُعَلَب ، وإذا قيل هذا الشيء عزيز أي نادر ، ومادام الشيء نادراً فهو نفيس ، والمعدن النفيسة كلها أحدثت خطها من ندرتها وقلفتها .

وما دعمتم أيها المنافقون تطلبون العرة ، ألا تطلبونها من عنده ؟ . أطلبونها من طاعتكم ؟ . وعندما تطلبون العرة فذلك لأنكم لا تملكون عرة ذاتية ، فلو كانت عندكم عرة ذاتية لما طلبتم العرة من عند الكافرين . وهذا دليل على فقدانهم العرة لأنهم طلبوها من مساوئهم من الأعيار ، فالنافقون شر ، والكفار بشر ، وبما أن كل البشر أعيار ، فمن الممكن أن يكونوا أعيار ليوم وأذلاء غداً ، لأن أسباب العرة هي شئ أو قوة أو جاه ، وكل هذه من الأعيار .

فأنتم أيها المنافقون قد طلبتم العزة ممن لم يزد عليكم ، وهو من الأعيار مثلكم ، ولم تطلبوها من صاحب العرة الذاتية الأبدية وهو الحق سبحانه وتعالى ، ولو أردتم العزة الحقيقية التي تفيدكم عن الطلب من أعيار مثلكم فلتذهبوا إلى مصدر العزة للمدى لا تناله الأعيار وهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك أوضح لهم الحق إن أردتم أن تتعلموا طلب العزة فعليكم أن تغيروا من أسلوبكم في طلبها ، فأنتم تتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتتمون عدوهم العزة وهم من أهل الأعيار ، والأغيار تبدل من يوم إلى يوم ، فإن كان الكفار أعتبوا اليوم ، فغدا لن يكونوا كذلك ، ولقد رأيتم كبشر أن العنى يفتقر ، ورأيتم قوماً قد صعب ، وطلب العزة من الأغيار يعني أنكم غير أمراء ، ومع ذلك فأنتم تطلبون العزة من غير موصعها . فإن أردتم عزة حقيقية فاطلبوها ممن لا تتغير عرته وهو الحق سبحانه وتعالى : « فإن العزة لله جميعاً » .

وفي هذا القول تصويب لطلب العزة . ولطلب كل إنسان العزة إيماناً بالله ، فسبحانه الذى يهب العزة ولا تتغير عرته : « فإن العزة لله جميعاً » . وكلمة « جميعاً » هذه دلت على أن العزة لها أفراد شتى : عزة عنى ، عزة سلطان ، عزة جاه ، فإن أراد واحد أن يعرفها ويعلمها فهي - جميعاً - فى الحق سبحانه وتعالى .

والمؤمنون فى عبوديتهم لله عبيد لإله واحد ، وقد أعطانا الله بالعبودية له عن أن ندل لأناس كثيرين . وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يذل نفسه لأى مصدر من مصادر القوة ، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لعنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح .

إذى ساعة يقول الحق : « فإن العزة لله جميعاً » فمعناها : إن أردت أيها الإنسان عزاً ينظم ويفوق كل عز فإذهب إلى الله ، لأنه سبحانه أعزنا نحن خلقه ، وعلى سبيل المثال نجد أن الحق لم يجعل الفقير يقترص ، بل قال :

﴿ مِنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

وها يرفع الله عبده الفقير إلى عل درجات العزة العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله ، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء : إنك تسأل الناس ، ألا نعف ولا تسأل ؟ . فقال : أنا سألت الناس بأمر الله ، فالسائل يسأل بالله ، أى أنه يتخذ الله شفيعاً ويسأل به . وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له ، فهو يعتر بظوة هذا الكائن وهى قوة ممنوحة له من الله وقد يستردها - سبحانه -

منه . بما بالناس بالقوة اللاتناهية لله ، وكل قوة في الدنيا موهوبة من الله ، المال موهوب منه ، والجاه موهوب منه ، وكل عرة هي لله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا مِيعَتُمْ
آيَاتُ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ
حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِمْ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١١٠ ﴾

يا أيها المؤمنون أنتم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات الله أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم إلا أن يتحولوا إلى حديث آخر ، وذلك حتى لا يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم ، وبذلك يحرم الله وحده أهل الإيمان ، ويصونهم من أي تهجم عليهم ، فالذين يغارون على الإيمان هم الذين آمنوا ، فهامت قد آمنت وارتضيت لنفسك الإسلام فلياك أن تهادن من يتهجم على الدين ، لأنك إن هادنته كان أعز في نفسك من الإيمان ، وهامت أيها المؤمن قد ارتضيت الإيمان طريقاً لك وعقيدة فلتحجم هذا الإيمان من أن يتهجم عليه أحد ، فإن احترأ أحد عن الإيمان بشيء من النقد أو السخرية أو الرمي بالباطل . . فالغيرة الإيمانية للمسلم تحتم عليه أن يرفض هذا المجلس .

وكان المؤمنون في البداية فئة مستضعفة لا تستطيع الوقوف في وجه الكافرين أو المنافقين ، فساعة يرك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو في آيات الله ، فالكافرون والمنافقون يحملون بذلك السلوك أن يجرس الإيمان أعز على المسلمين من مجالسة هؤلاء . أما إذا جالسهم مسلم وهم يخوضون في الإيمان . . فهذا يعني أنهم أعز من الإيمان ، والكافرون قد يحملونها حديثاً مستمراً لسر حور الإيمان في قلوب

المسلمين أما حين يرى الكافر مؤمناً يبت ويغفر من أى حديث فيه سخرية من الإسلام ، هنا يعرف الكافر أن إيمان المسلم عزيز عليه .

وهذه الآية ليست آية ابتدائية إنما هي إشارة إلى حكم سبق ، ونعرف أنها نزلت في المدينة ؛ فالحق يقول : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » ومعنى هذا أن هناك آية قد نزلت من قبل في مكة ؛ ويقول فيها الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِنَّمَا يُغِيثُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويشير الحق هنا إلى أنه قد أنزل حكماً في البداية ، وهو الحكم الذي نزل مع الكافرين في مكة ؛ حيث استضعف الكافرون المؤمنين ، ولم يكن المصحح الإيمان قد جاء بمنع المؤمنين أن يجالسوا الكافرين ، فقد كان بعض المؤمنين عبيداً للكافرين ، وبعض المسلمين الأوائل كان لهم مصالح مشتركة قائمة مع الكافرين وجاء الحكم إن ولغ هؤلاء الكافرون في الدين بالباطل فتركوا لهم المكان .

وسببنا هنا في سورة النساء بذكر المؤمنين بأن حكم ترك الكافرين لحظة الدخول في الإيمان هو حكم عند مغفول للمؤمنين من البيئة الأولى حيث كنتم أيها المؤمنون مع مشركين عبيد الاعتصام ، والحكم مستمر أيضاً في المدينة حيث يوجد بعض أهل الكتاب . والتكليف من الله ، هو تكليف بما يهبطه احسن البشرى ؛ فالإنسان عرضة لأن يسي ، وعليه بمجرد أن يتذكر فليقم تاركاً هؤلاء الذين يخوضون في آيات الله . وقد نزل في القرآن أن إذا سمع المؤمنون من يكفر بآيات الله ويسهرى بها فبيعادروا المكان ، ونلاحظ أن الذي نزل في الآية الأولى ليس سماعاً بل رؤية .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

ويأتي السماع في الآية التي نحن بصدد خواتمها : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، والمهم هو مجرد العلم سواء كان رؤية أو

سماعاً بأهم يخوضون في دين الله ، فقد يخوض أهل الشرك أو غيرهم من أعداء الإسلام في يرى ، وقد يخوضون بما يسمع ، وقد يخوض بعض المشركين بالغمز أو اللعز من قور رؤيتهم لمسلم .

وقوله الحق : « فلا تفعلوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » ، يوحى أنهم إذا ما خاضوا في حديث غير الخوض في آيات الله فليقع المؤمنون معهم . وكان ذلك في صدر الإسلام ، والمؤمنون لهم مصالح مشتركة مع المشركين وأهل الكتاب ، ولا يستطيع المجتمع الإسلامي آنذا أن يتميز برحلته ، فلو قال لهم الحق عل لسان رسوله : لا تفعلوا مع الكافرين أو المشركين فوراً . لكان في ذلك قطع لمصالح المؤمنين .

وكلمة « يخوضون » يعطى معنى واضحاً جسياً ؛ لأن الأصل في الخوض أن تدخل في مائع . أى سائل ، مثل الخوض في المياه أو العير ، والقصد في الدخول في سائل أو مائع هو إيجاد منفذ إلى غاية .

وساعة نخوض في مائع فالمائع لا ينصل حتى يصير جزءاً هت وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً ، بل مجرد أن يمشى الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى ، ولذلك يستحيل أن تصنع في المائع طريقاً لك . أما إذا دخل الإنسان في طريق رملٍ فهو يزيح الرمال أولاً ويفسح لنفسه طريقاً . ولا تعود الرمال إلى سد الطريق إلا بفعل فاعل ، وأنصوا من هذا المعنى وصف الأمر الباطل بأنه خوض ؛ ذلك أن الباطل لا هدف له وهو مختلط ومرتكك ، والجبال في الباطل لا يتهى إلى نتيجة

إذن « الخوض » هو الدخول في باطل ، أو الدخول إلى ما لا يتهى الكلام فيه إلى غاية . ويقرر العلماء . لا تخوضوا في مسألة الصلوات العلية ؛ لأنه لا يصح الخوض فيها ، والكلام فيها لن يتهى إلى غاية . ولذلك يقول الحق في موقع آخر بالفؤان الكريم :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ

الْبِكْرَتَبَ الَّذِي حَآءَ بِهِ ، مَوْسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْزُوهُ قُرْآنُ طَبِيسَ

تُبَدُّوْنَهَا وَتُحْفَوْنَ كَثِيْرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ أَنْتُمْ وَلَا آَلَاؤُكُمْ قُلْ أَتَىٰ اللَّهُ ثُمَّ
ذُرَّهُمْ فِيْ غَرَسِهِمْ يَلْعَبُوْنَ ﴿١٤﴾

(سورة الأنعام)

لقد أبلغتهم يا محمد أن الذي أنزل الكتاب عليك هو الحق سبحانه وتعالى الذي
أنزل من قبل التوراة فأخفيتم بعضها وأظهرتم البعض الآخر ، ثم بعد البلاغ اتركهم
يخوضون في باطلهم

وفي موضع آخر يتكلم الحق من الخوض :

﴿يَحْفَرُ الْمُتَنَفِّحُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُّوْا
إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٥﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ
أَبَقِعْهُ وَعَايِنِّيهِ ۚ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾﴾

(سورة التوبة)

إذن الخوض هو الدخول في مائع ، وما دمت قد دخلت في مائع فلن تجد فيه طريقاً
مهدداً بل يحتلط المدخول فيه بالدخول عليه فلا تميز الأشياء ، وأخذ منه الخوض
بالباطل أو الخوض باللعب الذي ليس فيه غاية .

« وفخذ نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها
لا تفعلوا معهم حق يخوضوا في حديث غيره » .

وتأني الكلمة التي ترهب المؤمن ونزعه . « إنكم إذا مثلهم » أي إنكم إذا فعلتم
معهم وهو يخوضون في آيات الله تكفرون مثلهم ، لأنكم تسمعون الخوض في الدين
بالباطل ، ومن يرضى بالكفر يكفر .

لقد أعطينا الآية مرحلية أولية ، فإذا ما كانت البيئة الإيمانية مجتمعاً ذاتياً متكافلاً
ليس لأحد من المؤمنين أن يجالس لكافرين ، ولا نوالهم إلا إذا والونا ؛ لأن

الخلوس معهم في أثناء الخوص في لدين يجرثم على مناهج الله ، وعلى المزمس أن ينهر أى ساحر من الدين . وعلى المؤمنين أن يعرضوا صمً ينحرف عن منهج الله أو ينحصر له . ولكن المجتمعات المعاصرة تكرم من يخوص بالباطل ؛ وفي ذلك إغراء لساس على أن يخوضوا في الدين بالباطل .

كن لو أعرضنا عن ذلك مسيلنس الخارجون عن منهج الله وسيلة غير طريق الاجترأ على الدين والخوص بالباطل في دين الله ومنهجه . وفساد المجتمع إنما يأتي من أننا نرى من يخوص في دين الله بالباطل يكرمه البعض ويعطيه مكانة ومزلة .

وقوله الحق : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم ، نعلم منه وسيلة للإعلام البشرى هي أن يرى الإنسان معللاً أو يسمع قولاً . فإذ رأيت أيها المسلم فعلاً يشجع منهج الفساد في الأرض فاعلم أن قلت خوص في دين الله بالباطل .

وقوله الحق : « فلا تفعلوا معهم » هو إيدان بالمقطعة ، فلو أن إنساناً بهذا الشكل يسكن في منزل ، ويذهب إلى البقال ليشتري منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له ، وكذلك الجزار ، وكذلك أى إنسان في يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج ، وبذلك تكون المقطعة حتى يتأدب ، ويعلم كل إنسان أن المجتمع غيور على دينه الذى آمن به ، وأن الله أعز عليهم من كل تكريم يورثه في مجتمعاتهم ، ولو أن كل واحد من هؤلاء المنحرفين والموعلين في الباطل لودأوا المجتمع وقد قاطعهم ووضع لهم حدوداً للذهاب إلى الصواب ولبحثوا عن شيء آخر ومجان آخر ياكثون العيش منه ويطعمون أولادهم اللقمة الحلال من هذا العمل المشروع .

ويقول الحق : « إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » ولا نستعظنون هذه الحياة ؛ لأن المسلم لا يأخذ الأمور بعمر الدنيا كفرن أو اثنين أو حتى عشرة قرون ، بل عليه أن يعرف أن الدنيا بالنسبة له هي صمره فيها ، والعمر يمكن أن ينتهى فجأة ، ويعمل المسلم لا من أجل الدنيا فقط ، ولكن من أجل أن يلقي الله مسلماً في الآخرة ، والمؤمن يخشى أن يحشره الله مع المنافقين والكافرين في جهنم ، وهذا مصير من يقبل السخرية أو الاستهزاء بدينه .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ
 قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ
 قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ
 لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (١٤١)

وقوله الحق : « الذين يتربصون بكم » وصف للمنافقين ، ويتربص بفلان
 بفلان أى أن واحداً يتحفظ ليتحسس أخبار آخر ، ويرتّب حاجته منه عن قدر
 ما يرى من أفعاله ، وعرفنا هذا المعنى من قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بَنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

ويتربص المنافقون بالمؤمنين لأنهم إن وجدوا جيّراً قد أتى لهم فهم يريدون
 الاستفادة منه ، وإن جاء شرّ المنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهراً هم
 يعلنون الإيمان وهم في باطنهم كفار . وهم يتربصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث
 وليرتبوا أمورهم على ما يحبّ .

« الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم » فإن فتح
 الله بنصره على المؤمنين في معركة وأخذوا معانم قال المنافقون : « ألم نكن معكم » ،
 فلا بد لنا من سهم في هذه الغنيمة . وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً
 لقول الحق : « وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من
 المؤمنين » .

هم يحاولون إذن الاستفادة من الكفار بقولهم : لقد تربصنا بالمؤمنين وانتظرنا
 ما يحدث لهم ، ولا بد لنا من نصيب . ويقول الحق على ألسنتهم : « قالوا ألم

نستعوذ عليكم ولننعمكم من المؤمنين « واستعوذ على الشيء أى حلزه وجعله فى حيزه
وملكه وسلطانه . والحق هو القاتل :

﴿ اسْتَعِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة المجادلة)

أى جعلهم الشيطان لى حيزه ، وقول المنافقين للكافرين : « ألم نستعوذ عليكم »
يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكرى الكفر والإيمان فيحاول المنافقون معرفة
تفاصيل ما يتريه المؤمنون ، ولحظة أن يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يمثلون دور
من بأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين ثم يقولون للكافرين نحن
استعوذنا عليكم أى منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ، ويطلبون منهم الثمن

ولم الأداء النبأى للقرآن حين يقول عن انتصار المؤمنين : « فإن كان لكم فتح »
أما تعبير القرآن عن انتصار الكافرين فبأن بكلمة « نصيب » أى جرد شيء من القلب
المؤقتة . ثم يأتى القول الفصل من الحق : « فالحق يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل
الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » .

وحين يرد الله أمر الكافرين والمؤمنين لا يرد دائما إلى أمد قد لا يطول أجل السامع
وعمره ليراه فى الدنيا ، فبأن له بالمسألة المقطوع بها ، لذلك لا يقول للمؤمن : إنك
سوف تنتصر . فالمؤمن قد يموت قبل أن يرى الانتصار . ولذلك يأتى بالأمر المقطوع
وهو يوم القيامة حين تكون الجنة مصيرا مؤكدا لكل مؤمن ؛ لأن الحياة أتمه من أن
تكون شأنا للإيمان .

ويعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ألا نطلب الثمن فى الدنيا ؛ لأن الغايات
ثان لها الأغيار فى هذه الدنيا . فنعم الحياة إما أن يموت الإنسان وإما أن يموت
الإنسان . وثمن الإيمان بلى بقاء من أمنت به . إن القعدة الإيمانية تقول . من
يعمل صالحا يدخل الجنة ، والحق يقول عن هؤلاء الصالحين :

﴿ فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(من الآية ١٠٧ سورة آل عمران)

أى أن الجنة باقية بإبقاء الله لها ، وهو قادر على إبقائها ، أما رحمة الله فلا فناء لها لأن صفة من صفاته وهو الدائم أبد . وعين يقول الحق سبحانه وتعالى : « فאלله يحكم بيبكم يوم القيامة » أى لن يوجد نقض لهذا الحكم ، لأنه لا إله إلا هو وتكون المسألة منتهية . وقد حكم الحق سبحانه وتعالى على قوم من أقارب محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد حكم الله على عم الرسول ، فقال فيه :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ③ ذَاتَ لَهَبٍ ④ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ⑤ فِي جَهَنَّمَ حَبْلٌ مِّن مِّسْكٍ ⑥ ﴾

(سورة البقرة)

قول الحق سبحانه : « سيصل ناراً ذات لب » يدل على أن أما لب سيموت على الكفر ولن يهدى الله بالإيمان ، مع أن كثيراً من الذين وقفوا من رسول الله مواقف العداء أموا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشهد معسكر الكفر فقدان عدي من صناديده ، ذهبوا إلى معسكر الإيمان ، فيها هوذا عمر بن الخطاب ، وخالده ابن الوليد ، وحكمة بن أبي جهل وغيرهم كل هؤلاء أموا فما الذى كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أن أباً لب لن يكون من هؤلاء ؟ ولماذا لم يقتل أبو لهب ؟ قال ابن أبي : إننى سأصلى ناراً ذات لب ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وفئت كلمة الإيمان لكنه لم يقتل ذلك وعلم الله الذى حكم عليه أنه لن يقول كلمة الإيمان .

ألم يكن باستطاعة أبى لب وروجه أن يقول فى جمع : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتم انتهاء المسألة ؟ ولكن الله الذى لا يعقب لحكمه قد قضى بكفرهم ، وبعد أن ينزل الحق هذا القول الفصل فى أبى لب وروجه بأن قول الحق فى ترتيبه المصحفى ليقول ما يوضح إياكم أن تصمموا أن هذه القصيدة تنقص ، فسيصلى أبو لهب ناراً ذات لب وامرأته حمالة الحطب ، وقال الحق بعدها مباشرة :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② ﴾

(سورة الإخلاص)

ولا أحد سيقدر حكم الله . .

إذن فقوله الحق : « فאלله يحكم بيبكم يوم القيامة » أى لا يعقب لحكم الله ،

فلا إله غيره يعقب عليه . « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » وهذه نتيجة لحكم الله ، فلا يمكن أن يحكم الله للكافرين على المؤمنين . ولن يكون للكافرين حجة أو قوة أو طريق على المؤمنين . وهل هذه القضية تتحقق في الدنيا أو في الآخرة ؟ ونعلم أن الحق يحكم في الآخرة التي تعطلت فيها الأسباب ، ولكنه جعل الأسباب في الدنيا ، فمن أخذ بالأسباب فتتأخر الأسباب تعطيه ، لأن مبادئ الربوبية يعطى المؤمن والكافر ، فإن أخذ الكافرون بالأسباب ولم يأخذ المؤمنون بها ، فالله يجعل هم على المؤمنين سبيلاً ، وقد يهزم المؤمنون أمام الكافرين .

والحكمة العربية تعلمت : إياك أن تعتز أن الخطأ ليس من جنود الصواب . لأن الإنسان عندما يخطئ يضحك له الخطأ ، فعندما يعلم المدرس تلميذه أن الفاعل مرفوع ، وأخطأ التلميذ مرة ونصب الماعل ، فهذا يعني أنه أخذ القاعدة أولاً ثم سها عنها ، والمدرس يصحح له الخطأ ، فتنتصق القاعدة في رأس التلميذ بأن الفاعل مرفوع وهكذا يكون الخطأ من جنود الصواب . والباطل أيضاً من جنود الحق

فعندما يشتري الباطل في الناس يبرز بينهم هاتف الحق . وهكذا ترى الباطل نفسه من جنود الحق ، والباطل هو الذي يظهر اللذعة من استثناء الصاد ، ويجعل البشر تصرخ ، وكذلك الألم الذي يصيب الإنسان هو من جنود الشفاء ، لأن الألم يقول للإنسان يا هذا هناك شيء غير طبيعي في هذا المكان . ولولا الألم لما ذهب الإنسان إلى الطبيب

عين - إذن - أن يعرف ذلك كماعدة لخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء ، وكل خطأ يهوى إلى صواب ، ولكن بلذعة ، وذلك حتى لا ينساه الإنسان . وتاريخ اللغة العربية يحكي عن العلامة سيبويه ، وهو من يذكره عندما يلحن أحد بخطأ في اللغة ؛ يقول : « أعصب المحطىء سيبويه » ؛ لأن سيبويه هو الذي وضع النحو والقواعد حتى إننا إذا أصلنا كلمة الكتاب في عرف اللغة فالحق يصرف إلى كتاب سيبويه ؛ فهو مؤلف الكتاب

وسيبويه لم يكن أصلاً عالم نحو ، بل كان عالم قراءات للقرآن ، حدث له أن كان جالساً وعيبت عليه لجنة في مجلس ، أي أنه أخطأ في النحو وعاب عليه من حوله

ذلك ، فغضب من نفسه وحرن ، وقال . والله لأجيدن العربية حتى لا ألحن فيها وأصبح مؤلفاً في النحو .

ومثل آخر . الإمام الشاطبي - رضي الله عنه - لم يكن عالم قراءات بل كان عالماً في النحو ، وبعد ذلك جاءت له مشكلة في القراءات فلم يتعرف عليها ، فأنقسم أن يجلس للقراءات ويدرسها جيداً . وصار من بعد ذلك شيخاً للقراء . فلحمة - أي غبطة - هي التي صنعت من سيويه عالماً في النحو ، ومشكلة وعدم إهتداء في القراءات جعل من الإمام الشاطبي شيخاً للقراء ، على الرغم من أن سيويه كان عالم قراءات ، والشاطبي كان رجل نحو .

ولذلك أكررها حتى مهمها جيداً : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء والعافية .

وقد نجد الكافرين قد انتصروا في ظاهر الأمر على المؤمنين في بعض المواقع مثل أحد ، وكان ذلك للترية ؛ ففي « أحد » تحالف بعض المقاتلين من المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الهزيمة مقدمة للتصويب ، وكذلك كانت موقعة حنين حينما أعجبتهم الكثرة

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَآرِحِهَا رَحِمَتٌ ثُمَّ وَلِيَتْكُمْ مُدِيرِينَ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

والشاعر العربي الذي تعرض لهذه المسألة قال :

إن الهزيمة لا تكون هزيمة إلا إذا لم تفتلح أسبابها
لكر إذا جهدت لتعرد شائياً فالحمق كل لحمق يهين عايبها

بعدما يقتلح الإنسان أسباب الهزيمة تصبح نصراً ، وقد حدث ذلك في أحد ، هم خالفوا في إبداءة فغلبهم الأعداء ، ثم كانت درساً مستفاداً أفصح الطريق للنصر



فإن رأيت أيها المسلم للكافرين ميلاً عن المؤمنين فلتعلم أن الإيمان قد تحلحل في نفوس المسلمين فلا نتيجة دون أسباب ، وإن أحد المؤمنين بالأسباب أعظمهم النتائج . فهو العاقل :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

(من الآية ٦ سورة الأنفال)

فإن لم يعد المؤمن ما استطاعوا ، أو غرّبهم الكثرة فالنتيجة هي الهزيمة عن استحقاق ، وعلى كل مؤمن أن يصح في يقينه هذا القول الرباني :

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُبُتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَحْمَدَ بِسُبُتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَحْمَدَ لِسُنَّتِ
أَقَدَّ تَحْوِيلًا﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إن إعلان الإيمان بالله ليس هو نهاية أي شيء بل هو البداية ، والمؤمن بالله يأخذ جراه على قدر عمله ويغفر الله على عمله المؤمن عندما يخطيء ، لذلك يؤدبه ويربيه - والله المثل الأعلى - نجد أن الإنسان منا قد لا يصبر على مراجعة الدروس مع أولاده فيأتي بمدرس ليعمل ذلك ، لأن حب الأب لأولاده يدفع الأب للانفعال إذا ما أخطأ الولد ، وقد بضره . أما المدرس الخارجي فلا يتفعل ، بل يأخذ الأمور بحجمها العادي . إذن فكيف أحب الإنسان فهو يتدخل بمقياس الود ويقسو أحياناً على من يرحم .

والشاعر العربي يقول :

مضى ليردجروا ومن يك حازماً فديقس أحياناً على من يرحم

ومثال آخر - والله المثل الأعلى - الإنسان إذا ما دخل منزله ووجد في صحن المنزل أطفالاً يلعبون الميسر منهم ابنة وابن الحار ، وطفل آخر لا يعرفه ، فيتجه فوراً إلى ابنة يوصمه ، ويأمره بالعودة فوراً إلى الشقة ، أما الأولاد الآخرون فلن يأخذ ابن الحار إلا كلمة تأنيب ، أما الطفل الذي لا يعرفه فلن يتكلم معه

وهكذا نجد العقاب على قدر المحبة والود ، والتأديب على قدر المصلحة في النفس .

ومن لا يهتم بأمره لا يعطى لسبوكه السيء بالأ . وساعة يرى أن للكافرين ميلاً على المؤمنين فلعلهم أن قصة من قصايا الإيمان قد احتست في نفوسهم ، ولا يريد الله أن يظنوا هكذا بل يصفهم الحق من هذه الأخطاء بأن نعمهم الأحداث . فرببها إلى أنهم لا يأخذون بأسباب الله .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ
وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ
وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يعرف واقع المنافقين أنهم يظهرون الإيمان ويبطون الكفر ، ويوضح الحق إياكم أن تطوا أن في قدرة مخدوق أن يعنى شيئاً يسون علم الله ، وقد يكر إنسان بك ، وهو يعلم أنت تعلم بكمه ، فهل هذا مكر ؟ لا ؛ لأن انكر هو الأمر الذي يتم خفية بتدبير لا تعلمه ، والأصول في المكر ألا يعلم المكور به شيئاً . والمنافقون حين يظهرون الإيمان ويبطون لكفر يجادعون من يعلم خفية الصدور . وكان يجب أن يأخذوا درساً من معاملة الله بوساطة المؤمنين لهم ، فقد صان المؤمنون دم المنافقين ومأمم وأجرى المسلمون على المنافقين أحكام الإسلام ، لكن ما الذي يبيته الله طؤلاه امنافقين ؟ لقد بيت لهم اندرك الأسفل من النار فمن الأقدر - إذن - على الخداع ؟

إن الذي حفاً هو من لا يخدع من يعلم أنه قادر على كشف الخداع . وكسمة « خدع » تعنى مكر به مكرأ فيدى له قولاً وفعلأ ونحى سواهما حتى ينق فيه . وبعد ذلك ينفذ المكر . وهناك كلمة « خدع » وكلمة « خداع » . واحق في هذه الآية لم يغفل إن الله يخدعهم ، بل قال « يجادعون الله وهو خادعهم »

و« خادع » تعنى حدوث عمليتين ، مثل قولنا : قاتل فلان فلانا . فالقتال يحدث

يرى طرفين . وكذلك يقول : شارك فلان فلان ، لأن مادة « فعل » تخرج إلى طرفين لكن عندما يقول « فعل » ، فالفعل يحدث من جانب واحد ، واخذع بدأ من واحد ، وعندما يرى الشخص الذي يراد خداعه أن حصنه أقوى منه فإنه يبيت له خداعاً آخر ونسمى العملية كلها (مخادعة) ، ونعال - ندعه فخدعه إذا غلبه وكان أخذع منه ومن إذب الذي عذب ؟ إن الذي يبيت الخداع رداً على خداع حصنه هو الغالب

ولأن الخداع يحدث أولاً ، وبعد ذلك يتلقى (مخدوع) الأمر شييت أكبر ، فهو «خذع» ، ولذي يعذب يقول عنه : «أخذعه» أي أزال خداعه ، والله سبحانه وتعالى عاممهم بمثل ما أرادوا أن يعاملوا به المؤمنين ، فاما قلوبهم أظهرت الإيمان أولاً وأصغروا الكفر ، وأعطاهم الله في طاهر الأمر أحكام المسلمين ، وفي الباطن قرر أن يعذبهم عذاب الكافرين بل وأشد من ذلك ، لأنهم سيكونون في اسرك الأسفل من النار .

«إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم» ، وبإك أبيه المسلم أن تشتق من هذه العملية اسماً لله وتقول «المخادع» ، لأن أسماء الله توثيقية أي لا تسمى الله إلا بالأسماء التي سمي بها نفسه ، وسبحانه يصل المعنى ، نكر لا تأخذ من هذا الفعل شيئاً ، والحق يعطيا هن «مشكاة» ليوضح لنا أن المنافقين يذكرون ويبيسون شراً للمؤمنين ، وأنت أي مسلم نعرف أن الإنسان بما يبيت شر على قدر طاقته التي فيها كبرت فهي محدودة بجانب علاقة قدرة الله ، ولندرك بمصيح الله هذا الشر يبيت من هؤلاء المنافقين وهم حين يذكرون بالله بطلاقة قدرته يذكرونهم أي يمتل مكرهم ويجريهم عن سوء نعتهم ، ولا يقول : «الله مكر» والله أن يقول في انعمل المشاكل ما يشاء .

«إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى»

إن العبادات من الأحداث هي التي تصمى على الخوارج الإيمان عن الأحداث . فإذا كنت تحب الحدث الذي تقل عليه فأنت تقبل عليه بكل اشتياق وحمية ويقبسون لغة اللقاء لأنها تحدد درجة المحبة ، والشاعر العربي يصف لقاء حبيب بحبيته

لقاء الاثنين بين حنة تلهف كئيب واستطالة مُنة

فلحظة اللقاء تبين ما بين الحبيين من مودة ، فإن كانت المسألة بينهما عشر خطوات فهي أسرع باللهفة فيقطعان العشر الخطوات في ثلاث خطوات ، وهذا معناه تقصير زمن الابتعاد ، وكذلك تظهر الكيفية التي يتم بها السلام درجة المودة ، فقد يسلم أحدهما على الآخر ببرود أو بنصف ود ، أو بود كبير ، أو بود مصحوب بلهفة وأخذ متبادل بالأحضان ، وكذلك المدة التي يحتضن كلاهما الآخر ، هل هي دقيقة أو دقيقتان أو ثلاث ؟

إذن فالذي يبين قيمة الود : التلهف ، الكيفية ، المدة . وهذه العناصر الثلاثة أحدها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين البشر ، وقديماً كان الذين يُتِمون بالنساء يسترون في السلام مودتهم . وفي الحصار العربية التي سقطت فيها قيم الأديان نجد أن الرجل يتلقى المرأة بالقبلات .

وفي بعض البلاد نجد الرجل يصافح المرأة ، فهل يصافحها بتلهف ، وهل تبادلته هذه التهمة ؟ فإن وجدت الكف مقرودة وبسوطه للمصافحة فقط فهذا سلام عادي . أما إذا نوى أحدهما إصبعه السنبر على كف الآخر فعليك أن ترى أي طرف هو الذي قام بشئ أصبعه ليحتضن اليد كنها في يده ، فإن كان ذلك من الرجل فالتهمة مه ، وإن كان من المرأة فالتهمة مني ، وإن كان من الاثنين فالتهمة منهما مع ، ثم ما المدة التي يستغرقها بقاء اليد في اليد ؟

وقد يحلو لكليهما أن يتكلما معاً - رجل وامرأة - وكان الكلام قد أحدهما منسى كل منهما يده في يد الآخر .

سلام نوعين بين حنة تلهف كئيب واستطالة مُنة

هكذا يقابل الإنسان الأحداث ، فإن كان الحدث ساراً فالإنسان يقبل عليه بلهفة . وإن كان غير ذلك فالإنسان يقوم إليه متناًقلاً . وكان المصافحون يقومون إلى الصلاة بشغل ونكاسل : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » كأنهم يؤدون الصلاة كستار يحجبون به عاقبتهم ، ويستترون بها عن أعين المسلمين . ولم يكن فيهم للصلاة

شوقاً إلى لقاء الله مثلها كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال - رضي الله عنه - طالباً منه أن يؤذن للصلاة :

« يا بلال أرحنا بالصلاة » (١) .

لأن المؤمن يرتاح عندما يؤدي الصلاة ، أم المنافق فهي عملية شاقة بالنسبة إليه لأنه يؤديها ليستر بها عن أعين المسلمين ولذلك يقوم إليها بتكاسل . وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يرامون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً .

هم يقيمون الصلاة ظاهراً أمام الناس ليخدعو المسلمين وليشاهدوهم غيرهم وهم يصلون . وفي الصلاة التي يرامون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمامها ، يقولون فقط المطلوب قوله جهراً . كأن يقرأوا الفاتحة وبعض القرآن ولكنهم في أثناء الركوع لا يسبحون باسم الله العظيم وكذلك في السجود لا يسبحون باسم الله الأعلى .

ففي داخل كل منافق تيران متعارضان . تيار يظهر به مع المؤمنين وآخر مع الكافرين . والتيار الذي مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ويذكر الله قليلاً ، والتيار الذي مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك ، ولا يذكر الله كثيراً .

وإذا ما حسبنا كم شيئاً يجبر به المصل وكَم شيئاً يجبره سراً ، فسجد أن ما يجبره المصل سراً في أثناء الصلاة أكثر من الجهر . ففي الركوع يقول : سبحان رب العظيم ثلاث مرات ، ويقول : سبحان رب الأعلى ، في كل سجود ثلاث مرات ، أما المنافق فلا يذكر الله إلا جهراً ، وهو ذكر قليل . ونجد اتفاقاً لا يصل فعللاً إلا إذا كان مرقباً ومسموعاً من غيره ، هذا هو معنى المراقبة . أما الأفعال والأقوال التي لا تُرى من الناس ولا تُسمع فلا يؤديها .

ولا يبرز المجتمعات ولا يزلزها ويهدأ إلا هذه المراقبة ، لأن لحق سبحانه يجب أن يؤدي المسلم كل عمل جاعلاً الله في باله ، وهو الذي لا تخفى عليه خافية . وليفتنا

إلى هذه القصة سيد محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول عن الإحسان :

« أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) .

وإذا كان الإنسان يحجل من أن يعيش وحداً مثله من البشر عشراً طهرياً في العالم بالذي يحاول عش الله وهو يعلم أن الله يراه ؟ وماذا يجعل ذلك العبد ربه أهون الماظرين إليه ؟

وعندما يعيش واحداً آخر واكتشف الآخر عشه فهو يعاقبه فيما يالك بعش الله ؟ ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول للمرائي لناس فيقول : « يا أبا بكر ما أحوف ما أحوف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله - عز وجل - يوم القيمة إذا جرى العباد بأعمالهم ذهبوا إلى الدين كنهم نواعون في الدنيا فاطفروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟ » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم

« يا مرائي ينادي عليه يوم القيامة « يا فاجر » يا فاجر » « يا مرائي » ضل صلتك وحطت أهلك فعد أبرك من كنت تعمل له » (٣) .

إذن فالرائي إما يمدح نفسه ، هو يتعدهر ببصلاة ليراه الناس ويركي ليراه الناس ، ويحج ليراه الناس ، هو يحسن ما أمر الله به ، لكنه لا يعمد الله ، ولذلك قال القرآن

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ يَفْقِعَةٍ يَمَاسُ الْفُتُكُنُ مَا حَقَّ إِذَا حَاءَهُمْ لَرَّ يَجِدُهُ شَبَّ وَوَحَدَ اللَّهُ عَنَّهُمْ قَوْمَهُ حَبَّهٖ وَأَلَّهُ مَرِيْعُ الْجَسَبِ ﴾ (٤)

(سورة الود)

وعال عن لون ثان من نفقهم

(١) رواه مسلم من حديث جرير

(٢) رواه أحمد والبيهقي في الشعب ، والطبراني من رواية حماد بن زيد عن رافع بن خديج

(٣) ابن أبي الدنيا (مسند ضعيف)

﴿كَأَلَدَىٰ نَفْسٍ مَّالَةٍ رَّحْمَةً أَنسَىٰ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَكَذَّبَ كَذَلِكُمْ أَصْحَابُ
عَلَيْهِ تَرَابٌ مِّنْهُمَا يُرَىٰ وَلَئِنَّ فَرَسَكُمُ الَّذِي لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ حِمْلِهِ لَيَمُوتُ وَأَنَّهُ
لَآ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

والصفوان هو الحجر الأملس تماما وهو الذي ليس فيه خشونة ، لأن الحجر إن كان به جزء من خشونة وعليه تراب ثم سقط عليه المطر ، فالتراب يتخلل الخشونة . أما الحجر الأملس فمن فور نزول المطر يتزلق من عليه التراب . ومن يرانى المؤمنين عليه أن يأخذ أجره ممن عمل له

ويستكمل الحق وصف الحالة النفسية للمنافقين بقول :

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ
وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن يَهْدِيَهُ سَبِيلًا﴾

والشيء المذبذب مثل المعلق في حيط فيأخذ الرّيح إلى ناحية لبقعة في ناحية أخرى لأن غير ثابت ، مأخوذ من « المذبة » ومنه جاءت بسمية « الذباب » الذى يذبه الإنسان فيعود مرة أخرى ، فمن سلوك الذباب أنه إذا ذُبَّ عن مكان لا بد أن يعود إليه .

« مذذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » فهل هم الذين ذهبوا أنفسهم أم تلك هى طبيعتهم ؟ ولنتأمل عظمة الحق الذى سوى النفس البشرية : ضىء الذات الواحدة أمر ومأمور ، والحق يقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْبِطُوا نَارًا﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى أن الإنسان يقى نفسه بأن يجعل الأمر يوجه الأمر للمأمور ، ويجعل المأمور
يطيع الأمر ، ودليل ذلك قول الحق عن قابيل :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

أى أن جرة من الذات هو الذى طوع بغيره ذات قابيل لقتل هابيل فقد خلق
الله النفس البشرية كمملكة متعددة ، ملكة تحب الأريحية وأخرى تحب الشح ،
والمملكة التى تحب الأريحية إنما تطلب بناء لاس ، والى تحب الشح إنما تفعل ذلك
ليطمئن صاحبها أنه يملك ما يبغيه . وكلتا الملكتين تتصارع فى النفس الواحدة ،
لذلك يقول الحق « قوا أنفسكم » والنفس تقى النفس ، لأن الملكات فيها
متعددة . وبعض الملكات تحب تحقيق للمتعة والشهوة ، لكن هناك ملكة إيمانية
تقول . تذكر أن هذه الشهوات عاجلة ولكنها عظيمة المدعب فيها بعد

إذن فهناك صراع داخل ملكات الإنسان ، ويوضح لنا الحق هذا الصراع فى
قوله . (فطوعت له نفسه قتل أخيه) .

لأن قابيل أراد أن يقتل هابيل بغريزة الاستعلاء . وبازعته نفسه بالخوف من
الإثم . لقد دارت امراودة فى نفس قابيل إلى أن سيطرت غريزة الاستعلاء فأمرت
بإقتل وطوعت بقية النفس وهذا يكشف لنا أن النفس البشرية فيها ملكات
متعددة ، كل ملكة لها مطلوب . والدين هو الذى يقيم التعايش السلمى بين
الملكات

مثال آخر الغريزة الجنسية تقيم السعارة فى النفس ، فيقوم الوعى الإيماني برده
ذلك بأن تقول النفس الإيمانية : إياك أن تلغ فى أعراض أساس حتى لا تلغ الناس فى
أعراضك ، ولماذا لا تذهب وتزوج كما شرع الله ، ولا ترم أبناءك فى فراش غيرك ؟
لأن الغريزة مخلوقة لله فلا تجعل سلطان الغريزة يأمر ويسى .

وهكذا نرى أن النفس تضم وتشمل الملكات والغرائز ، ولا يصح أن يعدى
الإنسان غريزة إلى أمر آخر ، لأنه إن عدى لشهوات فسدت الدنيا .

وعلى سبيل المثال نحن نستخدم الكهرباء التي تمنح لنا النور في حدود ما يرسم لنا مهندس الكهرباء ، الذي وضع لقطب الموجب في مجاله وكذلك القطب السالب ، بحيث تأخذ الضوء الذي يريد أو تعطى حرارة لاستخدامها كقوة لإدارة آلة ، لكن لو التقى القطب الموجب بالقطب السالب على غير ما صنع المهندس لحدثت فتنة كهربائية تسبب حريقاً أو فساداً . وكذلك النفس البشرية ، إن التقى المذكور مع الأنس كما شرع الله فإن الشرية تسعد ، وإن حدث غير ذلك فالذي يحدث في المجتمع يصير حريقاً نفسياً واجتماعياً لا حدود لآثاره المصارة ، وهكذا يرى أن النفس ليس فيها دافع واحد بل فيها دوافع متعددة .

ونجد مريزة الجوع تحرك النفس إلى الطعام ، ويستجيب الدين لذلك لكنه يوصي أن يأكل الإنسان بشرط ألا يتحول تناول الطعام إلى شره ، كما جاء في الحديث « بحسب ابن آدم لقيات يقص صلبه »^(١)

فإن طعام لبقاء النوع والإنسان يحب للاستطلاع ، فيأمر الإسلام الإنسان بأن يستطلع أسباب الله في الكون ليزيد من صلاح الكون ، وينهى الإسلام عن استخدام حب الاستطلاع في التجسس على الناس ، وهكذا تتوازن الملكات بمنهج الإسلام ، وعلى المسلم أن يعيش ملكاته في ضوء منهج الله معاشة سليمة حتى تكون النفس الإنسانية متساندة لا متعادية ، لتعيش كل الملكات في سلام ، ويؤدي كل جهاز مهمته كما أراد الله

تكن المنافق يحيا مذنباً وقد صنع ذلك بنفسه ، فقد أرحى لبعض ملكاته الحيوان على حساب منكات أخرى « مذنبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » إن الكافر يتأثر عن المنافق - ظاهراً - بأنه مسجوم مع نفسه ، هو غير مؤمن بالإسلام ويعمل ذلك ولكنه في حقيقة الأمر ينهار مع فطرته لنى تدعوه إلى الإيمان .

قد يقول قائل . وكيف يساوى الذي أظهر الإيمان وأبطل الكفر مع الذي أعلن الكفر ؟ ونقول . إن الكافر لم يمدح الطائفة المؤمنة ولم يقل كأننا مع الله مع العنة المؤمنة

(١) من حديث روى الترمذي والنسائي وابن ماجه

وهو ليس معها ؛ بل يعلن الكافر كفره منسجماً مع نفسه ، لكن المنافق مذبذب خيس في وضعه الإنسان والرجولي .

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً » .

والله لا يضلل عبداً بشكل مباشر ؛ فسبحانه يُعصم خلقه أولاً بالرسول والمنهج ، لكنه يضلل من يصير على عدم الإيمان ، لذلك يتركه على ضلاله وصمائه . صحيح أن في قدرة الله أن يأخذه إلى الإيمان قهراً ، لكنه سبحانه يترك الإنسان لاختياره .

فإن أقبل الإنسان على الله فسبحانه يعينه على الهداية ، أما إن لم يقبل فليذهب إلى تيه الضلال . ونزين له الدنيا ونعطيه منها لكنه لن يجد سبيلاً ، فسبيل الله واحد وليس هناك سبيلان

وبذكر هذه الحكاية ؛ لنعرف قيمة سبيل الله . كان الأصمعي - وهو مؤلف عربي له قيمة كبيرة - يملك أدباً أدبياً جميل إلى الأساليب الجميلة من اشعر والنثر ، ووجد الأصمعي إنساناً يقف أمام باب المنذر بالكعبة المشرفة ، وكان الرجل يدعو الله دعاء حبراً « يارب : أنا عاصيتك ، ولولا أنني عاصيتك لما جئت أحلب منك المعصرة ، فلا إله إلا أنت ، كان يجب أن أخجل من معصيتك ولكن ماذا أفعل » . وأعجب الأصمعي بالدعاء ، فقال : يا هذا إن الله يعفو لك لحسن مسألتك .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَحْمِلُوا ثِقَلَهُ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾

لقد أخذ الحق على المنافقين أنهم يتحدون الكافرين أولياء من دون الله ، وكذلك أخذ المؤمنون على المنافقين أنهم اتخذوا من معسكر الكفر ولياً لهم من دون الله ومن دون المؤمنين ، ولهذا غاولي بالمؤمنين ألا يصنعوا ذلك ، ويوضح سبحانه : لقد أخذنا على المنافقين أنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون الله ، فرباكم أن تفعلوا مثلهم .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً »

وهذا أمر منطقي يستقيم مع منهج الإيمان ؛ لأنكم إن فعلتم ذلك . فإنما تقدمون الحجة ليعذبكم الله ، وتعلمون أن المنافق يعلن الإيمان بلسانه ويخفي الكفر في قلبه ، فكيف يكون وضع المؤمن مع الكافر مثل وضع المنافق مع الكافر ؟ ذلك أمر لا يستقيم . ومن يفعل ذلك إنما يقدم حجة لله ليعذبه

الحق سبحانه في إرساله للرسول وفي تأييد الرسل بالمعجزات وفي إرساله المصاحح المستوفية لتتعليم حركة الإنسان في الحياة ، كل ذلك ليقطع الحجة على الناس حتى لا يقولن واحد : أنت لم تقل لنا يارب كيف نسير على منهج ما ، لذلك لم يترك - سبحانه - الإنسان ليمكر بعقله ليصل بفكره إلى وجود الله ، ويكتشف أن هناك خالقاً للكون لم يتركنا سبحانه هذه الظنون ، ولكنه أرسل لنا الرسل بمنهج واضح ، من أجل ألا يكون للناس عن الله حجة من بعد الرسل ، فلا يقولن واحد : أنت لم تنتهي يارب ، والحهل بالقانون في الشرع البشري لا يعنى الإنسان من العقوبة إن ارتكب جرماً ، لكن الله لا يفعل ذلك ، فهو أكرم على عباده من أنفسهم ، لذلك يرسل الرسل ليحمل المنهج الذي يبين الحلال من الحرام :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(س الآية ٤٢ سورة الأنفال)

فلا يقولن واحد : لقد أخذنا الله على غرة . وأنتم أيها المؤمنون إن اتقنتم الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتفرتم إليهم ونصرتمهم فأنتم أكثر شراً من المنافقين ؛ لأن المنافق له أسباب ، وفي أعماقه حبط من الكفر وخبث من الإيمان ، والحجة واضحة عليكم أيها المؤمنون ؛ فقد أبلغكم الحق المنهج وأعلنتم الإيمان به .

فإن صعدتم غير ذلك تعطون الحق الحجة في أن بعديكم

« أتريدون أن نجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً » والسلطان المبين هو سلطان الواضح المحيط الذي لا يستطيع أن يدفعه أحد ، فردا ما كانت هناك حجة ، قد يستطيع الإنسان أن ينقضها ، كالحامي أمام المحاكم . لكن حجة الله هي سلطان مبين . أي لا تنقض أبداً ومن بعد ذلك يقول الحق .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نُصُيراً ﴾

ولنر دقة التريية الإيمانية . فلم يأت الحق بفصل في كتابه عن المنافقين يورد فيه كل ما يتعلق بالمنافقين ، لا ، بل يأتي بلمحة عن المنافقين ثم يأتي بلمحة أخرى عن المؤمنين ، حتى ينقر السامع من وضع المنافق ويحبه في صفات المؤمن ، وهذا يقول . « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن نجعل لهم نصيراً » . والدرك مرة تنطق بسكون الراء ، وتنطق مرة بفتح الراء ، مثل كلمة « نهر » . والدرك دائماً في نزول . والأثر اصالح يميز لنا ذلك بانقول :

« النار حركات كما أن الجنة درجات » (١) .

فالنزول إلى أسفل هو الدرك ، والصعود إلى أعلى هو صعود الدرج . وفي مصرنا نسمع مستوى سطح البحر كمقياس ، لأن اليابسة متعرجة ، أما انبحر نهر مستطرق .

ونستخدم في الأمر الدقيق - أيضاً - ميزان المياه ، وعندما تسقط الأمطار على الطرق نكتشف لنا حمل المقاول الذي رصف الطرق ، هل أتقن هذا العمل أو لا ؟ ونحن نمشي دلوا من المياه في الخيام بعد تبليطه حتى يتكشف جوفه أو رداءة عمل

(١) تفسير الإمام ابن كثير .

العامل ، إذن هناك شيء يصصح شيئا آخر . والقول المصبرى الشائع : « إن الذى يقوم بعمل المحارة هو الذى يكشف عميل البناء » . فلو أن الحائط غير مستو ، فعماس المحارة مضطر أن يسد العجوات والميول حتى يستوى سطح الحائط . . . والذى يكشف جودة عامل المحارة هو عامل طلاء الحائط ؛ لأنه إما أن يستخدم المعجون بكثرة ليملا المناطق غير المستوية فى الحائط ، وإما أن يجد الأمر سهلا . والذى يكشف جودة أو رداءة عمل عامل الطلاء هى أشياء طبيعية مثل الغبار . والعامل الذى يريد أن يعيش هو الذى يسرع بتسليم البناء ؛ لأن العيار الذى يوجد فى الجو يعيش فى خط مستقيم ، وعندما يوجد جدار تم طلاؤه بمادة غير جيدة فالغبار يلتصق به ، وكأن الله قد أراد بذلك أن يفضح من لا يتقن عمله ، وكل شيء مرده إلى الله حتى يصل الخلق جميعا إلى الحق سبحانه مفسوحين ، إلا المؤمنين الذين يعملون صالحا ، فهؤلاء يسترحم الله بعملهم الصالح .

« إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن نجد لهم نصيرا » . وسبحانه وتعالى سبق أن عرض لنا صورة المنافقين المهزوزة التى لا ثبات لها على رأى ، ولا وجود لها على لون يحترمه المجتمع الذى يعيشون فيه فقال عنهم :

﴿ مَذْهَبَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰذَا وَلَا إِلَىٰ هَٰذَا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة النساء)
والذئبة لون من أرجحة الشخصية التى لا يوجد لها مقوم ذاتى . وسبحانه وتعالى حين عرضهم هذا العرض المشوه ، يوضح : أن جزائى لهم حق بناسب ما فعلوه .

وقد هيا الحق الأذهان ليجمعها مستعدة لقبول الحكم الذى أنزله عليهم حتى لا تلحد الناس شفقة عليهم أو رحمة بهم ، وسبحانه حين يحكم حكما فهو يضمن بقبولهم ووجدانته ألا يوجد متنازع له فى الحكم . وكان من الممكن أن يقول سأجعله فى الدرك الأسفل من النار . ولن توجد قوة أخرى تستل الجناح ؛ لذلك أتبع الحق الحكم بقوله : « ولن نجد لهم نصيرا » أى أنه حكم مشمول بالإنفاذ ، ولن يعمله أحد من خلق الله ، فسبحانه له الملك وحده ، وقد جعل سبحانه الملك فى الدنيا لأسباب الناس أيضا ، أما فى الآخرة فلا ملك لأحد ولا ملك لأحد .

﴿ لَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ إِلَّا الرَّحِيمُ الْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ١٦ سورة طه)

وبعد ذلك يتيح الحق لأقوام من المذنبين أن يعدلوا رأيهم في المسألة وأن يعملوا
إيمانهم وأن يتوبوا عما فعلوه ، إنه - سبحانه - أرحم لهم أن يرجعوا أنفسهم ويحاسبوها
فلم يخلق الباب دونهم بل قال .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا
بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٦﴾

إذن فمن الممكر أن توجد فتحة خير قد تدفع الإنسان إلى التوبة ، وحتى لا يظن
أحد أن الحكم هنا نهائي ، وذلك حتى لا يعقد الإنسان نفسه ويتورط في مريد من
الشروع ، لذلك قال : «إلا الذين تابوا» أي تاب عن نفاقه الأول ، وإذا ما كان قد
ترتب على نفاقه السابق إفساد فلا بد أن يصلح ما أفسده ويعتصم بالله ويخلص لله نية
وعصلاً . «إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله» . إذن
فشروط النجاة من الدرك الأسفل من النار هي التوبة ، وإصلاح ما أفسد ،
والاعتصام بالله ، وإخلاص دينه لله

والتوبة هنا إقلاع عن النفاق ، ألا يترك المنافق الفساد الذي صنمه نفاقه بل عليه
أن يحاول جاهداً أن يصلح ما أفسده بهذا النفاق والاعتصام بالله كيف يكون ؟

لقد عرفنا من قبل أنهم كانوا يفعلون ذلك لابتغاء العزة عند الكافرين أي أن
نفس المنافق تهمش إلى هؤلاء الكافرين فيمزج إليهم ويعتز بشدتهم وبصلابتهم ؛
لذلك يوضح الله : انزعوا هذه الفكرة من رؤوسكم وليكن اعتصامكم بالله وحده
لأنه لا يجير أحد على الله ، واحملوا العزة لله والرجع إليه وحده .

والملاحظ أن الذي يوب ويصلح ويعتصم بالله يكون قد استوفى أركان اليقين
الإيماني بالله ، لكن الحق يقول : «وأخلصوا دينهم لله» ، فلهذا أكد على الإخلاص

هنا ؟ لأن تدبير النفاق كان ينشع من قلوبهم أولاً . ونعلم أن القلب قد يذنب ، فذنب الجارحة أن تعتدي ، مثال ذلك العين تذنب حين تعتدي على محرم الآخرين ، واللسان يذنب إن تعرض بالسب أو الشتم للناس . إذن . فكل جارحة لها مجال معصية ، وهنا مجال معصية القلب هو النفاق وهو الأمر المستور إذن فقله الحق . « وأخلصوا دينهم لله » جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص في التوبة عن النفاق ، والإخلاص بحمد القلب

فكان توبة القلوب غير توبة الجوارح ، فتوبة الجوارح تكون بأن تكف الجوارح عن مجال معاصيها . أما توبة القلب فهو أن يكف عن مجال نفاقه بأن يخلص . وبذلك أثبت الحق مزية المؤمنين الذين لم ينغمسوا في النفاق . وجعل التائبين من المنافقين مع المؤمنين ، فكان الأصل في التميم وفي نيل الجراء العظيم هو الوحد مع المؤمنين « فلو شكك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً »

ومن هنا نعلم أن الأجر العظيم يكون للمؤمنين ومن يوجد مع المؤمنين ينال الأجر نفسه . وقد جعل الحق الحراء من جنس العمل . وكان المنافقون ينافقون ليأخذوا من المؤمنين منواهر الإسلام كصون المال والدماء وليعتبرهم الجميع ظهرياً وشكلياً من المسلمين ، وهم حين نافقوا المسلمين أعطاهم المسلمون ما عندهم . وعندهم تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا الدين الله جعلهم الله مع المؤمنين ، ويعطى سبحانه لأهل الإيمان أجراً عظيماً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ
وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

وسبحانه قد أوضح من قبل أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، واستثنى منهم من تاب وأصلح واعتصم بالله وأخلص ، ويتحدث هنا عن فكرة العذاب

نفسها ، ليجليها يقول : « ما يفعل الله بعذابكم » وهذا استفهام ، والاستفهام أصلاً سؤال من سائل يتطلب جواباً من مجيب . وسبحانه وتعالى يريد أن يعرض قضية موثوقاً بها فهو لا يأتي بها خبراً ، فهو القادر على أن يقول : أنا لا أفعل بعذابكم ولا أحقق لذاتي من ورائه شيئاً ، فلا استجلب به لي نفعاً ولا أدفع به عنى ضراً .

لكنه هنا لا يأتي بهذه القضية كمخبر من عنده ، بل يجعل المتنافسين يقولونها . مثال ذلك - والله المثل الأعلى - يقول واحد لآخر : أنت أهنتني . ومن الجائز أن يرد الآخر : أنا لم أهتك . وأقسم لك أنني ما أهنتك . وقد يصيف : ابغض شامداً . وهنا نجد مراحل المسألة تبدأ بالإبلاغ عن عدم الإهانة ، ثم القسم بأن الإهانة لم تحدث ، ومن بعد ذلك طلب شامداً عن أن الإهانة المعروفة قد حدثت .

وقد يقول الإنسان رداً عن من يتهمة بالإهانة : أنا أترك لك هذه المسألة ، فإذا قلت لك حتى تعتبره إهانة ؟ ومن يقول ذلك واثق أن من شعر بالإهانة لو أدار رأسه وفكره فلن يجد كلمة واحدة تحمل في طياتها شبهة الإهانة .

ولو كان الإنسان واثقاً من أنه أهدأ الآخر ، فهو يحاف أن يفهم الآخر دليلاً على صحته اتهامه له ، ولكن حين يقول له : ومادا قلت لك حتى تعتبر ذلك إهانة ؟ ، فعليه أن يبحث ولن يجد . وبذلك يكون الحكم قد صدر منه هو .

وإذا كان الله يقول . « ما يفعل الله بعذابكم » فهذا خطاب للجماعة كانت ستعذب . وكانت فيهم محادة لله . ووصى الله شهادتهم ، فكان هذه لفظة على أن العاصي يستحق العذاب بمص الآية : « ما يفعل الله بعذابكم » ، ومستعد لهذا العذاب لأنه محاد لله . ولكن الله يقبل منه ومن أمثاله أن يشهدوا . وهذا دليل على أن الإيمان الفطري في النفس البشرية ، فإذا ما حزبها واشتد عليها الأمر لم نجد إلا منطق الإيمان .

ويوضح الحق للمنافقين : ماذا أفعل أنا بعذابكم ؟ فلن يجدوا سبباً خاصاً بالله ليعذبهم ، فكان النقطة الطبيعية قد استيقظت فيهم ، لأنهم سيديرون المسألة في نفوسهم .

وعلى مشراننا نحن الشر نرى أن الذى يدفع الإنسان ليمدب إنسانا آخر إنما يحدث ذلك ليشفى عيط قلبه ، أو ليثأر منه ، لأنه قد آله فيريد أن يرد هذا الإيلام . أو ليمنع ضرره عنه . والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون فى أى موقع من هذه المراتب . فإذا أدرك المناقشون هذه المسألة فطريا بدون إيمان فلن يكون جوابهم إلا الآتى : لن يفعل الله بعدينا شيئا ، إن شكرنا وآمنا .

ونستخلص من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يريد عرض قضية يثبت فيها الحكم من الخصم نفسه ، يلقىها على هيئة سؤال . وكان من الممكن أن يجرى هذه المسألة خبرا ، إلا أن الخبر هو شهادة من الله لنفسه ، أما السؤال فستكون إجابته اقرارا من المقابل . وهذا يعنى أنهم كانوا عاصين ومخالين . وكأنه سبحانه قد اتهمهم على هذا الجواب ، لأن الجواب أمر بطرى لا مندوحة عنه . وهو يدير الكافر رأسه ليطش بالله ما لا يليق ، فلن يجد مثل هذا الطش أبدا .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليا » وإن لم يشكروا ولم يؤمنوا فما الذى يناله الحق من عذابهم ؟ ونعلم أن عظمة الحق أنه لا يوجد شئ من طاعة يعود إلى الله بنفع ، ولا يوجد شئ من معصية يعود إلى الله بالضرر . ولكنه يعبر النفع والضرر عشرين على خلق الله لا على الله - سبحانه - .

وسبحانه يريدنا طائعين حتى نحقق السلامة فى المجتمع ، سلامة البشر بعضهم من بعض . إذن فالسألة التى يريدنا الحق ، لا يريدنا لنفسه ، فهو قبل أن يخلق الحق موجود ويكل صفات الكمال له ، ويصفات الكمال أوجد الخلق . وإيجاد الخلق لن يريد معه شيئا ، ولذلك قال فى الحديث القدسي :

« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنتكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنتكم كانوا على أقبح قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنتكم قاموا فى صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مائة ما نقص ذلك مما عندى شيئا إلا كما يُنفض المخطط إذا أدخل البحر » . (١)

(١) رواه مسلم وأبو حنيفة وابن جرير وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم

« ادب وابتدع بسمه لله ونقصية بسمه لله ، إثم شيء يعود عن حمد الله
ولسطر إلى الرحمة من اخو سبحانه ونعمان الذي خلق خلقا ثم هي الخلق من
الخلق ، واعتبر سبحانه أن من يحسن معاملة المحنوف مثله فهو طائع لله ، ويحببه الله
لأنه أحسن إلى صفة الله .

« ما يفعل الله بعدكم إن شكرتم وآمنتم » فإن تشكروا وثمروا على نعم الله
بعدكم شيئا أي فقد أبعثتم أنفسكم عن استحقاق العذاب

وسبحانه يريد أن يعدل مزاج المجتمع وتفاعلات أفرادهم مع بعضهم بعضا ،
وذلك حتى يكون المجتمع ذا بقاء وعناء وتعيش . ويعلم أن لكل إنسان سمة
وموهبة ، وهذه الموهبة يريد هذا المجتمع .

عمن الجائر أن يكون لإنسان ما أرض ويريد أن يقيم عليها ساء ، وصاحب
الأرض ليس مفترض فيه أن يدرس الهندسة أولا حتى يصمم لبناء ورسومه ، وليس
مفترض فيه أن يتقن حرفة السد ليس البيت ، وكذلك ليس مفترض فيه أن يعلم
حرفة الصلاء والكهولاء وغيرهما .

وكذلك ليس من المفروض فيمن يريد ارتداء جلاب أن يتعلم جزء الصوف من
النعم أو عزل القطر وكيف ينسجه وكيف يقوم بتفصيله وحيالته من بعد ذلك ،
لا ، لا بد أن يكون لكل إنسان عمل ما ينفع الناس . إذن فكل إنسان عمل يرفع
الناس به حتى يتحقق الاستطراق للنعم ، ولأن كلا منا يحتاج إلى الآخر فلا بد من
إصدار التعاليم السنية في الحياة . لأن يكون المراك هو أساس كل شيء ، لأن
المراك يصفى القوة ويذهب بها سدى ، وسبحانه يريد كل قوى المجتمع متساندة
لا متعادلة ، ولذلك قال « ما يفعل الله بعدكم إن شكرتم وآمنتم » . أما إن لم
تشكروا وتزموا ، فعذابكم تأديب لكم ، لا يعود عن الله بشيء

ولذا رضع الحق الشكر مع الإيمان ؟ لنعرف أولا ما الشكر ؟ الشكر : هو إهداء
ثناء إلى المفعول بحسن نائه نعمته ، فتوجه الشكر يعني أن تقول من أمدى لك معروفا .
« كثر خيرك » ، وما الإيمان ؟ إنه اليقين بأن الله واحد .

لكن ما الذي يسبق الآخر . الشكر أو الإيمان ؟ إن الإيمان بالذات جاء بعد الانتفاع بالنعمة ، فعندما جاء الإنسان إلى الكون وجد الكون مغلفاً ، ولم يقل له أحد أى شيء عن أى دين أو خلق . ألا نهو نفس هذا الإنسان إلى الاستشراق إلى معرفة من صنع له هذا الكون ؟

وعندما يأتي رسول ، فالرسول يقول للإنسان . أنت تبحث عن القوة التي صنعت لك كل هذا الكون الذي يحيط بك ، إن اسمها الله . ومطلوبها أن تسير على هذا المنهج . هنا يكون الإيمان قد وقع موقعه من النعمة . فالشكر يكون أولاً ، وبعد ذلك يوجد الإيمان ، فالشكر عرفان إحمائي ، والإيمان عرفان تفصيلي . والشكر متعلق بالنعمة . والإيمان متعلق بالذات التي وهبت النعمة

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً علياً » والحق سبحانه يوضح لنا : أنا الإله وأهب النعمة أشكركم . كيف يكون ذلك ؟

لتضرب هذا المثل . والله المثل الأعلى . أنت اشتريت لابنك بعضاً من اللعب ، ولم تفعل ذلك إلا بعد أن استوفيت ضرورات الحياة ، فلا أحد يأتي باللعب لابنه وهو لم يأت له بطعام أو ملابس .

إذن قامت تائن لابتك باللعب بعد الطعام والملبس ليملأ وقت فراغه ، وهذا يعني أن لضرورات قد اكتملت . وحين تقول لابتك : إن هذه اللعبة للعب فقط ، ستأخذها ساعة تحب أن يلعب ، ونصعبها في مكانها وقت أن نذاكر ، فكل شيء هنا في هذا المنزل له مهمة يجب أن يؤديها . وهذا يعني إنك كوالد تريد أن تؤدب ابنك حتى يلعب بلعبته وقت اللعب ولا يلعب بأي شيء غيرها في المنزل ؛ لأنه لو لعب بكل شيء في المنزل فلا بد من أن يكسر شيئاً ، فلا مجال للعب في التلفزيون أو في الساعة أو الساعة أو الساعة حتى لا تتعطل تلك الأجهزة

وأنت كوالد تريد أن تفرق بين شيء يلعب به وشيء يجهد به . وأشياء الجهد لا توجد إلا عند طلبها فقط ، فالمسألة لا تستخدم إلا ساعة غسل الملابس ، والساعة لا تستخدمها إلا لحظة أن نرغب في معرفة الوقت . والساعة لا نفتحها إلا ساعة

تريد أن تستخرج شيئاً تأكله أو تشربه ، وإيواند يأتى لابن بقليل اللعب ليضع له حدا بين الأشياء التى يمكنه أن يلعب بها وبين الأشياء التى لا يصح أن يلعب بها ، فأشياء المنزل يجب ألا يقرب منها الابن إلا وقت استعياها . لكن بالنسبة للعبة فالابن يلعب بها عندما يحين وقت اللعب ، لكن عليه أن يحافظ عليها . وعندما يرتب الوالد ابنه ، ويجهده منفا للتعليمات ، ويحافظ على حاجات المنزل ، ويلعب بلعبه محافظاً عليها . وإن لم يعلم الأب ابنه ذلك فقد يفسد الابن لعبه

وحيث يقوم الابن بتنفيذ تعليمات أبيه فالأب يرضى عنه ويعد به . وعندما يخرج لعبه جديدة فى السوق فالأب الراضى عن ابنه يشتري له هذه اللعبة الجديدة ؛ لأن الولد صار مأموماً ؛ لأنه يعرف قواعد اللعب مع المحافظة على أداة اللعب . ويعرف أيضاً كيف يحافظ على حاجات المنزل . ويزداد رضاء الأب عن تصرفات الابن ويشأ عن هذا الرضاء أن يشتري الأب لعباً جديدة . فإذا كان ذلك هو ما يحدث فى العلاقة ما بين الأب والابن ، وهما مخوفان لله ، فما بالنا بالخالق الأعلى سبحانه وتعالى لذى أوجد كل المخلوقات ؟

إن الإنسان حين يضع كل المسائل فى ضوء منهج الله ، فانه شاكراً وعيماً ؛ لأن الله يرضى عن العبد الذى يسير على منهجه ، وعندما يرضى الرب عن العبد فهو يعطى له ريادة . فانه شاكراً بمعنى أن البشر إن أحسنوا استقبال النعمة بوضع كل نعمة فى مجامع فلا تعدى نعمة جادة على نعمة هائلة ؛ ولا نعمة هائلة على نعمة جادة ، فانه يرضى عن العباد .

ومعنى رضاء الله أن يعطى البشر أشياء ليست من الضرورات فقط ولكن ما فوق ذلك . فسبحانه يعطى الضرورات لكل حتى الكافر . ويعطى سبحانه ما فوق الضرورات وهى أشياء تسعد البشر

إذن فمعنى أن الله شاكراً . . أى أنه سبحانه ومعالي راض . ويشيب نتيجة لذلك ويعطى الإنسان من جنس الأشياء ويسمو عطاؤه ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(عن الآية ٧ سورة إبراهيم)

والشكر هما موجه من العبد للرب ، والزينة من الرب إلى العبد وإياك أيها الإنسان أن نصنع الأشياء شكلها ، مثل الطفل الذي يصون لعبته لحظة أن يرى الأب . ومن فور أن يجتفى الأب من أمام عيني الطفل فهو يفسد اللعبة ، والله ليس كالأب أبداً ، فالأب قدراته محدودة ، ولكن الله هو الخالق الأعلى الذي لا تخفى عليه خافية أبداً وسبحانه شاكراً ، وهو أيضاً عليهم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٢٨ ﴾

إنه سبحانه وتعالى يريد أن يحصى آذان المجتمع الإيمان من : قالات السوء ، أي من الألفاظ الرديئة ؛ لأننا نعلم أن الناس إنما يتكلم بما تسمع ، فاللفظ الذي لا تسمعه الأذن لا تجد لسان يتكلم به ، ويجد الطفل الذي نشأ في بيت مهذب لا يطق ألفاظاً قبيحة ، وبعد ذلك نحىء على لسانه ألفاظاً قبيحة وحيث نتساءل : من أين جاءت هذه الألفاظ على لسان هذا الابن ؟ ونعرف أنها جاءت من الشارع ؛ لأن البيئة الدائمة للطفل ليس بها ألفاظ رديئة ، وعندما يتقصي الإنسان عن مصدر هذه الألفاظ ، يعرف أن الطفل المهذب قضى بعضاً من الوقت في بيئة أخرى تسربت إليه منها بعض الألفاظ الرديئة .

إذن فاللغة هي نت المحاكاة . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ونعلم أن اللغة ليست جسداً وبيست دماً ، بمعنى أن الطفل الإنجليزي لو نشأ في بيئة عربية ، فهو يتحدث العربية . وبو أخذنا طفلاً عربياً ووضعناه في بيئة إنجليزية فسيتكلم الإنجليزية .

واللغة الواحدة فيها ألفاظ لا يتكلم بها لسان إلا إن سمعها ، وإن لم يسمعها الإنسان فلن ينطق بها . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحصى المجتمع الإيمان من قالات السوء التي تصدر عن آذان الناس لأنها ستعطيهم لغة رديئة ؛ لأن الناس إن

تكلمت بقالات السوء ، فيكون شكل المجتمع غريباً ، وتتردد فيه قالات سوء في آذان السوء ، فكأن الحق سبحانه يوضح : إياكم أن تطلق ألسنتكم بأشياء لا يحبها الله ، فليست المسألة أن يريح الإنسان نفسه فقط بنطق كلمة ، ولكن نطق هذه الكلمة سيرهق أجيالاً ؛ لأن من يسمع الكلمة الرديئة سيرددها ، وسيسمعها غيره فيرددها ، وتتوالى انقذوة السيئة . ويتحمل الوزر الإنسان الذي نطق بكلمة السوء أولاً

وقالات السوء هذه قد تكون بالحق وقد تكون بالباطل ، فإن كانت في الحق مثلاً فلن نستطيع أن نقول : إن كل الناس أهل سوء . وقد يتدبر إنسان آخر بسبب ، ويجوز أن يدعى إنسان على آخر سبباً . إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يجمع الأذان الإيمانية من ألسنة السوء ، لذلك يقول : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » ومقابلها بالطبع هو « أن الله يحب الجهر بالحسن من القول » وساعة يحك الحق المجتمع هذه الحكمة للإيمانية ، أيعالج ملكة على حساب ملكة أخرى ؟ لا

ونعلم أن النفس فيها حب الانتقام وحب الدفاع عن النفس وحب الثأر وما يروح به عن نفسه ويخفف ما يجده من العيظ . والمثل العربي يقول : « من استعصب ولم يفضب فهو حمار » لأن الذي يستعصب ولا يعصب يكون ناقص التكوين ، فهل معنى ذلك أن الله يجمع الناس من قول كلمة سوء ينفت بها الإنسان عن صدره ويريح بها نفسه ؟ لا ، لكنه - سبحانه - يضع شرطاً لكلمة السوء هو : « إلا من ظلم » لأن الظلم هو أخذ حق من إنسان بغيره . وكل إنسان حريص على نفسه وعلى حقوقه . فمن وقع ظلم على إنسان فمكاثات نفسه تغضب وتثور ، فإذا أن ينفت بما يقول عن نفسه ، وإما أن يكبت ويكتم ذلك .

فإن قال الله : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » واكتفى بذلك ، لكان مجتاً للنفس البشرية وعملية الكبت هذه وإن كانت طاعة لأمر الله لأنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، ولكن قد يفتل الكبت عند الانفعال ، وينفجر ، لذلك يضع الحق الشرط وهو وقوع ظلم . فيوضح سبحانه : أنا لا أحب الجهر بالسوء من القول ، وأسمع به في حدوده الممتدة عن غيط القلوب ؛ لأن لا أحب أن أصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

وإن الغضب جرة توفد في القلب ألم نروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فليستقم فإن لم يزل ذلك فليترضاً بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء^(١) .

أي أن يتحرك الإنسان من فور إحساسه بالغضب ، فيغير من وضعه أو يقوم إلى الصلاة بعد أن يتوضأ أو يغتسل ، لأنه بذلك ينثث تنفثاً حركياً ليخفف من ضغط التواجد على النفس الفاعلة ، تماماً كما يثث إنسان صهماً عن آلة بها بخار ليخرج بعض البخار .

إذن فمن وقع عليه ظلم له أن يجهر بالسوء . والخبر له فائدتان : الأولى : أن يثث الإنسان عن نفسه فلا يكتب ، وثاني : أنه أشاع وأعلن أن : هذا إنسان ظالم ، وبذلك يخطئ الناس في تعاملهم معه . وحتى لا يندفع إنسان نفسه ويظن أنه بمنجاة من سيئاته ، ولو ستر كل إنسان الظلم الذي وقع عليه لاستشرى الظلم في عمل السيئات . ولكن إياك أن تتوسع أيها العبد في فهم معنى كلمة « ظلم » هذه ، لأن الذي يتالك عن ظلمك إما فعل وإما قول . وعليك أيها المسلم أن تقيس الأمر بمقياس دقيق من قدر ما وقع عليك من ظلم .

﴿ لَمَّا آتَيْنَاكَ عَلَيْكَ فَمَّا تَتَدَوُّا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آتَيْنَاكَ عَلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يعطينا في الاستثناء إلا على قدر الضرورة . ويوضح : إياكم أن تزيدوا على هذه الضرورة ، فإن كان ظلمكم بقول فأنأ السميع . وإن كان ظلمكم بفعل فأنأ العليم ، فلا تزيد واحد عن حدود اللياقة .

وبذلك يضع الحق الضوابط الإيمانية والنفسية فأزاح الكبت وى الوقت نفسه لم يفعل باب الطموح الإيماني . لقد سمح للعبد أن يجهر إن وقع عليه ظلم لكن إن استلك الإنسان الطموح الإيماني فيمكنه ألا يجهر وأن يعفو . إذن فهناك فرق بين أمر يضعه الحق في يد الإنسان ، وأمر يلزمه به قسراً وإكراها عليه ، فمن ناحية الجهر ، جعل سبحانه المسألة في يد الإنسان ، ويحب سبحانه أن يعفو الإنسان ، لأن العفو

(١) رواه البيهقي في الشعب ، والترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله (توفد) ورواه أحمد وأبو داود .

القرآنية يتساند بعضها مع بعض . وسبحانه يقول :

﴿ اَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَاَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

فإن أباح الله لك أن تجهز بالسوء من القول إذا ظلمك أحدٌ ، فقد جعل لك ألا تجهز بل تعفو عنه ، وغالب الظن أن صاحب السوء يستخزي ويعرف أن هناك أناساً أكرم منه في الخلق ، ولا يتعب إنسان إلا أن يرى إنساناً خيراً منه في شيء . وعدم يرى الظالم أن المظلوم قد عما فقد تتمجر في نفسه الرغبة أن يكون أفضل منه .

إذن فالمبدأ الإيمان : « ادفع بالتي هي أحسن » جعله الله محلاً محبواً ولم يجعله قسراً ، لأنك إن أعطيت الإنسان حقه ، ثم جعلت لأريحته أن يتنازل عن الحق فهذا إرضاء للكفر . وهكذا ينمى الحق الأريحية الإيمانية في النفس البشرية ، لأنه لو جعلها قسراً لأصلح ملكة عن حساب ملكة أخرى . ولذلك إذا رأيت إنساناً قد اعتدى على إنسان آخر ، فدفع الإنسان المعتدى عليه بالتي هي أحسن وعفا وأصلح فقد يتصيح حال المعتدى ، وسبحانه القائل : (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) .

فإذا تخادى من بعد ذلك فعل الإنسان أن يعرف أن الله لا يكذب أبداً ، ولا بد أن الخلل في سلوكك يامر تعين أنك دفعت بالتي هي أحسن .

قد يكون الذي دفع بالتي هي أحسن قد قال بلهجة من التعالي : سأعفو عنك ، ومثل هذا السلوك المتكبر لا يجعل أحداً ولئياً حقيقياً . لكن إن دفع حقيقة بالتي هي أحسن تواضعاً وصراحة ، فلا بد أن يصير الأمر إلى ما قاله الله . (فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) . والتفاعلات النفسية المتقابلة يضعها الله في إطارات واضحة وسبحانه القائل :

﴿ قَسِ اَعْتَدِيْ عَلَيْكَ فَاَعْتَدُوْا عَلَيَّ بِمِثْلِ مَا اَعْتَدِيْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

وذلك حتى لا يستشري المعتدي أيضاً ، فهناك إنسان إذا تركاه مرة ومرة . يستشري ، لكن إذا ما أرقمناه عند حده فهو يسكت ، وبدلث نرحم المجتمع من استشراء الفساد ، ويُصعب الحق المسألة في رد الاعتداء .

ويثور سؤال : من القادر على تحقيق المثلية بعدالة ؟ . ونجد على سبيل المثال إنساناً ضرب إنساناً آخر صمعة على الوجه ، فبأية قوة دفع قد ضرب ؟ وفي أي مكان ضرب ؟ ولذلك نجد أن رد العدوان على درجة المثلية المتسلوية أمر صعب . وما دام الخاسر به أن اعتدى بمثل ما اعتدى به عل ، ولن أستطيع تحقيق المثلية ، ولربما زاد الأمر على المثلية ، وبعد أن كنت المعتدى عليه صرت المعتدى ، بذلك يكون العدو أقرب وأسلم .

والعمليات الشعورية التي تتألب لإنسان في التفاعلات المتضاربة يكون لها موحيد في النفس تدفع إلى النزوع والعملية النزوعية هي رد الفعل لما تدركه ، فإن أذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك فأنت تبدل جهداً لتكظم العيظ ، أي أن تحبس العيظ على شدة . فالعيظ يكون موجوداً ، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط . وعلى المعتاظ أن يمنع نفسه من النزوع ، وإن بقي العيظ في القلب .

﴿وَالْكٰظِمِينَ اَعْيٰظَهُمْ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

هذه مرحلة أولى تتبعها مرحلة ثانية هي :

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة آل عمران)

فإذا كان المطلوب في المرحلة الأولى منع العمل النزوعي ، فالأرقى من ذلك أن تعفو ، والعفو هو أن تخرج المسألة التي تعطلت من قلبك . وإن كنت تعطل مرحلة أرقى من كظم العيظ والعفو فأحسن إليه ، لأن من يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيماناً . وعندما نرى مريضاً في بدنه فأنت تعاوبه وتساعد به وإن كان عدواً لك . وقتنسى عدوانه ، هي يالنا بالمعاصي في قيمه ؟ إنه يحتاج منا إلى كظم العيظ ، لو العفو كدرجة أرقى ، أو الإحسان إليه كمرحلة أكثر علواً في الارتقاء .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبيح أن تعتدي بالمثل ، ثم يفسح المجال لمكظم لغيف
فلا تعتدي ولكن يظل السب في القلب ، ثم يرتقى بنا مرحلة أخرى إلى المهور وأن
نخرج المسألة من قلبنا ، ثم يرتقى ارتقاء آخر ، فيقول سبحانه : (والله يحب
المحسنين) ، ومن فيه غير راغب في حب الله ؟ وهكذا ترى أن الدين الإسلامي يأمر
بأن يحسن المؤمن إلى من أساء إليه .

وقد يتساءل إنسان : كيف نطلب مني أن أحسن إلى من أساء إلي ؟ والرد : أنت
وهو لستما معزول عن القيوم ، فهو قيوم ولا تأخذ سنة ولا نوم ، وكل شيء برئى له
وكلاهما صنعة الله ، وعندما يرى الله واحداً من صحنه يعتدي عليك أو يسيء إليك
فسبحانه يكون معك ويحرك ، ويقف إلى جانبك لآلئك المعتدي عليه . إذن فالإساءة
من الآخر تجعل الحق سبحانه في جانبك ، وتكون تلك الإساءة في جوهرها هدية
لك .

وعندما نفلسف كل المسائل نجد أن الذي عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد انتقم
ونأر لنفسه ؛ لأنه إن انتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة ، وحين يعفو فهو يجعل
المسألة لله وقدرته سبحانه غير محدودة ، إن أراد أن يرد عليه ، ومعطاء غير محدود إن
أراد أن يرصى المعتدي عليه . هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظنوم
العاني المحسن . وهو السميع العليم بكل شيء . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنْ يُبَدُّوْا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعْفَوْا عَنْ سُوءٍ

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝١٤٩﴾

لقد عرفنا أن الحق لا يسمح لك بالجهر بالسوء من القول إلا إذا كنت مظلوماً ،
وهذا يعني أن المسألة تحتل الجهر وتحتل الإحصاء ، فقال - : « إن تبدوا خيراً ، أي إن
تظهر الخير ، أو تحصى ذلك ، أو تعفو عن سوء - وكل هذه الأمور من ظاهر وتنفى
من الأغيار الشرية ، لكن شيئاً لا يحصى على الله . ولا يمكن أن يكون لمعفو مزية

إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة ، فإن كان عاجزاً لم قال . عفو . وسبحانه يعفو مع القدرة . فإن أردت أن تعفو فستحقق بأخلاق منحه الله ، فيكون لك العفو مع القدرة . ولما أن نعلم أن الحق لا يريد منا أن نستخري أو نستذل ولكن يريد منا أن نكون قادرين ، ومادنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة وهذه هي المزية الإيمانية ، لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً .

والسنتظر إلى العاجز الذي يقول : إنه عفا - وهو على غير قدرة - تراه أنه استعزى ، أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منحه الله فليأخذ من عطاءات الله في الكون ، ليكون قادراً وعزيراً بحيث إن ناله سوء ، فهو يعفو عن قدرة « فإن الله كان عفواً قديراً » .

وقلنا من قل : إنك إذا لمحت كلمة « كان » على نسبة لله سبحانه وتعالى كنسبة الغفران له أو الرحمة ، فعلى أن نقول : كان ولا يزال ، لأن الفعل مع الله ينحل عن الزمان لماضي وعن الحاضر وعن المستقبل ، فهو سبحانه مادام قد كان ، وهو لا تناله الأغيار ، فهو بطل إلى الأبد . ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ،
وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ
يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ مَسِيلًا ﴾ ١٥٠

وسبحانه يريد أن يجعل من قضية الإيمان قضية كلية واحدة لا أبعاد فيها ، فليس إعلان الإيمان بالله وحده كافياً لأن يكون الإنسان مؤمناً ، لأن مقتضى أن تؤمن بالله يحتاج إلى رسول يعرفك أن الخلق هو الذي سخر لك الكون واسمه الله .

وأنت لا تهتدى إلى معرفة اسم القوة الخالقة لك إلا بواسطة رسول منزل من عند الله

ويعرف أن عمل العقل في الاستنتاج العقدي عاجز عن معرفة اسم خالق الكون ؛ لأن الإنسان قد طرأ على كون منظم ، وكان من الواجب عليه أن يلتفت لفئة ليعلم القوة التي سبقت هذا الوجود وخلقته وأن الإنسان قد طرأ على وجود متكامل . وقد يسمع الإنسان من أبيه - مثلاً - أن هذا البيت بناء الأب أو الجد ، وذلك الشيء فعله فلان ابن فلان . لكن لم يسمع أحداً يقول له : (ومن بنى اسماء ؟) ولم يسمع أحداً يقول : (ومن خلق لشمس ؟) ، مع أن الناس تدعى ما ليس لها ، فكيف يُترك أعظم ما في كون الله بدون أن نعرف من أوجده ؟ .

إننا نجد الناس تؤرخ للشيء النافذ أو المهم نسبياً في حياتهم ، نجد دراسات عن تاريخ أحجار ، ودراسات عن تاريخ صناعة الأشياء ؛ تاريخ المصباح الكهربائي الذي اخترعه ادیسون وقام بتوليد الكهرباء من مصادر ضئيلة ويسيره ، باختصار ، نجد أن كل شيء في هذا الوجود له تاريخ ، وهذا التاريخ يرجع بالشيء إلى أصل وجوده وأنت إن سببت أي صعة مهما كانت مهمة أو ناعمة نكتشف أن واحداً تلقاها عن واحد ، ولم يتكرها هو دفعة واحدة

إن كل مبتكر أخذ ما انتهى إليه سابقه وبدأ عملاً جديداً إلى أن وصلت المخترعات بميلادها ، ومن يصدق أن مصباحاً يُضيء وينطفئ ويحترق يصنعه إنسان ونعرف له تاريخاً ، وبعد ذلك ننظر إلى الشمس التي لم نخف ولم تضعف ولم تنطفئ ولم تحترق ، والمصباح ينبر حيناً قليلاً يسيراً ، والشمس تنبر كوناً ووجوداً ، ألا نحتاج الشمس إلى من يصكر في تاريخها ؟

لقد سبق لنا أن قلنا : إن الإنسان حين ينظر إلى الكون نظرة بعيدة عن فكرة الدين ويعيداً من بلاغ الرسل عن الخالق وكيفية الخلق يصبح الهداية ، فهو يقول لنفسه : تختلف مقادير الناس باختلاف مراكزها وقوتها فيما يفعلون ، هلك من يجلس على كرمي من شجر الحمير . وآخر على كرمي مصروع من شجر الورد ، وثالث يجلس على حصيرة .

إن الإنسان يعيش بصناعات غيره من البشر حسب قدره ومكانته ؛ فالريعي أو البدوي يشعل النار بصك حديدة بحجر الصوان ويحتفظ بالنار لمدة ليستعملها لأكثر من مرة ، وعندما يرتقى في استخدام النار يستخدم « مسرجة » ، ولما يزداد تخضرا استخدم « مصباح جاز » برجاج ولها أرقام تدل على قدرتها على الاضاءة .

فهناك مصباح رقم خمسة ، ورقمها دليل على قوتها الخافضة ، وتضاعف قوة « المصباح » من بعد ذلك حسب المساحة المطلوب إنارتها . ولما ارتقى الإنسان أكثر استخدم « الكتوب » . ولما ارتقى أكثر استخدم الكهرباء أو النيون أو الطاهر الشمسية ، فإذا ما أشرقت الشمس فكل إنسان يطفىء الضوء الذي يستعمله ، فتوردها بغنى عن أى نور . وفي الليل يحاول الإنسان أن تكون حالة الكهرباء في منزله جيدة خشية أن ينقطع سلك ما يظلم المكان . فما بالك بالشمس التي لا يحدث لها مثل ذلك .

إننا نجد الإنسان على مر التاريخ يحاول أن يرقى إلى فهم طلاقة قدرة الحق ، وإن لم يأت رسول ، أما أسماء القدرة الخالقة فلا يعرفها أحد بالعقل بل بوساطة الرسل . فاسم « الله » اسم توقيفى . فكيف يتأتى - إذن - مثل قول هؤلاء . سنؤمن بالله ونكتم برسله ؟ كيف عرفوا - إذن - أن القوة التي سيؤمنون بها اسمها الله ؟ لا بد أنهم قد عرفوا ذلك من خلال رسول ، لأن الإيمان بالله إنما يأتي بعد بلاغ عن الله لرسول ليقول اسمه لمن يؤمن به .

وهل الإيمان بالله كضوء خفية قرية مبهمة وعظيمة يكتفى ؟ أو أن الإنسان لا بد له أن يفكر فيها تطلبه منه هذه القوة ؟ وإذا كانت هذه القوة تطلب من الإنسان أن يسير على منهج معين ، فمن الذى يبين هذا المنهج ؟

لا بد إذن من الرسول يبلغنا اسم القوة الخالقة ومطلوبها من الإنسان للسير على المنهج ، وشرح لك كيفية طاعة هذه القوة فلا أحد - إذن - يستطيع أن يحصل الإيمان بالله عن الرسول ، ولا كان إيمان بقوة مبهمة . ولا يجترىء صاحب هذا اللون من الإيمان أن يقول : إن اسم هذه القوة « الله » ؛ لأن هذا الاسم يحتاج إلى بلاغ من رسول .

إذن فعندما يسمع أحداً إنساناً يقول : أن أؤمن بالله ولكن لا أؤمن بالرسول :
علينا أن نقول له : هذا أول الزلل العقلي ، لأن الإيمان بالله يقتضي الإيمان ببلاغ جاء
به رسول ، لأن الإيمان بالله لا يفصل عن الإيمان بالرسول .

والحق سبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقيّة المخلوقات ، ولا نجد
من يدعى أن آدم هو أول من عمر هذا الوجود .

وما آدم في منطق العقل واحد ولكنه عد القياس أوامد

ومن الممكن أن نقول : إن هناك خلقاً كثيراً قد سبقوا آدم في الوجود ، ولكن آدم
هو أول الجنس البشري . وعندما حلق الله علمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يسير
في الوجود ، فلم يكن قد تعلم الأسماء لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده ،
ولما استطاع - على سبيل المثال - أن يقول لآدم من أنت : انظر أشرق الشمس أم
لا ؟

إذن كان لا بد لآدم من معرفة الأسماء كلها من خلال معلم ، لأن اللغة بنت
المحاكاة ، لأن أحداً لا يستطيع أن يتكلم كلمة ، لا بعد أن يكون قد سمعها .
والواحد سمع من أبيه ، والآباء سمعوا من الأجداد ، وتتوالى المسألة إلى أن تصل
إلى آدم ، فمن سمع آدم حتى يتكلم أول كلمة ؟ لا بد أنه الله ، وهذه مسألة يجب
أن يحترف بها كل إنسان عاقل . إذن قول الحق في قرآنه :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة البقرة)

هو كلام منطقي بالإحصاء الاستقرائي ، وهو قول يتمير بمنتهى الصدق .

والإنسان منا عندما يعلم ابنه الكلام يعلمه الأسماء . أما الأفعال فلا أحد يعرف
كيف تعلمها . الإنسان يقول لابنه : هذا كوب ، وهذه منضبة ، وذلك طبق ،
وهذا طعام ، لكن لا أحد يقول لابنه : شرب ، معاه كل ، وه أكل ، معناها
كلها . إذن فالخبرة الأولى للكلام هي الأسماء ، وبعد ذلك تأتي المزاولة
والممارسات ليتعلم الإنسان الأفعال

لقد ترك الحق لنا في كونه أدلة عظيمة تناسب عظمته كحالتنا لهذا الكون .
والرسول هو الذى يأتى بالبلاغ عنه سبحانه ، فيقول لنا اسم القوة . « الله » ،
وصفاتنا هي « كذا » ، ومن يطعمها يدخل الجنة ، ومن يعصها يدخل النار ، ولو لم
يوجد رسول مظل تائبين ولا نعرف اسم القوة الخالقة ولا نعرف مظلومها ، وهذا
ما يرد به على الجمعية التي تعبد الشمس أو تعبد القمر أو النجوم ونقول لهم : هل
أنتم تعبدون الشمس ؟ لعلمكم فعلمت ذلك لأنها أكبر قوة في نظركم .

لكن هناك سؤال هو : « ما العبادة » ؟ الإجابة هي : العبادة طاعة عابد لمعبود ،
فإذا علمت منكم الشمس أن تفعلوه ومادا غنتكم ومنعتكم الشمس ألا تفعلوه ؟
ويعترف عبدة الشمس : لم تطلب الشمس منا شيئاً . وعلى ذلك فعبادتهم للشمس
لا أساس لها ؛ لأنها لم تحدد منهج لعبادتها ، ولا تستطيع أن تعد شيئاً لمن عبدها ،
فإنه بلا منهج لا قيمة له . وهكذا يرى أن عبادة أى قوة غير الله هي عبادة تحمل
تكديها ، والإيمان بالله لا ينصل اند عن الإيمان بالقوة المبلعة عن الله إنها الرسل .

ويشرح الرسول لنا كيف ينصل بهذه القوة الإلهية ، ونشرح القوة الإلهية لنا كيفية
اتصاله بالرسول البشرى بواسطة خلق آخر خلفته هذه القوة المطلقة ؛ لأن الرسول
من البشر ، والبشر لا يستطيع أن يتلقى من القوة المعجزة الكبرى . ونحن نفعل مثل
هذه الأشياء في صناعتنا . ونعلم أن الإنسان عندما يريد أن ينام لا يرضى في وجود
ضوء في أثناء نومه ، فيشغل الليل سكناً ويتمتع بالطمعة ، لكن إن استيقظ في الليل
فهو يخاف أن يسير في منزله بدون ضوء حتى لا يصطلم بشيء ، لذلك يوقد مصباحاً
صغيراً في قوة الشمعة الصغيرة ليحظى نفسه الضوء ، ونسميها « النافذة » .

ولا نستطيع توصيل هذا المصباح الصغير بالكهرباء مباشرة ، وإنما نقوم بتركيب
محول صغير يأخذ من القوة الكهربائية العالية ويعطى للمصباح الصغير ، فما بالنا بقوة
القوى ؟

إن الله جعل خلقاً آخر هم الملائكة ليكونوا واسطة بينه وبين رسله وهؤلاء
الرسول أعددهم سبحانه إعداداً خاصاً لتلقى هذه المهمة . إذن فالذين يريدون أن
يؤمنوا بالله ثم يكفروا برسوله نقول لهم : لا ، هذا إيمان ناقص ووضع الحق

سيحانه وتعالى الإيمان بالرسول كلهم في صيغة جمع حتى لا تفهم كل أمة أن رسولا فقط هو الرسول المنزل من عند الله ، بل لا بد أن تؤمن كل أمة بالرسول كلهم ؛ لأن كل رسول إنما جاء هل مبعاده من متطلبات المجتمع الذي يعاصره ، وكلهم جاءوا بعقائد واحدة ، فلم يأت رسول بعقيدة مخالفة لعقيدة الرسول الآخر ؛ وإن اختلفوا في الوسائل والمسائل التي ترتب عليها الارتقاءات الحياتية . وقد خلق الحق أولاً سيدنا آدم وخلق به زوجته حواء ، اثنين فقط ثم قال سيحانه :

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

كان الاثنان يعيشان معاً وأنجبا عدداً من الأبناء ، وتناسل الأبناء فصدر مطلباً لكل أسرة من الأبناء بيتاً ، وكل بيت فيه أسرة يحتاج إلى رفعة من الأرض يستخرج منها أفراد الأسرة عبرات تكفي الطعام . وكل فرد يحتاج على الأقل إلى نصف فدان ليستخرج منه حاجته للطعام . وكلما كثر النسل اتسعت رقعة الوجود بالمواصلات البدائية ، فهذا إنسان ضاقت به منطقته فرحل إلى منطقة أخرى فيها مطر أكثر ليستفيد منه أو خير أكثر يستخرجه . وتنتشر الجماعات وتعمزل . وصارت لكل جماعة عادات وتقاليد وأمراض ومعايير غير مرجوة في الجماعة الأخرى . ولذلك ينزل الحق سيحانه وتعالى رسولاً إلى كل جماعة ليعالج الداءات في كل بيئة على حدة . وسخر الحق سيحانه وتعالى بعض العقول لاكتشافات الكون ، وبعد ذلك يصبح الكون قطعة واحدة ، فالتحدث يحدث في أمريكا لثراء في اللحظة نفسها في مصر . وزادت الارتقاءات . ولذلك كادت العادات السيئة تكون واحدة في المجتمع الإنساني كله ، فتظهر السيئة في أمريكا أو ألمانيا لتجدها في مجتمعنا . إذن فالارتقاءات الطمرحية جعلت العالم وحدة واحدة : آفاته واحدة ، وعاداته واحدة . وعندما يأتي الرسول الواحد يشملهم كلهم .

ولذلك كان لا بد أن يأتي الرسول الخاتم الجامع صلى الله عليه وسلم ؛ لأن لعالم لم يعد منعزلاً ، ليحاطب الجميع كله ، وهو خير الرسل ، وأمه خير الأمم إن اتعت تعاليمه . ومن صروقه إيمان رسول الله والذين معه أن يؤمنوا بمن سبق من الرسل . والذين يحاولون أن يفرقوا بين الرسل هم قوم لا يدقهون . فاليهود آمنوا بموسى عليه السلام وأرهبوه وكفروا بعيسى . وعندما جاء عيسى عليه السلام آمن به بعض ،

وعندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم آمن به بعض وكفر به بعض . ولذلك سمي الحق كفرهم بالنبي الخاتم : (ثم ازدادوا كفراً) . أى أنه كفر فى القمة ، فلن يأتى نبي من بعد ذلك . واكتمل به صلى الله عليه وسلم موكب الرسالات .

إذن فالمراد من الآية أن الإيمان فيه إيمان قمة ، تؤمن بقوة لكنك لا تعرف اسم هذه القوة ولا مطلوبات هذه القوة ولا ما أحدثته القوة من ثواب للمطيع ولا من عقاب للعاصي . ولذلك كان ولا بد أن يوجد رسول ، لأن لعقل يقود إلى ضرورة الإيمان بالله ولرس . وجاء لرس فى موكب واحد لتصفية العقيدة الإيمانية لإله واحد ، فلا يقولن واحد . لقد آمنت بهذا الرسول وكفرت ببغية الرسل والآية التى نحن بصددنا الآن تتعرض لذلك فتقول :

﴿ إِن الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَخْلُطُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (سورة النسا)

ونحن نعلم أن « كفر » معناها « ستر » . والستر - كما نعلم - يقتضى شيئاً تستره ، والشيء الذى يتم ستره موجود قبل الستر لا بعد الستر . والذى يكفر بوجود الله هو من يستر وجود الله ، فكان وجود الله قد سبق الكفر به . إذن فكلمة الكفر بالله دليل على وجود الله ونقول للكافر : ماذا سترت بكفرك ؟ وستكون إجابته هي : « الله » . أى أنه آمن بالله أولاً .

« إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله هم الاحمقى » لأن هذا أمر غير ممكن ، وكل رسول إنما جاء ليصل المرسل إليهم بمن أرسله . ولذلك نجد قوله الحق :

﴿ وَمَا يَقُولُوا إِلَّا أَنَّا كُفِّرُوا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

إنه حدث واحد من الله ورسوله . لذلك نجد أن الحمقى هم من يريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله : « ويقولون مؤمن ببعض ونكفر ببعض » لهُؤْلَاءِ نقول . إن الإيمان قضية كلية ، هموكب الرسالة من الحق سبحانه وتعالى يتضمن عقائد واحدة

ثابتة لا تتغير . والحق يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة النساء)

وهذا يؤكد أن قصايا العقائد إنما جاءت من نبع واحد لعقيدة واحدة . فإذا - إذن - يريدون بمسألة الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض الآخر ؟ يريدون السلطة الزمنية . وكاد القائلون على أمر الدين قدعاً هم الذين يتصرفون في كل أمر ، في القضاء وفي الهندسة وفي كل شيء ، لذلك وثق فيهم الناس على أساس أنهم المخلصون عن الله الذين ورنوا النبوات وعرفوا العلم عن الله . ونجد العلوم الادتقائية في الحضارات القديمة كحضارة قدماء المصريين كانت تحيط وغيرها تلك التي مارالت إلى الآن لغيراً ، إنما قام بأمرها الكهنة ، وهم - كما نعلم - المسوبون إلى الدين . كان الأصل في كل معلومات الأرض هي من هبة السماء . لماذا إذن أخرج الشر وصنوا قوانين من وصعهم ؟ لقد فعل الشر ذلك لأن السلطة الزمنية استولى عليها رجال الدين .

ما معنى كلمة « سلطة زمنية » . كان الناس يلجأون إلى رجل الدين في كل أمورهم ، ويفاجأ رجل الدين بأنه المقصود من كل البشر ، ويعمره الناس بأعضالهم ويعطونه مثل القرايين التي كانت تعطى للآلهة ، فيعيش في وضع مرفه هو وأهله ويزداد سمته من كثرة الطعام والمنعة . وعندما يأتي إليه أحد في مسألة فهو يحاول أن يقول الرأي لدى يؤكد به سلطته الزمنية ، فإذا ما جاء رسول للبشر هذه الامتيازات ، يسرع بتكديبه ؛ ليظلل - كرجل كهنة - على قمة السلطة . ولذلك قال فيهم الحق :

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

أي استبدوا بآيات الله ثمناً قليلاً من متاع الدنيا . فأخذوا الشيء الحقير من متاع الدنيا وتركوا آيات الله دون أن يعملوا بها .

وعندما نبحث في تاريخ القانون . نجد قانوناً إنجليزياً وأسر فرنسياً وأرومانياً ، ونجد أن المصادر الأولى لهذه القوانين هي ما كان يحكم به الكهنة . والذي جعل

الناس تنعزل عن الكهنة هو استغلالهم للسلطة الزمنية . والتفت الشر الدين عاصروا هؤلاء الكهنة أن الواحد منهم يقضى في قضية بحكم ، ثم يقضى في مثيلاتها بحكم بخلاف ، ويغير من حكمه لقاء ما يأخذ من أجر ، فتشكك فيهم الناس ، وعرفوا أنهم يلوون لأحكام حسب أهوائهم ؛ لذلك ترك الناس حكم الكهنة ، ووصعوا هم القوانين المناسبة لهم .

إذن فالسلطة الزمنية هي التي جعلت من أتباع بعض الرسل يتعصبون لرسولهم . وإذا ما جاء رسول آخر ، فإن أصحاب السلطة الزمنية يقاومون الإيمان برسائله حتى لا يأخذ منهم السلطة الزمنية . ولذلك يعادونه ؛ لأن الأصل في كل رسول أن ينفذ ألباعه والذين آمنوا به ، أنه إذا جاء رسول من عند الله فعليكم أن تسمعوا أنتم إلى الإيمان به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ آلِ نَبِيِّسَ لَمَّا أَتَيْتُكُمْ مِنْ كُنُوبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَدَّدْتُكُمْ رَسُولَ مُصَدِّقٍ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ عَنْ ذَلِكَكُمْ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَقْرَنًا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا أخذ الله الميثاق من البين بضرورة البلاغ عن موكب الرسالة حتى السى الخاتم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى أنهم يحاولون أن يفرقوا بين الله ورسله بأحكامهم التي كانوا يتبعون فيها أهواءهم للإبقاء على السلطة الزمنية ، من أجل أن يقيموا أمراً هو بين بين ، وليس في الإيمان « بين بين » ؛ فإما الإيمان وإما الكفر . والظفر إلى كل هذه الآية بحدها في معظمها معطوفات ، ولم يسم فيها الكلام وهي في كليتها معداً ، لا بد لها من خبر ، وبكى الخبر في الآية التالية .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

ود الكافرون حقا ، مقصود بها أن حقيقة الكفر موجودة فيهم ، لأننا قد نجد من يقول : وهل هناك كافر حق ، وكافر غير ذلك ؟ نعم . فالنبي لا يؤمن بكل رسائل السماء قد يملك بعضها من العذر ، لأنه لم يجد الرسول الذي يبلغه . أما الذي جاءه رسول وله صلة إيمانية به ، وهذه الصلة الإيمانية لحمته بالسماء بوساطة الوحي ، فإن كفر هذا الإنسان فكفره فظبح مؤكدا . (أولئك هم الكافرون حقا) .

ونلاحظ أن الحق سعة يتكلم عن الكافرين لا يفرقهم عن الحكم وأجزاء التي ينتظرهم ، بل يوجد الحكم معهم في النقص الواحد . ولا يجمل الحق الحكم إلى آية أخرى : (أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) وقد جاءها بالجزء على الكفر ملتصقا بالكفر ، فسبحانه قد جهز بالفعل للعذاب المهين وأعدته للكافرين ولم يؤجل أمرهم أو يسوفه . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الجنة عروست على ولو شئت أن أتاكم بقطاف منها لفعلت » (١)

لقد أعد الحق الجنة والنار فعلاً وعرضها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو شاء الرسول أن يأتي المؤمنين بقطاف من ثمار الجنة لفعل . فليأكل أن تعتقدوا أن الله سيظل إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرى كم واحداً قد كفر فحمد هم عذاباً على حسب عددهم ، أو كم واحداً قد آمن فحمد لهم جنة ونعياً على قدر عددهم ، بل أعد الحق الجنة على أن كل الناس مؤمنون وهم مكان في الجنة ، وأعد النار على أن كل الناس كافرون ولهم أماكن في النار . يأتي المؤمن للأخرة ويأخذ المكان المعد له ، ويأخذ أيضاً بعضاً من الأماكن في الجنة التي سبق إعدادها لمن كفر . مصداقاً لقوله الحق

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٥) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦﴾

(سورة المؤمنون)

(١) روى البخاري في الألفان ، وابن ماجة في الإقانة ، وأحمد

فسبحانه لم يتظفر ولم يؤجل المسألة إلى حد عمل الإحصائية ليسأل من الذي آمن ومن الذي كفر ، ليعد لكل جماعة حسب تعدادها تارة أو جنة ، بل عامل حلقه على أساس أن كل الذي يأتي إليه من ابشر قد يكون مؤمناً ، لذلك أهد لكل منهم مكاناً في الجنة ، أو أنه يكون كافراً ، فأهد لكل منهم مكاناً في النار . وبعد السؤال في الآخرة للنار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ٥١ ﴾

(سورة ق)

والنار تعذب المزيد للأماكن التي كانت معدة لمن لم يدخلها لأنه آمن بالله . ويرث الذين آمنوا الأماكن التي كانت معدة من لم يدخل الجنة لأنه كفر بالله وبرسله وهرق بين الله وبرسله وقال نؤمى ببعض ونكفر ببعض ، وبأنى من بعد ذلك المقابل للذين كفروا بالله وبرسله وهم المؤمنون ، هذا هو المقابل المنطقي .

والبحر بالمقابلات أدعى لرسوخها في الذهن . مثال ذلك عندما ينظر مدير المدرسة إلى شاخين ، كل منهما في الثانوية العامة ، فيقول : فلان قد نجح لأنه اجتهد ، والثاني قد خيب وفشل . هذه المفارقة تحدث لدى السامع لها المقارنة بين سلوك الاثنين .

وهاهو ذا الحق يأتي بالمقابل للكافرين بالله وبرسله .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرَقُوا بَيْنَ
أَحَدِهِمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ
اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ٥٢ ﴾

ويؤكد الحق هنا عن أمر واضح : هو : « ولم يفرقوا بين أحد منهم » وكلمة « أحد » في اللغة تطلق مرة ويراد بها المفرد ، ومرة يراد بها المفرده ، ومرة يراد بها المتنى مذكراً أو المتنى مؤنثاً أو جمع الإناث وجمع التذكير . وهكذا نكون « أحد » في

هذه الآية تشمل كل الرسل ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَنْفِصَآ النَّهْرَ تَسْتَنُّ كَأَحَدٍ مِّنَ الْنِّسَاءِ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة النساء)

فكلمة أحد يستوى فيها المدكر والمؤنث والمثنى والمفرد والجمع وكما قال الحق عن الذين يكفرون بالله ورسوله أو يفرقون بين الرسل : « أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً » . يقول الحق في هذه الآية عن الذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم « أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » فكل مقابل قد جاء معه حكمه . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا
مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ
فَقَالُوا أَإِذَا نَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ
وَيُظْلِمُهُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا آلَ مِجَلٍّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَىٰ سُلْطَانًا

مُبِينًا ﴿١٥٣﴾

هذا خطأ منهم في السؤال ، وكان انقروص أن يكون : يسألك أهل الكتاب أن تسأل الله أن ينزل عليهم كتاباً وقد حاول المشركون في مكة أن يجدوا في القرآن ثغرة فلم يجدوا وهم أمة مصاححة وبلاغة ولسان ، واعترفوا بأن لقرآن عظيم ولكن الافة بالنسبة إليهم أنه نزل على محمد من الله عليه وسلم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذِهِ الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثَيْنِ عَظِيمٍ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

هم اعترفوا بعظمة القرآن ، واعترفوا بعظمة القرآن مع غيظهم من نزوله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم مصطريين فكرب ، لقد اعترفوا بعظمة القرآن بعد أن نظروا إليه . . فمرة قالوا : إنه سحر ، ومرة قالوا : إنه من تلقين بعض البشر ، وقالوا : إنه شعر ، وقالوا : إنه من أساطير الأولين . وكل ذلك رهبة أمام عظمة القرآن . ثم أخير قالوا : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) .

ولكن ألم يكن هو القرآن نفسه الذي نزل ؟ إذن . فالأفة - عدهم - أنه نزل عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك من الحسد .

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة النساء)

لأن قولهم لا يتسم أنداً بالموصوعيه ، بل كل كلامهم بُعداً عن الحق ونحبط . لقد قالوا مرة عن القرآن . إنه سحر ، وعندما سأهم الناس : لماذا لم يسحركم القرآن إذن ؟ فليس للمسحور إرادة مع الساحر . ولم يجنوا إجابة . وقالوا مرة عن القرآن : إنه شعر ، فتعجب منهم القوم لأنهم أمة الشعر ، وقد سبق لهم أن علفوا لمعنيت على جدار الكعبة ، لكنه كلام التخط

إذن فالسألة كلها تنحصر في رفضهم الإيمان ، فإذا أمسكتهم الحجة من تلايبيهم في شيء ، انتقلوا إلى شيء آخر .

وبوضح سبحانه : إن كانوا يطلبون كتاباً فالكتاب قد نزل ، تماماً كما نزل كتاب من قبل على موسى . وما دام قد صدقوا نزول الكتاب على موسى ، فلماذا لا يصدقون نزول الكتاب على محمد ؟ ولا بد أن هناك معنى خفياً وراء قوله الحق : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . ويعلم أن الكتاب نزل على موسى مكتوباً جملة واحدة ، وهم كأهل كتاب يطلبون نزول القرآن بالطريقة نفسها ، وعندما ندقق في الآية نجد أنهم يسألون أن ينزل عليهم الكتاب من السماء ، وكأنهم يريدون أن يهرلوا رسول الله وأن يكون لكلام مباشرة من الله لهم ، لذلك يقول الحق في موقع آخر .

﴿أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لَنَحْنُ قَعَمَائِيَّتُهُمْ مِّمَّيَشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

الحق - إذن - قسم الأمور في الحياة الدنيا ، فكيف يتدخلون في مسألة الوحي وهو من رحمة الله : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . وهم قد سبوا التنزيل إلى رسول الله ، ورسول الله ما قال إن نزلت ، بل قال : « أنزل علي » .

ويقال في رواية من الروايات أن كعب بن الأشرف والجماعة الذين كانوا حولهم أرادوا أن ينزل الوحي عن كل واحد منهم بكتاب ، فيقول الوحي لكعب : « يا كعب آمن بمحمد » .

ويُرَدُّ إلى كل واحد كتاباً بهذا الشكل الخصوصي . أو أن ينزل الله لهم كتاباً مخصوصاً مع القرآن . وكيف يطلبون ذلك وعندهم النوراة ، ويوضح الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم لا تستكثر منهم يا محمد أن يسألك كتاباً ينزل عليهم لأنهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، وطلبهم تنزيل الكتاب ، هو طلب لفعل من الله ، وقد سبق لهم العلو أكثر من ذلك عندما قالوا لموسى : (أرنا الله جهرة) . وهم يمثل هذا القول بعدوا من فعل الله إلى ذات الحق سبحانه وتعالى ، لذلك لا يستكثر عليهم مسألة طلبهم لرسول كتاب إليهم ، فقد سألوا موسى وهو رسولهم رؤية الله جهرة « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » .

ولحظة أن ترى كلمة « الصاعقة » تفهم أنها شيء يأتي من أعلى ، يبدأ بصوت مزعج . وقتلنا من قبل أثناء خرواطرنا حول آية في سورة البقرة .

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي أَفْئِدِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾

(من الآية ١٩ سورة البقرة)

أي أنهم يضعون أصابعهم في أفئدتهم من الصواعق ، وهذا دليل على أن صوت

الصاعقة مزعج قد يحرق طيلة الأذن ، ودليل عل أن ارعاج الصاعقة فوق طانة الاسداد بأصبع واحدة ؛ لأن الإنسان ساعة يسد أذنيه يسدها بطرف الأصبع لا بكل الأصابع . وبلغ من شدة ارعاج الصوت أنهم كلما وضعوا أذانهم في أذانهم لم يمتنع الصوت المرعج .

إذن فالصاعقة صوت مزعج يأتي من أعين ، وبعد ذلك ينزل قضاء الله إما بأمر مهيئ وإما نثار تحرق وإما بريح تدمر ؛ فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ؛ والظلم هو أن تجعل حقاً لغير صاحبه ؛ ولا تجعل حقاً لغير صاحبه إلا أن تكون قد أخذت حقاً من صاحبه . وسؤالهم هذا لو من الظلم ؛ لأن الإدراك للأشياء هو إحاطة المدرك بالمدرك .

وحين تدرك شيئاً بعينك فمعنى ذلك أن عينك أحاطت بالشيء المدرك وحيرته بالتفصيل ، وكذلك الأذن عندما تسمع الصوت ، وكذلك الأنف عندما تشم الرائحة ، وكذلك اللمس لمعرفة النعومة أو الخشونة ، وكذلك الذوق ليحسن الإنسان الظلم . إذن فمعنى الإدراك بوسيلة من الوسائل أن تحيط بالشيء المدرك إحاطة شاملة جامعة

فإذا كانوا قد طلبوا أن يروا الله جهرة ، فمعنى ذلك أنهم طلبوا أن تكون آلة الإدراك وهي العين محيطية بالله . وحين يحيط المدرك بالمدرك ، يقال قدر عليه . وهي منقلب القادر الأعلى مقدوراً عليه ؟ حاشا لله . وذلك مطلق الظلم ونهايته ، فمن اجأثر أن يرى الإنسان إنساناً . ولكن لا يستقيم أبداً ولا يصح أن ينقل الإنسان هذه المسألة إلى الله ، لماذا ؟ لأنه سبحانه القائل :

﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْآَنصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآَنصَرَ ﴾

(سورة الأنعام)

ومدام الله لها قدراً فلن ينقلب إلى مقدور .

ونحن إن أعطينا لواحد مسألة لحلها ، فهذا معناه أن فكره قد قدر عليها . وأما إذا أعطيناه مسألة ولم يقدر على حلها فكفره لم يقدر عليها . إذن فكل شيء يقع تحت دائرة الإدراك ، يقول لنا : إن الآلة المدركة قد قدرت عليه .

والحق سبحانه وتعالى قادر أعلى لا يتقرب مقبوراً لما خلق ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات . وكان يكفي بعد أن أخذتهم الصاعقة أن يتأدبوا ولا يجترئوا على الله ، ولكنهم اتخذوا العجل من بعد أن حاوز الحق بهم البحر وغيره بهم تيسير عليهم وتأيداً لهم وأراهم معجزة حقيقة ، بعد أن قالوا :

﴿ إِنَّا لَمَذْرُؤُنَّ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

فقد كان البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ولا مفر من هلاكهم ، لأن المنطق الطبيعي أن يدركهم فرعون ، وآى الله سيدنا موسى إلهامات الوحي ، فقال :

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ١٦ ﴾

(سورة الشعراء)

لقد لجأ موسى إلى القانون الأعلى ، قانون الله ، فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر ، ويتفرق البحر وتصير كل فرقة كالطود والجبل العظيم ، وبعد أن ساروا في البحر ، وأغرق فرعون أمامهم ، وأنجاهم سبحانه ، لكنهم من بعد ذلك كنه يتخلون العجل لها !!

هكذا قابلوا حيل الله بالكران والكفران . ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعمفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً ، والسلطان المبين الذي آناه الله لموسى عليه السلام هو التسلط والاستيلاء الطاهر عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم ، وجاءوا بالسيوف لأن الله قد أعطى سيدنا موسى قوة فلا يخرج أحد عن أمره ، والقوة سلطان قاهر

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْمِيزَانِ وَأَتَيْنَاهُمُ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا

مِنْهُمْ مَيْشَقًا غَيْظًا ﴿١٥٤﴾

إذن اجتزأهم في ابتدائية كان في طلب رؤية الله جهرة ، ثم العملية الثانية وهي اتخاذهم لعجل إلها . وبالعالم الله هؤلاء بالأوامر الحسية ، لذلك تنق الجبل فوقهم :

﴿ وَإِذْ تَنْقَلِبُ الْجِبَلُ عَنْهُمْ كَغُثَّةٍ مَّقْلُوتٍ وَأَقْبَعُ بِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

مثل هؤلاء لا يرضحون إلا بالآيات المادية ، لذلك رفع الله فوقهم الجبل ، فلما أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة ويقبلوا المطلوب منهم ، وإما أن يطبق عليهم الجبل ، وهكذا ترى أن كل اقتضائهم نتيجة للأمر المادي ، فجاءت كل الأمور إليهم من جهة المادة . « وقدنا ادخلوا أبواب سجدنا » . أي أن يدخلوا ساجدين ، وهذا إخضاع مادي أيضاً . وكان هذا الباب الذي أمرهم موسى أن يدخلوه ساجدين هو باب قرية أريحا في الشام . « وقلنا لهم لا نعبدوا في السبت » وسبحانه قال عنهم :

﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَّائُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « السبت » ها اشتقاق لغوي من « سبت » و« يسبت » أي سكن وهذا . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهَا وَالنَّوْمَ مُبَدِّئًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الفرقان)

أي جعل النوم سكناً لكم وقطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم . « ولنا لهم لا تعدوا في السبت » أي ما هم الله أن يصطدوا في يوم السبت . ويأتى يوم السبت فتأتيهم الحيات مغرية تخرج أشرعتها من زعانفها وهي تعوم فوق الماء ، أو تظهر على وجه الماء من كل ناحية ، وهذا من الابتلاءات . « ويوم لا يستنون لا تأتيهم » أي أن الأيام التي يكون مسموحاً لهم فيها بالصيد لا تأتيهم الأسماك ، ولذلك يجنأون ويصمون الحظائر الثابتة من السلك ليدخلها السلك يوم السبت ولا يستطيع الخروج منها .

لقد احتالوا على أمر الله . هكذا بين الحق سبحانه وتعالى مراغة بني إسرائيل .
وعمل الله بهم كل ذلك وبكهم احتالوا وفردوا ورتوه ، وسين يهدن الحق القوم الذين
يدعوهم إلى الإيمان فسيحانه يقدر أنه حلفهم ويقدر الغريزة البشرية التي قد يكون
من الصعب أن تلين لأوب داع ، فهو يدعوهم مرة فلا تستقبل ، فيحفو . ثم يدعوهم
مرة فلا تستقبل فيحفو ، ثم يدعوهم مرة فلا تستقبل فيحفو . وأخذ الله عليهم العهد
الوثيق المؤكد بأن يطيعوه ولكنهم عصوا ونقضوا العهد ، وبعد ذلك يقول لنا الخبر
لننعم أن الله لا يبل حتى تملوا أيها البشر . فسيحانه يقول من بعد ذلك :

﴿فِيمَا نَقَضُوا حَيْثُ مَسَّحَهُمْ وَكَفَرُوا بِمَا بَيَّنَّ اللَّهُ
وَقَتْلِهِمْ لَأَنْبِيَاءَ بِخَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ
بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا
قَلِيلًا﴾ (١٥٥)

لقد بنقضوا كل المواثيق والأشياء التي تقدمت . ومعنى الميثاق هو العهد المؤكد
الموثق . ونقص الميثاق هو حله ، وهذا ما يستوجب ما يهددهم الله به ، وكفرو
بآيات الله التي أنزلها لنؤيد موسى عليه السلام ، وقتلوا أنبياء الله بخير حق . وادعو
- تعليلاً لذلك - أن قلوبهم غلف لا تسمح للدعوى الإيمانية ، أي أن قلوبهم معنفة
معنفة أي جعل عليها غلاف ، بحيث لا يخرج منها ما فيها ولا يدخل فيها ما هو
خارج عنها . وأرادوا بذلك الاستسراة على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال
ولا يدخل فيها إيمان . ومسق أن تقدم مثل هذا في قول الحق

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) ختم الله
عَنْ قُلُوبِهِمْ وَعَنْ سَمْعِهِمْ وَعَنْ أَبْصَارِهِمْ غَشَاةٌ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٥٧)

(سورة الفرق)

ونقول : أهى القلوب خلقت غلماً . . أى أن القلوب خلقت مخنوماً عليها بحيث لا بدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ، أم أنتم الدين فعلمتم الختم وأنتم الذين صنعتهم العلاف ؟

وسبحانه أوضح فى آية سورة البقرة أنه جل وعلا الذى حتم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . فالحتم على القلب حق لا يتعرفوا إلى الدليل ، لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد . والحتم على الأسماح والأبصار هو الختم على آلات إدراك الدلائل السبب على وجود الحق الأعلى ، فمقر العقائد مختم عليه وهو القلب ، ومضروب على الآذان وعلى البصر غشاوة ، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء ؟ لا ، لأنه إذا كان هذا طبيعة التكوين فلماذا حصمهم الله بذلك التكوين ؟ ولماذا لم يكن الذين اهتموا مخنوماً لا على قلوبهم ولا على أسماحهم ولا على أبصارهم ؟

غير أن الواحد منهم يبرر لنفسه وللآخرين انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول : « خلقتى الله هكذا » وهذا قول مريب وكاذب ؛ لأن صاحبه إنما يكفر أولاً ، فلما كفر وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ، لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتحد مع الله شريكاً فهو للشريك وليس لله . إذن فالحتم جاء نتيجة للكفر

وقد امت آيات سورة البقرة الحثية . أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأتى الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وهنا فى آية سورة النساء : « وقولهم قلوبنا غلبت بن طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . فالكفر جاء أولاً ، وفى ذلك رد على أى إنسان يقول : « إن الله لا يهدي » ولا يلتفت إلى أن الله لا يهدي من كفر به ، وكذلك الماسق أو العالم ، والمثال الأكبر على ذلك إسماعيل الذى كفر أولاً ، وبعد ذلك تركه الله لنفسه واستغنى عنه .

ولما هنا وقفة لقطبية مع قوله الحق . « فيما نقصهم » لأن المهم السطحي لأصول الأسلوب قد يتساءل : لماذا جاءت « ما » هنا ؟ هنا ؟ وبعضهم قال : إن « ما » هنا رائدة . ونقول . إياله أن تقول إن فى كلام الله حرماً رائداً ، لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغیر وجوده ويكون فضولاً وزائداً على الحاجة ولا فائدة فيه ، ولكن عليك أن تقول : « أنا لا أفهم لماذا جاء هذا الحرف » ، خصوصاً ونحن فى هذا العصر نعيش

كأمة بلاعتها مصشوعة ، ولا غلك اللساد العربى المطبوع . ولولا أننا تعلمنا لعربية لما استطعنا أن نتكلمها . أما العربى المصصح الذى نزل عليه القرآن فقد كان يتكلم اللغة اعربية دون أن يجلس إلى معلم ، ولم يثلق العلم بأن الصاعل مرفوع والمنعول منصوب بل تكلم اللغة بطبيعتها وملكته .

أما نحن فمعيش فى زمن مختلف . وطمت علينا المعجمة وامتلات أذاننا باللحن ، وصرنا نعلم أنفسنا قواعد اللغة العربية حتى نتكلم بأسلوب صحيح .

وقد جاءت القواعد فى اشحو من الاستنباط من السليقة العربية الأولى التى كانت بغير تعلم واستقرأ العلماء الأساليب العربية فوجدوا أن الفاعل مرفوع والخى يرفع بالألف ، وجمع المذكر السالم يرفع به « الواو » ؛ وهكذا أحننا انقواعد من الدين لا قواعد لهم بن كانوا يتكلمون بالسليقة وبالطبيعة والملكة .

لقد سمع العربى قديماً ساعة نزل القرآن قوله الحق : « فيها نقصهم » وم يتنبه واحد منهم إلى أن شيئاً قد حرج عن الأسلوب الصحيح ، ونعلم أن بعضاً من العرب كانوا كافرين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصدقون القرآن ، وبو كانت هناك كلمة واحدة تخرج عن المؤلف فى اللغة لصرحوا بها وأعلوها . ولكن القرآن جاء بالكلام المعجر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ليبيحهم به ، موصحاً : جئت بالقرآن معجزة تعجرون عن محاكاته ؛ مع أنكم عرب وفصحاء

والمتحدثى بمحاول دائماً أن يتصيد خطأ ما ، ولم يقل واحد من العرب إن فى القرآن لحناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب انقراض يتفق مع الملكة العربية .

وقوله الحق : « فيها نقصهم » هى فى الأصل : ينقصهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه ، وه ما جاءت هنا لماذا ؟ قال بعض العلماء : إنها « ما » زائدة ، وهى زائدة للتأكيد . ونكرر ، إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ، لقد جاءت « ما » عت لمبنى واضح . والحق فى موقع آخر من القرآن يقول :

﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة المائدة)

وقالوا : إن أصل العبارة « ما جاءنا بشير » ، وإن « من » جاءت رائدة حتى يتسوى اللفظ . ويقول : لو أن العبارة جاءت كما قالوا ما استقام المعنى ، ولايضاح ذلك أضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - عندما يقول واحد : « ما عندي مال » فهذا بغير أن يكون عند انقائل مال ، ولعل لديه قلدا من المال القليل الذي لا يستأهل أن يسميه مالا . ولكن إذا قال واحد : « ما عندي من مال » فالمعنى أنه لا يملك المال على إطلاقه أى أنه مفلس تماما ، ولا يملك أى شيء من بداية ما يقال إنه مال . إذن « ما جاءنا بشير » ليست مثل قوله : « ما جاءنا من بشير » . فالمعنى أنه لم يأتيهم أى رسول بشير أو نذير من بداية ما يقال إنه رسول .

إذن فقولهم الحق : « فيما نقصهم ميثاقهم » أى سبب نقص الميثاق فعلمنا بهم كذا . لماذا إذن أثار العناء هذه الفسحة ؟ السبب في ذلك هو وجود ما بعد « الباء » وقبل المصدر ، أى أنهم نقصوا العهد بكل صورة من صوره ، فنقص العهد والميثاق له صور متعددة هـ (ما) هـ استفهامية جاءت لتعجب أى على أية صورة من صور نقص وثقت لعهد لعابهم ؟ لعابهم لكثرة ما نقصوا من العهود والمواثيق . والحق قد قال :

فَمَا نَقِصَهُمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَعْرِحَةً وَقَوْمَهُمْ
فُلُوبُنَا عَلَفَ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٠﴾

(سورة النساء)

وم يقل : فيما نقصهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقومهم قلوبنا غلب ، طبع الله على قلوبهم . فوجود « بل » يدلنا على أن هناك أمرا أضربا عنه . فمن يقول : جاءني زيد بل عمرو أى أن الغافل قد أخطأ ، فقال : « جاءني زيد » واستدرك نفسه فقال : « بل عمرو » . وبذلك نفى مجيء زيد وأكد مجيء عمرو .

والحق قال : « بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » . كان المقصود في الأسلوب العادي أن يقول « بكفرهم ويقننهم الأنبياء طبع الله على قلوبهم » . ولكن سبحانه لم يقل ذلك لحكمة بالغة . وحتى تعرف تلك الحكمة فلنبحث عن المقابل لـ « طبع الله على قلوبهم » ، المقابل هو « فتح الله على قلوبهم بالهدى » .

وجاء قول الحق معبراً تمام التعبير عن موقفهم . (فيها مفصّلهم ميثاقهم وكفرهم
بآيات الله وقتلهم الأنبياء بعير حق وقولهم قلوبنا غف بل طبع الله عليها) .

وهكذا يرى عظمة القرآن الذي يأتي بالمعنى الدقيق ويجب أن شكر فيه وتقدر كل
كلمة منه .

الحق - إذن - يقدم الأسباب لما صنعه بهم بالحيثيات ، من مفصّلهم للعشاق ،
وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم للأنبياء بعير حق ، لذلك لم يفتح الله عليهم بالهدى ،
بل طبع الله على قلوبهم بالكفر . فوجود « بل » دليل على أن هناك أمراً قد نعى وأمرأ
قد تأكد . والأمر الذي نفاه الله عنهم أنه لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان ، والأمر
الذي تأكد أنه سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر . وفي آية أخرى قال عنهم .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُفَّ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُونَ قَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٧٨)

(سورة البقرة)

فقلوبهم ليست غلماً ، ولكن هي لعنة الله لهم وإبعاده لهم وطردهم واستغاثه
عنهم ؛ لذلك تركهم لأنفسهم فعلبت عليهم الشهوات . ولذا دليل الحق الآية
بقوله : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » ؟ لأن المقصود به عدم إعلاق باب الإيمان على إطلافه
أمام هؤلاء الناس ، وهو - كما عرفنا من قبل - « صيدنة الاحتمال » فقد بعن واحد
من هؤلاء إيمانه الذي خبأه في نفسه . فكيف يجد الفرصة لذلك إن كان الله قد قال
عنهم جميعاً « طبع الله على قلوبهم » ؟

إن الذي يَرَّحَبُ في إعلان الإيمان منهم لا يجد الباب معنوحاً ، ولكن عندما يجد
الحق قد قال . « فلا يؤمنون إلا قليلاً » فهو يعلم أن باب الإيمان معنوح للجميع .
وبعد ذلك يقول الحق

﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرِيَمَ هَتِّنَا عَظِيمًا ﴾ (١٧٩)

ويقول قاتل : ألم يقل الحق من قبل إن « كفرهم » هو سبب من أسباب طبع الله

على قلوبهم ؟ وأقول . إياك أن تقول إن هناك كلمة في القرآن مكررة لأن الذي يتكلم هو الله سبحانه وتعالى الذي لا ينسى شيئاً ، ولا يكرر من غير داع ، والكفر أيضاً على درجات ، مرة يكون الكفر بالله ، ومرة يكون الكفر بآيات الله ، وثالثة يكون الكفر بالرسول ، ورابعة يكون الكفر ببعض النبين ، وخامسة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية .

إذن فالمراد بالكفر شق . والكفر في الآية السابقة كان كفراً بآيات الله ، أما كفرهم في هذه الآية فالخق بشرحه . « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » لقد كفروا بعيسى عليه السلام ، وقالوا البهتان العظيم على مريم ، هذا كفر بآيات الله وبرسول من عند الله

وقوله الحق . « وبكفرهم » هو عطف على « بقصصهم » وعن « كفرهم بآيات الله » وعلى « قتلهم الأنبياء » وعلى « قولهم قلوبنا غلف » . ونلاحظ هنا أن الحق لم يذكر الباء التي جاءت في أول الآية السابقة حين قال « فيها بقصصهم ميثاقهم » .

وهذا يدل على أنك أمام مناهج الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى . فقد كان يكفي ارتكابهم لأى واحدة من هذه الأفعال المذكورة لكي يطع الله على قلوبهم ، ولكنهم ارتكبوا كل الأفعال المذكورة مجتمعة ، ولم يرتكبوا فعلاً واحداً منها . وهذا دليل على أن الله لا يتصد بعينه ، ولا يتصيد ويختال بوقوفهم في الكفر ولكن يحش الصاد إلى الإيمان .

لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة : بقصوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وادعوا أن الله طمع على قلوبهم .

وحين جعل هذه الأفعال لأربعة جريمة واحدة فهذا فضل ورحمة منه .

وبعد ذلك يذكر لهم جريمة أخرى « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » وهنا نجد أنه سبحانه قد سارى بين قولهم البهتان على مريم وبين كل الأفعال السابقة ، لأنهم اعترضوا على رسالة وبرة عيسى عليه السلام وهو نبى من أولى العزم

من الرسل بأشياء قد تكون صعباً لأسباب التي فتت بعصر الناس فيه ، لقد خلقه الله خلقاً خاصاً فسبحانه خلق الناس جميعاً من آدم عليه السلام الذي صورته الله من حين لم تنفخ فيه الروح ، وجاء الخلق من التزاوج

أما عيسى عليه السلام فقد خلقه الله بطريقة خاصة ، فكيف كفروا به وكيف يتهمون أمه مريم عليها السلام وهي التول ؟

ومن الجائز أن تُتهم المرأة وترعى وتوصف بكل شيء . كذبه ، سارقه ، أو دميعة ، لكن الاتهام في لعرض لا . والحق ها محمد موصوعين للكفر : قولهم البهتان عن مريم وهو كفر باقته ، وكفرهم بعيسى الذي جاء بميلاد عن غير طريقة الميلاد العادية على الرغم من أن هذا تكريم له ولذع لليهود الذين غرقوا في المادية حتى إسم قالوا : (أربا الله جهرة)

بل إن الحق رزقهم برزق غيبى لا يعرفون أسابه في التيه رزقهم بالماء والسوى ، ولم في لون القسدة وطعم العسل الأبيض وهو شيء يقع على أوراق لشجر في بعض النباتات ، والسلوى طائر يشبه السماء ، وكانوا يأخذون الماء من الأشجار ويجمعونه ويأكلونه رزقاً بأنهم ولا يرزقونه ولا يتصور في تكثف قانوا لا ، نحن نريد أن نزرع نباتاً ينمو من الأرض ولا تنتشر الغيب ، لأن الغيب قد يضرنا عليه .

﴿ فَادْعُ كَارِبَكَ بِحُجْرٍ لَّأَيَّمَانِئْتُ الْأَرْضُ مِنْ نَفْسِهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

هم - إذن - لا يتقنون بما في يد الله ، ويريدون الأمر المادى ، ولذلك يلمتهم الحق سبحانه وتعالى لفئة قسرية ، ويأتى بأمر ينقص قانون المادة من أساسه ؛ وهو ميلاد عيسى عليه السلام بأسلوب غير تقيدى ، والإنسان يأتى إلى الدنيا من أب وأم ، ويأتى الحق بعيسى مخلوقاً من أم دون أب ، فانقضت المادية ، وهم كهاتين غفلوا عن الخلق الأول :

﴿ فَمَعِينًا وَبِالْحَقِّ الْأَوَّلِ بَلَّ هُمْ فِي لُبْسٍ مِنْ حَلِيٍّ جَبِيدٍ ﴾

(سورة ق)

إذن فلماذا الفتن في عيسى عليه السلام ؟ لقد نقص أمامهم الأساس التقليدي المادي لمجيء الإنسان إلى الدنيا من ذكر وأنثى ، وجاء عيسى عليه السلام من أم دون أب . لثبت سبحانه علاقة القدرة وأنه جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر مسبباً فعليهم أن يأخذوا الأسباب ، أما سبحانه وتعالى فهو مسبب الأسباب وخالقها وهو القادر - وحده - على إيجاد الشيء بمتعينة كل الأسباب .

ونعلم أن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء ، إما أن يشأ الشيء من وجود الشئيين ، هذه هي الصورة الأولى . وإما أن ينشأ الشيء من عدم وجود الشئيين وهذه هي الصورة الثانية . وإما أن ينشأ شيء من وجود الشيء الأول وعدم وجود الشيء الثاني ، وهذه هي الصورة الثالثة ، وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الثاني مع عدم وجود الشيء الأول ، وهذه هي الصورة الرابعة .

تلك هي الصور الأربع لوجود شيء ما ولم يشأ الله أن يجعل الخلق - وهو الإنسان لمكرم الذي سخر له الحق كل ما في الكون - على نحو واحد ، حتى لا يقول أحد : إن السببية مشروطة للوجود .

بن المسبب هو المشروط في الوجود بدليل أنه سبحانه خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ، وخلقنا جميعاً نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق حواء من أب دون أم .

هذه هي القسمة الفعلية الواضحة ، فليست المسألة عنصرية موحدة ، ولكن قيمة واقتدار واحد . وقدرة الحق تتجلى أيضاً أمامنا حينما تكون الأسباب موحدة كالآب والأم . لكن يشاء سبحانه أن يكون الإنسان عظيمين فهو العائل

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَنَرًا

لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ كُورٌ ۝ أَوْ يَرْجُوهُمْ ذُكْرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾

(سورة الشورى)

إذن فليست المسألة مدبر أسباب توجد ، بل مسبب يريد أن يوجد ، وأراد الحق

ن يكون عيسى عليه السلام بهذه الصورة ليلفت بني اسرائيل لعلمهم بحرحون من صلاتات المادية ، فأوجدته من أم حنون أب ، فكان هذا آية على طلاقة قدرته ، ولكن اليهود استنصلوا هذه المسألة استقبالا على غير مراد الله ، فكذبوا عيسى ، وقد حدث التكذيب من قبل أن يتكلم عيسى بالإنجيل . ووقضوا أمام رسالته بعنف ، والذي يدلنا على أنهم قوم كذابون ، هو رغبتهم في استمرار السيطرة الدينية لهم ، وكان صدهم شريعة تفتضي الرجم للرانية ، فلماذا إذن لم يهتموا مريم بالزنا عندما ولدت عيسى ؟ ولماذا لم يعاقبوها حسب شريعة التوراة ؟ ولماذا يتطروا إلى أن عيسى عليه السلام بالإنجيل ليفولوا : يا فاعل يا ابن الفاعلة . كان انتظدهم دليلا على أن ميلاد عيسى عليه السلام كان آية بينة صدعتهم وصدتهم عن دلت ، فقد نطق عيسى عليه السلام بعد ميلاده ولم تتكلم مريم قط ، لأن ما حدث أمر فوق منطقتهم ، وجهزها الله لهذا المرقف ، وأمرها بالصمت عندما يسألون ، وأن يشير إلى المولود انذى في المهد :

﴿ فَأُشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٨ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ؕ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٢٩ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْحَمْدِ ۝٣٠ وَالزُّكْرَةَ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ ﴾

(سورة مريم)

وانهروا اتبهاراً فتت فيهم لقوى ، فقوى الخصومة ساعة ترى هذا لا تجد إلا الانبياء ، فالخلق أبلج ، والباطل الخنج . إذن كان الأمر يدهم وفي توراتهم أن من يزن يرحم ، فلماذا لم يرحموا أم عيسى إذن ؟ . لابد أنهم صدموا بقوة جعلت موازين حقدهم تختل ، للعجزة الباهرة هي كلام عيسى ابن مريم في المهد . (إلى عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) وجعلت المباحاة أقوى الأقوياء فيهم ينهار ، وتخور قواه .

هذا من ناحية اليهود ، فمادا عن ناحية بعض أتباع عيسى عليه السلام ؟ . إن صبياً يتكلم في المهد هو معجزة بكل المقاييس ، فكيف تحلو كتبهم من قول عيسى في المهد . « إني عبد الله » وكان لابد أن تكون الكلمة مدروسة بعناية ، وألا تسيء وحفظ جنود الله سبحانه وتعالى الكلمة ، التي تؤكد بشرية عيسى عليه السلام .

وعندما نقول هذا الكلام فليس الهدف منه تصحيح عقائد أحد ، ولكننا فقط

نريد أن يتضح منطق الإيمان في عقول المسلمين ، أما آباء الديانات الأخرى فهم أحرار فيما يمتثلون ، والمهم بالنسبة لنا أن يكون ديننا وقرآننا متضحاً أمام أعيننا ، ولا يجرؤ أحد أن يميل به .

« ويكفرهم ونوحهم على مريم مهاتاً عظيماً » ونحن كمسلمين نستكشف أن بقول ما قالوه من بهتان عن مريم النور ، والبهتان هو الكذب الشرس . فهناك لون من الكذب قد يكون مقبولاً ، ولون من الكذب غير مقبول : فأن يقول لاني عن رجل وريح ، إنه شرب الخمر ، والقاتل يعلم أنه كاذب ، فهذا كذب ثقيل شرس ، يتحبر وتجب من يسمعه ، وهذا هو البهتان . ولم يستع ويمتنع اليهود حينما رموا مريم - الصاهرة بأمر الله - بالبهتان مع أنهم علموا أن لمريم صديقة خير واستقامة .

لقد كان ماضي مريم باصعاً ، عاشت في المحراب متنبلة لمن خلقها ، لذلك يصف الحق هذا البهتان بأنه عظيم ، لأنه جرح مريم في عرضها ، ولو رجعوا إلى تاريخهم قبل ميلاد عيسى من مريم لوجدوا أن كل واحدة من بنات بني إسرائيل كانت تستشرف أن يكون النبي المولود بعد موسى من نبطها . وكانوا يعرفون أن النبي القادم من بعد موسى ستنله عدراء ، وأبلغ بنو إسرائيل سائهم بكيفية مجيء النبي القادم عيسى ابن مريم ، تماماً مثل قضية البشارة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ومن رحمة الله بمريم نفسها أن الله جعل لها التمهيدات التي تثبت لها أمام نفسها أنها بريئة ، وأن العملية كلها قد تمت « كن » من الله ، لم يجعل الله المسألة سرّاً عن مريم فتحمّل بأمر قوله . « كن » دون أن يدري ، لا بل أراد سبحانه أن تكون عملية مادية . وجاء المليك لمريم وتمنع فيها بالحمل . وعرفت هي السبب مادياً بالملث والتمنع حتى لا تتهم نفسها أو تشك بأن شيئاً قد حدث لها وهي نائمة أو غير ذلك .

لقد أراد الله المسألة على تلك الصورة ليحفظها أمراً يقطع الشك لديها ، وهي التي بشرت به - إيماناً لها - عندما كانت صغيرة قبل البلوغ وجاءها زكريا وهو الكامل لها والذي يأتيها بالطعام ويدخل عليها المحراب فوجد عندها الورق وما لها .

(أنى لك هذا) أجابت :

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

لقد نطقت مريم البتول من قبل . « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ومن لحساب أن يكون للمرأة زوج لترزق بأولدها ، ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب . ومن العجيب أنها في هذا القول نبهت زكريا إلى قضية كانت في بؤرة شعوره : ولذلك يقول الحق

﴿ هَذَا نَذِيرٌ لَكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾

﴿ نَذَرْتَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَجَبْتٍ

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَبَبٍّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قَالَ رَبِّ انِّى

يَكُونُ لِي ظُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِى الْكِبَرُ وَأَمْرَانِ عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد شجعت مريم زكريا على أن يدعو ربه ، وتلك سلسلة تمهيدية ليطمش إحساس مريم أن ولادتها لعبسى عليه السلام إنما جاءت بـ « كس » وجاء لها الحق بفاكهة الصيف في الشتاء ، وعندما قالت لسيدنا زكريا : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » تب ودخل من هذا الباب ، فدعا ربه على الرغم من علمه أن امراته عاقرة ، وأنه بلغ من الكبر عتياً ، ومفهوم لنا معنى قول الرجل عن نفسه إنه بلغ من الكبر عتياً ، أى أنه لم يعد يملك القدرة على الإنجاب . وهذه المصبة تعطينا سبقاً قرآنياً لكثير من قصايا العلم .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهِنَ الْعَظْمِ مِنِّى وَأَشْتَعِلُ أَرَأْسُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة مريم)

هذا القول هو أشبه بمذكرة تمهيدية لبلوغه من الكبر عتياً . ريش العلم الحديث أن العظام هي آخر وعاء لتغذية الإنسان ، فإن امتنع الإنسان عن الطعام فالدهون التى فى جسده تغذيه . وإن امتنع الماء عن الإنسان وهو المكوّن لتسعين فى المائة من ورنه يمتص الإنسان الماء من خلايا الجسم والعضلات واللحم . ولذلك يقال فى المثل

العرب : سنة أذابت الشحم ، وسنة أمست اللحم ، وسنة نحت العظم

فكان البداية تكون التغذية من الشحم ومن بعد ذلك من اللحم ومن بعد الشحم واللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم وهذه هي التي جاءت على لسان سيدنا زكريا . (قال رب إني وهن العظم مني) . فأحر غرن للتغذية لم يعد به ما يمكن أن يستمد منه زكريا طاقة الإنجاب .

وما الذي يغذيه العظم من الجسم ؟ إنه يعنى المخ ، وهو السيد الأعلى الذي يدير كل جارحة في الجسم ، وتعمل كل جارحة في خدمته ، ويعيش المخ بطبيعة الحال كل عمره في خدمة الجوارح ، يرتب لها قدرات العمل والتفكير والإحساس واسلوته ، ومادام المخ موجوداً ، فكل شيء يتم تعويضه

ولذلك يحاربون - الآن - تعريف الموت طبيياً ، فيقولون : لا يحدث الموت مادامت خلايا المخ حية ، فإذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . ومن عجيب الأمر أن سيد الإنسان له مكان في أعلى الجسم إنه هو المخ ، داخل الجمجمة ، أما لنوات فسيده في الجنور . وإن لم تجد الجنور مياها تذيب بها العناصر في الأرض فالتبات يأخذ غذاءه من ابورق ، وبعد أن يذبل الورق يأخذ النبات غذاءه من الفروع الصغيرة . وعندما تذبل تلك الفروع وتجف ولا يتخذ النبات ولا عرى بعض الماء للجنور . وكذلك المخ بالنسبة للإنسان

فكان مريم شجعت سيدنا زكريا عندما قالت أمامه (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فدعا سيدنا زكريا الله أن يرزقه بالولد ، فجاءه الولد . وهذه القصة نطقها بها مريم ونمت نحررتها في سيدنا زكريا . وبعد ذلك جاءها البشير بميلاد المسيح عيسى ابن مريم .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِشِرْكَائِكَ كَلِمَةٌ مِّنْ أَمْرِهِ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَاجِعْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَيْدِ وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾

كيف يصوغ لقرآن هذه الصياغة ، وكيف تقول هي .

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد كانت سيدتنا مريم البتول تحس الاستقبال عن الله ، فساعة سمعت أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، عرفت أن نسلها يعني أنه بلا أب وعرفت أن الحق سبحانه مانسه إليها إلا لأنه لا أب له .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْشَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ ١٣٧ ﴿

ونلاحظ ان الآية تبدأ بواو العطف على ما قبلها ، وهو قوله الحق :

﴿ فَمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ أَغْوًى وَلَقَدْ جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ فَوَكَرُوا بِهَا طَائِفًا عَتِيفًا ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ لِقَوْمٍ أَصَابَتْهُمُ رُسُلُنَا مِنْ قَبْلُ فَمَا تَبَتَّ لَهُمْ إِتْيَانُ رُسُلِهِمْ وَلَا هُمْ يَعْلَمُونَ ۚ ﴾ ١٣٦ ﴿
وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بِهَتْنًا عَظِيمًا ۚ ﴾ ١٣٧ ﴿

(سورة النساء)

ويمتطع سبحانه على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وأكثر ما يدعش في هذا القول هو كلمة « رسول الله » ، فهل هي هنا من قولهم ؟ إن كانوا قد قالوها فهذا دليل اللامحاجة المطلقة ، ولو قالوا : إنهم قتلوه فقط لكان الجرم أقل وطأة ، ولكن إن كانوا قد عذبوا أنه رسول الله وقتلوه

فهذا جرم صعب للغاية . أو أن كلمة « رسول الله » هنا في هذه الآية ليست من مقولهم الحقيقي وإنما من مقولهم التهكمي .

وأضرب المثل لأوضح هذا الأمر . . . كان يأتي شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ويأتى له شخص آخر ويضربه ويهزمه ويقول لجماعته : لقد ضربت المتي القوي فيكم . إذن قد يكون قولهم : « رسول الله » هو من قبيل التهكم ، أو أن كلمة « رسول الله » هنا هي من قول الحق سبحانه وتعالى مصفاً إلى نوعهم ليبشع عملهم

« وقولهم : « إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فكأن الحق لم يشأ أن يذكر عيسى ابن مريم إلا مرتبطاً أو موصوفاً بقوله : « رسول الله » لنعلم بشاعة ما فعلوه ، عيسى ابن مريم رسول الله على رغم أموفهم ، وخاصة أن الكلام في مجال انكارهم وجحودهم لنعم الله ، وكفرهم بآيات الله ، وكأن الحق يسخر منهم ؛ لأنه ما كان الله ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدي مهمته وجاء بكلمة « رسول الله » هنا كمقدمة ليلتفت الدهن إلى أن ما قالوه هو الكذب

وبعد ذلك يقول لنا سبحانه : « وما قتلوه وما صلبوه » . وكلمة « وما صلبوه » هنا هي لتوضيح أن مجرد ظلمهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشبهون ذلك ويعسونه للناس ، وهم قد فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب ، فقد قتلوا شخصاً شبهه الله لهم ولم يكن هو المسيح وصلبوه من بعد ذلك ، وبمجرد قتل هذا الشخص طاروا بحبر القتل قبل أن تبدأ فكرة الصلب . ويقطع الله عنهم هذا الأمر ، فيقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

وقد لفتنا سبحانه من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح تم استقبالها من بني إسرائيل بضجة ، فعلى رغم علمهم خبر مجيء المسيح بالميلاد من غير أب ، وعلى رغم أنهم علموا بناتهم الاستشراف أن يكون لآية واحدة منهن شرف حمل المسيح ، وعن رغم ذلك قالوا الهتان في مريم التي اصطفاها الله وكذلك كان لمائة امرأة ضجة

واقتران الضجعتين : ضجة الميلاد وضجة الوفاة معاً في رسالة سيد المسيح يدلنا

على أن العقل يجب أن تكون له وحدة تفسيرية ، فمساءة يتكلم العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لا بد أن يستشعر الإنسان أن الأمر قد جاء على غير سنة موجودة ، ومساءة يبلعنا الحق أن نرى إسرائيل يتوا اليه لقتل عيسى ابن مريم ، وأن الله رفعه إليه تكون المسألة قد جاءت أيضا بقضية مخالفة ، ولا بد أن نصدق ما يبلعنا الله به ، وأن يتذكر العقل أن الميلاد كان مخالفاً ، فلماذا لا تكون النهاية مخالفة أيضاً ؟

وكما صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من عبراني ، لا بد أن نصدق أن الحق قد رفعه في النهاية وأخذ ، فلم يكن الميلاد في حدود تصور العقل لولا ملاح الحق لنا ، وكذلك الرقعة لا بد أن تكون مقبولة في حدود بلاغ الحق لنا . والميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم كل منهما عجيبة . وإن فهمنا العجيبة الأولى في الميلاد فنحن نعتبرها تمهيداً إلى أن عيسى ابن مريم دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب ، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب ؟ وإن حدثنا الحق أن عيسى ابن مريم خرج من الحياة بأمر عجيب فنحن لا نستعجب ذلك ، لأن من بدأ بعجيب لا عجب أن ينتهي بعجيب .

وسبحانه وتعالى حكى وقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وكلمة « شبه لهم » هذه هي دليل على هوج المحلولة للقتل ، فقد ألقى شبهه على شخص آخر وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية ، ليس فيها حزم الثبوت من المترشحين للقتل . ونعلم أن الطواريق وأتباع ميثاق عيسى كانوا يلصقون رهوسهم ويدعون سماتهم ، ولذلك قال الحق لنا : « ولكن شبه لهم » أي أنهم قد شبه لهم أنهم قتلوه .

واختلفت الروايات في كلمة « شبه لهم » ، فمن قائل : إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل الخوخة ، والخوخة هي باب في باب ، وفي البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفي هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأتراء ، وفي سقف البيت توجد فتحة وكوة اسمها (روزنة) أو (باروطة) .

فلما طلبوا عيسى دخل الخوخة ، ودخل خلفه رجل اسمه « تطيانوس » وعندما

رأى سيدنا عيسى هذا الأمر ألهمه الله أن ينظر إلى أعلى فوجد شيئاً يرفعه ، فلما استبطأ القوم « تطيانوس » خرج عليهم قائلو : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم لشبه بين « تطيانوس » وعيسى ، وألقى الله شبه عيسى على « تطيانوس » فقتلوه . أو أن عيسى عليه السلام حينما دخلوا عليه كان معه الخواريون وقال لهم عيسى : أيكم يُنتقى عليه شبهى وله الجنة ؟ فماذا إذن يريد الخواري لنفسه أكثر من الجنة ؟ رقد عيسى عليه السلام بالجائفة الكبرى لأى مؤمن ، وقبل واحد من الخواريين هذه المهمة ، ويقال له « سرخس » . فألقى شبه المسيح عيسى عليه ، فقتل اليهود « سرخس » .

وقالوا : إنه حينما عرف بعض الدين دهبوا لقتل عيسى أنه رُفع ، خافوا أن تقتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى ، وقد يتقم الناس من الذين أرادوا قتله . ولذلك جاء الفتنة بـتحص وفتلوه وألقى على هذا الفتنة شبه عيسى وأعلن الفتنة أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم . أو أن القتل هو واحد عن باعوا بى الله عيسى لليهود ، وما رأى المشهد ووجد المترهبين بعيسى يدخلون على الخواريين وفيهم عيسى وسأل المترهبون الخواريين . أيكم عيسى ؟ فتبقت ملكة التوبة في نفس الذى رضى بعيسى وقاده تأنيب الضمير عن خيانة الرسول إلى أن يقول : « أنا عيسى » . ولم يتصور المترهبون أن يجب إنسان على قوتهم « أيكم عيسى » . إلا وهو عيسى بالفعل ؛ لأن مشهد المترهبين يوحى أنهم سيقبلون عيسى وقتلوا الذى اعترف على نفسه دون تشك . أو أن واحداً باع عيسى لقاء ثلاثين ديناراً وتشابه عليهم فقبلوا الوشى ، ولم يظفروا بعيسى ابن مريم . ونحن كمسلمين لا هم اهتماماً كبيراً بتلك الروايات . فانهم أنهم قالوا قتلوا عيسى . وصلبوا

وقرئت الذى نزل على رسولنا صل الله عليه وسلم قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وقال الحق لنا : إنه رفع عيسى إليه ، وانتهت المسألة بالنسبة لنا ؛ لأننا كمؤمنين لا تأخذ الحزبيات الدينية أولاً فإن صدقها أم لا ، لا . نحن نؤمن أولاً بمَنزل هذه الحزبيات وصدق من بعد ذلك كل ما جاء به سبحانه . وهو قال ذلك فأتينا به وانتهت المسألة .

إن البحث في هذا الأمر لا يعنيننا في شيء ، وكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ويدلنا هذا القول على عدم ثبوت القتل من شخصية القتل ، وهو أمر متوقع في مسألة مثل هذه ، حيث يمكن أن تختلط الأمور .

إننا نرى ذلك في أية حادثة تحدث مع وجود أعداد كبيرة من البشر وأحدهم مفتوحة ، وعلى الرغم من ذلك تختلف فيها الروايات بل وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة ومع ذلك تختلف الروايات ، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه في زمن قديم لا توجد به كل الاحتياطات التي نراها في زماننا ؟ إذن فاصطرب الآراء والروايات في تلك الحادثة أمر وارد ، وكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه » .

فعيسى باق ، لأن الحق لم يأت لنا بخبر موت عيسى . ويبقى الأمر على أصل ما وردت به الآيات من أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى ابن مريم وكمسلمين لا نستبعد أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء ، لأن المبدأ - مبدأ وجود بشر في السماء - قد ثبت لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، فقد حدثنا صلى الله عليه وسلم أنه خرج به إلى السماء ، وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى ، إذن فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض وهو لا يزال على قيد الحياة الشريعة المادية إلى السماء أمر وارد . والخلاف يكون في المسألة الزمنية ، لكنه خلاف لا ينقص مبدأ ، سواء صعد وبقي في السماء دقائق أو ساعات أو شهوراً . فإن حاول أحد أن يشكك في هذه المسألة نقول له : كل أمر قد يقف العقل فيه يتنوله الحق سبحانه وتعالى تناولاً موسعاً . فمسحاه خالق رحيم لا يورد نصاً بحيث يتوقف العقل أمامه ، فإن قبل العقل النص كان بها ، وإن لم يقبله وجدت له منسوخة ، لأنه أمر لا يتعلق بصلب العقيدة .

فهب إن إنساناً قال إن عيسى لم يرفع بل مات ، فما الذي زاده من العقائد وما الذي نقص ؟ ذلك أمر لا يضر ولا ينفع . ومثل ذلك الإسراء ، جاء فيه الحق بالقول القرأى :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِرَبِّهِ لَبَّا لِمَنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي

بَرَكًا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُمْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

(سورة الإسراء)

ولم يقل الحق أى قول فى أمر المعراج ، لأن الإسراء آية أرضية ، انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . ونعلم أن رسول الله لم يذهب إلى بيت المقدس قبل الإسراء ، بدليل أن كفار مكة أرادوا إحراج الرسول فقالوا له . كيف لنا بيت المقدس . وهم وانفون من عدم ذهابه إليه من قبل . وكان فى الطريق فوافى لهم رأها صلى الله عليه وسلم ، ووصف صلى الله عليه وسلم بيت المقدس وقال لهم عن أخبار قواعدهم . وجاءت القوافل مشقة لصدق محمد صلى الله عليه وسلم .

إذن كان الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم آية أرضية يمكن أن بقلم عليها الدليل . ولذلك جاء بها الحق صريحة فقال : (سبحانه الذى أمرى بعبد ليله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) .

لكن المعراج لم يذكره الحق صراحة ، فممكن من قریش ولا من أهل الأرض من رأى سيرة المسيح ، ولم يكن لأحد من أهل الأرض القدرة على أن يصف طريق المعراج .

إذن فالآيات التى يقف فيها العقل يتناولها القرآن تناولاً موسعاً رحمة بالعمول ، لأن الإنسان إن اعتقد بها فهذا أمر جائز ، وعدم الاعتقاد بها لا يؤثر فى أصل العقيدة ، ولا فى أصول التكليفات ، ومدارها التصديق . وما دام الحق سبحانه وتعالى قد فرض رسوله أن يعطينا أحكاماً إن عملنا بها جازنا الله الثواب ، وإن لم نعمل بها بئنا بالعقاب . وما أناكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، فكيف لا يفوضه فى أن يقول لنا بعضاً من الأخبار ؟

ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى روى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - وذكره البخارى فى صحيحه أنه قال

«والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً . فيكسر

الصليب ، وقيل أخير ، ويضع أخيره ، ويقضي أمّا حق لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة لواحدة حراً من الدنيا وما فيها ، ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم النهاية يكون عيهم شهيداً^(١)

هذه أخبار أخيراً بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذن لا يوجد قصة عصبية نقف مستعصية أمام عقول المسلمين خاصة أن البعض قد يقول إن الحق سبحانه قد قال

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ مَطْعُوكَ مِنَ الْآلِ كَفَرُوا﴾

(من الآية ٥٥ سورة آل عمران)

وقد شرح من قل في حوارنا ، سورة آل عمران كل الشرح هذه المسألة . فها إن علينا أن ننته إلى « واو العطف » بين « متوفيت » و « رافعت »

ومن قل إن « و » العطف تقتضي الترتيب ؟ إن « واو العطف » تقتضي الجمع فقط تقريباً : « جاءني زيد وعمرو » ، هذا يعني أن زيد جاء مع عمرو أو أن زيد جاء أولاً ، أو أن عمراً جاء أولاً وبه زيد ، ف « الواو » لا تقتضي الترتيب ، وإنما مقتضاها الجمع فقط

لكن إن فها « جاءني زيد وعمرو » فزيد هو الذي جاء أولاً وشعه عمرو ، لأن « الفاء » تقتضي الترتيب ، أما « الواو » فتأتي لطلق الجمع ولا تتعلق بكيفية الجمع ، وسبحانه قال : « إن متوفيت ورافعت إلى » هذا لصرح من جمع لا يدل على أن التوفى قد تم قبل رفع ، وذلك أن الحق سبحانه أمر في القرآن آيات تدل على مثل هذا ، كقوله الحق

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَإِسْحَاقَ وَإِبْرَاهِيمَ﴾

(من الآية ٢ سورة الأعراف)

سبحانه أحد الميثاق من محمد صلى الله عليه وسلم وجمع معه سيدنا يوحنا وإبراهيم . فهل هذا الجمع كان قائماً على الترتيب ؟ لا ؛ لأن يوحنا متقدم حياً في

المركب لرسالي وسبق سيدنا رسول الله سنوات طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون .
إذن فـ «الولو» لا تقتضي التقريب في الجمع . ولماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر
الرفع ؟ جاء الحق بذلك ليشرح عيسى أن الوفاة أمر مقطوع به ، لكن الرفع مجرد
عملية مرحلية .

أو جاء قوله الحق . «إني متوفيك ورافعك إلی» ؛ لأن الإنسان المخلوق لله مكون
ومركب من مادة وني داخلها الروح ، وعندما يريد الحق أن ينهي حياة إنسان ما ،
فهو يقبضه بدون سبب وبدون نقص في النية ، ويموت حسب أهله ، أما إذا ما ضرب
إنسان إنساناً صرية عنيفة على رأسه فانه صرور أيضاً يموت ، لأن الروح لا تحل في
جسم به عطب شديد .

إذن فالحق أوضح لعيسى : أنا آخذك إلی ورافعك متوفياً وليس بحسدك أي نقض
لبنيتك أو هدم لما أو لبعضها ، بل آخذك كاملاً فـ «متوفيك» تعني الأخذ كاملاً
دون نقض للبنية بالقتل .

ونحن - كما عرفنا من قبل - نفرق بين لقتل والموت . فالموت هو أن نقض الروح
حذف الألف ، أما القتل فهو هدم للبنية فتزهد الروح ، والدليل على ذلك أن الحق
في كتابه الكريم قال .

﴿أَقْرَبُ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

إذن فعين قال بنو إسرائيل . إلههم قتلوا عيسى ابن مريم كذبهم الحق وقال :
« وما قتلوه وما صلبوه » . ورفعه الله إليه كاملاً ، وسبحانه وتعالى يقول : (وما قتلوه
وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لعمى شك منه ما لهم به من علم
إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً) . ويوضح الحق سبحانه وتعالى : لم يتيقنوا أنهم قتلوا
عيسى ابن مريم ، لكنهم شكوا فيمن قتل ، فلم يعرف المترصدون لقتله أقتلوا عيسى
أو تطيانوس أو صرخس ؟

والحق سبحانه جاء هنا بنسبتين متقابلتين ، فبعد أن نهي سبحانه ما قتل عيسى

ابن مريم قال : « وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك من ما لهم به من علم إلا اتباع
الظن » . والنسبة الأولى المذكورة هنا هي الشك ، وهو نسبة يتساوى فيها الأمران
والنسبة الثانية هي اتباعهم للظن ، وهو نسبة راجعة . لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم
شكاً ثم انقلب ظناً .

ويسمى الحق حلك بعلم يفيق « وما قتلوه يقيناً » وسبب حله ينفي بذلك أنهم قتلوه
يقيناً ، واليقين - كما نعلم - هو الأمر الثابت المعقود في الواقع والأعماق بحيث
لا يظلمو إلى الدهر ليقاش من جديد أو يتغير ، وله مراحل هي : مرحلة العلم ،
واسمها علم اليقين ، ومرحلة العين ، واسمها عين اليقين ، ومرحلة الحقيقة ،
واسمها حق اليقين .

وعندما يخبرنا واحد من الناس أن جزوا من نيويورك اسمه « مانهاتن » وأن
مانهاتن هذه هي جريمة يصل تعداد سكانها إلى عشرة ملايين نسمة ، وهما ناطحات
سحاب ، وجاء هذا الخبر مني لا نعرف عنه الكذب فيسمعه من لم ير نيويورك ،
فيمبر مضمون الخبر عنده علماً متيقناً : لأن الذي أخبر به موثوق به . وإن جاء آخر
ووجهه نلسامع عن نيويورك دعوة لزيارتها وليس السامع الدعوة وذهب إلى نيويورك ،
هنا تحول الخبر من « علم اليقين » إلى « عين اليقين » . وإن جاء ثالث وصحب
السامع إلى قلب نيويورك وطاف به في كل شوارعها ومبانيها ، فهذا هو « حق
اليقين » .

وأسمى أنواع اليقين هو « حق اليقين » . وقبلها « عين اليقين » ، وقبل « عين
اليقين » « علم اليقين » . وحينما عرض سبحانه المسألة قال

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَرَّ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝
لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ﴾

(سورة التكاثر)

هو سبحانه يعطينا علم اليقين ، ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه ،
وصيري المؤمنون وهم على الصراط السار وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الدين
يروون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق ، لأن هناك من يدخل الجنة ولا يدخل

النار ، وهلاك من يدخل النار ولا يدخل الجنة والكافرون بالله هم الذين سيروا
الحجيم حق اليقين . ويأتى « حق اليقين » فى موضع آخر من القرآن الكريم .

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۖ فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ ۖ وَتَصْلِيَةٌ بِهِمْ ۖ ﴾
إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ بَقِيَّةٌ ﴿١٥﴾

(سورة الواقعة)

فكل مكذب ضال سينزل إلى الحجيم ويصل الحجيم ويعاقب من عذابها حق
اليقين . إذن فقوله الحق عن مسألة قتل عيسى ابن مريم : « وما قتلوه يقيناً » يصدقه
الدين لم يشاهدوا الحادث ، نصديق علم يعنى لأن الله هو المقاتل . والذين راوا
الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا فى ذلك . وأما من باشر عملية القتل
لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذى عرف حقيقة اليقين . والذى حدث هو
ما على .

﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ﴿١٥٨﴾

لقد رفع العزيز الذى لا يغلبه أحد عن الإطلاق ، فهو القوى الشديد الذى
لا يبال منه أحد ، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم ، فإله غالب عن
أمره ، وهو العزيز بحكمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ ﴾
وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

وه إن ، هنا هى « إن » النافية ، وهى غير « إن » الشرطية . واليكم هذا المثال
عن « إن » النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق :

﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن تَسَاهِيهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الْأُنثَى
وَلَدَتْهُمُ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

بصحيح الحق هنا الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء الذين يظاهرون من نساءهم بقول
الواحد منهم لزوجته : « أنت عن كظهر أمي » ، فيقول سبحانه :

﴿إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الْأُنثَى وَلَدَتْهُمُ وَلَهُنَّ لَبِيقُوتٌ مُّسْكِرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَرُورًا﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

ليوضح سبحانه . ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم . و « إن » في هذه الآية التي نحن
بصدد خواصرتها الآن معنا هي « إن » النافية .

كأن الحق يقول : ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته وهذا شرح
لمعنى « إن النافية » . وقد يقول قائل : ما حكمة الصياغة في هذه الآية ؟ فلا إية بها
أكثر من ضمير ، مثل قوله الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته »
وعلى من تعود « به » ؟ وعلى من تعود الماء في آخر قوله « موته » ؟ هل هو موت عيسى أو
موت أى واحد من أهل الكتاب ، فالمذكور عيسى ، ومذكور أيضاً أهل الكتاب ،
فيصح أن يكون القول كالاتي :

لن يموت واحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن عيسى ، ويصح أيضاً . لن
يموت عيسى إلا بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب ، ولأن الضمير
لا يعرف إلا بمرجعه ، والمرجع بين الضمير فإن كانت هناك ألفاظ سبقت .
فكل منها يصح أن يكون مرجعاً ، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه كقول
الحق :

﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾

(من الآية ١١ سورة طه)

والمعمر هو الإنسان الذي طعن في السن ، ولا ينقص من عمر هذا المعمر إلا كما
أراد الله ، والماء في « عمره » تعود إلى بعض من المعمر ذلك أن كلمة « معمر »

مكونة من عنصرين هما « ذات الرجل » و« عمر الرجل » ، فلما عاد الصمير عاد على الذات دون التمييز ، فيكون المعنى هو . وما يعبر عن صمير ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التمييز . وماذا يكون الحال حين يوجد موجهان ؟ مثل قوله الحق :

﴿رَفَعَ السُّنُوتِ بِغَيْرِ عَمَلٍ زَوْهَا﴾

(مس الآية ٢ سورة الرعد)

هنا نجد مرجعين : « السماء » و « العمدة » فعلى أى منها تعود الهاء الموجودة فى كلمة « ترونها » ، هل تعود « الهاء » إلى المرجع الأول وهو السموات ، أو للمرجع الثانى وهو « العمدة » ؟ يصح أن تعود « الهاء » إلى السموات . . أى خلق السموات مرتفعة قائمة بقدرته لا نستند على شئ وأنتم تظنون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمدة أى بغير العمدة لئى نعرفها ولكن رعبها الحق بفواين الحاديه . أو رفع السموات « بغير عمد ترونها » أى أن العمدة مخفية عن رؤية البشر . وهكذا يصح أن يُنسب التضمير ويعود إلى أحد المرجعين .

والآية التي نحن بصددها ، نجد أنه قد تقدم فيها شيان هما المسيح وأهل الكتاب ، وفيها ضميران اثنان . فهل يعود الضميران على عيسى ، أو يعودان على أهل الكتاب ؟ أو يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب ؟ وأي منهما الذي يرجع على عيسى ، وأي منهما الذي يرجع على أهل الكتاب ؟ أو أن هاتين مرجعاً ثالثاً م يُذكر ويعلم من السياق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ويحد أن الضميرين قد يرجعان إلى المرحوم الثالث ، أي إلى محمد صلى الله عليه وسلم الذي بشر بحبيته عيسى ابن مريم ، وتوارد الأحاديث عن أن عيسى بوشك أن ينزل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولسوف يصلي عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولماذا التقى النصارى مع اليهود في مسألة القبل والصلب ؟ هم معذورون في ذلك ؛ لأن الحق لم يأت ببيان فيها تشدد وقوله : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » يدل على أنهم معذورون إن قالوا ذلك . ولكن كان الواجب أن يثمدوا على مسألة الصلب هذه ، إن كان فيه ألوهية أو جزء من ألوهية ، وكان من الواجب أن يحفوا مسألة الصلب ويأتوا الإسلام ليبري عيسى عليه السلام من هذه المسألة ويعين أتباع عيسى على تبرئته منها

ولكن لم يلتفت أتباع عيسى إلى قول الإسلام في هذه القضية « ولكن شبه لهم » وكان يجب أن يلتفت إليها أتباع المسيح . وحين يقص الحق كل ذلك فهو يحكم من بعد ذلك حكماً إلهياً : (بلى رفعه الله إليه) النصارى يقولون بالرفع ، ولكن بعد الصلب . وحين المسلمون يقولون بالرفع ولا صلب ، رفعه الله إليه وسيرل . وحكمة ذلك أنه لم يوجد رسول من الرسل السابقين فتن فيه قومه فحموه بعضاً من إله أو إلهاً فلم تسكت السماء عن ذلك ، فرفعه سبحانه وسيرله ليسه هذه القضية ، وبعد ذلك يجرى عليه قسر الله في خلقه وهو الموت .

إن الدين يقول في هذه المسألة يجب ألا يفقوا ، لأن مسألة سيدنا عيسى عليه السلام بدأها الله بحياة حرقت النواويس لأنه وكّد من أم دون أب . فإن كنتم قد صدقتم العجيبة في الميلاد ، فلماذا لا تصدون العجيبة في مسألة الرفع ؟

وإن قال واحد منا : لقد مات عيسى عليه السلام . تقول . ماذا تقولون في نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ؟ أصدق إلى السماء معروجا به إليها ؟ ألم يكن رسول الله حياً بقانون الأحياء ؟ نعم كان حياً بقانون الأحياء . وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة وجيزة في السماء ثم نزل إلينا ، إذن فاسألة في أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حي ثم ينزل إلى الأرض وهو حي ليس عجيبة .

واختلاف بين رفع عيسى وصعود محمد صلى الله عليه وسلم بالمعراج خلاف في المدة . وهذا لا يتخص المبدأ ، فاللهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته ، وظل فترة من الزمن بحياته ، إذن فمسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد في شريعتنا الإسلامية . وتأكيد هذه المسألة بقول الحق :

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الساء)

السامع السطحي لهذه الآية قد يقول : إنهم أهل كتاب ولا بد أن يكونوا قد آمنوا به ، وأقول : لا . لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم ، وليس الإيمان المراد لله ، آمنوا به إلهاً أو جزءاً من إله وهو ما يسمى لديهم بالثالوث - الآب والابن وروح القدس - ولكن الله يريد أن يؤمنوا به رسولاً وبشراً وعبدًا .

وإذا قال الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » فمعنى هذا : ما أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أن يموت .

والضمير في قوله : « إلا ليؤمنن به » يرجع إلى عيسى . والصمير الآخر الموجود في « قبل موته » قد يرجع إلى عيسى أي قبل موت عيسى ولن يموت عليه السلام المونة الحقيقية التي تنهى أجله في الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبشراً ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا جاء بشحمه ولحمه ودعه ليقول لهم : أنتم مخطئون في أنكم أنكرتم بشارتي بمحمد الخاتم ، وأنتم مخطئون في اتهامكم لأمي ، والدليل على خطئكم هو أنني جئت مبشراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبدالله ، وهذا أصل حلف واحد من أمة ذلك الرسول . فلن يأتي عيسى - عليه السلام - بشرى جديدة بل ليصلى تحف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

وحين يصنع عيسى بن مريم ذلك ، ماذا سيفعل الذين آمنوا به ؟ لا شك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أن كل كتاب من الدين عاشوا في المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبداً قبل أن يموت ولو في غيبوبة النهاية عندما تبلغ الروح الخلق وتتردد في الخلق عند الموت . فقد أصبح أن تكون الآية عامة « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » ويعود الصمير فيها إلى كل كتاب قبل أن يموت .

إن النص البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويخلق دونها باب اليقين ويدفعها إلى ذلك غرور الحياة ، فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق ، انتهى كل شيء يُبعد الإنسان عن منهج الحق واليقين ؛ ولا تبقى إلا القصصيات بحققها وصدقها ويعينها ، وتستيقظ النفس البشرية لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ويسقط غرور الحياة ، ويراجع الإنسان مهم نفسه في هذه اللحظة ، ويقول : أنا اتعبت هوى نفسي ولكن أينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبه ؟ لا ؛ لأن مثله في ذلك مثل إيمان فرعون ، فقد قال حين أدركه الغرق :

﴿ حَقَّقْ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَنُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ سَوَآءُ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿

فيسمى صوت الحز في تلك اللحظة :

﴿الْعَنَ وَفَلَدَ عَصَبَتْ قَبْلُ وَكُنْتُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١١)

(منورة بومس)

فلم يتمتع فرعون لحظة الغرق بالإيمان .

ويقول - سبحانه - :

﴿ وَلَيْسَ الثَّوَابُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ
النَّاسَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَغْتَتَدَّ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥٨ ﴾

(مسيرة النساء)

ويذيل الحق الآية : « ويوم القيامة يكون عبيدكم شهوداً » وهذا يؤكد أن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصروا نزوله في الدنيا ، وسوف يشهد يوم القيامة على الذين ادعوا له بالألوهية

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَسُوعَى ابْنَ مَرْيَمَ هَآأَنْتَ قُلْتَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي أَنَا مَلَكُوتُ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ بِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَظِيمُ الْعُيُوبِ ﴿١٢٦﴾

(سورة طه)

ويعاود الحق سبحانه الكلام عن فطائع اليهود فيقول :

﴿فِيُظَاهِرُ مِنْ الذِّينِ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طِبَّتْ
أَجَلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ﴿١٦﴾ ﴿﴾

هو سبحانه يوضح أن تحریم بعض الطیبات علی بنی اسرائیل جاء نتيجة لمواقف
بعدها الله ، لقد ارتكبوا ما ارتكبوا من ذنوب كبيرة وظنوا أنفسهم وعلموا

غيرهم ، وصموا عن دين الله ، بمعنى أنهم لم يدخلوا في الإسلام .

وتستمر الحثيات للتحريم لبعض الطيبات لتد على هذين الموقفين :

﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴾

وأى ظلم يتحدث عنه الحق في قوله : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ؟ . الظلم معناه أن يحكم واحد لغير ذى الحق بحق ، وقمة الظلم أن يحكم واحد بأن لله شريكاً ، ولذلك قال سبحانه .

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

وحثيت حكم الله بتحريم أشياء كانت حلالاً لبني إسرائيل متعددة . وحين يحرم الله شيئاً فمن المؤكد أنه محدود بالنسبة للمحظول ؛ فالمحرم قليل ، وبقي ما لم يذكره الله إنما يدخل في نطاق الحلال .
مثال ذلك قوله الحق .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَالَّذِينَ إِهْتَسَبُوا
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِهْتِنَا فَتَحَىٰ تَرَرُّكُمْ وَلَمْ يَأْمُرْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَّنَ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۚ لَا تَكِلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَإِذَا قُلْتُمْ مَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ

ذَاقُرْبَنِّ وَيَمْهَدِ اللَّهُ أَوْفُوا ذِكْرَكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَنُوكُمْ تَذَكُّرُونَ ﴿١١١﴾

(سورة النحل)

يورد الحق هنا المحرمات وهي أشياء محددة محدودة ، أما النعم كلها فحلال . ومن هذا الأمر نفهم اتساع مدى رحمانية الحق بالخلق ، فقد وهبنا الكثير والكثير من النعم التي لا تعد ولا تحصى ولم يحرم إلا القليل . ونحريم القليل جاء لتبقي كل نعمة في محالها .

إذا قال إنسان : حرم الله هذا الشيء لأنه صار بقول : ما نقوله جائز ، ولكن ليس لصرر هو سبب الحكم لكل المحرمات ، فقد يحرم سبحانه أمراً لتأديب قوم ما . - والله المثل الأعلى - نرى المستول من تربية أسرة قد يحرم على ولد فيها لونها من الطعام أو جزءاً من مصروف اليد ويكون المقصد من ذلك هو العقوبة .

ولماذا استحق بنو إسرائيل عقوبة التحريم ؟ . لقد جاءوا من خلف مبيع الله وأحلوا لأنفسهم ما حرم الله . وما داموا قد راغوا فأحلوا ما حرم الله فالخلق يرد عليهم لقد اجتأتم على ما حرمت فحللتموه ، ومن حقى أن أحرم عليكم ما أحللت لكم قبل ذلك ، حتى لا يفهم الإنسان أنه يتحلله لنفسه ما حرم الله قد أخذ شيئاً من رداء الله فلا أحد يمكنه أن يقلب الله . ولذلك يحرم سبحانه عليه شيئاً من حلاله

والتحريم إما أن يكون تحريم تشريع ، وإما تحريم طبع أو فطرة أو ضرورية . نجد الرجل الذي أسرف على نفسه في تناول محرقات كالخمر - مثلاً - يحرم الله عليه أشياء كانت حلالاً له ، ويقول له الطبيب : تمراً كبذك وصار من السموم عليك أن تأكل صنوفاً كثيرة من الطعام والشراب . وهكذا يرى ظلم الإنسان لنفسه ، وكيف نتج عنه تحريم أشياء كانت حلالاً له .

ومن أسرف على نفسه في تناول صنف معين من الطعام كالسكر مثلاً فأكله موق ما تدعو به الحاجة ، نجد سنة الله الكونية تقول له . لقد أخذت أكثر من حنك . وعطلت في جسك لقدرة من حسن استخدام السكر فصرت مريضاً ، إياك أن

تتناول السكريات مرة أخرى ، ويشتهى المريض السكر والخلوى ويمتلك القدرة على شرائها ، ولكنها محرمة عليه ، وكان الحق سبحانه وتعالى يقول له : فظلم منك لنفسك حرمت ما أحللت لك .

وأخر يمتلك الثروات والخدم والمزارع الشاسعة ، ويقوم له الآخرون بطحن العلال ، ويأمر بأن يصنعوا له الخبز من أنقى أصناف الدقيق الخالي من أية قدر من « النخالة » ، ويصنعون له الخبز الأبيض ، ويأكله يسيراً الاتباع يصنعون لأنفسهم الخبز من الدقيق الأقل نقاوة ، فتقول له ستة الله : ستأكل الخبز المصنوع من نخالة بأمر الطبيب علاجاً لأمعائك لأنك أسرمت على نفسك في أكل الخبز المصنوع من أنقى أنواع الدقيق وليأكل رعابك وهالك الخبز المصنوع من أصغر ألوان الدقيق ، فظلم منك حرمت ما أحل لك .

وعندما نرى إنساناً قد حُرِمَ من نعمة من نعم الله التي هي حلال له ، يعلم أنه قد حلل لنفسه شيئاً حرمه الله عليه ، أو أسرف في استعمال حق أحله الله له ، ولا أحد منا يملك من رقابة الله . إذن فالتهريم قد يكون بالشرع ، إذا كانت العقوبة لتهريم من الشرع ، وقد يكون محرماً بالطبع والتطيرة إن كان في الأمر إسراف من النفس .

ولقرأ دائماً هذه الآية . « فظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » وكذلك الذين يأخذون مالاً بالربا ، لقد أخذوا الربا ليزيد مالهم ، لماذا يريدون المال ؟ أتريدون المال لذات المال ، أم لهدف آخر ؟ صحيح أن المال ورق ، لكنه رزق غير مباشر ، لأنه يشتري به الأشياء التي يستمتع بها الإنسان ، وهي الرزق المباشر . وقبلنا قديماً : هب أن إنساناً في صحراء ومعه جبن من ذهب لكن الطعام انقطع منه ، وجبل الذهب في مثل هذه الحالة لا ينفع ، بل يصبح رغبة الخبز وكوب الماء في تلك الحالة أفضل من الذهب . والذي يريد مثله بالربا ، أيريد تلك الزيادة من أجل المتع ؟ سبحانه بحق ذلك المال ويذهب في كوارث .

ومن أراد أن يبقى له ما أحل الله إلى أن يأتي أجله فعليه ألا يبيع لنفسه أي شيء .

حرمة الله . وبذلك يظلم متمتعاً بنعم الله عليه . فالخلق هو القاتل : (وما ربك بظلام للعبيد) .

الإنسان - إذن - هو الذي يظلم نفسه مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ أَنَفْسُهُ يُظْلِمُونَ ١٠١ ﴾

(سورة يونس)

وهكذا ظلم اليهود أنفسهم فعهرم الله عليهم طيبات أحلت لهم . ومن لدى نقل الأمر الطيب إلى أمر غير طيب ؟ . إنه الإنسان . ولكن هل نقل ذات الشيء أو حكم الشيء ؟ . لقد نقل حكم الشيء ، فجعل الشيء المحرام شيئاً حلالاً « بظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » .

كيف يكون باستطاعتهم الصّد عن سبيل الله ؟ لقد ظلموا أنفسهم وأحدوا الربا ونكحوا ما حرم الله في ناحية الضلال وفي جانب الباطل ، وليت الأمر وقف عند هذا بل أرادوا أيضاً بضلال غيرهم ، وهذا هو معصمون الصّد عن سبيل الله . وجعلهم هذا الأمر أصحاب وزر آخر فوق أوزارهم ، فلم يكتفوا بضلالهم بل تحمّلوا أوزار بضلال غيرهم .

﴿ يَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَمِثْلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنَ الْأَوْزَارِ الَّذِينَ يُصَلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ١٠٢ أَلَسَاءَ مَا يَزُرُّونَ ١٠٣ ﴾

(سورة النحل)

وقد يسمع متشكك هذا القول . فتسأل : كيف يناقض القرآن بعضه فيقول .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ١٠٤ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

ونقول : إن لكل وزر طريقاً وحساباً ، فالإنسان يحمل وزر ضلاله وحده إن لم يضل به أحداً غيره ، ولكن إن حاول إضلال غيره فهو يتحمل وزر هذا الإضلال .

ويقول الحق في تكملة ظلمهم لأنفسهم : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكدهم

أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ، وقد تعرضنا للربا من قبل . وقد أخذوا الرشوة ، وهو أكل مال الناس بالباطل ، وكذلك السرقة ، والغش في السلم ، كل ذلك أخذ مال من الناس بخير حق ، وما أخذ بخير الحق فهو باطل ، وأعد سبحانه لهم سبقاً عذاباً أليماً . ولكل إنسان مقعدان : مقعد من الجنة إن قدر إيمانه ، ومقعد من النار إن قدر كفره ، ولا مجال للغش بإمكان ازدحام الجنة أو ازدحام النار ، فقد خلق الله مقاعد الجنة على أساس أن كل الناس مؤمنون ، وجعل مقعد النار على أساس أن كل الناس كافرون .

ولذلك يقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْآخِرَ دُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١١)

(سورة المؤمن)

وحين يتبوأ المؤمن مقعده في الجنة يورثه الله المقعد الآخر الذي أعد له للكافر ، فقد كان للكافر قبل أن يكفر مقعد في الجنة لو اختار الإيمان . وقد أعد الحق العذاب الأليم لهم أي الشديد إيلاهم ، وهو مهين أيضاً أي أن في قدرته قهر أي إنسان يتجلده للشدة ، فلا أحد يقدر على الجلود أمام عذاب الله .

وهل هذا هو كل ما كان من أهل الكتاب ؟ ألم يوجد في أهل الكتاب من كان يدير مسألة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم في عقله ، ويبحث في القضايا والسمات التي جاءت مبشرة به صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل ؟ كان من بينهم من فعل ذلك ، ويورد الحق سبحانه وتعالى التاريخ الصادق ، فيستثنى من أهل الكتاب الراسخين في العلم فيقول :

﴿ لَكِن الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ
وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

أُولَئِكَ مَسْنُونِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

إذن لم يعمم الله أسعكم على أهل الكتاب ، الذي سبق بكفرهم وظلمهم لأنفسهم وأخذهم الربا وغير ذلك ، بل وضع الاستثناء ، ومثل لذلك «عبد الله بن سلام» الذي أدلر مسألة الإيمان برسول الله في رأسه وكان يعلم أن اليهود قوم بُهت

فقال لرسول الله : إن أومن بك رسولاً ، والله لقد عرفتك حين رأيتك كمعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد .

ويقول الحق عن مثل هذا الموقف : «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» . ولا أحد يتوهم معرفة ابنه ، كذلك الراسخون في العلم يعرفون محمداً رسولاً من الله ومبلغاً عنه ، والراسخ في العلم هو النابت على إيمانه لا يتزعزع عنه ولا تأخذه الأهواء والنزوات . بل هو صاحب ارتقاء صفاتي في اليقين لا تشوبه شائبة أو شبهة .

«لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك» ، وقوله الحق: «بما أنزل إليك» هو القرآن ، وهو أصل يُرد إليه كل كتاب سابق عليه ، فحين يؤمنون بما أنزل إلى سيدنا رسول الله ، لابد أن يؤمنوا بما جاء من كتب سابقة .

والملاحظ للنسق الأسلوب سيجد أن هناك اختلافاً فيما يأتي من قول الحق . «والمقيمين الصلاة» فقد بدأ الحق الآية : «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة» .

ونحن نعلم أن جمع المذكر السالم يُرفع بالواو وينصب ويُجر بالياء ، ونجد هنا «المقيمين» جاءت بالياء ، على الرغم من أنها معطوفة على مرفوع ، ويسمى علماء اللغة هذا الأمر بكسر الإعراب ، لأن الإعراب يقتضي حكماً ، وهنا نلتصت لكسر الحكم . والأخذ العربية التي نزل فيها القرآن طُبِعَتْ على الفصاحة تنبيه لحظة كسر الإعراب .

لذلك فساعة يسمع العربي لحناً في اللغة فهو يفرح . وكلنا يعرف قصة العربي الذي سمع خليفة من الخلفاء بخطب ، فلهن الخليفة لحنه فصرّ الأعرابي لأذنيه ، أي جعل أصابعه حلف أذنيه يديرهما وينصيهما ليسمع جيداً ما يقول الخليفة ، ثم لحن الخليفة لحنه أخرى ، ههب الأعرابي واقفاً ، ثم لحن الثالثة فقال الأعرابي : أشهد أنك وليت هذا الأمر بفصاء وقلو . وكأنه يريد أن يقول : أنت لا تستحق أن تكون في هذه المكانة .

وعندما تأتى آية في الكتاب الذي يتحدى الفصحاء وفيها كسر في الإعراب ، كان على أهل الفصاحة أن يقولوا . كيف يقول محمد إنه يتحدى بالفصاحة ولم يستقم له الإعراب ؛ لكن أحداً لم يقلها ، مما يدل على أنهم تنهوا إلى السر في كسر الإعراب الذي بلغت به الحق كل نفس إلى استحضار الوحي بهذه القضية التي يجب أن يقف الدعن عندها : « والمقيم الصلاة » .

لماذا ؟ لأن الصلاة تضم وتشمل العباد الأساسي في أركان الإسلام ؛ لأن كل ركن من الأركان له مدة وله زمن وله مناهج تكليف . فالشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفي أن يقومها المسلم مرة واحدة في العمر ، والصوم شهر في العام وقد لا يصوم الإنسان ويأخذ برخص الإفطار إن كانت له من واقع حياته أسباب للأخذ برخص الإفطار . والزكاة يؤديها المرء كل عام أو كل زراعة إن كان لديه وعاء للزكاة . والحج قد يستطيعه الإنسان وقد لا يستطيعه . وتبقى الصلاة كركن أساسي للمسلم . ولذلك نجد هذا القول الكريم :

﴿ مَا مَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا آتَيْنَاكَ مِنَ الْمُحْصَلِينَ ۝١٧﴾

(سورة المدثر)

وأركان الإسلام - كما نعلم - خمسة وهي واضحة ، ومن الجائز ألا يستطيع المسلم إقامتها كلها بل يقيم فقط ركنين اثنين ، كالشهادة وإقامة الصلاة . ونحن يقول الحق : « والمقيم الصلاة » . بلغت كل مؤمن إلى استمرارية الودادة مع الله ؛ فهم قد يوتون الله شهراً في السنة بالصيام ، أو يوتون بإيتاء الزكاة كلما جاء لهم عطاء من أرض أو من مال ، أو يوتون الله فقط إن استألموا للذهاب إلى الحج . وبالصلاة يؤدّ المؤمن ربه كل يوم خمس مرات ، هي - إذن - إعلان دائم لولاء

لقد قلنا : إن الصلاة جمعت كل أركان الدين ، ففيها نقول : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، ونعلم أننا نذكر بالمال ، والمال فرع العمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، والإنسان حين يصلّي يتركى بالوقت . والإنسان حين يصلّ يصوم عن كل المحللات له ، هي الصلاة صيام ، ويستقبل المسلم البيت الحرام في كل صلاة فكأنه في حج

إذن فحين يكسر الحق الإعراب عند قوله : « والمقيم الصلاة » إما جاء ليعتدنا على أهمية هذه العبادة . ولذلك يقولون : هذا كسر إعراب بقصد المدح . فهي منصوبة على الاختصاص ويخص به الحق المقيم الصلاة ، لأن إقامة الصلاة فيها دوام إعلان الولاء لله . ولا ينقطع هذا الولاء في أي حال من أحوال المسلم ولا في أي زمن من أزمان المسلم مادام فيه عقل .

ويقول الحق من بعد ذلك . « والمؤتون الزكاة » والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، كأن كل الأعمال العبادية من أجل أن يستديم إعلان الولاء من العبد للإيمان بالله . والإيمان - كما نعلم - بين قوسين : لقوس الأول . أن يؤمن الإنسان بقيمة الإيمان وهو الإيمان بالله . والقوس الثاني : أن يؤمن الإنسان بالنهاية التي نصير إليها وهي اليوم الآخر . ويقول سبحانه جزاء هؤلاء : « أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » هو أجر عظيم ، لأن كل واحد منهم قد شذ عن جماعته من بقية أهل الكتاب ووقف الموقف الثابت والرافض المتمرد على تدليس غيره ، ولأنه فعل ذلك ليثبت صدق القرآن في أن الإعلام بالرسول قد سبق رجاء في التوراة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ
مِنْ قَبْلِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَأِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ

رِيُوسَ وَهَارُونَ وَسَلِيمَانَ وَعَائِينَ دَاوُدَ

زَبُورًا ﴿٢٢٣﴾

ونعلم أن الحق حينما يتكلم ، يأتي بصميم التكلم . وصميم التكلم له ثلاثة أوجه ، فهو يقول مرة . « إنا » ومرة ثانية . « إني » وثالثة بخاطب خلقه بقوله : « نحن » . وهما يقول . « إنا أوحينا إليك كما أوحينا » . ونشاهد في موقع آخر من القرآن الكريم قوله الحق :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وفي موضع ثالث يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِتُونَ ﴾ ﴿٢٢٤﴾

(سورة الحجر)

لأن الذكر يحتاج إلى صفات كثيرة ومتنوعة تتكاتف لتسهيل الذكر وحفظه . وحين يخاطب الله خلقه يخاطبهم بما يحل مواقع الصفات من الكون الذي يعيش فيه والكون الذي يعيش فيه يمتلئ بالكائنات التي تخدم الإنسان ، وهذه الكائنات قد احتجت إلى الكثير لتيسر للإنسان الكون قبل أن يوجد الإنسان ، وذلك حتى يأتي إلى الكون ليجد نعم الله له ؛ فالإنسان هو الذي طرأ على كون الله .

هذا الكون الذي صار إلى إبداع كبير احتاج إلى صفات كثيرة لإعداده ، احتاج إلى علم عن الأشياء ، وإلى حكمة لوضع كل شيء في مكانه ، ولقبضة تبرزه ، وإلى غنى بخبرائه حتى يفهم على هذا الموقع بصير يختلف عن حير الموقع الآخر ، وساعة يكون العمل مُتطلباً مجالات صفات متعددة من صفات الحق ، يقول سبحانه : « إنا » أر « نحن » . وعندنا يأتي الحديث عن ذات الحق سبحانه وتعالى بقول : « إني أنا الله » . ولا تأتي في هذه الحالة « إنا » ولا تأتي « نحن » .

والحق هنا يقول . « إنا أوحينا إليك » أي أنه أوحى بمنهج ليصير الإنسان سيداً في

الكون ، يصون نفسه والكون معاً ، وصيانة الكائن والكون تقتضي علماً وحكمة وقدره ورحمة ، لذلك فالوحي يحتاج إلى صفات كثيرة متآزرة صنعت الكون . ورحمة من الله بخلقه أن جعل لهم مدخلاً فيقول على سبيل المثال :

﴿ أَلَمْ نَرَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة طه)

هو الذي أنزل من السماء ماء ، وليس لأحد من خلقه أي دخل في هذا ، لأن الماء لما يتخردون أن يدري الإنسان ، ولم يعرف ذلك إلا منذ قرون قليلة . وهرنا كيف يتكون السحاب من البحار ، ثم يرسل المطر من بعد ذلك . إذن لا دخل للإنسان بهذا الأمر ، لذلك يقول الحق : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً » . ربنا من بعد ذلك أنصف الحق للخلق ، فيقول : « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » . ولم يقل : « فأخرجت » . بل أنصف الحق خلقه وهم المتحركون في نعمه بالعقول التي خلقها لهم ، فسيحانه بقدر عمل الخلق من حرث وبلد وري وظلك حتى يخرج الثمر .

إذن الأسلوب القرآني حين يأتي بـ « إن » يشير إلى وحدة الذات ، وحين يأتي بـ « إنا » يشير إلى تجمع صفات الكمال ، لأن كل فعل من أفعال الله يقتضي حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدره وحكمة وقبضاً وبسطاً وإعزاً وإدلاً وقهارية ورحمانية ، لذلك لا بد من ضمير التعظيم الذي يقول فيه النحويون : « نحن » و « ما » للمعظم نفسه . وقد عظم الحق نفسه ، لأن الأمر هنا حشد صفات يتطلبها إيجاد الكون والقيام على أمر الكون . ولذلك نجد بعض العارفين الذي لمحوا جلال الله في ذاته وجماله في صفاته يقولون :

فسيحان رب فوق كل مظنة . . تعالى جلالاً أن يحاط بذاته إذا قال « إني » ذاك وحدة قدسه . . وإن قال « إنا » ذاك حشد صفاته

وعندما ننظر إلى هذه المسألة ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى أنصف خلقه لعلمهم بعرفونه ، فجعل لهم إيجاد أشياء وخلق أشياء . وحين يتعرض سبحانه لأمر يكون له فيه فعل ويكون له أقدره سبحانه من خلقه به فعل ، فهو يأتي بنون التعظيم لأنه سبحانه . هو الذي أمدهم بهذه القدرات .

وحين أوجد الحق خلقه من عدم ، جعل لخلق من خلقه إيجاداً ، ولكن هالك فرق بين إيجاد المادة ، وإيجاد ما يتركب من المادة . فقد خلق سبحانه كل شيء من عدم ، ولكن جعل لخلقه أن يخلقوا أشياء لكن ليست من عدم . وما صنّ سبحانه وتعالى عليهم بأن يذكرهم بلفظ الخلق فقال :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التيسر)

لكنه سبحانه وتعالى جعل من خلقه خالقين ، لكن الخالقين من خلقه لم يخلقوا من عدم محض ، وإنما كونوا مركباً من موجود في مواده . فآخذوا من مواد خلقها الله فركبوا وأوجدوا . والإنسان الذي صنع كوب الماء لم يثنى الكوب من عدم محض وإن كانت « الكلية » في الكوب غير موجودة مجزئيات إيجاد الكوب موجودة ، فالرمل موجود في بيئات متعددة ، وموجود أيضاً ما يصهر الرمل ، والمقل الذي يأخذ تلك العناصر ، ولفكر الذي يصنع من الرمل عجينة ، ومصمم الآلات التي تصنع هذا الكوب موجود . إذن فقد أوجد الإنسان كوباً من جزئيات موجودة . فالعارق - إذن - بين خلق الله وخلق خلق الله ، أن الله خلق من عدم محض ، لذلك وصف ذاته بقوله : (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

فانتم أيها البشر إنما تخلقون من مخلوقات الله ولم تخلقوا من غير مخلوق لله ، ههنا سبحانه وتعالى أحسن الخالقين . وكما أنصف الحق خلقه بأن نسب لهم خلقاً ، فلا بد من أن يصف نفسه بأنه أحسن الخالقين . وأيضاً إن خلق الخلق - كما قلنا وأنا لا أزال أكررها - تستقر ثابتة في الأدهان - بحمد الشيء على ما أوجدوه عليه ، فيخلقون الكوب ليظل كوباً في حجمه وشكله ولونه ، ولكنهم لم يخلقوا كوباً ذكراً وكوباً أنثى ليجتمعاً معاً وينشأ أكواباً صغيرة تنمو وتكبر ، ولكن الله ينفع بسر الحياة في كل شيء ويوجده ، لذلك هو أحسن الخالقين .

ولو نظرت إلى كل شيء في الوجود لوجدت فيه سر الذات الفاعلة ، فلو نظرت إلى ذات نفسك ، لوجدت لك وسائل إحراك ، لوجدت لك سمعاً ، ولوجدت لك عيناً ، ولوجدت لك أنفاً وللسا وذوقاً ، ولكن لبعض الآلات تحكم في اختيارك ، فأنت حين تفتح عيبك ترى وإن لم ترد أن ترى تغمض عيبك . ولكن إذا أردت

ألا تسمع ، أنتستطيع أن تجعل في أذنك آلة تقوى « لا أسمع » ؟ وأنت تفتح فمك لتأكل وتندون ، ولكن أنت لا تفتح أفك لتشم . أنت غمد يبك لتلمس . وقل لي بالله أى انفعال لك أن أردت أن تضحك ؟ ما الآلة التى فى بدنك تحركها لتضحك ؟ أنت لا تعرف شيئاً إلا سبباً متبراً يضحك ، لكنك لا تعرف ما هى الآلات التى تعمل فى جسمك لتضحك . وكذلك حينما يبكى ما هى الآلات التى تعمل فى ذاتك لتجعلك باكياً ؟ أنت لا تعرف . ولذلك جعل الله الإضحاك والإبكاء مع الإيجاد والحيلة ، والعدم بالموت جعل ذلك له سبحانه وتعالى

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَصْحَكُ وَأَبْكِي ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَّتٌ وَأَحْيَا ۝﴾

(سورة النجم)

جعل الحق فى ذاتك الإنسانية أشياء تفعل ولكنك لا تعرف بأى شيء تفعل ولا بأى شيء تفعل . والأذن ليس لها ما يسمعها من السمع ، لذلك لا يأمرك الحق ألا تسمع أى شيء ، ولكن الأثر الصالح يأمر : (لا تسمع إلى القيلة) .

لم يقل الأثر الصالح « لا تسمع إلى قيلة » لأن الإنسان لا يستطيع أن يسمع أذنيه عما يسور حوله ، لكنه يستطيع ألا يسمع بالأذى يلقى بأذنيه إلى ما يقال . إذن فقد جعل الحق التكليف فى مقدور اختيارات المسم ولذلك قال :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۝﴾

(من الآية ٦٨ سورة الانعام)

واستخدم هنا كلمة « رأيت » لأن المسلم لا يملك شيئاً يسد به أذنيه حتى لا يسمع حديث الدين يخوضون فى آيات الله ، لكن أمر الله الذين يسمعون ذلك أن يسبوا بعيداً معرضين عن هؤلاء الخائفين . وسبحانه يوضح لنا ما همى عنا ، وكل شيء فى الكون وإن كان ظاهراً أنه « يعنى » ، لكنه فى الحقيقة هو متهور لما يفعل لمرادات الله بأمر الله . ولذلك يقول العارفين بالله . من جميل إحسانه إليك أن فعل ونسب إليك .

فسبحانه وتعالى الذى يفعل كل شيء ، وليس على الإنسان إلا ترجيه الآلة

الماعلة ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان حين يكون قوياً لا يمكنه أن يعطى قوته للضعيف ، فلا أحد منا يقول للضعيف : حد قدرأ من قوتي لتساعدك عن التحمل ، بينما يوصح الله للضعيف عملياً : تعال ، إلى أعطت من مطلق قدرى قدرأ من القوة لتعمل .

إذن القوة في المحنوق لا يعطيها أبداً لمثله ، بل يعطى أثرها . مثال ذلك عندما لا يستطيع شخص أن يعمل شيئاً ثقیلاً ، فيأتى آخر قوياً ليحمله عنه ، والقوى بعمله إنما يعدى أثر قوته للضعيف ، لكنه لا يستطيع أن يفل قوته إلى ذات الضعيف ليحمل الشيء الثقيل .

والله لا يعدى أثر قوته لمحبس ولكنه يمج ويعطى قوة إلى كل ضعيف يلجأ إليه وإلى كل قوى أبصاً . وسبحانه يتفضل بالحنى والسعة لكل عنى وفير وبرحمته إلى كل رحيم ، ويقدرته لكل قادر ، وبحكمته لكل حكيم . إذن فكل هذه مستمدات من الحق سبحانه وتعالى . هذا هو كلامنا في «إنا» .

وحين يتكلم الحق قائلاً «أوحينا» فهو سبحانه يأتى بصيغة الجمع . وما الوحي ؟ قال لعلماء الوحي : إعلام بخفاء ، لأن وسائل الإعلام شتى ، وسائل الإعلام هى التى تنقل قولاً بقوله المبلغ فيعلم السامع ، أو هو إشارة يشير بها فيفهم معناها الرأى . وهذه علامات ليست بخفاء . بل موضح . وعندما يقول : «أوحينا» فهو يعنى أنه قد أعسم ، ولكن بطريق خفى . وحين تطلق كلمة «وحى» يكون لها معانٍ شتى ، فكل إعلام بخفاء وحى . لكن من الذى أوحى فى خفاء ؟ ومن الذى أوحى إليه فى خفاء ؟ وما الذى أوحى به فى خفاء ؟ نجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى أحناس الوحود ، وقال عن الأرض وهى الجهاد :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ

الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَنْبَارُهَا ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۚ ﴾

(سورة الزلزال)

أى أن الحق قد ضبط الأرض على مسافة زمن قيام القيامة ، فتحدث عندئذ

- والله المثل الأعلى - نحن نقدر العمر الافتراضي لما نصنع لينتهي في وقت محدد . إذن فقد أوحى الله للجهااد وهي الأرض

ويترك لنا سبحانه في صناعة المخلوقين ما يقرب لنا صفة الخلق ، فعندما يريد الإنسان أن يستيقظ في الثالثة صباحاً ، وهو وقت لم يعد فيه هذا الإنسان على الاستيقاظ ، فهو يضبط المنبه ليصدر عنه الجرس في الوقت المحدد ، كأد الإنسان بهذا العمل قد أوحى للمبه ، كذلك الحق صمغ الأرض وأوحى لها في الوقت المحدد ستفجرين بحكم تكويني لك . ويوحى الحق إلى جسم الحيوان .

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (٦٨)

(سورة النحل)

هذا إعلام بخفاء من الله للنحل فقد جعل الله في تكوينها الغرضي ما يؤدي إلى ذلك وهماك فرق بين التكوين الغرضي والتكوين الاختياري ، فالتكوين لغرضي يسير بنظام آلي لا يعمل عنه ، أما التكوين الاختياري فيصح أن يعمل عنه

ومثال آخر على الآلية نجد الحاسب الآلي المسمى العقل الإلكتروني ويقوم الإنسان بتحرير المعلومات فيه ، وهذا الحاسب الآلي لا يستطيع أن يقول لواضع المعلومات فيه : لا تقبل هذه الحقيقة ، ولا يستطيع أن يمتنع عن إعطاء ما فيه لمن يطلب هذه المعلومات إن كان يعرف كمية استدعائها . فلا اختيار للحاسب الآلي .

ويختلف الوضع في لعقل البشري الذي يتميز بالعمرة على انتهاء المعلومات ويعرف كيف يدلي بهذه المعلومات حسب المواقف المختلفة ، ويتحكم بوعى فيها يجب أن يُستَروفيها لا يجب ستره ، بل إن العقل البشري قد يكذب ويلون المعلومات . وهو قادر على تغيير الحقائق والتحكم فيها ، بينما الحاسب الآلي المسمى بعقل الإلكتروني لا يقدر على ذلك ؛ لأنه يدلي بالمعلومات حسب ما تم « برمجته » ، وتخرجه ووضعه فيه ، وهكذا يرتقى الإنسان في المكر

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ، أعطى لكل كائن الغرائز التكريرية التي

تناسبه ، أعطى الإنسان القدرة على الاختيار بين البهلات ، أما بقية الكائنات فقد أخذت حكم الغريزة . والكائن الذى يسير بحكم الغريزة لا اختيار له ، ولذلك تسير كل أموره مستقيمة بناموس ثابت .

ونرى هذا الأمر بوضوح فى حكم فهر السموات والأرض والكواكب التى لا اختيار لها ؛ فهى تسير حسب القوانين التى وضعها الله لها ، وكذلك النبات . فالإنسان قد يزرع شجرة فتتعمق بالتسخير الفرسى الذى وضعه الله فيها ، وتنتد الشعيرات من الجذور فى باطن الأرض ؛ لتمتص - بتسخير الله لها - بعض العناصر المحددة فى التربة ، ويستفح نبات ما بمادة معينة قد لا تصلح لنبات آخر .

ونرى علماء النبات يعملوا فى حقن دراسات لمحو النباتات ، وقد يكون بعضهم ضعيف الإيمان بالله ، أو أن قدرات الخالق لا توجد فى بؤرة شعوره دالها . فيقول : إن النبات يتغذى حسب خاصية الأنابيب الشعرية . وخاصية الأنابيب الشعرية - كما نعرفها - هى صعود السائل إلى الأنابيب التى تكون الواحدة منها لا يزيد قطرها واتساعها عن قطر الشعرة . ويصعد فيها السائل إلى ما فوق سطح الإناء . وكل سائل فى أى إناء إنما يأخذ استطرافاً واحداً . وعندما نضع الأنابيب الشعرية فى قلب هذا الإناء ، فالسائل يصعد داخل هذه الأنابيب فوق مستوى الإناء ؛ لأن الضغط الجوى داخل الأنابيب يختلف بالنسبة لحجم المياه عنها فى داخل الإناء . وظن العلماء أن النبات يتغذى بهذه الطريقة .

ويقول هؤلاء : كيف هذا والسات يختار عناصر معينة من السائل ؛ بينما الأنابيب الشعرية يصعد فيها الماء بكل العناصر الموجودة فى الماء ؟ . إنك أيها العالم الذى ظن بالله من بؤرة شعورك قد تدعى أن الطبيعة هى التى تفعل ذلك ، ولا تلتفت إلى حقيقة وضحة وهى أن النبات يتغذى بالتسخير الربانى الخاص بعضاً من العناصر الموجودة فى التربة ، لا بخاصية الأنابيب الشعرية .

وصدق القول الحق :

﴿ مَتَجِمْ أَنْمَ رَبَّنَا الْأَعْلَى ۝ ١ ۝ الَّذِى خَلَقَ مَسْوًى ۝ ٢ ۝ وَالَّذِى قَدَّرَ لَهُدًى ۝ ٣ ۝ ﴾

(سورة الأمل)

سبحانه الذي قدر فهدى كل شيء إلى احتياجاته . ويقول الحق أيضاً :

﴿ يَسْقِي زَمْزَامًا وَحَدَّ وَقَصَّ نَبْعًا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَادِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة الرعد)

إذن فسبحانه يوحى لكل نيات بخاصية تكوين غريزي تختلف عن النيات الأخرى ؛ لذلك نجد الفلاح يضع شجرة الفلفل بجانب عود القصب ، بجانب شجرة الرمان ، فتجد الفلفل يرحح وله مذاق حريف ، والقصب له مذاق حلو ، والرمان له مذاق فيه الحلاوة والحموضة ؛ إنه يختلف عن القصب وعن الفلفل ؛ وهذا الاختلاف لم يتم بخاصية الأنابيب الشعرية . ويقول آخر : هذا الاختلاف إنما حدث بظاهرة الانتحاب الطبيعي . ويقول : ماذا لا تقول الانتحاب الإلهي وتشرح ؟

إذن فالوحي هو إعلام بحقاء ، وقد يكون مطموراً في تكوين الشيء بحيث إذا جاء وقته يتم عمل ، تماماً مثلما يلقى جرس المنبه في الميعاد المحدد . والوحي إلى الحيوان يتحدد في قوله الحق :

﴿ وَوَحَّى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

يَعْرِشُونَ ﴾

(سورة النحل)

ومن العجيب أن العالم الأمريكي الذي رصد حياته لدراصة النحل في أطواره وأصنافه وأجناسه وبيئاته ، قال : أول إنتاج للنحل كان في الجبال وأقدم عسل وجده الإنسان للنحل كان في الخلايا التي عثر عليها في الجبال . وبعد ذلك وجد الإنسان النحل وعسله في الشجر العالي الذي لا يملكه ، ثم استأنس الإنسان النحل وأقام له البيوت والبيوت والخلايا وي عرشون . ولم يهراً هذا العالم القرآن ليعرف المراحل الثلاث التي جاءت به ، لكنه درس بصدق البحث التجريبي ، وخرج بالنتيجة نفسها التي جاء بها القرآن . وفي كل وقت و زمان نجد عبثاً من الكافرين يكتشف أشياء تؤيد وتؤكد قضية الإيمان عند المؤمنين . أما الوحي بالسنة للإنسان فيأخذ أشكالاً أخرى ، يقول الحق .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَلَإِذَا خَضَتْ عَلَيْهِ قَالِقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾

(من الآية ٢٠ سورة النضر)

ولم يأت إلى أم موسى رسول يوحى إليها . لكن الأمر قد استقر في ذهنها ، وقد تعب العلماء كثيراً ليقربوا معنى الوحي لأذهانتنا ، فقالوا عنه . إنه عرفان بجده الإنسان في نفسه ولا يعرف مصدره ، ومع هذا العرفان دليل أنه من الله . ولذلك لا يطلب العقل عليه دليلاً . والذي يصدق على هذا هو أننا سمعنا قول الحق : «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم»

وبالله عليكم ، اجمعوا الدنيا كلها وقولوا لامرأة : إن خفت على ابنك فالقيه في البحر ، هل تصدق الأم ذلك ؟ لا يمكن ، لكن أم موسى أخذت هذا الأمر كمنصية مسلم بها ، فساعة دخل الإجماع من الله إلى قلبها ، أو الإعلام بحفاء إلى وجدانها آمنت به ، وما دام الإعلام من الله فلا شيطان يراسمه ، بل يدخل إلى النفس فتستقله استئصال اليقين والإيمان بلا مناقشة . وألقت أم موسى بابنها بعد أن أرضعته . وأراد الله أن يطعمها . فأوضح لها : أننا أصدرت الأمر إلى البحر ليلقى الرضيع إلى الساحل . وأصدرت الأوامر ليلتقطه اسدو فرعون . وأصدرت الأمر أن يقوم بيت فرعون بتربيته .

وبعد ذلك هناك وحي للحراريين . يقول الله

﴿وَإِذَا أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ إِسْمَؤِيلَ وَرَسُولُهُ قَاتِلُوا ۖ آمَنُوا وَآمَنُوا بِأَنَا

مُتَّبِعُونَ ﴿١١١﴾﴾

(سورة المائدة)

وهناك وحي للملائكة كقول الحق .

﴿وَإِذَا يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيُّ مَعَكُم مَّقَاتِلُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَاطِي فِي قُلُوبِ

الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعَبَ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

الوحي يتتلمذ ويشمل - إذن - كل أجناس الوجود بطريقة نحوية عند عالم حفي

عنا ، وهم الملائكة ، وعالم ملحوظ لنا ولأمثالنا مثل الخواصين ، ومثل أم موسى .

وساعة يقول : « أوحينا » ينهنا إلى أن الإعلام بخفاء أمر غير مقصور على الله ؛ ذلك أن الشياطين يرحلون إلى أوليائهم :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَنِّدُوهُمْ وَإِنَّ لَهُم مَّا يَشْتَرُونَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

ويقول أيضاً عن الشياطين :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَبَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن الوحي هو إعلام بخفاء ، وليس الأمر مقصوراً على الحق سبحانه وتعالى ، بل يصح أن يكون الوحي من الله ، أو من الشياطين ، أو من جنود الشياطين .

وقد يكون الوحي إلى الجهاد وإلى الحيوان وإلى الملائكة وإلى الإنسان .

وعندما نحدد معنى الرحي فإننا نقول :

الرحي في اللغة إعلام بخفاء من أي - سواء أكان من الله أم من الشياطين - ولأي ما - سواء للأرض أو للحيوان أو للإنسان - وفي أي - سواء في خير أو شر - .

وكلمة « وحي » تصلح لأي معنى من هذه المعاني بحيث إذا أطلقت انصرفت إليه . ولكن في بلغمي الشرعي لا تطلق إلا على الإعلام بخفاء من الله لرسوله ، ومثل ذلك حدث لمعنى الصلاة ، فالصلاة معناها الدعاء ، وهناك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والصلاة المكتوبة هي الأقوال والأفعال ، وأخذ

الشرع معنى الصلاة واصطلاح على أن كلمة الصلاة حين يطلعها المعنى تصرف إلى الأقوال والأفعال المحصورة المبتدأة بالتكبير والمحتمة بالتسليم .

وفي هذا المعنى الشامل للصلاة نجد سيدنا عمر - رضي الله عنه - وقد دخل عليه حذيفة فسأله : كيف أصبحت ؟ أجاب حذيفة : أصبحت أحب الفتن وأكره الحق وأصل بغير وصوه وفي في الأرض ما ليس لك في السماء . وغضب سيدنا عمر ، ولولا دخول سيدنا علي بن أبي طالب لكان لسيدنا عمر شأن آخر مع حذيفة

وسأل علي عمر : ما يخصبك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : سألت حذيفة كيف أصبحت فقال كذا وكذا فقال علي - كرم الله وجهه - : نعم يا أمير المؤمنين ، أصبح يحب الفتن ، أي يحب ماله وولده ، فالحق قال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، وهو يكره الموت والموت حق ومن مينا يحبه يا أمير المؤمنين ؟ وهو يصلي بغير وصوه على لسان الله عليه وسلم ، وله في الأرض زوجة وله ولد وهو ما ليس لك في السماء .

إذن فقد أخذ حذيفة الفتن على معنى مخصوص ، وكذلك الموت ، والصلاة . وضربت هذا مثل لأفترق بين المعاني الشرعية والمعاني اللغوية

وبوضح الفارق بين معنى الوحي الاصطلاحي ومعنى اللغوي ، المعنى اللغوي للوحي هو . إعلام بحفاء من أتى لأتى بأي . والوحي بمعناه الشرعي . إعلام بحفاء من الله لرسوله . وكل الألوان الأخرى من الوحي نأخذها بالمعنى اللغوي .

وقوله الحق ها في الآية التي نحن بصدد ها : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح » . و « أوحينا » ها قد جاءت للإعلام بحفاء من الله لرسوله ونعلم أن صفات الكمال للحق سبحانه وتعالى هي صفات الكمال المصطفى وكل الخلق مقدررون لقدرته سبحانه . ولا يمكن لأحد أن يتصل اتصالاً مباشراً بالأعلى المطلق . ولا يستطيع أحد أن يتحمل ذلك حتى الرسول . ولذلك يأتي الحق بنورانيين من الملائكة ليأخذوا منه ليعطوا للرسول . ويسبق ذلك إعداد الرسول لهذه المهمة .

إذن فامسألة تمر بمراحل تصفية ، الأعلى يعطى للملائكة ، والملائكة يعطون للمصطفى من الخلق ، والمصطفى مصنوع على عين الله ليتلقى الوحي ، ومن بعد ذلك يعطى الرسول لغيره من البشر . وكل ذلك لتقريب مسافات الالتقاء . وعلى رغم تقريب مسافات الالتقاء تحصل المرة من آخر مرحلة حين يستقبل من أدنى مرحلة ، فحين يستقبل لرسول الوحي من ملك تحدث له هزة . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن أول لقاء له مع الوحي :

(حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذني فغطى حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطى الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطى الثالثة ثم أرسلني . فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم)^(١)

وكان جيبه يتقصد عرفاً ، ورجف فزاده ودخل على روجه حديجة بنت خويلد فقل . « زملون زملون » فرملوه حتى ذهب عنه الروع . وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ فهذا الملك جبريل متصل بشعر هو محمد بن عبدالله ولا بد أن يحدث ذلك للرسول ، وذلك حتى يتكيف لاستقبال من الملك .

لكن أنظروا هذه الرغبة المتعبة ؟ لا ، إن الوحي يتر لمرة وتذهب عنه مناعبه فيشتاق الرسول إليه ويصير قادراً على تحمل مناعبه ، مثل نفصد الجبين بالعرق ، ومثل الثقل في الحركة حتى إذا جاءه الوحي وهو على دابة فهي تنط وتثن ، وإن جاءه الرعى وهو جالس وقعدته على فخذ واحد من الصحابة ، فيكاد ثقل الرسول يرض عظام الرجل ويكسرها ، كل ذلك من المتاعب تحدث للرسول في أثناء الوحي ، لأن تغييراً كبيراً يحدث في بدنه صلى الله عليه وسلم ليتأكد أن الكلام الذي يتلقاه ليس كلاماً عادياً ، لكنه كلام قد جاء بإعجاز ، وأنه من عند الله

(١) روى البخاري من حديث عائشة أم المؤمنين

لقد كان للوحي صلة صلة كصلة صلة الجرس . وكأن هذا الصوت إعلان أن زمن وسعة الوحي قد جاءت فاستعد لها يا رسول الله . وعندما تعب رسول الله صلى الله عليه وسلم في البداية ، كان من رحمة الله به أن جعل الوحي يفرغ عنه ، فيشتاق صلى الله عليه وسلم للوحي بسبب حلاوة ما أوحى إليه ، ويجعله هذا الشوق مستشرفاً لمتاعب . وعندما هز الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خصومه : رب محمد ودعه ونجاءه . ولم يتذكروا أن لمحمد رباً إلا في هذه المسألة بعد أن اتهموه بالكذب ولم يمتلكوا الدكاء حتى يعبروا عن هذا الأمر بتعبير لا يتناقض مع موقفهم السابق . وحين رأى الحق الإجهاد الحاصل لرسوله جعل الوحي يفرغ ، حتى تبقى حلاوة ما يوحى به ويذهب التعب ويشتاق رسول الله إلى ما يوحى إليه .

إن الشوق وتلك المحبة يجعلان رسول الله لا يشعر بوطأة الألم المادي البشري ، والإنسان منا حين يذهب إلى حبيب له يسير في الشوك والوحل ولا يبالي . إذن فنور الوحي كان لتربية الشوق في نفسه صلى الله عليه وسلم ليستقبل الوحي ، ولتنبه كل منا حين يقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَئِنَّ رَجُلًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾

(سورة الفصحى)

أي ان ما سياتى لك من بعد ذلك صبرك . ويقول الحق بعدها .

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنَتَكَ ۖ وَنَبِّئَكَ ۖ أَلَبَّىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ ۖ

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ

(سورة الشرح)

وحيين عرض الحق هذه المسألة بهذه الكيفية أراد أن يبلغنا : لا تظنوا أن رب محمد - كما يقولون - قد جفاه ، لا ، بل يعلمه ليستقبل أكثر مما جاء من قبل ، فسنن الكون أمامكم ، لكن كرههم أعمى أبصارهم وبصيرتهم ، ويقول سبحانه :

﴿ وَالْفُحَىٰ ۖ وَالْيَمِيلُ ۖ إِذَا جِئَ ۖ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا نَلَىٰ ۖ

(سورة الفصحى)

وسبحانه يقسم بما شاء على ما شاء . والفصحى هو ضحوة النهار وهي عمل الحركة

والكدح والجهد والجهد والتعب ، والليل محل الراحة والسكون .

كأن الحق يوضح : نكم إن نظرتم في آية الكون لوجدتم أن الله قد جعل الضحى للكدح والليل لنسكن فيه ، وفتر الرسمى هو سكون ليعلوه محمد نشاطه في حركة الوحى الجديدة ، هو الحق - سبحانه - يقسم : « والضحى . والليل إذا سجي . ما ودعك ربك وما قلى » أجيء الليل بعد النهار ضمن من الله على الناس بالنهار ؟ لا ، إك الليل عصاء من الله يسكنوا وليستقبلوا النهار الجديد .

وانزل سبحانه الآية التى نحن بصدده خراطونا عنها حينما سأل اليهود النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة)

فأمره الحق أن يوضح : أنا قد أوحى الله إلى كما أوحى إلى الرسل السابقين ، فهل أنتم شككتهم في وحى الله لموسى ؟ أشككتهم في وحى الله لمن سبق موسى ؟ صحيح أنكم شككتهم في مسألة عيسى ، لكن لنضع الأمر الذى تكذبون فيه جاساً ولناخذ ما أنتم مصدقون به ، فيقول سبحانه : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » .

إذن فأت يا محمد لست بدعاً في هذه المسألة : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » وهم العلماء على هذه المسألة مروراً سريعاً ، لكننا نقف عندها ونقول : قد يوحى هذا القول أن أول وحى كان لنوح . والحقيقة أن الوحى الأول كان لأدم من قبل ، لكن هك فارق بين الوحى لأدم والوحى للأنبياء من بعده .

ومثال ذلك نوح ، فنوح طرأ على أمته وكانت أمته موحدة ثم جاء هو إلى هذه الأمة مبشراً ونذيراً . أما آدم عليه السلام فقد طرأت عليه أمته ، لذلك لم يرسله الله بمعجزة ، فهو أب للجميع . والأبناء يقتلون الآباء ، بل حتى أبناء الملاحنة يقتلون آباءهم . وقد أوحى الله لأدم وقال له : (فلما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإرسال الهدى لأدم هو عجيء الوحى إليه .

ولماذا جاء نوح في هذه الآية أولاً ؟ لأن نوحاً عليه وعلى بيئنا الصلاة والسلام قد

وقد يقول قائل : إن عيسى أيضاً لم تنزل عليه أحكام في الإنجيل . ونقول : لأن الإنجيل يلتحم بالتوراة ؛ وجاء بالوجدانيات الدينية وكانت التوراة موجودة قبله وفيها الأحكام . ولذلك فمن عجيب أمر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أنهم على رغم اختلافهم في قضا الأمور وهي مسألة عيسى وأم عيسى ، جاءوا آخر الأمر ليلتقوا ويسموا الكتابين « العهد القديم » و« العهد الجديد » ويعتبروهما كتاباً واحداً يسمونه الكتاب المقدس .

وما معنى « الزبور » ؟ المادة كلها مأخوذة من « زَبَرَ البثر » ، فعندما يقوم الناس بحفر بثر ليأخذوا منها الماء ، يحافون أن يسهل التراب من جوانبها عليه فتطمر البثر ؛ لذلك يصنعون لجوانب البثر بطانة من الحجارة من فوقه للرفقة المصيرى . فبأنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت .

وكلمة « زَبَرَ البثر » تؤدي معنى كل عملية لإصلاح البثر ؛ ثم أخذ الناس هذه الكلمة في معاني مختلفة ، سمو العقل « زَبَرٌ » لأنه يعقل الأمور . وإذا كان السباح من الحجارة يعقل التراب عن البثر ويحميه ، فكذلك العقل يحمي الإنسان من الشطط وليضبط الإنسان حريته في إطار مسئوليته ليفكر ، ويعقل الغرائز عن المكاك بالإنسان إلى الشتات والضلال . ويغفل الناس في بعض الأحيان في فهم معنى « العقل » ؛ ويظنون أن العقل هو إطلاق الحبل على المارب للأفكار دون انتظام أو مسئولية ، ونقول : افهموا أولاً معنى كلمة العقل حتى تعرفوا مهمته

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا
لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا ﴾

والرسل الذين ذكرهم الله في الآية السابقة ليسوا كل الرسل الذين يحب الإيمان

بهم تعصيلاً فحسب ، فكما علموا في الأهر الشريف يجب أن تؤمن بحسنه
وعشرين رسولا وقد نظمهم بعض الشعراء في قوله :

في تلك حجتنا بهم ثمانية
من بعد عشر وبنو سبعة وهمو
إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، وكذا
دو الكفل ، آدم ، بالمختار قد ختموا

وفي سورة الأنعام نجد قوله الحق :

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ أَسْمَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٥١ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ
وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ٥٢ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ٥٣
وَلَتَعْمَلُنَّ الْإِسْمَاعِيلَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا حُكْمًا فَصَلِّ عَلَى الْعَنِينَ ٥٤﴾

(سورة الأنعام)

وفي هذه الآيات ثمانية عشر رسولا ، وبالإضافة إلى سبعة هم إدريس وهود
وشعيب وصالح ودو الكفل وادم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، هم إذن
حسة وعشرون رسولا ذكرهم الله ، لكن الآية التي تسبق الآية التي نحن بصددنا لم
يذكر الله كل أسماء الرسل وذكر أسماء بعض الرسل في سورة الأنعام وبعضهم في
سورة هود وبعضهم في سورة الشعراء ، ويقول الحق -

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّا تَقْصُصُهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ
اللَّهُ مُوسَىٰ تَخْلِيصًا ١٣٣﴾

(سورة النساء)

أي أن الخمسة والعشرين رسولا ليسوا كل الرسل الذين أرسلهم الحق إلى
الخلق ، فقد قال :

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

أى أنه قد قص علينا أعلام الرسل الذين كانت أعينهم لها كثافة لو حيز ووسع أو لوسلهم معهم عمل كتيب ، ولكن هناك بعض الرسل أرسلهم سبحانه إلى مائة ألف أو يزيدون مثل يونس عليه السلام :

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١١٧﴾﴾

(سورة الصافات)

وكان العالم قديماً في انعزالية ، ولم يكن يملك من وسائل الالتقاء ما يجعل الأمم تندمج . وكان لكل بيئة داءاتها ، ولكل بيئة طابع مميز في السلوك ، ولذلك أرسى الله رسولاً إلى كل بيئة ليعالج هذه الداءات ، ولا يذكر الداءات الأخرى حتى لا تشتغل من مجتمع إلى مجتمع آخر بالأسوة . وحين علم الحق معلمه الأزلي أن خلقه بما أقدرهم هو سبحانه على الفكر والإنتاج والبحث في أسرار الكون سينتكرون وسائل الالتقاء ، ليصير العالم وحدة واحدة ، وأن الشيء يحدث في الشرق يعلمه الغرب في اللحظة نفسها ، وأن الداءات ستصبح في العالم كله داءات واحدة ، لذلك كان ولا بد أن يوجد الرسول الذي يعالج الداءات المجتمعة ، فكان صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم والرسول الجامع والرسول المانع .

﴿وَوُسْلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَوُسْلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ

اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٢٨﴾﴾

(سورة النساء)

ويتكلم الحق سبحانه عن تاريخ السوات مع قومهم بكلمة « قصصنا » ولذلك حكمة ، فالقصص معناه أنه لا عمل في الأحداث للرسول ، بل تأتي الأحداث في السياق كما وقعت . وسبحانه يعلم أولاً أن خلقه سينتكرون فأسمه « فن القصص »

ومن العجيب أنهم يسمونه من القصص ، ويسج المؤلفون حكايات خيالية لو حكايات ليس لها واقع . وعندما يأتون إلى التاريخ الواقع يزيد المؤلف جزءاً من الأحداث أو يضيف من خياله أشياء ، ويقولون هذه متطلبات إثنان من القصص ،

ويعرّمون أنفسهم من أمانة النقل . ولذلك يأتي الحق ليوضح لنا أن القصة الخاصة بالرسول وبغيرهم في القرآن قصص واقعية ، حقيقية ، حدث فعلاً .

وكلمة « القصص » مأخوذة من قص الأثر لى أن يسير مع القدم كما تذهب ، فلا نذهب هنا ولا نذهب هناك . وحكايات الأنبياء في القرآن واقعية . ومن رواية الحق لأمس رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يرويه الحق لخلقهم ليسيروا على المنهج . وما يرويه الخلق بعضهم لبعض للتسلية أو غير ذلك . وبعد روايات الخلق نردحهم في بعض الأحيان بخيال البشر ، مثل روايات جورجى زيدان عن الإسلام والأنبياء ، وعندما سألوه لماذا أضف من عنده إلى الواقع ، أجاب الإجابة التقليدية : فعلت ذلك من أجل الحكمة القصصية .

ويجب أن نميز ونفرك بين روايات الخلق وقصص الحق ونضمه في بؤرة الشعور حتى لا يدخل أحد من خياله على قصص القرآن ما ليس فيه ، وحتى لا يأتي واحد ذات يوم ويقول : إن كل القصص واحد . فمن في القرآن لسا أمام مؤلف ، بل أمام الخالق الأعلى الذى يروى لنا ما يعلم . وسبحانه علم لزلأ ما سيدور في كونه ، لذلك قال :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَنِيمِينَ ﴾

(سورة يوسف)

وسبحانه قد قص على الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن أحسن القصص ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيعالج أجناس العالم الى توزعت على جميع الرسل من إخوانه ، وما دام عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على الرسل من إخوانه ، فلا بد أن يوضح سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده : أنه حدث مع الرسول فلان كذا ، وكان مبعوثاً إلى قوم كان موقفهم منه كذا ، وكانت دأائم ذلك المجتمع هي كذا وكذا . ومحمد صلى الله عليه وسلم - كما نعلم - موكلٌ إليه علاج كل أجناس البشر وكذلك أمته من بعده ، ولابد أن يعرفوا أخبار كل المجتمعات والرسل . (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن العالين) .

إن كلمة « قصص » تدل على أن حكايات حركة العقيدة التي كانت مع كل لرسول . والتاريخ - كما نعلم - هو ربط الأحداث بزمانها ، عمرة يجعل الحدث هو المؤرخ له ، ثم تأتي بأشخاص كثيرين يدورون حول الحدث . ومرة يجعل الشخص هو الأصل والأحداث تدور حوله . فإذا قلنا كلمة « سيرة » فنعني أننا جعلنا لشخص هو محور الكلام ، ثم نلحق الأحداث حوله . وإن أردنا لحدث ، يجعل لحدث هو الأصل ، والأشخاص تدور حوله

مثال ذلك : عندما تأتي لتكلم في حدث الهجرة ، يجعل هذا الحدث هو المحور ، ويدور كيف هاجر رسول الله ومعه أبو بكر ، وكيف هجر عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة ، وبذلك تكون الهجرة هي المحور وكيف دلو الأشخاص حول هذا الحدث التحليل

ومثال آخر : عندما يدور سيرة من السيرة ، مثل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، تجعل النبي صلى الله عليه وسلم محور الحديث والتاريخ ، ويدور كيف ظهرت الأحداث في حياته .

إن الخصال وقصص الرسل تكون هي المحور وينتقل الأحداث التي مرت عليهم ، لأن الرسائل هي تلك التي يتبع السيرة ، تنقسم إلى قسمين : قسم نظري يريد الحق أن يعلمه الحققة بواسطة الرسول ، وهو القسم العلمي ، فتدث قصايا يجب أن يعلموها وقسم عملي ، لأن الحق يريد من خلقه أن يعلموا ويريد منهم - أيضاً - بعد أن يعلموا أن يطوعوا حركة حياتهم على ضوء ما علموا . فليست المسألة وقامية علم ، ولكنها مسئولية تطبيق ما علموا في أمور « الفعل » و « لا تفعل » ولو كانت المسألة أن يعلم الحق فقط ، لكان من الممكن أن نقول : ما أيسرها من رحلة .

لقد وجدنا كفار قرش عندما طلب الرسول منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، قاموا بذلك ولو كانوا يعلمون أن مجرد كلمة يقال نفاقها لكنهم عرفوا مطلوب الكلمة ، وعرفوا أنه لن توجد سيئة ولا عبودية ولا أوامر لأحد غير الله ، ومعنى ذلك المساواة المطلقة بين المباد

إذن فكل تكليف من السماء إنما نزل ، والقصد من العلم به هو العمل به ، أي توطيف العلم تطبيقاً ، فلا قيمة لعلم دون عمل . وعندما يبلغ الرسول القوم : هذا هو الحكم ، ومطلوب من كل واحد منكم أن يطويع حركة حياته على ضوء هذا الحكم . ونجى الأحكام دائماً في طاقة البشر .

وهناك أناس قد علموا وعملوا وهذه هي قصصهم ، هذه قصة فلان وقصة علان . فالتقصص بعطفا بجانب العمل المطلوب للمنتج ، ولذلك قصص لنا حق قصص الرسل في القرآن . ويبلغنا الحق بالنسب الإيماني ، ويعلمنا النسب المعترف به عند الأنبياء ، فيحكى قصة نوح عليه السلام ، عندما أوحى إليه بضرورة أن يصنع السفينة ، وسخر قومه منه ، وبعد أن صنعها جاءه الأمر الإلهي بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . ويوصل الحق : . . .

﴿ وَيَضَعُ الْمَلَكُ نُكُتًا مَرَّةً عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ تَحِيْرًا مِثْلَ قَالَ إِنْ تَسْحَرُونَ ۖ
قَدْ تَسْحَرِمُسْكُ كَمَا تَسْحَرُونَ ۖ ﴿٤٨﴾ فَتَوَفَّيْتَهُنَّ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۖ ﴿٤٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ
إِلَّا قَلِيلٌ ۖ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة هود)

قوله الحق « إلا من سبق عليه القول » كان يجب ألا تمر على فطنة نوح ، ذلك لأنها تتضمن أن هناك أناساً من أهله لم يؤمنوا ، يقول لابنه :

﴿ وَبَادَىٰ نُوحٌ أَبَاهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَتَّبِعُ آرَگَبَ مَعًا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة هود)

وكان الرد .

﴿ قَالَ سَعَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

فقال نوح :

﴿ قَالَ لَا عِصْمَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة هود)

وبعد أن غرق ابن نوح وابتلعت الأرض مائه ، نادى نوح ربه فقال :

﴿ رَبِّ إِنِّي آتِيكَ مِنْ قَبْلِ وَإِنْ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة هود)

نحن - إذن - أمام لفظة قصصية في قصة نوح - يلتفتنا بها الحق إلى مسألة بنوة الرسالات ، عابثة هنا منهجية - ومن يتبع النبي هو الذي يكون من نبيه - ومن لا يتبع النبي فليس من نبيه ؛ لذلك قال الحق - (يا نوح إنه ليس من أهلك) فإهل النبوة هم الذين اتبعوا منهج النبي - وشرحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال من سلمان الفارسي :

(سلمان منا أهل البيت)^(١) .

ولم يقل : إن سلمان عربي ، أو إنه من المسلمين ، لكنه قال : إنه من أهل البيت - وقد أوضح الحق ذلك في قصة ابن نوح (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح)

وعاصر في معنى « ليس من أهلك » بعض الحائضين بالخمر وقالوا : إن أم ابن نوح قد عصب السوء ، وهؤلاء نقول : استصغروا ربكم وانظروا إلى حبيبة الحكم

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِتْرَ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة هود)

يجزئ نسبة الأبناء للأباء من الأنبياء نسبة عمل لا نسبة دم ولا نسبة عن رواج أو محاببة ، أما الذين قالوا السوء في امرأة نوح فعليهم أن يستصغروا الله ، فأحق

١ رواه الحاكم في المستدرک والطبرانی في المعجم عن عمرو بن موف

سبحانه منزّه عن التدليس على رسوله . وهب أن أم الولد قد فعلت ذلك . معاذ الله .
لها ذنب الولد حين تصير أمه إلى هذا ؟ لا تدخل للولد بذلك ، لكن قول الله : « إنه
عمل غير صالح » يدل على أن ثبوت البينة الإيمانية يكون بالعمل فقط .

ولنتظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهله وعشيرته . . فعن أبي هريرة
رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتكم الأقربين ، جعل النبي صلى الله
عليه وسلم يدعو بطون قريش بطنا بطنا : يا بني فلان أنقلوا أنفسكم من النار حتى
انتهى إلى فاطمة فقال : يا فاطمة ابنة عمك انقلني نفسك من النار لا أملك لكم من
الله شيئا غير أن لكم رحما سابها بيلها) (١) .

ويضرب الله المثل في الزوجات : فيقول .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا
صَالِحِينَ فَتَمَنَّاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْعًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (١)
(سورة التحريم)

وليس المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية ، لكن نستدل على أن الرسول وإن
كان رسولا ليس له من القدرة على أن يقهر زوجته وامرأته على عقيدة ، فهي تملك
حرية الاعتقاد ، فلا ولاية هنا للرجل على المرأة في العقيدة حتى إن ادعى الألوهية ،
كفروهون مثلاً يقول الحق عن امرأته :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي
الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

(سورة التحريم)

هذه اللفظيات تدلنا على أن قضية الإيمان لا يجمع فيها النسب أو الزواج . فالابن
هو العمل الصالح ، والحينية في ذلك قول الحق عن ابن نوح : « إنه عمل غير
صالح ، فلم يذكر ذات الابن ولكنه ذكر العمل .

ولكل نبي قصة يذكرها الحق ليوضح المنهج في أخلاق الناس . وبأن الله بالمثل في

لصطفى الأخيار الذين اصطفاهم الله هداية الناس مثل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي ابتلي به - سبحانه - في أول حياته بالإحراق في النار . كان إبراهيم شاباً تراء بالأمل في الحياة ، فماذا كان من إبراهيم ؟

أراد الحق مجازة إبراهيم من النار وتركهم يشككون منه ويصممونه في قلبه النار . لم تحترق السماء بنظم النار ، وكل ذلك لتكون حجة الحق واضحة ، وحتى يكون يد الله كاملاً هؤلاء الكافرين . إن إبراهيم عليه السلام لم يهرب منهم ، ولم تحترق السماء ، بل ظلت النار داراً يعطى سبحانه ما موسى النار حين دخلوا إبراهيم إليها

(روى عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم حين فودوه يلقيه في النار قال لا إله إلا أنت سبحانه رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك شريت لك قال - ثم رموا به في المنجنيق من مغرب شامع فاستقبله جبريل قال يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا فقال حمز بن قاسم ربه ، قال حسبي من سؤالي عذمه بحالي فقال الله : يا غر كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)^(١)

وفي هذا عيظ ودحض لمكر الذين يكررو إبراهيم إفتد يعطى الحق في التخصص لقراى لكل لجمع من حيلة كل رموز العبر ويستفيد منها ، لتكون بحق خير أمة خرجت للناس ، لأننا أخذنا تجارب كل رسول وجمعناها سبحانه لنا في حياتنا

ولقد ابتلى الحق إبراهيم في أول حياته في نفسه ، وابتلاء في آخريات حياته في ، وجميع إبراهيم في الابتلاء الأول حين كانت حياته أهم بالنسبة إليه من كل ، وسوى يتقدم في الس ، فمن المفروض أن تكون كل حياته لم بعده من أبناء فيبتليه الله في ابنه . لم يقل له : إن ابنت سموت وحيث بالصبر . ولم يقل : إن واحداً سيقتل ابنتك وعليت بالصبر بل يأمره ببيع بنة ، تلك عمة (ابتلاء) لأنه لم يأت برسى مباشر كالصمت في القلب أو الكلام من وراء حجاب أو رجل له الله ملكاً يلفه ما يريد ، بل يروها صامية (قال يا بني إني أرى في المنام أن

(١) تفسير القرطبي وذكر سيرة ابن كثير في تفسيره والخشوي في التكتاف

أفبحك) . ويقول إبراهيم لابنه المسألة كما رآها في المنام . والرقيا عدد الأنبياء حق

وقد يقول قائل : ولماذا لم يرد إسماعيل عن أبيه بأن هذه المسألة هي مجرد رؤيا ؟ ولماذا لم يأخذ إبراهيم ولده عن غرة دون أن يقول له ؟ .

ونقول : إن إبراهيم من فرط وشدة حنانه وحبه لابنه آثر أن ينال الابن التواب العظيم والجزاء الجليل بأن يقتل ويقدم حياته امثالاً لأمر الله ، فقال إبراهيم :

﴿ يَبْنِي لِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وها هوذا قول إسماعيل :

﴿ قَالَ بَنَيْتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ولم يقل إسماعيل لأبيه : « افعل الذبح » ولكنه قال : « افعل ما تؤمر » أي أن إسماعيل لم يأخذ الكلام على أنه كلام من أبيه ، بل اخذه كأمر من الله . ولو أخذ أبوه على غرة قد يتحرك قلب الابن غيظاً على أبيه وحقداً عليه فيعتدى على الأب ، وهنا نجد حنان الأب على الابن جعله يخبره بالأمر الآن من السماء ، والشأن في حنان الأب على الابن أن ييسر له كل أمور حياته . أما حنان الحنان فهو تيسير كل حير بعد عاته ، لذلك لم يشأ إبراهيم أن يحرم إسماعيل من الامتثال لأمر الله ، فينال الاثنان معاً شرف الامتثال لله . وأعطاه كل الحنان في الزمان الأبقى والزمان الأخلد في الدار الآخرة ، حتى تعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد منا إلا الامتثال لفضائه وقدره ، ويقول الحق :

﴿ قَلْبًا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾

(سورة الصافات)

هذا شرف الامتثال في تسليم لله . . ففي البداية أسلم إبراهيم أمره لله ، وعندما عرض الأمر على ابنه سمع الابن أمره لله ، فقال الاثنان منرة الشرف في التسليم لأمر الله . ونجح الاثنان في الاختيار ، فقال الحق :

﴿ وَتَدْبِرْتُهُ أَنْ يُزَارِعَهُمْ ۖ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَبُكَ تَجْرَى الْمُنْجِسِينَ ﴾ (١١)

(سورة الصفات)

لقد أنقذ الحق إبراهيم ودينه من مسألة الدج ، وهذا يقول دائماً لا يُرمع نصاء من الله على خلقه إلا أن يستسلم الخلق للقضاء ، والدين يطولون أمد لقضاء على هوسهم هم الذين لا يرمعون به ، واتحدى أى إنسان أن يكون الله قد جرى عليه قضاء مرض فبرص به ويعتبر أن ذلك صفة اليقين ، ولا يرفع الله عنه مرضي فالإنسان بالصحة يكون مع نعمة الله ، ولكنه بالمرض يكون مع الله

فقد حدثنا أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعصى . قال : يا رب كيف أمرضك يا رب المصلين ؟ قال أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ ! أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟)^(١)

من إذن يجرؤ على الزهد في سبب الله ؟ وعندما يعرف المريض أنه في مرضه الذي يتألم به هو في سبب الله لاستحي أن يقول : آه ، ، ونكنا لا نطلب من المريض لا يقول : آه ، ، ولكن نطلب منه أن يتوجه إلى الله ويقول ، ، ولكن عافيتك أوسع

٤٠

وقول الحق : (فلي أسأله وتله لتجيب) هذا القول يطلنا على أن القضاء لا يُرفع إلا بالرضا به ، فإن رأينا واحداً قد استمر معه القضاء فنعلم أنه لم يحى ولم تمت عليه لحظة رضى فيها بالقضاء ولم يرفع الله القضاء فقط عن إبراهيم ، ولم يعد إسحاق فقط بل أصبح عظيم ، بل بشر الله إبراهيم بولد آخر هو إسحاق

﴿ وَفُتِّرَتْهُ بِأَحْسَنِّ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ (١٢)

(سورة الصفات)

وما هي ذى نقطة أخرى مألوفة من القصص القرآني مع سيدنا موسى ؟ لتبين إذا يصح التهج الإلهي من المتع به ، وحدثت هذه القصة في وقت تهيئة سيدنا

(١) من حديث أبي هريرة روى مسلم في صحيحه في كتاب البر

موسى للرسالة ، حدثت هذه الواقعة وهو ذاهب إلى شعيب ، ولم يكن رسولاً بعد ، مما يدل على أن نظرية الإيمان كانت موجودة عنده ، وأن الله قد صمعه على عبده ، لقد ورد ماء مدين ووجد الفئتين تئودان وتهدران الماشية عن الماء ، فهذا دار بينه وبينها من حرار ؟ . وكيف كانت رؤيته لها أولاً .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبْرَأَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢٢)

(سورة القصص)

وفي قول المراتبين : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبرأ شيخ كبير » قدر من المبادئ ، فخروجها من البيت سببه أن الأب شيخ كبير ، ومع أنها في ضرورة وخرجتا للعمل فلم تنس واحدة منهما أنها أئمة يجب أن تحترم أنوثتها فقالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء » أى أنها ستسقيان من بعد أن يذهب الزحام من الرجال حول البئر . إذن فقد أخذتا بتنا شعيب الضرورة في حجمها ولم تتخذ إحداهما من الضرورة حجة لإهدار الأنوثة والتزامم للوصول إلى البئر . فلماذا حدث من موسى ؟ . (فسقى لها) .

تلك المهمة الإيمانية التي وجدت في موسى قبل أن يصير رسولاً ، وذلك ما يوضحه لنا الحق حتى لا يقول إنسان . كيف أكون مثل رسول من عند الله ؟ .

كان المهمة الإيمانية التي وضفتها تلك اللقطة القصصية توظف مسئولية كل مؤمن بيسلك مثل هذه السبوك . فعندما يرى امرأة قد خرجت عن محيط بيتها لأى عمل ، عليه أن يقضى لها حاجتها حتى ترجع إلى بيتها وذلك دون أن يتحد من ذلك قوينة ووسيلة إلى أمر يبرل بهمة وينال من مروءته . ولو انتشرت بيت تلك المهمة الإيمانية لما وجدنا امرأة في الطريق إلا للضرورة . لقد أوضحنا لنا تلك اللقطة القصصية حرص المرأة على موضعها وموقعها من السر ، فتقول واحدة من المراتبين لأبيها شعيب بعد أن استقدمه ليجريه أجر ما سقى لها :

﴿ يَنَاتِ اسْتَفْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مِّنْ اسْتَفْجَرْتُ الْقَوَى الْأَمِينَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة القصص)

كان لمرأة لا يمن لها أن تتحرك في الكون هذا الملوك من الحركة بواسطة ، ويسمع
شعيب وهو الرجل العاقل لابنته فكيف يستأجر رجلاً وعنده ابتنان ، ففكر شعيب
ويعثر على الحل الصحيح يعطيه إيمانية ، فاستدعى موسى ويقول له

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ مَعَهُ عَلَى مَا نَمُنَّ بِكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَتَّى يُخْرِجَ اللَّهُ الْظُلْمَ﴾

(سورة القصص ٢٧)

وفي مثل هذه الحالة سيكون موسى منزولاً بواسطة ومحرراً عن الآخرى

وهذه اللقطات القصصية نلتفت إليها لنستفيد منها المعنى الإيمانية . وهذا هو
أولاً مع موسى وقد ناداه الحق بجعله رسولاً ، ولما جاءه النفس الإيمانية وهي
تنطق بمهمة الرسالة ، إن موسى يرغب في أن يكون نداءه برسالة كاملاً ، لذلك
يطلب من الحق أن يرسل معه أخاه هارون

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي رَبِّ الْوَسِيلَةِ يُبَيِّنُ رَأْيِي وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

﴿يُكَذِّبُونَ﴾

(سورة القصص)

هو يشرح مع هارون برسالة لأنه خبير على السجاح في دهره لأن سببه تقبل
بركة ولثمة وترجع في النطق من أثر الجحمة التي أصاب بها لسانه وهو صغير ، والرسالة
تحتاج إلى بيان وبلاغة يطلب مساعدة أخيه ولم يستكف ذلك . فما بال هو حاد
وحاصل في إيمانه ، حين يختار الحكيم ريثب لدرره فلا يطلب معونة الأكفاء ، هو
قد يخشى أن يكون له نائب له كفاءة عالية هو كفاءته

واللقطات القصصية في القرآن تعلمنا الكثير ، وأراد الحق أن يثبت به للأمة
المحمدية ثقة المنهج الإيماني ، فإدام قد أرسل له مبعوثاً لتعلمه ، فهو يطلب ما أود
فليس هذا المنهج وموقفه في حياته . وليس ذلك بدعا ، بل هو موجود في قصص
الرسول الذين عيى المنهج فطبقوه في دوائهم أولاً ، لأن الأمة أن تعلم الحق
ولا يطعمه

وفي زماننا يقال ويشاع إن التعليم الديني في المدارس لا يأتي بشيء طيبة في صوته

الطلاب ويقول لمن يرددون ذلك : أنتم لا تفهمون طبيعة التعميم الديني ؛ فتعلم الدين لا يمكن أن يتساوى مع تعليم الجغرافيا أو الهندسة وغيرهما من العلوم ؛ لأننا عندما نعلم طالباً الهندسة فهو يستطيع أن يكون عالماً متفوقاً فيها ويأخذ المعطيات والنظريات ويتفوق في المجال الهندسي ، ولكن لم نطلب منه أية نظرية هندسية أن يعدل سلوكه في الحياة بأن ترشده في السلوك اليومي ؛ الفعل كذا ولا تفعل كذا .

فالنظريات الهندسية لا تتدخل في حياة الطلاب ، لكن الطالب عندما يتعلم الدين إنما يتعلم أن يفعل الأمر الديني ، ولا يفعل الأشياء المنهي عنها . والصعب في التعليم الديني هو التطبيق العملي . وعندما لا يرى التلميذ التطبيق العملي من الدين يعلمونه الدين أو من الأسرة ، فإنه لا يتعلم الدين ، فيقال للطلاب : الدين يهي عن الكذب ، لكن الطالب يجد الكذب سلعة رابحة في المجتمع . ويقول الدين له : الصلاة عماد الدين وتنتهي عن الفحشاء والمنكر ، ولا يجد الطالب من يصل إمامه أو يجد من يصل ولا يقيم عمارة الدين باتباع ما تأمر به الصلاة من شيء من المنكر ، إذن فشل التعليم الديني لا يأتي من ناحية غياب المعلم ولكن من عدم وجود التطبيق العملي للسلوك الديني .

ويعود للفصل القرآني جاء الفصل ليوضح لنا التطبيق للمجانب النظري من الدين ، وطمأن الرسل على أنفسهم . وأنتم يا أمة الإسلام لستم أقل من أحد ، بل أنتم خير أمة أخرجت للناس ، وعليكم أن تأخذوا الخير الذي حدث في موكب الرسالات كلها وتطبقوه في ذواتكم

هذا هو معنى قوله الحق : «ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك» . وقد جاء لنا القرآن بعيون القصص حتى تأخذ منها لقطات العبرة ويقول قائل : ومن هو الرسول ؟

يقول العلماء هناك رسول وهناك نبي وأقام بعضهم مشكلة حول هذا الأمر ، فقال بعضهم كل رسول نبي ولا عكس ونقول لأصحاب هذا الرأي : لو نظرنا إلى المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لأرحنا أنفسنا جميعاً ، فالقرآن يقول :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾

إذن فالنبي أيضاً مرسل من الله ، وعمل ذلك فكلامهما - النبي والرسول - مرسل من عند الله ، لكن يوجد فرق بين أن يرسل الحق تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مستوعباً لأغنياء وأحكام م تكن موجودة في الرسالة السابقة عليه ، وبين أن يأتي إنسان مصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء في الرسائل السابقة ، فالأنبياء أُرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو من أُرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحق بتطبيقه . هذا هو الزائد مهمه رسول

إن الحق أُرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأُرسل الحق الأنبياء ليكونوا الأسوة المبدئية فيطبقوا ما أُرسل به الرسل السابقون عليهم ، وهذا أمر لا يأتي في الأمم التي لها سجل في التكابر مع الرسل

وبذلك نجد أن اللجنة دفعت بني إسرائيل إلى التصاغر بأنهم أكثر الأمم أنبياء صحيح أنهم أكثر الأمم أنبياء . لكن علينا أن نعرف أن النبوات والرسالات إنما تأتي لتشفي الناس مما بهم من داءات ، فصنعنا نقول عن إنسان إنه أكثر الناس تردداً في الأخطاء ، فمعنى ذلك أن أمراضه كثيرة ، وكذلك بنو إسرائيل كانت دوائهم كثيرة وكثرة الرسل إليهم لا ترفع من منزلتهم ، بل تدل على كثرة أمراضهم

إذن فالرسول والنبي كلامهما مرسل . والفارق أن الرسول معه تشريع سيلا ليعمله ويعتبه ، والنبي مرسل للتطبيق ، فإن جئنا بمعنى الرسول اصطلاحياً ، في المعنى إليه بشرع يعمم به وأمره الله بتطبيقه ، وبذلك الحق الآية . « وكلم الله موسى تكليماً » ولأنك أن موسى كان من هؤلاء الذين الذين شملهم قوله الحق . « أوحينا » ولما نزل إلى موسى يقول : « ولما دعى الله موسى بقوله » « وكلم الله موسى تكليماً » ؟ .

ونقول : الروح الذي يوحى الله به لأنبيائه هو الروح الاصطلاحي الشرع الذي نتكلم عنه فوق الوحي المسمى الذي سبق أن أفضنا فيه . والحق سبحانه وتعالى قد بين الطريقة التي يخاطب بها أنبياءه المصطفين لأداء رسالتهم إلى خلقه فقال

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ

بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾

(من الآية : ٥١ سورة الزمري)

إذن ، فطريقة التقاء الحق بالأنبياء : إما أن تكون بالوحي ، وإما أن تكون من وراء حجاب ، وإما أن تكون بإرسال رسول كجبريل عليه السلام . فلذا ما نظرنا إلى الآية وجدنا أن الوحي ينقسم إلى ثلاثة أقسام . وحي شخصي ، وكلام من وراء حجاب ، وإرسال رسول ، وكل هذه الأقسام الثلاثة تدخل في إطار الوحي ، وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً .

أي ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا إلهاماً وقلناً في القلب ، أو بكلمة « من وراء حجاب » وهو كلام من الله يسمعه الرسول ، لكنه لا يرى المتكلم وهو الله . أما الوحي بواسطة الرسول ، فهو نزول جبريل إلى الرسول بما أوحى به الله .

فلذا ما نظرنا إلى قوله الحق : « وكلم الله موسى تكليماً » فكانه سبحانه قد خصه بهذه العبارة ليدل على أنه أوحى لموسى بطريقتين ، أولاً : بالطريق الذي أوحى به إلى غيره من الأنبياء ، ثانياً : بالطريق الخاص وهو كلام الله الذي بدأ به موسى بالوحي المقدس .

وقوله الحق : « تكليماً » يدقنا إلى التساؤل : لماذا جاء الحق بالمصدر هنا ؟ لأن مطلق الوحي بأي وسيلة سواء الله كلاماً ، إذن فالنسخ في الرُّوح كلام ، والكلام من وراء حجاب كلام ، وإرسال الرسول بالوحي كلام . والكلام هو ما يدل على مراد المتكلم من المخاطب ، بدليل أن الله سمي الوحي في صوره الثلاث كلاماً « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » .

والخلف في الوحي إما أن يكون خفياً في الأسلوب ، أي لا يسمعه أحد غير الرسول ، وقد لا يسمعه الرسول ويكون بقذف الكلام في رُوح الرسول وقلبه وهو يؤدي مؤدى الكلام أي الدلالة على ما في نفس المتكلم الذي يريد نقله للمخاطب .

أما أن يقول الحق إنه تكلم مع موسى ، فهذا نقل من الخفاء إلى العلن ، أو سل الحق رسولاً بالكلام الوحي به . وحيث قال سبحانه : « وكلم الله موسى تكليماً » إنما يجهل إلى أن الوحي لموسى ليس من الكلام الذى قسمه الحق إلى قوله وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ، لأن له قال فى كلامه لموسى : « وكلم الله موسى تكليماً »

ووقت العباد هنا وقفة عظيمة وقالوا : كيف يتكلم الله إدب ؟ ونقول : إن كل صفة لله ويوجد مثله خلقه إنما تأخذه بالسبب لله فى إطار (ليس كمثله شيء) فإن الله وجوداً وللإنسان وجوداً ، وجود الإنسان ليس كوجود الله ، وإن بنا : إن الله علي ، والإنسان علياً ، فعدم الإنسان ليس كعدم الله ، وإن قلنا : إن الله ، قدير ، وللإنسان قدرة ، فضعف الإنسان ليست كضعف الله ، وإن قلنا : إن الله ، سواء على العرش وللإنسان استواء على الكرسي ، فامتزاج الله ليس كامتزاج الإنسان . إذن فلا بد أن تؤخذ كل صفة من صفات الله التى يوجد مثله فى البشر فى إطار قوله

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الشورى)

وبذلك ينتهى الخلاف كله فى كل ما يتعلق بصفات الحق .

فالحق له يدان وبه وجه ، ولكن لا يمكن للإنسان أن يصور يد الله كيد البشر ، نأخذها فى إطار ليس كمثله شيء ، وكذلك وجه الله ، وما دما نأخذ صفات الله ، إطار ليس كمثله شيء ، فلا داعى للمبركة الطحينة بين العلماء فى الصفات وفى بويل الصفات ، ولا داعى أن ينقسم العلماء إلى عالم يؤول الصفات وعدم لا يؤول ، داعى أن يقرن عالم إلى يد الله من قدرته فيؤول ، وعالم آخر لا يؤول ويقول : إن الله يدأ ويسكت . ويقول للعالم الذى لا يؤول قل : إن الله يدأ وهو أحسن قوله . « ليس كمثله شيء » وإذا كنا نحن قد عرفنا أن العالمات الأشياء تختلف مواسمها فى الناس باختلاف الناس ، فلا بد من أن نعرف أن الله لا مثل

وهو سبيل المثال : يتلقى الإنسان دجوة لائلة صلبة قرية ما ، فيقدم له الزمان

طعام تناسب مقام لقرية ومنصب لقيادة فيها ، ويتلقى الإنسان دعوة لمائدة محاط مدينة فيقدم له طعاماً يناسب مقام المدينة ومنصب القيادة فيها . ويتلقى الإنسان دعوة رئيس لدولة فيقدم له طعاماً يناسب مقام الدولة وهيئة منصب القيادة فيها ، إذن لا تتساوى مائدة طعام العملة في قرية مع مائدة طعام المحافظ مع مائدة طعام رئيس الدولة ، فإذا كان في البشر يوجد الشيء الواحد وهو ملون بالون مقامات المحبوبين فكيف لنا بمقامات الخالق ١٩ « ليس كمثل شيء » .

فإذا كان الحق قد أخبرنا أنه كلم موسى تكليماً في قصة الوادي عندما آتاه موسى ناراً وذهب إلى النار . فقال الحق :

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْطَعْ تَعَلِّيكَ إِنَّكَ بِأَنوَادٍ أَمْعَدَسٍ طَوًى ١٢ وَأَنَّ أَحْسَنُ نَفْسٍ قَسَمْتُ لِمَا يُرْحَى ١٣ إِنِّي نَأَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ١٤ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا يُخَرِّى كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ١٥ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّعَ هَوَاهُ فَنَزَدَى ١٦ ﴾

(سورة طه)

قال له الحق كل ذلك ، وبدء مسجده بالكلام . وبعد ذلك جاء لموسى الوحي على طريقة مجيء الوحي للأنبياء .

والحق سبحانه وتعالى أوحى إليه صلى الله عليه وسلم عن شق ألوان الوحي . فقد جاء الوحي لرسول الله إلهاماً ، وجاء الوحي لرسول الله من وراء حجاب ، وجاء الوحي لرسول الله من خلال رسول .

ومثال الوحي إلهاماً هو الحديث القدسي ، وكذلك التشريع السوي الذي تركه لك الرسول صلى الله عليه وسلم . ومثال الوحي من وراء حجاب هو التكليف بالصلاة ، فلم تفرض الصلاة بواسطة جبرين ، بل فرضت من الله مباشرة .

ولا أدخل في نقاش لا حدودي منه حول أحين فرض الحق على رسوله الصلاة كلمه وسمع منه رسول الله ، أم أن رسول الله قد رأى الله وهو يتكلم معه لا داعي

بمخصوص في أمر لم يغير الله من كبريته ، والأدب مع الله يقتضي ذلك قال تعالى
« ولا تقف ما ليس لك به علم »

وإن القرآن لم يثبت بأية طريقة من طرق الوحي إلا بإرسال رسول ، فكل وحي
القرآن جاء بواسطة جبريل ، فلم تأت أية بالتمخ في الروح إنما جاء بالتمخ في
الروح الحديث القدسي : لأن التمع في الروح قد يتصور واحد أنه خاطر من البحر أو
أمثال ذلك . وجعلت كل الآيات القرآنية بواسطة جبريل ، بمقدمات يديه ، ويحدث
بغير كبرياء في نفس رسول الله فلا يشك أبداً في أنه جبريل وأراد الحق أن يكون
الوحي بالقرآن بطريقة لا شك فيها

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع صوتاً كصلصلة الحرس ، وبعد ذلك
يتمدد جبين الرسول هزاً ، وينقل جسم رسول الله حتى إن كان على دابة فهي تنط
وتس وينقل عليها وتكاد أن تس بطنها الأرض وإن كان رسول الله يلاحظ محله
فخذ أحد الصحابة ، فيكاد أن يرمى فخذ الصحابي ، وذلك علامات مادية كبرى ،
لا يمكن أن يحدث فيها ليس .

ولقد قالوا من قبل استناداً إلى ظاهر قوله

﴿ وَتَوَاتَا أَفْئِدَتُهُمْ بِحَدِيثٍ مِنْ رَبِّهِمْ لَقَالُوا رَبَّنَا لَا تُؤْتِنَا إِلَّا رَسُولًا

فَتُخَيَّرَ بَيْنَ نَبِيِّكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَتُخَيَّرَ ۝ ﴾

(سورة طه)

لو لم يرسل الحق الرسول لكان لهم حجة . ونقول للملأمة : تفهم هذه المسألة
حتى يوضح لكم أنكم تختلفون في أمر كان يجب عليكم ألا تختلفوا فيه . العقل
يعلم الإنسان المطلوب الله منه ؟ أم أن العقل يهدي إلى وجود قوة أعلى خلقت هذا
الكون وتديره ؟ . وما اسم هذه القوة ؟ . وما المطلوب هذه القوة ؟ . أيعرف العقل
بواب من يتبع المنهج وحجاب من يخرج من المنهج ؟ . كل هذه أمور لا يعرفها
العقل ، فالعقل حجة في الإيمان بقوة أعلى فوق ذلك الكون وهي التي خلقت وتديره
تديره ، أما الرسول فهو مبلغ بمطلوبات المنهج واسم القوة التي أرسلت والشرائع
التي يجب أن يسير هي عدما الإنسان ، إذن فليس هناك خلاف بين الرايين

وأسأل : من الذى اكتشف الكهرباء ؟ . إنه العقل البشرى الباحث وراء أسرار الله فى الكون ، ولا أحد يجهل هذه المسألة . وكذلك أسأل ، من أول من تكلم فى السبية ؟ إنه أينشتاين . وإن سألتنا : من أول من تكلم فى الجاذبية الأرضية ؟ . إسحاق نيوتن ، وكل واحد اكتشف شيئاً فى الكون صرنا نعرفه . والذى صمم توليد الكهرباء التى تنير وتطهى وتدير بها المصانع ، وجعل من سوق الكهرباء صناعة رائجة تعمل فيها القنود المالية لشترى الإنسان مصابيح تنير حيزاً محدوداً ، ومصانع تعمل فى خدمة الإنسان .

أيها الله عليكم تعرفون اسم مصمم مولدات الكهرباء ومصمم ومكتشف المصباح الكهربائى ، ولا تدرون اسم من خلق الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم . ولم يَدْعُ أحد لنفسه صناعة الشمس ، ولا يوجد ابتكار فى الكون إلا ومعلوم من أبدع هذا الابتكار . فالذى صنع المصباح إنما يتبره حيزاً محدوداً مهما كبر ضوء المصباح ، وبعد محيط دائرى معلوم يتلأهى الضوء ويصير الأمر إلى ظلمة ، فما بالنا بالشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف نهار .

إن خلق الشمس يحتاج إلى قدرة تناسب خلقها ، ونحتاج إلى حكمة تناسبها ، وليس لهذه الشمس محيط من الزجاج يتكسر وتغيره مثلما تفعل مع المصابيح . كان لابد للعقل البشرى أن يفهم أن هذه الكائنات التى فى الكون لها صنائع تناسبها . ولا يمكن أن يكون صانعها من الخلق وسكت من حقه فى صناعة هذه المعجزات ، ونحن نرى بعضاً من الناس فى بعض الأحيان تدعى ملكية ما ليس لها ، فإذا ما جاء الخالق وأبلغنا بواسطة الرسل بصناعته للكون ولم يوجد له مُعارض ، فهل هذه الأشياء والكائنات من خلقه أو لا ؟ . إنها من خلقه إلى أن يوجد له معارض .

هذه هى مهمة العقل أى أنه يبتلى إلى القوة التى تخلق وتكبر أمر هذا الكون ولا يغنى العقل عن الرسل ، ولكن العقل يؤمن فى القمة الإيمانية بأن هناك قوة مبهمة عالية تناسب عظمتة هذا الكون الذى طرأ عليه الإنسان ، ولا يعرف اسم القوة ولا يعرف مغنوب القوة فى « اعمل » ، ولا لا تفعل » ، ولا يعرف العقل ماذا ادخرت القوة من ثواب للمحسن وعقاب للمسيء . لذلك لابد من وجود رسول .

إن الحقبة - إذن - تكون من شقين : الشق الأول الخاص بالعقل هو في الإيمان بالقوة العليا المهيمنة ، والشق الثاني الخاص بالروح هو الإيمان بالبلاغ من الله اسم وصفة ومطوب وجعله ، هكذا يرى فانفقوا أيها العلماء ولا ضرورة للخلاف

أقول ذلك حتى لا يتبادى الذي يتصيدون لعين الله وأصعب ، انفقوا أيها العلماء على أشياء محددة لأنكم تشتتون الناس بهذه الخلافات ؛ فالرسول هو الحقبة في الأشياء التي لا تدخل للعقل فيها

ومعرب تاريخياً أن آفة الفلسفة أنها تضع وتتحل عدداً حقيقاً من المجالات لتبحث فيها ، وكانت الفلسفة قديماً هي أم العلوم مجتمعة ، فالتدنية كانت فرعاً منها ، وكذلك كل الرياضيات ، وأيضا المواد العلمية كالكيمياء والفيزياء وكذلك أصول اللغات .

لكن عندما رأى العلماء أصحاب التجارب العملية أن الفلاسفة يدخلون في مناهات نظرية ولا يدخلون إلى مجال التجارب العملية التطبيقية ، تركوا الفلسفة وأسروا العلوم التجريبية منحصرة في الفلسفة . وأنتج العلم التجريبي لنا كل هذه الاختراعات والاكتشافات المعاصرة التي تسهل علينا الحياة ويستفيد منها

لقد ظل الفلاسفة على حناهم يبحثون في النظريات بعيدين عن مجال التجارب لعملية التطبيقية ولا تلتقي مدرسة فلسفية بمدرسة أخرى ؛ لأنهم يختلفون حيث لجهن طبيعة مسيطرة على الغيب الذي يبحثون عنه ولا يمكن الاهتداء أبداً إلى أسرار لغيب ، إنه الغيب يبلغ به الرس

والثال الذي امر به دائماً وأكرر حتى يستقر في الأذهان لنعترض أنا مجلس في حجرة ثم حق الجرس ، هنا تستوى عقولنا جميعاً في أن طارقاً بالباب ، ولا يختلف في هذا الأمر . لكن عندما ندخل في تصور من الطارق ؟ يقول واحد : « الطارق رجل » وثاني يقول : « الطارق امرأة » وثالث يقول : « الطارق رجل شرطة » ورابع يقول : « صديق لنا » وخامس يقول : « بشير » وسدس يقول : « نذير » ، يحدث لك لايتا دخيلاً إلى مناهات التصور وأقول : هذه لأصور لا تترك للعقل ، هو

أودتم راحة أنفسكم لامتتم بالتعقل ، تعقل أن هناك ظاهراً بالباب ، ثم فتركون للطريق أن يعلن عن نفسه ويقول لكم : أنا فلان واسمى كذا وصغنى كذا وجنت إنكم من أجل كذا ، وبذلك تنفق جيماً .

لكن الملاسفة أدخلوا التصور في التعقل . ولا يمكننا أن نعرف اسم الخالق بالعقل أبداً ولا مطلوبه . بل لابد أن ينبع من نفسه ، فإذا انشغل العقل بأن هذا الكون العظيم لابد له من قوة خالقة ، فلماذا لا تبلغنا من نفسها ؟ . وإذا ما جاء رسول من أجل أن يحمل النور الوجودي الذي يعيشه البشر فبلغنا أن القوة الخالقة اسمها الله . هنا أراح الحق النفس البشرية بما كانت تتمنى أن تعرفه ، ومن عقل العاقل أن يهرح يهجم الرسول ويستشرف إلى السماع عنه ، لأن الرسول إنما جاء يحمل اللعز الشاغل للنفس البشرية من تفسير من خلق الكون هذه الدقة ، وما هي مطلوبات هذه القوة ؟

ويجسم الرسول الخلاف عندهم ويحل اللعز الشاغل للبكال . ولذلك نرى الإمام علياً - كرم الله وجهه - أمام سؤال من أحدهم :

- اعرفت محمداً بربك ؟ أم عرفت ربك بمحمد ؟ .

فأجاب الإمام علياً وكان باب العلم . لو عرفت ربى بمحمد لكان محمد أوثق عندي من ربى ، ولو عرفت محمداً بربى لما احتجت إلى رسول ، ولكنى عرفت ربى بربى وجاء محمد فيلغنى مراد ربى منى .

هكذا حدد لنا سيدنا علياً المسألة . فاعقل العطرى يؤمن بقوة مهمة وراء هذا انكون من التى خلقت وهى التى رزقت وهى التى أمدت بقيوميتها وقدرتها ، وبعد ذلك تحيىء الرسل من أبص تعريفنا باسم القوة ومطلوبها منا .

والذين يخشعون حول دور العقل في الحجة ودور الرسول في الحجة ، عليهم ألا يتوهوا في متاهات نحن في غنى عنها ، لأن العقل لا يمكن أن يكون الحجة بمفرده ، والرسول إنما هو مبلغ عن القوة ، وقد يقول قائل - إذن لابد لكل رسول من رسول ، وقد يبلغ التعلسف الطريق المسدود

لكن عندما يعلم أن الحق قد أصبح كل رسول عن عبده منصوباً ليبلغ ، وحمل
سبيل المثال نجد سيدنا محمد بن عبد الله استطاع أن يصنع أمة في ثلاث وعشرين سنة
ليمتد خيرها إلى يوم القيامة ، فعل عبد الله عليه وسلم ذلك مبدئاً عن الله ليخلص
أمته إلى كريمة صلب الطيب والابتعاد عن العمل الخبيث ، وخلق الله عبداً على خلق
عظيم وهكذا نعرف أن الحق قد أراح العقل من صروجه البحث عن اسم القوة
المخالفة ومطهرها فأرسل الرسل
ويقول الحق من بعد ذلك

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ
عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا﴾

نعرف أن الإشارة تكون بأمر سلوي يأتي من بعد ، والندارة هي إخبار بأمر سيء
يأتي من بعد ، والمرير سبحانه لا يقبله ، وأحكم سبحانه وضع كل شيء في
موصفه ، لماذا ؟ لأن الرسل يشرون ويهدون بأن هناك جنة وفارا وحساباً ، فإنهم
أن نظنوا أن الذي كثر بقاؤه عن أن يصنع شيئاً لنفسه ، والله عزير وعنى من خلقه
هيباً

وبعد أن الحق لا يحرم سلوكاً إلا بتصر ، وقيل أن يعاقب فهو يضع القواعد التي
لا يصح الخروج عنها ، حين يقول الحق : « وكان الله عزيراً حَكِيمًا » فمرته وحكمته
هي التي أتاحت لنا أن نعرف منهجه ، ويقول الحق من بعد ذلك

﴿لَٰكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ

يَعْلَمُوهُ وَالْمَلٰٓئِكَةُ يَشْهَدُوْنَ وَكَفٰى بِاللّٰهِ

شَهِيدًا ﴿٣١﴾

وساعة سمع : لكن ، فمعنى ذلك أن هناك استدراكاً . وقوله الحق . : لكن الله يشهد ، نأخذ منها بلاغاً من الحق . خصوصاً يا محمد لا يشهدون أنك أهل لهذه الرسالة ، ويستدرك الله عليهم ويوضح لهم أنه سبحانه هو الذى خلق الإنسان وهو أعلم بقانون صيائنه . ومنهج الله إلى البشر بواسطة الرسل هو قانون صيانة ذلك الإنسان .

وإذا كان أهل الكتاب لا يشهدون بما أنزل الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وينكرون ما فى كتبهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم كرسول خاتم ، فإن الله يشهد وكفى بالله شهيداً

لقد أنزل القرآن بعلمه ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو الذى خلق كل الخلق ويعلم - وهو العليم - ما يصلح للبشر من قوانين . ولما أعرافنا البشرية نجد أن الذى يصنع الصنعة يضع قانون صيائنها لتزدى مهمتها كما يسقى ، كذلك الله الذى خلق الإنسان ، هو سبحانه الذى وضع له قانون صيائنه بدفعه . ولا تفعل . . ولذلك يقول الحق :

﴿ اَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللّٰطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٣١)

(سورة الملك)

ونجد الإنسان ما يذهب سعته إلى عمل إصلاح الساعات يكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد ، فما بالنا بخالق الإنسان . إن الميث الذى يوجد فى العالم سببه أن الناس قد استقلوا خلق الله لهم ، ولم يدع أحداً أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، ومع ذلك يحاولون أن يقتنوا قوانين صيانة للإنسان خروجة عن منهج الله

ونقول : دعوا خالق الإنسان ، يصنع لكم قانون صيانة الإنسان بدفعه .

ولا تمنعوا وإن أردتم أن تُشرعوا ، فتشرعوا في صوة منهج الله ، وإن حدث أثر عطش في الإنسان فلهذه إلى قانون صيانة الصانع الأول وهو القرآن ، لأن المتأصب إذا تابع من أن الإنسان ينتمي في بعض الأحيان أنه من صفة الله ، ويحاول أن يصح نفسه قانون صيانة بعهد من منهج الله ، والذي يريد متأصب الإنسانية هو أن يعود إلى قانون صيانتها الذي وضعه الخالق تبارك وتعالى

« لكن الله يشهد بما أُنزل إليك أنه من ربّه » والملائكة يشهدون ، والملائكة تشهد لأنها كانت شرف أن يكون المبلغ لرسول الله منهم وهو جبريل عليه السلام ، وهم أيضاً الذين يحسون حسابات العمل الصالح أو العاصد للإنسان ويكتبون في صحيفته ، وهم كذلك الذين حملوا ما في الفوح المحفوظ وسعوا ما أمر به بسلطه وهم يعرفون الكثير « وكفى بالله شهيداً » لماذا لم يقل الله هنا وكفى بالله وبالملائكة شهدوا ؟ ، لأن الحق سبحانه وتعالى لا يأخذ شهادة الملائكة تعريراً لشهادته

وبعض لا يأخذ شهادة الملائكة تعريراً لشهادته الله ولا كانت الملائكة أوثق عنده من الله ، وصيغته يزرخ شهادة النفس وشهادة الملائكة ، لكنك يا رسول الله تكفيك شهادة الله

ومن بعد ذلك يقول الحق

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

إن كفر الكافر إنما يعود عليه ، وهو يملك الاختيار بين الكفر والإيمان ، لكن إذا قصد الكافر هجره عن الإيمان فهذا ضلال متعمد ، فقد حصل في نفسه ، وهو يحاول أن يضل هجره ، قلده لا يحسن وروه فقط ولكن يحسن أوزار من يضلهم وكيف يكون الصد من سبيل الله ؟ ، بمحاولة أهل الضلال أن يجمعوا آيات الهدى

من أن تصل إلى أدن التامس ، فيقولوا ما رويه الحق عنهم

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذِهِ الْقُرْآنِ وَالنَّعْوِ بِكُمْ تَغْيِرُونَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة نصبت)

ولو فهموا معنى هذه الآية ما دأوا ما جاء فيها ، فقومهم « لا تسمعوا هذا القرآن وانعوا فيه » أي اصنعوا صحفة تشوش على سماع القرآن ، وهم قد علموا أن هذا القرآن عندما يصل إلى الأسماع فإنه يطلع الهداية ، ولو كان القرآن غير مؤثر لما دأوا ذلك ، إذن هم يعرفون بأنهم يُغَيَّرُونَ عندما يصل صوت القرآن إلى آذان البشر المدعوين إلى الهداية

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً » كان يكفي أن يقول الحق « قد ضلوا » ، لكنه جاء بالمصدر التأكيدي « قد ضلوا ضلالاً بعيداً » أي إنه الضلال بعينه ، وهو فوق ذلك ضلال بعيد .

وعندما ننظر في كلمة « بعيد » ، نعرف أن الشيء البعيد هو الذي يسهو ويبين مصدره مسافة زمنية طويلة . والذي يصل نصارى ضلاله أن يسهو بانتهاء حياته ، لكن الذي يعمل على إضلال غيره فهو يجعل الضلال يمتد ، أي أن الضلال سيأخذ في هذه الحالة زمناً أكثر من حياة المصل ، ويسوائ الضلال عن نصيبين أجيالاً ، وهكذا يصبح الضلال ممتداً

والضلال المعروف في الماديات الشرية هو .. عن سبيل المثال - أن يسير الإنسان إلى طريق فيصل إلى طريق آخر وقصارى ما يصل فيه هو أن يذهب إلى مقبرة - أي صحراء - ولا يجد ماء ولا طعاماً فيموت . لكن نصال المصل يجعل ضلاله يأخذ زمن الدنيا والآخرة وبذلك يكون ضلاله ممتداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ

لَهُمْ وَلَا يَلِيهِمْ طَرِيقًا ﴿١٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

والحديث هنا يبدأ من الكفر والظلم ، إن الذين كفروا وظلموا ، والكفر هو ستر الوجود الأعل ، والظلم معناه أنهم عاشوا بمنهج بشرى لا يؤدى هم متاعاً ولا مساعدة في حياتهم الدنيا ، وبدلت يكونون قد ظلموا أنفسهم . ومن بعد ذلك يقودهم هذا المنهج إلى عذاب الآخرة . والذى كفر ستر وجود الله وحرم نفسه بستر بوجود الأسمى من المنهج الذى يلقى به الله إنه بذلك قد حل صلالاً بعيداً . وسبحانه القائل

﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ رَبِّي مُبَشِّرٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ تَبٰرَكَ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَلِيمُ ﴿٢﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٣﴾ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَ أَيْدِيهِمْ وَلَا يُحِيطُ بِشَيْءٍ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَهُوَ ظَهِيرٌ عَلَى السَّعَادِ ۚ لَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

من الآية ١٢٢ سورة طه

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق

﴿لَسَ يَبِيعَ هُدًى لَّآ حَرْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١﴾﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

والذى يأخذ بهوى نفسه ويمتدح البشر فإن له معيشة حبكاً ضيقة شديدة ولا يظن ظان أن الذى يأخذ ويتناول الأمور بهواء حد أخذ انطلاقاً بلا حدود وراحة لا نهاية لها ، لا ، لأن الذى يعمل ذلك قد يروح مره لكنه يقابل التعب ويمعش فيه ولا يتك عنه من بعد ذلك ، وهكذا يظلم نفسه

وقد يقول قائل لقد ظلموا أنفسهم ، ومعنى ذلك أنه لا بد من وجود ظانا ومظلوم فمن هو المظالم ومن هو المظلوم ؟ كل واحد منهم المظالم وكل واحد منهم المظلوم ، لأن الإنسان مركب من ملكات متعلجة ، ملكة شهوات تريد أن تطلق إلى الشهوات ، وملكة فهم تريد أن تحفظ الإنسان نفسه وتسير على صراط القيم المستقيم

وفى حاله من يكفر ولا يتبع منهج الله إنه يترك المرحلة ملكة الشهوات أن تظلم

ملكة القيم ، والإسلام إنما جاء لبولاي بين الملكات لتساند في النفس الشرية ،
فلا يظنى سيال ملكة على سيال ملكة أخرى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَخْشَفُكُمْ وَلَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ بِغَيْرِكُمْ وَلَا لِيَذِيبَكُمْ ۖ إِلَّا تَكْرِيهًا ۚ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝١١٩﴾

(سورة النساء)

هذا هو حكم الحق في الذين يكفرون وظلمون أنفسهم ، لن يألوا معصية الله
وليس أمامهم إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ
مِنْ رَبِّكُمْ فَخُذُوا خَيْرَ لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ۝١٢٠﴾

فبعد أن وصف لنا - بإيجاز محكم - سلسلة المعارك التي نشأت بين الرسول واليهود
مرة ، ومرة أخرى بينه وبين المشركين ، وها هو ذا سبحانه يخاطب الناس جميعاً ،
ليصفي مركز منهج الله في الأرض ، فيقول مسهاً كل الناس . لقد جاءت رسالة محمد
عليه الصلاة والسلام نصفية لكل الرسالات التي سبقت ، وعلى الناس جميعاً أن
يميزوا ، ليحتاروا الحياء الإيمانية الجديدة ، لأن الرسول قد جاء بالنور والبرهان ،
البرهان الذي يرجع ما هو عليه صلى الله عليه وسلم عن ما هم عليه ، والنور الذي
يهديهم سواء السبيل

لقد كان الناس قبل رسول الله على بطل وعمل أدبيات ونحل شتى ، فجاء البرهان

إن الإسلام قد جاء ناسحاً وخالفاً . والبرهان هو تعاليم هذا الدين وأدله ، بلا حجة لأحد أن يمسك بشيء مما كان عليه . وجاء محمد بالنور الذي يهدي لإنسان إلى سوره السبيل ، وهذه تصفيه عقديّة شامدة ، أو كما يقولون : سامية أو كاريون إيمان ، تتخلص به البشرية من كل ما يشوب عقائدتها ، وتنبأ موعده جديده .

و يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، و الحق هو الشيء الثابت لدى لا يتغير مهما تغيرت عليه الظروف ؛ لأن الحق صدق له لون واحد ، فلو ، رأيت جميع حادثة واحدة ، ثم جاء كل واحد منكم بإخبار بها يخبر صدق قس فتلظ رواية الحادثة من واحد لآخر . أما إن سولت نفس بعض الناس لم أن تريدوا في الحادثة فكل واحد سيحكى الحادثة على لون يختلف عن بقية الألوان ، وقد سافر خيال أحدهم في شطحة الكذب ويسترسل فيه .

إذن فالذي لا يتغير في الحق هو أن يحكى جميعاً الرواية الواحدة بصدق ولو كانوا الأيمن الناس ، لكن إن سولت نفوس بعضهم الكذب وحسنت له وأمرت به اختلفت الرواية ؛ لأن لكذب مشاع أوهم ولا حقيقة له . و الحق سبحانه وتعالى أصبح لنا . لقد جاءكم الرسول بالحق مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما حتم به من أي لون ، سواء في العقديت أو في المبادئ أو في الأخلاق أو في السلوك .

ستجئون كل شيء ثابتاً لأنه الحق .

و صرنا الحق سبحانه وتعالى لنا مثلاً في هذا الحق .

﴿ أَزَلَّ مِنَ الْمَاءِ فَسَلَّتْ أَبْوْدِيَّتُهُ ذَرْعَهَا فَاخْتَمَلَ السَّبِيلَ رَبُّهُ رَبِّي وَيُحْيِي الْمَيِّتِينَ ﴿١﴾ عَلِيٍّ فِي النَّارِ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ رَبِّي وَمَنْ يُضِلُّ رَبِّي فَمَا يَمْلِكُ أَنْ يَقْدِرَ اللَّهُ عَلَيْهِ رَبِّي وَهُوَ يَهْدِي الْقَوْمَ الصَّالِحِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحديد)

كل وإي يأخذ ماء على قبر حجه ، وسداه ينزل سبيل من الخيال يحمل معه راب والعش والأشياء التي لا تروى لها ، وهو ما نسبه « الرقيم » وهو الرُيد . وكذلك الحديد أو لحسن أو الذهب الذي يصنع منه حل أو أقوات ناع ، وعندما يضع هذه المصنوعات في النار ، نجد الرُيد يفر على سطح هذه المعادن

عندما ينصهر ، وتسمى هذه الأشياء الخبيث . ويوضح الحق لنا كيف يصرب الحق والباطل .

﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ حُيَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَمْسَعُ لَنَاسٌ فَبَيِّضُكَ فِي الْأَرْضِ﴾

(س الآية ١٧ سورة الرعد)

ومهما تخلطت بالحق أشياء فهو كحق يبعد ويطرد هذه العقاقير والخبث ويحبها عنه . فإن علا الباطل يوماً على الحق فلنعلم أنه علو الزبد الذي يذهب جفاء مرمياً به ومطروحاً ، وسبطل الحق هو الحق . وسبحانه يقول : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فامسوا خيراً لكم » . والإيمان هو اعتناق العقيدة بوجود الإله الأعلى ، والسلاع عنه بواسطة الرسل ، وأن للحق ملائكة ، وأن هناك بعثاً بعد الموت ، وحسباً . ويقتضى الإيمان أن تعمل العمل وفق مقتضياته وذلك هو اختيار الخير ، ولنعلم جيداً أن الإيمان لا يفصل عن العمل

ومادا يحدث لو لم يؤمن الناس ؟ ها هوذا الحق يقول : « وإن تكفروا فإن الله ما في السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً » وسبحانه غنى ، وسبطل كونه الثابت - نظرية القهر والتسخير - هو كونه ، ولن يتغير شيء في الكون بكفر الكافرين ، سوى سحق الكون عليهم لأنه مسخر لهم ؛ لأن الكون ملك لله ، ولن تتغير السماء ولا النجوم ولا القمر ولا المطر ولا أي شيء .

ويقول لث . لو نظرت إلى الدنيا لوجدت الفساد فيها ناشئاً عما فعلته وأحدثته يد الإنسان على غير منهج الله ، أما الشيء الذي لم تدخل فيه يد الإنسان فهو لا يفسد ، ولم تر يوماً الشمس وقد عصيت عن الشروق أو الغروب ، وكذلك القمر لم تختل حركته ، وكذلك النجوم في الأملاك ، وتسير الرياح بأمر خالقها ، وكل شيء في كون متظم الحركة ، اللهم إلا الأشياء التي يتدخل فيها الإنسان ، فإذا كان قد دخلها بمواصفات منهج الله فهي منسجمة مع نفسه ومع الكون ، وإن دخلها بغير مواصفات منهج الله فلن تستقيم ، بل تفسد .
ولذلك قال الحق

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُغَيِّرُ مَقَرَّكُمْ حَتَّى يُغَيِّرَ أَمْرًا بِأَنفُسِكُمْ﴾

(س الآية ١١ سورة الرعد)

إن الأمر العسير إنما يأتي من داخل نفوس البشر عندما يصلون عن مهب الله ،
 بذلك نقول أشكى الناس أزمة سوء ٩ لا ، لأن الشمس ليست في متناولنا ،
 كذلك لم يشك الناس أزمة هواء ، لكنهم يشكون أزمة طعام ، لأن الطعام يهب من
 أرضي ، فإذا أكل الإنسان مثلاً فلا يعمل ، وإنما أن يعمل ويخرج ثمراً يأكله
 منهم ويضو ويخلوا ولا يعطوه لغيرهم ، وهذا سبب من أسباب العباد الثاني .
 الكون

وحاء الحق هم بما يمكن أن يكون فتعاً يدخلون فيه بالإيمان بمنهج الرسول
 فأنهم ، ويكفرون عن أخطائهم مع أنبيائهم ومع محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول
 سبحانه

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ
 وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى
 ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ
 وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ
 انْتَهُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ
 أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 وَكَفَى بِالْقَوْمِ كَيْلًا

يبدأ الحق بأمر موجه لأهل الكتاب: لا تغلوا في دينكم ، والغلو هو الخروج عن
 الاعتدال في الحكم ، لأن كل شيء له وسط وله طرفان ، وعندما يمست شخص
 رغباً مطلب منه إلا يكون هناك إفراط أو تفريط . وقد وقع أهل الكتاب في هذا

المأرق ، فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط وتفریط ، لقد كفر اليهود بعيسى وأتهموا مريم بالزنا ، وهذا غلو في الكفر ، وغالى النصارى في المحب لعيسى فقالوا : إنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، وهذا غلو ، ويطلب الحق منهم أن يقفوا من أمر الدين موقف الاعتدال : « لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » .

إن أمر المنهج لا يحتاج إلى غلو ، ولذلك جاء محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله بالدين الوسط الذى يضع كل أمر في نصابه . وشرح لنا بإخبارات النبوة وإلهامها ما سوف يحدث للإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ، وقد حدث ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالحوارج كفروا علناً ، والمشرعون بالنشيع قالوا : إنه سبى ، وبعضهم زاد في الإصراف فجعله إلهاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى - كرم الله وجهه - :

« إن فيك من عيسى مثلاً . أبغضته اليهود حتى يهتوا أمه ، وأحبه النصارى حتى أنزلوه المنزل الذى ليس له » .

وكما قال سيدنا على - كرم الله وجهه - : « ألا وإنه يملك في اثنين . محب يقرظني بما ليس في ، ومبغض يحمله شتان على أن يهتني ، ألا إنى لست بنبي ولا يوحى إلي ، ولكنى أصعب بكتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ما استطعت ، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتي فيما أحيتكم وكرهتكم » (١) .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم علماً أن المحب الذى يغالى في حبه ليس مع حق وكذلك الكاره الميغض ، فالذى يحب علماً يغلو جسد منه إلهاً أو رسولاً ، والذى أبغض علماً جعله كافراً . وكذلك النصارى من أهل الكتاب جعلوا إله عيسى فأحبوه بعلو وجعلوه إلهاً أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، فيقول لهم الحق : « لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » . وقوله الحق : « عيسى ابن مريم رسول الله » رد على غلو اليهود الذين رفضوا الإيمان بعيسى ، وقالوا في عيسى وأمه الیهتان العظيم .

وقوله الحق عن عيسى ابن مريم : رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح
به : رد عن علو التصاري الذين يصيرون هذا أو جعلوه ابتداء أو ثالث ثلاثة ، فسمي
عليه السلام هو ابن مريم وعندهما بشرها به الحق وقالت :

﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۚ ﴾

(من الآية ١٧ سورة آل عمران)

قالت ذلك بعطنة الصنعية التي جعلتها نبيه إلى أبي لم يمسسها بشر ، وبإدخال الحق
به سبه إليها فليس له أبي ، صولده عيسى دون أن يمسسها بشر ، ويوضح سبحانه
ذلك عندما يقول : « إني لمسح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم
روح منه » ، فسمي روح من الحق ، لأنه سبحانه قال :

﴿ فَصَفَّحْنَا بِهَا مِنْ رُوحِنَا ۚ ﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنبياء)

وما معنى « كلمته » ؟ ، هذا القول يدل على أن الروح صفت ثم جاءت كلمته
كن ، التي قاد عنها سبحانه

﴿ إِذَا صَوَّيْتُمْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة آل عمران)

لقد احتج وجود عيسى إلى أمرين : « روح » و « كن » ، والشبهة عند التصاري
ردوا إلى أن عنصر الذكورة لم يلمس مريم ، وقالوا : ما دام الله قد قال : إن عيسى
روح منه فهو جزء من الله ، ونسوا أن كل شيء من الله ، وسبحانه القائل :

﴿ وَخَرَجْنَاهُ مِنْ ذَاتِ الْأُفْهُقَيْنِ تَذَارِعًا ۚ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجر)

فهو هذا يعني أن « الأرض » قطعة من الله وكذلك الشمس ؟ لا ، فإذا كانت
تشبهه قد جاءت من هباب عنصر الذكورة مع وجود عنصر الأنوثة لكان من الواجب
نظفياً أن تكون الشبهة في آدم قبل أن تكون الشبهة في عيسى ، لأن آدم جاء من غير
كورة ولا أنوثة ، فلا أب له ولا أم له ، لقد قال القرآن بمتهى البساطة ومتهى
لوسع

﴿إِذْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ لَمَّا كَتَبَ آدَمُ حَقَّهُ، مِنْ رَبِّهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ مَكِّي فَيَكُونُ ۝﴾

(سورة آل عمران)

ولا يملك أحد القيد على فضل الله ووسعه ، ومسألة آدم كانت أدق ، لكن الله بمعضله يساوى بين خلق عيسى وخلق آدم ، وهذا هو التلطف في الجدل . وأحبرن سبحانه عن عيسى أنه جاء بأمر منه ، وقال في آدم :

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

إذن مادم قد احتاح إلى الأمرين نفسيهما ، لكن ، ، رد البعخ فيه من الروح ، ، وعندما ننظر إلى هذه المسألة نجد أنها لا بد أن تتعرض لقضية خلق آدم ، حتى يعرف كيف تسلسلت مسألة الخلق ، سواء أكان الخلق ملائكة أم خلق آدم أم خلق حواء أم غيرهم من الخلق ، كذلك خلق عيسى . لقد كان خلق آدم غيباً عن آدم ، وليس لأدم نفسه ولا لمن جاء بعده أن يتكلم كيف خلق ، لأن هذه مسألة لا دخل لأحد بها ، ويقول لنا الحق محذراً من أن نستمع إلى قوم يقولون بغير ذلك عن الحق فقال :

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ حَقِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ بِمُحِصِّلِينَ

عَصْدُ ۝﴾

(سورة الكهف)

ولا يمكن - إذن - أن نستمع إلى هؤلاء الذين اقتصروا أن أصل الإنسان فرد أو غير ذلك ؛ لأن الذي يتكلم عن الخلق يعبر علم من عند الله ، فهو يتكلم في أمر لم يشهده . والخلق الأول أمر لا يمكن أن يدخل للمعمل التجريبي ؛ لأن المعمل التجريبي إنما يحلل مواد موجودة بالمعمل . إذن فالحكم على أمور بغير ما أخبرنا بها الله أمر باطل . ولم يكن هناك أحد مع الله ساعة خلق خلق ليقول لنا كيف تم ذلك . وعلمنا هذه المسائل بإخبار الخالق لنا فهو لأعلم بما ، والخالق أخبرنا أنه خلقنا من ماء وتراب وطين وحما مستون ومصلصال كالصغار ، وسحدثنا بذلك في آيات متعددة . والذين يريدون أن يكذبوا القرآن يقولون . إن القرآن لم يأت بخبر واحد عن خلق

المخلوق ، فمرة يقول إن المخلوق كان من ماء ومرة كان من تراب ، ومرة كان من طين ، ومرة كان من صلصال

ونقول : أحين يتكلم الحق من مراحل المخلوق فهل في هذا تصدد ؟ أصل الحق ماء ، خلطه الحق بتراب ، وبعد وصع للماء على التراب حمار الإثنان طيناً ، ثم إذا بركتنا الطين إلى أن يجتم ، يصير حماراً مسوناً ، وبعد ذلك يصير صلصالاً ، ومن بعد ذلك خلق منه خلق آدم . إذن فكل شيء تكلم عنه سبحانه في خلق آدم إنما يتم مع كل الآيات التي جاءت من هذا المخلوق . وهو القائل عن آدم

﴿ هَٰذَا سَوِيَّتُهُ وَمِمَّ مَخْصُوعٌ يَّوْمَ ٱلْوَعْدِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وبعد صنع الله القالب الذي يشبه التمثال الذي مره ، ولكن نقصه الحركه الحية ، فخلق النضج في الروح بكلمة « كن » . إذن نحن محتاج إلى روح وإلى كلمة . والروح عنصر وجودي . وعندما تختلط بالقالب تحدث الحيلة ، ولا بد من حد ذلك من الإرادة بكلمة « كن » . ولذلك نجد الإنسان قد يصنع نفس خلقة لإنسان الكيفية لكن لا يصير إنساناً ، لأن الأمر ينقص الإذن ببلاده الإنسان

وصحة يتكلم الحق من خلق آدم وهو أمر لم نشهده ، فذلك من رحمته بنا ، يترك لنا سبحانه في الكون دليلاً على صدقه من خلق آدم ، فإذا كنا لم نشهد خلق الحياة فنحن نشهد نفيس الحياة وهو الموت ، الذي يحدث فيه أولاً خروج الروح ، من بعد ذلك يتنفخ الجسم كأنه الحمار المسنون ، ثم يتجر الماء ، وبعد ذلك يتصلب في تراب . هذه هي مراحل الموت التي تبدأ من خروج الروح وتتصلب الجسم إلى ن يوم ثم يتجر الماء ، وينتهي العنصر في الأرض

ولذا كنا لم نعرف كيف بدأت الحياة ، فنحن نعرف كيف انتهت الحياة أمامنا الأمر المشهدي ، ويجعل سبحانه أمر انتهاء الحياة أمامنا دليلاً على صدقه في إحصارنا الحياة وكيف بدأت ، لأن نقص الحياة يكون بالموت ، ونقص أي شيء إنما يتم على عكس طريقة بئانه . وآخر أمر دخل في لإنسان هو الروح ، ولذلك فهي أول ما يخرج من الإنسان عند الموت . وبعد ذلك يتصلب الجسم ، وبعد ذلك يصير رمة هي الحمار المسنون . وبعد ذلك يتجر الماء وينتهي أخيراً التراب .

وقد حللوا الإنسان حديثاً . فوجدوا فيه عناصر كثيرة ، ثم حللوا طينه لأرض الخصبة التي يخرج منها الررع الذي يقات منه الإنسان ، فوجدوا هذه لطينة مكونة من هذه العناصر .

ومن العجيب أن العناصر المكونة للإنسان هي نفسها المكونة لطين التربة الخصبة ، مما يدل على تأكيد الصديق أن الله خلقنا من طين ، وجعل استبقاء حياتنا مما يخرج من هذا الطين بعناصره المختلفة ، حتى يجد كل عنصر من الطين كل عنصر من الوجود الإنساني . ولما قاموا بتحليل الإنسان مفلوباً بتحليل التربة وجدوا أن أصحهم عنصر في تكوين الإنسان هو الأوكسجين وسسته على ما أذكر سبع وستون بالمائة ، وبهه عنصر الكربون ، وسسته على ما أذكر تسع عشرة بالمائة ، إلى أن تنتهي العناصر المكونة للإنسان والتربة إلى المجهيز وسسته ثقل عن واحدة بالمائة ، وأهم هذه العناصر هو :

الأوكسجين ، الكربون ، الهيدروجين ، النتروجين ، الكلور ، الكبريت ، الكالسيوم ، والفوسفور ، ولوتاسيوم ، الصوديوم ، الحديد ، اليود ، والسيلو ، والمجنير . هذه هي أهم وأكثر العناصر المكونة لتكوين الإنسان وهي العناصر نفسها الموجودة في تركيبة الطين وبعضها عناصر مكونة للمركبات العضوية وبعضها عناصر غير عضوية وبعضها عناصر وفائتها ثابتة ومعروفة . ويسأل أهل الذكر في تفاصيل ذلك .

وبطبيعة الحال فالذين قاموا بتحليل التربة وعناصر الإنسان لم يكونوا علماء دين ، ولم يكن في باهم إقامة الدليل على صدق الله في القرآن ، ذلك أن بعضهم يجهل مسألة القرآن كلها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أجرى على لسان رسوله حديثاً بشرح لنا حقيقة إثبات صحة كل ما فيه ولو جاء على لسان رجل فاجر ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) (١) .

سبحانه - إذن - أراد أن ينصر الدين بالكافرين ، وجعل بعضاً منهم يهدون إلى أشياء لو أنهم علموا أنها مستحلم فضايا الهدى ما أعلنوها . ومن حكمة الله أن جعل الكافرين غير قادرين على إعمال نصرة الدين ، وجعل سبحانه بعضاً منهم يهدون

(١) رواه البخاري في الجهاد والفتن ، ورواه مسلم في الإيمان ورواه أحمد ، والترمذي في السيرة .

الذين هم أنوفهم . ويريد أن تأخذ من هذه المسألة فيها حكمة ، يتسم بالعدل والسياسة ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان الأول من طين ، وهناك آية أخرى قال فيها الحق

﴿ فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وآية ثالثة قال فيها سبحانه

﴿ كُنْ مِسْكُونًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة آل عمران)

إذا فخلق آدم احتاج إلى أمرين : النفخ من روح الحق ، والأمر ٣ كن ، وهو الأمرين أنفسهما في مسألة خلق عيسى ، روح من الحق ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم ، وهذه دليل صلق لقوله الحق

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة آل عمران)

وحي قد قص لنا أنه خلق آدم من طين وصنع القلب وسواه بيديه

﴿ قَالَ يَتْلُو آيَاتِ مَا يَمْحُكُ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيمَانِي أَسْكَنْتُ مِنْ قَبْلِهِ مَنَاسِكِينَ ﴾

الْعَالِينَ ﴿ قَالَ أُنْزِلْ فِي هَذِهِ مَائِدَةً خَلَقْتُ مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُ مِنْ طِينٍ ﴾

(سورة ص)

فإذا كان الميكال الذي خلقه الله ونفخ فيه الروح ، وجدت فيه الحياة ثم تناسل السل من آدم ، إلى أن تقوم الساعة ، فهل عيسى حل الصورة التي جاء بها يكون أمراً عسيراً على الله ؟ لا . وسأجبه أسحب آدم أول ذرية له ، ألم يخرج لحظتها حيوان سوى من آدم إلى البويضة في رحم حواء ، وأراد به الله ميلاد أول من من آدم وهو جزء من آدم ، وهذا الحيوان المنوي له مادة وله حياة ، ومادته معروفة ، وحياة هذا الحيوان المنوي هي التي تسمح له بالحركة لتلقيح البويضة ، هذه المادة مخلوقة من آدم ، والحياة التي فيه من روح آدم ، وآدم نفسه خلقه الله بيديه ، وهذه إثبات أن الحيوان المنوي هو جزء مما خلقه الله بيديه وهو آدم ، وفي الحيوان المنوي حياة مما يصح

الله من روحه ، وانتقل إلى رحم حواء وأخصب البويضة وولدت حواء ، واستمر ميلاد حيوانات موية حية تخصب بويضات حية ليستمر الخصب والنسل والأحماذ .

إننا إذا سلسلنا نسل آدم إلى أن تقوم الساعة ، فكل ذرة من ذرات من يوجد آخر لدنيا مكونة من شيء به خلق من خلق الله في الغالب ، وفيه شيء من نفخ الله في لروح ، ولم يطرأ عليه موت أبداً ؛ فلو طرأ عليه موت أو فناء لما صلح أن ينجب مثله . وهكذا نعلم أن كل واحد فيها به جزء من الغالب الذي صنعه الله بيديه ، وفيه جزء من نفخ الروح .

وأكرر المثل الذي أضربه دائماً ليستقر في أذهان الداشة ؛ لو جئنا يستيمتر مكعب من سائل ملون مركز ، وأضفناه إلى لتر من الماء ، ثم أخذنا قطرة من لتر الماء سنجد بها جزءاً ضئيلاً من السيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا هذه القطرة وأضفناها إلى برميل من الماء فوصير في البرميل جزء من السيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا من البرميل قطرة من الماء ، وأضفناها إلى البحر فإن جزءاً من السيمتر الملون يصير بالبحر . إذن فكل سل آدم - إلى أن تقوم الساعة - فيه جُزْءٌ - من آدم عليه السلام .

ونلاحظ أن كثيراً من المفكرين والمنفعين في الغرب صاروا يبتعدون عن فكرة بنوة عيسى الله . وعندما يدخلون في نقاش حول هذه المسألة يقولون إنها بنوة حب . وإذا كانت المسألة بنوة حب ، والله يحب جميع عباده ونصبر نحن مثل المسيح ونصير المسيح مثلاً . فخلق كلهم عيال الله ، والحديث القدسي يقول :
(الناس كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم بعاليه)^(١) .

ولو أخذنا هذا لقول بالدقة التجريبية العملية نجد أن هذا القول صدق وحق ، لأننا جِئاً قد صدرنا من قدرة الله وإرادته وكل منا فيه شيء من صنع الله منذ بداية خلق آدم ، إذن هو بشر مثلنا ويتميز عنا بأن السماء اختارته رسولاً . أما القول بالثالوث فبعضهم يقول : نقصد بالثالوث ثلاث الصفات . وهل ثلاث الصفات

ثان محه إضافيات ؟ كالفقوله بالآب والابن والروح القدس ؟ ثي يوجد أب إلا إذا وجد لبس ، ولي يوجد ابن إلا إذا وجد أب .

إننا نعلم أن هناك حقائق ثابتة وهناك حقائق إضافية ، فالإنسان يكون أباً ولبناً فهو ابن بالنسبة لوالده ، وهو أب بالنسبة لابنه ، وكل هذه صفات إضافية ، وصفات الحق يفترض فيها أنها تجمع لا أن تكون إضافية ، وعندما يقال « الآب والابن والروح القدس » فهذا القول لا يحمل صفات إلهية ، بل صفات إضافية ، وحاول معصهم أن يقول « إن فائدة الكتاب يوجد فيها التثليث ، لأنكم تقولون بسم الله الرحمن الرحيم ، أنتم تفتشون القرآن بثلاث صفات هي الله والرحم والرحيم » وقلت لهم : نحن نقول « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا نقول « بسم الله والرحم والرحيم » .

وما الذي يجعل الحق يُنجب ابناً منذ أكثر من ألف وتسعمائة سنة ؟ ثم يتروك مسيحائه الأزمان السابقة على ميلاد المسيح محرومة من ميلاد ابن له ؟ لماذا يتروك الله الأزمان كلها بدون ابن له ، ويختص البشرية بابن له منذ حوالي عشرين قرناً فقط ؟ ثم ما المدة الزمنية التي شرفها الله بآبته بأن أوجده فيها ؟

أتكنى ثلاثة وثلاثون عاماً فقط - وهي عمر المسيح - لتشريف البشرية بوجود ابن الله ؟ وإذا يحرم الله - إذن - بقية الأزمان من هذه الخليفة إلى يوم القيامة من حد الشرف ؟

وسأل أيضاً لماذا يريد أي كائن إنجاب ابن ؟ إنه يرغب ذلك ليهض استيفاء الحياة ، لأن الإنسان يعرف أنه سيموت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الموت والحياة وهو الباقي أبداً ، وليس في حاجة لاستيفاء حياته في أحد من البشر ، وذلك لنا ذلك في سورة الإخلاص .

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَكَرَّ سِكْرُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾

(سورة الإخلاص)

وهم يقولون: «إله واحد»، ومرة أخرى يقولون: «إله أحد». وواحد لا تساوي «أحد» والدارسون لغة والمنطق يعرفون أن هناك شيئاً اسمه «الكل» وشيئاً اسمه «الجزء» وشيئاً اسمه «الكل» وشيئاً اسمه «الجزء».

«فالكل» يطلق على ماله أفراد مثل للإنسان: كماله ومحمد وعلي، «والكل» يطلق على ماله أجزاء، مثال ذلك الكرسي نجده مكوناً من أشياء: كالخشب والفراء والمسامير وغير ذلك من مراد. فالكرسي - إذن - «كل» لأنه مصنوع من مواد كثيرة. وحقيقة الخشب تختلف عن حقيقة المسار، لذلك فالكرسي «كل» لأنه مكون من أشياء كثيرة مختلفة الحقائق. ولا يصح أن نطلق على أي شيء من مكونات الكرسي اسم «كل» فلا نقول: «المسار كرسي» أو «الخشب كرسي» لأن الكرسي يطلق على مجموع الخشب والمسامير والفراء والطلاء في شكل وترتيب معين.

ومثال آخر، كلمة «إنسان» وهي كلمة تطلق على كثيرين، ولأن الحقائق متعقدة نطلق على الإنسان كلمة «كل».

ويصح أن نطلق على أي كائن يتمتع بالصفات الملتقى عليها للإنسان لقب إنسان، فنقول محمد إنسان وزيد إنسان، وعلي إنسان «فالكل» له أجزاء، ولله كل جزئيات، ويكون الكل شيئاً واحداً ولكنه ذو أجزاء، فقد يكون عندنا كرسي واحد. ولكن لهذا الكرسي أجزاء.

وهل نقول على الحق سبحانه وتعالى أنه «كل» أو «كل»؟ لا نقول على اسم الحق «كل» أو «كل»؛ لأنه اسم لا يطلق على كثيرين فليس كلياً لأنه واحد، وليس له أجزاء؛ لأنه أحد، وليس له أفراد لأنه واحد. فلا يقال له سبحانه وتعالى «كل» أو «جزء» أو «كل» أو «جزئي»، فلو كان كلياً لكان - كما قلنا - له أفراد ولو كان «كلًا» لكان له أجزاء، ولكن الله واحد لا أفراد له، وأحد لا أجزاء له.

ولذلك يرد القرآن على أي فائل بغير هذا، يقول:

﴿قُلْ حُوَّاهُ أَحَدٌ ۝١﴾

ويقول أيضاً

﴿وَلَهُ نُفِخُ فِي نَسْفَةٍ وَاحِدَةٍ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة البقرة)

وقد قلت كل ذلك لنفهم قوله الحق

﴿يَتْلُو الْكِتَابَ لَا تَجِدُ فِي دِيْبِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا السَّبْحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْنَاهُ نَفْسَهَا إِنَّ مَرْيَمَ وَرُوحَ رَبِّهِ فَطَمِسُوا بِاللهِ
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَمَنَةً انْتَهَوْا خَيْرٌ﴾

(من الآية ١٧١ سورة البقرة)

وقوله الحق: «انتها» أي انقضاء على كليات الباطل ، وخيراً لكم ، أي تمسكوا
بالحق ، وفي قوله: «انتها» خيراً لكم ، تحلية وإبعاد لكليات الباطل ، نأخذ
ك من قوله - (انتها) وتحلية لكليات الحق ونأخذ من قوله - مبعثاته -
خيراً لكم)

ويقول الحق : «إنا الله إله واحد» أي أنه سبحانه لا أفراد له ، ويضيف
سبحانه أن يكون له ولد ، ومباةة بسمع كلمة «سبحانه» منهم أن تنزيهه
باب الخلق

ولذلك نجد كلمة «سبحانه» تأتي في الأمور بحجية التي يقف عليها الحق ،
من الرغم من وجود كفار في هذا الوجود ، وعلى الرغم من وجود محترقين على الله في
العالم ، وعلى الرغم من وجود من يمتنون البشر بالعلماء الألوهية ، إلا أن إنساناً
حده لم يجرى على أن يقول لمعتوق كلمة «سبحانك» ولذلك يقول الله عز وجل
سبحانك أيضاً في سبحانه ، كذلك لم نجد أحداً من أي مله أو عقيدة أو دين قد
من نفسه باسم «الله» ، وهو سبحانه يتحدى به حتى الكفرة والملاحدة أن يسمى
بما لا يسمي أي مسمى ، والله هل يوجد واحد من المتبرجين الكافرين
من أبناء له «الله» ؟

حتى هذه لم توجد ؛ لأن هذا الكافر غير واثق أنه على حق . ومن الجائز أن يفعل ذلك فمحدث له كارثة . ولو كان هناك كافر واحد مؤمن بما يقول بأنه لا إله لهذا الكون لسمى أباً له « الله » . لكن أحداً لا يجترئ على هذه :

﴿مَنْ تَعْبُدْ لَهُ تَعْبُدْ﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وكان هذا التحدي موجوداً من قبل أن تنزل هذه الآية . فإذا عن الذي جاء بعدها برمن ؟ وهل اجترأ أحد على أن يسمى أباً له « الله » ؟ لم يجترئ أحد على هذه أيضاً على الرغم من أنهم يسمون بكل شيء ؛ وكان عبدنا في القرية واحد أطلق على ابنته اسماً طويلاً عجبياً . لقد سماها « ورد انتشى في دندشة روح الفؤاد والمثلك وفا » وهو حر في ذلك ، لكن لم يجترئ أحد على الإطلاق أن يسمى أبه « الله » ، وهذا دليل على أن الملاحدة والكفار على باطل . ويخاف أي منهم أن يجترئ على هذه المسألة ، ويتحدى الحق بسبعائك ويتحدى بالذات « الله » ، ولذلك فليقل كل واحد « سبعائك » وهو مطبش ، « ولا تقال إلا لك » ، واستقرتوا وتتبعوا المدائح التي قوبلت للناس جميعاً ، أقال واحد من البشر لواحد من البشر « سبعائك » ؟

ما قالها أحد قط . وهكذا يتحكم الله في أمر الإنسان اختياره فيه ، ولا يبرز إنسان على إطلاق هذه الأسماء على أحد من البشر . إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض « ووالود » كما يعلم يكون مما في السموات أو مما في الأرض ؛ فكيف يكون له وملكه ، وهو ابنه ؟ إن هذا الادعاء لا يستقيم أبداً ، ولذلك بذل الحق الآية : « وكفى بالله وكيلاً » ويقول الحق بعد ذلك :

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا

لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ

عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

مصدر الشرف للإنسان أن يحس ويشعر بشجن الله عليه بصوته له ، وسبحانه
عندما أراد أن يجعل حل شيئا اخاتم صلى الله عليه وسلم ويسرى به إلى المسجد
الأقصى ، قال

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ تَبَتَّلَ مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)
وم يقر : « سبحان الذي أسرى برسوله » ولكنه قال « سبحان الذي أسرى
بعبد » ، لأن « العبودية » عطية علوي من الله ، فكان سيدها محمداً صلى الله عليه
وسلم عندما تنال ق العبودية لله نال تنال الخير ، فمن إذن يستكشف أن يكون
عبداً لله لا يستكشف المسيح ذلك ، وكذلك الملائكة لا تستكشف أن تكون عبيداً
له . « ولا الملائكة المقربون » وهمون ذلك ارتقاء في النص ، مثلاً يطرون فلاح
لا يستطيع شيخ الخير أن يقف أمام ولا العبد

إذن فالملائكة في المخلوق أحسن من البشر . ولذلك قال الحق « من يستكشف
المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » وقال بعض العلماء إن خواص
البشر أصل من خواص الملائكة ، وهوم الملائكة أفضل من خواص البشر والأصل في
الصفات أن توضع الأنماط أولاً لمصنات ، ثم تنتقل من المصنات إلى المصنوعات ،
لأن إلف الإنسان في أول تكوين المخلوقات له إذن يكون بالحس ، كما قال الحق .

﴿وَأَنَّهُ تُخَوِّجُهُمْ مِنْ طُورٍ أَمْتٍ كَرَّ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَحَصَّلَ لَكَ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكَ تَشْكُرُونَ﴾

(سورة النحل)

إذن ما دام سبحانه قد قال « لا تعلمون شيئا » فإلى أين من بعده إما بأن
وسيلة لتعلم ، وهي حواس السمع والبصير والقدرة على تكوين الخبرة . ومثال
لك عندما ندرس في الفقه موضوع العصب . والعصب هو أن يأخذ أحد حق حبه
هراً وعلائية ، وهو غير المرقعة التي يأخذها السارق حمية . وغير الخطف : لأن
خطف هو أن نجد يد تشد شيئا من أمام صاحبه ويجري الخطاف بعيداً ، أما
بنصب فهو الأخذ حوة .

وكلها - العصب ، والسرقه ، والخطف - هي أخذ لغير الحق . والنصب مأخوذ من أمر حصى هو سلاح الجلد عن الشاة . وُسِّيَ أخذ الحق من صاحبه غصباً ، كأنه أخذ للجلد . ومقل المعنى من المحسنات إلى المعنويات . وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق : «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون» . «يستنكف» مثلها مثل «يستفهم» ، ومثل «يستخرج» .

إذن فهناك عادة اسمها «نكف» ، و«النكف» عملية حشية تتمثل في أن يرمي الإنسان دعة العين بأصبعه . ولنفرض أن إنساناً يعلم أن له كرامة في البيت وجاء له طرف ضيق جعله يبكي ، فدخل عليه ابنه أو زوجته ، فهو يحاول إزالة الدمع بأصبعه . «واستنكف» معاًها أزال «النكف» . والنكف معناه أن يزيل الدمع بأصبعه . وإزالة الدمع بالأصبع تعني أن صاحب الدمع يستكبر أن يراه أحد باكياً لأنه مقهور على أمر قد كان ، وهذه العملية لا تحدث إلا عندما يريد الإنسان أن يستر بكاهه عن أحد .

وانتقلت هذه الكلمة من المعنى الحسي إلى أي مجال فيه استعمال ، مثلها يستنكف إنسان أن يسير في طريق إنسان آخر ، أو أن يجلس مع آخر ، أو يجلس في مقعد أقل من مقعد آخر .

ويشرح ذلك المعنى الدارج بأن المسيح لا يجد غضاضة أن كان عبداً لله ، ولا يستكبر على ذلك بل هو يشرف به . والملائكة المقربون أيضاً تشرف بهذا الأمر ، والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا العالم وليس لهم حمل إلا التسبيح لله ؛ لأنهم عرفوا العبودية لله . وهي عبودية ليست لمن يستذل ، لكنها لمن يُعزَّز ، وليست عبودية للذي يأخذ ولكنها للذي يعطي . والذي يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية لله ؛ لذلك لا يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون .

ويضيف الحق : «ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، المستنكفون ؛ أو الذين على طريقة الاستنكاف ، ومن يشجعهم على ذلك ؛ كل هؤلاء يصيرون إلى جهنم» .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فِيهِمْ أُجُورُهُمْ وَزَيَّدْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا
الَّذِينَ اسْتَكْفَرُوا فَاسْتَكَفَرُوا فَبَعَدُ بِهِمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١٧٧)

لماذا م يات الله بشرط الآية الثاني الذي يتحدث عن المستكفرون والمستكبرين مقدمه
على شرط الآية الاول ؟ ، ولماذا لم يواصل الحديث عن الذين استكفرو واستكبرو
لمستكمل ما جاء بشأنهم في الآية السابقة ويبين كيف ان مصيرهم إلى العذاب حيث
لا ينجون من دون الله وبأ ولا نصيراً ، ثم بعد ذلك يتحدث عن الذين آمنو وعملوا
الصالحات ؟

ذلك أن الحق مداعة يتكلم عن جماعة خرجت عن المنهج فهو لا يمنحهم ثواب هؤلاء
الذين لم يخرجوا عن المنهج ، فبالأولاً ثواب الطائفة ليستشرف إليه الخارجون عن
طاعة الله ، ثم يحرمهم من هذا الثواب لتكون حشرة الخارجين عن المنهج أشد
والضد يظهر حبه الضد .

لقد قال الحق : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفى لهم أجورهم ويزيدهم
من فضله » وعلم أن الأجر على العمل لماذا الفضل إذن ؟ لقد عرفنا من قبل أن
العمل جنة فيه حديث شريف

(من يعمل أجراً عمده الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولأننا إلا أن
يتضمن الله بعمل ورحمة ، فاستعدوا وقاربوا ولا يتمين أحدكم الموت ، إما محسب

فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسينا فلعله أن يستتب (١) .

والحق قد قال :

﴿ قُلْ يَعْصِي اللَّهَ وَرَحْمَتَهُ فَيُزِيلْ ذَلِكَ عَنَّا كُرْهُا ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يوس)

وفطن الناس إلى ذلك فقالوا : « لهم بالفضل لا بالعدو » ، لأن الفصل هو الذي يعطيا المازل المتميزة ، وقد يضيحنا العدل

ويقول الحق مرة أخرى عن هؤلاء الذين استكفوا واستكبروا : « وأما الذين استكفوا واستكبروا فمعلمهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا »
أي أنهم لن يجدوا من يشفع لهم عند الله ، ولا من ينصرهم ولا أحد يقادر أن يرد عنهم العذاب

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا

إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿٧١﴾ ﴾

ولبرهان هو الإعجاز الدال على صدق المبلغ الأخير عن الله ، وهو الحجة لدايمه .

وقد يقول قائل : ما هو البرهان وما هو النور ؟ . ونعلم أن كل رسول يأتي بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن ربه قد تكون المعجزة بعيدة عن المنهج ، ثم يعطيهم الرسول المنهج يبلّغ من الله ؛ مثال ذلك أن معجزة سيدنا موسى كانت العصا لكن منهجه هو لتوراة . إذن فالمعجزة هي البرهان على صدق الرسول فيما بلغ عن ربه ، وقد

(١) رواه البخاري في كتاب الطب ، وارقى ، ومسلم في المناقب ، وابن ماجه في الزهد والدارم في الرقائق .

لا يكون للمجرة صلة بالهيج ، فهي على السلام كانت معجزة إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وصبحه الإسجين .

أما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو النبي الخاتم فقد تجلّت معجزة في أمه عيسى منجّه ، إنب القرآن ولم تنفصل المجرة عن المنهج ، لأنه رسول عام في الناس كافة وإلى أن تقوم الساعة . هذا هو البرهان أما « النور » فلف جذء أيضاً من أمر حسي ، لأن النور ينعش الإنسان من أن يتعثّر في مشيه أو أن يخطيء الطريق أو أن يصطدم بالأتشياء فيؤذيها أو يوديها . إذن النور الموجود في القرآن هو حقائق القيم ، أما نور الله في الماديات فهو أمر معروف لنكاته

ومن بعد ذلك يقول الحق

﴿ فَأَمَّا الْدِرْعُ ۖ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَأَعْتَصِمُوا بِهِ ۖ

فَسَكِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَتِي ۖ وَفَصِّلْ وَبَيِّنْ لَهُمُ الْآيَاتِ

مِرْكَطًا مُّسْتَوِيًّا ﴿١٧٥﴾

لقد آمنوا بالله واعتصموا به ، ما معنى الاعتصام ؟ قديماً كان الرجل عندما يقع في حوة يصرح لبيجده إنسان خارج أهوه بيده ، وهذا هو الأصل في الاعتصام ، أو يمسك الإنسان بمن ينقذه من هأويه أو كارتة ، ولحق يعطى الأسباب ، وإذا جاءت الشمس وسار فيها إنسان فقد أحصد الله الشجرة يستظل بها . وإذا ما برد المطر فيمكن أن يستتر منه بظلة ، وإذا عيش إنسان فله يعطيه سبب لأحد كور ماء ، ونعاقل هو الذي يذكر عند كل سبب من أوجد الب

بإيّاك أيها المؤمن أن يفر بالأسباب ، لأن عدم الاعترار بالأسباب يجرى الإنسان عصفم تأتية أمور في طهرها شر ، فإدام مجرب عليك هو الله فهي خير بالتأكيد ، لكنك لا تعلم .

وهذا أصل علم الإنسان في كثير من المسائل ، فالإنسان قد يحسب أمرا أنه هو
الحسن ، فيظهر له بعد حين أنه السوء ، وقد يعتبر إنسان أمرا هو السيئ ، فيظهر له
بعد حين أنه الحسن ، ولا يوجد واحد واحد إلا وفي حياته أشياء كان يصفا خيرا ، وإد
بها شر ، أو كان يظنها شر وإد بها خير ، وأشر هو ما يأتيه الإنسان لنفسه بعمله ،
أما لأمر التي تقع على الإنسان بحكمها تنشي على مقتضى علم الله لا على مقتضى
هو البشر

إِنَّهُ مُحَمَّدٌ يَقُولُ : إِنْ أَدْعُو اللَّهَ بِكَدٍ وَلَا سَجِيحٍ لِي . وَيَقُولُ : إِنْ أَدْعُو
بِأَشْيَاءٍ تَطْعَمُهَا آخِرُ لَيْلٍ : لَكِنْ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَيْسَتْ هِيَ الْخَيْرُ ، لَكَ ذَلِكَ
لَا يُعْطِيهَا لَكَ ، فَإِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَمُعْتَصِمًا بِهِ فَأَنْتَ تَهْتَمُّ لِنَفْسِكَ لِي فِي هَذَا
الْأَمْرِ مَدْخُلٌ أَمْ لَا مَدْخُلٌ لِي فِيهِ ؟ هَذَا كَانَ لَيْلٍ فِيهِ مَدْخُلٌ وَاللَّوْمُ عَلَى نَفْسِكَ وَرَبِّ
كَدٍ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْرَأَ عَذِيبُكَ مَهْرَ نَعْرِ لَكَ وَلَهُ حِكْمَةٌ فِي ذَلِكَ

وَحِطِّي مِنَ الدُّنْيَا سِوَاءَ لَأْسِي
رَضِيتُ بِحُكْمِ اللَّهِ فِي الْعَمْرِ وَالْيَمْرِ
وَإِنْ أَقْبَلْتُ كَانَ الْجَزَاءُ عَنِ الْجَا
وَإِنْ أَدْبَرْتُ كَانَ الْجَزَاءُ عَلَى الصِّرِ

وَأَمَّا السَّيِّئُ فَمِنْكُمْ أَمْنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصِمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَصَلَ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَبِمَدَامُوا قَدْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيَهْدِيهِمْ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ ۝ وَعَاقِبَةُ الْهَدَايَةِ وَتَحْرِيصُهَا وَبَيِّنَاتُ قَوْلِهِ الْحَقِّ :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ رَأَوْا مِنْهُمُ اقْبَلُوا عَلَيْهِمْ وَيَأْتِيهِمْ مِنْهُمْ نُفُوسٌ مُبْعِدَةٌ﴾ (١٧)

(۱۹۵۰)

وقال لك الرسول صلى الله عليه وسلم :

(من عمل به علم ورثه الله عِلْمَ ما به يعلم) (۱)

أى يصير سامعاً عن العلم ، لأن العلم الذى أحبه عن الله وظفه فى خدمته غيره ،

(١) بوهيم الى اطيح ، عاد ، سده ، تسمى تليدي ، ورو ، السرحي في اندر ، بشور رافعي في النصر
والمرشد المصححة للشكوك

لم يدخره أو يعطله ويحثهم الحق سبحانه وبعد سورة النساء بقوله

﴿يَسْتَفْضُونَكَ قَالَ اللَّهُ يُقْبِلُكُمْ فِي الْكَلَالَةِ
إِنْ أَمَرْتُ أَهْلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا يَصْطَفُ
مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ
أُخْتَيْنِ فَلِلَّأُولَىٰ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَتْ أُخْوَةٌ
وَرَجُلًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ بَيِّنٌ
لِّعَلَّكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾﴾

ولا استعفاء هو طلب العفا ومعناه إرادته معرفة حكم شرعي لله في أمر لا نجد
الوسائل عليها له فيه وكان الصحابة يستفتون رسول الله ، مع أنه صل الله عليه
وسلم قال لهم

(فتروني ما تركتكم يومئذ ذلك من كان قبلكم بكثرة موقع واحتلافهم على
أخباراتهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء
فدعوه) ^(١)

وجاء القرآن في كثير من الآيات ر «يسألوك» كأن الحق يعلمنا أن الصحابة
أرادوا أن يسألوا أنهم أحبوا معج الله فلماذا أن يسألوا حياتهم كلها على منج الله ، وبو
كأنوا قد كرهوا معج الله فاسألوا ، لقد وجدوا أن الإسلام قد جاء ، ووجدوا أشياء في

الجاهلية وأقرها ، ووجد أشياء قام بتغييرها ؛ ولم يرد الصحابة أن يصنعوا الأشياء على أنها امتداد لصنع الجاهلية ، بل أرادوا أن يصنعوها على أنها حكم للإسلام ؛ لذلك جاءت أسمهم الكثيرة . والمنوى تكون في حكم . والسؤال يكون في حكم وفي غير حكم . وهم يطلبون الفتوى في الكلالة ، ودقة القرآن في إيجاز السؤال . يستعثونك قل الله يفتيكم في الكلالة ، وقد تقدم من قبل الحديث عن الكلالة .

﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إلا أن الذي تقدم هذا كان عن الصلة من ناحية الأم ، وسؤال جابر بن عبد الله كان عن الصلة من ناحية الأب

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال :

(مرضت مرضاً فأتاني النبي - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وهما ماشيان فوجداني أغشى عليّ ، ففرضاً النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم صبّ وضوءه عليّ فأفقت فإذا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقلت يا رسول الله كيف أصنع في مالي ؟ كيف أنقص في مالي ؟ فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية الميراث) (١)

وفي رواية أخرى عن الإمام أحمد فقلت : إنه لا يرثني إلا كلاله ، فكيف الميراث ؟ فأمر الله آية العرائض . وبعض العلماء قال : إن كلمة « كلاله » مأخوذة من كلال النعيب ، لأن الكلاله في الشرع هو من ليس له ولد ولا والد ، والإنسان بين حياتين ؛ حياة يعولها والد ، وعندما يكبر ويضعف تصير حياته يعولها ولد ؛ لذلك فالذي ليس له والد ولا ولد يعيش مرمقاً ؛ فليس له والد سبق بالرعاية ، وليس به ولد بحمله في الكبر ؛ لذا سمي بالكلاله .

وبعضهم قال : إنها من الإكليل ؛ أي التاج . وهو محيط بالرأس من جوانبه والمقصود به الأقارب المحيطون بالإنسان وليس لهم به حصة أصل أي من الآباء ، أو من أدى أي من الأبناء .

« إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فيها مصاب ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد » أي إن الكلالة هي أن يموت أحد وله أخت شقيقة أو أخت من أم فهي ترث النصف ، وإذا ماتت هذه الأخت ، لأخ يرثها سواء أكان شقيقاً أم أخاً لأب . وإن ترك الرجل كلالاً أختين لم أكنه فهما الثلثان مما ترك ذلك الأخ . وإن كان له إخوة من رجال وسواء ، فهي هود ، قول الحق : « وإن كانوا إخوة رجالاً وساء فتذكر مثل حظ الأنثيين » أي أن تذكر من الإخوة مثل حظ الأنثيين .

ويعظم الحق الآية : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم »

أي أنه ليس يبين أحكامه خشية أن يصيب القوم الضلال . وقد عظم سبحانه أولاً بكل سلوك ، وكل خافية ، وهو العليم أبداً بما يجمع الناس جميعاً . وبذلك انتهينا بحمد الله من حواشرنا في سورة النساء



سُورَةُ الْمُنَافِقَةِ

يستقبل الآن سورة المائدة التي تن سورة النساء في الترتيب المصحفي . وسلم أن العرب له ترتيبان ، ترتيب نزل ، وترتيب مصحف . وربما يحلو لبعض الناس الذين يحاولون أن يأخذوا عن الإسلام شيئاً أن يقولوا لماذا لم يرتب القرآن حسب نزوله بحيث يبدأ بأول آية نزلت منه ، وينتهي بأخر آية نزلت فيه ؟

ونقول نزل القرآن لا كتاب منبج فقط ، لكنه منبج ومعجزة ، ورسالته صلى الله عليه وسلم جامعة لجميع الأمم في جميع العصور إلى أن تقوم الساعة ، لأنها جامعة وماتعة على يأتي بعد الرسول رسول ؛ لذلك يتفرد صلى الله عليه وسلم بمعجزة تبقى بقاء رسالته إلى أن تقوم الساعة ، ويمتدح يعطى كل أفضية الحياة إلى أن تقوم الساعة

وكان الرسل يرسلون إلى أمم مخصوصة في أمكنة مخصوصة لزمان مخصوص ؛ لأن العالم كان في شبه انحرال لعدم وجود الآلات التي تيسر الالتقاء بين الناس ، وشاء الله سبحانه أن يحتم الرسالات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لتكون على موعد مع رشد العقل البشري في أن يجعل العالم كله وحدة بحيث إن ظهر داء في الشرق فهو ينتقل إلى الغرب في الوقت نفسه ولذلك يجب أن يكون العلاج والمعالج واحداً .

أما رسالت صلى الله عليه وسلم فقد انفراد بمعجزة تبقى ، وتظل موجودة مع المنهج ، يستطيع كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول منبج الإسلام هو القرآن ومعجزة نبي الإسلام هي القرآن ، لكن لو جاءت المعجزة على طريفة وطريقة ونمط المعجزات السابقة لإخوانه السابقين من الرسل لانتهت بانتهاء زمانها بحيث تصبح خبراً وتاريخاً ، ونحن نعلم أن البحر قد انشق لموسى نعرفه خبراً ولكن لم نشهده مشهداً ، ونعرف أن عيسى عليه السلام أبرأ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله ، ولكننا لا نرى ذلك الآن إلا خبراً ، ولولا أننا نؤمن بالقرآن ، وهو الذي فصر علينا مثل هذه الأمور ربما كنا نتوقف فيها

والذين يقولون إن لإعجاز كنن للبلاغة وللمصاحفة وللمصطفى وللبياك وأمة العرب أمة بيان يقول . لقد فامت هذه المعجزة ما كان لدى العرب من بلاغة ومصاحفة وأعجزهم وأعجمهم القرآن ، وعندما نقلنا المنهج إلى الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان أو إلى الإيطاليين أو إلى أية أمة من العالم ظل المنهج على إعجازه .

وهكذا يرى أن الله قد أراد أن يكون في القرآن جانب يظن معصراً بكل الأقوام وهي المعجزات التي لا تختلف فيها اللغات ولا تختلف فيها الأمم ، وهي المعجزات العقلية ، بمعنى أن يحبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمة الأمة ، وهو الأمم ، يعرف له نشاط في علم ولا مشاهد في ثقافة ، ويدان بأشياء تتحقق بعد معنى العزوة ويعرف بها يدان لا يؤمنون بأنه جاء بها من عند الله

لقد حاول بعضهم أن يرموه عمداً إلى مرتبة الألوهية ، ذلك أنه قال بأشياء منه أربعة عشر قرناً وتتحقق الآن ، لا يقوها إلا عالم بما يكون في كونه ، ويكنهم عرفوا أن رسول الله أفقر بيشريته وهو بالمنهج مواكبا للأحداث ، ويرى بالمنهج في مسائل الكونيات التي تشترك فيها كل الأمم والتي لا تختص بمسألة دون بقية

مرل المنهج يهتمكم العالم من أمة أمة ، ثم ترقى إلى وضع وسن قانون أو دستور وأما تعود من ذلك فقد كانت أمة من الرُحل وسكان الصحراء لم يجمعها قانون واحد ، بل كان لكل قبيلة قانون ، وكل بطر قانون ، ولكل أسرة في كل بطر قانون . وجاء الرسول مبعوثاً من عند الله إلى الأمة الأمية ليحييها ما يعطى كل أمة من الله إلى أن تقوم الساعة . وإذا ما فرغ قوم من قضية من قضايا مجتمعاتهم لا يجدون حلاً لها ، لا حلاً يوفقهم من إليه يوجهنا أنه إنما أن يتعاطى مع ما جاء به الإسلام . وإنما أنه لا يخرج عن إطار الإسلام وأحكامه

وإذا كان القرآن في الأحكام قد جاء حسب الأحداث التي وقعت ، فهذا من إرادته لخلق لتحرير من يرل فيهم القرآن . وسجد في القرآن أسئلة سينعرض لها رسول الله ، وكثرة الأسئلة التي تعرض لها رسول الله تعتبر من الظواهر الصحية في الإيمان ، لأن الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان أحكام بأشياء أرادوا - كم هذا - إقامة حياتهم على منهج المنهج الذي عثفوه ، ولم يكونوا كمن إسرائيل الذي قال رسول الله في شأنهم

(إنما أمرت أن يكونوا على ما شئتوا شئتوا الله عليهم ، وأيم الله لو أنهم لم يستنوا لما بئس لهم آخر الأبد)

أى لو لم يقولوا (وإنا إن شاء الله لمهتدون) . لما اعتدوا إلى تلك البقرة .

وهناك أشياء أقرها الإسلام كما كانت في أجاهلية لأنها أمور عقلية ومنطقية ؛ لأن الإسلام لم يأت ليبرين نظماً حاصرها ، وإنما جاء ليزيل الفساد فقط . أما الصالح بطبيعته فليبق . وإن لم يكونوا قد اعتدوا إليه فالإسلام بشرح لهم الأمر ؛ لذلك كان لابد أن ينزل نص فرأى لكل أمر كبير في حياتهم ، وحين يحىء النص القرآنى بعد أن تتصلبه الأحداث ، يتمكن في القلوب . وضرباً مثلاً لذلك :

هب أن رجلاً لديه صندوق أدوية بالمنزل ، وطراً على بعض أهله حالة صحية تستدعى دواءً معيناً ؛ ولأن الرجل لا يعرف موضع هذا الدواء ، فإنه يبحث محتويات الصندوق جميعاً ليهتدى إلى الدواء المطلوب ، وقد يمضى وقت طرهل ولا يهتدى إلى ما يريد . لكن لو أن هذا الرجل لا يملك أى دواء بالصندوق ، وأصاب ابنه صداع يسير فإنه يطلب أن يشتروا له قرصاً من الأسبرين من الصيدلية . وهذا القرص قد جاء حالة الصداع وعلاجها وانتهى الأمر .

إذاً فعندما يأتى الخلل عند وقوع الحادثة فهو تثبيت لليقين . وقد يكون الخلل موجوداً في القرآن . لكنه يغيب عنهم ولا يستطيعون الوصول إليه . ولهذا ترك الحق الأحداث تحرى وجعلهم يلتفتون ويتجهون إلى السماء لتسجدهم بالخلل . ويأتى الخلل عند الحادثة فلا يصير في الأمر خلاف أو تعب . لذلك كان لا بد أن يكون للقرآن نزول حسب الأحداث ، وحين تتم الأحداث ويتم المنهج بعد ثلاث وعشرين سنة من بدء نزول القرآن يشاء الله سبحانه أن يكون ترتيب القرآن ترتيباً مصححياً .

إن كلا من الترتيب المصحفى والترتيب النزولى يعطى معجزة للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فيه سور طوال ، وآيات كثيرة ، ويعلمه جبريل . الحق هذه الآية بالمكان الفلانى . ويطرأ النسخ هذه الآيات في الصلاة ويزيد عليها الآيات الجديدة ، وتتجل عظمة الرسول حين يعلى بالآيات ويزيد عليها بما نزل عليه ، وتلك مسألة مقصودة . ويقف رسول الله صلى الله عليه وسلم لنصلاة معتمداً على أن الذى أنزل عليه القرآن قال له :

﴿ سَفَرُكَ فَلَا تَمْسِكْ ﴾

(سورة الأعراس)

وعندما يقرأ الرسول وهو يقرأ الذي نزل عليه في اليوم معه متصلاً بما نزل عليه من عام قبل ذلك ، وتلك معجزة بكل المقاييس ، لأن الفرد العادي إذا تكلم في موضوع ما نثر دقائق ثم يسأله أي مرد من بعد ذلك ساعة هل تسمح بإعادة ما كنت تقول صد ساعة ؟ . فإنه لن يستطيع أن يتذكر بالحروف والمعاني ما قاله من قبل . لكن ما نحن أولاء أمام رسول يأمر صحابته أن يكتبوا ويأمر الحفاظ للقرآن أن يحفظوا ، ثم يقف في الصلاة ليقرأ الآية التي نزلت من عام ملحقة بآية نزلت بعدها بستة أشهر ملحقة بآية نزلت بعدها بشهر ، ملحقة بآية نزلت بعدها بالأمس . وكان هذا قليلاً عن أن أمر هذه القرآن ليس بيد محمد ، بل بالمررب محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي وب حروف القرآن ليقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقاً لقوله الحق

﴿ سَفَرُكَ فَلَا تَمْسِكْ ﴾

(سورة الأعراس)

ويأت جبريل كل عام ليرتب مع محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ويدارسه في رمضان . ويأت جبريل في رمضان الآخر في العام الأخير من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمر من عليه القرآن مرتين

إذن فالمسألة ليست برول قرآن مصحح ، ولكن برول للقرآن ثم ترتيب للقرآن على صورة تحالف وإخالة والمصورة التي نزل عليها . فلو كان القرآن قد ترتب حسب المروء ، لقال بعضهم إنه مجرد تعبير عن مواقف مختلفة . لكن الحق أراد أن يعيد ترتيب القرآن ليكون معجزة أيديهم . فالقرآن ليس بأمر محمد صلى الله عليه وسلم وكل حرف نزل بهذا الترتيب مقصود به إثبات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبلغ بالقرآن ، مما كان لعقل بشري أن يرتب هذا الترتيب . بل ربه الذي أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، إنه الله - سبحانه - ومعاني جل شأنه

وهكذا جاءت سورة المائة بعد سورة الباء في الترتيب المصحح ، وعندما نظر إلى سورة المائة ، نعم أولاً ما معنى المائة ؟ إن الخواص عليه الطعام والشراب

أو الطعام نفسه ، وقد سميت بهذا الاسم لأن عيسى عليه السلام دعا ربه أن ينزل مائدة من السماء بعد أن ألح الخواريون عليه فأبى الله لفضل سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام .

﴿ تَبٰرَكَ رَبُّنَا عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝۱۱۵﴾

(من الآية ١١٥ صورة المائة)

ويحذر الحق المصنبة الحميلة مبدأ سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ لَا مَيْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرُ مَجْحَىٰ الصَّبْدِ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ إِلَّا اللَّهَ يَتَحَكَّمُ مَا يُرِيدُ ۝۱۱۶﴾

البداية - الحد - عن ضرورة الوفاء بالعقود وتحسين تناول بيعة الأنعام كطعام وسورة المائة - كما نعلم - جاءت في الترتيب المصحفي بعد سورة النساء التي تتضمن الكثير من العقود الإيمانية ، فقد تضمنت سورة النساء عقود الإنكاح والصدقات والوصية والذين والميراث ، وكلها أحكام لعقود ، فكان الحق سبحانه وتعالى من بعد سورة النساء يقول له لقد عرفتم ما في سورة النساء من عقود ، فحافظوا عليها وأوفوا بها

وسحط أن سورة البقرة جاءت بعدها سورة آل عمران ، وفي كليهما حديث عن الماديين من اليهود ، وصورة النساء والمائدة تواحه أيضاً المجتمع المدنى بالمدينة بعد أن كان انقراض يملكه يوجه مسألة تربية وعمرس العقيدة الإلهية الواحدة والسوات وقد حذمت سورة البقرة وسورة آل عمران مسألة العقيدة المهجبة والأنبياء ، وسورة النساء تتضمن حسم العقيدة الحكيمية

وهو نحن أولاء آدم سورة المائة التي يقول فيها الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا

بالعقود ، والحق يحاطب المؤمن بالاسم الموصوف ، ولم يقل يا أيها المؤمن ، وهذا يدل على أن الإيمان ليس أمراً عابراً يمر بالإنسان فترة من الزمن ، ولكن الإيمان أمر يتجدد بتجدد الفعل حتى ينعقد المؤمن الأحكام التي جاء بها العقد الإيمان ، وحين يتوجه الحق بحطابه للمؤمن أمراً ، إنما يؤكد له أنه لا يقتصر على أحد حياته ليكلفه ، وإن كان سبحانه كرم للعالمين قد خلق الخلق وأوجد الوجود وسخره لخلق .

الله - سبحانه وتعالى - لم يستخدم هذا الحق ليأمر البشر بالإيمان ، بل دعا الناس جميعاً أولاً إلى الإيمان ، فمن آمن يرسل إليه التثنية والتكليف ويكون القول الحق ، يا أيها الذين آمنوا ، أي يا من آمنتم بالله إلهاً ، والإله لا يبدل له من صفات تتناسب الألوهية ، كسلالة القدرة وجلاله والحكمة والفهم . وسبحانه لا يكلف من لم يؤمن به ، بل يدعو من لم يؤمن إلى الإيمان ، ولذلك نجد أن كل آيات الأحكام تبدأ بالقول الحق : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم ، لأن لكل إيمان تبعه

يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، ويعرف أن اللمعة بها سرية أفعال ، قد أوفوا ، على سبيل المثال فيها « وفي » والمصارع هو « يمين » ، وفي أفعالها « وفي » ، وحسب المراحل المختلفة قوة وصحة وكثرة وقلة ، مثال ذلك قوله الحق

﴿ وَابْرَأْهِمَ الَّذِي وَفَّى ﴾

(سورة النجم)

وقد قام سيدنا إبراهيم عليه السلام بالكثير من الإحسان

﴿ وَإِذْ أَيْتَنَّا لِلْإِبْرَاهِيمَ رَأْيَهُ يَنْكُبُ النَّجْمَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة البقرة)

ولا بد أن يكون قوله الحق : « وبرايمم الذي وفى » شرحاً لما قام به إبراهيم من مواجهة الاعتلاء ، فالنوبة هي الإحسان . والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، أي عليكم يا من آمنتم بالله أن تنموا العقود ، والنتيجة إما أن يطلق إلى الأمد وسجلها فلا ينقص فرد ، وإما أن يلتصق إلى الكميات فلا تختل كمية ، هذه من النتائج . وقد يأمل إنسان بكل حصول الكتاب وقرأها ، فيكون قد وفى قراءة كل الأجزاء ، ولكن الحق يريد أن يتقن الإنسان تنمية كل جزئية في كتاب التكليف

ومبجانه طلب ما أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيم الصلاة وأن تؤتي الزكاة وأن تصوم رمضان وأن تنحج البيت إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، وقد يؤدي شخص كل هذه الأعمال وبذلك يكون قد قام بأداء الكليف ، لكن هناك إنسان آخر يؤدي كل جرثية بتأامها فلا يختصر شيئاً منها بل إنه يوفيها بلا تدليس .

واحق هنا يخاطب المؤمنين : يا أيها الدين أموا أوغوا بالعقود : أي أما أمام الإيمان ، وه عقد . وشرحنا معنى الإيمان ، أما العقد فهو العلاقة الموثقة بين طرفين ، وكل كل طرف أن يلتزم بما عليه وأن يأخذ ماله . وسمى العقد عقداً ؛ لأن العقد هو الربط ، أي شيء لا ينحل من بعد ذلك . ولذلك تسمى ما يستقر في مواجيد الناس ونفوسهم « عنيده » . لأنها الأمر المقنود ، وليس الأمر الطارئ الذي يأتي اليوم ويتسبى غداً . والشئ المقنود في نظر الفقه هو الأمر الذي لا يطفو على العقل ليبحث من جديد ، بل إنه مستقر وثابت في القلب . ويلزم مبجانه بالوفاء بالعقود . والعقود كما نعلم هي جمع لـ « عقد » وبالإسلام عقود كثيرة ، تبدأ بالعقد الأول وهو عقد الدر .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۖ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ إِنَّا كَانُوا عَلَىٰ شَاكِرِينَ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ويريد مبجانه الوفاء بهذا العهد الأول فلا يأتي الإنسان ساعة التطبيق ويقر منها ، ثم تأتي إلى عهد الاستخلاف في الأرض وفيه استخلف فيها آدم ودرته من بعده ، وإليك أن تظن أنك الأصل في الكون حين تدوم لك الأسباب وتذهب لك بعض الوقت . لا تظن أن الأشياء قد دانت لك بمهارتك أنت فقط ، وحين تبدر الضرر في الأرض وتروى الأرض ما علم أن الزرع ينبت بتسخير الله أرضه لك .

ولياك من الظن لحظة تركب المهر أنك الخيال افارس الذي روض المهر ، لا ، إنه تسخير الحق للفرس . وسجد الفرس في بعض الأحيان يجمع ليقع الفارس من فوق ظهره ، لعلنا ننتبه إلى الجزئية التي لا يصح أن تغيب عنا ، فلو لم يدل الله الخليل لما استطعنا أن نركبها

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِن مَّغْيَمَاتِ أَيْبٍ ثَمَنًا مِّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾
وَدَنَسْنَاهُمْ فِيمَا رَكَّبُوا مِن مَّاءٍ يَدَّكُونَ ﴿٥٧﴾﴾

(سورة يس)

وعلى المؤمن أن يتذكر أيضا أن الحق سبحانه ذيل الجمل لصاحبه ، وحمل الطير الصغير يأمر الجمل فيركل على الأرض ، يضح عليه الأحمال الثقيلة ، ويأمره فيقول
أف إن واجه الثعبان أو الحية فهو لا يمرز على تدليلها ، وهذا نعمت من الحق لمخلوق
لقدرته المطلقة ، فقد ذلل لهم الكبير ، وأمرهم أصغاف ذلك من الثعبان حتى الحسم
الصغير .

﴿وَدَنَسْنَاهُمْ فِيمَا رَكَّبُوا مِن مَّاءٍ يَدَّكُونَ ﴿٥٧﴾﴾

(سورة يس)

ومن التدليل بأن دسوخ فيه الكائنات للإنسان ، فالحمار عند الفلاح يحمل
السيك للأرض من بقايا فضلات الإنسان والحيوان ، ولا ينطق الحمار معترضا ، وبأن
الفلاح يترقى في حياته ويصير شيخا مدخرا ، فبأمر أن يستحم الحمار ، ويشتري له
الفرج يركبه وهو ذاهب للقاء للمور في المركز ، ولم يهضم الحمار في مخالته إنه
التدليل

إنك أن تظن أن مهندتك وحدها أي الإنسان هي التي ذللت الكائنات ، فلو
اعتمد الأمر على المهارة وحدها ، لدلل الإنسان البرغوث الصغير الذي يهاجمه في أي
وقت ، وقد يهرعت ذلك البرغوث الصغير حيوان الليل ، وقد تمهر أسرة بأكملها من
سجل قتل برغوث واحد

﴿مَصَّافٍ أَلْفَايِبٍ وَأَلْمَلُوبٍ﴾

(من الآية ٧٣ سورة حج)

ولذلك أمرنا الحق أن نقول قبل البدء في أي عمل « بسم الله الرحمن الرحيم »
إنك أن تقبل على العمل بقوتك وحدها ، فالعمل إنما ينفع لك لأنه سبحانه قد
حطمه لك ، وأنت تبدأ العمل باسم الله لأنه سبحانه الذي استخلفك وأعطيك لك
لكائنات المدلة

ثم هناك ذلك العهد الذى قال فيه الحق لأدم :

﴿ قَنْ أَتَّبِعْ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

والعهد الذى قال فيه الحق :

﴿ قَنْ تَبِعْ هُدَاىَ فَلَا سَرْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

وهذا عهد لكل البشر ، والمسلمون عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العفة بأن ينصروه ويمنعوا عنه ما يأمرون عن أنفسهم وعاهدوا الرسول فى الحديثه .

إن الحق سبحانه يأمر بالوفاء بكل العقود ، وكل ما نتج عن فطنة العقائد وهو الإيمان بالله ؛ فما جاء من الله الذى أمست به يعتبر عقداً أنت شريك فيه ، لأن العقد يكون دائماً بين طرفين ، ولم يرغم الله أحداً على الإيمان به ، ولكن الإنسان يؤمن بالله اختياراً ، ومادام المزمع قد آمن بالله من طوع اختياره ، فلا بد أن يتبع منهجه

ومن آمن هو الذى يذهب إلى الحق قائلاً : يارب إن ما تأمر به سأفعله وهذا اعتراف بالعقد . وكتابة أى عقد إيمان هو تسمية لهذا العقد والتوقيع مع الله ، وبذلك يشترك العبد مع الله فى هذا التعاقد ، لأن إيمان العبد بالله يجعله طرفاً فى العقد . والإله يشرع له ، وينفذ العبد التشريع ليتلقى الجزاء الأولى

العقد إذن قد يكون بين العبد وربه ، أو بين العبد وخلق الله اسلوبين له ، أو بين العبد ونفسه ، لكنهم أعتقوا على العقد الذى بين الإنسان ونفسه اسماً هو « العهد » وهو النذر ، كأن ينذر العبد الصيام أو الصلاة ، ويجب على العبد تنهيد ما نذر به مادام عاهد الله على ذلك . والعقد الذى بين العبد وغيره من البشر وكذلك العقد بينه وبين نفسه إنما يتبعان من العقد الأساسى وهو العقد الأول . إنه الإيمان بالله .

إذن فقول الحق : « أولوا بالعقود » أى نذروا ما أمر الله به حلالاً ، وامتنعوا عن

الشيء الذي جعله الحق حراماً ، ولا داعي - إذن - للاختلاف في معنى « المقود »
والسؤال هل هي المقود التي بين العبد وربه ، أو بين العبد والنفس ، أو بين
العبد ونفسه ، فكل ما سح من العقد القيمة هو عقد هي النفس والارام عليه أن يور
به

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام » سبحانه يستهل
السورة بالوفاء بالعقود ، ثم إعلان تحليل بهيمة الأنعام ، ويعرف أن الإنسان قد طر
عل الكون ، وأنه سبحانه قد خلق الكون أولاً ، ثم خلق الإنسان فيه ، وهذا من
رحمة الله بالإنسان فلم يخلق الإنسان أولاً ، بل خلق له الشمس وأعد لكون قبل أن
يخلق الإنسان ، وحسن طراً الإنسان على الكون وجد فيه قوام الحياة من الجهد ومن السب
ومن الحيوان

وقمة المسخرات للإنسان هي الحيوان ، لأن الجهد واليات يعتمدان الحيوان ،
ويشارك الحيوان مع الإنسان في أن له حياة ودماء وجوارح وجاء الحق من الإعلان
من أعلى المراتبة في خدمة الإنسان وهو بهيمة الأنعام « أحلت لكم بهيمة الأنعام »
ويأمرنا بأن نوفي بالعقود ، وله سبحانه وتعالى كل الحق فقد قدم لنا الشمس بخلق
الكون مسخر لنا وقمة المخلوقات المسخرة هي الأنعام كان « أحلت لكم بهيمة
الأنعام » حيث مقدمه من الحق ، ويلاحظ أنه جاء هنا بصيغة المبني للمجهول في
« أحلت » ، لأن الإيمان جعل طرف في أن تكون بهيمة الأنعام رحلاً لنا

ووقف المعناه عند « بهيمة الأنعام » ، وفي اللغة العربية سجد صيغة « فعل » التي
تأتي بمعنى « فاعل » وتأتي بمعنى « مفعول » ، مثلاً نقول « الله رحيم » أي أنه راحم ،
هو « فاعل » ، ونقول « ملائكة قتل » أي مفعول أي مفعول به ، وه « بهيمة الأنعام »
ه تأتي بأي معنى ، أي بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول ، وه « بهيمة » إن نظروا إلى أنها
بهيمة ، لأن أمورهم مجهولة يصعب إدراكها علب ولا يعرف حركتها أو إشاراتها أو
باعتها التي تتداهم بها فتكون فعليه بمعنى مفعوله ونصلح أن تكون فعليه بمعنى
داعل ، لأنها لا تفهم ، ونحن المبهمون عليها ونقول هي محكومة بالتسخير

ولم يصنف الإنسان طعامها وهو العلب لا بعد أن رأى وهي سائبة حرة توجه إلى
العلب لتأكله ، إذن فهي التي عصب الإنسان صنف طعامها فلا يهتوي إنسان

إنها بهيمة لا تفهم . وليعرف أن لم تخلق لتفهم مسائل الإنسان ، لأنها مسخرة له وقد يتعلم هو منها

ودليلنا أن الله امتن على بعض المصطفين من خلقه بأن علمهم منطلق الطير ، فقد حرّ في نفس الملهد أن رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وهو الطائر فقد فهم أن السجود لا يكون إلا لله الواحد القهار لا للشمس ، وهكذا نرى الإنسان يتعلم الكثير من أخلاق الحيوانات وهاداتها ، ولذلك نجد هولة تربية الحيوانات يتعرفون على طعام هذه الحيوانات بعد أن يتتبعوها ويعرفوا ماذا تأكل ، وعن أي شيء تبتعد ، والفلاح يقدم البرسيم للجاموس ولا يقدم له النعناع ، لأنه رأى الجاموس وهو حرّ لا يأكل النعناع بل يأكل البرسيم ، وقال الحق على لسان النمل :

﴿ أَذْهَبُوا مَسَكَنَكُمْ لَا يَخِطُّكُمْ مَلِيَمٌ وَجَنُودُهُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

نحن إذن الذين لا نفهم لغة النمل ، ونجد البهيمة محكومة بالغريرة ، لكن الإنسان يملك العقل ، لكنه يغشى عقله بالهوى .

وقول الله : « أحلت لكم » دليل على أن الذي أحلها ، جعل التحليل لها في التفسير بدليل أن الحبل إن التف حول رقبة جاموسة أو رقبة خروف وقبل أن يفتق نجد الحيوان يمد رقبته ، فيقول الناس : لقد طلب الحلال ، فتأمر الجرار . وكأنه - وهو الحيوان - يطلب الذهب لينتفع الناس به ، وكأنه يحس بالخساسة إن ضاع لحمه بلا فائدة ، وهذا دليل على أنه مدلل ، أما الحيوان غير المحلل فمن العجيب أنه لو حدث معه ذلك لما عد رقبته .

والأنعام هي المذكورة في قوله الحق :

﴿ تَحْسِبُهُ أَوْجَعًا مِّنَ الْبَاطِنِ أَتَيْنَ وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْنَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

وكذلك قول الرحمن :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَنْفَرَتْ أَنْفِي﴾

من الآية ١٤٤ سورة الأنعام

أيها ثيابة أزواج ، ثم احق رسول الله صلى الله عليه وسلم الطيب وحرر الوحش . ولم يحرم ، لا كل ذي ناب كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ، ولو لم يقيد الله هذا التحليل لانصراف بدون قيد ، ولأساس إلى أنفس بأكل الميتة والموتودة والمترية ولكن احق بقدا من ذلك وحرم عليه تنك الأشباه الضلوة

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » إذن فمن حق الله عليكم أيها المؤمنون أن يوفوا بالعقود ، لأنه قدّم لكم الكون بكل أحسنه وكل عناصره لخدمكم وأحلّ أقرب الاجناس إلى الإنسان لما فيه من حياة وحس وحركة ، فلهذا « غير محرم » وأنتم حرّم إن الله يحكم ما يريد ، ولو لم يضع الحق ذلك التشريع لأكّل الإنسان - وهو محرم - بيته الأنعام ، وقد حرم سبحانه الصيد في أثناء الإحرام ، وكذلك وحرّم الحرم - كما يعلم - مركزه الكعبة ، وحول الكعبة مسجد .

وتختلف مناطق الإحرام وتسمى بمناطق المكاني ، فليقارن المكاني بالحج والعمر من كان خروج الحرم (هو الحرم) وذلك للمتنوعة من المدينة وهي (أبار على) ، وبطرحه وهي الآن (ربيع) للمتنوعة من مصر والشام المغرب ، (وبنملم) للمتنوعة من عجمه ، (وقرّة منازل) للمتنوعة من نجد اليمن وسجد الحجاز ، (وخاب عرق) للمتنوعة من لشرق والغرفة وعمره

أما ميقات المكاني للحج من مكة فهو مكة نفسها ، أما ميقات العمرة فكأن من بالحرم هو الخروج لأدى الحقل وهي الجمرة لم التحريم (مسجد عائشة) ثم الحديبية

والميقات الزماني للحج شوال وهو الثمعة وعشر لوال من ذي الحجة ، أما ميقات العمرة : زماني فهو جميع السنة إلا إذا كان محرماً بالحج أو بحمرة أخرى أو كان ذلك من المنع لاشتغاله بالرعي والبيت لمتمتع الإحرام بها والتعميم والجمرة والحديبية ، تلك هي حدود الحرم والصيد في حدود الحرم حرام ، في كل زمان وهي كل إنسان ، أما غير الحرم ، فالصيد حرام لمن كان محرماً فقط ، وغير بالحرم من حقه للصيد

وبذلك يؤدب الحق سبحانه وتعالى خلقه ويجعلهم على ذكر دائم لمنهج حياتهم في مكان ويقول لهم : الصيد محرم في هذا المكان ، والطعام والشراب محرم في هذا الرمان ، كصوم رمضان . وهذه الشهور عندما كسبتمون اثنا عشر شهرا . أربعة منها حُرِّم . توالفلة وذوالحجة والمحرم ورجب

وفي الميقات يحرم الصيد على الحاج فقط ، وهذا انضباط إيمان . وعندما يأتي الإنسان إلى الميقات فهو يحرم ، أى يعبر وصحة ويلبس لباساً خاصاً بالحج ، يلبسه كل الناس ليكون الكل مواسية ، لأن الناس إنما يتميزون بهدايتهم وحيثاتهم ، فيأمر سبحانه أن يطرح الإنسان هذا التمايز من فور الإحرام . وما كان من الحلال أن يفعله المسلم قبل الميقات وقد منعه الإسلام منه لا يجرؤ على أن يفعله بعد الميقات والإحرام .

ويستطيع المسلم قبل الميقات أن يعلق ويتطيب ويصطاد ويقطع من الثمار ، لكنه ما إن يبدأ الإحرام يمتنع عن ذلك حتى يستعد لما يشعش أحياته بالوجود مع المنعم لا مع العنة ، هذا هو التهيؤ للدخول إلى بيت المنعم ، ولذلك يضيح المسلم النعمة على جانب ليقى مع المنعم . ويمنع الإنسان أن يصيد في الحرم محرماً كان أو غير محرم ليشعر الكل أن الحرم لله فقط . وتستعد كل النفوس للقاء المهيبة ويمتنع الإنسان من أول الميقات عن أشياء كثيرة بدنية من الصيد والاستمتاع بالحقوق الزوجية ، ثم يدخل منطقة يحرم فيها الصيد على كل الناس كرمز للمهابة

ويحج المسلم في حياته مرة واحدة كأداء للمفريضة ، وفي كل مرة تحج وتفصد بيت ربك بوصح الله لك فيها . لا تشغل بالنعم لأنك ذاهب إلى المعص ، ويحج سبحانه بلحج كل الذنوب . « غير على الصيد وأنتم حُرِّم » فإن أردناها محرمين فهي صحيحة ، وإن أردناها للحرم فهي صحيحة ؛ لأن الصيد محرم في منطقته ، الحرم للمعاج أو لغيره .

ويديل الحق الآية : « إن الله يحكم ما يريد » وسبحانه بدأ الآية بقوله « يا أيها الذين آمنوا » هكذا نرى أن التدليل منطقي يتفق به آخر الآية مع صدرها ، لأن الله حين يخاطب المؤمنين الذين آمنوا به ، فمن لوازم الإيمان أن يتفقدوا حكم الله الذي

أمور به ، وملازم المؤمن قد آمن بالله ، لما ظلمته إلى ما يريد ، الله من أحكام ليعلمه لكن عسوية الآية قد تجعل واحدا يمزج حجر الآية عن صدرها ، وجهه في التشكيك في الإسلام ، فيقول : إن الله يقول إنه يحكم ما يريد ، وقد أراد من الناس من يؤمر ومن لا يؤمر ، فكيف يقول : يحكم ما يريد ، ، يبي لا يؤمر الكل ؟

ويقول : لا نعرف حجر الآية عن صدرها ، لأن الله إنما يحاطب في هذه الآية من أمر به رباً ، ومن آمن بالإله يصمد ويقصد ويتجه إلى ما يريد الله من حكم ليعطيه ولا يعتقد أحد أن الكافرين يخرجون عن إرادته سبحانه في قوله : إن الله يحكم ما يريد ، والذي نورد على حكم الله يقتضيه المنطق أن يظل متمرداً على حكم الإله

لكن المتمرد على حكم الله التكليم الشرعي لا يجر ولا يملك أن يكون منظم مع نفسه ، فإن حكم الله عليه بالضعف فليقل للضعف لا ، ، ليس أصعب وأقوى لا أحد يملك من مثل هذا الأمر شيئاً المتمرد يأخذ ذلك الموت وهو غير مريض ، لماذا إذن يصنع غرور المتمرد إزاء الموت ؟

إذن هناك أمور يخضع فيها الإنسان - كل إنسان - لحكم الله وخضوع الإنسان لحكم الله في بعض الأمور أقوى من خضوع المؤمن له ، لأن المؤمن حين آمن بالله يستقبل الموت - على سبيل المثال - كحكم من الله ، أما المتمرد الذي لا يصل ولا يؤدي أي أمر تكليمي ، ويتمرس للأخبار بما فيها موت ، فهو يعال من كل ذلك مشقة واحدة تقوى حدة استقبال المؤمن للأخبار أو الموت

إذن فتقوله الحق : إن الله يحكم ما يريد ، هو قضية عامة ، لأن الذي نورد على حكمه سبحانه فيها له فيه اختيار ، كان من الواجب أن يكون منطقياً مع نفسه ، يصمد على حكم يحريه الله عليه ، وذلك بعكس كثير من الأحكام بوصفية منها لا تمرى على هذا المتمرد ، ويكون هنا حكم الله أقوى ، لأن المتمرد لن يجرى عن الرد على أمر الله ، فلا يظن طاق أن الله جعل للاختيار في العبد حلاقة ، لكنه جعل للاختيار في العبد تقيداً ، وللمقدرة القادرة حلاقة ، فإن نورد متمرد على الإيمان : ليس يجرى على المتمرد في أشياء أخرى إذن فالله يحكم ما يريد

ومن بعد ذلك يقول الحق .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ
الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَئِدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ
يَنْفَعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا
وَلَا يَحْرِمَكُمُ شَيْئًا مِّن قَوْمٍ أَن صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٢٩﴾

بداية هذه الآية تقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » وهي تأتي بعد آية أحلت أشياء ، كان الحق يقول للعبد : مادمت قد أعطيت فانا أمتع عك ؛ أعطيتك أشياء وأمتعك أشياء . وسبحانه حين يحظر على الإنسان شيئاً ويمنع منه ؛ فهو يعطى هذا الشيء لآخر مؤمن ، ومادام الأمر كذلك فلا يستطيع ولا يصح أن تنظر إلى الشيء المسلوب منك فقط بل انظر إلى المسلوب من غيرك بالنسبة لك .

وعلى سبيل المثال حين يأمرك الحق : « لا تسرق » ، فأنت شخص واحد ، ويقيد سبحانه حريتك بهذا الأمر ، ويقيد في الوقت نفسه حرية كل الناس بالنسبة إليك وعندما تقدر الأمر بالنسبة لنفسك تجد أنك المستفيد أساساً ؛ لأن كل الناس مستطيق حكم الله بالآلا يسرقوا منك شيئاً ، وفي هذا خدمة لكل عبد . وهب أن واحداً سرق ، إنه من يستطيع أن يسرق من كل الناس ولو سرق ألف من الناس شخصاً واحداً فما الذي يبقى له ؟

وحين يأمر الحق العبد ألا ينظر إلى محارم غيره ، فظهر الأمر أنه تقييد لحركة

العد ، لكن الواقع أنه سبحانه قد حرّك الناس كلها من أجل هذه العبد ، وأمرهم ألا يظفروا إلى محارم غيرهم

إذن ساحة موى أيها المسلم غيباً أمر به الله ، فلا تصبب دمه على حلق ، ولكن صبب الدم أيضاً على كل الناس بقلبك لك . وبما يقول الحق : «يا أيها الذين آمنوا لا تحلو شعائر الله » أي لا تجعلوا شعائر الله حلالاً . والشعائر هي معالم الدين كلها . ويقول « هذه الدونه شعائر السر » معنى ذلك أن إذا رأينا شعيراً يعرف به الله ، وكذلك أعلام النبوة ، فهذا عدم لصبر ، وذلك علم لا لجللنا ، وثالث علم للصبر ، وكل محافظ في مصر - على سبيل المثال - تضع بنفسها شعيراً وعلماً ، إذن فالشعير هو المعلم الذي يدل على الشيء . وشعائر الله هي معالم دين الله المبركة في « أصل » و« لا تعمل » زمان ومكان ، عقائد وأحكام

لكن الشعائر غيبت على ما سمعنا مناسك الحج ، وأول عمله في مناسك الحج هي الإحرام ، أي لا نهمل الإحرام . ومن شعائر الحج الطواف ، فلا تحل شعائر الله ، ووجب عنيت أن تطوف حول البيت ، وكذلك السعي بين الصفا والمروة ، ولوقوف بعرفات ، ورمي الجمر ، كل هذه شعائر الله التي أمر ألا يجعلها المومنون ، أي أمر - سبحانه - ألا ينهكوا فيها ؛ لأن هذه الشعائر هي الضابط الإجمالي . وأن ينظر إلى أن أمر الله لكل حاج لم يحرم بالإحرام هو أمر بالعزلة بعض الوقت من النعمة ؛ لأن الإنسان يذهب للحج في رحله إلى المنعم . وأن الإنسان يفر من ماله من ملابس موحدة ولا يفاضل فيها أحد من أحد ، لأن الناس في الحياة اليومية تتفاضل بملابسهم ، وبذلك الملابس على مواقفهم الاجتماعية . وعندما يصنعون جميعاً ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً ، تكون السنة المعبرة هي إعلان الولاء لله

وكذلك عندما يأتي الأمر بالانقضاء الإنسان شعرة منه سواء أكان عظيمياً في مجتمعه أم فقيراً ويرى الناس جميعاً ويتفرق بعضهم إلى بعض فيجدون أنهم على سواء على الرغم من اختلاف منازلهم وأحوالهم وتكون دلة الكبير مساوية لدلة الصغير . وذلك بضابط زمان لا بين الإنسان والمساوي له . ولكنه الانضباط مع التكون كله ، يكن اجناسه . فالشجرة بجانب الحرم محرم على كل إنسان أن يقطعها أو يقطع جزءاً منها . وكذلك يأمس البيت في الحرم ، وكذلك الحرم والحيوانات وأيضاً يأمس

الإنسان ، لأن الجميع في حرم رب الجميع ، وتلك مسألة تصنع وعشة وروبة إيمانية في النفس البشرية . وتكون فترة الحج هي فترة الانصاف الإيماني . وتتوافق فيها كل أجناس الوجود . فالإنسان يتساوى مع الإنسان ولا يمتس الحيوان وكذلك النبات ، ويبقى الجهاد وهو خادم الجميع من أجناس الكون ، لأن الحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الحيوان ، والجهاد يخدم الكل ، وهو خادم غير محذوم ويصنع اسحق حماية للجهاد في الكعبة نفسها ، فيأمر الناس باستلام الحجر الأسود أو بتقيله إذا تيسر ذلك أو بالإشارة إليه .

هذا السيد العلي - الإنسان - على النبات والحيوان يلتزم إلى جهاد فيعطيه ويرقره ، فالذي لا يستطيع تقيل الحجر الأسود عليه تحمته بأن يشير إليه بيده ، حتى يكون الحج مقبولاً منه ، لذلك يترحم الناس للدهاب إلى الحجر الأسود ، وهكذا يكون الجهاد مصوناً في بيت الله الحرام . ويعوضه الله بأن جعله مسكناً ، وجعله شعيرة وجعل الناس تودحهم عليه وتقبله فيما لا يقبل الإنسان الحيوان أو النبات ، لكنه يقبل الجهاد أدنى الأجناس . وهذه قمة التوازن الوجودي . فالإنسان المختار المتعالي على الأجناس يسهب صاعراً لتقيل أو استلام الحجر الأسود بأمر الله .

ويرجم الإنسان حجراً آخر هو رمز إبليس ، وذلك حتى يعرف الإنسان أن الحجرية ليست قيمة في حد ذاتها ، ولكنها أوامر الأمر الأعلى ، حتى لا يستغنى ذهن الإنسان تعظيم الحجر ، فالحاج يقبل حجراً ويرجم ويرمي حجراً آخر

ويا أيها الذين آمنوا لا تحبوا شعائر الله ، لأن الله جعل الشعائر لتحقيق الانضباط الإيماني ، وبقاء ذكر الاستخلاف لله فلا يدعى أحد أنه أصيل في الكون ، بل الكل عبيد لله . والوجود كله هو سلسلة من الخدمة ، فالإنسان يخدم الإنسان ، والحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الإنسان والحيوان ، والجهاد يخدم الكل ، لكن لا أحد أفضل من أحد ، بل الجهاد نفسه مسيح بحمد الله ، وقد لا يسبح الإنسان .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٦)

وهذا الأمر بعدم إخلل شعائر الله جعل كل شميرة تأخذ حفا من التقدير والاحترام ، ولا يظن ذلك أن شعيرة من الشعائر ستأخذ لها تقديساً ذاتياً ، بل كله تقديس موهوب من الله وبه الله

« لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، أي لا تحلوا الشهر الحرام ، أي حديكم أن تحرموا هذا الشهر الحرام ، فقد جعله الله شهراً حراماً لمصلحة الإنسان ، ويحمي به سبحانه عزة وكرامته الإنسان أمام عدوه ، يحمي التكبر نفس الضعيف أمام القوى القوي القادر على القتال قد تمهوه به إلى أن يتوقف عن الحرب فترة يلتقط فيه الأنفوس ، ولو فعل ذلك لكان إصلاً لتدخل أمام الخصم ، ولذلك يأمر الحلف برمان يقول فيه أنا حرمت الحرب في الأشهر الحرم هنا يقول المقاتل لقد حرمة الله القتال في الأشهر الحرم ، وتلك حماية للإنسان ، وليدوي لثة الأمن والسلامة والطمأنينة ، فقد يمشق الإنسان القوى السلام من بعد ذلك

لماذا إذن جاء الحق هنا بشهر الحرام بينما نحن نعرف أن الأشهر الحرم أربعة ؟ إن حرمنا إلى الأشهر الحرم كجس هي تطلق على كل شهر من الشهور الأربعة ، وإد اعترض الشهر الحرام أشهر الحج وهي شوال ودو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة ، فالحق صحيح ويعرف أن لأشهر الحرم أربعة ، ثلاثة متصلة ، وهي ذو القعدة ودو الحجة والحرم وواحد منعزل هو رجب ، وسبحانه وتعالى يعلم أن كل عمل من الأعمال لا يد له من زمان ولا يد له من مكان ، فحين لا يوجد حدث ، لا يوجد زمان ولا مكان ، ولم يأت الزمان والمكان إلا بعد أن أحدث الله في كونه شيئاً ولا يقول واحد : متى كان الله ولا أين كان الله ؟ لأن «حق» و«أين» من محذوفات الله وجعل سبحانه لكل حدث زماناً ومكاناً ، وكذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليحمي عزة الناس ولجعل لهم من تشريعه الرحيم ستاراً يستتر فيه ضيعهم ، ويرجع فيه قوسهم لعمه برعوى ويرجع عن غبه وظلمه فالوجد أماكن حرمة ، وأزمته حرمة ، والأماكن المحرمة هي التي عند الحرم

﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾

(س الآية ٩٧ سورة آل عمران)

حيث يؤمن الإنسان أخاه الإنسان إذا ما دخل الحرم وكذلك في الزمان جعل سبحانه لأشهر الحرم

لقد أخذ الحق الحدث بلزمان والمكان وكان اقوى قديماً يحارب ويقترّب من النصر . وعندما جيل الشهر الحرام يستمر في الحرب ، ثم يعلن أن الشهر الحرام هو الذي سيأتي بعد الحرب ، ولذلك يأمر سبحانه بعدم تغيير زمان الشهر الحرام ؛ لأن الله يريد بالشهر الحرام أن يهيئ شعار الحرب .

وبعد ذلك يقول الحق « ولا الهدى » والهدى هو ما يهدي إلى الحرم ؛ وهو جمع هدية ، وهالاً من يقدم الكعبة هدية ، وجميع الهدايا تسمى هدياً . وهدى الحرم إنما جعله الله للحرم ؛ فالحرم قديماً كان بوادٍ غير ذي زرع ، ولم تكن به حيوانات كثيرة . وكانوا يأتون بالهدى معهم عندما يحجون ، لذلك حرم الله الاقتراب من الهدى لأنها هدايا إلى الحرم . والحجيج أفواج كثيرة ، وعندما يأتي أناس كثيرون في وادٍ غير ذي زرع يحتاجون إلى طعام ، ولا يصح أن يجعل المؤمن الهدى لعبير ما أهدي إليه ، فقد يشنق إنسان صاحب معه الهدى إلى أكل اللحم وهو في الطريق إلى الكعبة فيدبحه ليأكل منه ؛ وهذا العمل حرام ، لأن الهدى إنما جاء إلى الحرم ويجب أن يُهدى ويقدم إلى الحرم . وعمل الإنسان أن يصون هدى غيره أيضاً

« ولا الفلاند » وهي جمع « قلادة » والقلادة هي ما تعلق بالرقبة . وقديماً كان الدامب إلى الحج يحاف من الهدى أن يشرده ، لذلك كانوا يضعون حول عنق الهدى قلادة حتى يعرف من يراه أنه « هدى » ، داهب إلى الحرم . والهدى الأول هو الهدى العام الذي لا قلادة حول عنقه ، والفلاند تعبر عن الهدى الذي توجد حول رقبته قلادة وتدل عليه وتكون علامة على أنه مهدي إلى الحرم ، وقد يكون الهدي حتى عن استحلال الفلادة التي حول رقبة الهدى حتى لا تصيح الحكمة . ولحق سبحانه وتعالى حين يعبر بعبارة ما فهو يعبر بعبارة تؤدي المعنى ببلاغة .

وكانوا قديماً عندما لا يجدون قلادة يأخذون لحاء الشجر وقشره ويقطعون منه قطعة ويربطونها حول رقبة الهدى ، وذلك حتى يعرف الناس أن هذا هدى داهب إلى الحرم . ويصن سبحانه اقتنيات الواقد إليه لا من الموت العادي ولكن يطعمه من اللحم أيضاً ، ويجعل ذلك من ضمن الماسك . أليس هو من دعا هؤلاء الناس إلى الحج ؟ أليس هؤلاء هم صيوف الرحمن ؟!

إن الإنسان ما يعوم بدبح الديائح لصيوته ، فما بالنا ماخذنا ماخذنا ماخذنا

وتعلى ؟ لذلك جعل الهدى طعاماً لهيروه وتردحم الس في عبي وعرفات يكثر
لا حلودها ، ولا يد أن يكرمهم الله بالك وأطيب الطعام ، والفقر يذهب من الدبح
ويأخذ من اللحم أطييه ويقوم بتجميعه في هواء والشحم ويجريه يطعمه من طويده
وهو ما يعرف ويسمى بالقديد . والحق سبحانه وتعالى يأق بالكم بطريقه ما مشهور
اللاغة ، فهو يحرم حتى قلاده الهدى أن يلمسها أحد

ويصون سبحانه ؟ ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلاند ولا آمس الهيت الحرم
يتنونه فضلاً من ربيهم ورضواناً ، أي لا نعو أنما داهيت من ييب الله الحرم
ولا تصلوهم عن السيل ، فهم وعد الله وقد جاء هذا القول قبل أن يسر الحو
قوله

﴿ إِنَّمَا أَنُشِيرُكَونَ نَحْسَرُ ﴾

١ من الآية ٢٨ سورة التوبة

وكان غير المستعنى يحجون بيت الله الحرام من قبل روي هذه الآية ، فلم يكر
الحكم قد صدر وتسامل هل لكانرون بالله يبنون فضلاً من الله ؟ نعم
مصل الله يصر الجميع حتى الكافر ، لكن رضوان الله لا يكون على الكافر
والفصل من التجارة التي كانوا يتاجرون بها ، ومصل الله موجود حتى في أياما هد
على الكفر أيضاً

لكن كيف يتأق رضوان الله على الكافر ؟ إنه رضوان الله لتوهم في معتقدتهم
فهم يعتقدون أنهم يعملون ذلك برضاء الله ونجى دقة الفرائ حين يقولون : فضلاً
من ربيهم ورضواناً ، فهم يقل فضلاً من الله ورضواناً ، لأن العبد المؤمن هو من
يختص بتمهيد التكاليف الإيمانية

والله عطاءان عطاء الربوبية ، فهو المولى الذي استمدى إلى الكون المؤمر
والكافر وسبحانه - سحر الأسباب لكل ، هذه هو عطاء الربوبية ، والشعر
تشرق على المؤمن والكافر ، والأسباب قد تعطى المؤمن والكافر ، أما عطاء الألوهية
فيمثل في : اعمل ، ولا لا تعمل ، ويقول الحق : لا يتنونه فضلاً من ربيهم
إدع فبجنتها المنهج الإيماني - اعمل ولا تعمل - ليست في باهم ومن بعد ذلك يقول
الحق ، : وإذا حللتم فاصطادوا ، أي إذ انتهت الإحرام ، وبعد أن يخرج الحاج من
الحرم ويتحلل من إحرامه من حقه أنه يصطاد

« ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام ، وهل أن ينزل محريم
 ديرة المشركين للبيت الحرام كان من حسن المعاملة ألا بأحد المؤمنين الكفار الذين
 يزورون البيت الحرام ويعتدوا عليهم انتقاماً لما فعله الكفار من قبل ، لذلك أمر الحق
 المؤمنين ألا يقولوا : ها هم أولاء قد جاءوا لنا فلرد هم الصاع صاعين مثلي فعلوا
 معنا في صلح الحديبية عندما منعونا عن البيت الحرام . لأنكم أيها المؤمنون قد أخذتم
 من الله القوامه على منهجه في الأرض ، والعائم على منهج الله في الأرض يجب ألا
 تكون له داية ولا عصية أسرية ، ولا عصية قسبة ؛ لأنه جاء ليهيمن على الدنيا
 كلها ، ومن الضعاف أن ينتمى المؤمن من الكافر عندما يأتى إلى بيت الله . ولا يلحق
 ذلك بمهمة لقوامه على منهج الله .

ولذلك قال الحق لرسوله

﴿إِن أُرْسِلَ إِلَيْكَ لِنَبِّئِ الْفَاسِقِينَ أَنَّكَ أُرْسِلْتَ بِنُورِ اللَّهِ وَلَئِنْ كُنَّا إِلَّا نَحْنُ لِلْعَاقِبِينَ

خَصِيبًا ۝۱﴾

(سورة النساء)

وحسبنا أمر الحق رسوله أن يحكم بين الناس فذلك الحكم يقتضى عدم تغيير المؤمن
 على الكافر ؛ لأن المسلمين هم القوام ، وهم خير أمة أخرجها الله لناس كافة . ولو
 فهم الناس أن خير الأمة الإسلامية عائد عليهم لما حاربوها .

فنحن - المسلمين - لسنا خير لأنفسنا فقط ، ولكننا أمة خير الناس جميعاً .
 ولذلك قال الحق : « ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن
 تعتدوا » أى لا يصح أن يحملكم الغضب على قوم أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم
 عن المسجد الحرام عام الحديبية . وعندما يسمع الكافر أن الله سبحانه وتعالى يوصي
 من آمن به على من كفر به ماذا يكون موقفه ؟ إنه يلتمس رحمة الرب . ولذا ذلك لدفع
 للكافر لأنه لم يؤمن ، لكن لو اعتدى المؤمن على الكافر رداً على العدوان السابق ،
 لقال الكافر لنفسه : لقد رد العدوان .

أما حين يرى الكافر أن المؤمن لم يعتد امتثالاً لأمر الله بذلك ، عندئذ يرى أن
 الإسلام أعاد صياغة أهله بما يحقق لهم السمو النفسى الذى يتعالى عن الضعف والحق
 والعصية ، ويمبر الأداء القرآن عن ذلك بدقة ، فلم يأت الدين ليكتب عواطف أو

عزّوا ولا يحمل الإنسان أخطايا كي يدعوا ولم يقل اكتسبوا بفعلكم ، ولكم أوضح لنا أي لا يحملكم كرههم ويفضهم على أن تصدوا عليهم فسبحان لا يجمع الشان ، وهو البغض ، لأنه مسألة عاطفة

فسبحانه يعلم أن مع ذلك إن يكنت المؤمنين وكأنه يطلب منهم لأمر المحال لذلك فالبغض من حرية الإنسان ولكن إياك أن يحملك البغض أو الكره على أن تحتسب عليهم

وبرى سيد عمر بن الخطاب عليه قاتل أخيه ويدبر الخطاب ، يقول له أحسنهم هذا قاتل ويد ، فيقول عمر وهذا أصعب به وقد هداه الله إلى الإسلام ، فإذا كان الإسلام حب الكفر ألا يجب دم أخ لعمر ؟ ولكن عمر - رضي الله عنه - يقول لقاتل أخيه ،

عندما تراه يخ وجهك عني . فان ذلك لأنه يعرف دور العاطفة ويعرف أنه لا يجب قاتل أخيه ، فقال قاتل أخى عمر ، وهل عدم حبك لى معنى حقاً من حقوقى ؟ فقال عمر . لا بل تأخذ حقوقك كلها هناك قاتل أخى عمر لا صبر ، إن يكى عني أحب الساء فالإيمان هو الذى مع عمر من أن يتنقم من قاتل أخيه

ولا يجرمكم شأن قوم أن يحدوكم عن المسجد الحرام أن تحتلوه ، أى أنه سبحانه لا يمنع مواجيد المؤمنين ووجدانهم وصياتهم ولوجهم لى تفعل بالبغض والكره ، لأنه يعلم أن ذلك لا يطبقه الإنسان ، لأنها أمور عاطفية والمواظف لا يقس لها بتشريع . ولكن اعدوا أن هذه المواظف لا يجب لكم الاعتداء

وهكذا يتدخل الإسلام فى الحركة الإنسانية ليعمل الإنسان أمراً أو يتجنب فعل أمور ، فالإسلام لا يتدخل إلا فى النزوع وهو تعبى من مرحلة لاحقة للإدراك الذى يسبب للإنسان المعاصرة محبة أو كراهية ، ثم يمر الإنسان عن هذه العاطفة بالنزوع ، لأن مظاهر الشعور ثلاثة إدراك ، وجدان ، وبروع ، حين يمشى إنسان فى بيتان فيه أزهار ويرى المودة هناك إدراك ، ولا يجمع الإسلام هذا

الإدراك ، وعندما يحب الإنسان بالوردة ويحبها هذه حرية ، لكن أن تمتد يده لتتغصب للوردة فهذا ممنوع .

إن التشريع لا يتدخل في العممية الروعية فقط لا في محال واحد وهو ما يتعلق بالمرأة ، إن الإسلام يتدخل من أولى المراحل من مرحلة الإدراك ، فالرجل حين يرى امرأة حيلة هذه إدراك ، وعندما يشمل قلبه حبها عهد واحد ، لكن أن يقترب منها الإنسان فهذا نزوع

لقد رأف الحق بالرجل أن أمره أن يعص البصر من البداية ، لأن الإنسان لن يستطيع مطلقاً أن يفصل بين الإدراك والوجدان والروع ، فكأن من الإدراك والوجدان يصعد تفاعلاً في التركيب الكسري للرجل ، فيما أن يعف لإسكان نفسه ويكت أحاسيسه ، وإما ألا يعف فيع في أعراض الناس ، لذلك يحرم التشريع الإنسان من أول الأمر حين يأمره بعض النصير

﴿ قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَعْصُونَ مِنْ أَفْئِدَتِهِمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْصِينَ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ

(سورة النور)

هنا يتدخل الشرع من أول مرحلة الإدراك ، فعنده لا يمكن فصل الزروع عن الواحد ، لأن رؤية المرأة تحدث تفاعلاً كسرياً في نفس الرجل ، وكذلك الرجل يحدث تفاعلاً كسرياً في نفس المرأة ، أما الوردة فلا تحدث مثل هذا التفاعل ، ويستطيع الإنسان اقتناء وهرية للورود .

لأن ما أراد أن الحق سبحانه وتعالى لم يجمع المؤمنين أن نجيش عوطه البشرية بالعص والكره ، لأن ذلك يصعد مطلوب للإنسان ، وبعض من أعداء الإسلام يقول آيات القرآن تتعارض ، لأنه يقول

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَدُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا

﴿أَنذَرْتُهُمْ أَوْ آيَأْتَتْهُمْ﴾

(من الآية ٢٧ سورة المجادلة)

والسبب الإيمان يمنع ذلك

ويقول القرآن في موضع آخر

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَمْسُوكُمْ يُدْعُوا إِلَى أَنْ يَكُونُوا مِنْكُمْ قُلْ ذَايَاكُمْ وَمَا يَكُونُوا مِنْكُمْ قُلْ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَحْمِلُوا ذُنُوبَكُمْ وَأَكُونَ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فَبُدِّلْ اللَّهُ مَا تَشَاءُ فِي دِينِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

﴿مَعْرُوفًا﴾

(من الآية ٥٠ سورة المائدة)

والذي يتمنى جيداً يعرف أن المعروف يصنع الإنسان مع من يجب ومن لا يجب . أما الود فهو عمل القلب ، وهذا ما نرى عنه الله بالحب للبشرى به . أما المعروف فالتسليم مطالب أن يصنع حتى بالنسبة لمن يكرهه

« ولا يحرمكم شأن قوم أن يملوكم من السجود والحرام ، وإن فالحق لم يحمي النفس ولكنه مع السجود المترتب على الشأن ولو وجد سبب من الأسباب كم حدث في صبح الحديبية وبعد ذلك بأسر » وتعلموا على البر والتفوي »

وهذه الآية هي التي تجعل مسألة الإيمان قضية عالمية ، وكلمة « تعاون » هي وزد « فاعمل » ، والتعاون هنا من اثنين ، مثلاً نقول « تشرك » ، « هي نفسى اثنين » كأن نقول : تشرك زيد وعمر أو « شارك زيد عمر » أو شارك عمرو زيداً وكلاهما متساو . اللهم إلا تخليب واحد بأن يأخذ فاعلاً مرة ومفعولاً مرة ثانية ، والفعل في هذه الحالة فاعل ومفعول في آن واحد ، والمفعول أيضاً فاعل في الوقت نفسه

ومثال ذلك قول « قاتل فلان فلاناً » أى أن الاثنين اشتركوا في قتال أى معاملة وساعة يأخذ اثنان في فعل واحد ، فهناك فاعل ومفعول . وهناك فرق بين أن تقول : « قاتل فلاناً » هاتين هاتين الأمر الواحد بالمعنى الآخر

راجع أصله ومخرج أحاديثه الدكتور محمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

وهذا يختلف عن القول : تعاون مع فلان ، أى أن تشاركاً معاً في المعاونة .
ومسائل الحياة أكثر من أن تستوعبها موهبة واحدة . فانت حين تبني بيتاً تحتاج إلى من
يحفر الأساس ويبنى الجدران . ومن يصنع الطوب ومن يصنع الأسمنت ومن يصنع
الحديد ، ولا يستطيع إنسان واحد أن يتعلم كل هذه الحرف ليبنى بيتاً ، لكن التعاون
خصص لكل إنسان عملاً يقوم به ، فهناك متخصص في كل جزئية يحتاج إليها
الإنسان في حياة الملاهي ، والطب ، والصيلة وغيرها من أوجه احتياجات
الحياة ، والحق يأمر : « وتعاونوا » ليسير دولاب الحياة ويستفيد الإنسان من كل
المواهب لقله إخلاصه في أداء عمله ، « وتعاونوا » هي أن تأخذ بشيء فيه تتفاعل ما ،
ومعنى الشيء الذي فيه تتفاعل أنه يوجد « معين » و « معان » .

ولكن المعين لا يظل دائماً معينا ، بل سيتقلب في يوم ما إلى أن يكون مُعانا ،
والمعان لا يظل مُعانا ، بل سيأت وقت يصير فيه مُعينا ، وهذا هو التفاعل الذي تحتاج
إليه القضية الحياة التي شاءها الله للإنسان الخليفة في الأرض والمطالب أن يعبد الله
الذي لا شريك له ، وأن يعمر هذه الأرض . ولا تتأتى عمارة الأرض إلا بالحركة
فيها ، والحركة في الأرض أوسع من أن تتحملها الطاقة النفسية لفرد واحد ، بل
لا بد أن تتكاتف الطاقات كلها لإنشاء هذه العمارة .

إننا حين نبني عمارة واحدة نستخدم أجهزة كثيرة لطاقات كثيرة بداية من المهندس
الذي يرفع مساحة القطعة من الأرض ويرسمها ، وإن شاء الترقى في صنعته يصنع
نموذجاً مجسداً لما يرحب في بنائه ، وبعد ذلك يأتي الحافر ليحفر في الأرض ، ثم من
يضع الأساس ، ومن يضع الحديد . ومن يصنع « الخرسانة » المسلحة .

ثم يأتي من يرفع البناء ، ومن يقوم بالأعمال الصحية من توصيلات للمياه
والمجاري ، ثم يأتي من يصمم التوصيلات الكهربائية ، وهكذا تتعاون طاقات كثيرة
لبنائه واحد ، ولا تتحمله طاعة إنسان واحد .

إذن فالتعاون أمر ضروري للاستخلاف في الحياة . ومدام الاستخلاف في الحياة
يفتضي من الإنسان عمارة هذه الحياة ، وعمارة الحياة تقتضي ألا تفسد الشيء الصالح
بل تزيده صلاحاً ، وحين يقول الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على

الإثم والعنوان ، أى أنه يريد كونه عامراً لا كونه عبثاً ، والشئ المصالح فى ذاته بما
على صلاحه ، إذن ضرورة الحياة تتطلب منا أن نتصون على الخير لا على الإثم

والبر ، ما هو ؟ الخير هو ما اطمأنت إليه نفسك ، والإثم ما حاك فى صدر
وخشيت أن يطلع عليه أحد ، فبإشارة يأت إليك أمر تريد أن تفعله وتخاف أن يرا
غيرك وانت ترتكبه فهذا هو الإثم ، لأنه لو لم يكن إلهاً لأحييت أن يراك الناس وأن
تفعل ذلك ، إذن قوله الحق : « وتعلوبوا على البر والتقوى ولا تعوبوا على الإ
والعنوان » هو أمر لكل جماعة أن تتعاون على الخير ، وهذه مناسبة لأقول لكم
جماعة :

تعلوبوا معاً بشرط ألا تجعلوا جمعياتكم نشاطاً ينسب إلى غير دينكم ، مثال ذلك
الجمعيات المسماة بـ « الروتارى » أو « الماسونية » ويقال : إن نشاطها خيرى
ونقول : كل جمعية خيرية على العى والرأس ولكن لماذا تكونونها وانتم تظنون لم
الغرب ؟ لماذا لا تصنعون الخير باسم دينكم فيعرف العالم أن هذا خير قادم من بلاد
مسلمة ، والخير كل الخير ألا تأخذ هذه الأسماء الأجنبية وتظننها على جمعياتكم
لا يظن ظان أن الخير يصنعه غيرنا ، وإن كان لواءك من طائفة على العمل الخيري
فليعمل من خلال الدين الإسلامى ، وليعلم كل إنسان أن الدين طلب من أن تكون
كل حياتنا للخير ، وهذا ما يجب أن يستقرى الأذهان حتى لا يأخذ النظر الضامور
كل من يصيه غير من هذه الجمعيات بأن الخير قادم من غير دين الإسلام

إننا مكلفون بنسبة الخير الذى نقوم به إلى ديننا ، لأن ديننا أمرنا به وحشاً عليه
وليعلم كل مسلم أنه ليس فقيراً إلى القيم حتى يتسرف من الخارج ، بل فى دينه
الإسلام ما يديننا جميعاً من كل هؤلاء ، وإذا كنا نعمل الخير ونقدم الخدمة الاجتماعية
لنفسنا فلماذا سميها هذا الاسم ونسبها إلى قوم آخرين ، ولنقرأ جميعاً قول الله
سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٢٥٦ ﴾

(سورة هود)

فمن الإنسان منا أن يعمل الخير وهو يعلن أن الإسلام يأمره بذلك ، ولا يـ

عمل الخير إلى « الرونتاري » أو غير ذلك من الجمعيات . فنسبة الخير من المسلم إلى جمعيات خارجة عن الإسلام حرام على المسلم ؛ لأنه تعاون ليس الله ، والحق يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو يريد ما أن نبقي الخير وأن نمنع المظلم ، وعلى كل ما أن يعرف أنه لا يستطيع وحده أن يقيم كل أمنية الخير .

وقد نسال الفقير صاحب الثوب الواحد من أين أتى برغيف الخبز ، فيشير إلى بقال أعطاه هذا الرغيف . وبلغت إلى أن الله قد سخر هذا البقال أن يأتي بالخبز ليشتري منه كل الناس ، ويتصدق ببعضه على الفقير . وهذا تيسير لأمره الله . وعندما نذهب إلى المحبز ، نجد أن الدقيق جاء إلى المخبر من المطحن ، وفي المطحن نجد عشرات العمال والمهندسين يعملون من أجل طحن الدقيق الذائب للمحبز ليبيحه واحد ، ويخزبه آخر ، ويبيحه ثالث .

ويجب أن نلتفت هنا إلى قدرة الله الذي سخر بعضا من المولدين الذين فكروا في خير أنفسهم واشتروا هذه الآلات الضخمة للطحن وإنتاج الخبز ، وهي آلات لا يستطيع الفرد أن يشتريها بمفرده ، لارتفاع ثمنها وثقل من الدول الأجنبية ، وتلك الدول فيها من المعامل والعلماء الذين يدرسون الحركة والطاقة من أجل تصميم هذه الأجهزة ، ليأكل الإنسان رغيفا واحدا .

هذه هي مشقة الحق من أجل أن تنظم كل حركة الحياة ؛ فالرغيف يعرضه البقال ، وعمل فيه الخباز ومن قبله الطحان ، والمعجان ومن استورد الآلة ؛ ومن صممها ، وشاؤكت فيه المدرسة التي خدمت المهندس الذي صمم الآلة ؛ كل ذلك عمل فيه تعاون من أجل خدمة رغيف الخبز ، على الرغم من أن الإنسان منا لا يهكر في رغيف الخبز إلا ساعة أن يجرع .

إذن فحركة الحياة كلها تم بناؤها على التعاون . لكن ماذا إن تعاون الناس على الإثم ؟ إنهم إن فعلوا ذلك يندمون الخير ؛ لأن التعاون على الإثم إنما يبدأ من كل من يمين على أمر يخالف أمر الله ، وأوامر الله تنحصر في « افعل » و « لا تفعل » ، ما ليس فيه « افعل » و « لا تفعل » فهو مباح ، إن شئت فعلته وإن شئت لا تفعله .

والذى يأمر بتطبيق « اعمل » ويحزم الأمر مع « لا تفعل » ويبى عنه ويحرم من يفعله هو متعاون على البر والتقوى

ومن يحمل ضد ذلك ؟ يتعاون على الإثم والمعدوان ؛ لأنه ينقل الأعمال من دائرة « اعمل » إلى دائرة « لا تفعل » . وينقل النواهي من « لا تفعل » إلى دائرة « اعمل » ؛ هذا هو التعاون على الإثم

وقوله الحق . « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والمعدوان » صوب عبارة الكون وصيغ مع العصاد في الكون فالذى يرتقى والذى يسفل عملية الرثوة ، وهو الوسيط والسير بين الرشى والعرضى ويسمى الرثش والذى يحمل الحجر والذى بدلس ، كل هؤلاء متعاونون على الإثم والمعدوان ، حتى البواب الذى يخلص على باب عبارة ويصم أن بها شقة تدار لأعمال مشروعه ويأخذ ثمن ذلك هو متعاون على الإثم

يقول لكل هؤلاء - إياكم أن تعتنوا بـ يدرك عليكم فعل الإثم ؛ لكن لسطر مصير كل مسكم هل يترك الله أمثالكم دون أن ينهى الواحد منهم حياته بمأساة ، حتى امرأة التى استترعت الناس بجهاها ، تنتهى حياتها بالفضك من العيش ثم لا تجد مأوى إلا بقلوب الرحيمة التى لم تفتش بهذا الحمال ولم تمنع به في الحرام ؛ لأن الرجل ينظر إلى امرأة أهلته عن الإثم سيتذكر كل المصائب التى جادته منها يحكمها

لقد أراد الحق بهذا عدالة في الكون ليستقيم ، وكل من يأخذ شيئاً من إثم يكتوى بنار هذا الإثم في الحياة ، وكل فرد فيكم مطالب بعمل حصر وإحصاء لذلك الذى جاءه من غرقه وحلاله ويكتبه ، والعرض الذى جاءه من حرام وبعد ذلك يقوم بعمل حصر وإحصاء تلكوارث التى أصبته وكم كلفه من مصارف

إنه لو حصل ذلك لوجد أن الكوارث تأخذ كل الحرام ويجوز على المال الذى كسبه من حلال ولا تختلف هذه المسألة أبداً ولا يتركها الله للأخرة ؛ فسبحانه يريد أن يعيد نظام الكون ، وإلا كيف يشهد من لا يؤمن يوم الحساب قدرة الله على إجراء التوازن في كونه ؟ إن الحق أراد الحساب في الدنيا حتى لا يعيد من لا يؤمن يوم الحساب في كون الله .

إن كل معرود صوب يرى مصير معرود مسبقه . كذلك الذين يمتنعون بشركات الإثم في هذه الدنيا يجب أن يعطوا إلى نفوسهم قبل أن يموتهم الأوان ، المعذور فقط هم الأبطال الذين لا نضج لهم ولا حراية ، لأنهم يعيشون من أموال الإثم . لكن ما إن يبلغ الولد الرشد وكذلك البنت ثم ترى مالا يتدفق عليها من مصدر غير حل ، عليها أن تستحي من شراء « فستان » من هذا المال أو أن تأكل منه لقمة خبز ، وليفطن الإنسان أن الله قد أباح للإنسان أن يسأل عن مصدر المال حتى لا يأخذ لنفسه من المال الموبوء الخبيث . وأن يسأل الإنسان الصدقة خير من أن يصرف على نفسه مالا موبوءا . ولن يترك الحق مثل هذا الإنسان سائلا أبدا .

وليكتب كل واحد منكم هذا القول الكريم أمامه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وليجعلها مبرأاً يرن بها صبور الذين يراهم في الكون ، حتى ولو كانت صورة سائق اتاكسي الذي يدلس على رجل وامرأة في طريق مظلم ويأخذ أجراً على هذا ، ليحسب هذا الرجل النقود التي ستأت من هذا الباب ، وليحسب النقود التي ستخرج على ألم فيه ، أو ألم فيس يرعى من ولد أو بنت

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وصور العدوان شقي يعاني منها المجتمع وتهزه بعنف ، عدوان على الرقت لأن الإنسان يأخذ أجراً على العمل ولا يقرم به ، وعدوان يضر به إنساناً بأن يأخذ حقه أو أن يرتشى ، كل ذلك عدوان . وحتى يصير المجتمع مجتمعا إيمانياً سليماً لا بد أن يحافظ على قضية الاستخلاف في الأرض ، وأن يعلم أن هذا يقتضي عمارة الكون وعدم الإفراط فيه .

« ولا تعاونوا على الإثم والعدوان وانتقوا الله إن الله شديد العقاب » فكان هذه المخالفات السابقة التي تحدث هي نتيجة عدم التعاون على البر ، ونتيجة التعاون على الإثم والعدوان ، وهذه المخالفة عقاب شديد ، أما التقوى فمعناها أن نفعل ما أمر به الله أن نفعله ، وأن نتقي عما نهي الله عنه ، فلا ننفل فعلاً من دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » وكذلك العكس . وبذلك نجعل بيتنا ريوياً الجبار وقاية .

وبعض السطحيين قد ينظر إلى بعض من آيات القرآن ويقول : إن بها تناقضاً ، فيقولون . بعض من آيات القرآن تقول : « اتقوا النار » ، وبعض الآيات تقول :

« اتقوا الله » فهل النار وقاية ؟ وهل الله وقاية ؟ وهؤلاء لا يفهمون أن « اتقوا » تعني اجعل بينك وبين ما يؤذيك وتضيق ، فـ « اتقوا الله » تعني اجعل بينك وبين غضب الله وقاية وهي الذم التي يفتنها الإنسان بتفليذ أوامر الله بـ « العمل » والامتناع لنواهي الله بـ « لا تفعل » .

وعندما تجعل بينك وبين الله وقاية ، فأنت تجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وهكذا تتساوى « تقوى الله » مع « اتقاء النار » .

ويذهل الحق الآية « إن الله شديد العقاب » لأن ما يجعل الناس يتهاونون ويتعطلون على البر ويعتزلون على الإثم أنهم لا يجدون من مجتمعهم رادعاً ، ولو وجدوا الردع من المجتمع لحسن المجتمع أفراده من الإثم . وإن صار المجتمع وهيئة إجماع لقاطع المخالفين وأشعرهم بأنهم متهودون ، وساعة يرى أمثال هؤلاء الناس أنهم متهودون من المجتمع الإيماني فهم يرجعون إلى المذبح الحق .

فما يفرى الناس على الجرائم الكبيرة إلا تهاون المجتمع في الحرام الصغيرة وللملئح يلتفت الحق أنه لن يترك الأمر كما تركه بعض من خلقه ، لأن الخلق قد يجاملون وقد لا يفتقروا أمام ما يفعله بعضهم من أثم ، لكن الله شديد العقاب ، سيأتي العقاب في وقت ليس للفرد فيه جاء من مال أو حسب أو سبب يحصيه من الله ، فإن أطمعك ضعف المجتمع في أن تتهاون على الإثم فسلوكك أن تخاف الله ، لأن عقابه شديد .

وكيف يأتي العقاب إلى المذنب ؟ لا نعرف ، لأننا لسنا آله ، وسجد العقاب يشهد إلى المذنب في نفسه كعرض مؤلم لا يصرف المذنب فيه ما اعتقه من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس لمعالجة نفسه ، أو معالجة من يجب . ويجنود غضب الله قد لا تتأخر للأخرة بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أن يعرفها وهذه هي شدة العقاب .

وبعد ذلك يأتي الحق بأمر يحرم أشياء بعد أن حلل الله أشياء في قوله « أحلت لكم بهيمة الأنعام » . فقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين تخصيصها لما أحل من الأنعام . فقد حلل الله من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر

اثين . وأحق الرسول بها الغباء وبقر الوحش ، وكل ذات أربع من حيوان البحر ، وكان قول الله : « إلا ما بئل عليكم ، مؤذناً بأن هناك تحريماً قانعاً ميسراً ، وبين الحق بالقرآن ما يجرمه الله :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ
لِمِعْزَا اللَّهِ بِهِ وَالْمُتَخَفِقَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيعَةُ
وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ
تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْوَاجِ ذَلِكَ كَفَمٌ يَوْمَ الْقِيَامِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
دِينًا فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْرٍ فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾

الآية تبدأ بقوله : « حرمت عليكم الميتة » ، ويلاحظ أن البدلية فعل ماضي للمجهول . عن الرغم من أن الفاعل في التحريم واضح وهو الله . وإما بفتحهم سبحانه على أحد . فالإنسان نفسه اشترك في العقد الإيمان مع ربه فالقرمه - سبحانه - والعبد من جانبه التزم ، لذلك يقول الحق : « حرمت » ، حرماها سبحانه كإله وشاركه في ذلك العبد الذي آمن بالله إياها .

والميتة هي التي ذهبت منها الحياة أو خرجت منها الروح بدون نقض للهيئة ، أي ماتت حتف أنفها ، فذهاب الحياة له طريقان . طريق هو الموت أي بدون نقض بنية ، وطريق بنقض لبنة ؛ فعندما يخنق الإنسان كائنا آخر يمنع عنه النفس وفي هذا إزهاق للروح بنقض شيء في البنية ؛ لأن النفس أمر ضروري ، وقد يرهق الإنسان

وحا آخر يصره بالوصاص ، لأن الروح لا تحل إلا في جسد له مواصفات خاصة

لكن هناك جوارح يمكن أن يبقى الروح في لحسم هربا ، والمثال على ذلك اليد ، قطعت ، أما إن توقف قلب الإنسان فقد يشقون صدره ويدلكون هذا القلب بجزء مرة أخرى بشرط أن يكون المخ مازال حيا ، وأقصى مدة حياة المخ دون هواء سبع دقائق في حالات نادرة . فما أن يصاب المخ بالعطب حتى يحدث خلوف . ولذلك رف الأطباء الموت الإنشيمكي بأنه توقف المخ . إذن فهناك موت ، وهناك جن ، في كليهما ذهب لروح

وفي الموت تنحب روح أولاً ، وفي القتل تنحب الروح بسبب نقص البيه لينة هي التي ذهبت منها الحياة بدون نقص البية ، ومن رحمه الله أن حرم الميتة ، بها حانت بسبب لا يراه في عضو من أعضائها ، حتى لا يأكلها بدانها

وكذلك حرم الدم ، وهو السائل الذي يجري في الأوردة والشرايين ويعطى الجسم نفسه والحرارة ويقتل الخشاء ، ولذم مجالان في الحريك ، فهو يحمل الفضلات من كل والرئة ، وهناك دم يقي يحمل الخشاء ، والأوعية الدموية بها لونان من الدم فاسد ودم صليح . وعندما تأخذ هذا الدم قد يكون فيه النوع الصالح ويكون فيه ضار النوع الذي لم يخرج منه الشوائب التي في الكلى والرئة ، وبذلك يسمونه الدم مسوح ، أي اجازى ، وكانوا يأخذونه قديما ويألون به لأمعاء الدبائح ويقومون به ويأكلونه .

وهناك دم غير فاسد ، مثال ذلك الكبد ، فهو قطعة متوحدة ، وكذلك الطحال ، سبي صلى الله عليه وسلم قال :

(أحببت لكم ميتان وفمان ، طما ميتتان فالسمك والجراد ، وأما الدمان فالكبد طحال)^{١١٦} .

إذن فالكبد والطحال مستثنيان من الدم ، لكن إذا جيتا لندم المسفوح فهو لم . والحكمة في تحليل السمك والجراد هي عدم وجود نفس سائله بها ، فليس

(ربه أحمد وابن ماجه والدارقطني

في لحمها دم سائل ، وعندما نقطع سمكة كبيرة لا ينزل منها دم . من يوجد فقط عند الأغشية التي في الرأس ولا يوجد في شعيراته . وعندما يموت السمك ويؤكل فلا خطر منه ، وكذلك الجراد .

ويأتي بعد ذلك في سلسلة المحرمات : ولحم الخنزير . ولا يقولن مؤمن : لماذا حرم الله لحم الخنزير ؟ لقد فحب العلم إلى كل مبحث ليبرف لماذا حرم الله الميتة وكذلك الدم حتى عرف العلماء أن الله لا يريد أن ينقل داء من حيوان ميت إلى الإنسان ، وكذلك حرم الله الدم لأن به فضلات سامة « كالبولينا » وغيرها

ولكل تحريم حكمة قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خافية . والقرآن قد نزل على رسول أمي في أمة أمية لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد ، وطبق المؤمنون الأوائل تعاليم القرآن لأن الله الذي أما به إلهاً حكيماً هو قائلها ، وهو يريد صيانة صناعته ؛ وكل صانع من البشر يضع قواعد صيانة ما صنع . ولم نجد صانع أناث . مثلاً - يحظم دولاب ملابس ، مل يجده باذلاً الجهد ليكمل الصنعة ، ومادام الله هو الذي صنعنا وآمننا به إلهاً ؛ فلا بد لنا أن نعتد ما يأمرنا به ، وأن نتجنب ما نهانا عنه ، ولا يمنع ذلك أن نتلمس أسباب العلم ، وغبة في لزيد أسباب الإيمان بالله ومن أجل أن برد على أى فصولي مجادل ، على الرغم من أنه يس من حق أحد أن يجادل في دين الله ، لأن الذي يرغب في الجدال فليجادل في القمة أولاً ؛ وهي وجود الله ، وفي البلاغ عن الله بواسطة الرسول ؛ فإن اقتنع ، فعليه أن يطبق ما قاله الله . فالدين لا يمكن أن نبحثه من أذنايه ، ولكن يبحث الدين من قمته . ونحن ننقد أوامر الله . ولذلك نجد أول حكم يأتي لم يقل الحق فيه . يا أيها الناس كتب عليكم كذا ، ولكن سبحانه يقول : « يا أيها الذين آمنوا » أي يا من آمنتم بى خلد الحكم منى

وأكرر المثل الذي ضربته سابقاً : أنس ما عند الإنسان صحته ، فإذا تعرضت صحته للاختلال فهو يدرس الأسباب ؛ إن كان يرهقه الطعام يختار طبيباً على درجة علم عالية في الجهاز الهضمي ، ويكتب الطبيب الدواء ، ولا يقول المريض للطبيب : أنا لن أتناول هذا الدواء إلا إذا قلت لى لماذا وماذا سيفعل هذا الدواء .

إذن فالعقل مهمته أن ينتهي إلى الطبيب الذي اقتنع به ، وما كتبه الطبيب من عالم فمليك تميدها ، وكذلك الإيمان بالله ، فإقدام الإنسان قد أس بالله إما فعله أن ينفذ الأوامر في حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، والمريض لا يناقش طبيباً ، فكيف يناقش أي إنسان ربه : « لم كنت على هذا ؟ »

والطبيب من البشر قد يخطئ ، وقد يتسبب في موت مريض ، وعندما يشك في بؤره طبيب عامستدعي عدداً من الأطباء لاستشارة كبيرة ، ونفذ أوامر الأطباء ، لا يجرؤ أحد أن يناقش الله سبحانه وتعالى بل نقول كل لوامرك مطاعة

إننا نعد أوامر الأطباء فكيف لا نعد أوامر الله ؟ إن الإنسان يضع ثقته في البشر لخطائهم ، ولا يمكن - إذن - أن تملو على الثقة في رب السماء ، لذلك فالمعتلون هم الذين أخطوا أوامر الله وطعوه دون مناقشة ، لأن العقل كالمطبخ يوصل الإنسان إلى نية السطو ، ولكن لا يدخل معك فيه ، وحين نسمع من الله فأنت تصد ما أمر

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » وقد أثبتت التحليلات أن لحم خنزير دودة شرعية ودودة جنسية وعدداً آخر من الديدان التي لا يقهرها علاج .

والحرمات من بعد ذلك « وما أكل لحم لغير الله به » أي رفع الصوت به لغير الله نفوسهم باسم اللات والعزى عند دبحه ، ولا يقال عند دبحه « الله أكبر » باسم الله ، لأن الإنسان منتم في الكون الذي يعيش فيه بالأجاس التي طرأ عليها ، لقد جسد الإنسان هذه الأجاس في انتظاره لتخدمه لأنه خليفة الله في الأرض ، والحيوان « روح ولكنه يقل عن الإنسان بالتفكير ، والنبات تحت الحيوان ، والجماد أقل من النبات » وساعة يأخذ الإنسان لخدمة هذه المسخرات ، عليه أن يذكر الخلق لنعم ، وعندما يذبح الإنسان حيواناً ، فهو يذبحه بإذن الأكبر من الإنسان والحيوان الكون كله ، يذبحه باسم الخالق .

إن هناك من ينظر إلى اللحم قاتلاً ، أن لا أكل لحم الحيوانات لأن لا أحب الذبح لحيوان شعقة ورحمة ، لكني أكل النبات . ويعمل أن أذكر ما في النبات من حياة كنت أقتح من أكله ؟ لقد ثبت في عصرنا أن للنبات حياة ، بل وللمهيد حياة أيضاً ، لك عندما نعت حصوة من الصوان أو أي نوع من الأحجار ، طأت تعاند بدخات

المطرفة ما في تلك الخسوف من تعاقب الجريئات المتهاككة ، وقد تفعل ذلك وأنت لا تدري أن فيها حياة .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

(من الآية 14 سورة الإسراء)

والصالحون من عباد الله يعرفون ذلك ويندرون أهلهم وتعاملهم مع ما سواهم من المخلوقات جميعا - حيوان أو جماد - هل أنها مسبحة لذلك لا يمتنعون الأشياء ولا يحفظونها منها دقت وحفرت وإنما ينطقون معها حتى لو ذبحوا حيوانا فإنهم يرحمون ذلك الحيوان فلا يشحذون ولا يبنون السكين أمامه ولا يفسحون حيوانا أمام حيوان آخر فضلا على أنهم يطعمون ويسقون ما يريدون ذبحه لأنهم يعلمون أنه مسبح ولكنهم فعلوا فيه ما فعلوا لأن الله أباح لهم ذلك ليستدبروا حياتهم بأكمله فهم أهل تكليف من الله، أما ما عداهم فهم أهل تسخير .

« وما أهل لغير الله به » تشرح لنا أن الحق هو الذي حلل لنا أن نأكل من الذي له حق وحركة ، كالحيوان الذي يتعلمن للإنسان فيذبحه ، ولا بد للإنسان أن يعرف الشكر لوأهب النعمة ، « بسم الله الله أكبر » تؤكد أنك لم تذبحه إلا باسم من أحله لك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا غَمَلًا يُذِيبُهُمْ مَا مَلِكُؤَن ۖ ﴾

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْ سَرَابٍ مِّنْهُمَا يَأْكُلُونَ ۖ ﴾

(سورة يس)

إذن فالأكل من ضمن التذليل ، وعندما تذبح الحيوان لا بد أن تذكر من ذللك ذلك . ويحرم الحق أكل المنخقة ، أي الحيوان الذي مات خنقا ، لأن قوام الحياة ثلاثة : طعام ، شراب ، هواء ، وهذا من حكمة الخالق الذي خلق الصنعة ورتب الأمر حسب الأهم والمهم ، فالإنسان قد يصبر على الجوع إلى ثلاثين يوما ، لأن ربنا سبحانه وتعالى قدر لك - أيها الإنسان - ظروف الأغيار ، فجعل في جسمك مخزونا لزمن قد تفجوع فيه ، وجعل للإنسان شهوة إلى الطعام ، وغلبا لا يأكل الإنسان ليسد الرمق فقط ، ولكن بشهوة في الأكل .

إن ربنا يوضح لنا : أما أحترم شهوتك للطعام ، ولتأخذ حركتك الضرورى لها

من الطاقة ، والرائحة سُحُور في الجسم كدهون ولحم ، فإن ساء يوم لا تجد فيه طعاماً أعدت من الدهون المحرونة طاقه لك ، وهذه من دقة الصنعة ، وإن علمتها بسبب صحتها الإنسان إذا ما فرغ منها الوقود فإنها تقف ولا تسير ، أما صنعة الخلق فهو لا تقف إن توقفت الطعام ين تستمر إلى ثلاثين يوماً ، وربما حو على الإنسان قلبه إنسان آخر فأحضر له الطعام ، وربما استحال الإنسان ليخرج من مأزق عدم وجع الطعام

إن للربة العربية وصفت الشدة والعموز عقلت « ستة أذابت الشحم ، وسد أذهبت اللحم ، وستة عمت العظم » أي أن الأمر درجات ، فالإنسان يتكلى مدهته ثم من لحمه ثم من عظامه ، ويصير الإنسان عن الماء مدة تقارب ما بين ثلاثة وعشرة أيام ، حسب كمية المياه المحرونة في الجسم ، أما الهواء فلا يصير عنه الإنسان إلا بمقدار الشهيق والزفير ، فإن نجس الهواء عن الإنسان مات ، فالنفس هو أم ضرورة للحياة ، ولذلك نجد من حكمة الحق سبحانه أنه لم يملك الهواء لأحد ، لا أحداً لو امتلك الهواء بالسبب لإنسان آخر فقد ينج عن الهواء لحظة فخطب فتنهى م الحياة

والدقة العربية فيها من السعة ومن دقة الأداء ما يدل على أن هناك أسراراً لدمعان ، تلغى عند شيء ما ، عطفلاً إننا قلنا : نفس ، أوتقيس ، أوتنفس ، مع أنها ثلاث كلمات مكونة من مادة واحدة هي « الون والفاء والسين » ، النفس هم اتصال الروح بمادة خضاً الحياة بها ، ويلهم ربنا النفس فجورها وتقواها والنفس وهو الريح تدخل وتخرج من فم وأنف الحي حتى الرئة حال التنفس ولا تدوم الحياة إلا به ، ولماذا أساس الحياة هو النفس فيجب ألا تكون حياتك إلا من أجل نفس ، ويجب أن تحترم خلق الله لك وألا يكون سببك في الدنيا إلا من أجل نفس ، ولا نفس إلا الإيمان

في الدقة العربية أمثلة كثيرة لما يسمى بلجناس ، فنحن نسمي الأكل في اليها « وجبة » ، ونسمي المستوية « واجبا » ونسمي دقة القلب « الرقيب » ، ولدينا حينما نريد الشراء أن يفتنوا جاء واحد منهم بلقطين منهنين ولكل منها معز مختلف لقال

رحلت عن الدليل لكم أسير وقلبي في محبتكم أسير

فأسير في الشطر الأول بمعنى أمشي ، وأسير في الشطر الثاني من البيت بمعنى مأسر ومفيد .

فالمسخرقة إذ هي التي صرع عنها النفس ، وما دام صُرع النفس أوصلها إلى الحق فهي إلى الموت ، فلماذا جاء ذكرها مرة أخرى بعد آية ؟ لقد جاء ذكر المسخرقة لأن الإنسان قد ينحرفها بالذبح ، فإن سال منها دم ، وطرعت فيها عين أو تحرك إصبع فهي حلال . أما إن لم ينحرفها الإنسان وذبحها ولم يسال منها دم فهي حرام ، ويحرم الحق الموقوفة ، وهي البهيمة التي يتم ضربها بأي شيء إلى أن تصل للموت ، وهي قد ماتت ، تنقض بية وكذلك المتردية التي وقعت من ارتفاع حتى ماتت ، وكذلك « النطيحة » أي التي سطحها حيوان أنحر إلى أن ماتت « وما أكل السبع » وهو ما يلفي من أكل السبع من لحم ما افترسه من حيوان مأكول ، « إلا ما دكيتكم » ، والذكاة هي الذبح الذي يسيل منه الدم وتأتي بعده حركة من المذبوح . والمقصود بقوله « إلا ما دكيتكم » هو المسخرقة والموقوفة والمتردية والنطيحة ، فإن أدركها الإنسان وذبحها وسال منها دم وصدرت منها حركة فهي حلال

هذا هو رأي علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وهو معنى الإيمان وابن عباس - رضي الله عنه - وهو خبر الأمة قال - أيضا - في قوله الحق : « إلا ما دكيتكم » هو استثناء لغير الميتة والدم ولحم الخنزير ومقصود به المسخرقة والموقوفة والمتردية والنطيحة . وهذا يوضح لنا أن هناك حيوانات شرسة قد لا يقرى الإنسان عليها . وأحيانا قد يقدر الإنسان عليها فيقوم بتكثيرها بالحيال ، وأحيانا بضربها بآلة لتحتل وتضعف قليلا ويملكها الجزر ليدبحها .

وبلاحظ أن الحق لم يحدد الحيوان من الجسم الذي أصيبت فيه الموقوفة سواء أكان البطن أم الرأس أم الظهر ، فالحيوان انضروب ربما بالحجارة قد ثاق الأجزاء في الرأس أو البطن أو الظهر ، فمن الجائز أن يضرب الإنسان الحيوان الشرس ليستطيع أن يذبحه .

والحجة عندنا في التحليل أو التحريم هي : يسيل منها الدم ساعة الذبح أم لا ؟

وعمل يصور عن جسمها حركة ولو طرفة عين ؟ فإن توافر ذلك في البيضة فهو حلال ، وهكذا يعرف أن قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الثلاثة الأو وهى الميتة والدم ولحم الخنزير ومعها ما أهل لغير الله به لأنه محرم بطبيعة الإلهما العقلى .

« وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما دبح على أنصب » ويحرم على ما أكده السبع إلا إذا كان الحيوان الذى أكله السبع لم يمت واستطاع واحد أن يديهجه السبع الشرعى . وسببانه يحرم ما لم يذبح بالأسلوب الشرعى ، فلا يحل ذبح معظم بسن والذى دبح على أنصب ، أى اللذبح على الأحياء المنصورة كالأسنام و حرام ، والكلام هنا عقلى ، والتحريم هنا معلوم عقلى

و « أنصب » من الألفاظ التى وردت مرثاً ووردت جمداً فـ « أنصب » هو جمع ، مثلها بجمع كلمة « حمر » و « نفوس » و « حمر » ، وفى هذه الحالة يكون مقرو « بصل » ، ومرة تكون « أنصب » مرثاً ، مثلها مثل « طس » وهو الحبل وجمع « أنصب » ، أى حبال ، وفى هذه الحالة يكون جمع « أنصب » هو « أنصاب »

والأنصب هى حبلرة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الديان تقريباً للأله . والتحريم هنا بسبب عقلى مثله مثل تحريم ما أهل لمير الله به ، أ أهل لغير الله فيه شرك بالله فافتقد ذكر الله الذى نزل للإنسان هذا الحيوان القريب من الإنسان فى الجنس والحركة وغير ذلك . وكذلك أيضاً ما دبح على أنصب محرم لأن أنصب غير واجب ولا معط ، والواجب أن يتقرب إلى الواحد الواجب

« وأن تستقسموا بالأزلام » واستقسم أى طلب القصة ، وكانت القصة بعض الأحيان عمدة مخرجة فيريدون إلصاقها بمعبرهم ، وهنا يقال : « إن الأزلام هى التى أمرتني » . والأزلام هى قدح من الخشب مكتوب على بعضها : « أمر » رى » ومكتوب على البعض الآخر : « هان رى » وبعض من هذه القداح عمل بذا كتابة . وكان المشرك إذا أراد السفر فهو يذهب إلى سادى الكعبة أو الكاهن ، ويحمر السادن أو الكاهن الأزلام من الكبس ، ويحرك القداح ويختار ، بشرى بقلها ، فإن لم عليه « أمر رى » يسافر إلى المهمة التى يريدتها ، وإن لم يقرأ عليه ووجد غملاً هو بعيد الكثرة ، فإن وجد « هان رى » لا يسافر

ونسأل : من هو الرب الذى أمر ؟ هل هو الرب الأعلى ، أو الرب الذى كانوا يعبدونه ؟ وأى إله كانوا يقصدون ؟ إن كان المقصود به الإله الأعلى ، فمن أديهم أن الله أمر بهذا السفر لو هم عن ذلك السفر ؟ إن ذلك كذب على الله وإن كان الذى أمر هو الرب الذى يعبدونه ، فهذا أمر باطل من أساسه ، إذن « استنصم » أى أنه طلب حفظه ونسنت بواسطة القداح . وكان الاستنصم يتم فى مسائل الزواج لو عدم الزواج ، والكلام هنا فى هذه الآية عن الأكل ، فالسائق عن تحليل ألوان الصعام فلماذا هذا الاستنصم ؟

من هذا نعرف أنهم كانوا فى الجاهلية يتضممون للون من الاستنصام بالألزام ، كانت عندهم عشرة قداح وكان يكتبوا عليها أسماء ، فواحد على سبيل المثال مكتوب عليه « الفذ » وعليه علامة واحدة . أى أن الذى يسحب هذا القدح يأخذ نصيباً واحداً ، أما المكتوب عليه « النوم » فيأخذ نصيبين ، والمكتوب عليه « الرقيب » يأخذ ثلاثة أنصباء ، والمكتوب عليه « المجلس » يأخذ أربعة أنصباء ، والمكتوب عليه « المنفر » يأخذ خمسة أنصباء ، والمكتوب عليه « المسئل » يأخذ ستة أنصبة ، والمكتوب عليه « المعلن » يأخذ سبعة أنصبة ، والباقي ثلاثة أنواع مكتوب على كل واحد منها إما « المنيع » وإما « السفيح » وإما « الوغد »

وعندما يقومون بذبح الجمل كانوا يقسمونه إلى ثمانية وعشرين نصيباً بعدد الأنصبة التى بناها الأشخاص السبعة الأوائل ، أما من خرج لهم « المنيع » أو « السبح » أو « الوغد » فلا نصيب لهم ويدفعون ثمن الذبيحة .

إذن فقول الحق : « وإن تستنصموا بالألزام » أى أن مسألة طلب القسمة بواسطة الألزام هو أسلوب مجحف وحرام ، وهو لون من اليسر ، والاستنصام بالألزام خلاف القرعة ، فالقرعة تكون بين اثنين متساويين ولا يريد أحدهما أن يظلم الآخر ، فيخرجوا الموى من الاختيار .

مثال ذلك : إنسان من البشر يملك بيتاً ، وغرض كل منهما لعدل فى القسمة ويدرجان إلى القرعة بأن يكتب كل منهما اسمه فى ورقة ثم يضعها الورقتين فى إناء ضيق ويحضر طفل صغير لا يعرف المسألة ويغمض عييه ويشد ورقة من الاثنتين ، فيأخذ كل واحد النصيب الذى حددته القرعة .

ومثال آخر ، الرجل المتزوج بأكثر من واحدة ، عليه أن يفرغ بين النساء إن أراد معجبه إحداهن في سفر ، والفرقة هنا حق لا تعصب واحدة من الزوجات ، وحق ' يكون الغوى هو الحكم ، وبذلك يخرج من دائرة لوم من لا يخرج فرقتها .

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فعندما أراد صلى الله عليه وسلم ألا يكسر خاطر أي واحد من الأنصار عدهم هاجر إلى المدينة ، وتطوع كل أحد من الأنصار إلى أن يتزوج رسول الله في بيته ، وحاول كل واحد أن يسد برامه ساقه وأن يجمعها نقف أمام بيته ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

(عنوا سبلها فزينا مأمورة)^(١)

فعندما غيب الناقة وتقف عند أي بيت لم يقول أحد إن المني أثر فلاناً على لاني . جعلها الرسول في يد من لا يقدر أحد على أن يخالفه عليه ، وكذلك الاستحارة غير الاستقسام . إذن فالاستقسام بالأزلام هو المحرم شرعاً ؛ لأنها جملة غير صالحة وهي ظالمة ، ووردت في سياق ألوان الطعام

ويقول سبحانه عن كل تلك الألوان من المحرمات : ' إن ارتكبتها فسق ' فلكم فسق ' والفسق هو الخروج عن الطاعة والممان - كما علمنا من قبل - مأخوذة من محسات ؛ لأن إلف الإنسان في أول قدر كانه بالمحسات ، فهو يرى ويسمع ويشم ، بعد ذلك تأمل الأمور العقلية

وأصل الفسق هو خروج الرطوبة عن قشرتها ، هالبلعة عندما ترتطب تكمس ثمرة داخل القشرة وتخرج منها عندئذ يقال ' صفت الرطوبة ' أي خرجت من ثمرتها ، وكذلك من يخرج عن منهج الله يسمونه فسقاً ؛ تماماً مثل الرطوبة ، وفي رواية تدل على أن شرع الله سبحانه يحيط بالإنسان ؛ فالحدي يخرج عن منهج الله تكون فاسداً . ولذلك أيق المسلم أن يخرج عن شرع الله ؛ لأن الرطوبة عندما تخرج عن قشرة فالذياب يحوم حولها ويصيبها التراب وتمازجها النفس ، فكان دين الله كإطار يهي الإنسان بالإيمان

(١) سبل: الثوب لانه عام ، والمخرجه به كثير في الدين والدين ، وبه سعد في الطبقات الكبرى

وهذه الأحكام كلها تبين قضية الدين ، قضية عقيدة في الألوهية ، قضية البلاغ عن الألوهية بواسطة الرسالة وأحكام تنظم حركة المجتمع بالعقود والأمانات والأمكحة وغيرها ، كل هذه الأحكام تصنع هيكل الدين العام . وقد مر هيكل الدين العام بمرحلتين . المرحلة المكينة وكان كل هدفها التركيز على العقيدة والإيمان موحدانية الله والنبوات والبلاغ عن الله ، وبعد ذلك في المرحلة المدنية جاءت سورة النساء وسورة المائدة لتتكلم عن الأحكام

وبالعقيدة والبلاغ عن الله وبالأحكام يكتمل الدين ؛ لذلك يقول الحق : « اليوم ينسى الذين كفروا من دينكم » كأن الكافرين كان لهم أمل في أن يحبطوا هذا الدين وأن يبطئوه وأن ينقضوه ، وكذلك المزمعون بأديان سابقة أو يكتب سابقة كانوا يحسون أن بطراً عن القرآن الأفعال التي مارسوها مع كتابهم من النسيان والترك والتحريف ، ومسحاته هو القائل عن أصحاب الكتب السابقة :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة المائدة)

إذن فقد أرادوا أن ينسى المسلمون - أيضاً - خطأ من القرآن ، لكن الحق يخبر بأنهم ينسوا أن ينسى المسلمون خطأ مما ذكروا به ؛ لأن الصحابة حفظوا القرآن في الصدور وكتبوه في السطور ومن لسان الرسول مباشرة . ولم يحدث مثلها حدث مع الرسل السابقين . فقد تم تسجيل هذه الكتب المنزلة عليهم بعد ثلاثة أو أربعة قرون ، بل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن من فور نزول كل نجم من الآيات ، وكان يأمر بوضع الآيات بترتيب معين .

إن على الذين كفروا أن يعلموا من أن ينسى المسلمون خطأ مما ذكروا به وهؤلاء القوم من أهل الكتاب لم ينسوا خطأ مما ذكروا به فقط ، بل أيضاً حاربوا الكتاب عن مواضعه وكنتموا ما أنزل الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَتَرَوْنَ بِهِ كُنْهًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ

مَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ

(من الآية ١٧٤ سورة البقرة)

وهم يشعرون أن يكتم المسلمون ما أنزل الله ، يدعون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بحكم في شيء ، ثم يخبر الله ذلك الحكم ، فلا يستحي رسول له أن يبلغ . أن الحكم الذي قلته لكم قد خبره الله لي . وهل يستنكف أن يعدل الله ؟ وهذا دليل على لئامة البلاغ عن الله ، لذلك يشعرون الكافرون بالروايات المختلفة من ، يسمي المؤمنون خطأ ما ذكرو به ، لأن تسجيل القرآن كان أمينا بصورة لا تحية ، وظل القرآن مكتوباً في سطور ومحمولاً في الصدور .

والحق يعلى عن يأس الكفار من شركاء وأهل كتاب بقوله : « اليوم يشعرون الدين مرو من دينكم » يتصور لأن المراحل التي مرت بالكتب السابقة لن تترك هذا الدين قد نوحهم أهل الكتاب أن الإسلام سيمر بما طرأ عليهم ، وظن بعضهم أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب من ترك لدينهم وهدارته . وكذلك ظن من كعاد قريش أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب ، فقد كانت يدهم التوراة وهم مع تلك لا يسمعون كتابهم ، فبدر الحق على كل هؤلاء اليوم من الدين كفروا من دينكم »

وبقوله : « اليوم » يعني الزمان الذي مضى والرمز المستقبل ، فقد أتم الله دين الإسلام ورضيه لنا ورضى مكة للمسلمين ودخل الناس في دين الله أفواجا . وصار لقرآن مكتوباً ومحمولاً . وبذلك نأكد يأس الكافرين وشركاء أن يسي القرآن أو يكتم القرآن ، لأن من أنزل عليه الكتاب ، كان إذا جاء أمر يخلق به فهو قوله . وعندما مال غيب المسلمين ذات مرة إلى تربة المسلم الذي سرق وأن تلصق نهمة باليهودي البريء ، هنا يرد من القرآن قوله

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَمَا أَرَدْنَاكَ اللَّهُ وَلَا نَكُنْ نَفَخَاتٍ بِهِمْ

نَصَبًا ۝ ١٥ ﴾

(سورة النساء)

لقد أمر الحق أن يكون النبي هو الحكم العدل حتى ولو كان حاكماً ضد مسلم . يأمر الحق وموله أن يستغفر الله إن كان قد ألم به عما لم يكن ينصر المسلم الخائن على ليهودي الذي لم يسرق ، إنها سياحة دين الإسلام

« اليوم يشس الذين كفروا من دينكم » . ولقد تم دين الله ودخل الناس إلى الإسلام أهواجا ولن ينسى القرآن ولن يكتم القرآن أحد ولن يحرف القرآن أحد . ولن يحدث للقرآن ما حدث للكتب السابقة من نسيان وكتان ونحرير ، أو الإتيان بأشياء أخرى والقول والزعم بأنها من عند الله ، وهي بيت من عند الله . إذن فقد يشس الدين كفروا من أن يزيد المسلمون في دينهم ولن توجد بين المسلمين تلك المالب والعيوب التي ظهرت في الأقوم اسابيه

« اليوم يشس الدين كفروا من دينكم » فقد يشسوا من أن يعطب الإسلام ، بل إن الإسلام سيغلب . وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأتى الله إلا أن ينم موره

« اليوم يشس الدين كفروا من دينكم فلا تخشوهم » وقد حكم سبحانه ألا يأتي امر بحق لأعداء الإسلام الشياقة به . أو أن تتحقق لهم الفرصة في انكسار الإسلام ، فلا تخشوهم أيها المسلمون لأنكم مصورون عديهم ، وس تدخلوا في أسباب الخيبة التي دخلوا فيها . وعليكم أيها المؤمنون بحشية الله .

ولو أراد أحد تعير شيء من منهجه سبحانه فسيلقى العقاب ، وسبحانه لا يعير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فكتاب الله معكم وترك فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهجه ، فإن خالفتم المسبح فستلقون العقاب ، كما هزم الله المسلمين في أحد أمام المشركين لأنهم خالفوا المسبح . فما نفعهم أنهم كانوا مسلمين مسويين للإسلام بينما هم يخالفون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فلا خشية من المسلمين لأعدائهم ولكن الخشية تكون لله ، فإن ختمت محافوا الله وحافظوا على تنفيذ منهج الله ومادام سبحانه هو الأمر لا تخش أعداء الله لأنه ررع في قلوبهم اليأس من أن ينسى المسلمون المنهج ، أو أن يتريدوا في الدين ، أو يكتسوا الدين ، فهم لا يعرفونه ولا يزيدون فيه . إذن فالمب كل الميت ألا تطبقوا منهج الله .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » والإكمال هو أن يأتي الشيء على كماله ، وكمال الشيء باستيفاء أجزائه ، واستيفاء كل جزء للمراد منه . وقد أتم الله استمرار النعمة بشهام المنهج

لقد رضي الحق الإسلام ديناً للمسلمين ، ومندم وهي سبحانه الإسلام صبيحاً ،
 وبياكم أن يرتفع رأس يقول : استترك عن الله ، لأن الله قال : « أكملت »
 فلا نقص ، وقال : « أتممت » فلا زيادة . وعندما يأتي من يقول : إن التشريع
 الإسلامي لا يناسب العصر . رد : إن الإسلام يناسب كل عصر ، وبذلك أن
 استترك عن الله ، لأني مثل هذا القول تريد أن تقول : إن الله قد عمل عن كذا
 وأريد أن أصوب الله ، وسبحانه قال : « أكملت » فلا يزيد ، وقال : « أتممت »
 فلا استترك ، وقال : « ورصبت » فمن خالف ذلك فقد حُلب رصده على رصا
 ربه .

إن السائل سبحانه هو أعلم بمخلقه تمام العلم ، ويعلم جل وعلا أن المخلوق ذو
 أعيار ، وقد نظر عليهم ظروف تجعل تطييب المنهج بحدوده صبراً عليهم أو منعها
 فلا يرؤ لهم أن يترخصوا هم ، بل الذي يرحص ، فلا يقول أحد : إن هذه
 مسألة ليست في طاقتنا فباعتها عدم نحن أن هناك أمراً ليس في طاقة المسلم فقد
 خففه من البدايه . ومندم دوى أعيار ، وصاحب الأعيار يتقل مرة من قوة إلى
 ضعف ، ومن وجود إلى عدم ، ومن عزة إلى ذلة ، لذلك قدر سبحانه أن يكون من
 مؤمنين بهد المنهج الكامل من لا يستطيع القيام لموضع أو تخمصة ، فرحص لنا
 سبحانه وتعالى : « فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم »

إذن فاسم قد ذكر أن شيئاً من الأعيار قد يطرأ عن النفس البشرية ، ومندم
 استقاء الحياة يتطلب القوة ، والإنسان قد يمر بمخمصة وهي المجاعة التي تب
 الضمور في البحر ، هنا يرحص المخلص للجائع في مخمصة أن يأكل الميتة أو ما في
 حكمها بشرط الاضطرار لاستبقاء الحياة ، فلا يقول واحد من مهبل لمثال

أنا مضطر لأن أتعامل مع البنك بديراً لأن أريد أن أتناجر في مائة ألف جبه وليس
 معي إلا ألف جبه . وهذا ما هو حادث في كل الناس هنا أقول لا عليك
 بالنجدة في الألف التي تحمكها ولا نقل أن مضطر للتعامل في الربا . المضطر هو الذي
 يعيش في مجاعة وإن لم يعمل ذلك يموت أو يموت من يعوز . وقد رخص الشرع
 للإنسان الذي لا يملك مالاً أن يقرض من الزاين إن لم يجد من يقرضه يشتري دواء
 أو طعاماً أو شيئاً يضطر إليه لنفسه أو لمن يعوز . والإثم هنا يكون على الزاين ،
 لا على المقرض لأنه مضطر

إدب ومعنى اصطفي في محمضه شرط أن يكون غير محتاج إليهم ، أي لا يكون مثلاً إلى الإثم فراحته ، فعنه ألا يأخذ إلا على قدر الضرورة ومادام على قدر الضرورة فهو ليس محمل معه من هذه الأشياء محرقة إلا ما يقيم أوجه ويمسك روحه وانصطر هو من عدم الأساس البشرية ومحتاجه وتحتاج قد بسط أسبابه في الكون ومدها يذهب إلى خلقه ، وأمر الأسب استحيي لهم مؤمنين كدوا أو كافرين ، فإحدى يورخ ومحسن الزراعة ولري ولبيد واخرث فله بطلية ، والدي يتن عضه كتاجر يتسم بحرفة وتريد أرواحه

١٢٠

إن عطاء لأسباب هو عطاء الربوبية . والمصطر هو من فقد أسبابه . ويدعى
والحو عيب المصطر إذا دعاه . وقد يقول قائل . إني أدعو الله ولا يجيبني . ويقول
إني غير مصطر لأنك تدعو . على سبيل المثال . بأن تسكن في قصر بدلاً من لينة
لني تسكنها . وأنت تدعو بأن يعطيك الله سيارة فاخرة وأنت تحملت وسببه موصلات
عادية بالمصطر . إجاب . هو الذي فقد لأسباب ومهمات الحياة

وقد حرصنا من قبل المثل - وثقه المثل الأعلى - بتاجر يسود بضائع تصنع من الخارح في صناديق ثقيلة تحمها سيارات الصحمه ، ويقوم أحد العمال أمامه بحمل صندوق صحم ، فغيب الصندوق العامل ، وهنا يعرف التاجر ليسبب العامل

هذه هي المسألة في الجن البشري ، إذن فلا يردّ واحد أسباب الله من بعد ويقول
من بعد ذلك : يارب أعق ؛ لأن الله في تلك اللحظة يوصح للعبد : إن عندك
سبباً ومادامت أسباباً موجودة ، فلا تطلب من دافٍ ولا بعد أن تنته أسباب من
عندك ؛ لذلك يجب للمفسر أن يحدد بقدر الذي يردّ به السوء عن نفسه

، فمن اضطر في نفسه غير معانف لآثم فإن الله غفور رحيم ؛ ومادم سبحانه
قد رخص لنا ذلك ، فما الداعي أن يدين الآية بمعرفته ورحمته ؟ ولهم أن الإنسان
يأخذ العفر منه على أنه ستر العقاب عنه ؛ وقد يكون العفر ستر الذنب عن العبد لأن
الله رحيم وهذا ما يشرح لنا ما قاله الحق لرسوله

﴿يُخَفِّرْكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبٍ﴾

ومن الآية ٢ سورة النحل
فسيحانه يعفر ستر العقاب ، ويقدم العفر ستر الذنب فلا يماره الإنسان ويعول
الحق بعد ذلك

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ كُلُّ مَا كَسَبْتُمْ
وَمَا عَسَيْتُمْ مِنْ فَوَاحِشٍ مُكْتَبِينَ تَعْمُرُونَ مِنْهَا عَالَمَكُمْ
لَهُ فَكُلُوا مِمَّا آتَاكُم عَنْهُ وَارْكَبُوا عَنْهُ وَأَهْكُمْ وَأَسْمِ اللَّهَ عَلَيْهِ
وَأَنْقُوا اللَّهَ يَنْ اللَّهَ سَبِيحُ الْحَسَابِ﴾

بعد أن بين الحق ما حرم وما أحل ، بعد أن أحلّ غير محصور ، بل المحصور
هو المحرم ؛ لأن الحق حبيب حموم عشرة أشياء ، فإن هذه الأشياء بعشرة بسبب هي
كل الموجودات في الكون ، فلو جردت في الكون كثيرة وسبحانه وتعالى حين خلق
ادم وجعله يتأمل ويكائن للعلاقة في الأرض فسر في هذه الأرض مصبرات
استبقاه الحياة بذلك النوع

والاستبقاء نوعان . استبقاء حياة الذات للإنسان ، واستبقاء حياة نوع الإنسان ، واستبقاء حياة الذات تكون بالنفس والشراب والطعام ، واستبقاء حياة النوع تكون بالإنكاح والناسل .

إذن يوجد بقاءان لاستمرار الخلافة البقاء الأول : أن تبقى الحياة وذلك بمقوماتها ، والبقاء الثاني . أن يبقى نوع الحي وذلك بالكثرة . وحتى تبقى الحياة ويكثر الإنسان لا بد من وجود أشياء وأجاس تخدم الإنسان وتعطيه الطاقة . وطماننا سبحانه وتعالى على الرزق حينها قال :

﴿ قُلْ أَشْكُرُ لَكُمْ قُرُونًا بِأَلَدِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ وَأُنَادُكُمْ ذَلِكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٠ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِمَا يَلْبَسُونَ ١١ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا مَا بَعَثَ ١٢ ﴾

(سورة صافات)

وهو بذلك يخبرنا بأنه قدر في الأرض أقواما ، وقدر هذه الأقوات للإنسان الخليفة في الأرض ، لخصيت الإنسان هذه الحياة ، ويبقى الإنسان نوعه بالإنكاح . وحين يعد المعد السم اتى وفرما له الحق يحدها لا يحمى . ولم يحلوا الإنسان على طول تاريخه أن يحسب ويحمى نعم الله في الأرض ، لأن الإقبال على الإحصاء يكون نتيجة المظنة بالقدر على الإحاطة بالنعم . وقد عرف الإنسان بداية أنه لا يقدر على الإحاطة بنعم الله ، فلم يجرؤ أحد على أن يحدها . ولذلك قال الحق سبحانه

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ١ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة إبراهيم)

وقد استخدم « إن » وهي للأمر المشكوك فيه . إذن فهي نعم كثيرة لا نقدر على إحصائها . ونسأل . أيقول الحق لنا النعم المحللة أم الأشياء المحرمة ؟ وما أن المحلل كثير لا نهاية له ، وما أن المحرم محصور ، لذلك يورد لنا الأشياء المحرمة . وقد بين لنا الحق عشرة أشياء محرمة من النعم . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى

حيثما نكلم عن عدم قدرة الإنسان على إحصاء نعمه سبحانه وتعالى قال في آية

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوْا نِعَمَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُوْرٌ كَفًا ۝٢٩﴾

(سورة ابراهيم)

وهناك في آية أخرى

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوْا نِعَمَةَ رَبِّكَ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ۝٢٥﴾

(سورة النمل)

وظاهر كلام النامس يقول إنها صبريات تفاد وتنكرو ، ولكننا نقول يجب أن نشبه إلى أن النعمه تحتاج إلى من يعينها وهو المتعبد ، ومن تعطي له وهو المنعم عليه . إذن فمهر أمام ثلاثة عناصر - معمة ، ومنعم ، ومنعم عليه - أما من جهة النعمة وأمرادها فليس يقتد الشر على حصولها لأنها طرف المصير . ومن جهة المنعم فهو غفور رحيم . ومن جهة النعمة عليه فهو ظلم كفار . لماذا يأن الله لنا مثل هذه الحقائق ؟

فيه سبحانه لو عايننا بكبرنا وجحدونا وظننا لمنع النعمة ، ولكن استبداه نعمه الله علينا فضل من ورحة لأننا نشكنا حتى ونو كنا ظالمين وكنا كفارا ؛ لذلك كان من اللازم أن يأتي هاتين الآيتين ، فمن ناحية النعمة لن يفسر على حصرها . ومن ناحية المنعم فهو غفور رحيم . ومن ناحية المنعم عليه فهو ظلم كفار . ولذلك فعندما يرتكب الإنسان ذنبا فإن أهل الإيمان يقولون له لا تيأس ، تربت هو ، هو ، إنه غفور رحيم . ولذلك لا يستعجل أيها العبد أن تطلب من ربك شيئا على الرغم من معصيتك ، فانه غفور رحيم . وعندما ننظر إلى مقومات الأشياء ، فإننا نعرف المقوم الأساسي

لكي هناك مقومات تخدم المفهوم الأساسي . ومثال ذلك نحن نأخذ القمح ونلونه ، ونصنع من حبوب القمح دقيقا لنصنع منه خبزا . ويحتاج القمح إلى مقومات كثيرة حتى يخرج من الأرض . وهو مقوم أساسي - إن القمح يحتاج إلى ري منتظم وحرث وخلاف ذلك ، إذن فالله خلقنا فخلقنا فخلقنا هذه الأشياء ، ومادام قد قدم لنا كل هذه الأشياء ، فعلمنا أن نسمح بحالهم . وهو قد أوضح : وإياك أن تظن أن كل ما خلقت من خلقي فأننا نحله لك ؛ لأن قد أخلق مخلقا ليس من طبيعته أن

تساوله ، وليس من طبيعتك أن تساوله ، ولكن لهذا المخلوق عمل فيها تساوله كالحرث والري والتسميد للقمح ، إنها وسائل وأسباب للحصول عليه . فإذا ما قال قائل : مادام هو سبحانه قد خلق هذه المحرمات فلماذا حرمها ؟

ونقول : هذه الأشياء ليس لها عمل مباشر عليك ولكن لها عمل آخر في الكون وإذا كنا نحن البشر نصنع آلة ما ، ويقول المخترع لنا : قد صنعت هذه الآلة - على سبيل المثال - لتدار بالديزل ، وآلة أخرى تدار بالبخار ، والبزير أنواع ، ولو جئنا للآلة التي تدار بيسرين ووضعنا لها سرلارا ، ما الذي يحدث لها ؟ إنها تفسد ، هذا في المجال البشري فما بالنا بمخالق البشر ؟

لقد صنع الحق صمته وهي الإنسان ووضع المواصفات التي تسير هذه الآلة ، علينا أن نحقق لتعاليمه حتى لا نفسد حياتنا فلا نخرج عن تلك التعاليم ، لأنك عندما تخالف وتخرج عما وضعته لصنعتك من نظام ، فالآلة التي من صناعتك تفسد .

وفي حياتنا آلاف الأمثلة . فالدي صبح الكهرباء ووضع العلامات للأسلاك السالبة والأسلاك الموجبة ، لأخذ الصوت أو الحركة . وإذا ما حدث خطأ في هذه الوصلات الكهربائية ؛ تفاجأ بحدوث قطع في الكهرباء ، وقد تحدث حرائق نتيجة شرارة من الاتصال الخاطئ .

إذن فكل تكاثر ونجاة من كل سالب وموجب أي ذكر وأنثى لا بد أن يكون على مواصفات من صممه وإلا يحدث قطع ودمار ، فإن تروجوا بشرع الله ورسوله ، استقامت الحياة ، وإن حدث شيء على غير شرع الله ، تشتعل الحرائق في الكون .

ولذلك نحمد العجب أمامك عندما تشهد عقد قران ، نحمد وفي الزوجة وهو مبسم منشرح بوجه الدعوات للناس لأن شابا جاء يتزوج ابنته ويقدم الحلوى ، لكن لو كانت هذه العروس تجلس في المنزل وحاول شاب أن يتلصص لرؤيتها ، فما الذي يحدث في قلب والدها ؟ إنه يفس من الصيق والحضب والتوتر ومن الذي يتلصص لأنه ذهب إلى الفتاة بغير ما أحل الخالق . لكن عندما يديق الباب ويخطبها من أبيها ،

فالآب يمرض ، فقد جاء في الأثر (جدد الحلال بعد المبر)

ومحمد الأب ينتقل من موقف العبرة إلى موقف المرح يوم وفات بنته ، وبدهم
الأم صباح اليوم التالي لبرهاف لترى حاله يتها وتطمش ، حل الآية سعيدة أولا
إذن فلا يقول أحد إن الله خلق أنبياءه فلهذا حرمها ؟ لأن الله خلق تلك الأشياء
وفع عمل فيها أحل ، ومما دام سبحانه قد جعل هذه الأشياء عملاً في أحل - فب
لك دخل إلا بالحلال

ولذلك يقول الحق رداً عن تساؤل المؤمنين : يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل
لكم الطيبات ، أي أن كل طيب قد حسنه الله ، وكل حيث حرمه الله ، فلا تقرب
هذا طيب فيجب أن يكون حلالاً ، وهذا حيث فيجب أن يكون حراماً ، ولك
قل ، هذا حلال فيجب أن يكون طيباً ، وهذا حرام فيجب أن يكون خبيثاً ، وإذا
أن تحكم أولاً بأن هذا طيب وهذا خبيث ثم تبقى هل ذلك التحريم والتحليل
فأنت لا تعرف مثلاً يعرف حالفك من كيمه وحدوى ترتيب الأسماء بالنسبة لك
حق لا تقع في دائرة الدين يستطيع المسائل الضارة : كهؤلاء الذين يادرو
المخدرات والسموم والخمور ، بل يجب أن نحرم من فهم ما أحل الله فسر
طيباً ، وترخص ما حرم الله لأنه خبيث ، فلا يظن أبداً أن كل طيب ظاهرها مما
لك ، لأن هذا الشيء الطيب في ظاهره قد يكون خبيثاً .

وعليك أن تترك تمهيد الطيب والخبيث مخالفتك ، فهو أذى بك وبالناس لك
لما أنت فتصرف الشيء الطيب من تحليل الله له ، ويعرف الخبيث من تحريم الله له
والحكم ما يكون للتكليف ، فالله هو الذي خلق ، والله هو الذي يعلم الصالح
للإنسان فليسأل إن لم يست المصالح ، ولكنها إرادة الخالق لتلك العناصر ، ه
التي قدر مهيدي

اخلاصة إذن في هذا الموضوع هي أن الحق أحق للمؤمن الطيبات وكل شيء
أحسده الله يكون طيباً ، وكل شيء حرمه الله يكون خبيثاً ، فلا ينظر أحد إلى الأمر
البشرية التي يقول بعضها هي شيء إنه طيب فيكون حلالاً ، وإن ذلك الشيء خبيث
فيكون حراماً ، فأنت ومحمد من البشر لا يعرفون ترتيب الأشياء ولا فائدة

ولا مضرتها بالسبب لث . والدليل . أن البشر يتدخلون في بعض الأحيان في تحريم أشياء بالسبب لمعضهم البعض ، فنجد الطبيب يقول للمريض أنت مريض بالسكر فلا يصح أن تتناول انشويات والسكريات .

فإذا كنا نسمع كلام الطبيب وهو من الشر ، أفلا يجدر بنا أن نستحي ونستمع لأمر الخالق ؟ بل تنجاسر ونسأل : لماذا حرمت علينا يارب الشيء العلاء ؟ وقد يغفل الطبيب بكن الله لا يمكن أن يخطئ . فهو رب المأمون علينا ، فما أحله الله يكون اطيب وما حرمه يكون الخبيث ، وهذه قضية يتعرض لها أناس كثيرون ، مع سبيل المثال نسمع من يستشهد الاستشهاد الخاطيء وفي غير موضوعه بقول الحق .

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ويقول : إن عسى يأخذ كل وقتي . ولا فسحة عندي لإقامة الصلاة ، والله لم يكلفنا إلا ما في الوسع . ونقول : وهل أنت تقدر الوسع وتبني التكليف عليه ؟ لا عليك أن تسأل نفسك : أكلفك الله بالصلاة أم لا ؟ فإذا كان الحق قد كلفك بالصلاة ، وغيرها من أركان الإسلام فهو الذي علم وسع الإنسان في العمل . ويجب أن تقدم التكليف أولاً لتعرف طاقة الوسع من بعد ذلك . وكذلك أسأل نفسك عما حلله الله وأعرف أنه طيب وما حرمه الله فهو خبيث

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » وإذا سألكم عن تلك الطيبات ؟ عرفنا أنها غير ما حرم الله ، فكل غير محرم طيب ، أو أنهم سألوا عن أشياء سيكون الجواب السابق هو الإجابة الطبيعية ها ، وقدم الله الإجمال الذي سبق أن شرحناه . وبعد ذلك يكون المستول عنه في مسألة الصيد بالكلاب ، فجاءهم بالبيان في مسألة الصيد بالكلاب . وكانت تلك مسألة مشهورة عند العرب في الجاهلية ، وكذلك صيد الطيور . فقال . « قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح » فقد وضع الحق القضية العامة أولاً ، ثم خصص بعد ذلك .

لقد كانت مسألة صيد الجوارح موضوع سؤال من عدى بن حاتم - رضي الله عنه - عن الصيد بالكلاب وبالطيور . وعلمنا أن نحسن الفهم عن القرآن بحسن

عهم عن نصر ، فالحق يقول ها « أحل لكم الطيبات وما حرمتم من الخوارح »
 من الكلاب واليهود والنمور التي تصطاد بواسطتها هي المحتلة بنا لأننا علمناها
 الصيد ؟ لا « أحل لكم الطيبات » هي حصبة منتهية وبعد ذلك فيها كلام جديد
 هو « وما علمتم من الخوارح مكاييل تعلموهن بما علمكم الله فكنوا بما أمكن
 بديكم »

إنه عاقل أحل هو ما أمكن ما علمت من الخوارح ، وليست الخوارح التي يعلمها
 الإنسان ، أي إن الحق أحل لنا الطيب وأكل ما أمكن علينا الكلاب التي علمناها
 صيد . وهـ الخوارح « مفردة » جوارح « جمعها » كاسب « ، ولذلك يسمى أبيه
 نوارح ، وحيونا جوارح ، ودفاننا جوارح » لأننا نكسب بها مدرجات فالعز
 مارة نكسب المروى ، والأفد جوارحه نكسب المسروع والأنف جوارحه نكسب
 لشوم واللمس جوارحه لأننا نكسب بها المموس ويقول نحن مباحته وتعل
 ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِإِذْنِهِ وَيَعْلَمُ مَا تَرْتَبِئْنَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وهـ ما حرمتم « أي ما كنتم » إدى فالجارية هي الكاسية . وفوه الحق
 وما علمتم من الخوارح « مقصود به الحيوانات التي يعلمها كيف تصطاد بنا ،
 سميت جوارح ، لأنها كاسب لأصحاب الصيد ، فالإنسان يظننها لتكسب به
 صيد ، أو أنها في الغالب تخرج ما اصطاده . وكلا المعين يصح ويصير

ولأصل في ما علم الإنسان من الخوارح هو الكلاب ، والحق بالكلاب غيرها مثل
 يهود والنمور والصفور والحق قال « وما علمتم من الخوارح مكاييل تعلموهن
 ما علمكم الله » أي ما بدلتكم من جهد في تدريب هذه الجوارح للصيد ، فالإنسان
 يظن الكلب أو الصقر ليصطاد ، لكنه يقوم - أولاً - بتدريب الحيوان على ذلك .

ومثال ذلك عندنا يقوم مدرب الفروخ بتدريب كل فرد على الألعاب المختلفة ،
 كذلك مدرب « السرك » الذي يقوم بتدريب الأسود وبعينه ، عهد الصبل الصبح
 قف بأربعة أرجل على اسطوانة فطرف متر واحد ، وذلك كله ممكن بالتدريب بما
 بديكم لله وأعلمكم أيها البشر وبما أعطاكم من طوب البال وسعه خيره

وننتبه هنا إلى نقطة هامة : إن الإنسان يقوم بتدريب الحيوان على ألعاب ومهام مختلفة ولكن الفيل - من سبيل المثال - لا يقدر على تدريب ابنه الفيل الصغير على الألعاب نفسها وهذا هو الفارق بين الإنسان والفيل ، فابن الإنسان يتعلم من والده وقد يتفوق عليه ، لكن تدريب الحيوان مقصور على الحيوان نفسه ولا يتعداه إلى غيره من الحيوانات من الجنس نفسه أو الذرية فلا يستطيع الحيوان الذي درّبه ورؤسته وعلمته أن ينقل ذلك إلى ذريته وسله فلا يستطيع أن يعلم ابنه .

وكلمة « مكلب » تعني الإنسان الذي يعلم الكلاب ويدربها على عملية الصيد . وقال البعض : إن « مكلب » أي الرجل الذي يفتي الكلاب ، لكننا نقول : إن الإنسان قد يفتي الكلاب لكنه لا يقوم بتدريبها ، إذن المكلب هو الذي يحترف تدريب الكلاب ، ومثله مثل سائس الخيل الذي يدرب الخيل ، فالحصان يحتاج إلى تدريب قبل أن يمتطيه الإنسان أو قبل أن يستخدمه في جر العربات .

ولما ذكر الله « المكلين » ولم يذكر مدرّبي الفهود ؟ . لأن الغالب أن الكلب شبه مستأنس ، أما استئناس الفهد فأمر صعب بعض الشيء . وه « مكلين » تعني المنظمين لتعليم الكلاب عملية الصيد . ويعرف معلم الكلاب أن الكلب قد تعلم الصيد بأنه إذا ما أغراه بالصيد فإن الكلب يذهب إليه . وإذا ما زجره المدرب فهو يرجع من الطريق . وإذا ما ذهب الكلب إلى الصيد بعد تعليمه وتدريبه ولمره المدرب أن يحمل الصيد ويأني ، فالكلب بطبع الأمر . ويأني بالصيد سلباً ولا يأكل منه . فهذه أمارة وعلامة على أن الكلب تعلم الصيد ويمكن تلخيصها في هذه الخطوات : إذا أرسله للصيد ذهب ، وإذا رجّره انزجر ، وإذا استدعيته جله ويأني بالصيد سلباً لا يأكل منه . فإن أكل الكلب من الصيد فهو غير معلم ، لأنه أمسك الصيد على نفسه ، ولم يمسكه على صاحبه . ولذلك حلد الحق عملية الصيد بقوله عن الحيوانات التي تؤدي هذه المهمة : « بما أمسكن عليكم » .

ومن ضمن عملية التدريب هناك إطار إيماني ، فالتدريب المعصل هو عملية يعلمها المكلب للكلب ، أما الإطار الإيماني فهو ذكر اسم الله عن الصيد : « واذكروا اسم الله عليه » وذلك حتى يكون الصيد حلالاً ، ولا يقع في دائرة « ما أهل لغير الله به » . وإذا ما هجم الكلب على الصيد وقتله ، يكون الصيد حلالاً ، إن كان

محب الكلب قد قال ، « باسم الله والله أكبر » قبل أن يرسل الكلب إلى الصيد ، إن لم يذكر اسم الله فعليه أن ينتظر إلى أن يعود الكلب بالصيد ، وإن كان في الصيد خيانه فليدكه أي يدبغه ، ويذكر اسم الله ، وإن مات الصيد قبل ذلك فلا يأكل منه ، وكذلك إذا ما اصطاد الإنسان بالبنقية . . إن ذكر اسم الله أولاً وقبل أن يطلق الرصاصة فليأكل من الصيد

« يسألونك ماذا أحل لهم حل لكم الطيبات » هذه هي القضية العامة ، من بعد ذلك يجسد لنا الحق ألا نأكل الكلاب ، ولكن هذه الكلاب التي معلما لصيد وتصطاد لنا ما نأكله بشرط أن نذكر اسم الله على الصيد قبل إطلاق الكلب للصيد ، أو بعد أن تدبغ الصيد الذي اصطاده الكلب ، فذكر اسم الله مسألة ساسية في تناول اللحم ، لأننا نذكر للدلل والمسخر ، ولا يصح أن نأخذ النعمة من وراء صاحبها دون أن نتذكره بكلمة .^(١)

ويبين الحق الآية بقوله « واتقوا الله إن الله سريع الحساب » وتقوى الله في هذا المجال تعني ألا يؤدي الإنسان هذه الأمور شكلياً ، وعلى المؤمن أن يتقى الله في تنفيذ وامره بنية خالصة ودقة سلوك ، لأنه سبحانه مريع الحساب بأكثر من معنى ، معناه غالب دينك فهي منتهيه . ومادام الموت هو نهاية الحياة فالحياة قصيرة بالنسبة للفرد إليك أن تستطيل عمر الدنيا ، لأن عمر الدنيا بك ولغيرك فلا تحسب الأمر بالنسبة إليك على أساس عمر غيرك الذي قد يطول من عمرك ، إذن مدة الحياة محدودة ، بلادم الموت قد جاء ، فعلى المؤمن أن يتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »^(٢) .

والإنسان ما يعرف من غير القرآن أن الموت مثل النوم . لا يعرف الإنسان ما ثم ساعة قد نامها ، وعرف من غير أهل الكهف أنهم تساءلوا فيما بينهم :

﴿ وَكَذَلِكَ نَحْشُرُهُمْ لَيْلَةً أَوْ يَوْمًا مِنْهُمْ قُلْ قَاتِلْهُمْ كَمَا لَيْتُمْ قَالُوا لَيْلَةً أَوْ يَوْمًا

١ ، وذهب بعض العلماء إلى حل الأكل من الذبيحة أو الصيد الذي لم يذكر اسم الله عليه والذين يذهبون عند الأكل . هذا خطأ ، يمكن التذبح أو الصيد . قد أحل لله ذبيحة الله

٢ « ابن أبي الدنيا في الموت وأعرجه القليل ففقدى في كثير المال ، والذين في القباب السبعة الذين

يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴿١﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

إذن هم لم يتبينوا أنهم ناموا ثلاثمائة عام وتسعة أعوام إلا بعد أن سألوا، وكذلك من يموت فهو لم يدري كم مات إلا يوم البعث . لو أنه سبحانه سريع الحساب أى أن له حساباً قبل حساب الآخرة ، وهو حساب الدنيا . فعمداً يرتكب العبد المخالفات التى هى عنها الله ، ويأكل غير ما حلل الله ، فهو سبحانه قادر على أن يهزى العبد في الدنيا في نفسه بالأمراض أو التمتع أو المرض النفسى ، ويقف الأطباء أمام حالة حائرين وقوله الحق : « إن الله سريع الحساب » يصح أن تكون السرعة في الحساب في الدنيا ويصح أن تكون في الآخرة .

أو أنه سبحانه سريع الحساب بمعنى أنه يحاسب الجميع في أقل من لمح البصر ، فالبعض يظن خطأ خاطئاً أنهم سيقفون يوم القيامة في طابور طويل ليتلقى كل واحد حاسبه لا ، هو سبحانه يحاسب الجميع بسرعة تناسب طلاقة قدرته . ولذلك عندما سئل الإمام على - كرم الله وجهه - : كيف يحاسب الله كل الناس في وقت واحد ويقال إن مقدوره كنصف يوم من أيام البشر ؟ فقال الإمام على : فكما يرزقهم جميعاً في وقت واحد هو قادر على حسابهم في وقت واحد .

فسبحانه لم يجعل البشر نقف طابوراً في الرزق ، بل كل واحد ينهض وكل واحد يأكل ، وكل إنسان يسمى في أرض الله ليأكل من فضله . ولا أحد يقدر على أن يحسب الزمن عن الله ؛ لأن الزمن إنما يحسب على الذى يحدث الحدث وقدرته عاجزة ، لذلك يحتاج إلى رسم .

إننا عندما ننقل حجراً متوسط الحجم من مكانه فإن ذلك لا يكلف الرجل القوى إلا بعضاً من قوته ، لكن هذا العمل بالنسبة لطنس صغير يحتاج إلى وقت طويل ، فما بالنا بخلق الإنسان والكون ؟ وما بالنا بالفاعل الذى هو قوة القوى ؟ هو لا يحتاج إلى زمن ، وهو سريع الحساب بكل المعاني .

ومن بعد ذلك يفوق الحق :

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ
الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
إِنَّمَا أَتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْتَفْحِينَ
وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ
عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

سبحانه يبدأ الآية بتكرار الأمر السابق . « اليوم أحل لكم الطيبات » وأما
حق يؤكد على أن الإنسان لا يصح أن ينظر إلى الأمر الطيب إلا من روية أنه حلال
من الله

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن كيفية سؤل المحلات ، وأسباب التعامل مع
الصيد . فإن هنا لوقفة ، سبحانه يقول « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم
وطعامكم حل لهم » فهل كل طعام أهل الكتاب هو الطعام الذي يكون من جسر
الختير . لا ، بل الحلال من طعام أهل الكتاب هو الطعام الذي يكون من جسر
ما حلل الله لكم ، ولا يستطيع أن يستكشف الإنسان من أنه طعام أهل كتاب ، لأن
الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل من الإنسان الذي ارتبط بالسوء ارتباطاً حقيقياً
كللمن ، ومن ارتبطوا بالسوء وإن اختلف تصورهم لله ، يريد سبحانه أن يكون
بينهم نوع من الاتصال لأنهم ارتبطوا جميعاً بالسوء ، ويجب أن يعاملوا على قدر
ما دخلهم من إيمان باتصال الأرض بالسوء

إليك أن تقول بمقاطعة أهل الكتاب لا ، ولكن انظر إلى طعامهم فإن كان من
جس الطعام المحلل في الإسلام فهو حلال . ولا يصح أن تنح واحداً من أهل
الكتاب من طعامك ، لأن الله يريد أن يثب شيئاً من الألفة يتناسب مع الناس
الذين سبق أن السوء ما تشريع فيهم ويعترفون بالإله وإن اختلفوا في تصوره .

وضرب لنا - سبحانه - المثل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففى أول مجيء الدعوة الإسلامية ، واجهت معسكرا ملحطا يعد النار ، ولا يؤمن بالإله وهو معسكر فارس ، ومعسكرا يؤمن بالإله وهو معسكر لروم ، كانت هنالك قوتان فى العالم : قوة شرقية وقوة غربية . وعندئذ يأتى رسول يأخذ الناس إلى طريق الله ، فلا بد أن يكون قلبه وقلوب المؤمنين معه مع الذين آمنوا بإله وبمبعج ورسالة ، ولا يكون قلبه مع الملاحنة الذين يعدون غير الله .

ولتر العظيمة الإيمانية فى الرسول عليه الصلاة والسلام سجد الدين يؤمنون بالله ويكفرون به كرسول أولى عنده م يكفرون بالله . ولذلك عندئذ قامت الحرب بين فارس والروم كانت الغلبة أولا لفارس . وكانت عواطف الرسول والدين آمنوا معه مع الروم ، لأنهم أقرب إلى معسكر الإيمان الوليد وإن كانوا يكفرون بمحمد فقد كانوا يؤمنون بالله ، وأن هناك منهجا وهناك يوم بعث ، ولذلك يصرها الحق مثلا فى القرآن لمطينا عدة لقطات ، وأولى هذه اللقطات هى أن المسلمين فى جانب من عدة راحة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ آتَى غُلَبَتِ الرُّومِ ۚ ۝١ قَدْ أَتَى الْأَرْضَ فُصْمٌ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۚ ۝٢ فِي بَاشِيعِ سِنِينَ ۚ ۝٣ اللَّهُ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۚ ۝٤ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ ﴾

(سورة الروم)

وتبدأ هذه الآيات بخبر عن هزيمة الروم ، ثم نبوءة من الحق بأنهم سيغلبون فى بضع سنين . ويوم نصرهم سيفرح المؤمنون بنصر الله . وتنظر القوة الإسلامية التى جاءت لتؤسس دينا واسعا جامعا مانعا إلى معركة بين دولتين عظميين كلتيهما على أنصى ما يكون من لرقى الحضارى ، هذه القوة الإسلامية تتعاطف مع الروم وتحزب - القوة الإسلامية - لأن الفرس قد غلبت . فى الحق بالحبر اليقين وهو سَنَغْلِبُ الروم .

ويقال من الذى يستطيع أن يحكم فى نهاية معركة بين قوتين عظميين ؟ إنه حكم لا يستغرق يوما ، حتى ولو كان قائله عرف أن هناك مددا دائما للقوة التى ستنتصر ،

إنه حكم يستغرق بهج سبب فمن الذى يستطيع أنه يتحكم في معركة مستعد بعد طبع سبب ؟ لا يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجاوز بهذا الحكم وهو لا يعرف استعدادات كل قوة رحيم قواتها وأسلحتها ، لكن الأمر بأن كه موثق من الله

﴿ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَظِيمٍ مَقِيلُونَ ① فِي يَمِينِ سَبَبٍ ﴾

(سورة التوبة)

وهذا كلام موثق ، لأنه قرآن مسطور يقرأ المؤمنون تعبطاً وعندما سمع أيوب الصديق هذه الآية ، قال : لقد أتممت رحلتي وأنا بأن الروم مستنصر بعد ثلاث سنين وطالبه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجد هذه الرحلة لأن الله قال : وفي به سنين ، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم سيد أبي بكر - رضي الله عنه - فراهبه في الخطر وماته في الأجل فجعلت حالة قلوبهم (باقة) إلى تسع سنين كان هذا الأمر قد لقي الوثوق الكامل من المؤمنين ، لأن سبحانه وتعالى قد أخبر بالنصر .

لقد أوردنا ذلك هنا حتى نفهم أن عواطف الرسول صلى الله عليه وسلم كانت ، الذين يؤمنون بكتاب ويؤمنون ومن هنا بعد الحق بحال لنا مطامعة أهل الكتب حتى تكون هناك صلة بيننا وبين من يؤمن بآله ويمسح السيف . « وطعم الذين أوز الكتاب حل لكم وحملكم حل لهم » .

والوصح الحق سبحانه ذلك في آيات المعرى حينما قال

﴿ لَا يَنْتَظِرُ اللَّهُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَقْنِئُوا فِي الدِّينِ وَلَا يَخْرُجُوا مِنْ دِينِهِمْ أَنْ تَبْرَهُمْ وَتَقْطَعُوا إِلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ① إِنْ يَنْتَظِرُ اللَّهُ مِنَ الَّذِينَ قَنَئُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ② ﴾

(سورة التوبة)

فسيحانه يريد أن نوازن في أسلوب تعاملنا فلا نساوي بين ملحد مشرك ومؤمن
بصلة السماء بالأرض وإن كفر برسول الله . وأن يكون هناك قدر محدود من التواصل
الإنساني فالذي يحل للمؤمنين من طعام أهل الكتاب هو الذي يكون حلالاً في
منهج الإسلام . ويجب أن يتبه المسلم إلى أن بعض أطعمة أهل الكتاب تلحلها
الحجور وعليه الامتناع عن كل ما هو محرم في ديننا وليأكل من طعامهم ما هو حلال
لدينا فلا يشرب المسلم خمرًا ، ولا يأكل المؤمن لحم الخنزير .

والطعام كما نعلم وسيلة لاستبقاء الحياة . وها هوذا ينتقل إلى استبقاء النوع وهو
التناسل ، فقد أحل الله لنا أن نتزوج من بناتهم « والمحصنات من المؤمنات
والمحصنات من الدين أونوا الكتاب من قبلكم إذا آتينهم أجورهن أجورهن محصين غير
مسافين ولا متجدي أحداً » .

والمحصنة لها معيان : وهي إما أن تكون الحرة في مقابل الأمة ، وإما أن تكون
المتزوجة ، لأن الإحصان يعنى الوقاية من أن تخلط اختلاطاً غير شريف . وكانت
الحرة قديماً لا تفعل الفعل القبيح . وكان الغناء مقصوراً على الإماء ، لأن الأمة
لا أب لها ولا أح ولا عائل ، وهي مُهَنَذرة الكرامة . ولذلك نجد أن هذا زوجة
أبي سفيان عندما سمعت عن الرما من رسول الله صلى الله عليه وسلم تساءلت .
يا رسول الله أو تزل الحرة ؟! كأن الحرة لم تكن لتزني في الحاملية ؛ لأن الحرة تستطيع
أن تمنع عكس غيرها

والمحصنة أيضاً هي المتزوجة . ويساوي الحق بين المحصنة من المؤمنات والمحصنة
من أهل الكتاب ، والمراد هنا الحرة العقيمة وبشروط وصح المهر لكل واحدة منهن .
وبعض العلماء يقول : عندما تزوج مسنة يكفى أن تسمى لها المهر ، لأن الدين
الواحد يعطى الأمان السهوى ، أما الزواج من كنانة فيجب أن يحدد الإنسان المهر
وأن يقرره وأن يوفى بذلك فالإتياء هو أن يسمى الإنسان المهر ويقرره ويشهد عليه
الشهود ويستطيع أن يجعل الإنسان المهر كله مؤخر والشرط أن يكون الرجل
محصناً أى متعزلاً

ويحدد الحق : « غير مسافحين ولا متجدي أحداً » أى صدائق لهم قرون رواج ،

الصبح هو الصبب والمرأة البهي هي من يسمح معها أي رجل ، واخذن هي المخلدة أو المشقة دون رواج ، واخذن كذلك يطلق من الذكر كما يطلق من لأنثى . ولذلك أن تفكر في أمر إقامة علاقه رواج متبه ، بل لا بد أن يكون الإقبال بل الزواج بعبء الزواج التأييسى لا الزواج الاستمتاعى .

ويقول الحق من بعد ذلك . « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين » ، لأن فائدة الإيمان أن يستقبل المؤمن الأحكام من أمس به هذا بعدها . ومن سترت شيئا من أحكام الله التي آمنت بها فقد كفرت بالإيمان . والحق ' يضربه أن يكفر الناس جميعا ، لأنه هو الذى خلق الخلق بداية وهو متصف بكل صفات القدرة والكمال

إذن فالعالم كله لا يضيق إلى الله شيئا ، فقبل أن يخلق الله الإنسان كانت كل صفات الكمال موجودة لله . وكل ثمر الطاعة والعبادة والإيمان إنما تعود على (إنسان) فإن جاء الإنسان إلى الأحكام التي شرعها الله له ، وستر حكما منها فكانه من بقية الإيمان . وإن أنكر جبرية من جبريات الإيمان ، فهذا لون من الكفر ، والبيت من يعمل ذلك أن يقول . « إن هذه الجبرية صحيحة ولكن لا أقدر على سى »

هي هذه الحالة يكون الإنسان مؤمنا عاصيا يستغفر الله أو يتوب ، أما الكفر لا والكفر بالإيمان يؤدي إلى حبط العمل وهذا دليل على أن الحق يخاطب إنسانا يترجم في بعض الأشياء ولا يلتزم في البعض الآخر وهذا يوضح الحق للإنسان إن أحيث من خير أو أحيثك سيذهب يتوابع ويحيط جزاءه ما تمتع تنفيذه من أحكام لله ، وجاء الحق بكلمة « حبط » التي تدل على أن العمل بطل وجب دهاها يعود فالناثية حين تأكل طعاما ثم ينضح بعد وإن كان من جسد ما تطعم مثل برسيم في بدايته ويسمى « الربة » ، هذا البري من الطعام عندما ترعى فيه البهائم يدك لها لتصبح في البطر وغوت

والعرب تسمى هذا البناء الحباط . فالحبط إذن هو انصاخ البطن في الناثية التي كل أكلا غير مناسب ها . ويظهر صاحبها أن قد سمعت بها هي قوت في الواقع .

وكذلك يكون العمل عن غير ما شرع الله . والحق بدأ قصاها الإيمان في هذه السورة بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا بِالْعُقُودِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

فكل عقد إيماني يتعلق بالوحدانية لله وبالبلاغ عن الله ، وكل عقد عقد بين المؤمنين بعضهم بعضا ، وكل عقد عقده الإنسان بينه وبين نفسه ، هذه العقود مطلوب الوفاء بها ، ومن يكفر بهذه الأشياء فقد حبط عمله . وحبط العمل يأتي نتيجة أن الإنسان أسى عمله وخنعه بهذا اللون من الكفر وظن أنه عمل عملا صالحا . لكن العمل يحبط تماما كما تذهب الهمة ترى شيئا لا يتناسب معها فيتضع بهتها . فيخيل للرأى أن ذلك شيع وأن ذلك عافية ، ثم لا تبث أن تنق وتموت . كذلك عمل الذي يكفر بالإيمان ، يقطن أنه عمل شيئا ولكن ذلك الشيء متلف له . والآيات القرآنية تكلمت عن هذا المعنى كثيرا ، فالحق يقول عن الكافرين بالله :

﴿ اتَّخَذُوا كَسْرَابٍ يَفْبِقُونَ يَتَّبِعُهُ الْفُطَمَانُ مَاءَ حَقٍّ إِذَا حَادَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

ويعلم أن السراب هو شيء من انعكاسات الضوء يخدع الرأى السائر في الصحراء فيظن أنه ماء ، ويسير إليه الإنسان فلا يجد ماء ، هكذا يكون عمل الذي يكفر بآيات الله . إنها أعيال تبدو متوهمة النفع . وقول الحق سبحانه : « ووجد الله عنده » أي أن مثل هذا الإنسان يفاجأ بوجود الله ، كأن مسألة وجود الإله لم تكن بخياله من قبل ، والإنسان لا يأخذ أجره إلا لمن عمل له . فهل عمل الواحد من هؤلاء الله حتى يأخذ منه أجرا ؟ لا . لم يعمل الله ، ولذلك نجد أن بعض السطحين في التهم يقولون : كيف لا يجزي الله الجزاء الحسن هؤلاء العلماء الذين اخترعوا العلاجات للأمراض ، والعلماء الذين ابتكروا الأشياء التي تنفع الناس ؟ كيف لا يحسن الله جزاءهم في الآخرة ؟

ونقول : لقد فعلوا ذلك ولم يكن الله في بالهم ، كان في بالهم الإنسانية ، وقد أعطتهم الخلود في الذكرى وأقامت لهم التماثيل ومنحتهم أوسمة ورضعت بهم

[illegible]

وغيره أخرى يقول المصنف

﴿مَنْ آتَيْنَا كُفْرًا فَهُمْ عَنْ عَهْدِنَا كَافُونَ ۚ وَكَذَلِكَ هُوَ الْفَعْلُ الْكَافِ﴾

وهو هوذا مسيحنا ونمالي يقول

[illegible]

إند فالإنسان الذي يستر الإيمان مضمه أو كله ، هو إنسان حابذ العمل ، وهو في الآخرة من المفسرين ؛ لأن السجاح في الآخرة نتيجة لعمل الدنيا ومادام قد عمل خير الله في الدنيا فلا بد أن يكون من المفسرين في الآخرة

وقوله الحق : « وهو في الآخرة من الخاسرين » يوضح لنا ضرورة ألا نخدع ونهمل

بنا لأن بعضاً من الكافرين يكسب بعضاً من الشهرة واجله والثروة نتيجة احتراعاتهم ، فكل ذلك أمور قانية ، وهم مستسلمون لسنة الله ، ولما أن يفوتهم النعيم ولما أن يفوتوا النعيم واحبات الخلق يكون في الآخرة ، والكافر وإن أخذ شيئاً من الكسب في ظاهر هذه الحياة الدنيا فهو حاسر في الآخرة .

وبعد ذلك ينتقل الحق ليربط لنا كل قضايا الدنيا رباطاً واقعياً . فبعد أن يتكلم عن مقومات الحياة وعن مقومات النوع بالإنكاح وغيره ، بوضع : كل هذه نعم أعطيتها لكم وأريد أن أحد بأيديكم بعد أن يستحكم فصل هذه النعم عليكم ، لتلتفتوا بصاحب كل هذه النعم هو سبحانه يريد أن يأخذنا من مشاغل الدنيا لتلقى النعم وحتى تلقى أيها المسلم الإله النعم - سبحانه - فلا بد أن تعد نفسك لهذا اللقاء ، لأنها ليست مسألة طارئة ، فلا بد من الإعداد الروحي والإعداد البدني والإعداد المكاني والإعداد الرماني .

إن الإعداد البدني يكون بالطهارة . والإعداد الرماني هو مراقبة الصلاة . والإعداد المكاني هو وجود مكان طاهر لإقامة الصلاة وإعداد اتجاهي بتحديد وجهة الصلاة إلى القبلة . وهذه كلها مواصفات تهيئ النفس البشرية للوقوف بين يدي من أنعم على الإنسان بكل النعم . ولذلك يقول : إن الصلاة إعلان استدامة الولاء للإيمان للمخالف المحدث المعصم ، فهو الذي خلق من عدم وأمد من عدم ، وقد فرص الحق سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات في اليوم ، ليقطع على الإنسان سبيل الخفلة عنه . وإذا ما أراد الإنسان أن يلتقي الله في الأوقات التي بين الصلوات ، وأراد أن يعلى استدامة الإيمان وهو يقوم بأي عمل غير الصلاة فليذكر الله ، لأننا نعرف القاعدة الشرعية القائلة :

[ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب] .

مثال ذلك أن الإنسان حين يصلح فهو يحتاج إلى قوة واقوة تتولد في الجسم نتيجة تناول الطعام . إذن عملية صناعة الطعام أمر واجب وكل ما يترتب على ذلك عملية واجبة . ولذلك عندما يأكل واحد ويقول : لويد أن أنقطع للعبادة وأعزى حركة الحياة . لنقل له . افعل ذلك بشرط واحد هو ألا تتعبد بحركة متحرك واحد

الحياة ، ولا تتناول أي طعام ، ذلك أن الرقيب الذي يقدمه لك إسان هو من مل بشر كثيرين م ينقطعوا عن الحياة ولنفس أيضاً فاد، برتلى هذا الخلباب ؟
، نتيجة حركة حياة بشر آخرين ، هناك من رزع القطر وآخر حنح هذا القطر
الث حونه إلى عرل ررايع مسجه وخامس قام بتفصيل هذا الجلباب ، وتنظر إلى
خلف كل واحد من آلات وإياك ان تتمتع بحركة واحد مشعول بالأسباب
فمت قد قررت الانقطاع عن حركة الحياة

إن الشغل بالأسباب عباده ، لأن العبادة لا تتم إلا به . وما لا يتم الواجب إلا به
و واجب ولذلك فتعلم المهارات المفيدة لمحبة هو فرض كفايه ، والفرض
اجب على الإنسان أحد اثنين إما فرض عين وهو الأمر المكلف به العبد ولابد
يؤديه ولا يجوز أن يؤديه أحد بياة عنه ؛ كالصلاة ، وإما فرض كفايه وهو
لا يتم الواجب إلا به لذلك كان واجباً ، فكل من يريد الصيام

لذلك لا بد من تسييم العمل ، فهذا برزع وهذا يصح ، فلا بد من رراعة
سبح ولا بد من إقامة المظاهر ولا بد من إقامة الأقران ولا بد من مهنتين
يحمون هذه الآلات . وكل ذلك أمور تسهل للإنسان أن يمتلك القوة لأداء
صلاة ؛ وأن يقف بين يدي الحق ليؤدي الصلاة . إند نكل ذلك أمر واجب ، وهو
من كفايه . أي أنه فرض إند قام به البعض سقط عن الباقيين ، وإن لم يتم به
فما يكون الإثم على الجميع

ومثال آخر هو الصلاة على الميت من فرض كفايه ، من يصلي عن الميت فهو
أي عنه ، وإن لم يصلي أحد على الميت يكون الإثم على كل مسلم ، وهكذا نسح
ه الإثم . وكل الأعمال التي لا يتم الواجب إلا بها فهي واجب ، ولذلك فهي
من كفاية ، إند قام به البعض سقط الطلب عن الباقيين ، وإن لم يتم به البعض
إثم عن الجميع

وما موفى في الأمر في هذا ؟ . على وفي الأمر أن يفرض القيام بفرض الكفاية
، أحد الناس ، وإلا تعطلت الواجبات التي يقول عنها إنها واجبات دينية
ين يذهب المسلم إلى السوق فلا يجد حبراً ؛ يصعب ولا يملك الفكاك من

المجاعة ؛ ولن يقدر على الصلاة أو العمل بسبح أو يجد ادخاراً يكفيه أن يبح
إذن ما لا يتم الروح إلا به فهو واجب ؛ لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حيناً
حننا على أداء الصلاة في يوم الجمعة يقول

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا بُدِئَ صَلَاتُكَ يَوْمَ أَخْمَاسِهِ فَاسْتَعِزَّ بِذِكْرِ اللَّهِ وَدُرِّ السَّيِّئَاتِ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكَ إِذَا كُنْتَ تَعْبُرُ ۝﴾

(سورة الجمعة)

هو سبحانه مخرجنا من العمل إلى الصلاة ، ولم يخرجنا إلى الصلاة من فراغ ،
لندفع إلى دقة أداء القرآن حين يقول الحق : «ودرو سبيع » وحين يدر الإنسان
البيع ، فهو يدر الشراء من ماب أولى ؛ لأن سبيع والشراء وجهان لعملية واحدة
والخلاص فقط أن المشتري قد يشتري السلعة وهو كاره لأن يشتري ؛ لأنه يسهك
مقوده فيما يشتريه ، أما الشئ فيريد أن يحصل على من البيع فوراً ، وعالمنا ما يحصل
على ربح من وراء ذلك ، وثلاث هي قمة الكسب فكسب الرارح - على سبيل
المثال - يأتيه بعد شهر من الزراعة وكسب الموظف يأتيه أول الشهر لكن ارباع
يحصل على الكسب فوراً ولذلك يفرح الحق أن يدر سبيع إذا سمع بدء الصلاة
يوم الجمعة ، ومادا بعد انتهاء الصلاة ؟

ها هو ذا الحق يقول

﴿وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْشُرُوا فِي الْأَرْضِ وَاسْتَعِزُّوا بِمُضِيِّ اللَّهِ وَذَكْرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
تَعْبُرُ تُصْحُرُ ۝﴾

(سورة الجمعة)

إذن فلا يقول أحد أنه مقطع طوال حياتي بالصلاة فلن يستطيع أحد أن
يذهب إلى الصلاة عام يكن يملك مقومات حياته ومقومات الحياة تقضى أن
يضر الإنسان في الأرض ولا بد أن يستغنى الإنسان من فضل الله إذن ،
فالسعي في الأرض هو عبادة ؛ لأن ما لا يتم الروح إلا به فهو واجب ويريد الحق
سبحانه وتعالى ألا يعزل قضية تتعلق بمقومات الحياة طعاماً وإسكناً عن الصلاة
فيأتي الحق سبحانه وتعالى بشروط لوصوه استعداداً للصلاة بعد أن يتحدث عن

مكافئ المحرمين الأطعمه وتحريم بعضها ، وبعض من أحكام السكاح ، وذلك لحرف
، مسئوليات الإيمان كلها مترابطة ، فلا يصح أن يمرر عسلاً ويقول: هذا عمل
مدي وذلك عمل غير تعبدى

وانزلون عندما يضعون الكتب في المقه ويحسون اقتساماً في هذه الكتب
عبادات وأقساماً للمعاملات ، فهذا التقسيم تقسيم تصيحي تأليفي ، لكن كل
أطلبه الكون لينصلح فهو عبادة خالف هذا الكون ، بدليل أنه قال : « عاشوا إلى
كر الله وذروا البيع » وهذا أمر وينلوه أمر آخر « مد نصيب الصلاة فانتشروا في
الأرض »

إن الإنسان لا ينفذ أمراً ويهمل أمراً آخر ، ولكن عليه بمقتضى الإيمان أن يعد
لأمريين معاً ، فإن تأخر الإنسان في أى من الأمرين فهو مذنب ، لذلك يجزى
بجوانه - من بعد الحديث عن النعم التي أنعم بها علينا - بما أحل لنا من بيمة
لأنعام ، وفي نفس عينا من الزواج من محصنات ، ما هوذا يدخلنا إلى رحابه
الاستعداد للصلاة لأنه واجب كل النعم ، ويأمرنا بالاستعداد للصلاة وأن يعد كل
أحد منا نفسه لها

وهذا الإعداد يؤهل المسلم بيقنى الحق فقال

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ
فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا
بُرُءُوسَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ
جُمُوعًا فَاظْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَعَسْتُمْ إِلَى نِسَاءٍ فَلَمْ تجدُوا مَاءً

فَنِيَمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ
مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ
وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

سبحانه يا امرنا برضوح محدد . إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلا بد لكم من تنميد
عملية الوضوء .

وتعرض الآية إلى الأركان الأساسية في الوضوء وقد يلتبس الأمر على بعض
الناس ولا يستطيع أن يميز بين مس الوضوء وأركان الوضوء ؛ لأن السن تقتضي أن
يفسل الإنسان يديه ثم يتمضمض ، ثم يستنشق الماء وهكذا . هذه هي المس التي
تنتج بالأركان الأساسية للوضوء .

وبناءً على أركان الوضوء الأساسية بقوله : « فاغسلوا وجوهكم » والغسل
يطلب إسالة الماء على العضو وأن يقطر منه الماء بعد ذلك والمسح هو التمس بالماء
لبسب العضو ولا ينظر منه الماء ؛ إنه مجرد بلولة بالماء . والحق سبحانه وتعالى حينما
تكلم في هذه الآية عن الوضوء ، تكلم عن أشياء تعمل وعن شيء يمسح . فالأمر
بالغسل يشمل الوجه واليدين إلى المرفق والرجلين إلى الكعبين . والأمر بالمسح
يشمل بعض الرأس والغسل قد يكفي مرة أو اثنتين أو ثلاثاً ليتأكد الإنسان تماماً
من الغسل ، ولكن إذا كانت المياه قليلة يكفي أن يغسل الأجزاء المطلوبة مرة وأن
يتأكد أنه قد غسل المساحات المطلوبة .

إن الزيادة على المرة الواحدة إلى ثلاث مرات أمر مستحسن لا واجب وغسل الوجه
معروف تماماً للجميع ، فالوجه هو ما به المواجهة والمواجهة تكون من حيث الشعر
إلى الذقن ، وتحت منتهى الحية وهما العظمان اللذان تثبت عليهما اللسان السفلي ،
هذا في الطول ، وفي العرض يشمل الوجه ما بين شحمي الأذنين ولا أحد يختلف في

تحميد الوجه ، ولذلك أطلق الحق الوجه وبم يمينه بعمية ، فلم يقل أفضل وجهك ، كذا إلى كذا ؛ ولكنه أمر بعسل الوجه ، فلا اختلاف في مدلول الوجه لك الجميع . والكل متفق عليه ، هذا إذا ما بدأنا بالفروض الأساسية لكن إذا ما بدأنا بالسؤال فمن نفس الكمين إلى الرسغين أولا ثم تنضمض وستشقق .

وبعض العارفين بالغ يعرفون عن هذه المقدمات التي هي من الممنوع . إنها لم تأخذ اعتبارا ؛ لأن تعريف الماء هو : السائل الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، وإذ تعبر أي وصف من هذه الأوصاف يكون السائل قد خرج من المائية . فباعتبار تلك الماء يديك ستطمش على لون الماء ، وتعرف أنه لا لون له ، وعندما تنضمض فأنك تطمش إلى أنه لا طعم له ، وعندما تستشق فأنك تطمش على أن الماء لا رائحة له . وبذلك تطمش في أن الماء الذي تستعمله في الوضوء يكون قد استوفى الأوصاف في أن يبدأ في عمل المطلوب من أركان الوضوء التي يطلبها الله ، وبسنة تقيمت هنا هي الأركان الحكمة هي أن توفر للإنسان الثقة في الماء الذي يتوضأ منه . وبعد ذلك يغسل الإنسان الوجه من تحت شعر الرأس وتحت متنتي خيبه وذلك طولا وما يو شحمي الأدين عرضا

وبعد غسل الوجه قال الحق : « وأيديكم إلى المرافق » وبمر الحق هنا الأيدي بتحديد المساحة المطلوب غسلها بأنها إلى المرافق ، أي أنه زاد خفية لم توجد في الوجه ، ولكن جاء الأمر بغسل اليدين إلى المرافق ؛ لأن اليد تطلق في اللغة ويراد بالكعب ، مثال ذلك في حكم الحق عن السارق والسارقة

﴿ فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)
وتطلق اليد أيضا ويراد بها الكعب والساعد إلى المرفق . وتطلق اليد أيضا ويراد بها إلى الكعب . فليد ثلاث إطلاقات . وبأن الحق قد أمر بغسل اليد ولم يحدد الخسب إلى المرفق ؛ لعسل البعض كعبه فقط ، وغسل البعض يديه إلى المرفق ولعسل البعض يديه إلى الكعبين ؛ ولأن الحق يريد غسل اليد على وجه واحد محدد لذلك قال : « وأيديكم إلى المرافق »

إذن فمساحه يريد الحق شيئا محديدا ، فهو يأمر بالأسلوب الذي يجلده تحديدًا يقطع

الاجتهاد في هذا الشيء . وكلمة «إلى» تحدد لنا الغاية ، كما أن «من» تحدد
الابتداء ، ولكن هل تدخل الغاية هنا أم لا ؟ هل تدخل المرافق في الغسل أم لا ؟
إن «إلى» قد تدخل الغاية مرة أخرى لا تدخل الغاية

فمثال إدخالها الغاية قوله تعالى :

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

هل أسرى الحق برسوله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى وم يدخله ؟
لا أحد يعقل ذلك . إن «إلى» هنا تقتضي أن تدخل الغاية ؛ لأن الرسول صلى الله
عليه وسلم كان قد ذهب إلى المسجد الأقصى بمراد الإسراء إليه والدخول والصلاة
فيه . ويقول سبحانه :

﴿ثُمَّ أَيْمَنُوا بِالصِّيَامِ إِلَى الْبَيْتِ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

فهل يدخل الليل في الصيام ؟ لا ، لأننا لو أدخلنا الليل في الصوم نصلي في
الصوم وصل أي نصل الليل بالنهار صائمين . إذن فمع «إلى» تحدد الغاية تدخل
مرة ، ونجدها لا تدخل مرة أخرى . ويختلف بعض العلماء حول المرفق هل يدخل
في الغسل أم لا ؟ وصار في عموم الاتفاق أن يدخل المرفق في الغسل احتياطياً ؛ لأن
أحدًا لا يستطيع تحديد المرفق من أين وإلى أين . ونعرف أن هناك احتياطات
للتعقل ، فمرة نحتاط بالاتساع ومرة نحتاط بالتضييق .

مثال ذلك عندما نصلي في البيت الحرام . ونحن نعرف أن الكعبة بناء واضح
الجدران ، وبجانب جدار من جدران الكعبة يوجد الحطيم وهو حجر إسماعيل وهو
جزء من الكعبة يحيطه قوس . وعندما يصلي إنسان حول الكعبة ، هل يتجه إلى
الحطيم أم إلى بناء الكعبة ؟ لأنه مقطوع بكعبيته ، والاحتياط هنا احتياط بالتقصير ،
فتوجه إلى الكعبة وهي البناء العالي فقط ، ولكن عند الطواف . فإننا نطوف حول

الكعبة والحطيم ، أى إن الاحتياط هو يكون بالزيادة ؛ لأننا إذا ما طعنا حقاً وراء المسجد فهو طواف حول بيت الحرام

إذن فالاحتياط يكون مرة بالقص ومرة يكون بالزيادة ، وفى محال الوضوء يكون غسل المرافق هو احتياط بالزيادة ؛ ذلك أن « إلى » تكون العناية بها مرة واحدة ، وم تكون العناية بها عبر فاحلة .

ثم يقول الحنفى سبحانه ونعاني من بعد ذلك « وامسحوا برءوسكم » لأسلوب هنا يختلف ؛ فالمطلوب هو المسح كان المطلوب أولاً هو العسل للوجه ، انطلاقاً ؛ لأنه لا خلاف على الوجه ، ثم غسل يمين يلى لمرافق ، وتم لمزيد العا لأن الحق يريد العسل لليدين على دون يقطع الخدود ولا اجتهد فيه . ويقول الحق « امسحوا برءوسكم » مثلاً قال « غسلوا وجوهكم » لما كان هناك خلاف لك لو قال « امسحوا برءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم فذلك البعض يحدد ولو قال « امسحوا برءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم قد يوجد خلاف لأن لمزيد الرمح هدير وشاق

ثم إذا بدأ اختار الحنفى هنا هذا الأسلوب « امسحوا برءوسكم » مع أن فى الآ أساليب كثيرة ، منها أسلوب مجرد عن العناية ، وأسلوب موجود به العناية ، وهذا الأسلوب لا هو مجرد ولا هو موجود به العناية ؟ وقال الحنفى « امسحوا برءوسكم » ونأى عن بحث عن كيمية استعمال حرف (الباء) التى تنسب « برءوسكم » ،

إن « الباء » فى اللغة تأتى بمعنى كثيرة قال ابن مالك فى الألفية

بالباء اسمى وعد عوصى لصى

ومثل « مع » و « من » و « عن » بها انط ومقصود بها أن يعطى الحرية بالمشروع ؛ لأن الباء تأتى لمعان كثيرة ، للاستماع مثل : كسب بالقلم ، ولتسمية لفعل اللازم نحو ذهب المريض إلى الطبيب وللتعويض مثل اشترت القدم بعشرين جديداً ، والالتصاق نحو مررت بعالم ، ونأى بمعنى « مع » مثل بعثت اليك بأثائه أى مع أثائه ، وبمعنى « من » مثل شرب ماء النيل أى من ماء النيل ، وبمعنى « عن » مثل قوله تعالى « سأ سائل بعذاب واقع » أى عن عذاب واقع ، ونأى أيضاً بنظرية نحو ذهب [

فلا بالليل أى فى الليل ، وتكون لليلة نحو : باجتهاد محمد منح الجائزة أى بسبب اجتهاده ، إلى غير ذلك من المصاحبة نحو : مسح محمد ربك ، أى مسح مصاحبا حمد ربك .

إن الذى يقول : امسحوا بعض رءوسكم ولوشعره ، فهذا أمر يصلح ويكفى وتسعفه الباء لغة ، والمسح يفتضى الإلصاق ، والآله الماسحة هى اليد . وهالك من يقول : تأخذ على قدر الأداة الماسحة وهى اليد أى مسح مقدار ريع الرأس .

إذن كل حكم من هذه الأحكام يصح لتمام تنفيذ حكم مسح الرأس ، وبإذن الله يريدنا على لون واحد لأوضح ما أراد ، فإن أراد كل الرأس لئال : امسحوا رءوسكم ، كما قال : فامسحوا وجوهكم ، وإن كان يريد غاية محددة ، لحدد كما حدد غسل اليدين إلى المرفقين . ومقدام سبحانه قد جاء بالباء ، والباء فى اللغة تحتل معانى كثيرة ، لذلك فمن ذهب إلى واحدة منها تكفى ، لأن أى غاية محتملة بالباء أمر صحيح

والأمر هنا أن يفهم كل منفذ لحكم محتمل ألا يُخطئ الحكم الآخر . بل عليه أن يقول : هذا هو مقدار فهمي لحكم الله . والله ترك لنا أن نفهم بمدلول الباء كما أرادها فى اللغة . وقد خلقت الحق أيها الإنسان مقهورا لأشياء لا قدرة لك فيها ، كحركة الحوارج ، وكالأشياء التى تصيب الإنسان كالنوت .

إن هناك أشياء أنت مخير فيها ، ولذلك كان تكليف الحق لك مبنيا على هذا : هى أشياء يقول لك : « اعمل كذا » أو « لاتعمل كذا » وفى أشياء أخرى يترك لك حرية التصرف فى أداؤها . وذلك حتى يتسق لتكليف مع طبيعة التكوين الإنسانى . فلم يهضب الله الإنسان فى قالب حديدى . ولنا فى سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة ، هذ الرسول الذى أوكل إليه الحق ليضاح كل ما همض من أمور الدين ، فقال له الحق .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الْفَرِّقَانِ مَا تَزَالُ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة البقر)

وحينها كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين فى غزوة الأحزاب التى قال عنها الحق :

﴿ هَبْ لَكَ أُسْلِيَ تَتُؤْمِنُونَ وَذُرُونَا لِيُشِيدَ ﴾

سورة الاحزاب

هذه الحركة كانت فسيه ، حرك الحق فيها الريح وتغرى فيها اعداء الإسلام ، يرف الحق الاحزاب ورجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى انثية . وكان من بروض أن يرتاح المؤمنون المقاتلون لكن قيل أن يخدموا ملابس الحرب جاء من إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لو قد وصعت السلاح يا رسول الله ؟ نعم : فقال حبريل فيها وصعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن من طيب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد بهم عبرك يوم قد أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مؤدنا فاعد في ناس . « لا يصيب أحد العصر إلا في بني قريظة فلدرك بعضهم العصر في طريق ، فقال بعضهم لا يصل حتى تأتيه ، وقال بعضهم بل يصل لم يرد منا ذلك كره للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يفت أحدًا منهم »^(١)

هي مسألة كبرى إذن . والتزاما بامر النبوة عرج الصحابة إلى مواقع بني قريظة . نادت الشمس مغرب وهم في الطريق ، وانقسموا إلى قسمين ، قسم قال : متعب شمس ولم يصل العصر فلتصمه قبل أن يعيب الشمس . وقال القسم الثاني : لقد ربا النبي ألا يصل العصر إلا في بني قريظة ، وإن يصيبه إلا هناك وإن غابت شمس . وصل القسم الأول ولم يصل القسم الثاني

وعندما ذهبوا إلى المشرق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا له الأمر لم يه على أي جانب منهم شيئاً ، وأقر هذا وأقر ذاك . وتلك لحظة النبوة ، عالى لي الله عليه وسلم يعلم أن كل حدث من الأحداث ينطبع زماناً وينطبع مكاناً ، ليس صلوا نظروا إلى عنصرية الرمي ، وشاغلوا أن تغرب الشمس قبل ذلك ليس لم يصلوا نظروا إلى عنصرية المكان فلم يصلوا العصر إلا في مواقع قريظة وأقر وصوب الله الأمرين معا

إن هذا يشنا على أن هناك أشياء يركها الحق قصداً دون تحديد فاطح لأنه يجب ، أي لون ، مثال ذلك أن فعل من مسح ربه رأسه في الوضوء جائز ، وفعل من مسح رأسه كلها جائز ، وجاء الحق بالياء الصالحة لأي وجه من وجوه مسح الرأس ،

(١) روى البخاري في صلاة الخوف وروى البخاري

وكذلك شأن الخلافات في الأمور الاجتهادية وإذا كانت الدفعة الشرعية نهول
ولا اجتهاد مع النص فهذا لا يكون ، لأن مع النص الذي لا يحتمل الاجتهاد

وليس كل التشريع هكذا ، لأنه سبحانه أوضح ما لا يحتمل الاجتهاد ، وأوضح
ما يحتمل الاجتهاد ؛ وحسبما كتف الله عبده الإنسان بتكليفات ، في كلفه في يتناسب
وتكوينه ، وفي أن تكوين الإنسان فيه أشياء هو مظهر عليها فهناك الأحكام التي
لا اختيار له فيها ، وهناك أمور اختيارية ، وما وصل إليه اجتهاد هو حق وصواب
يحمل خطأ ، وما وصل إليه غيره خطأ يحمل الحق والصواب . ولكن ما وصل إليه
طرف من الاجتهاد حق لأن النبي صلى الله عليه وسلم صواب من حصل العصر قبل
أن يصل إلى أرض بني فريضة ، وصواب كذلك من صلى العصر بعد أن وصل إلى
موقع بني فريضة فالرسول - صلى الله عليه وسلم - اعتبر فعل كل طريق منهما
صواباً

ويقول الحق من بعد الأمر بمسح لرأس : « وأرجنكم » وكان سياق النص
يقضي كسر اللام في « أرجنكم » ولكن الحق جاء بالأرجل معطوفة على عمل لوجه
واليدين وغير معطوفة على « برءوسكم » وهذا يعني أن أرجلهم لا تدخلان في حيز
المسح ، إنما تدخلان في حيز غسل

ويشأن الحق بالحركة الإعرابية على أنها ليست معطوفة على آخره المصرح بمسحه ،
ولكنها معطوفة على الأعمدة المطلوب غسلها ولم يأت الحق بالمصرح في جانب
والمعقول في جانب ليدل على أن الترتيب في هذه الأركان أمر تعبدى والإحفاء
بالمعصوم معاً والمسح معاً ، ويجدد الحق أيضاً غسل الرجلين إلى الكعبين
« وأرجلكم إلى الكعبين » وأرجل تطبق على القدم ، وتطبق على القدم والساق إلى
أصل لمجد ويريد سبحانه غسل الرجلين محدوداً إلى الكعبين

وحتى نعلم أن هذه مسائل تعبدية ، عرفنا أن اليد تطبق على الكعب ، ومن
أطراف الأصابع إلى الكعب يطبق عليه « يد » أيضاً ، والفرق في اليد هو الحد
الوسط ، وه الكعبين هو الحد الأول في الساق ، لأن الوسط بعد الساق هو
الركبة إذن ترتيب المسألة في اليدين كف وساعد وعصا ، والفرق في وسط
اليد ، وفي الرجلين يقف الأمر عند الحد الأول وهو الكعبين هي - إذن - مسألة تعبدية
وليست مسألة قياسية

ويعين الحق لنا أنه إذا أراد أسراً بدقه فهو يحدته بلا مدخل أو خلاف ، أما إذا جاء من غير واضح فهو إذن منه سبحانه أن يجتهد فيه لشعر أن لنا بعض الاختيار في من ما تصدنا الله به ، وكله داخل في مراتب الله ، لأن إيراد النص - شاملاً لكل مهمات هو إذن بهذا المفهوم وإذن بذلك المفهوم

« فاعلموا وجوهكم ولديكم إلى الدافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى كعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا » إن الوضوء شرع لعدم الجنب أي أنه لم يحدث دناء أصغر . وهناك فرق بين إخراج ما ينقض الوضوء وهو ما يؤدي ، وبين إخراج نجس ، فإنزال الماء أو حدوث الجلباع يمتنع الطهارة بالافتساح . ومعلوم أن ناس حين يستمتع بضماع ، أو يستمتع برائحة ، أو يأكل شيء هو محدود بوسيلة استمتاع به ، أما الاستمتاع باللباس فلا يعرف أحد بأى عصر أدرك الله . وهي سألة معقدة إلى الآن . ولا يعرف أحد كيف تحدث ، مما يفتل على أن جميع هرات تكون الإنسان مشتركة فيها . وما دام الأمر كذلك فالطهور يقتضى أن يغسل نساء كل جسمه

« وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الماء فامسحوا بوجوهكم »

وقد يقول قائل . أليست « لا تمسح النساء » كالحياة ؟

ويقول : إن الذى يحيى هو حكم تلك يوضح لنا ما يوجب من المياه ، لأن الحق بلبسته لا تسقط عن التكليف أبداً ، لذلك لم يكلمه بشيء قد لا يجهد ، فقد يجهد الإنسان أدياء ، وعليه إذن بالتجسم ، لأن الصلاة عبادة لا تسقط أبداً عن كلف حتى في حالة مرضه الذى لا يستطيع أن يحرك معه أى عضو من جسمه ، ما صح سبحانه للمريض أن يصلى جالساً ، أو مستلقياً أو يصل بالإيماء برأسه ، أو بل بأعذاب عبيه ، وحتى مريض الشلل عليه إجراء خواطر الصلاة وأركانها على ، لأن عرس الصلاة عبادة لا تسقط أبداً عن الإنسان مادام فيه عقل

إننا نعرف أن الصلاة هي الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى يتطلب ستامة ، فيكفى المرء أن يقول الشهادة مرة واحدة في العمر ، ويسقط الصوم عن

الإنسان إن كان مريضاً ، ويظلم غيره ، أو يؤديه في أوقات أخرى إن كان مريضاً مرضاً مؤقتاً أو عن سفر . وقد لا يؤدي الإنسان الزكاة لأنه فقير ، وكذلك الحج لا يجب على من لم يملك الاستطاعة من مال أو عافية ، ولا تبقى من أركان الإسلام غير الصلاة فإنها لا تسقط أبداً .

إن عظمة الصلاة توضحها كيفية تشريعها ؛ لأن تشريعات أركان الإسلام كانت بالوحي ، أما تشريع الصلاة فقد جاء وحده بالمباشرة ولم يقل الله لجبريل : « قل للنبي التكليف بالصلاة » بل استدعى الله النبي صلى الله عليه وسلم إليه وكلفه بالصلاة .

وقلنا من قبل - والله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان أن يقدم أمراً لمرءوسه ، فالموضوع قد يأخذ دوره في الأوراق اليومية التي تنزل منه إليهم . أما إذا كان الموضوع مهماً فهو يتصل بالفائد التنفيذي للمرءوسين ويوضح مدى أهمية الموضوع ، أما إذا كان الموضوع غاية في الأهمية والرئيس يستدعي الفائد التنفيذي للمرءوسين ويبلغه أهمية الموضوع . إذن فكمية إنزال التكليف تكون على قدر أهمية الموضوعات في عالمنا - إذن - يركز استدعى الله فيه محمداً إلى لسماء ليكلّمه به ؟

وقد رأينا أن بعض التكليفات تحيى إلى رسول الله بالإلهام أن يفعله ، وبعضها جاء بالوحي من جبريل أن يفعله ، أما الصلاة فقد فرضها الله عندما استدعى محمداً إلى لسماء إلى الرقيب لأعل وفرض الله عليه الصلاة بالمباشرة ، وعلى أمة محمد أن تؤدي هذا الفرض خمس مرات في اليوم ، ولا تسقط أبداً . ولذلك جعلها الحق فارقة بين المسلم والكافر ، إن المسلم ساعة أدان الصلاة يقوم إلى الصلاة ، وهي استدعاء من الخالق لمن خلقه ليحضر في حضرته كل يوم خمس مرات . وأنت حر بعد ذلك ألا تبرح لقاء ربك ؟ ولا يعمل الله حتى يعمل العبد .

وإياكم أن تجعلوا للزمان مع الله تحطيظاً ؛ فتقولوا : هذا للعمل والضرب في الأرض ، وذلك لذكر الله ؛ فمع ضربكم في الأرض لتستقوا من فضل الله ، إياكم أن نسوا الله ؛ لأن ذكر الله أمر دائم في كل حركة يفصدها الإنسان لعناية هذا الوجود ، وقد أراد الحق ما بوجودنا أن نعبد وحده لا شريك له .

﴿ وَإِنْ تَحْدَثُوا خِلَافًا فَلَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٢٨٢ ﴾
 مِنَ الْأَرْضِ وَأَنْتُمْ تُنْفِرُونَ ٢٨٣ ﴿ ٢٨٤ ﴾

(سورة هود)

إذن فكل ما يؤدي إلى حيرة الكون والارتقاء به هو أمر عبادي ، والحق سبحانه وتعالى يربط « العبادة » الاصطلاحية في اللغة بحركة الحياة كلها . ويحدد مثالا لذلك حيا نكلمنا في سورة البقرة عن الأسرة كما حدد في قوله تعالى

﴿ لَا حِجَابَ عَلَيْكُمْ إِذْ طَلَقْتُمْ الزَّوْجَ مَا تَشَاءُونَ أَوْ تَتَرَصَّعُوا فِي رِيصَةٍ مِنْهُ ٢٨٥ ﴾
 قُلِ الْمَرْءُ أَكْثَرُ قُدْرَةٍ مِمَّا تَتَوَسَّعُونَ بِالْمَعْرُوفِ ٢٨٦ ﴿ ٢٨٧ ﴾
 وَإِنْ طَلَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُمْ فَقَدْ فَرَسْتُمْ مِنْ رِيصَةٍ بِمَا تُرْصُونَ ٢٨٨
 أَنْ يَبْهَتَ أَوْ يَتَّخِذَ الْبَيْتَ حَقْنَةً فَلِلْكَافِ الْأُنثَىٰ قُتُولٌ وَلَا نَفْسٌ ٢٨٩
 الْمَقْصَلُ يَنْكَرُ ٢٩٠ وَإِنْ أَقْبَىٰ تَحْتَضِرُوا ٢٩١ ﴿ ٢٩٢ ﴾

(سورة البقرة)

ذلك امر الدنيا ومصالح الأسرة ، وهو كلام في شئون تنظيم الأسرة ، ثم ينفذ من بعد الكلام في تنظيم الأسرة إلى أمر يقول عنه إنه العبادة وهو قوله الحق

﴿ حَافِظُوا عَلَى الْمَوَالِكِ وَالْمَلَائِكَةِ الْوَسْطَىٰ وَفُورُوا فِي قَتْلِ الْفَاسِقِينَ ٢٩٣ ﴾
 أَوْ رُجَا ٢٩٤ فَإِذَا أَيْسَرْتُمْ قَاتِلُوا اللَّهَ تَعَالَىٰ ٢٩٥ ﴿ ٢٩٦ ﴾

(سورة البقرة)

ثم يعود بعد ذلك إلى شئون تنظيم الأسرة فيقول سبحانه

﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِرَّكُمْ وَيَتَذَكَّرُونَ أَرْوَاحًا وَصِيَّةً لَأَرْوَاحِهِمْ مُنْتَهَىٰ إِلَى الْحَيَاةِ ٢٩٧ ﴾
 ﴿ ٢٩٨ ﴾

(من الآية ١٢ سورة البقرة)

إذ قد أخرجنا من كلام في نظام الأسرة إلى الصلاة ، ثم عاد بنا مرة أخرى إلى نظام الأسرة حتى تتداخل كل الأمور لتكون عبادة متهاكة متحدة فلا تقول . « هذه عبادة وتلك ليست عبادة » ، وأيضا ؛ لأن الكلام في الصلاة وسط كلامه عن أمور الأسرة يسها : إذا دهرت إلى الصلاة فرعا هذأت الصلاة من شرة غضبك ومحاسن وترلت عليك سكية بعينك الأتسى الفصل بيك رويى روجك .

في هذه السورة - سورة المائدة - صنع الحق معا مثلها صنع في سورة البقرة ؛ ليعبد أن تكلم في أشياء وقص علينا أمر النعمة ، ها هوذا يدخل بنا إلى رحاب المنعم ، إلا إنه سبحانه لم يدخلنا على المنعم إلا تهته طهورية . طهارة أعضا ؛ كالوضوء بأن نغسل الوجه ونغسل اليدين إلى المرفقين ونمسح على الرأس ونغسل الرجلين إلى الكعبين . وأحكم في أشياء وترك لاجتهاد مدخلا في أشياء ، أحكمها في ثلاثة ؛ غسل الوجه ، وغسل اليدين إلى المرفقين ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ، لكنه حينها تكلم عن الرءوس لم يقل . « امسحوا برءوسكم » ، ولا : « امسحوا برءوسكم » ، ولا « امسحوا بعض رءوسكم » عما يدل على أن للمجهود أن يفهم في « الباء » ما تبيحه اللغة من « الباء » إذن أعطانا الحق أشياء محكمة وأشياء للاجتهاد . وبعد طهارة الأعضا يذكرنا بطهارة البدن من الجنابة

وملغمت إلى الكلام الذى تقدم حيث أورد الحق فيه ما أحل لنا من بهيمة الأنعام من طعام وشراب ، ثم تكلم في النكاح حتى أنه وسع لنا دائرة الاستمتاع ودائرة الإنسال بأن أباح لنا أن نتزوج الكتايات ، وفي هذا توسيع لرقعة الزواج فلم يقصر الزواج على المسلمات .

ولما كان الطعام الذى أحله الله ينشأ عنه ما يخرج منا من بول وغائط ، والنكاح الذى أحله الله يغير كيمائية الجسد ؛ لذلك جعل الله الوضوء لشيء ، والجنابة لها شيء آخر ؛ فمن الطعام ينشأ الأخبثان ، ومن الجماع أو خروج المنى ينشأ الحدث الأكبر ؛ فكان ولا بد بعد أن يتكلم عن طهارة الأعضا في الحدث الأصغر أن يتكلم عن التطهير الكلى في الحدث الأكبر ؛ فقال : « وإن كنتم جنبا فامسحوا » .

الله سبحانه وتعالى يريد لنا أن نستديم اتصالاتنا به ولم يشأ أن يجعل الوسيلة للصلاة بأمر الماء فقط ؛ لأننا قد نفقد الماء وقد يوجد الماء ولا نفكر على استعماله ؛

فلم يشأ الحق أن يقطع الصلة بأن يجعل الوسيلة الوحيدة للتطهر هي الماء ، فأوجد وسيلة أخرى . فإن فقدت الماء أيها الإنسان فلا بد أن تدخل إلى لقاء الله سية تطهر آخر وهو التيمم . هذا أمر لا يفقده من عاش على الأرض . إحد عندنا تطهر بالماء وعندنا تطهر بالتراب . لذلك يقول سبحانه :

« وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا » فإن كان الإنسان مريضاً لا يقدر على استعمال الماء ، أو كان على سفر ولا يجد الماء ، أو جاء أحد من الغائط ، أى من قضاء الحاجة في مكان عريط وهو الرطى ، المتحضر من الأرض ، وكانت العرب قديمي تفعل ذلك حتى لا يراهم أحد ويكونوا في ستر ، رجالاً أو نساء ، وحتى بعد ملامسة النساء . إن لم يجد الإنسان بعدها ماء فالتيمم هو البديل ، وإياكم أن تقولوا إن الماء هو الوسيلة الوحيدة للتطهر ، فقد جعل للماء أيضاً خليفة وهو التراب . والتراب أوسع دائرة من الماء . فكأنه سبحانه وتعالى يريد أن يديم علينا نعمة اللقاء به . ولكن يديم علينا نعمة اللقاء به جعل للماء - الذى يكون محصوراً - خليفة وهو التراب وهو غير محصور .

ولا نريد أن ندخل في متاهات الخلاف عن الطهارة من ملامسة النساء ، بين اللبس والملامسة ، باللمس لا يقتضى المفاصلة ، أما الملامسة فتقتضى المفاصلة . واقتضاء المفاصلة ينقل المسألة من مجرد اللبس إلى معنى آخر هو الجماع .

وفي حالة الجنابة وعدم وجود الماء فالتيمم هو البديل « فتيمموا صعيداً » وه الصعيد ، هو ما صعد على وجه الأرض من جنس الأرض بحيث لا تدخله صناعة الإنسان كالتراب والحجر ، لكن الطوب الأحمر (الأجر) الذى نصنعه نحن فليس من الصعيد الصالح للتيمم ، لأن صنعة الإنسان قد دخلت .

والأركان المفروضة في طهارة الأبعاض أربعة ، أما طهارة الجسم فهي طهارة واحدة تشمل كل الجسم . وفي حالة التيمم جعل الحق الطهارة استعداداً للصلاة عوضاً عن الوضوء بمسح الوجه واليدين ، وكذلك في الطهارة من الجنابة . وتلاحظ أنه سبحانه جاء بالمسح في الوضوء على بعض من الرأس كإبراهيم متقدم ، وذلك حتى يكون لنا إلف بالمسح حينما تيمم .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » وجعل الحق الطهارة بالماء أو التراب إزاة للحرج ، فالإنسان الذي لم يجد ماء صيفع في الحرج بالتأكيد ، لأنه يريد أن يصل ولا يجد وسيلة للطهارة . وإذا كان عنده القليل من الماء لشرب فهل يتوضأ أو يستديم الحياة ويُبقي على نفسه بشرب الماء ؟ . ولا يريد الله أن يُقت حلقه ولا أن يوقعهم في الحرج . بل خفف عليهم وجعل عنصر التراب يكفي كبديل للماء . « ولكن يريد ليظهركم » .

ولذلك أن تفهم أن الطهارة هي للتنظيف ، لأن معنى الطهارة لو اقتصر على التنظيف لكنت الطهارة بماء فقط ، ولهذا إذن تمسح وجوهنا بالتراب ؟ إن هذا يوضح أن الطهارة غير النظافة ، فلو قال قائل : سأنظف نفسي بماء الكولونيا . نقول له : لا . ليس هذا هو المطلوب . والله لا يطلب نظافة بهذا المعنى ، ولكن يطلب التطهير . والتطهير يكون بشرط من تدخل عليه . وهو الله سبحانه . وقد وضع الحق لذلك أمرين : إما بالماء وإما بالتيمم بالتراب . فالطهارة تجعل المرء صالحاً يستقبل ربه على ضوء ما شرع به . والذي يضع الشرط لذلك هو الله وليس أنت أيها العبد . ومسحانه قد أوضح أن العبد يكون طاهراً بالماء أو بالتراب ، وبهذه الطهارة يكون صالحاً لاستقبال الله له . وأعاد الله الإسناد في قوله منه إلى أصل إيجاده وهو الماء والتراب .

« ولستم نعمت عليكم ، والإنسان ممنور بنعم كثيرة . فذهب أن إنساناً غاب عنه أبوه لكن خير الأب بهلك كل يوم من مال وطعام وشراب ووسائل تربيته ، وبذلك يأخذ الإنسان نعمة العلية من وجود أب له . ومع ذلك يشاق هذا الإنسان المستمتع بنعمة والده الغائب إلى أن يكون مع والده ، هذا هو تمام النعمة بين الأب والابن وكلاهما مخلوق لله ، فما بالنا بنiam النعمة من الخالق لعباده ؟

إن العبد الصالح يتمنى أن يرى مَنْ أنعم عليه ، لذلك وضع الحق شرط الطهارة للقاءه . وعندما يحضر الإنسان لحضرة ربه بالصلاة ويكبر : « الله أكبر » فهو منذ تلك اللحظة يوجد في حضرة الله . وإذا كانت الميوضات تتجلى عل الإنسان من نعمة مخلوق مثله سواء أكان أخاً أم أباً أم قريباً وهي نعمة مادية يراها الإنسان سواء أكانت طعاماً أم شراباً أم لباساً . فما بالنا بفروضات المتعم الخالق الذي أنعم عل

الإنسان ، إنها فيوضات من غيب ، فكرمه لك غيب كالاعتدال في المراج والعافية
ورضا النفس وسمو الفكر .

إذن قوله الحق : « ولينم نعمته عليكم » أي أنكم عشنم قبل ذلك مع نعمة المنعم ،
وسبحانه يدعوكم إلى لقاء المنعم ، ذلك تمام النعمة . وأضرب هذا المثل - والله المثل
الأعلى - إنا نجد الابن ينظر إلى هدايا الأب العائب ويقول : أنا لا أريد هذه الأشياء
ولكني أريد أبي .

إن تمام النعمة - في المستوى البشري - أن يرى الإنسان انعم عليه وهو إنسان
مثله ، أما تمام النعمة على المخلوق من الخالق فيستدعي أن يتطهر الإنسان بما حده
له الله وأن يصل إلى الله .

« ولينم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ساعة نسمع : أنا فعلت ذلك وذلك
لعلك تشكر ، فهذا يعني أنك إن فعلت ما أمرك به فستجد أمراً عظيماً والأمر
الطبيعي يقتضي أن تشكر عليه كأن ما فعله الله للإنسان يوجب عند الإنسان نعمة
أخرى لا يمكن أن يستقبلها إلا بالشكر ، مثلها قال الله :

﴿ وَأَلْقَى نَجْرَكُمْ مِنْ ظُلُومِ السَّمَاءِ فَكَفَى لَكُمْ لَذِيقًا وَمَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(سورة النحل)

إن السمع والأبصار والأفئدة هي منافذ الإدراك . ومادام الحق قد خلقنا ولا تعلم
شيئاً ، وجعل لنا أدوات الإدراك . وأوضح : أنا خلقت لك هذه الأدوات للإدراك
لعلك تشكر ، أي تلمح آثارها في نفسك بما يربى عندك ملكة الإدراك للمدركات .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيقَاتَهُ الَّتِي

وَأَتَقَكُم بِمَا إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

والإنسان أن يسأل . وما هو الذكر ؟ . الذكر هو حفظ الشيء أو استحضاره ، فإذا كان حفظ الشيء فهو حفظ لدهائه ، لكن الاستحضار يكون لمعنى الشيء . إذن فهناك فرق بين حفظ الشيء واستحضار الشيء . هذا هو معنى الذكر . وقد يكون الذكر بمعنى القول ، لأنك لا تقول الشيء إلا بعد أن تستحضره . ولذلك نجد في تكوين الجهاز العصبي الأعلى ذاكرة ، وحافظة ، وخيلة .

ومن عجب أمر التكوين الخلقى أن تمر أحداث على الإنسان في زمن مضى ولا يذكرها الإنسان لمدة طويلة تصل إلى سنوات ، ثم يأتى للإنسان طرف من تدامى المعاني فيذكر الإنسان هذا الشيء الذى حدث منذ عشرين عاماً .

إذن فالشيء الذى أدركه الإنسان منذ عشرين سنة على سبيل المثال لم يذهب ، ولو ذهب ما ذكره الإنسان ، لكنه غاب فقط عن الذهن عشرين عاماً أو أكثر ، فلما تداعت المعاني تذكره الإنسان . ومعنى ذلك أن هذا الشيء كان محفوظاً عند الإنسان وإن توارى عنه منذ مدة طويلة .

فالذاكرة - إذن - معناها أن يستدعى الإنسان المحفوظ ليصير في بؤرة شعوره . مثال ذلك : حدث وقع بين إنسان وآخر منذ أكثر من عشرين عاماً . ونسى الإنسان هذا الحادث . فلما التقى بصديقه ، وجلسا يتذاكران الماضى تذكر الصديق الحادث الذى حدث له منذ أكثر من عشرين عاماً .

إذن فالحادثة لم تذهب من الذاكرة ، ولكنها محفظة موجودة في حواشي الشعور البعيدة ، وكلما بعد الإنسان في الزمن يبدو وكأنه نسى الحادثة ، لكن عندما يأتى تداعى المعنى فالحادثة تأتى في بؤرة الشعور . فإذا ما جاءت في بؤرة الشعور من حواشي الشعور حيث مخزن الحافظة ، يتذكرها الإنسان وهذه هي قوة الخالق جل وعلا .

وفد يسجل أحدنا على شريط تسجيل بعضاً من الكلام ومن بعد ذلك يجب أن يسجل كلاماً آخر على الشريط نفسه فيسمح الكلام الذي سجله أولاً ، ولكن ذاكرة الإنسان تختلف ، فماعة تأتي المسائل في بؤرة شعوره فالإنسان يتذكرها وإذا ما جاءت مسألة أخرى بعدها فلا بد أن تترجح لمسألة الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ؛ لأن بؤرة الشعور لا تستقبل إلا خاطراً واحداً ، فإن شغلت بؤرة الشعور بخاطر آخر فهي تحفظ الخاطر الأول في حواشي الاحتفاظ . ولا يسمح خاطر خاطراً آخر . فإن أراد الإنسان أن يستدعي الخاطر القديم ، كان ذلك في مقدوره ، وهذا هو لفارق بين تسجيل الخلق وتسجيل المخلوق .

وبعد ذلك نجد أن التذكر يكون للمعان ، فالذي يحزن في ذاكرة الإنسان ليس أجراماً ، فهو كانت أجراماً لما وسعها الخ . ولهذا فالمعان لا تتراحم فيه ، بل تتراكم بحيث إذا ما جاء تداعي المعان فالإنسان يتذكر ما يريد أن يذكره ، وذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان الخ من صنع الخالق الأعلى . ومادامت للمعان ليس لها حيز فالإنسان يقدر على حفظها في الذاكرة

الإنسان قد يجلس ليتذكر أسماء الجبال في العالم فيقول : من جبال العالم قمة « إفرست » ، وجبال « الهيمالايا » ، وجبل « أحد » وجبل « ثور » . وساعة يتذكر هذه الأسماء فهو يتصور معانيها ، فالموجود في ذهن الإنسان معان هذا الكلمات وليس أجرام هذه الكلمات ؛ لذلك فلا تتراحم أبداً في المعان بل تظل موجودة ومختزنة في الذاكرة وحاشية الشعور .

ولياكم أن تفهموا أن إنساناً يملك من الذكاء ما يحفظ به الشيء من مرة واحدة : وآخر أقل ذكاء يحفظ بعد قراءة الشيء مرتين ، وثالثاً يحفظ من ثلاث مرات لا ؛ لأن الإنسان يملك ذهناً كألة التصوير يلتقط من مرة واحدة ، لكن لو أخذ الإنسان صورة لمكان وجاء شيء بغير عدسة الصورة فهو بعيد التصوير ، وكذلك الذهن إن أراد الإنسان أن يلتقط لقطة لشيء ما يستقر في بؤرة الشعور وفي بؤرة الشعور شيء آخر ، فالشيء لا يستقر في الذهن ، بل لا بد من قراءة مضمون النقطة مرة ثانية ليؤكد الإنسان المعلومات لتنطبع في بؤرة الشعور .

ومثال ذلك الطالب الذي يدخل ساحة المدرسة التي يُعقد بها الامتحان . وقبل أن

يدق جرس الامتحان بخمس دقائق يلقى له واحد من زملائه ويقول له هل ذاكرت الموضوع الفلاني . فيقول الطالب : لآلم استذكره . فيقول الصاحب . هذا الموضوع سيأتى مه سؤال فى الامتحان . فيحفظ الطالب كتابا ويقرأ فيه هذا الموضوع لمرة واحدة . هذا لطالب فى هذه اللحظة لا يتذكر ماذا سيأكل على العشاء هذا اليوم ، أو من سيقابل . بل يعرف أنه بصدد أمر فرسته صيفة ، ويركز كل دمه لىستقبل ما يقرأه . وفى لحظة واحدة يحفظ هذا الموضوع . وإذا جاء الامتحان ووجد السؤال فهو يهيب عليه بأفق التفاصيل . وقد نجد طالبا آخر جالس لآيام يحاول استدكار هذا الدرس بلا طائل .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، شريطة ألا يستقبل الإنسان ما يقرأه أو يسمعه من معلومات والذهن مشغول بأشياء أخرى . والدليل على ذلك : أن الإنسان قد يسمع القصيدة مرة واحدة أو يسمع الخطبة مرة واحدة فيحفظ من القصيدة أكثر من بيت ، أو يحفظ من الخطبة أكثر من مقطع ؛ لأن ذهن الإنسان فى تلك اللحظة كان حائيا فالتقط الأبيات التى حفظها ، وكذلك الخطبة ، أما بقية أجزاء القصيدة أو الخطبة فقد يكون ذهنه شرد إلى أشياء أخرى . ولذلك يحاول الإنسان أن يكرر الاستماع والإصغاء والقراءة أكثر من مرة ليهيئ ويعد بؤرة الشعور ، فيحفظ الإنسان ما يريد .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، أما الذاكرة فهى تتذكر أى تستحضر المعانى التى قد تختفى فى الحافظة ، ولا شىء يصح فى الحافظة أبدا ، بحيث إذا جاء الاستدعاء طفت المعانى على السطح . كأن استطاعت الإنسان فى نعم الله لا تنسى أبدا . وهى موجودة عند الإنسان ، ولكنها تريد من الإنسان أن يستدعيها من الحافظة ويطلبها .

ولنردقة الأداء القرآنى . « واذكروا نعمة الله عليكم » سبحانه يقول هنا « نعمة » مع أن نعم الله كثيرة ، ولكن الله قد آثر أن يأتى بالمفرد ولم يأت بالجمع . وذلك ليس للإنسان أن أية نعمة فى أية زاوية من حياة الإنسان تستحق أن يذكرها الإنسان ؛ فعم الله كثيرة ، ولكن لتذكر الإنسان ولو نعمة واحدة هى نعمة الإيجاد من عدم ، أو نعمة البصر ، أو السمع . وكل نعمة من هذه النعم تستحق من الإنسان أن يذكرها دائما ، ولا تطرد نعمة نعمة أخرى ، فما بالنا إذا كانت النعم كثيرة ؟

ولو تعمّن الإنسان في كل نعمة لاحتاجت إلى أن يتذكرها دائماً ، لو أن النعمة اسم للجنس كله ، لأن المفرد يطلق على كل الجنس ، مثل الإنسان فإنها تطلق على كل فرد من أفرادها مثل محمد وعلي وخالد .

ركلمة « النعمة » قد تُنسب إلى سببها كنعمة سببها مروءة واحد من البشر ، وهي محدودة بمقدار الأثر الذي أحدثته . لكن نحن هنا أمام نعمة المسبب وهو الله ، ولا بد أن تناسب نعمة الله جلال وجمال عظمته وعظائمه

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به » « واثق » تفتضى أمرين : فالإنسان طرف الاحتياج والمقر والأخذ ، والرب صاحب الفضل والمُعطاء والغنى ، إنه هو الربوبية وانت العبودية ، وهو الحق القائل :

﴿ وَأَوْفُوا بِمِيثَاقِي أَوْفٍ يُعَذِّبُكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة)

إذن فـ « واثقكم » تعني التأكيد من طرفين ؛ لأن « واثق » هل وزن « فاعل » ، ولا بد في « فاعل » أن تكون من اثنين . ومثال ذلك « شارك » تقولها لاثنين أو أكثر ، فنقول : « شارك زيد عمراً » وكذلك « قاتل زيد عمراً » . وحين يقول الحق : إنه « واثق عبادي » أي أنه شاركهم في هذا الميثاق وقبله منهم . لكن أي ميثاق هذا ؟

ونحن نعرف الميثاق الأول الذي هو ميثاق النور :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

وهو ميثاق العطرة قبل أن توجد النفس وشهواتها . وبعد ذلك ميثاق العقل الذي نظر به الإنسان إلى الوجود واستطاع أن يخرج من تلك الرؤية بأن الوجود محكم ومنظم وواسع ، ولا بد لهذا الوجود من واجد وهو الله . وبعد ذلك ميثاق الإيمان بالله ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما عرض منهج الإسلام آمن به بعض

الاسم ، أى أخذ منهم عهداً على أن يتعلموا مطنوبات الله ، ألم يأخذ الرسول عهداً في العفة حين قالوا له :

خذ لنفسك ولربك ما أحسبت فتكلم - رسول الله صلى الله عليه وسلم - تلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال : « أطيعكم على أن تسمعوا عما تسمعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال . معكم والذي بعثك بالحق لنمنعنك عما تمنع منه أئزنا فبايعنا يا رسول الله فحس أبناء الحرب وأهل الخبرة (الصلاح) ورشاهما كاهراً من كاهراً^(١) .

وحدث هذا - أيضاً - عند بيعة الرضوان تحت الشجرة . إذن فسمى « واثقكم به » إما أن يكون العهد العلم الإيماني في عالم الدر ، وما أن يكون العهد الإيماني الذي جاء بواسطة الرسل .

« وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » وحين يؤمن الإنسان يقول سمعت وأطعت ، وهكذا تنتهي مسألة التعاقد ويتبع الحق ذلك بقوله : « واثقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » واثقوا أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، فالمطلوب منا أن نلتحم بمنهج الله إلتحاما كاملا ، وعليها كذلك أن نجعل بيننا وبين صفات غضب الله وقاية . وعرفنا أن قوله الحق : « اتقوا الله » متساو مع قوله : « اتقوا النار » ، وقد يقول قائل وهل للذر أوامر ونواه ؟

ومقول : أحسن المهم عن ربك واجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، فالنار جند من جنود الله . وسبحانه يوضح : اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ، لأن الحق له صفات جلال هي الخبوت والانتقام والقهر ، وللحق صفات جمال فهو العمور الرحيم المعنى ، الحكيم إلى غير ذلك من صفات الجلال ، إذن فلجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية تقينا من جنود صفات الجلال ومنها النار .

وقلت من قبل . إن الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغنا أنه في الليلة الأخيرة من رمضان يتجلى الجبار بالمعصية والطرة السعوية تتسأل : ولماذا لم يقل : يتجلى الغفار

بالمغفرة ؟ ذلك أن (الجار) صفة من صفات الجلال التي تقتضي معاقبة المذنب ، والذنب متعلق بصفات الجلال لا بصفات الجمال ، إذن فالمنطق يقتضي أن يقف المذنب أمام شديد الانتقام ، لأن المقام يناسب صفات الجلال ، ولكن علينا أن نتذكر جيدا أن الله يرعى العنان للمذنب لعله يتوب ، وأن الله يفرح بتوبة عبده وأن رحمته تغلب غضبه .

ويذيل الحق الآية : « إن الله علیم بذات الصدور ، والتقوى - كما نعلم - لا تنشأ من الأفعال المحسنة المدركة فقط ، بل تنشأ أيضا في الأحوال الدخيلة المضمرة . ومثال ذلك نية سيئة ونية حسنة فالخقد ، الحسد ، التبيت ، المكر ، كل ذلك صفات سيئة ؛ فليأكم أن تقولوا إن التقوى للمدركات فقط ؛ بل للمحسنت أيضا . وعمل القلوب له دخل في تقوى الله . ومن بعد ذلك يقول الحق :

يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ
شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ
قَوْمٍ عَلَٰى اَلَّا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ
لِلتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُوْنَ

إن الحق - كما علمنا - حين ينادى المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » إنه سبحانه لم يقتحم على النص تصرفاتهم الاختيارية لمهجه ، بل يلزم ويأمر من آمن به ويوجب عليه ؛ فيوضح : يا من آمنت بي إنها حكما قادرا حذا مهجى . ولكن الحق يقول : « يا أيها الناس » حين يريد أن يلفت كل الخلق إلى الاعتقاد بوجوده ، أما من يؤمن به فهو يدخل في دائرة قوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا » وهذا النداء يقتضي بأن يسمح المؤمن التكليف من آمن بوجوده .

ونعلم أننا جميعا عبيد الله ، لكن لسنا جميعا عباد الله . وهناك فرق بين « عبيد » و « عباد » . فالعبيد هم المرغمون على الفهر في أي لون من ألوان حياتهم ، ولا يستطيعون أن يذهبوا اختيارهم فيه . قد نجد متمرد يقول : « أنا لا أؤمن بالله » ولكن هل يستطيع أن يتمرد على ما يقضيه الله فيما يجبره الله عليه قهرا ؟ فإذا مرض وادعى أنه غير مريض فيما الذي يحدث له ؟ أيجري واحد من هؤلاء المتمردين على ألا يموت ؟ لا أحد يقدر على ذلك .

إذن فكل عبد مقهور لله ، وكلنا عبيد الله يستدعينا وقتما يريد ويجري علينا ما يريد بما فوق الاختيارات . أما « العباد » فهم الذين يأتون إلى ما فيه اختيار لهم ويقولون لله : لقد نزعنا من أنفسنا صفة الاختيار هذه ورضينا بما نقوله لنا « الفعل كذا » و « لا تفعل كذا » . إذن فالعبيد مقهورون بما يجبره عليهم الحق بي يريد ، والعباد هم الذين يرضون ويكون اختيارهم وفق ما يحبه الله ويرضاه ، إنهم أسلموا الوجه لله . فهم مقهورون بالاختيار ، أما العبيد فمقهورون بالإجبار .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله » و « قوام » صفة مبالغة والأصل فيها قائم ، فإن أكثر القيام نطلق عليه كلمة « قوام » . ومثال ذلك رجل لا يحترق النخارة وجاء بقطعة من الخشب وأراد أن يسد بها ثقبا في باب بيته ، هذا لرجل يقال له : « ناجر » ولا يقال له : « نحار » ، ذلك أن تخصصه في الحياة ليس في النجارة وكذلك الهاوي الذي يخرج بالسفارة إلى البحر ، واصطاد سمكتين ، يقال له : « صائد » لكنه ليس صيادا ، لأن الصيد ليس حرفته .

إن الحق يطلب من كل مؤمن ألا يكون قائما لله فقط ، ولكن يطلب من كل مؤمن أن يكون قواما ، أي مبالغ في القيام بأمر الله . والقيام يدلله القعود . وبعد القعود الاضطجاع وهو وضع الجسم على الأرض ثم الاستلقاء ، وبعد ذلك ينام الإنسان . ونحن أمام أكثر من مرحلة : قائم وقاعد ومستلقي ، ونائم . والنائم ليس عليه تكليف . والمستلقي هو المستريح عن ظهره والحق يقول .

﴿ مَا ذُكِّرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾

أى اجعلوا الله دافعاً على بالكم ، فالإنسان يملك فى حالته الطبيعية نشاطاً يمكنه أن يقوم ويقعد ، فإن قيل : قام فلان بأمر القوم ، أى أنه بذل كل جهد لإدارة أمور الناس ، والقيام فى حركات الناس أصعب شئ . ومسحاه لا يريد ما أن نكون قائمين فقط ، بل يريد أن نكون قوامين . ومادما قوامين فليس تخلو لحظة من قيامنا أن نكون لله ، لا توجها . لا نفعا ، لأن أية حركة من أى عبد لا تعيد الله فى شئ ، فخلق خلقه بجموع صفات الكمال فيه ، ولم يشئ خلقه له صفة جمال أو كمال جديدة . وعندما يؤدى الإنسان أى عمل لله فهو يؤديه طاعة وتقرباً لله . وإذا أراد الله من المؤمنين أن يكونوا قوامين لله ، عندئذ تكون كل حركات المجتمع الإيماني حركات رباتية متساندة متصاعدة . وإذا كنت حركات المجمع الإيماني متساندة فسوف تكون النتيجة لهذه الحركة سعادة البشرية ، فالإنسان إذا ما كان قواماً فهو قوام لنفسه وللآخرين

والمراد أن يكون مساومين على قيامنا فى كل أمر لله . ولا تعتقد أيها المزمع أنك تعامل خلق الله ، إنما تعامل الله الذى شرع لك ليضمن لك ويضمن منك ، فانت إن طولت بالأمانة ، فقد طولت كل الناس بالأمانة فيما هو خاص بك لا بعيرك ، وحين يهلك الله عن الحياة فقد أمر خلق الناس جميعاً بالانتهاء عن الحياة لك .

إذن إن نظرت إلى تكاليفات الله لوجدتها لصالحك أنت . فلا يفتن طان أن الدين إنما جاء ليوقف أمام نفسه هو ، فالدين وقف أمام النفس لدى لناس جميعاً ، فحين يأمرك : ألا تمد يدك إلى مال غيرك فأنت واحد من الناس ، وفى هذا القول أمر موجه لكل الناس : لا تمسوا أيديكم إلى مال فلان لتسرفوه . فانظر إلى أن الحق حين شرع عليك شرع لك . ولذلك يجب أن يكون كل قيامك لله سبحانه . ولذلك يظهر الحق سبحانه وتعالى فى بعض خلقه أشياء وأحداث تفهم الناس أن الذى يعمل لخلق الله مسلوب النعيم ، والذى يعمل لله يكون موصول النعيم ، فنجد الواحد من الناس يقول : « لقد فعلت فلان كذا وكذا وكذا وأبكرنى » نقول له : أنت تستحق لأنك صنعت له ، ولكنك لو صنعت لله لكملك الله كل أمر . ولذلك يقول الحق عن هؤلاء الذين صنعوا لله :

﴿يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾

(من الآية ٣٠ سورة آل عمران)

إذن فنلزم يجب أن يوضح حركة قيامه وسعيها ؛ بمعنى أن يجعل كل حركته لله ؛ فإذا كانت كل حركته لله ، فالله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً . والخاسرون هم الذين يعملون للناس ؛ لأن الناس لا يملكون لهم نفعاً وربما تخلوا عنهم وربما أضربت وحملت قلوبهم الصنن ولحقدهم أحسن إليهم ، وربما تحولوا إلى أعداء لهم ، فالمصروع له الجميل قد يعطيه الله بعضاً من الجاه ، وحين يلقي صانع الجميل بعد ذلك قد تتحاذل نفسه وتندل ، ونرى في بعض الأحيان واحداً يجلس بين الناس وقد أخذته العزة ، ثم يدخل عليه إنسان كان له فضل عليه ، وساعة يره يكره وجوده في مجلسه ، ويتمنى ألا يحدث هذا اللقاء ، وإذا ما لقيه بعد ذلك في طريق فهو يشيح بوجهه ؛ لأن الذي صنع الجميل يسبب حرجاً له ، ويجعل نفسه تتصعق ، وهو يريد أن يتكبر على الناس . إذن فالله يوضح أعمالوا لله ؛ لأنه لا يضيع عند شيء . واعلموا أن الله رقيب عليكم رلى يضيع عمل عند

وعندما سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الإحسان قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(١) .

أستطيع أنت أي الإنسان أن تصبح في إنسان آخر ما يسره أمامه ؟ . أنت تسيء إلى الآخر من وراء ظهره . فليأذا إذن يسمى الواحد منكم إلى الله بالعصيان ، وهو الناظر إليكم جميعاً ؟

إذن حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن تحسن معاملة نفسك وغربك فعليك أن تحتسب كل عمل لك عند الله . فقد سخر لنا حتى كل الوجود وأعدنا كل مقومات الحياة ، وأوضح لكل واحد منا ما عيذى اجعل كل قيامك لله ؛ ولا تكن قائماً فقط ولكن كن قواماً . بمعنى أنه مادامت فيك بقية من العافية للعمل فاعمل ، ولا تعمل على قدر حاجتك فقط ، ولكن اعمل على قدر طاقتك ؛ لأنك لو عملت على قدر حاجتك فإن الذي لا يقدر على العمل لن يجد ما يعيش به .

إذن فاعمل على قدر طاقتك لتسع حركتك للناس جميعاً . ويكون العائن من

(١) رواه البخاري . باب سؤال جبريل عن الإيمان بالاسلام والإحسان ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان

عملك لغريك . وحين يقول سبحانه : « كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » يعنى انما لا نضيع مجهودنا هباء ، بل نوجه المجهود للعمل ونقوم به لوجه الله ، لانه سبحانه لا ينسى أبداً جزاء عبده ، وهو الذى يرد كل جميل . إنه - سبحانه - يقول : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »

ويقول أيضا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصِغُ أَعْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة التوبة)

وحيث يكون الواحد منا قواماً لله يكون قد استغل حركة وجوده لخير خلق الله ، وهذا العمل المطلوب منك . ولا يكفى أن تكون حركتك محصورة في ذلك ، بل يجب أن تمتد أيضا حركة حياتك لتكون شاهداً بالعدل . وكذلك توجه للعمل من تحته نفسه أن يتحرف . وحين تكون قواماً لله فهذا أمر حسن ، وعليك أن تحاول إقناع غيرك بأن يكون قيامه لله بأن تكون شاهداً بالقسط والعدل . وحين تكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتبادى ظلم في ظلمه . فالذى يعمل الظالم يشتد ويستشري ظلمه ويتضخم شره هو أنه يجد من يدلسون على العدالة ويسترون وتخفون العيوب ويتخاذعون الناس .

لكن لو وجد الإنسان الذى ينير الطريق أمام العدالة بما وجد ظلم . لكن الظلم يجب من يدلس عليه ، فيقول لنفسه : إن فلاناً ارتكب جريمة مثل جرمي ونال البراءة . وتدلّس الشهادة يتودى إلى غراب المجتمعات . ولو أن المجتمع حينما يرى أن شهادة أفراده هي شهادة بالقسط وشهادة بالعدل ، فإن كل فرد في المجتمع إذا هم بظلم يرتدع قبل أن يفعل الظلم ، ولكن الظالم ينال عقابه ويصير مثالا لا يرتدع غيره . والمؤمن مطالب أولاً بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالب ثانياً أن يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

وكلمة « القسط » تأتى منها اشتقاقات كثيرة ، وهي من الألفظ التى قد تدل على العدل وقد تدل على الجور ، وهي من الألفاظ التى نستعمل في الأمر وفي نقيضه . وهذا من محاسن اللغة . ويتطلب ذلك أن يحسن السامع الكلمة ويعترف على معناها بما يتطلبه السياق

« قَسَطَ » معناها « عدل » . والفعل المضارع لما هو يقسط والمصدر « قِسْطًا » ، ومرة يكون المصدر « قُسُوطًا » . والمصدر هو الذي قد يحول المعنى من العدل إلى الجور . فالقسط بمعنى العدل . وقَسَطَ يَقْطِطُ قُسُوطًا . أى جار وظلم . هنا نجد الفعل يأتي بالمعنى وضده ؛ حتى يمتلك السامع اليقظة والفطنة التي تجعله يعرف التمييز بين معنى العدل ومعنى الجور .

وحين نقول « أقسط » فإنها بمعنى عدل ، وهنا نتنبه إلى ما يلي : أن هناك فرقاً بين عَدَلَ بأتى من أول الأمر وذلك هو القِسط ، وهناك حكم ظالم يحتاج إلى حكم آخر يزيل الظلم . وذلك الذى نستعمل له « أقسط » أى أزال الظلم ، مكان جوراً كان موجوداً وأزاله الحكم . فالقِسط - إذن - هو العدل الابتدائى . ولذلك نسمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّا أَقْسَطُوكُمْ فَكُنُوا لَهُمْ حَقَابًا ۝ ﴾

(سورة الجن)

والقاسطون هنا هم الظالمون ، فالقسط هنا من قسط يقسط قُسُوطًا .

وفي الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها يقول الحق : « شهداء بالقسط » أى شهداء بالعدل . واللباقة فى السامع هى التى توجه اللفظ إلى معناه المراد من خلا السباق ، فالسامع للقرآن يفترض فيه الأريحية اللغوية بحيث يستطيع أن يفرق بين المثقء والمشابه له من شئء آخر . إذن فهناك قسط وأقسط ، قسط بمعنى عدل ، وأقسط بمعنى أقام القسط بإزالة الجور . والقسوط معناه الجور .

والحق يقول : « إن الله يحب المتسطين » وه المتسطين ، هى جمع « مُقْسِط » ، من : أقسط أى أزال الظلم والجور ، إذن فالذى يرجع المعنى هنا سياق الكلمة ومصدرها . وقد يراد بالكلمة المعنى المصدرى . والمعنى المصدرى لا يختلف باختلاف منطوقه ، فهناك : « رجل عدل » ويقال : « امرأة عدل » . ويقال : « رجلان عدل » ، ويقال : « امرأتان عدل » ، وه رجال عدل ، وه نساء عدل . إذن فإن لرحنا بالكلمة المصدر فهى لا تنضير فى المفرد والمثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث . والقرآن الكريم يقول :

﴿ وَصَّعُ أَمْوَازٍ الْأَقْطَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنعام)

وهناك قول آخر :

﴿ وَزَيُّوا بِالْقِطَاسِ الْمُتَنَقِّمِ ﴾ (١٨٩)

(سورة الشعراء)

وفي الريف المصري نجد أن التاجر يصنع لتمسه الموازين من الأحجار ، فيعابر قطعة من الحجر بوزن الكيلو جرام ، ويعابر قطعاً أخرى لأجزاء الكيلو جرام ، ومن كثرة الاستعمال وملازمة الحجر يعرف التاجر أن الحجر يتآكل ، لذلك يعيد وزن الأحجار لقي يستعملها في الميزان كل فترة متقاربة من الزمن . ويقال : إنه يعابر الأوزن . وسمى القسطاس ؛ فالقسطاس هو الذي تعابر به الموزنين ، فإذا صح الإنسان شيئاً للميزان مما يتآكل أو يتأثر باللمس فيجب عليه أن يعايره كل فترة حتى لا يظلم أحداً ولو بمقدار اللبسة الواحدة . ولئلك يقول الحق : « ذنكم أقسط عند الله » « أقسط » هنا معناها « أعدل » . فموازين الله غير موازين البشر ، فموازين الشر قد يحدث فيها اختلاف . ويرى بعض التجار ينقصون الميزان بأن يضعوا شيئاً تحت كفة الميزان أو غير ذلك من الخدع ، لكن الحق هو العادل الحق . وهو صاحب الميزان الأعدل وهو القائل : « ذنكم أقسط عند الله » .

جاءت هذه الآية لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصغر حكماً ، وهو حكم صحيح وعادل بقواعد البشر ، فأوضح الحق له الحكم الأقسط ، صحيح أن عدلك يا رسول الله لا يدخله هوى ولا يميل به غرض أو شهوة . ولكن العدل عند الله أكثر دقة وله مطلق الدقة . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم بمنطق القسط البشري في أمر زيد بن حارثة وكان مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان عبداً لحديجة - رضي الله عنها - وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة علم أهل زيد بخبر انتطافه وبهجه كعبد وكف آل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجهأ أهل زيد إلى رسول الله وطالبوا بإتيهم . ورفض زيد أن يعود معهم وأراد أن يهني مع رسول الله ، وأراد رسول الله أن يكرم زيدا الذي فضله على أبيه وأهله مصداقاً لقول الله :

﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

(من الآية ٦ سورة الأحزاب)

لذلك كان لا بد للنبى صلى الله عليه وسلم أن يقدر زيد بن حارثة ، فأعتقه ودعاه « زيد بن محمد » تكريماً له ، على عادة العرب في تلك الأيام . لكن الله يريد أن يذى مسألة النبى .

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

وأجرى الله الأحداث ليصحح مسألة النبى لكل العرب ، وكان بداية تطبيق ذلك على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويترن القول الحق :

﴿أَدْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

لم ينف الله القسط عن محمد ، ولكن الأقسط يأتى من عند الله . ويطلب الله خاطر زيد بعد أن عاد إليه اسمه الفعل منسوباً لأبيه لا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافى الله زيدا بأن يجعل اسمه هو الاسم الوحيد في الإسلام الذى يذكر في القرآن ويتعبد المؤمنون بتلاوته إلى أن تقوم الساعة :

﴿فَبِمَا نَحْصَىٰ زَيْدٍ مِّمَّا وَطَّرَا﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

لقد صار اسمه في القرآن يتلوه المسلمون إلى قيام الساعة . وفي ذلك كل السلوى . إذن هو « أقسط عند الله » جاءت في محلها ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طالب منا أن يكون قيماناً مبالغاً فيه ، أى ألا نترك فرصة لعمل الخير وأن نبالغ في الدقة في أداء العمل ، وأن نعمل في المجتمع بأن نكون شهداء بالقسط . وبذلك يأخذ كل إنسان حقه فلا يقدر قوى أن يظلم ضعيفاً ، لأن الضعيف سيجد أناساً يشهدون معه بالحق .

ولياكم أن تدخلوا الهوى في مقاييس العدل . وحب أن المسألة تتعلق بعلوكم أو بخصومتكم فالعدل هنا أكثر أهمية وأكثر وجوباً .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا فتعدلوا عليهم ، فمن له حق يجب أن يأخذه . ونعرف القصة التي حدثت ، عندما سرق مسلم درع مسلم آخر وأراد السارق وأهله أن يلبصقوا التهمة بيهودى وأن يجرى نفسه ، ولكن الله أنزل قرآناً :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَافِينَ

غَصْباً ۝۱۵۸ ﴾

(سورة الباء)

أى لا تكن يا محمد لصالح الخالفين غصباً للبراء . وقوله الحق هنا : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا ، وإلا سيكون البغض لصالح عدوكم ، وبغض المؤمن إذا حله على اتباع هواه سيكون لصالح العدو ، لأن الله سبحانه يحب المؤمن لو أدخل الهوى والبغض في إقامة الميزان العادل . فتحكيم البغض والعداء والهوى يكون لصالح الخصوم ! لذلك لا يحملنكم أيها المؤمنون شنآن - أى بغض - قوم على ألا تعدلوا .

ويضيف الحق : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » والعدالة حين تُطلب مع الخصم هي تقرب لفضل الخصم لأنه خالف الإيمان . ومن المؤكد أن الخصم يقول لنفسه : إن عدالة هذا المسلم لم تمنعه من أن يقول الحق ولا بد أن عقيده تجعل منه إنساناً نوباً ، وأن فيه الذى أمره بذلك هو نعم الدين .

إذن ساعة تحكم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تفرعه لأنه ليس مزمناً ، لكن لو رأى خصمك أنك قد جُرت ولم تنسحب إلى الحق ، فأنت بذلك تشجعه على أن يبقى كافراً ؛ لأنه سيفرض أنك تتبع الهوى . أما إذا رآك وأنت تنقب موقفاً يرضى الله مع أنه خصم لك ، فهو يستدل من ذلك على أن العقيدة التي آمنتم بها هي الحق ، وأنك تقيم الحق حتى في أعدائكم . وهكذا يفرح الخصم المحدى نفسه ، وقد بلغته ذلك إلى الإيمان .

« اعدلوا هو أقرب للتقوى » أقرب إلى أى تقوى ؟ أقرب إلى تقوى المؤمن ؟ أم أن الخصم يكون أقرب إلى التقوى حين يرى المؤمن مقيماً للعدل والحق ، فقلعه

يرتدع ويعاود نفسه ويقول : إن الإيمان قد جعل هذا المسلم يتغلب على البعض وحكم بالحق على الرغم من أنه يعلم أنني عدو له .

ولنا في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة ، فقد جاءه رجل غريب يسأله طعاماً أو بيتاً ، فسأله إبراهيم عن دينه . فوجده كافراً ، فلم يحب مسأله . وصار الرجل بعيداً ، فأنزل الله سبحانه على إبراهيم وحياً : أن قبلته كافراً بي ومع ذلك ما قبضت نفسي عنه . وسألك الرجل لقمة أر بيت ليلة فلم يجبه . وجرى سيدنا إبراهيم خلف الرجل وسنوفه . فسأل الرجل سيدنا إبراهيم : ما الذي حدث لتغير موقفك ، فقال سيدنا إبراهيم : إن ربي عاتبني في ذلك فقال الرجل : نعم الرب إله يعاتب أحابه في أعدائه ، وأمس الرجل

وهذا يوضح لنا معنى « أقرب للتقوى » فقد صار الرجل الكافر أقرب للتقوى . إذن : فاللعن النفس الذي يهيب خصمك أو من يفضك أو من يبتك وبينه شأن ، حين يراك أثرت الحق على بغضك له ، يجعله يلتفت إلى الإيمان الذي جعل الحق يعلم الأقوى ويعلم ويفهره ، ويصير أقرب للتقوى . وأيضاً من يشهد بالقسط هو أقرب للتقوى .

ويذكر الحق الآية بقوله : « راتقوا الله إن الله خير بما تعملون » فهو - سبحانه - الخبير بما تعمل . وإياك أيها المؤمن أن تصنع ذلك لشهرة أن يقال عنك إنك رجل حكمت على نفسك . ولكن اعمل من أجل الله حق وإن كان الموقف يستحق منك الفخر .

إن كثيراً من الناس يحكمون بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل ، كيف ؟ لنفرض أنه قد عرضت عليك قضية هي خصومة بين ابنك وابن جارك : الشجاعة الأولى تفرض أن تحكم لابن جارك وهو غير محق على ابنك . لكن الشجاعة الأقوى أن يكون الحق لابنك وتحكم له ، أما إن حكمت لابن جارك - وهو غير محق - ففى هذه الحالة تكون قد حكمت بالظلم ليشتهر بين الناس بالعدل !

يجب أن يكون الحق أعز عليك من ابنك وابن جارك ، وإياكم أن تعملوا أعمالاً

طاهرها حدث وناصحها ربه ؛ لأن يعلم أن لكل جراحة من الجوارح محالاً تؤذي فيه
وحيمتها ؛ فاللسان أداؤه ووظيفته القول ، والأذن مهيأ أن تسمع ، والأفم أداؤه أن
يشم ، ويجمع لجميع العمل فالعمل إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلاً
قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْنًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾

(سورة الصف)

إذن القول محبة اللسان ، والعمل محبة ربه الجوارح ، ولائذا يجمعهم العمل
ومن بعد ذلك يقول الحق

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾

وعندما تأمل كلمة « وعد » تجد تأني ، وتأني أيضاً كلمة « أوعد » و« وعد »
وكذلك أوعد إذا لم يقترب بالموعود به ، تكون وعد لخير ، و« وُعد » للشر وبكر
لو حدث عمر ذلك وحش بالموعود به ، فالإنسان متساوياً ، فيصح أن تقول « وعدته
بالخير » ويصح أيضاً أن تقول « وعدته بالشر » لكن إن لم تذكر المنعق ، فإن
« وعد » تستعمل في الخير و« أوعد » تستعمل في الشر وإشاعر بقول

وَأَيُّ إِنِّ أَوْعَدْتَهُ لَوْ وَعَدْتَهُ
لَخَلِيفٌ إِيَّاهُ وَمُنَجِّزٌ مَوْعِدِي

وحيث يقول : « وعد الله » فهذا وعد مطلق لا إحلال به ، لأن الذي يفخ بالوعد
هو الإنسان الذي تعثره الأعبار ، فقد يأتي مبعداً لوفاء بالوعد ويهد الإنسان نفسه في

موقف عاجز أو موقف متميز قديماً ، لكن ساعة يكون الله هو الذي عهد قسبحانه
ابدى لا تداحله الأعبار ، بل هو لدى يجرى لأعبار ، لذلك يكون وعده هو الوعد
الخاص الذي لا تؤخذ قوة أخرى تحول دون أن ينفذ الله وعده أما وعد البشر فقد
تأني قوة أخرى تعطل هذا الوعد .

« عهد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم معمرة » سبحانه وتعالى يوضح أن
معمرة لكن عباده ولا يختص فقط بالصالحين الورعين بل إنه يوجه حديثه إلى هؤلاء
الذين ارتكبو الصالحين من تسوا ، فلهم معمرة ؛ لأن ذرة المسدة مقدم على حب
المصلحة ؛ ذات قد تكون جانب وياي وحظ جهة اليمين ليقدّم لك تداحة ، وفي
المنحلة نفسها نبي تمتد يدك لتأخذ التداحة تلتفت لتجد إنساناً آخر يريد أن
يصنعك ، أي اتجاهات سلوكك تغيب^٩ . لا بد أنك ستزد على من يصيرك أولاً
واحق يريل لدروب أولاً بالمعمرة ويحده سبحانه وتعالى يأتى بأشياء تمتت القلب
فهو يقون .

﴿ قَن رُحْرَح عِي السَارِ وَذَجَلْ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَرَّ ﴾

(في الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

الخطوة الأولى للمور هي الرحلة عن الدار ، والخطوة التالية بعد ذلك هي
دحوّل حنة مسجده يمح المسدة ويقدم دفعها ودرأها على جلب المسدة ؛ لذلك
يقول الحق بذاية « لهم معمرة » والإنسان ما سعدة تأتي له الخواطر يفكر في أشياء
يتمتع إليها ، وهناك أشياء يخاف منها ويشغل لذهن أولاً بما يخاف منه ، يخاف من
المسدة ، يخاف من عدم تحقيق الآمال إذن ذرة المسدة مقدم على جلب المصلحة .

« هم معمرة وأجر عظيم » وكل أجر عن عمل يأخذ عمره بقدر حيرة ارمى ،
فأجر الإنسان عن عمله في الدنيا يذهب ويروى ، لأن الإنسان نفسه يذهب في
الموت ، أما أجر الآخرة فهو لبقى أبدي ، وهو أحر لا يفوت الإنسان ولا يفوته
الإنسان ، ذلك هو الأجر العظيم .

وعين يتكلم الحق عن معنى من المعاني يتعلق بالإيمان ونعمل الصالح نكون

النفس متعلمة ؛ لأن هناك تلميذا في الخير وترهيباً من الشر ؛ لذلك يتبع الحق هذه الآية
بآية أخرى فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١٠ ﴾

وعين سمع قوه . « أصحاب الجحيم » تنزلون النفوس رهبة من تلك الصحبة
التي برأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم وتعني الارتباط معاً ، وألا يترك أحدهما
الأخر ، كأن الجحيم لا تتركهم ، وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيم نفسها
في اشتياق لهم وللجحيم يوم القيامة عملان ، العمل الأول : الصحبة التي
لا يقدر الكافر على الفكك منها ، والثاني لا تترك الجحيم فرصة للكافر ليفك
منها . ويقول الحق عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ آتَاكِتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ١١ ﴾

(سورة ق)

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ اِذْ هُمْ قَوْمٌ اَن يَّبْسُطُوا اِلَيْكُمْ اَيْدِيَهُمْ
فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٢ ﴾

والذكر - كما عرفنا - يعني استحصار شيء إلى الدفن ؛ لأن الغفلة تطرا على

الإنسان وعيه ألا يستمر فيها . وبعض أهل الإشراق والشطح يتلاعبون بالمواجيد النفسية فيقول واحد منهم : يعلم الله أني لست أذكره . وحين يسمع الإنسان مثل هذا القول قد يوجه لصاحبه التائب والفد العيب ، لكن القائل يحمل الأمر التحليل العرفاني فيكمل بيت الشعر بالشطر الثاين :

« إذ كيف أذكره إذ لست أنساه » .

وهذا ترتاج النفس ، ويقول الحق ها أيضاً : « نعمة الله » ولم يقل : « نعم » لأن كل نعمة على امفراد تستحق أن يشكر الله عيها ؛ فكل نعمة مفردة في عظم وصحامة تستحق الشكر عليها ، أر أن نعمة الله هي كل فيضه على خلقه ، فامضل النعمة أنه ربما ، وسبحانه يقول . « اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » وما دام قد جاء بـ « إذ » فالمراد نعمة بخصوصها ؛ لأن « إذ » تعني « حين » فالحق يوضح . اذكروا نعمة الله عليكم في ذلك الوقت الذي حدثت فيه هذه المسألة ؛ لأنه جاء بزمن ويطلب أن نذكر نعمته في هذا الموقف ، إنه يذكرنا بالنعمة التي حدثت عندما هم قوم ييسط أيديهم إليكم

وهناك « قبض » لليد و « بسط » لليد . والبسط المتطور أن ترى النعمة وفي الآية تكون النعمة هي كف أيدي الكافرين ، ذلك أن أيديهم كانت ممدودة بالسوء والشر ولو وقفنا عند بسط اليد ؛ لظننا أنه سبحانه قد جعل من أسباب خلقه معبراً للهم علينا أي أن نعم الله تعبر وتصل إلينا عن طريقهم وبأيديهم ، لكن هذا ليس مراد من النص الكريم ؛ لأننا حين نتابع قراءة الآية ، نعرف أن كف أيديهم هو النعمة ، هؤلاء القوم أرادوا أن ييسطوا أيديهم بالإيذاء ويمولوك عن بذاعة اللسان : « بسط لسانه » ويقولون أيضاً : « بسط يده بالإيذاء » .

ونعرف أن الحق جاء بـ « إليكم » أو « عنكم » وكلاهما فيه ضمير يعود على المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فالمؤمنون ملحمون بمنهج النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا هم قوم أن ييسطوا أيديهم إلى رسول الله ، فهي ذلك إسائة للمؤمنين برسول الله ؛ لأن كل شيء يصيب رسول الله ، يصيب المؤمنين أيضاً . وكانت هناك واقعة حال في زمن مقطوع وسابق، فهل يعني الحق سبحانه وتعالى بحادثة بني

الضعيف ، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين النصير معاهدة ألا يعينوا عليه حصوم الإسلام وإذا حدث قتل من جهة المسلمين فعلى بني النصير المعاوله في الدية . وكان السبي قد أُرسل مسلماً في سرية فقتل اثنين من المعاهدين خطأ ، فهدلوا بديّة لنفتيلين . وم يكن عند السبي ، مأل فلذهب إلى بني النصير كي يساعدوه بديّة الفتيلين ، فقللوا له : « مرحبا » بطعمك وسقيك وبعد ذلك تعصيك ما تريد ، ثم سلطوا واحداً ليرمي لرسول بحجر فصعد الرجل ليلقي على الرسول صحرة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاعد إلى جانب جدار من بيوتهم فأخبر الحق رسوله فقام حارجاً ، ولم ينتظر شيئاً .

« إاد هم قوم أن يسقطوا ليكم أيديهم فكيف أيديهم عنكم » لقد أخبر الحق بيده بما يبيتون قبل أن يتمكنوا من الفعل . و « اهتم » هو حديث النفس ، فإذا ما خرج إن أول خط الزرع عدلك هو المصد ، و « اهتم » هو الشيء الذي ينبغي على فكر الإنسان في نفسه ويكون مصحوباً بنم

وفي اللغة الدارجة نسمع من يقول : « أنا في هم وغم » ، لأن « اهتم » هو الأمر الذي لا يبارح النفس حديثاً ويسبب الهم . فالهم هو العدو الذي لا يقدر أن يقهره أحد ، لأنه يتسرب إلى القلب ، أما أي عدو آخر فالإنسان قد يدفعه ، ونعرف عن سيدنا لإمام علي - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - أنه كان مشهوراً بأنه الملقى ، فهو يستحق في الشيء ويحبب عليه ، لدرجة أن سيدنا عمر نفسه يقول : « قصية ولا أبا حسن له » أي أنها تكون قضية معصية إذ لم يوجد أبو حسن لها فحببها ، وكان سيدنا عمر يستعيد من أن يوجد في مكان لا يوجد به سيدنا علي . وعندما عرف الناس عنه ذلك تساءلوا : من أين يأتي هذا الكلام ؟ فجاءوا بلعر وانتظروا كيف يخرج منه . فقالوا : إن الكون متسع وفيه أشياء أقوى من كل الأشياء ، وقوى تتسلط على قوى ، وحاولوا الاتصاف على شيء أقوى من كل الأشياء ، فقال واحد لحل هو أقوى الأشياء . وقال الآخر : لكننا نقطع منه الأحجار بالحديد . وببها هم يسلسلون هذه السلسلة جاء سيدنا علي فقالوا له : يا با احسن ما أشد جنود الله ؟ .

فأجاب سيدنا علي - كرم الله وجهه - كأنه يقرأ من كتاب بدليل أنه عرف جنود الله وعرف الأقوى وحصر عددهم ، وقال سيدنا علي : أشد جنود الله عشرة .

وكان اشعل بهذه المسألة من قبل ، ودرسها .

قال : جبال الروامي والحديد يقطع خيال ، واسار تذيب الحديد ، والماء يغمي اسر ، والسحاب المسحر بين السماء والأرض يحمل ماء ، والريح يقطع لسحاب ، وابن آدم يعلب الريح يستر دائره أو الشيء ويضي حاجته ، والسكر يعلب ابن آدم ، واليوم يعلب السكر ، وهم يعلب سوم ، فأنشد حمود الله اللهم ولا يمكن أن تمر على كلمة اهم في القرآن إلا أن تستعرض مواقفها في كتاب الله وأهم موقع من مواقعها تعرض له من أسئلة الكثيرين في رسائلهم وفي لقاء تلامعهم هو مسألة يوسف عليه السلام حين قال الحق سبحانه وتعالى بخصوص المراودة امرأة العزيز له :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْمَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ولحقن هذه المسألة ، فليس يستعدون عن سيدنا يوسف عليه السلام هذا الأمر ، يستعدون عن صاحب العصمة أن يفكر في نفسه ، وإن كان التفكير في النفس لم يبلغ العمل التروعي فهو محتمل . بل قد يكون التفكير في الشيء ثم عدول النفس عنه أقوى من عدم التفكير فيه ، لأن شغل النفس بهذا الأمر ثم الكف يعني مقاومة النفس مقاومة شديدة . ولكمهم يحبون ويعظمون - أيضا - سيدنا يوسف عن أن يكون قد مر بحاطره هذا الأمر فضلا على أن يوسف - عليه السلام - لم يكن قد أوصل إليه أي أنه لم يكن رسولاً آنذاك .

الآية تقول .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْمَ وَهَمَّ بِهَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

أي أن امرأة العزيز هي التي بدأت المراودة ليوسف عليه السلام فمن تم تروع إلى العمل ؟ لا ، لأن التروع إلى العمل يقتضي أن يشارك فيه سيدنا يوسف إذن هم به أي صارت نجب أن تصعب العمية التروعية وحاء الخاتع من سيدنا يوسف . وبالنسبة للمراودة وهو سيدنا يوسف ، قال الحق

﴿وَقَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ونضرب لذلك مثلاً حتى نفهم هذا ؛ إذا قال لك قائل . أزورك لولا وجود فلان عندك ، هذا يعنى أن القائل لم يزرك ، وبالقياض نجد أن يوسف عليه السلام رأى البرهان فلم يهم . فمن أراد أن يتز يوسف حتى عن حديث نفسه بقول : الأمر بالسبب لها أنها همت به ، وحتى يتحقق الفعل كان لا بد من قبول هذا الأمر ، وحصار الامتناع لك ليس من جهته بل جاء الامتناع من جهته . وهو قد همَّ بها لولا أن رأى برهان ربه .

لذا جاء الحق . بأنه همَّ بها لولا أن رأى برهان ربه ؟ جاء الحق بذلك الحكاية ليدلنا على الحكمة في امتناع يوسف عن موافقته على المرافعة ، فلم يكن ذلك من وجود نقص طبيعى جسمى فيه ، ولولا برهان ربه لكان من الممكن أن يحدث بينها كل شيء . وأراد الحق أن يخبرنا أن رجولته كاملة وفعلته غير ناقصة واستعداده الحسى موجود تماماً ، والذي منعه من الإتيان لها هو برهان ربه ، إنه امتناع دينى . لا امتناع طبيعى . وبذلك يكون إشكال الفهم لمسألة الهم عند امرأة العزيز ويوسف قد وضع نغماً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددنا . «إد هم قوم أن يسلطوا إليكم أيديهم» وكلية «قوم» إذا سمعتها ففيها معنى القيام ، والقيام هو انشيط حالات الإنسان وكما أوضحنا من قبل نحدد الإنسان إما أن يكون قائماً وإما أن يكون قاعداً وإما مصططحاً وإما مستلقياً وإما نائماً . ونحدد أن الراحة من مقدار هذه المسألة ، فالنائم هو الذى يتعب أكثر من الآخرين ، لأن ثقل جسمه كله على قدميه الصغيرتين ، وعندما يقعد فإن الثقل يتوزع على المقعدة . وإذا اصططجع فرفعة الاحتيال تتسع . ولذلك يطبقونها على الرجال فقط ؛ لأن من طبيعة الرجل أن يكون قواماً ، ومن طبيعة امرأة أن تكون هادئة وديعة ساكنة مكنونة . فالقوم هم الرجال ، ومقابل القوم هما «النساء» . إذن فالنساء ليس من طبيعتهم القيام .

والشاعر يقول :

وما أدرى ولست إخيال أدري

أنوم آل حصن أم نساء

وحين يقول الحق : « إدهم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم » فمعنى ذلك أنه لم يكره هناك نساء قد فكرن في أن يؤدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونجد هنا أيضاً أن السط مجال تساؤل ، هل السط يعنى الأذى أو الكرم ؟ .
والحق يقول .

﴿ وَلَوْ سَـطَّ اللَّهُ الرِّقَّ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

هذا (في مجال العطاء) أما في مجال الأذى فالحق يقول على لسان ابن آدم لأخيه :

﴿ لَيْسَ سَطَّتْ إِلَيَّ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة المائدة)

والأيدي لا تطلق إلا إذا أرموا حركة زرعية تترجم معنى في النفس سبق أن مرّ على العقل من قبل ، فمد الأيدي يقتضي التبيت بالمكر ، وهكذا يعرف أن القوم قد سبطوا أيديهم إلى رسول الله والمؤمنين

وعندما ننظر في التاريخ المحدث مع أحداثه ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ

وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكُورِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

أي أنهم قعدوا للتبيت . ونحن لا نعرف ذلك السبب إلا إذا اعتدت الأيدي للحمل ، فقد مكروا وبيتوا للنشر وأرادوا أن يشبوا رسول الله أي أرادوا تحديده إقامته بحبسه أو تقيده أو إضعافه بالجراح حتى يوهنوه ويعجزوه فلا يستطيع الهوى والقيام أو يقتلوه أو يخرجوه من بلده . بإثباته ومنعه فلا يرح ، أو يخرجوه من المكان كله أو يقتلوه ، فإذا كان المرقف ؟

لقد هو أن يسطوا إليه أيديهم . وسط اليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يؤذى المزمير كلهم ، لأنه لا يستقيم أمر المؤمنين إلا برسول الله ، فلو بسط الكفار أيديهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لكان معنى ذلك بسط أيديهم على الكل .
ويبقى التاريخ المحدث بأمور يبسط فيها الكافرون أيديهم بالأذى إلى رسول الله وإلى المؤمنين ويكف الله أيديهم ويحرمهم أي يجاريهم على ذلك بالعقاب .

والمكر - كما نعلم - هو الشجر الملتف بعضه على بعضه الآخر حيث لا يعرف أي ورقة تسمر من أي جذع أو فرع . والمكر في المعاني هو التبييت في خفاء . وهو دليل ضعف لا دليل قوة . فالأقوياء يواجهون ولا يبيتون ؛ ولذلك يقال : إن الذي يكيد لميره إنما هو الضعيف ؛ لأن الإنسان الواضح الصريح القادر على المواجهة هو الأقوى . ونجد النعص يحمل ضعف النساء دافعا له على قوة المكر استنادا لقول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

والى قول الحق

﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ مَظْلُومٍ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

فلا يكيد إلا الضعيف ومن لا يقدر على المواجهة فهو بيت ، ولو كان قادراً على المواجهة لما احتاج إلى ذلك . وقد يكر البشر ويبيتون بخفاء عن غيرهم ، لكنهم لا يقدررون على التبييت بحفاء عن الله ، لأنه عليهم بحفايا انصدور . وأمر الحق في استبييت أقوى من أمر الحق ؛ لذلك نجد قوله سبحانه

﴿ وَبِمَكْرٍ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

ولنمحص أن تبييت الله خير . وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعلم أعداء الإسلام أنه بعد هذا التبييت لن تنالوا من رسولي ، لن تنالوا منه بكل وسائلكم سواء أكانت تعذيب لقومه أم تبييتا له . وعلى الرغم من أنهم يبتغوا كثيرا ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من بيته في مكة إلى المدينة وهم نائمون :

﴿ فَأَعْيَبْنَاهُمْ لَهُمْ لَآ يَبْصُرُونَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يس)

ونجد العجب في كف أيدي الكافرين عن رسول الله فكل أجناس الوجود قد اشتركت في عملية كف أيدي الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكانت تلك لأجناس جمادا أم نباتا أم حيوانا أم إنسانا ، فترسل الله التراب وهو جماد فأغشى به الكافرين ، وصار التراب من جنود الله .

وما هي دي أسياء بت أب بكر تحمل الطعام لهم في الغار وهي ترعى انعم ، والأغنام تجد الحشائش فترعها ونزبل الأثر الذي أحدثه ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اشترك النبات في كف أيدي الكافرين عن رسول الله ، وكذلك الأغنام وهي من الحيوان ، وكذلك فرس سراقه التي ساعدت وعاصت قوائمها في الأرض ، ثم الحماة التي بنت عشها على العار ، وكذلك المنكبوت الذي بي بيته على الخار ، ورضخت كل جنود الله لأمر الله فشاركت في عملية كف أيدي الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

والأعجب من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد كف أيدي الكافرين بالكافرين ، فالرسول الذي جاء ليهدى الحق ويسير بهم إلى النور من الظلمات ، سجد الذي عليه في طريقه إلى المدينة هو أحد الكفار . وهكذا نرى أن هداية المعاني تستخدم هداية المادة ، والرسول هو الحامل هداية المعاني يستخدم هداية المادة ممثلة في ذلك الكافر . ونعرف أن من جنود الإسلام في دار الهجرة كان اليهود - برغم أنوعهم - ألم يقولوا للأوس والخزرج : سيأمن من بينكم نبي نتبعه ونقتدكم معه فقل عاد وازم ؟ فلما سمع الأوس والخزرج أن نبيا ظهر في مكة ، قالو : هذا هو النبي الذي توعدتنا به

اليهود ، فلا يسئلكم إليه ، فقبضوا إليه وأسلموا وياعوه ، فقد ورد أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل مبثته ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجعلوهما كاترا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون عليها بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك ونخبرونما بأنه مبعوث ونصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جئنا بشيء نعرفه وما هر بالذي كنا نذكر لكم^(١) .

ثم كانت المدينة داراً لهجرة .

هكذا نرى أن الباطل يختم الحق ، والكفر يختم الإيمان ، فلما هوذا عبيد الله بن أريقط - وكان كافراً - يضع نفسه كندليل للرسول وصاحبه أثناء الهجرة ولا ينظر إلى الجمل الذي رصده قريش لمن يأتيها بمحمد . هكذا نجد أن كف الأيدي كانت له صور كثيرة

وقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشياء ومواقف رآها الصحابة ، وشأت به خوارق من الحق سبحانه وتعالى تؤيد صدقه ، وشاهد تلك الخوارق بعض الصحابة ولا نقول عنها معجرات ؛ لأن معجزة الإسلام إلى قيام الساعة هي القرآن . ولكن رسول الله لم تقل حياته من بعض المعجزات الكونية مثل التي حدثت لمريم من الرسل . وأرادها الحق لا للمسلمين عموماً ولكن شاهدها بعضهم كما شاهدها بعض الكفار ؛ لأن رسول الله كان في حاجة إلى أن يؤكد له الله أنه رسول الله . فلما هوذا سيدنا جابر بن عبد الله يقول :

« كان بالمدينة يهودي وكان يسكن في ثمري إلى الجنداد ، وكان لجابر الأرض التي بطريق رومة فجعلت^(٢) فخلاً^(٣) أما فجاعت اليهودي عند الجنداد^(٤) ولم أجد منها شيئاً ، فجعلت استنظره^(٥) إلى قابل فبأي فلعب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير ابن كثير عن محمد بن إسحاق مروياً عن ابن عباس .

(٢) فجعلت : أي فطهرت الأرض من الزبال ، وفي رواية ففعلت أي خلقت ما كان موجوداً منها من العمر

(٣) فخلاً : أي فطر السلف علماً .

(٤) الجنداد : (بكسر الجيم وفتحها وباللهم المصحة ويحذف إماماً) ومن قطع ثمر النخل

(٥) استنظره : أطلب منه أن يهتدي

فقال لأصحابه : امشوا تنتظروا جابر من اليهودي ، فجاءوني في سخل فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يكلم اليهودي فيقول : أبا القاسم لا أنظره ، فلما رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - قام فطاف في السخل ثم جاءه فكلمه فلما ؛ ففقت فجئت بفيل رطب فوضعت بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم - فأكل ثم قال : أين هريشك يا جابر ، فأخبرته فقال : أقرش لي فيه هريشتي ، فدخل فرقد ثم استيقظ فجئت بقبضة أخرى فأكل منها ثم قام فكلم اليهودي فلما عليه ، فقام في الرطاب في السخل الثانية ثم قال يا جابر ، جدد واقتض : فوافيت في الجدد فجعلت منها ما قضيت وفضل منه فخرجت حتى جئت النبي - صلى الله عليه وسلم - فبشرته فقال : أشهد أن رسول الله ^(١) .

مثال آخر : كان الماء قليلاً عند قوم من الصحابة فيمنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الماء ويشرب كل الناس وهل يمرؤ أحد من الذين رأوا تلك المعجزة أن يجادل فيها ؟ طبعاً لا ، لكن هل هذه المعجزة لنا ؟ إن وثقنا قيمنا أخبر قلن نستكثر على الله أن يكثر الماء لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ولكن نحن نعلم أن الله قد تكفل بحفظ القرآن ليكون هو المعجزة الباقية فقال تعالى : « إنا نعمن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقد ثبت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جمع قليلاً من الزاد ودعا ما شاء الله أن يدعو وأطعم به جيشاً . والذي عاش بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - له أن يصدق تلك المعجزات أو لا يصدقها ، ولكن على المؤمن الذي عدم مقام ومكانة الرسول عند ربه ، أن يصدق تلك الحوارق متى ثبت ذلك بطريق يقيني قطعي ، ولذلك لا ضرورة لإقامة الجدل مع هؤلاء الذين يذكرون المعجزات الكونية . ونقول لهم : ليس أحدكم مسئولاً بهذه المعجزات ، أنت مسئول بمعجزة القرآن فقط . والحوارق التي وقعت إما أن تكون بغرض تثبيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مصداقاً لقوله الحق .

﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة التوبة)

وأما أن تكون لثيت أصحاب رسول الله ، فقد كانت الأحوال تمر عليهم وتزلزلهم :

﴿مَتْلِكِ آبَائِ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (٣١)

(سورة الأحزاب)

وكان لا بد أن ترسل السماء لهم آيات لثيت أقدامهم في الإيمان

والخلاصة أن كل الخوارق الكونية التي حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس المقصود بها عامة المسلمين ، ولكن المقصود بها من وقعت له أو وقعت أمامه ، ونعوض بذلك أي نزاع حول تلك الخوارق ؛ لأن المعجزة الملزمة للجميع هي كتاب الله سبحانه وتعالى .

وقد همم بالأنكى كثير من أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم ترد امرأة من اليهود أن تسمه وكف الله يديها ؟ وحكاية بني النضير الذين أرادوا أن يلقوا عليه الحجر ، فقدم قبل أن يلقى مندوب بني النضير الحجر عليه صلى الله عليه وسلم .

وما هوذا صفوان بن أمية له ثار عند رسول الله من غزوة بدر يستأجر حمير ابن وهب الجهمي ويقول له : اذهب إلى المدينة واقتل عمداً وعلّ دينك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيال أواسيهم ما بقوا .

ويذهب حمير إلى المدينة ويدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما جاء بك يا حمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأخسوا إليه . وكان له ابن أسير لدى المسلمين . قال : فما بال سيفي في عنقك ؟ فقال : فبحها الله من سيوف أهل أضئت عنا شيت ؟ قال : أصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم . بل نعمت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين عليّ وعيال عدي لخرجت حتى أقتل عمداً فتحمل صفوان دينك وعيالك على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين قتلي فقال حمير . أشهد أنك رسول الله قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي .

وهذا أمر لم يحصره إلا أنا وصغوان ، موافقه إن لأعلم ما آتاك به إلا الله ، والحمد لله الذي هدانا للإسلام (١) .

ومثال آخر - ما رواه سيدنا جابر - رضي الله عنه - في غزوة ذات الرقاع : قال جاء رجل يقال له عورث بن الحارث فقدم على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده فاحد رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : (ومن يمنعك مني) ؟ فقال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : لا ، ولكن أصادك على ألا أقاتلك ولا أكرن مع قوم يقاتلونك . فغل سبيله فأتى أصحابه وقال : جئتكم من عند خير الناس (٢) .

وعندما سمع الرجل لأول مرة أن الله هو الذي يمنع الرسول منه وقع السيف من يده ، ذلك أن ذرات الكفر في الرجل تزلزلت وعاد إلى إيمان المعطرة ، وعندما أمسك النبي بالسيف وسأل الرجل : من يمنعك مني ؟ لم يقل الرجل : هبل ، أو : اللات ، أو : العري ، فالرجل يعلم أن مسألة الأصنام كذب في كذب ، ولو كان مؤسماً بألمته لقال أحد أسماؤها . وعندما تزلزلت ذرات الكفر في كبانه عاد إلى المعطرة الأولى التي لا تكذب أبداً . وإن كذب الإنسان على الناس جميعاً لا يكذب على نفسه . وكلمة والله ، هي التي زلزلت كفر الرجل وأعادته إلى الحق .

وفي معركة بدر نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسدماً يسيراً ابنه عبدالرحمن كان مع الكفار ، وبعد أن أسلم ابنه بفترة جلس الولد مع أبيه يتسمران ، فقال الابن : لقد رأيتك يوم أحد فصدت (٣) . عنث فقال أبو بكر : لكنني لو رأيتك ما صدت عنك (٤) . فقد رأى ابن أبي بكر والده ولم يقتله ، ولا شئت أن مقاربة نفسية باطنية فكرية قد حدثت بين معزة أبيه وبين مكانة هبل أو بلث الحجارة ، وعرف ابن أبي بكر أن والده أفضل بكثير من تلك الأحجار . ولكن

(١) السجدة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير

(٢) البيهقي عن جابر بن عبد الله (١٤٠٤)

(٣) صدقت منك أمرت منك

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة عن أبيوب وأنسج الحاقم عن أبيوب بن

أما بكر حينها يقول . ولو كنت رأيتك لقتلتك ، فالمقارنة النفسية هنا تكون بين الإيمان بالله وبين الابه ، ومن المؤكد أن الإيمان يغلب في نفس أبي بكر . وكل من أبي بكر وابنه كان مطعياً مع نفسه .

ومثال آخر : « عن جابر بن عبد الله أنه حزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - قل نجد فلما قل رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقل معه فذكرتهم القائلة - شدة الحر في وسط النهار - في وجر كثير المضاء - شجر عظيم له شوك - فنزل رسول الله ، وتفرق الناس في المضاء يستظلون بالشجر ونزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت شجرة فعلق بها سيفه ، قال جابر : فتمنا نومة فلذا رسول الله يدعو فنجئنا فإذا عنده أعرابي جالس فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن هذا اختط سقي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال لي : من يمنعك مني ؟ فقلت له : الله - فها هو ذا جالس ثم لم يعاقبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - » (١) .

ولماذا حدث ذلك ؟ لأن العطرة المستلزمة بدون تدخل من أحد تنصح بالإيمان . وهما نحن أولاء نرى الصحابة في العهد الأول حينما اضطهدوا في مكة وهاجروا هجرتهم الأولى إلى الحبشة ، هل ذهبوا إليها خط عشواء ؟ أو ذهبوا بتخطيط سوي كريم ؟ لقد درس النبي أولاً الأرض التي تصلح لاستقبالهم ويقبلهم فيها أهلها كمهاجرين ودرس النبي لوضاع الجزيرة العربية ووجد أن قريش تتمكن من كل قبيلة في الجزيرة العربية عندما يأتي موسم الحج ، لذلك لن توجد القبيلة التي تحمي المهاجرين فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملك لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » (٢)

(١) رواه البخاري في التاريخ وحسنه ابن إسحاق بعد قوله (الله) فقل مع جابر بن عبد الله فوقع السيف من يده فاستلحه النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال : من يمنعك مني . قال - لا أحد - وحسنه الواقدي أنه أسلم ورجع إلى نومه فاعتدى به خلق كثير .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق

وبالقمل ذهب المسلمون إلى الحبشة مهاجرين . وحاولت قريش أن تسرد المسلمين من أرض النجاشي . وأرسلت قريش بعثة لاستردادهم ورفض النجاشي . وسمع النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلم أنه النبي الذي بشر به الإنجيل . ولاشك أن النجاشي قد أسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشي عندما مات . وكان إسلام النجاشي مكافأة له من الله ؛ لأنه حمى المؤمنين بالله وبرسوله عنه . وما أعظم المكافأة التي نالها النجاشي أن يموت على الإسلام وأن يصلى عليه سيدنا رسول الله صلاة الغائب .

إن كل هذا من كف أيدي الكافرين عن المؤمنين وعن رسول الله ، وس أجل أن يثبت الحق للجميع أن المؤمنين على حق وأن الله لن يخذلهم ، فلا يحطربال المؤمنين أن عدوهم أقوى منهم ؛ فافقه أقوى من خلقه . « فكف أيديهم حكم » وكف أيدي الكافرين عن المؤمنين لأنه - سبحانه - يعد المؤمنين ليكونوا حلة منهجه إلى الخلق ولذلك يجب أن يداوم المؤمنون على تكاليف الإيمان وتقوى الله ليكف الله أيدي الكافرين عنهم ، فلا يتغلب كافر على مؤمن في لحظة من اللحظات إلا إذا كان المؤمن قد انحل عن شيء في مبيع الله ؛ لأن الحق لا يقول قضية قرآنية ثم يترك القضايا الكونية التي تحدث في الحياة لنسخ هذه القضية القرآنية . لقد قال :

﴿ وَإِنْ جُنَدْنَاهُمْ الْقَلِيلُونَ ﴾

(سورة الصافات)

إذن فعندما ترى جنداً من المسلمين قد انهزموا فلتعلم أنهم قد انحلوا عن منهج الله فتخل الله عنهم ، بدليل أن بعضاً من المسلمين ساعة لم يتعلموا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم غلبهم الكفار ، فافقه لا يغير سته من أجل أناس نسبوا إليه ولم ينفذوا تعاليم منهجه والحق يقول :

﴿ إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُخْرِجْ أَعْدَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

إنك إن انتسيت إلى الإسلام فيجب أن تنسب إلى الإسلام بحق ، وإن رأيت
المؤمنين قد دخلوا معركة وانهمزوا فليحت مصدر تخليهم عن منح الحق ، فسحانه
يقول :

﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَسَلٍ مَعَهُ رِيُونَ كَثِيرٌ قَا وَهُوَ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا
مَضَعُوا وَمَا أُنْشَكُوا رَأَى اللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا
أَهْمِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا رَحِمْتَ الْغَافِلِينَ ﴿١١٧﴾
فَقَاتِلْهُمْ اللَّهُ تَوَّابٌ أَلَدُنَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۖ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد أصاب القتالين مع النبي شيء ، فلم يصعبوا ولكنهم صبروا وطلبوا من الحق
أن يغفر لهم ذنوبهم ، لقد عرفوا مصادر ضعفهم واستعانوا بالله على هذا الضعف ،
فيما فعل الله لهم ؟ . نصرهم سبحانه بأن آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة
والله يحب المحسنين . وكل ذلك السلوك الإيمان الذي يقى من الهزيمة وكيد العدو ،
هو من تقوى الله ، حتى يظل المؤمنون في معية الله . وعندما يكون المسلم في معية الله
لا يجرؤ خلق من خلق الله أن ينال منه . ونظر إلى الهجرة كمثال لذلك ، لجد أن
سيدنا أبا بكر كان حريصاً على حماية النبي صلى الله عليه وسلم . فمن أنس من
مالك قال : « لما كان ليلة الغار ، قال أبو بكر : يا رسول الله دعني فلدخل قبلك
فإن كانت حية أو شيء كانت لي قبلك . قال : ادخل ، فدخل أبو بكر فجعل
يلتصم يديه فكلما رأى جحراً جاء بشربه فشبه ثم ألقاه الجحر حتى فعل ذلك شربه
أجمع ، قال : فبقي جحر موضع عقه عليه ثم لدخل رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، قال : فلما أصبح قال النبي صلى الله عليه وسلم « فإين ثوبك
يا أبا بكر ؟ » فأخبره بالنسب صنع لرفع النبي صلى الله عليه وسلم يده فقال : « اللهم
اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة » فلوحي الله تعالى إليه « إن الله قد
استجاب لك » (١) .

ويرى أبو بكر الكفار وهم يهرون أمام الغار يقول لرسول الله . « لو أن أحدهم

نظروا تحت قدميه لأبصرنا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك يا أبا بكر
بأثنين الله ثالثهما » (١) .

وفي ذلك رد كامل ، لأن لاثنين في معية الله ، وما دام المؤمن في معية من لا تتركه
الأبصار فلن تتركه الأبصار ، كيف ؟ . نحن لا نعرف كل أسرار الله ولكنه القادر
الأعلى .

وفي حياة البشر نجد الطفل الصغير قد يخرج بمفرده فيصيبه خبره من الأخطال
بالصرخ ، ويكن إذا خرج لطفل مع عاتيه ، مع أبيه مثلاً أو مع أخيه الأكبر ،
فالأطفال لا يقتربون منه ، فما بالك ونحن جميعاً عيال الله ؟ وماذا يحدث عندما تنتشبت
بمعية الله ؟ . إذن فتقوى الله هي التي تجعل المؤمن في معية ربه طوال الوقت . ومن
يؤيد للمؤمن بسوء فإد جنود الله تحمي المؤمن . وبذلك الحق الآية : « وعلى الله
فليتوكل المؤمنون » . وإياكم أن تقولوا : إنا لا نعد أو هذه إنك مسئول أن تعد
ما تقدر عليه وتستطيعه وأترك الباقي لله :

﴿ وَاعْبُدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَنَاطِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ويقول التاريخ الإجماع لنا إنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . وقد
يقول قائل : هذه المسألة مادية تحتاج إلى عدد وعدد . ورد : إن الحق قد طالب بأن
نعد ما نستطيعه لا غرق ما نستطيعه . وهو سبحانه عبده من الجند اللطيف الخفي
الدقيق الذي لا يرى :

﴿ سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

وما دام الله قد ألقى الرعب في قلوب الأعداء فامسألة تنتهي ولا تغلج حُدد أو
حُدود . ويكون التوكل على الله بعد أن يعد الإنسان ما يستطيعه وهو الاستكمال المأمال
للصبر ، ولنعلم أن التوكل غير التواكل . إن التوكل على الله يقتضي أن يعلم
الإنسان أن لكل جارحة في الإنسان مهمة إيمانية ، أن تطبق ما شرع الله ، فلا أدن
تسمع ، فإن سمعت أمراً من الحق فأنت تنفذه ، وإن سمعت الدين يلحسون في

آيات الله فانت تعرض عنهم . واللسان يتكلم ، لذلك لا تنقل به إلا الكلمة الطيبة ، فلكل جارحة عمل ، وعمل جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولتذكر أن السعي للقدم ، والعمل لليد والتوكل للقلب ، فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ، لأن التوكل الحقيقي أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل لا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذي لا يتوكل على الله ينمو زرعه بشكل جيد ويمتيز ثم تهب عليه عاصفة أو يتغير الجو فيصيبه الهلاك وتكون النتيجة الإحباط . واحذر إهمال الأسباب ، أو أن تهتك الأسباب ، لأنك إن أهملت الأسباب فانت غير متوكل بل متواكل . تنقل عمل القلب إلى الجوارح . وإذا قال لك واحد : أنا لا أصنع بل أتوكل على الله ، قل له : هيا وكيف يكون التوكل . واحصر له طين طعام محبة وعندما يمد يده إلى الطعام ، قل له : اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك .

ويجعل الحق سبحانه وتعالى من قصص الرسل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تبييناً للإيمان وتربية للأسماء وأثناء لها ، حتى لا يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بما فعله اليهود أو المشركون ، فإن كان قد حدث معك - يا محمد - شيء من هذا الإنكار والإيلام ، فقد حدث لكثير من تلك الأحداث مع الرسل من قبلك ، فيقول سبحانه .

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣﴾

يُذَكِّرُ الحق هنا رسوله باليثاق الذي أخذه من بني إسرائيل . وقد يكون المقصود هو ميثاق الذر أو يكون المراد باليثاق ما جاء في قوله تعالى :

﴿وَلَمَّا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾

(سورة آل عمران)

أو أن يكون المراد باليثاق هو ما بينه بقوله سبحانه :

﴿خَلُّوا مَاءَ أَنْهَارِكُمْ يَقْوَرُ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه : «وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً» وشر «التكتيك» الذي الذي أراده الحق ، فهو لا يجمع أجناس الخلق المختلفة على واحد من نوع منها ، لأن ذلك قد يعرض الدعوة لعصبية ، واختار سبحانه اثني عشر نقيباً على حشد الأسباط حتى لا يقولن سبط . كيف لا يكون لي نقيب ؟ . وحسم الله الأمر ، ولم يجعله محلاً للتراع ، فجعل لكل سبط نقيباً منهم . والنقيب هو الذي يدير حركتهم العقديّة والدينيّة . ومسألة سمع كلمة «نقيب» معرف أنها من مادة «النون و القاف والباء» ، «النقب» هو إحداث فجوة لها عمق في أي جسم صلب .

إن اختيار الحق لكلمة نقيب ، يدل على أن النقيب الصادق ينبغي أن يكون صاحب عينين في منتهى البفظة حتى يختار لكل فرد المهمة التي تناسبه ويركز على كل فرد بما يجعله يؤدي عمله بما ينفع الحركة الكاملة . وبذلك يكون كل فرد في السبط له عمله ومكانه المناسب . ولا يتأتى ذلك إلا بالنقيب ، أي معرفة حالة كل واحد وميوله فيضعه في المكان المناسب .

إذن فالنقيب هو المنتخب الذي لا يكفي بظواهر الأمور بل يتجسس ليخبر ظروف وأسباب كل واحد . واختار الحق من كل سبط نقيباً ، ولم يجعل لسبط نقيباً من سبط

أحر حق يمع السيطرة من سيط على سيط ، ويمنع أن يكون النقيب على جهالة بمن يريد حركتهم من الأسباط الآخرين

و نحن سسمع في حياتنا اليومية وصفاً لإنسان : فلان له مناقب كثيرة ، أى أن له فضائل يذكرها الناس ، كأن على صاحب الفضائل ألا يتباهى بها بنفسه بل عليه أن يترك الناس لينقوا عن فضائله ، ولذلك كانت كنوز الأرض وكنوز الحيوانات مدفونة تحت عليها ، أما ما يظهر على سطح الأرض فتذروه الرياح وعوامل التعرية ولا يبقى منه شيء .

إذن فكلمة « نقيب » في كل مادتها تدور حول الدخول إلى العمق ، لذلك تصف الرجل الفاضل : فلان له مناقب أى إن نقيب وجدت له فضائل تذكر ، وقد أعطاه الله موهبة الخير ولا يتعالم بها ، بل يدع أساسهم الذين يحكمون ويذكرون هذه الصفات ومن نفس المادة « النقيب » أى أن تعطى المرأة وجهها .

وقوله الحق : « إني معكم » يعطيهم حصلة إيمانية ، فلا يظن أحد أنه يواجه أعداء مع الله بذاته الخاصة بن جموعة الله فلا يصعب أحد أو بين مادام مؤمناً ، وكما قال الحق :

﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وبعد أن يعد المؤمنون ما استطعوا فليتركوا الباقي على الله . وجاء أيضاً قوله : « وقال الله إني معكم » أى أن كل نقيب على سيط ليس له مطلق التصرف ، ولكن الله يوضح : « أنا معكم وسأظهر كيف يدير كل نقيب هذه المسائل » أى أنه سبحانه وتعالى مطلع على واقعكم ، فليس معنى الولاية أن يكون للوالي مطلق التصرف في جماعته ، لا ، لأن الله نقيب . وقوله الحق : « إني معكم » تلك على أن من وى أمراً فلا بد أن يتابعه ويؤيده .

وبعد ذلك قال . « ولئن أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزومتهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكثرن حكمكم سيئاتكم » . وه لئن « تضم شرطاً ونفساً ، كان الحق يقول : وعزوني لئن أقمتم الصلاة وعلمتم كذا وكذا ليكون الجزاء أن أكثر

حكم السبaths . ودلت « اللام » على القسم ، ودلت « إن » على الشرط فهي « إن » الشرطية .

والقسم - كما نعلم - يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج إلى جواب أيضاً ، فالواحد مما يقول للعدل : « إن تذاكر تصحح » . والواحد منا يقول « والله لأفعلن كذا » ، و« الله » هي القسم . و« لأفعلن » جواب انقسم المؤكد باللام . وحين يأتي القسم في جملة بفردة فجوابه يأتي ، وحين يأتي الشرط بفردة في جملة فجوابه يأتي أيضاً . ولكن ماذا عندما يأتي القسم مع لشرط ؟ هل يأتي جوابان : جواب للشرط وجواب للقسم ؟ . عندما نجد هذه الحالة فانظر إلى المقدم منها ، هل هو القسم أو الشرط ؟ ، لأن المقدم منها هو الأهم ، فيأتي جوابه ، ويقضى عن جواب الثاني والمتقدم هنا هو القسم ، تماماً مثل قولنا :

- لئن قام زيد لأقومس ، وهذا يكون الجواب جواب القسم ، أما إن قننا : إن قام زيد والله أكرمه ، فالجواب جواب الشرط ، مقدم الشرط على القسم . هذا إن لم يكن قد تقدم ما يحتاج إلى غير كالمستند أو ما في حكمه ، فإن جاء والخبر أي المحتاج إلى الخبر فالشرط هو المرجح ، أي المرجح أن يأتي بجواب لشرط ومحدد جواب القسم ؛ لأن الشرط تأسيس والقسم تأكيد . وابن مالك في الألفية يوضح هذه القاعدة :

واحد لم ي اجتمع شرط وقسم

جواب ما أعترت فهو ملتزم

وإن توالى وقبل هو خبر

فالشرط رجح مطلق بلا حذر

والقسم قد تقدم في هذه الآية ، لذا نجد الجواب هنا جواب القسم ، وهو : « لا كفرن عنكم سيئاتكم » .

وقوله الحق . « أقمت الصلاة » يوضح أن الإقامة تحتاج إلى أمرين : فروض تؤدى ، وكل فرض فيها يأخذ حقه في القيام به . وبعد ذلك « وآتيت الزكاة » وفي كتب الفقه نضع الصلاة ، والزكاة في باب العبادات . وجاء التقسيم العقلي لتسهيل إيضاح الواجبات ، لكن كل مأمور به من الله عبادة ؛ لأن العبادة هي أن تطيع من

تعبد في كل ما أمر به ، وأن نجتنب ما نهى عنه ، فكل أمر إلهي هو عبادة .

وقلنا من ليل : إن الحق سبحانه قال :

﴿ إِذَا بُدِئَ الصَّلَاةُ مِنْ يَوْمِ الْحُمَةِ فَاسْمِعُوا لَكَ ذِكْرَ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

هنا نجد أمراً تعبدياً أن نترك البيع إلى الصلاة ، وأمر تعبدياً ثانياً أن نتشر في الأرض ابتغاء لفصل الله بعد انقضاء الصلاة ، وأي إحتلال بالأمير ، إحتلال بأمر تعبدى : فأت مأمور أن تتحرك في الأرض على قدر قوتك حركة تكفيك وتفيض عن حاجتكم ليهم هذا الصانع على غيرك

وقوله الحق . «وأماكم برسلي وعزيموهم » أى أن ينفع الإيمان في الغلب فلا يظلم الأمر بعد ذلك لماقشته ، وأن تعزروا الرسل ، أى وقروهم ونصروهم ، والعز في اللغة معناه المنع ، ولكن المنع هنا مراد به أن يمنع الناس عن رسول الله من يريد به سوء ؛ فإن أراد أحد من لأعداء السوء برسول من الله حينئذ المؤمنين هذا العدو عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأنت في حياتك إن كان لك حبيب أراد أن يظلمك ، وكنت لا تتحركه لأنه بعيد عنك فانت تمنى أن تأخذ صاحبك وتحمله من أن يظلمك لعدو . لكن إن كان العدو أمامك فانت تصد عن حبيبك فالعز هو المنع ، أى أن تمنعه من عدوه وتحول بينه وبينه ، أو تمنع عدوه من أن يظلمك بشر . والرسول بالنسبة للمؤمنين به تكون حياته أعلى من حياتهم ، هي أثناء المنع قد يصاب أحد المؤمنين ، وفي ذلك تعظيم للرسول ونصرة له ونوثير .

نقول ذلك حتى نرد على الذين يتصيدون ويقولون : علماء المسلمين لا يتمقون عن شيء ، فمرة يقولون : إن « عزيموهم » معناها « نصروهم » ، ومرة أخرى

يقولون : إن « عززتموهم » معناها « منعموهم » . ونقول : كل المعاني هنا ملقبة ، فالعز هو الرد والمنع ، إما بمنع العدو عن الرسول ، وإما أن يمنع الناس الرسول من أن يباله العدو ، أو الاثنان معاً ، ويجوز أيضاً أن يكون معنى « عززتموهم » هو نصرتموهم . وكذلك يجوز أن يكون معناها « وقرتموهم » ، لأن التعظيم والتوقير هما السبب في نصرة الإنسان للرسول .

وبعد ذلك يقول الحق : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً » . ويدبر الحق له سياسة المال ، سواء للواجد أو لغير القادر ، فالواجد يوضح له الحق لا تجعل حركة حياتك على قدر حاجتك ، بل اجعل حركة حياتك على قدر طائنتك ، وتخذ منها ما يكفيك ويكفي من نعول ، والباقي رزقه حل من لم يقدر . ولو جعل كل إنسان حركة حياته على قدر حاجته ، فلن يجهد من لا يقدر على الحركة ما يعيش به . ولنذكر جيداً أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلَتِهِمْ يَعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾

(سورة المؤمنين)

وحسب قال سبحانه : والذين هم للزكاة فاعلون ، ليس معناها مجرد أداء زكاة ، بل نعى أن ينحركوا في الحياة بفرض أن يتحقق لهم فائض يخرجون منه الزكاة ، وإلا فما الفارق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر يعمل ليقوت نفسه ويقوت من يعول وليس في بآله الله ، أما مريد المؤمن فهو يعمل ليقوت نفسه ، ويقوت من يعول ويبقى لديه فائض يعطيه للضعيف ، فكان إعطاء الضعيف كان في بآله ساعة النمل . وهذا هو المقصود بقوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾

(سورة المؤمنين)

أي أن كل فعل للمؤمن يُقصد منه أن يكفيه ويكفي أن يزكى من . وهناك حق آخر في المال مير الزكاة ، بأن يسد به إلى الأمر ما يحتاج إليه المجتمع الإيمان بشرط أن يقيم إلى الأمر كل شرع الله .

والزكاة هي إخراج المال على نحو مخصص ، أما الصدقة فهي غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة . وهناك القرض ، وهو المال الذي تتعلق به النفس ، لأن الإنسان يقلعه لغيره شريطة أن يرده ، ولذلك قيل إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقرض لا يفترض إلا عن حاجة ، أما الذي تصدق عليه فقد يكون غير محتاج ، ويسأل دون حاجة ، وأيضاً لأن نفس المتصدق تخرج من الشيء المتصدق به ولا تتعلق به ، أما الذي يقدم القرض منه متعلقة بالقرض وكلما صبر عليه مال حسنة ، وكلما قدم نظرة إلى ميسرة لهذا له أجر كبير ، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

فالحق يريد أن تفيض حركة الحياة بالكثير . وكيف يقول سبحانه : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً ، وهو الراجح لكل النعم » وكيف يهب الحق للإنسان النعم ، ثم يقول له : أقرضني ؟

هو سبحانه وتعالى يحترم حركة الإنسان وعرقه مادام قد ضرب في الأرض وسعى فيها ، فمال الإنسان ، ولكن أحبا الإنسان قد يحتاج إليه ، ولذلك فليقرضه ويعتبر سبحانه هذا قرضاً من الإنسان لله . ونحن نجد عائل الأسرة يقول لأحد أبائه . بما أنك تدخر من مصروف يدك فأعط أحاك ما يحتاج إليه واعتبر ذلك قرضاً عندي ، صحيح أن العائل هو الذي أعطى المال لكن من يعول ، فما بالنا بالذي أوجنت جميعاً ، وهو الحق سبحانه وتعالى ؟ لقد وهب كل ما ثمره عمله واعتبر تلك الثمرة ملكاً لصاحبها . ويعتبر فوق ذلك إقراض المحتاج إقراضاً له .

ويصف الحق القرض بأنه حسن حتى لا يكون فيه من ، أو منفعة تعود حل للقرض وإلا صار في القرض ربا . ولنا الأسوة الحسنة في أبي حنيفة حينما كان يجلس في ظل بيت صاحب به . واقترض صاحب هذا البيت من أبي حنيفة بعض المال . وجاء اليوم التالي للقرض وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو حنيفة : خفت أن يكون ذلك لونا من الربا . فقال صاحب البيت : لكك كنت تقعد قبل أن تقرضني . فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وانت المتفضل هل بظل بيتك فأحاف أن أقعد وأنا المتفضل عليك بامال .

والقرض الحسن هو الذي لا يشوبه من أو أدنى أو منفعة ، ولأن القرض دين ، وضع الحق القواعد

﴿ إِذَا تَدَايَعْتُمْ دِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالخو يحمي المقرض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدين مكتوب ، يحاول جاهداً أن يتحرك في الحياة ليسد هذا الدين ، ويستعيد المجتمع من حركته أيضاً

وعندما يكتب المقرض بهذا أمر دافع للسداد وَحَثَّ عَلَيْهِ لكن إن لم يكتب المقرض فقد يأتى طرف من الظروف ويتناسى المقرض . ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة في أى أزمة ، فيريد الخو أن يديم الأسباب التي تتداول فيها الحركة ، ولذلك يقال في الأمثلة العامة : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله . ويكون مال لدنيا كلها معه ، ولذلك يقول الخو

﴿ وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكُنْ بَرًّا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

وفي ذلك حكمة للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال :

﴿ فَإِنَّ أَمِنْ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ فَلَئِنَّ الَّذِي أَوْثَقْنَا أَنْتَ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

وهكذا يحمي الله الحركة لاقتصادية ونجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ارحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دين ، فقال لنصحابة صلوا على أحبكم لكنه لم يصل على الميت . وتساءل الناس لماذا لم يصل رسول الله على هذا الميت وما ذنبه ؟ كأن رسول الله أراد أن يعلم المؤمنين عن دين المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنه لم يصل عليه حملاً للناس ودفعاً لهم إلى أن يبرئوا دمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دين . وقال .

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها ، أتلفه الله » (١)

فإدام قد مات وهو مدين وليس عنه ما يسد الدين ؛ فربما كان لا يبرى رد الدين ، وأن نفسه قد حدثته بالأمر الذي

(١) رآه البخاري ومحمد من حديث أبي هريرة

وفي فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أن يتجاهله أو يساه ، ثم لا يمر بذهن لدى أقراص أن فلاناً مدين ، بل وقد تبغ الحساسية بالذي قدم القرض ألا يمر على المقترض حتى لا يخرج . وتيق أن الله قد قدف هذا الخاطر في نفس المقترض لأن المقترض يريد أن يسدد القرض . أما إن تحرك قلب الدائن على لمدين ، وجلس يفكر في قيمة الدين ، فليعلم أن عبد الذي اقترض بعض ما يسدد به الدين ، أي أن المدين عنده لقدرة على لوفاء بالدين أو يبعضه ، ذلك أن الله لا يخرج من يهد ويجهد في السعي لسداد دينه .

« وأقرضتم الله قرضاً حسناً » . وقد يقول قائل . كان السياق اللفظي يقتضي أن يفوز : « أقرضتم الله إقراضاً » ؛ لكن استحق جاء بالقرض الحسن ؛ لأن الإقراض هو العملية الحادثة بين الطالب للقرض والذي يقترض وسببانه يضع القرض الحسن في يده ، ولما أن نتصور ما في يد الله من قدرة على العطاء . ومثل ذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾

(سورة نوح)

وه أنبتكم « نمر من عملية الإنبات ، والأرض تخرج نباتاً لا إنباتاً فمرة يأتي الله بالعمل ، ويأتي من بعد ذلك بالمصدر من الفعل ؛ لأنه يريد به الاسم « وأنت » يدل على معنى ونشأ الله لكم منها نباتاً .

وهكذا قال الله من القرض « وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم » وفي ذلك جواب للفهم ، ومن بعد ذلك يقول سبحانه : « ولأدخلنكم جنت تجري من تحتها الأنهار » وقد تكلمنا من قبل كثيراً عن الجنة . ويذلل الحق الآية الكريمة بقوله : « فمن كفر بعد ذلك مكم فقد ضل سواء السبيل » ألم يكن الذي كفر من قبل ذلك قد ضل سواء السبيل ؟ بلى ، إنه قد ضل فعلاً ، ولكن الذي ضل بعد أن جاء ذكر تلك النعم ولثواب فيها فالضلال أكثر . وكلمة « سواء » نقرأها في القرآن ونراها في الاستعمالات اللغوية ؛ كمثال قوله الحق :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾

(من الآية ١١٣ سورة آل عمران)



وسواء معاه وسط ، ومتساوون . والمعاني ملتقية ؛ لأنه عندما يكون هناك وسط فمعنى ذلك أن هناك طرفين . ومادام الشيء في الوسط فالطرفان متساويان ، وعندما نقول بوسط ، فهذا يقتضي أن نجعل المسافة بينه وبين كل طرف متساوية . ولذلك يجب أن ننشئ إلى أن كثيراً من الألفاظ تستعمل في شيء وفي شيء آخر ، وهذا ما يسمى بلشترك اللفظي . أي اللفظ واحد والمعنى متعدد ، مثال ذلك قوله خلق :

﴿ قَوْلُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

والشطر هو الجهة . والشطر هو النصف . النصف هو الجهة بمعنى أن توجه إنسان ما إلى الكعبة يقتضي أن يكون الإنسان واقفاً في نقطة هي مركز بالنسبة لدائرة الأفق . وهذه النقطة بالنسبة لمحيط الأفق تقصع كل قطر من أقطارها في المنتصف تماماً . إذن عندما يقول: الجهة ، نقول : صدف ، وعندما يقول النصف . نقول : صدف

« فقد ضل سواء السبيل » ، وإث قرآن قد نزل على أمة تعيش في البداية وطرقها بين الجبال ، وقد يكون الطريق متعباً من ناحية ، وقد يكون الطريق بين هلاوتين . وقد يكون الطريق بين جبلين ، ومن يأخذ بالأحرط فهو يمشي في الوسط . ولذلك قال الإمام علي - كرم الله وجهه - اليمين والشمال مضلة وخير الأمور الوسط ؛ لأن الإنسان قد يتجه يمينا فيقع . أو يتجه شمالاً فيقع ؛ أو تقع عليه صحرة . ونجد الوالد ينصح ابنه فيقول له : امش ولا تلتفت يمينا أو يسارا واتجه إلى مقصدك . ونجد الحق يصف الطريق الذي يمشي عليه المؤمن يوم القيامة :

﴿ قَاطَعٌ قَرَاءَةً فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾

(سورة الصافات)

وسواء الجحيم هو نقطة المنتصف في النار ؛ أي أنه لا يستطيع الذهاب يمينا أو شمالاً ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فِيمَا تَقْضِيهِمْ فَيُسْقَوْنَ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا

قُلُوبُهُمْ قَسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ
مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، وَلَا تَرَأَى
تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ
وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

وساعة يقول الحق « ميثاقاً » فالميثاق يتطلب الوفاء فهل دعوا بهذا الميثاق ؟
لا ، لقد نقضوا الميثاق فلعنهم الله ، وليس هو بطرد والإبعاد ، ولحق في ذلك
يقول « فيها نقضهم ميثاقهم لعناهم » أى سبب نقضهم الميثاق لعنهم الله ، لقد
أثار وجود « ما » هنا بعض التفسيرات ، هناك من العلماء من قال : إنها زائدة ،
وهناك آخرون قالوا : إنها « صنة » ولكن الزيادة تكون عند الشر لا عند الله
ولا يمكن أن يكون بالقرآن شيء « رثد » لأن كل كلمة في القرآن جاءت لمقتضى حال
يحنم أن تكون في هذا الموضع . فها هو ذا الحق يحررنا بما وصى به لقمان ابنه .

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿١٤﴾

(سورة الشورى)

في الآية الأولى لم يورد « اللام » لتسق « من » ، وفي الآية الثانية أورد « اللام »
تسبق « من » ، وليس ذلك من غير التفتيش في العبارات ، فقوله « واصبر على
ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » دعوة للصبر على مصيبة ليس للإنسان غريم
فيها . كنظر من ، أو موت أحد الأقارب ، وهذه الدعوة للصبر تأتي من كبرياء
وتسليه ، أما قوله الحق : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » فدعوة للصبر
هنا مع العفو عن تقصير وجود غريم بسبب للإنسان كرامة

هنا يطلب الله من المؤمن أن يظفر لمن أصابه وأن يصبر . وما دام هناك غريم ، فالنفس تكون متعلقة بالانتقام ، وهذا موقف يحتاج إلى جرعة تأكيدية أكثر من الأولى ؛ فليس في الموقف الأول غريم واضح يُطلب منه الانتقام ، أما وجود غريم فهو يحرك في النفس شهوة الانتقام ، ولذلك يؤكدنا الحق سبحانه وتعالى إن ذلك لمن عرم الأمور . ويقول سبحانه في موقع آخر :

﴿ مَا يَتَذَكَّرُ مِنْكُمْ إِلَّا نَجْدٌ ﴾

(من الآية ١٩ سورة مائدة)

وعندما يقوم المحقق بإعراب « بشير » فهم يقولون : « إنها فاعل مرفوع بضمزة مقدرة على آخره منع من ظهورها حركة حرف الجر للرائد . إنه الضمير طويل ، ولا يوجد حرف رائد ، فالإنسان يقول : ما عندي مال . وهذا القائل قد يقصد أنه لا يملك إلا القليل من المال لا يمتد به . وعندما يقول الإنسان « ما عندي من مال » فهنا نرى أنه لا يملك أي مال من بداية ما يقال له مال بولذلك فـ « من » هنا ليست زائدة ، ولكنها جاءت تسمى لمق « ما جاءنا من بشير » أي لم يأت لنا بداية من يقال له بشير .

وما هو ذا قول الحق :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة آل عمران)

وقد يحسب البعض أن « ما » هنا حرف زائد ، ولكننا نقول : ما الأصل في الاشتقاق ؟ إن الأصل الذي يشتق منه هو المصدر . ومرة يأتي المصدر ويراد به الفعل ، كقول القائل : « صرباً ريذاً » أي « اصرب ريذاً » . ويجيء المصدر هنا قول مقصود به الفعل ، وكذلك قوله الحق : « فيما نقضهم ميتاتهم لئلا يفسدوا »

وما دام النقص مصدراً فمن الممكن أن يقوم مقام الفعل . وما دام المصدر قد قام مقام الفعل فمن الخاطئ أن يأتي فعل آخر ، فيصبح معنى القول : فيما نقضوا ميتاتهم لئلا يفسدوا . إذن « ما » تدل هنا على أن المصدر قد جاء تداً عن فعل « ربيت » « ما » لتدل على أن المصدر من الفعل المحذوف ، أو أن « ما » جاءت استهتامية للتعجيب . أي فبأي نقض من ألوان وصور نقضهم للمشهد لئلا يفسدوا ؟ وذلك لكثرة ما نقضوا من العهود على صور وألوان شتى من النقص للعهد .

وقوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم لعصاهم » . والنقض هو ضد الإبرام ، لأن الإبرام هو إحكام الحكم بالأدلة . والنقض هو حل عناصر القضية ، كأن العهد الموثق الذي أخذ الله عليهم قد نقضوه . ونحن نسمى العقيدة الإيمانية عقيدة ، لماذا ؟ لأنها مأخوذة من عقد الشيء بحيث لا يطمعوا لينافقوا من جديد في الدهن . كذلك الميثاق إنه عهد مثبت ومؤكد . وعندما ينقضونه فهم يقومون بعصاه ، أي أنهم أخرجوا أنفسهم عن متطلبات ذلك العقد وجاء الدهن لأنهم نقضوا الميثاق

« وجعلنا قلوبهم قاسية » وهم عندما نقضوا الميثاق ، طبع الله على قلوبهم ، لأنه لم يطبع على قلوبهم بديلة ، فقد كفروا أولاً ، وبعد ذلك تركهم الله في عيهم وصلاتهم وطبع على قلوبهم قساة فيها من كفر لا يخرج ، والخارج عنها لا يدخل إليها . وه قاسية ، تعني صلبة رغبها شدة . والصلابة مذمومة في القلوب وليست مذمومة في الدفع عن الحق ؛ لأننا نقيس كل موجود على مهمته . فعندما يكون كل موجود على مهمته يكون كل الكون جميلاً . مثال ذلك ؛ نحن لا نقول عن الخطاف دعاً به إنه أعرج ، فالخطاف لا بد له من العرج ، لأن ذلك العرج مناسب لمهمته ، إذن فعرج الخطاف استقامة به . وكذلك الفسوة غير مذمومة شريطة أن تكون في محلها . أما إن جاءت في غير محلها فهي مذمومة . إن القلوب القاسية مذمومة ، لأن الحق يريد للقلوب أن تكون لينة :

﴿ ثُمَّ تَلِيَهُ جُلُودُهُمْ وَفُلُوبُهُمْ إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الزمر)

والفسوة مأخوذة من النفس وهو الصلب الشديد ، ويعرف أن الدنانير كانت تضرب من الذهب والدرهم تضرب من الفضة . وعندما يفحصها الصيرفي قد يخرج واحد منها ويقول هذا ريف أو رائف لأنه قد سمع رينها ، أي صلبة في الواقع أم لا ؟ . وعندما تكون صلبة يقال لها درهم قسوة .

إن الذهب ين والفضة لينة . فعندما نقول . إن هذا ذهب عيار أربعة وعشرين أي ذهب ليس به نسبة من المواد الأخرى التي تجعله قابلاً للتشكيل ، لأنه عندما يكون ذهباً صامياً على إطلاقه فلا يستطيع الصائغ أن يصوغ منه الحل ، لذلك يخلطه بالصائغ بمعدن صلب ، حتى يعطيه المعدن درجة الصلابة التي تتيج له

تشكيل الحل منه . وتختلف نسبة الصلابة من عيار إلى عيار في الذهب وكذلك
الفضة . والمصنوعات المصنوعة من عيار مرتفع من الذهب ليست عرضة للتداول ،
كالبائك النعمية .

وإذا ما دخل المعدن الصلب إلى الذهب أو الفضة جعلها قاسية ؛ أي صلبة .
الصلابة - إذن - فيها يناسبها مضمومة وفيها لا يناسبها مدمومة كصلابة لقلوب
وقسوتها .

ويقول الحق : يعرفون الكلم عن مواضعه . مثل ذلك نقلهم أمر الله الذي
طلب منهم أن يقولوا « حطة » فقالوا « حطة » وسوا حطاً مما ذكروا به ، وكانت
وسائل النسخ في الكتب التي سبقت القرآن هي نسيان حط مما ذكروا به ، والنسيان
قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب ، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكن على
بالهم . فلما كانت كتب المنهج على بالهم لظنوا على ذكر منه ، كما أنهم كتبوا ما لم
يسوه ، والذي لم يسوه ولم يكتبوه حرقوه ولووا ألسنتهم به . وبأيت الأمر اقتصر
على ذلك ، ولكمهم جاءوا بأشياء وأقاريل وقالوا إنها من عند الله وهي ليست من عند
الله :

﴿ قَوْلَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ - ثُمَّ
قَلِيلًا قَوْلًا لَّهُمْ ثُمَّ تَمَّا كَتَبَتْ عَلَيْهِمْ رَوَيْلٌ لَهُمْ تَمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

(سورة البقرة)

هي أربعة ألوان من التعمير ، النسيان ، والكتم ، والحريف ، ودمر أشياء على
أنها من عند الله وهي ليست من عند الله .

ولنا أن نتأمل جمال القول الحكيم : « ونسوا حطاً مما ذكروا به » فهم على قدر كبير
من السوء بدرجة أنستهم الشيء الذي يأتيهم بالحفظ الكبير ، مثل نسيانهم البشارات
بمحمد عليه الصلاة والسلام وكتابتها ، ولو كانوا قد آمنوا بها ، لكان حطهم كبيراً ؛
ذلك أنهم سوا أمراً كان يعطيهم جزاء حسناً ، إذن فقد جثوا على أنفسهم ؛ لأن
الإسلام لن يستعيد لو كانوا مهتدين أو مؤمنين والخسار عليهم هم ، ولم يدعهم الله
ويتركهم على سيئاتهم ليكون هم بذلك حجة ، بل أراد أن يذكرهم بما نسوه . وكان

مفتحي ذلك أن ينصبروا أنفسهم بأن يعودوا إلى الإيمان ؛ لأن الحق ذكرهم بما نسوا ليحققوا لأنفسهم الخط الحصيل . وقد براد أنهم تركوا ذلك عامدين معرضين عنه مغفلين له عن قصد .

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَحَنِّنِينَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة التائبة)

أى أن خيانتهم لك يا رسول الله ولأنبيائك ولمنح الله الحق في الأرض ستتوالى ، ولا أدل من ذلك مما حدث منهم ضد رسلهم أنفسهم مع أنهم من بنى جلدتهم ومن عشيرتهم ، إسم من بنى إسرائيل مثلهم ، فما بالك بسى جاء من جسس آخر ليقتحم عليهم سطنتهم الزمنية ؟

إذن فخيانتهم لله متصورة و« خائنة » بمعنى « حيانة » مثلها مثل « فائنة » وهى القيلولة أى المسافة الزمنية بعد الظهر ، وهى « قائل يقبل أى تام وسط النهار أو « خائنة » أى « نفس خائنة » . أو « خائنة » مثل امرأة خائنة ، أو « خائنة » مانعة كما تقول « راو » و« راوية » و« نحن نعى رجلاً ، أو نقول « جماعة خائنة » .

إذن فالكلمة الواحدة هنا مستوعبة لكل مصادر الخيانة منهم ، رجل أو امرأة أو جماعة أو كل هؤلاء . ولذى يتكلم بها هو رب العالمين ، ويتكلم للعرب وهم أهل فصاحة ، إنه أداء يعوى عال

ومن مرط دقة القرآن وصدقه يأتى الحق بقوله « إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ » طبقاً لفانور صيانة الاحتمال . حين يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين له موقف اليهود منه ، ألا يُحتمل أن يُرجد قوم من اليهود يخليهم المهم لسميق فيمكررا فى أن يؤمنوا بهذا الرسول ، ويهدثوا من شراسة ظنهم به ؟ وقد فكر بعضهم وأعلن الإسلام

وهؤلاء القوم عندما يسمعون أحكم الله على اليهود أجمعين ، ألا يقولون : وما لنا

تدخل في هذه الزمرة ، وبمكر في أن ننطق بالإيمان ؟ فكأن قوله : « إلا قليلا منهم » صان قانون الاحتمال أن يكون إنسان منهم فكر في الإيمان . ومن فكر في الإيمان فسوف يجد قوله الحق : « إلا قليلا منهم » وسيرى هذا الإنسان في نفسه أن القرآن دليل نزل على نور . وقد كان وأعلن قليل منهم إسلامه ، وماذا يكون مرقعه صلى الله عليه وسلم بعد أن يخبره الحق : بأنك مستعرض مستقبلا لخيبنتهم ؟ ألا يحرك ذلك نفسية رسول الله صلى الله عليه وسلم ولخوصبين عليهم ، فإذا فعل اليهود خاتمة فلا بد أن يتنعموا منهم ، وتطبيقا للمعدة الأساسية في رد العدوان بأن من يعتدى عليك فاعتد عليه .

لم يشأ الله - سبحانه - أن يترك الموقف لعواطف البشر مع البشر بل قال : « فاعف عنهم وصفح إن الله يحب المحسنين » والعمو هو كى تقول : فلان عفى على أثاري ، أى أن آثارك تكون واصحة على الأرض وتأتى الريح لتمسحها فتعفى على الأثر والأمر بالعفو أى امح الأثر لنسب فعلوه والخطيئة التى ارتكبوها عليك أن تعتبرها كأنها لم تحدث ، ولكن أبطل أثرها باقيا عند رسول الله ؟ لا ، فالأمر بالصفح بآى وهناك فرق بين أن تمحو الخطيئة وتبقى أثرها في نفسك وتظل في حانة من العيظ والخفد .

والحق هنا يأمر بالعفو أى إزالة أثرها وأمر بالصفح أى أن تخرج أثر الخطيئة من بالك ؛ لأن الإنسان منا له مراحل ؛ المرحلة الأولى بعد أن يرتكب أحدهم ذنب في حقه ، فلا يقابل العدوان بمثله ، وهذا هو العفو ، والمرحلة الثانية ألا يترك أثر هذا الذنب يعمل في قلبه بل يأتى الصصح حتى لا يشتعل قلب المؤمن بشيء قد عفا عنه ، والمرحلة الثالثة . فرصة مفتوحة لمن يريد أن يساوى في مرتبة الإحسان وتقوى اليقين والإيمان بأن يحسن الإنسان إلى من أساء إليه . وهذه المراحل لثلاث يوصحها قوله الحق :

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة آل عمران)

وعملية الإحسان مع المسيء أو المعتدى . هى عملية منطقية مع انفس الإنسانية ؟ قد تكون غير منطقية مع النفس الإنسانية ، ولكنك أيها الإنسان لا تشرع

لنفسك ، إنما الذي يشرع لك هو الأعلى من النفس الإنسانية . والخالق يقول لك . لو علمت ما قدمه لك من أساء إليك لأحسنت إليه . لأنك إن أسأت إلى خلق من خلق الله فالذي يثأر ويأخذ الحق لمن أساء إليه هو رب هذا المخلوق . ويأتى الله في صف الذي تحمل الإساءة .

إذن لإساءة العدو لك جعلت الله في صفك وفي جانبك ، ألا يستحق ذلك اسمى أن شكره ؟ ألا تقول لنفسك القول المأثور : ألا تحسن إلى من جعل الله في جانبك . إذن هذا هو التشريع : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان هنا خرج بالترقى الإيماني عن مرحلة :

﴿ فَمَن آتَىٰ عَدُوَّكَ عَدُوًّا فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ يَحْسِبْ مَا آتَيْنِي عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

والإحسان أن تفعل شيئاً فوق ما فترضه الله ، ولكن من جنس ما افترضه الله ، واحسن الذي يدخل في مقام الإحسان هو من يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فهو سبحانه وتعالى يرى كل خلقه ونعرف قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۚ آتَيْنَ مَا كَانَتْ لَهُمْ رِزْقًا مِنْهُمْ ۚ هُمْ فِيهَا مُقْبِلُونَ ۚ ذَٰلِكَ مَحْسِنٌ ۝۱۱ ﴾

(سورة الداريات)

ما اسمى جاء بالإحسان هنا ؟ وتكون الإجابة :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝۱۷ ﴾

(سورة الداريات)

وهل يكلف الله خلقه ألا يهجعوا إلا قليلاً من الليل ؟ لا . فقد كلف الله المسلم بالصلاة ، وأعلمه بأنه حر بعد صلاة العشاء ، وبه الحق أن ينام إلى الصبح ، فإن سمع أذان الصبح فليقم إلى صلاة الصبح . لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه فيزيد من صلواته في الليل . ويصيب الحق مذكر لنا بصعوبات المحسنين .

﴿ وَإِلَّا لَأَسْأَرَهُمْ نَسْتَفْتِرُونَ ۝۱۸ ﴾

(سورة الداريات)

أكلف الله الحق بأن يستعفروا بالأسحار؟ لا . بل إن الرسول يجب على رجل سأل عن العروض الأساسية المطلوبة منه ، فذكر له أركان الإسلام ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة ، فقال الرجل : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أضح إن صدق »^(١) .

ويصف الحق في استكمال صفات الحسين :

﴿وَلِيَّ أَمْوَالِهِمْ حَقُّ لِّسَائِلٍ وَالْمَحْرُومِ ۝١٥﴾

(سورة الدريعات)

ولنلاحظ أن الحق هاهنا يقل : « حق معلوم » إنما قال : « حق للسائل والمحروم » فالحق المعلوم هو الزكاة ، أما المحسوس فللسائل والمحروم في ماله حق غير معلوم . وذلك ليسبح سبحانه المجال للطموحات الإنسانية ، فمن يزد في العطاء فله نصيب عند الله . ولحق يقول : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » لأن الإحسان إليهم يبيح فيهم عريضة العرفان بالجميل ، فيستل ذلك الإحسان الحق من قلوبهم ، ويتحون آدابهم وقبوعهم لكلمة الحق .

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

(من الآية ٢٤ سورة قصص)

لأن العداوة لا تشتد إلا إذا وجد مؤجج لها من عداوة في المقابل فعندما تعامل عدوك بالخصي ولا ترد على عداك بالعدوان فكم من الزمن يصبر عدو لك ؟ إنه اعتدى مرة وسكت أنت عليه ، واعتدى ثانية وسكت أنت عليه لا بد أنه يهدئ من نفسه .

إذن فالعداوة لا تتأجج إلا إذا قبضها عداوة أخرى . ولذلك نرى ما حدث في المعركة التي قامت بين فرعون وسيدنا موسى عليه السلام حين أراد الله أن يجعل العداوة لا من جهة واحدة ولكن من جهتين اثنتين لتكون معركة حامية : لأن العداوة لو كانت من جهة واحدة لهذا الطرف المعتدى :

﴿فَالْتَفَتَهُ قَالَ فِرْعَوْنُ يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

هل هم التفتوه ليكون عدواً ؟ لا . بعد التفتوه ليكون قرة عين . ولكن قدر الله سبق . كان الأمل في أن يصير موسى قرة عين آل فرعون ، ولكن الله أراد أن يقوموا بتربيته ، ثم يصير من بعد ذلك عدواً لهم . وهكذا يتضح لنا أن تدبير السماء فوق تدبير الأرض . وموسى السامري مثلاً رثته السماء بواسطة جبريل ، وولدت له أمه منقطعا في الصحراء ، فكان جبريل ينزل عليه بما ينفعه إلى أن كبر ، وموسى ابن عمران ذهب إلى فرعون ليبيعه ، لكن موسى السامري - الذي رياه جبريل - صار كافراً ، وموسى بن عمران الذي رياه فرعون أصبح رسولاً إلى بني إسرائيل . وكلا الفدرين أرادهما الله ، ولذلك يقول الشاعر :

إذا لم تصدق في طريق حنيفة
فقد كذب الراجي وغاب المؤمل
فموسى الذي رياه جبريل كافر
وموسى الذي رياه فرعون مرمل

كان آل فرعون قد قاموا بتربية موسى بن عمران ليكون عدواً لهم لا قرة عين . والعداوة تكون من جهة موسى لفرعون ، ونجى العداوة من فرعون موسى ، فيقول الحق :

﴿ مَا قَدْ فِيهِ فِي الْيَمِّ مَتَّبِعِيهِ أَلَيْسَ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة طه)

هكذا صارت العداوة من طرفين . والحق سبحانه وتعالى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصيح عن الخيانات التي تحدث منهم ، لعل الوعي الإيمان يستنبط فيهم ، ويقولون : لم يعادنا بمثل ما عاملناه به ، ويعترفون به نبياً رحيماً رؤوفاً كريماً ، ولا يقفون في وجه دعوته . لكن أياهم والعمو والصمغ هما كل التعليمات الصخرة من الحق إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ لا . فقد أمر الأمر الإلهي بمراحليات متعددة ، فالرسول يستقطب النفس الإنسانية بأن يستعدها بالإحسان ، فإن لم يستعدها بالإحسان فلا بد أن يشمر النسي عن الساعد ويفعل ما يأمره به الله ، ولنقرأ قوله الحق :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ مَّيِّدٍ يَّخُنُّكُمْ كَمَا دَآخَرُواْ حَسَنًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ

بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاصْبِرُوا وَأَصْغُرُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ ﴿١٠٩﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

إذن فهناك أمر خفي هو :

﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه قد أمر بأن يتركهم الرسول مع الصفع والعفو لمرحلة قادمة يأتي فيها الأمر بتأديبهم . وهذه عملية إنسانية فطرية عرفها العربي الجاهل وحررها قبل أن يأتي الإسلام ، فقد كان العربي يحسن إلى عدوه مرة وثانية وثالثة ، وعندما يجد أن الإحسان لم يثمر ثمرته ؛ يقاتل العدو ، وكما قال الشاعر

أناة فإن لم تنص قدم بعدها

وعبداً فإن لم ينص أعنت حرائمه

من الحزم أن تستعمل الحزم دون

إذا لم يح بالحللم ما أنتت عارمه

وقال الشاعر :

وقلنا القوم إخوان

من قوماً كالذي كانوا

وأضحى وهو هريسان

فإذا والطيت غضبان

وتفجيع ولوان

عذا والزق ملان

من لا يمنجيت إحسان

مل لئذلة إنحسان

صفحما من بني ذهل

عسى الأيام أن يرجع

فلما ضرخ الشر

مشينا مشية الطيت

بضرب فيه تأبيم

وطعن كغم الزق

وق الشر نجاة حوب

وبعض الحلم عند المحه

ومثل ما جرى للنبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود ، حدث مع لنصارى وأورد

الحق سبحانه وتعالى هذا فقال :

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ أَخَذْنَا
مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَغْرَيْنَا
بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

لقد قالوا إنهم نصارى . وأخذ الحق الميثاق منهم ، إما ميثاق الدر وإما ميثاقهم
لنبيهم عيسى ابن مريم ، ففسوا حظاً مما ذكروا به وتركوا ما أمرهم به الإنجيل
وبغضوا الميثاق ، لتفرقوا في عدااء ملحوظ برفق شتى ، وجاء أمر الله كما وعد :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا
يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ
الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ
مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

كان الحق سبحانه وتعالى يعطيهم الفرصة والعلل حتى لا يقولن واحد منهم . لم
يلحقني عي رسول شيء . وهناك فترة لم يأت فيها رسول . وما هوذا رسول من الله
يأتي حاملاً لمهج متكامل . وبجاء ابرسول يسحهم ويعطيهم فرصة لتجديد ميثاق
الإيمان . وهم قد أخذوا من كتبهم بعض الأحكام مثل الرجم والربا ، وقال بعض
من بني إسرائيل في الربا ما ذكره القرآن عنهم :

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَبِيلٌ﴾

(من الآية ٧٥ سورة آل عمران)

أي أنهم أقروا الإقراض بالربا لمن هم عي غير دينهم ، ولكن لا ريب في تعاملهم

مع أبناء دينهم . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلهم الشمس وأن يجمع أيديهم مع يده ، لأنه نبي انتظره ولهم في كتبهم البشارة به . وأن يقف الجميع المؤمن أمام موجة الاتحاد في الأرض حتى يسيطر نظام السماء على حركة الأرض ، لذلك قال الحق : « قد جاءكم من الله نور » . ومعنى ذلك أن كتابهم لبعض منهج الله قد صبح ظلمة في الكون . ومادامت قد حدثت ظلمانية في الكون ، وخاصة ظلمانية القيم ، إذن فالكون صبر في حاجة إلى من يبرر له الطريق . ويعرف أن النور هو ما نتيقن به الأشياء .

وحين يعرض الحق لنا قصة النور الحسى يريد أن يأخذ بيدنا من النور الحسى إلى النور المعنوى ، فالنور الحسى يبلد ظلام الطريق حتى لا نصطدم بالأشياء أو يقع في هوة أو مكسر شيئاً ، لكن عندما يحمل الإنسان نوراً فهو يمشى على بية من أموره . والنور الحسى يجمع من تصادم الحركات في المخلوقات ، حتى لا تبدد الطاقة ، فتبدد الطاقة يرهي الكون ولا يتم إنجاز ما .

إن الشمس في أثناء النهار تضيء الكون ، ثم يأتي القمر من بعد الشمس ليلقى بعضاً من الضوء ، وكذلك النجوم بمواقعها عهدي الناس في ظلمات البر والبحر . وجعل الله هذه الكائنات من أجل ألا تصطدم الحركة المادية للموجودات ، فإذا كان الله قد صبح نوراً مادياً حتى لا يصطدم مخلوق بمخلوق ، فهو القادر على ألا يترك القيم وأعمالها ولموازين بدون نور ، لذلك خلق الحق نور القيم ليهدي الإنسان سواء السبيل . فإذا كان الكافر أو الملحّد يتساوى مع المؤمن في الاستفادة بالنور المادى لحماية الحركة المادية في الأرض ، ولم نجد أحداً يقول: أنا في غير حاجة للانتفاع بالنور المادى ، ويقول لنكافرين والملاحدة . مادمت قد انتفعت بهذا النور فكان يجب أن تقولوا : إن الله نوراً في القيم يجب أن نتبعه . ويلخص المنهج هذا النور - « افعل ولا تفعل » .

فالمنهج - إذن - نور من الله . ولتقرأ :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يأخذ بيدنا في الطريق بالنور المادى الذى يستفيد منه الكل ، سواء من كان

مؤمنا أو غير ذلك ، ويضرب سبحانه لنا مثل النور .

﴿ مَثَلُ نُورِهِ ، مِثْلَ شَوْكَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والمشكاة هي الطاقة التي توجد في الجدار وهي غير النافذة ، إنها كوة في الجدار يوضع فيها المصباح الزيتي أو الكبروسيفي ، وتوجد في المباني البدائية قبل أن يخترع الإنسان المصابيح الكهربائية والثريات . ولا تتجاوز مساحة الكوة ثلاثين سنتيمترا ، وطولها أربعون سنتيمترا ولا يريد عمقها على خمسة عشر سنتيمترا ، أما الحجرة فمساحتها تريد أحيانا على ثلاثة أمثال في الطول والعرض والارتفاع .

ويتحدث الحق عن الكوة لفظ ولا يتحدث عن الحجرة . وأي مصباح في لكوة قادر على إنارة الحجرة . ولسته إلى أن هذا المصباح غير عادي ، فهو مصباح في زجاجة . ونعرف أن المصباح الذي في زجاجة هو من الارتقاءات الفكرية للبشر . فالمصباح قديما كانت بدون زجاجة وكان يخرج منها ألسنة من السناج ، الهباب ، الذي يسود ما حوله ، فالسناج أثر دخان السراج في المصباح وعيره . وقد ينطفئ المصباح لأن الهواء يهب من كل ناحية ، ثم وضع الإنسان حول شعلة المصباح زجاجة تحمي النار وتركز النور وتعكس الأشعة وأخذ المصباح من الهواء من خلال الزجاجة على قدر احتياج الاشتعال

﴿ كَيْفَ تَكُونُ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

أي أن النور من هذا المصباح أشد قوة ، لأن الزجاج يعكس أشعة المصباح وتنتشر الضوء في كل مكان . والزجاجة التي يوجد فيها هذا المصباح ليست عادية .

﴿ أَلْزُجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والكوكب نفسه مضيء ، وتكون الزجاج كأمها هذا الكوكب الدرّي في ضيائه ولمعانه . والمصباح يوجد من ماذا ؟ .

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

وهذا ارتفاع في إضاءة المصباح من زيت شجرة زيتون ، والشجرة غير عادية .

﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

فهى شجرة يتوافر لها أفق انواع الاعتدال :

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

ذلك هو من قدرة الله في نور لكويبات المادية ، ولدت فليس من المعقول أن يترك القيم والمعنويات بدون نور . فكما اعتدى الإنسان في الماديات فينبى أن يمتحن إلى قدرة الحق في هداية المعنويات ، بدليل أن الله قال .

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

يهدى الله بنور القيم والمنهج والمعاني من يريد . وقد يمتدى الملمح بنور الشمس المادى إلى الماديات ولكن بصره أعمى عن رؤية نور المنهج والقيم / لذلك يوضح سبحانه أن هناك نوراً إلهياً هو المنهج . وضرب هذا المثل ليوضح المعاني العينية المعنوية بالمعاني الحسية . ونحن على مفاديرنا نستضيء ، فالفقر أو الهدائي يستضيء بمصباح غارى صغير ، والذى في سعة من العيش قد يشتري مولداً كهربياً وكل إنسان يستضيء بحسب قدرته ولكن عندما تشرق الشمس في الصباح ما الذى يحدث ؟

يطمس الإنسان تلك المصابيح ، فالشمس هى نور أهداه الله لكل بى الإنسان ، ولكل الكون . كذلك إذا فكرنا بعقولنا فيما يبر حياتنا فكل ما يفكر بقدرة عقله . ولكن إذا ما نزل من عند الله نور فهو يغنى عن كل نور آخر . وكما نعمل في الماديات نعمل في المعنويات :

﴿نُورٌ عَلَى نُّورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والذى يدلنا على أن النور الثانى هو نور القيم الذى يكشف لنا بوضوح « افعل ولا تفعل » أن الله قال بعد ذلك :

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمَاءُ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النور)

ولو بحثت عن متعلق لجار والمجرور لم تجده إلا فى قوله (فى بيوت أذن الله أن ترفع) كأن النور على النور بأن من مطالع الهدى فى مساحته «هى بيوت الله تقبل عليها ليفيض منها نور الحق على الخلق» .

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمَاءُ بَعْضُهُنَّ لِلْعَدُوِّ وَالْآخَرُ لِلْغَيْبِ ﴾

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

(سورة النور)

وكلمة « لا تلهيهم تجارة » لا تعنى تحريم التجارة ، فالإنسان الصادق لا تلهيه التجارة عن ذكر الله . وليكن الله على بال المؤمن دائماً ، فعندما يكون الإنسان على ذكر لله فالله يعطيه من ماله .

إذن يا أهل الكتاب قد جاءكم انور ، ويبر لكم الرسول كثيراً مما تختلفون فيه . وتسامح عن كثير من خطاياكم ، ويريد أن يجرى معكم تصفية شاملة . فعليكم أن تلتفتوا وتنبهوا وتعذّلوا من موقفكم من هذا الدين الجديد . ولتبهنوا ماذا يريد الله بهذا المنهج . والله قد ضرب المثل بالنور ، وهذا النور يهتدى إلى « افعل ولا تفعل » . ومن الذى يقول لنا إن هذا النور قادم من الله ؟ إنه الرسول ، ومن الذى يدلنا على أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله ؟ الذى يدل على صدقه هو قول الله :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بَرَاهِنٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُزِّلْنَا الْبُكْرَ نُورًا مِيتًا ﴾

(سورة النساء)

بالذى جاء أولاً من ربكم هو ابرهان عن أن رسول الله صادق فى البلاغ عن

الله ، ولعلنا أن الكتاب قد جاء بالبرهان والقرآن يتميز بأنه البرهان على صدق النبي وهو المسيح النوراني ، لأن البرهان هو الحجة على صدق الرسول في البلاغ عن الله .

ونعرف البرهان في حياتنا التعليمية أثناء دراسة مادة هندسة عندما نقابل تقريباً هندسياً فتأخذ المعطيات وبعد ذلك ننظر إلى المطلوب إثباته . ونعيد النظر في المعطيات لتأخذ منها قوة للبرهنة على إثبات المطلوب . وإن كانت المعطيات لا تعطى ذلك فننتجها إلى خطوة أخرى هي العمل على إثبات المطلوب . وهذا الكون فيه معطيات ، وهو كون محكم ، ونلمس إحكامه فيها لا دخل حركتنا فيه :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْفِي سَاءَ أَنْ تَدْرِكَ الْغَمْرَ وَلَا الْبَلُّ سَائِقُ الْعُلَّامِ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

كون موزون بالسماء والأرض وحركة الرياح وغير ذلك ، وتلك الأمور التي لا تدخل للإنسان فيها نجد القوانين فيها مستقيمة تمام الاستقامة وكلها فإن أراد الإنسان أن يأخذ المعطيات من الكون ، فليأخذ في اعتباره النظر إلى الأمور التي للإنسان دخل فيها وسوف يجد أنها تتعرض للفساد ، لأن الهوى في البشر له مدخل في هذه الأشياء . لكن الخالق الأعلى لا تطوله ولا تتناوله أمور الهوى . ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾

(سورة الرحمن)

علا السماء تنطبق على الأرض ، ولا كوكب يزاحم كوكباً آخر . ويبين لنا الحق كيفية السير بنظام الكون .

﴿ أَلَا تَنْظُرُونَ فِي الْمِيزَانِ ﴾

(سورة الرحمن)

إن أردتم أن تكون حركتكم منتظمة فانظروا إلى ما بأيديكم دخل فيه واصنعوه كصنع الله فيها ليس بأيديكم مدخل فيه .

﴿ وَأَقِيمُوا الزَّوْزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن كنتم معجبين باتزان الكون الأعلى فذلك لأنه مصسوع بنظام دقيق . وإذا كان الحق قد وصع لنا نظاما دقيقا هو المنهج بـ « افعل كذا ولا تفعل كذا » فذلك حتى لا تفسد حركتك الاختيارية إن اتبعت المنهج ، وتصرفت في حياتك بمنهج الله ويكون المبرار معتدلاً . إذن فقد أعطانا الحق معطيات عندما ينظر الإنسان فيها نظرا فطريا بدون هوى فيها تلحد بيده إلى الإيمان . وهذه الكائنات اموروثة لا بد لها من خالق ؛ لأن الإنسان طرأ عليها ولم تات هي من بعد خلق الإنسان . ولا أحد من البشر يدعى أنه صمع هذا الكون .

إذن لا بد من لبحث صم صم هذا الكون الدقيق ، والدعوى حين تسلم من المصنف ، أتكون صادقة أم غير صادقة ؟ تكون صادقة تماما . والله هو الذي قال إنه خلق السماء والأرض والكون . ولم يأت مدح آخر يقول لنا : إنه الذي خلق . إذن ثبت الأمر لله إلى أن يوجد مدح ، ربيع توالى الأمانة وتطاولها لم يدع ذلك أحد

وكان لا بد أن تكون مهمة العقل لبشرى أن يفكر ويقدر الدمن ليتعرف على صانع هذا الكون ، وكان لا بد أن يتوسعه بالشكر لمن جاء ليحل له هذا اللع

وقد جاءت الرسل لتحل هذا اللغز ولتدلنا على مصدوب عضى فطرى ، ولو أننا سلسلنا الوجود لوجدنا أن الإنسان هو سيد هذا الوجود ؛ لأن كل الكائنات تعمل ونجهه في خدمته . وأجناس الوجود كما نعرفها التي تخدم الإنسان هي الحيوان ويتميز عنه الإنسان بالعقل ، وهناك جس تحت الحيوان هو النبات فيه النمو ، وهناك جس أدنى وهو الجهاد . وكل هذه الأجناس مهمتها خدمة الإنسان . والجهاد ليس هو لشيء الجامد ، بل الهواء جماد والشمس جماد والنزرة جماد ، وكل ذلك يدرس مهمته في الوجود لخدمة الأجناس الأعلى منها ويستفيد الإنسان منها جميعا والحيوان يستفيد من الجهاد وكذلك النبات يستفيد من الجهاد ، والحيوان يستفيد من النبات والجهاد ، والمحصلة النهائية لخدمة الإنسان

أليس من اللائق والواجب - إذن - أن يسأل الإنسان نفسه من الذى وهبه هذه الحكمة ؟ فإذا جاء الرسول ليحل هذا اللغز ويبلغنا أن الذى خلق الكون هو الله وهذه صفاته ، ويبلغنا أن هذا المنهج جاء من الله ويحمل معه معجزة هي دليل صدق

البلاغ عن الله ، وهي معجزة لا يقدر عليها البشر ، ويتحدى الرسول ابشر أن
يأتوا بمثل معجزته . إذن فلا بد أن يؤمن كل البشر لو صدقوا الهم وأخلصوا النية .

ما هو البرهان إذن ؟ البرهان هو للمعجزة الدالة عن صدق الرسول في البلاغ عن
الله هذا البلاغ عن الله الذي بحث عنه العقل الفطري وآمن أنه لا بد أن يكون
موجودا ، لكنه لم يتعرف على أنه « الله » . إن الرسول هو الذي يبلغنا عن اسم
الخالق ، وهو الذي يقدم لنا المنهج

إذن فمجيء الرسل أمر منطقي محتمة الفطرة ويحتمه العقل . ولذلك أنزل الحق
النور العبدى ، أنزل - سبحانه - المنهج ليحصى المجتمع من الاضطراب ، ولذلك
يقول الحق :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المائدة)

إذن فالدين جاء من الله لينتجس في الأمور التي تختلف فيها الأهواء ، فحسم الله
التزاع بين الأهواء بأن انفرد سبحانه أن يشرع لنا تشريعا يلتقي فيه أهواؤنا ، ولذلك
يقول صلى الله عليه وسلم . « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت
به » (١) .

أي أن تتحد الأهواء تحت مظلة تشريع واحد ، لأن كل إنسان إن انفرد بهواه ،
لا بد أن نصطلم ، ولا نزال نكرر ونقول : إن خلافاً البشر سواء أكانت على
مستوى الأسرة أم الجماعة أم الأمة أم العالم ، جاءت من اختلاف الأهواء ، ولكن
الاشياء التي لا تدخل للأهواء فيها فالعالم متفق فيها تماما ، بدليل أننا قلنا . إن
المعسكر الشرقي السابق والمعسكر الغربي الخالي اختلافاً سياسيتين نظريتين ، هذا
يقول : « شيوعية » ؛ وهذا يقول : « رأس مالية » .

إنه لا يوجد معمل مادي كى يدخل فيه الشيوعية أو الرأسمالية ونرى ما ينفعنا .
إنها أهواء ، لذلك تصادما في أكثر من موقع ، وانتهزت الشيوعية وبقيت آثارها تدل

عليها . لكن الأمور المادية العملية . لم يختلفوا فيها . ويقول الكلمة المشهورة .
« لا توجد كهرباء روسي ولا كهرباء أمريكي » . « ولا توجد كيمياء روسي
ولا كيمياء أمريكي » ؛ فكل الأمور الخاضعة للتجربة والمعمل فيها اتفاق ،
والخلاف فقط فيها لمختلف وتضطلم فيه الأهواء .

فكان الله ترك لنا في الأرض لتعامل معه بعقولنا المخلوقة له ، وطاقتنا
وجوهرات المخلوقة له ، ويوضح : إن التجربة العملية المادية لن تعرفكم بل
ستجتمعون عليها . وسيحاول كل فريق منكم أن يأخذ ما انتهى إليه الفريق الآخر
من التجارب المادية وليرتصصها ، ولوسرفها ، أما الذي يضركم ويضر مجتمعكم
فهو الاختلاف في الأهواء . وليت الأمر يقتصر على الاتفاق في الماديات والاختلاف
في الأهواء ، لا ، بل جعلوا مما اتفقوا عليه من التجارب المادية والاختراعات
والابتكارات وسيلة قهرية لفرض النظرية التي خضعت لأهوائهم . فكأننا أسدنا
لمسألة . . أخذنا ما اتفقنا فيه لفرض ما اختلفنا عليه .

إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا كل هذه المسائل كي نستقيم لحياة ، ولا تستقيم
الحياة إلا إن كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي يحسم في مسائل أهوى ، ولذلك حتى
في الريف يقولون : « من يقطع عصمه الشرع لن يسيل منه دم » ، لأن الذي يقول
ذلك مؤمن ، أي أن الحكم حين يأت من أهل فلا عضاضة في أن نكون محكومين بمن
خلقنا وخلق لنا الكون ، وتدخلت السماء في مسألة الأهواء ببلهيج : الفعل هذا
ولا تفعل هذا ، لكن ما ليس فيه أهواء أوضح سبحانه : أنتم ستعقون بها غصبا
عنكم ، بل ستسرقونها من بعضكم ، إذن فلا خطر منها .

إن الخطر في أهوائكم . ولذلك اذكروا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في
أمهات المسائل التي يترتب عليها حسن نظام المجتمع كما يريد الله كان - عليه الصلاة
والسلام - يتحمل هو التجربة في نفسه ، ولا يجعل واحداً من المؤمنين به يتحمل
التجربة ، فمسألة النبي حين أراد ربنا أن ينهيها حتى لا يدمي واحد آخر أنه ابنه وهو
ليس أباه ، أنهاها الله في رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الاحزاب)

وفي مسألة الماديات والأهراء يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: إن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلحقون فقال: «لو لم تفعلوا لصلح» قال: فخرج شويصا، فمر عليهم فقال: «ما لنخلكم» قالوا: قلت كذا وكذا قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(١). إنه - صلى الله عليه وسلم - تركهم لتجربتهم.

السبب - إذن - لا يتدخل في المسائل التجريبية، لأنه سبحانه وهب العقل ووهب المادة ووهب التجربة، ورأيت رسول الله يتراجع عما اجتهد فيه بعد أن رأى غيره خيرا منه كى يثبت قضية هامة هي أن المسائل المادية العملية الخاضعة للتجربة ليس للدين شأن بها فلا تدخلها في شئوننا، فلا نقول مثلاً: الأرض ليست كروية، أو أن الأرض لا تدور. فإلهذا بهذا، لأن الدين ليس له شأن بها أبداً، وهذه مسائل خاضعة للتجربة وللمعمل والبرهان وللنظرية، بل دخل الدين ليحمينا من اختلاف أهوائنا، فالأمر الذي نختلف فيه يقول فيه: «افعل كذا ولا تفعل كذا بحسب» والأمر الذي لم يتدخل فيه به أحد ولا تفعل «أوضح لك: سواء فعلته أم لم تفعله لا يترتب عليه فساد في الكون، وحلوا راحتكم فيها لم يرد فيه «افعل ولا تفعل»، وأوجبوا أنفسكم واختلفوا فيه، لأن الخلاف البشري مسألة في الفطرة والجبلة والحلقة.

وهنا يقول: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين»، «النور» أهو الكتاب أم غيره؟ وفي آية أخرى يقول:

﴿يُنَايِئُ النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بَرَهُنٌ مِّن رَّبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكَ نُورًا مُّبِينًا﴾

(سورة النساء)

وهذا الفون يدل على أن النور هنا هو القرآن وجمع بين أمرين: برهان - أي معجزة - ونور يهتد لنا سبيلنا.

«فأمروا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا» والإيمان بالله مسألة تصبينية مرحلية. «الله» هو قمة الإيمان ورسوله «هو المبلغ عن الله» لأنه جاء لنا بالنور. إلا أن أهل الشطح يقولون: النور مقصود به النبي صلى الله عليه وسلم، ونقول: نحن لا نمانع

(١) رواه بسطم وأحمد وابن ماجه.

انه نور ، وإن كان النص يحتمل أن يكون عطف تفسير ، وحتى لا ندخل في متاهة مع بعض من يقولون : لا ليس الرسول نوراً ؛ لأنه مأخوذ من المنة وسنجد من يرد عليهم بحديث جابر : ما أول ما خلق الله يا رسول الله ؟ قال له : نور بيث يا جابر

فمن جابر بن عبد الله قال : قلت يا رسول الله بأي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء قال : يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدره حيث شاء الله ولم يكن في ذلك الوقت لوج ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جوى ولا إنسى (١) .

وحق لا ندخل في مسألة غيبية لا تسوى الأذهان في استنباطها ونقتن بعضنا . ويقول فلان كذا ويقول علان كذا . هنا نقول من تجل له أن رسول الله نور ، نور ، ظليمرها هو ويطرمها . وليس من المقروض أن يقع بها أحداً كي لا ندخل في متاهة ، وعندما يتعرض أحد لحديث جابر - رضى الله عنه - نأل : أهو قال : أول خلق الله بيث يا جابر أم نور نبيك يا جابر ؟ قال الحديث : نور نبيك ولم يقل النبي نفسه الذي هو من لحم ودم ، فمحمد صلى الله عليه وسلم من آدم وآدم من تراب ؛ لذلك ليس علينا أن نتناول المسائل التي لا يصل إليها إلا أهل الرياضات المتفوقة ، حتى لا تكون فتنة ؛ لأن من يقول لك : أنت تقول :النور هو رسول الله ، ونقول : على العين والرأس ، فرسول الله نور ولاشك ؛ لأن النور يعنى ألا نصطلم ، وجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج كي ينير لنا الطريق ، والقرآن منهج نظائى ، والرسول منهج تطبيقى ، فإن أخذت النور كي لا نصطلم ، فالحق يقول :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأحزاب)

إذن نستأخذ بالمنهج النظرى الذى هو القرآن ، ونأخذ بالمنهج التطبيقى .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » و « مبين » أى محيط بكل أمر وكل شيء مصداقاً لقوله الحق :

﴿ مَا قَرَّبَنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

أى مما تختلف فيه أهوازكم ، ومثل الإمام محمد عبده ، وهو فى باريس : أنتم تقولون « ما قرطنا فى الكتاب من شيء » فكم رغبنا فى أردب الدقيق ؟ فقال : انتظروا : واستدعى خبازاً وسأله : كم رغبنا فى أردب القمح ؟ فقال له : كذا رغب فقالوا له : أنت تقول إنه فى الكتاب فقال لهم : الكتاب هو الذى قال لى :

﴿ فَسَلُّوا أَسْمَاءَ إِلَىٰ ذِي الْقُرْبَىٰ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النحل)

إن قوله « ما قرطنا فى الكتاب من شيء » أى مما تختلف فيه الأهواء أو تفسد فيه حركة الحياة فى الأرض . فربما هو - سبحانه - جعل أناساً متخصصين فى الموضوعات المختلفة .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » يعنى : يا أهل الكتاب انظروا إلى أن هذه فرصتكم لنصفي مسألة العقيدة فى الأرض ونهى الخلاف الذى بين الدينين السابقين ونرجع إلى دين عام للناس جميعاً ، ولا تبغى فى الأرض هذه العصبية حتى تتسائد الحركات الإنسانية ولا تتعاند ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة التوبة)

نظر كيف يجمع الإسلام بين أمرين متناقضين : فلم يجيء الإسلام كى يطبع الإنسان ليكون شديداً ، لأن هناك مواقف شتى تتطلب الرحمة ، ولم يطبعه على الرحمة المطلقة لأن هناك مواقف تتطلب الشدة ، فلم يطبع الإنسان فى قالب ، ولكنه جعل المؤمن يفعل للمحدث ويقول الحق :

﴿ أَدْلِيْهِ عَلَى السَّوْمِيْنِ أَعْرَافَهُ عَلَى الْكَافِرِيْنَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

أى لا تقل إنه طبع للؤمن على أن يكون ذليلاً ولا طبعه ليكون عزيزاً ، بل طبعه ليكيف نفسه التكيف الذى يتطلبه المقام ، فيكون مرة ذليلاً للمؤمن وعزيزاً على الكافر . وقال الإسلام لنا :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

أى لا بد أن تعرف الطرفين أولاً ، ثم تحدد ، لأن الوسط لا يعرف إلا بتحديد الطرفين ، فاليهودية بالعت فى المادية ، والنصرانية بالعت فى الروحانية والرهبانية :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الحديد)

وعندما سئل سيدنا عيسى عن مسألة ميراث قل : « أنا لم أبعث مورثاً » ، لأنه جاء ليبدد الشحنة للطاققة الدينية ، ويرغم الخلاف العميق بين اليهودية والنصرانية جاء أهل الفكر عندهم ليضعوا العهد القديم والعهد الجديد فى كتاب واحد ، ومع ذلك فقد جاء من اعتبر الإسلام عصياً عنيفاً عليهم على رغم أن الإسلام ليس خصماً إنما جاء ليمنح الناس حرية الاختيار ، وعندما ننظر إلى المنهج المادى والمنهج الروحانى نجد أن اليهود أسرفوا فى المادية وقالوا :

﴿ لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَرَى أَفَّهَ جَهَنَّمَ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

لقد أسرفوا فى المادية لدرجة أن المسألة المتعلقة بقومهم حينما كانوا فى التيه وأنزل دبت عليهم المن والسلوى ، وه المن ، كما نعرف طعام مثل كرات بيضاء ينزل من السماء على شجر أو حبر ينمقد ويحرق جفاف الصمغ وهو حلو يؤكل وطعمه يقرب من عسل النحل ، وجاء لهم الحق بالسلوى وهو طائر يشبه الدجاج وهو السليق فقالوا :

﴿ لَنْ نُصِبرَ عَلَى طَعَامٍ وَحِيدٍ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إسأ يريد ما تخرجه الأرض من ثقلها ، والذي دعاهم إلى غلوهم فى الأمر المادى أنهم قالوا : قد لا يأنى المن ، وقد لا نستطيع صيد الطير ، نحن نريد أن نضمن

الطعام . إذن فالغيبات بعينة عنهم فهم قد أسرفوا في هذه المادية وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعدل هذا النظام المادي المتطرف فانزل منهجية روحانية متمثلة في منهج عيسى عليه السلام ، وشحنهم بمواجيد دينة ليس فيها حكم مادي ، كي تلتحم هذه بتلك ويصير المنهج مستقيماً ، لكن الخلاف ديب بينهم ، فكان ولا بد أن يأتي دين جديد يجمع المادية المتعقبة الرزينة الثانية ، والروحانية المقسطة التي لا تفريط فيها ولا إفراط ، إنها الروحانية المتعقبة من السماء دون استداع دين يأتي بالاثنتين في صلب دين واحد فقال ك .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا
مُضْطَّعِبًا يَتَتَفَعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَيَرْضَوْنَ سِيَمَاهُمْ فِي جُجُومِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النح)

وهذه كلها قيم تعبدية فيكون هؤلاء ماديين وروحانيين في آن واحد ويتابع الحق :

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النح)

كان الله ضرب في التوراة مثلاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم : يا من أسرفتم في المادية سيأتي رسول ليعدل ميزان الحقائق والتشريع ، فتكون أمة مخالفة لكم تماماً . فأنتم ماديون ونوم محمد ركب سجد ، يتتفعون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود . كي : ما فقدتموه أنتم في منهجكم سيوجد في أمة محمد ويقول الحق :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَصَكْرَةٍ أُتْرِجَ شَطَعُهُ فَعَلَرَدُّ فَاسْتَفْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ
يُعِجِبُ الرَّاغِبُ لِيَفِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النح)

فمثالهم في التوراة ما فقد عند اليهود ، ومثالهم في الإنجيل ما فقد عند النصارى . إذن فدين محمد صلى الله عليه وسلم جمع بين القيم المادية والقيم الروحية فكان ديناً وسطاً بين الاثنتين فقال . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » أي

انتهزوا الفرصة لتصححوا أخطاءكم ولتستأنفوا حياة صافية تربطكم بالسما والباطن
يجمع بين دين قبي يتطلب حركة الدنيا ويتطلب حركة الآخرة .
ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ يَهْدِي بِإِذْنِ اللَّهِ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ١٦ ﴾

وما دام الله هو الذي يهدي فسيحانه منزله عن الأهواء المتعلقة بهم . وهكذا تضمن
أن الإسلام ليس له هوى لأن آفته من يشرع أن يذكر نفسه أو ما يجب أن
ما يشرع ، فالشرع يشترط فيه ألا يتبع بما يشرع ، ولا يوجد هذا الوصف إلا في الله
لأنه يشرع للجميع وهو فوق الجميع

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه ، إن من
اتبع رضوانه يهديه الله لمسبل السلام ، إذن ففيه رضوان متبع ، وفيه سبل سلام
كمكافأة . وهل السلام طرق ومسبل ؟ . نعم ؛ لأن هناك سلام نفس مع نفسها ،
وهناك سلام نفس مع أسرها ، هناك سلام نفس مع جماعتها ، هناك سلام نفس مع
أمتها وهناك سلام نفس مع العالم ، و سلام نفس مع الكون كله ، وهناك سلام نفس
مع الله ، كل هذا يجمع السلام . إذن فسبل السلام متعددة ، والسلام مع الله بأن
تنزه ربه أيها العبد فلا تعبد معه إلها آخر ، ولا تلمن به أحدا آخر . أي لا تشرك
به شيئا ، أو لا تقل : لا يوجد إله .

ولذلك نجد الإسلام جاء بالوسط حتى في الطينة ؛ جاء بين ناس تقول :
لا يوجد إله ، وهذا نفي ؛ وناس تقول : آفة متعددة ؛ الشر له إله ، والخير له إله ،

والظلمة لها إله ، والنور له إله ، والهواء له إله ، والأرض لها إله !!

إن الذين قالوا بالآلهة المتعددة : استندوا على الحس بظاى ونسى كل منهم أن الإنسان مكون من مادة وروح ، وحيى تخرج الروح يصبح الجسد رمة ؛ ولم يسأل أحدهم : نفسه ويقول أين روحك التى تدير نفسك وجسمك كله هل تراها ؟ ، وأين هي ؟ . أهى فى أنفك أم فى فمك أم فى بطنك أين هي ؟ ، وما شكلها ؟ . وما لونها ؟ . وما طعمها ؟ . أنت لم تدركها وهى موجودة . إذن مخلوق لله فبك لا تدركه فهل فى إمكانك أن تدرك حاله ؟ . إن هذا هو الضلال . فلو أنك إله لما صار إلهاً ؛ لأنك إن أدركت شيئاً قدرت على تحليته بصرك ، وملام قد قدرت على تحليته يكون بصرك قد قدر عليه ، ولا يتقلب القدر الأعلى مقدوراً للأدنى أبداً

وحينما أراد الله أن يدل على هذه الحكاية قال :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧١)

(سورة الانكاث)

انظر فى نفسك محمد روحك التى تدير جسديك لا تراها ولا تسمعها ومع ذلك فهم موجودة فبك ، فإن تخليت عنك صرت رمة وجيفة ؛ لمخلوق لله فبك لا تقدر أن تدركه ، أبعد ذلك تريد أن تدرك مَنْ خَلَقَ ؟ إن هذا كلام ليس له طعم ! والاتجاه الآخر يقول بالآلهة متعددة ؛ لأن هذا الكون واسع ، وكل شيء فيه يحتاج إلى إله بفرده . فى الإسلام بالأمر الحق ويقول : هناك إله واحد ؛ لأنه إن كان هناك آلهة متعددة كما يقولون ، فيكون هناك مثلاً . إله للشمس وإله للنساء وإله للأرض وإله للبهائم وإله للهواء ، حيثك يكون كل إله من هذه الآلهة عاجزاً عن أن يدير ويقوم على أمر آخر خير مما هو إله وقائم عليه ولشأن بينهم خلاف وشقاق يوضح ذلك قوله تعالى :

﴿ لَتَنَبَّ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

فإله الشمس قد يفصلها عن الكون ، وإله الماء قد يمنعه عن بقية الكائنات ، وبخسب الحق الأمر فيقول :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَوْا إِلَيْكَ ذِي الْعَرْشِ مَحْبِلًا ۝١٧ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه : (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) .

إذن فالنواميس التي تراها أيضاً محكومة بالإله الواحد ، ويأتى الرسول ليقول لك : هناك إله واحد ، وبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا إله إلا الله ، ود لا إله ، نفت أنه لا آلهة أبداً . وي بعدها قال : إلا الله . وهذه من مصلحة الإنسان حتى لا يكون دليلاً وحاضماً وعبداً لإله الشمس أو لإله الهواء أو لإله الماء . وقال الحق :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا مَسْلُومًا فَذَلِكُنِ الْمَثَلَانِ ۝١٨ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فربما يريد أن يريتنا من « الحيلة » ، والوهم والاضطراب والتردد . إنه إله واحد ، وعندما يحكم الله حكماً فلا أحد يناقضه ، وسبحانه يديننا بما يشرعه لنا ، لأنه سبحانه ليس له هوى فيما يشرع ، لأن معنى الهوى أن تجعل الحركة التي تريدنا خالصة لك في شيء ، والله لا يحتاج إلى أحد لأنه خلق الوجود كله قبل أن يخلق المخلوق ، وليس لأحد من خلق - منها أول من العلم ورجاحة العقل أن تكون له قدرة أو أى دخل في عملية الخلق أو تنظيمه .

« يهتدى به الله من اتبع رضوانه » ، مادام قد اتبع رضوانه فبهديه إلى سبل السلام ، إذن فإن هناك هدايتين اثنتين يهتدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، وقال في آية أخرى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَزَلَّهُمْ هُدًى وَاتَّبَعُوا أَمْرَهُمْ شَوَّاعًا ۝١٩ ﴾

(سورة محمد)

فإياك أن تظن أن التقوى لن تنال ثوابها وجزءها إلا في الآخرة ، لأنه كلما فعلت أمراً وتلذذت وجدت أثره في نفسك ، تصل نهد أمورك خفت عن نفسك ، فلا ترتكب السيئة في غفلة من الناس ، قلبك لا يكون مشغولاً بأى شيء ، ويمينا



المؤمن في سلام مع نفسه أبداً . إذن فسبل السلام منعقدة : سبل السلام مع الله ،
سبل السلام مع الكون كله ، سبل لسلام مع مجتمعه ، سبل السلام مع أسرته ،
سبل لسلام مع نفسه .

ويقول الحق :

﴿وَأَنْ مِّنَّا مِرْطَىٰ مُتَتَبِعِينَ قَاتِلِيهِ وَلَا تَقْبَلُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَهُ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فهناك سبل سلام وسل صلال .

وفي هذه الآية يقول الحق : « ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، والظلمات هي محل الاصطدام ، وعندما يخرجهم من الظلمات إلى النور يرون الطريق الصحيح الموصل إلى الخير ، والطريق الموصل إلى غير الخير وعندما يخرجون من الظلمات إلى النور تكون حركاتهم متساندة وليست منعقدة ، ولا يوجد صدام ولا شيء يورثهم بفضله وشحناء ، أو المراد أنه يهديهم إلى الصراط المستقيم وهو الجنة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ
ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ
أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَوَمَنْ فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا يَدِينُهُمَا يُخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

وقال سبحانه من قبل :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فمن اتبعوا اليعاقبية قالوا شيئاً ، والصراية قالت شيئاً ، والملكانية قالت شيئاً ثالثاً ، فجاء بالقصة : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » .

ويأتى قوله سبحانه : « قل » ، رداً عليهم : « فس يملك من الله شيئاً » أى من يمنع قدر الله أن ينزل من جعلتموه إلهاً « إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً » .

لقد ذهبوا أن الله هو المسيح عيسى ابن مريم وفى هذا اجترأ على مقام الألوهية المنزهة عن التشبيه وعن الحلول فى أى شيء . وفى هذا القول الكريم بلاغ لمؤلف أن أحداً لا يستطيع أن يجمع إهلاك الله لعيسى وأمه وجميع من فى الأرض فهو الحق الملك الخالق للسموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء كما يريد . فإن كان قد خلق المسيح دون أب ، فقد جاءنا البلاغ من قبل بأنه سبحانه خلق آدم بدون أب ولا أم ، وخلق حواء دون أم ، جلت عظمتة وقدرته لا يعجزه شيء . إن عيسى عليه السلام من البشر قابض لغناء ككل البشر .

« والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء » جاء الحق هنا بالسيما كنوع حلوى والأرض كنوع سفلى ، وقوله : « يخلق ما يشاء » يرد على الشبهة بإيجاز دقيق : « يخلق ما يشاء » ، لأن العنة جاءت من ناحية أن عيسى عليه السلام مُمِر فى طريقة خلقه بشيء لم يكن فى عامة الناس ، فأوضح الحق : لا تظنوا أن الخلق الذى أنطقه يشترط أن تكون هناك ذكورة وأنوثة ولقاح ، هذا فى العرف العام الذى يفترض وجود ذكورة وأنوثة ، وإلا لكان يجب أن تكون الفتنة قبل عيسى فى آدم ؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم . إذن فالذى يريد أن يقتضى بأنه من أم دون أب ، كان يجب أن يفترض فى آدم لأنه لا أب له ولا أم . ويوضح لهم : الله يخلق ما يشاء فلا ينحتم أو يلزم أن يكون من زوجين أو من ذكر فقط أو من أنثى فقط .

إن ربنا سبحانه وتعالى له طلاقة القدرة فى أن يخلق ما يشاء ، وقد أدر خلقه على

القسمه العقبيه المنطقية الأربعة . إما أن يكون من أب وأم مثلنا جميعاً ، وإما أن يكون بعينها مثل آدم ، وإما أن يكون بالذكر دون الأنثى كحواء ، وإما أن يكون بالأنثى دون الذكر كهمس عليه السلام ، فأدار الله الخلق على القواعد المنطقية الأربعة كي لا تفهم أن ربنا يريد مواصفات خاصة كي يخلق بل هو يخلق ما يشاء . والدليل على ذلك أن الزوجين يكونان موجودين مع بعضهما ومع ذلك لا ينتجب منها ، فهل هناك احتمال أكثر من هذا؟! .

﴿قُلْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتَأَتَيْنَ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ كُورٌ ۝ أَوْ يَرْزُقُهُمْ ذُرَّيًّا ۖ وَإِن تَأْتُوا اللَّهَ بِخَبْرٍ لَّنْ يَنْصَحْ بِمَا شَاءَ وَيَتَّبِعْ آلَ عَادِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَالِفِينَ﴾

(سورة الشورى)

إذن فللسؤال ألا يُنصص على ربنا عناصر تكوين ، لا ، بل هي إرادة مُكوِّن لا عصرية مُكوِّن . إنه « يخلق ما يشاء » ، ومشيئته مطلقة وقدرته هامة . ولذلك لا بد أن يأتي القول : « ووافقه على كل شيء قدير » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ اللَّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ

الْمَصِيرُ ۝﴾

وهل كل اليهود قالوا : نحن أبناء الله ؟ هل كل النصارى قالوا : نحن أبناء الله ؟ لا . فبعض من اليهود قال : إن عزيراً ابن الله وبعض النصارى قالوا : إن

عيسى ابن الله ، وجاء مسليمة الكذاب وأدعى النبوة ، وكان كل أهل مسليمة يقولون : نحن الأنبياء ، أى منا الأنبياء حتى أنصار سيدنا عبدالله بن الزبير أبى غريب ، قال أنصاره : نحن الخبيثون أى نحن أتباع أبى الزبير الذى هو أبو غريب ، فكانوا ينسبون لأنفسهم ما لغيرهم . فمعنى « نحن أبناء الله » يعنى : نحن أشياع العزير ، الذى هو ابن الله ، ونحن أشياع عيسى الذى هو ابن الله . هذه تأخذ طة دليلاً من القرآن ، نعرف قصة مؤمن آل فرعون :

﴿ وَقَالَ رَبُّهُ لَمَنْ مِّنْ عِبَادِي يَرْجُوا يَوْمَ الْمُنَادِ وَأَتَقِنُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨﴾ يَنْقُومُ لَكُمْ الْمَالُ الْهَرَمَ مَكْرَهُنَّ فِي الْأَرْضِ ﴾

(سورة خافز)

والقوم جماعة . بالله أكان القوم كلهم ملوكاً ؟ لا ، فالنبي كان ملكاً هو فرعون فقط . لكن مادام فرعون هو الملك ، فيكون كل السنين كانوا أتباعاً وأنصاراً له ومن شيعته ملوكاً لأنهم يعيشون في كتف ورعاية الملك . وأيضاً قال لليهود : « وجعلكم ملوكاً » ، ولذلك عندما أرادوا أن يحددوا معنى « ملك » قالوا : إن « الملك » هو الرجل الذي عنده دار واسعة وميها ماء يجري ، وواحد آخر قال : « الملك » هو الذي يكون عنده حياة رتيبة وعنده من يخدمه ولا يشغل بخدمة نفسه في بيته ، وفي الخارج يخدم نفسه . وقال آخر : من عنده مال لا يخرج للعمل الشاق ، فهو ملك ، ولذلك قال سيدنا الشيخ عبدالحلِيل مهي في هذه المسألة : لا تستعجبوا ذلك فالأميون ينطقون ولسانهم يقولون : هذا ملك زمانه ، أي رجل مرتاح لا يعمل أصيلاً شاقاً وعنده النقود يصرفها كما يريد . إذن فأبناء الله يعني ليس

كلهم أبناء ، ولذلك قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « قل : رداً عليهم : **« فُلَمَّ يَحْدِيكُمْ إِلَى تَبَوُّكُمْ بِأَنَّهُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ »** ، وستدعون في مشيئة المغفرة .

« يغفر لمن يشاء ويهذب من يشاء » ، ولن تخرجوا عن المشية الخافرة أو المشية

المعدية ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير .

ويقول الحق نصفية للسائلة العقيدة في الأرض :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ
عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ
وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

ورسولنا هو محمد صلى الله عليه وسلم وبين لكم - يا أهل الكتاب - ما اختلفتم فيه
أولاً وما يجب أن تلتقوا عليه ثانياً ، وما زاده الإسلام من منهج فلما جاء به ليناسب
أقصى الحياة التي يواجهها إلى أن تقوم الساعة . وقد جاء رسول الله صلى الله عليه
وسلم على فترة من الرسل ، ومعنى الفترة : الانقطاع . وفترة من الرسل أى على ركن
انقطعت فيه الرسائل ، وهى الفترة التى بينه صلى الله عليه وسلم وبين أخيه عيسى
عليه السلام ، وقام الناس بحسابها فقال بعضهم : إنها سنائة سنة وقال البعض :
خمسةائة وستون عاماً . ولا يهمنا عدد السنين ، إنما الذى يهمنا هو وجود فترة انقطعت
فيها الرسل ، اللهم إلا ما كان من قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَضْرِبْ لَمْثًا مِّثْلًا لِمَنْ أَهْمَبَتِ الْفِرَّةَ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٢﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَبَّوْا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ
لُمُرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة يس)

هؤلاء المرسلون أهم مرسلون من قبل الله بين عيسى وبين محمد صلى الله عليه

وسلم ؟ . أم هم مرسلون من قبل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية ؟ . وقد كفر الناس أولاً بهذين الرسولين ، فعززهم الحق بثالث .

وقال الناس هم :

﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ (١٥)

(سورة يس)

وهنا قال الرسل

﴿ قُلُّوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (١٦)

(سورة يس)

فما الفرق بين « إنا إليكم مرسلون » وبين « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ؟ . إن الأخبار دائماً تلقى من التكلم للسامع لتعطيه خبراً ، فإن كان السامع خالي الذهن من الخبر ، ألقى إليه الكلام بدون تأكيد . وأما إن كان عنده شبه إنكار ، ألقى إليه الكلام بتأكيد على قدر إنكاره . فإن زاد في حاج الإنكار يزداد له التأكيد . فأصبح القرية أرسل الله إليهم اثنين فكتبوهما ، فعززهما بثالث ، وهذا تعزيز رسالي ، فبعد أن كانا رسولين زادهما الله ثالثاً ، وقال الثلاثة :

﴿ إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة يس)

صحيح ثمة تأكيد هنا لأن الجملة إسمية ، وسبقتها « إن » المؤكدة ، فلما كذبوهم وقالوا لهم : « ما أنتم إلا بشر مثنا وما أنزل الرحمن من شيء » وكان هذا لجحاج منكم في الإنكار فإذا يكون موقف الرسل ؟ يقولون : « إنا إليكم مرسلون » كما قيل أولاً ؟ . لا . إن الإنكار هنا معنى في اللجاجة والشدّة ، فيأتى الحق بتأكيد أقوى على ألسنة الرسل :

(ربنا يعلم) .

وذلك القول في حكم القسم ، هذا هو التأكيد الأول ، والتأكيد الثاني :

(إنا إليكم لمرسلون) .

وكما تعلم « إن » هنا مؤكدة ، واللام التي في أول قوله : « لمستون » لزيادة التأكيد . وحين تأتي كلمة تنور على معاني متعددة ، فالمعنى الجامع هو المعنى الأصل ، وكذلك كلمة « فترة » ، فالفترة هي الانقطاع . فإن قلت مثلاً : « ماء فاتر » أى ماء انقطعت برودته ، فإلزام مشروط فيه البرودة حتى يرمى العطش . وعندما يقال : « ماء فاتر » أى ماء فتر عن برودته ، ولذلك يكون قولنا : « ماء فاتر » أى ماء دافئ قليلاً ، أى ماء انقطعت عنه البرودة المرغوبة فيه .

ويقال أيضاً في وصف المرأة : « في جصها فتور » أى أنها تغص الطرف ولا تحمق بعينها باحتراء . بل منخفضة الطرة . إذن فالفترة هي الانقطاع . ولقد انقطعت مدة من الزمن وَخَلَّتْ من الوحي ومن الرسل . وكان مقتضى هذا أن يطول عهد العلة ، ويطول عهد انقراض المسيح ، ويحش أهل الخير في ظمأ وشوق لحجى « منبج جديد » فكان من الواجب - مادام قد جاء رسول - أن يرهف الناس آذانهم لما جاء به ، فيوضح الحق أنه أرسل رسولاً جاء على فترة ، فإن كنتم أهل خير فمن الواجب أن نلتبسوا ما جاء به من منبج ، وأن نرهفوا آذانكم إلى ما يجي به الرسول صلى الله عليه وسلم لسماح مهمته ورسالته .

وقد أرسل الله إليهم الرسول على فترة حتى يقطع عنهم الحجة والمذر فلا يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » فقد جاءهم - إذن - بشير وجاءهم نذير . والبشير هو المعلم أو المخبر بخير يأتي زمانه بعد الإخبار . ومادام القادم بشيراً فهو يشجع الناس على أن يرغبوا في منبج الله ليأخذوا الخير . ولا بد من وجود فترة زمنية يمارس فيها الناس المنبج ، ولا بد أيضاً أن توجد فترة ليبارس من لم يأخذوا المنبج كل ما هو خارج عن المنبج ليأتى هم الشر .

مثال ذلك قول الأستاذ : بشر الذي يذاكر بأنه ينجح . وعند ذلك يذاكر من الطلاب من يرغب في النجاح ، أى لا بد من وجود فترة حتى يحقق ما يوصله إلى ما يشتر به . وكذلك لندارة لا بد ما من فترة حتى يتجنب الإنسان ما يأتي بالشر .

« قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » . وعجىء « أن تقولوا » إيضاح بأنه لا توجد فرصة للتملل بقول : « ما جاءنا من بشير ولا نذير »

ويقول الحق : « فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » وسبحانه وتعالى القدير أبداً . فقد جعل الخلق يطرأون على كون منظم بحكمة وبكل وسائل الخير والحياة على أحسن نظام قبل أن يطرأ هؤلاء الخلق على هذا الكون ، فإذا ما طرأ الخلق من هذا الخير ، أتركهم الخالق بدون هداية ؟ لا . فسبحانه قد قدر على أن يوجد خلقه كلهم ، ويعطى لهم ما يحفظ لهم حياتهم ويحفظ لهم نوعهم .

ألا يعطى الحق الخلق إذن ما يحفظ لهم قيمهم ؟ .

إنه قدر على أن يعطى رزق القوت ورزق المباديء والقيم وأن يوفى خلقه رزقهم في كل عطاء . وإرسال الرسل من جملة عطاءات الحق لعلاج القيم . ثم يرجع ثانية إلى قوم موسى ولكنه في هذه المرة يجعل التكلم رسوهم :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا
وَأَتَّخَذَ لَكُمْ مَاءً يَمُوتُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾

وساعة نسمع « إذ » فاعلم أنها ظرفية تعني « حين » ، كأن الحق يقول . اذكر حين قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم . ويقول الحق لرسوله ذلك لأن هذا اللون من الذكر يعبر الرسول صل الله عليه وسلم على تحمل ما يتعرض له في أمر الدعوة والرسالة سواء من ملاحدة أو من أهل كتاب .

إن الحق حينما قال : « وإذ قال موسى لقومه » أي اذكر يا محمد ، أو اذكر يا من تتبع عمداً ، أو اذكر يا من تقرأ القرآن إذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . ولا يقول موسى لقومه : « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التي أنعم الله بها عليهم ، وذلك - والله المثل الأعلى - كما يقول الواحد منا لولد حلق : اذكر ما فعله والدك معك . ولا يقولن

الواحد ما قلت إلا وقد بدت من الابن بوائه لا تتناسب مع مقدمات النعم ومقدمات الفضل عليه . فكان قوم موسى قد أزهقوه وتحمل منهم الكثير ؛ لدرجة أنه قال لهم هل سبيل الزجر ما قد يجعلهم يفيقون ويتبهرن ويفطنون إلى ذكر نعمة الله عليهم ، ومعنى ذكر النعمة هو الاستماع إلى منهج الله وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهي .

« وإذا قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، وعرفنا أن « النعمة » يقصد بها الجنس والفراد بها النعم كلها ، أو كان كل نعمة على أفرادها حلقة وجذوة أن تذكر وتُشكر ، والدليل على أن النعمة يراد بها كل النعم أن الله قال :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة إبراهيم)

ومادام عدد النعمة لا نستطيع معه أن نعرف إحصاءها ؛ فهي نعم متعلقة . إذن فالفراد بالنعمة كل النعم لأنها اسم جنس .

« وإذا قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وذكر النعمة يؤدي إلى شكر النعم ويؤدي أيضاً إلى الاستحياء من أن نعصى من أنعم ، ويجعلنا نستحي أن نأخذ نعمته لتكون معينا لنا على معصيته . « اذكروا نعمة الله عليكم » وهي نعم كثيرة لمحصوها ، ألم يخلق الحق لهم البحر :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

ويعد أن ضرب الماء بالعصا :

﴿ فَأَنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

فقد صار الماء السائل جبالاً وضرب لهم الحجر ؛ بأمر الله فأنفجرت منه المياه :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق الأعظم ، وتبين القدرة عجالات تصرفها ، فقد ضرب مرسى البحر فصار كل فرق كالطود العظيم ، وكان الماء صار صغراً . وضرب موسى الصخر فتنبجرت المياه . إنها عجائب القدرة . ألم يظنكم بالنيام ؟ ألم ينزل عليكم في الليل المن والسلوى ؟ وكل هذه النعم ألا تستحق الذكر والشكر ؟ والاستحياء من أن تعصوه أو أن ترهقوا الرسول الذي جاء لهدايتكم ؟

إن كل هذه انعم تستحق الشكر ، واشكر ذكر . اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ، وكلما أدركتهم غفلة فإن الحق يرسل لهم نبياً كاسوة سلوكية . ولم يقضب عليهم ولم يقل : أرسلت لهم رسولا واثنين وثلاثة وأربعة . ولم يمتدوا ، بل كلما عصوا الله واستعصت داءاتهم أرسل لهم رسولا ، مثلهم في ذلك مثل المريض الذي لا يضر عليه عائلته بطبيب أو بطييين أو ثلاثة أو أربعة ، بل كلما لاحظ عائلته شيئا فإنه يرسل له طبيباً . وفي ذلك امتنان ، لأن الله أرسل إليهم كثيراً من الرسل . وكان عليهم أن يعلموا أن داعاهم قد كثرت وصار مرضهم مستعصياً ؛ لأنه لو لم يكن المرض مستعصياً ؛ لما كانوا في حاجة إلى هذه الكثرة من الأطباء والأنبياء . ومع ذلك رحمهم الله وكلما زاد دأؤهم أرسل لهم نبياً .

ولم يكف الحق بأن جعل فيهم أنبياء ؛ بل قال . « وجعلكم ملوكاً » وليس معنى ذلك أنهم كلهم صاروا ملوكاً ؛ ولكن كان منهم الملوك . « والملوك » كلمة أخذت اصطلاحاً سياسياً ، فكل إنسان مالك ما في حوزته ؛ مالك لشربه ، أو مالك اللقمة التي يأكلها ، أو مالك البيت الذي ينام فيه ، لكن المليك هو الذي يملك ويملك من ملك .

إذن فكل واحد عند القسرة أن يملك شيئاً ويملك من ملك يكون ملكاً ، فرجل عند رعيان يقومون برعى القطعان من الماشية التي يملكها ، وعنده أناس يعملون في المنزل وأناس يعملون في المزرعة ، وعنده أكثر من سائق ، وعنده أناس كثيرون يأمرون بأمرة ولا يدخلون عليه إلا بإذنه ولا يتكلم في لقائهم أى حرج أو مشقة ، هذا الرجل لا بد أن يكون ملكاً . إذن فقد أعطاهم الحق نعمة وفيرة .

والنبي صلى الله عليه وسلم يحدد الملكية الواسعة التي تحدد الفرد تحديداً إيمانياً

فقال : « من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده ، عندله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »^(١)

ومادام قد حيزت له الدنيا بحذافيرها بهذه الأشياء فهو ملك . وقد أعطاهم هذه المسائل أى جعلهم ملوكاً . « وأناكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، أى أنه سبحانه أعطاهم ما لم يعطه لأحد بمن حوهم ، روالى عليهم ذلك المعطاء ، ألم يعط - سبحانه - نبي الله سيدنا سليمان وهو من بني إسرائيل مُلكاً لا ينبى لأحد من بعده ؟ تلك الواقعة لم يقلها موسى عليه السلام لأنها حدثت من بعد موسى بأحد عشر جيلاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَنْقُورِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ
لَكُمْ وَلَا تَرْلَوْا وَعَلَىٰ أَذْيَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾^(٢)

وهذا بلاغ من موسى بما أوحى الله به إليه ، ومتى حدث ذلك ؟ نعرف أن صلة بني إسرائيل بمصر كانت منذ أيام يوسف عليه السلام ، وعندما جاء يوسف بأبيه وإخوته وعاشوا بمصر وكرنوا شيعة بني إسرائيل ، ومكن الله ليوسف في الأرض وعاشوا في تلك الفترة . والعجيب أن المس القرآني للأحداث التاريخية فيه دقة متناهية ، ولم نعرف نحن تلك الأحداث إلا بعد مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر . فعندما جاءت تلك الحملة صحبت معها بعثة علمية . وكانت تلك البعثة تنقب عن المعلومات الأثرية ليتعرفوا على سر حضارة المصريين ، وسر تقدم العرب الفتييم ، الذي سبق أوروبا بقرون ، وأخلقت منه أوروبا العلوم والفنون ، في حين صار هذا العالم العربى إلى غفلة .

إن العرب المسلمين هم الذين اخترعوا أشياء دخل لها العالم الغربى ، ويحكى لنا

التاريخ عن هدية من أحد ملوك العرب إلى شارلمان ملك فرنسا وكانت الساعة دقاقة ، وظن الناس من أهل فرنسا أن بهذه الساعة الدقاقة شيطاناً . وفكرة تلك الساعة أن العالم الذي صممها وضع فيها إناء من الماء به ثقب صغير تنزل منه القطرة بثقلها على شيء يشبه عقرب الساعة ، فتتحرك الساعة دقيقة واحدة من الزمن . وكانت الساعة تسير بنفطة الماء وكان ضبطها في متهى الدقة . وحين رآها الناس في بلاط شارلمان ملك فرنسا ظنوا أن بداخلها شياطين . وهذا نموذج من نماذج كثيرة لا حصر لها ولا عدد تدخل في نطاق قوله الحق :

﴿مَنْ يُضَيِّعْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهِمَّ آتَاءُ الْحَقِّ﴾

(من الآية ٢٣ سورة فصلت)

وحينما جاء الفرنسيون إلى القاهرة كان معهم تلك البعثة العلمية ومعهم مطبعة ، وعرض هؤلاء العلماء الفانوس السحري ، وجعلوا الناس البسطاء يذهنون من تقدمهم العلمي . واستمرت تلك الحملة بعروض أقرب إلى « الأكروبات » . وكان عمل العلماء هو البحث عن سر حضارة المصريين والمسلمين ، لأنهم يعلمون أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى مصر بالإضافة إلى حضارة المصريين القدماء .

لقد كانوا يعرضون ألعابهم السحرية العلمية بدرب الجماهير ، وذلك حتى يبهز الناس بالحضارة الفرنسية . وكان علماءهم في لوقت نفسه يكتشفون ما نقش على حجر رشيد ، وهو الحجر الذي اكتشفه ضابط فرنسي شاب اسمه شامليون ، وعمل هذا الحجر كتب الكلمات الميروغليفية . واستطاع شامليون أن يفصل أسماء الأعلام الميروغليفية ومن خلال ذلك استطاع أن يصل إلى أبجدية تلك اللغة . وكان الله أراد أن يسخر الكافرين بمنهج الله ليؤيدوا بمنهج الله .

إن في كل لغة شيئاً اسمه « منطق الأعلام » ومثال ذلك أن يوجد اسم رجل أو أمير أو إسمان ، فهذا الاسم مكون من حروف لا تتغير ، مثال ذلك ماخذه من اللغة الإنجليزية ؛ كان اسم رئيس وزراء إنجلترا في وقت من الأوقات هو « تشرشل » هي كلمة إذا ترجمناها ترجمة حرفية لم تدل على صاحبها ولم تعرفنا به لأننا عندما نترجمها نكتفى بكتابة الاسم بالحروف العربية بدلاً من اللاتينية .

إذن بالأعلام لا يتغير نطقها .

وكشف شامليون عن الحروف التي لم تتغير . واهتدى إلى فك طلاسم جروب اللغة الهيروغليفية ؛ فعرف كيف يقرأ المكتوب على حجر وشيد ، واستطاع أن يقسم لنا بدايات اكتشاف تاريخ مصر القديمة . واستطاع أن يقرأ اللغة المرسومة على ذلك الحجر .

ولنا أن نرى عظمة القرآن حينما تعرض للأفدين . تعرض لحادٍ وتعرض لثمود وتعرض لفرعون . تعرض لتلك الحضارات كلها في سورة القمر ، فقال سبحانه ونعالى :

﴿ وَالْقَمَرِ ① وَلَيْلٍ عَشِيرِ ② وَالشَّمْعِ ③ وَالرَّزِقِ ④ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغِيرُ ⑤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّدَىٰ جِبْرِ ⑥ أَلَّا تَرْكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑧ ﴾

(سورة القمر)

إرم ذات العماد هي التي في الأساطير - في الجزيرة العربية - ولم نكتشفها بعد ، ولم نعرف عنها حتى الآن شيئاً ، وهي التي يقول عنها الحق :

﴿ أَلَيْسَ لَّهِ بِمُخَلَّقٍ مِّثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ⑨ ﴾

(سورة القمر)

ثم يتكلم بعدها عن فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ⑩ ﴾

(سورة القمر)

والأهرام أقامت بالفعل على أوتاد ، وكذلك السلالات المصرية القديمة والمعابد . وغيرها من العجائب التي يهت الناس في مختلف العصور .

﴿ أَلَيْسَ لَّهِ بِمُخَلَّقٍ مِّثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ⑪ ﴾

(سورة القمر)

ثم جاء بحضارة ثمود .

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ⑫ ﴾

(سورة القمر)

وقد رأينا هذه الحصارة التي كان الناس أثناءها ينحتون البيوت في الصخر ، كما رأينا حصارة مصر . وحصارة عاد هي التي لم نرها حتى الآن ، ولا بد أن تكون مطمورة تحت الأرض . ونعرف أن الهبة الرملية الواحدة عندما تهب في تلك المناطق تطمر القافلة كلها ، فما بالنا بالقرون الطويلة التي مرت وهبت فيها آلاف العواصف الرملية ، إذن لابد أن تنقب كثيراً لنكتشف حصارة عاد . والحق تكلم عن حصارة مصر القديمة فقال : (وفرعون ذى الأوتاد) ، وعندما تكلم عن موسى عليه السلام ، تكلم - أيضاً - عن المعاصرين له وكان أحد هؤلاء الفراعنة ، فقال سبحانه لموسى ولأخيه هارون عليهما السلام :

﴿ أَذْمَبْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ عَلَٰفٌ ۖ ﴾

(سورة طه)

ويذهب موسى إلى فرعون حتى يخلص بني إسرائيل من ظلم فرعون . وإذا ظلمهم فرعون ؟ نحن نعرف أن كل سياسة تعقب سياسة سابقة عليها تحاول أن تطمس السياسة الأولى ، وتعذب من تعمروا السياسة الأولى ، وتلك قضية واضحة في الكون . وهذا ما يتضح لنا من سيرة سيدنا يوسف الذي صار وزيراً للمعزى ودها أباه وأمه وشيعته إلى مصر ، ولم تأت سيرة فرعون في سورة يوسف .

وعندما تكلم القرآن على رأس الدولة ن أيام يوسف قال :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ ۚ ﴾

(من الآية ٥١ سورة يوسف)

لم يقل الحق : « فرعون » على الرغم من أنه قال قبل ذلك عنه إنه : « فرعون » وأيام موسى ذكر فرعون ، لكن في أيام يوسف لم يأت بسيرة فرعون إنما جاء بسيرة ملك . وعندما جاء اكتشاف حجر رشيد ، ظهر لنا أن فترة وجود يوسف عليه السلام في مصر هي فترة ملوك الرعاة أى المكسوس الذين خَزَوْا مصر وأدخلوا السُلْكَ من المصريين وحكموهم وصاروا ملوكاً ، وسمى عصرهم بعصر الملوك

وقال القرآن : (وقال الملك أتؤتي به) . ولم يأت بذكر فرعون . وعندما استرد الفراعنة ملكهم وطردوا ملوك الرعاة ، استبد الفراعنة بمن كانوا يقدمون الملوك وهم بؤ إسرائيل . هكذا تتأكد دقة القرآن عندما ذكر فرعون لأنه كان الحاكم أيام موسى ، لكن في زمن يوسف سعى حاكم مصر باسم الملك . وتلك أمور لم نعرفها

الإحديثاً ولكن القرآن عرفنا ذلك . وكانت تحتاج إلى استنباط . وهي تدخل ضمن الآيات التي لا حصر لها في قوله الحق :

﴿ سَتَجِدُنَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي آلَافٍ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فسبحانه ونمالي بعد أن أهد موسى بالآيات وأعرق فرعون ، هنا قال لهم موسى :

﴿ يَنْتَظِرُونَ أَذْهَبُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾

(سورة المائدة)

فقد انتهت المهمة بتخليص بني إسرائيل من فرعون ، وخلصوا أهل مصر من فرعون . وكانت الدعوة للدخول الأرض المقدسة وكلمة الأرض إذا أطلقت صارت علماً على الكرة الجامعة . ووردت كلمة « الأرض » في قصة بني إسرائيل في مواضع متعددة لمواقع متعددة .

فها هو ذا قول الله في آخر سورة الإسراء :

﴿ وَغَلَبْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرُ الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

فهل هناك سكن إلا الأرض ؟ إن أحداً لا يقول : اسكن كذا إلا إذا حدد مكاناً من الأرض ، لأن السكن بالقطع سيكون في الأرض ، فكيف يأتي القول : « اسكنوا الأرض » ؟ والشائع أن يقال : اسكن المكان الفلاني من المدن ، مثل : المنصورة أو أربحا ، أو القدس . وقوله الحق : « اسكنوا الأرض » هو لفظة قرآنية ، وما دام الحق لم يحدد من الأرض مسكواً خاصاً ، فكانه قال : ذوبوا في الأرض فليس لكم وطن ، وانساحوا في الأرض فليس لكم وطن ، أي لا توطن لكم أبد ، وستسيحون في الأرض مقطعين ، وقال سبحانه

﴿ وَقَطَعْتُهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

وحين يأتى القرآن بقضية قرآنية فلنبحث ألبتتها القضايا الكونية أم عارضتها ؟
القضية القرآنية هنا هي تقطيع بنى إسرائيل فى الأرض أما ، أى تفريقهم وتشتيتهم
ولم يقل القرآن : « أدبناهم » بل قال : « قطعناهم » وتبعد أنه جعل بينهم أوصالاً
ولكنهم معزلون فى البلاد . وعندما نراه فى أى بلد نزلوا فيها نجد أن لهم حيا مخصوصاً ،
ولا يلبثون فى المواطن أبداً ، ويكون لهم كل ما يخصهم من حاجات يستقلون بها ،
فكانهم شائعون فى الأرض وهم مقطعون فى الأرض ولكنهم أهم ، فهناك « حارات »
وأماكن خاصة لليهود فى كل بلد .

حدث ذلك من بعد موسى عليه السلام ، لكن لماذا كان الأمر فى أيام موسى ؟ قال
لهم الحق . « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » أى بعد رحلتكم مع
فرعون اذهبوا إلى الأرض التى كتبها الله لكم ونلاحظ هنا أن كلمة « الأرض
المقدسة » فيها تمييز وتحديد للأرض .

ولكن ما معنى « مقدسة » ؟ المائدة كلها تدل على الطهر والتطهير . فـ « قُدُس » أى
طهر ونزه ، ومقدسة بمعنى مطهرة . والألفاظ حين تاتى تتوارد جميع المائدة على معنى
متلاقية . ففى الريف المصرى نجد ما نسميه « القفس » أو « القادوس » وهو الإناء
الذى يرفع به الماء من الساقية ، وكانوا يستعملونه للتطهير ، فالقادوس فى الريف
المصرى هو وعاء الماء النظيف . وعندما يقال : « مقدسة » أى مطهرة .

إن من أسماء الحق « القُدُوس » ، ويقال : « قُدُس الله » أى نزه ، فإله ذات وليست
كذات الإنسان ، وله سبحانه صفات منزهة أن تكون كصفاتك ، وهو سبحانه له
أفعال ، ولكن قدسه وطهره منزهة أن تكون كأفعالك . فذات الحق واجبة الوجود
وذات الإنسان ممكنة الوجود ، لأن ذات الإنسان طراً عليها عدم أول ، وطراً عليها
عدم ثانٍ ، وهو سبحانه واجب الوجود لذاته ، والإنسان واجب لغيره وهو قادر
سبحانه أن ينهى وجود العبد . والله حياة والإنسان حيلة ، لكن أحياتك أيها الإنسان
كحياة الله ؟ لا .

إن حياته سبحانه منزهة وذاته ليست كذاتك ، وصفاته ليست كصفاتك ، فأنت
قادر قدرة محدودة وله سبحانه طلاقة القدرة ، وهو سبحانه سميع والعبد سميع ؛
لكن سمع البشر محدود وسمعه سبحانه لا حدود له .

إذن فصفاته مقدسة ، ولذلك فعندما تسمع أنه سبحانه سميع علیم فليس سمعه كسمعنا ، وله فعل غير فعلنا . وعندما يقول الحق : إنه فعل ، فعليه منزّه عن التشبيه بفعل البشر ؛ لأن البشر من خلق الله ، وفعل البشر معالجة ، ويكون للعقل بداية ووسط ونهاية ويفرغ من الأحداث على قدر الزمن . ونحن نحمل الأشياء في أزمان متعددة ويحتاج من يحمل الأشياء إلى قوة . ولكن فعل الحق مختلف ، إنه فعل بلا كن ، لذلك قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّ مِنْ لُجُوبِ ۝۱۸ ﴾

(سورة ق)

أي أنه سبحانه وتعالى منزّه عن التعب ، فهو يقول . « كن فيكون » ولذلك قلنا في مسألة الإسراء: إننا يجب أن ننسب الحدث إلى الله لا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى نعرف أن الذين عارضوا رسول الله في مسألة الإسراء كانوا على خطأ ، فقد قالوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها في ليلة ۱۹

إن رسول الله لم يدع لنفسه هذا الأمر ، لأنه لم يقل : سریت من مكة إلى بيت المقدس ، حتى تقولوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهر وتدعى أنك أتيتها في ليلة .

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : أُسْرِيَ بي . أي أنه صلى الله عليه وسلم ليس له فعل في الحدث . والفعل إذن لله . وما دام هو من فعل الله فهو لا يحتاج إلى زمن ؛ لذلك كان يجب أن يفهموا على أي شيء يحترصون . ولكننا نعرف أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يفهموا على تلك الطريقة ، لأنه سيأتي أناس من المتحذلقين للعاصرين ويقولون : « إن الإسراء كان بالروح » نقول لهم : بالله لو قال محمد للعرب : أنا سریت بروحي أكانوا يكذبونه ؟ تماماً مثلما يقول لنا قاتل : « أنا كنت في نيويورك الليلة ورأيتها في المنام » فهل سيكذبه أحد ؟ لا . إذن لقد كذب العرب لأنهم فهموا أنه أُسْرِيَ به بمعنى كامل . . أي كان الإسراء بالجسد والروح معاً ، بدليل أنهم قارنوا فعلاً بفعل ، وحدثا بحدث ، ونفلة بنفلة ، وقالوا قوهم السابق . لقد جاءت هذه المسألة لتخدم الإسلام .

إذن فـ « قلدوس » يعني مطهر ومنزه . وساعة ترى شيئاً مخالفاً لقضية العقل المرنة

بفعل الله ، ولا تقر به بفعلك أنت أيها العبد ؛ لأن العمل يتناسب مع قوة الفاعل طرداً أو هكسا . فإن كان الفاعل صاحب قدرة قوية . فزمه أقل . مثال ذلك : ينقل أردب من القمح من مكان إلى مكان ، فإن كان الذي يحمل الأردب طعلاً فلن ينقل الأردب إلا قدحاً بقدح ؛ وإن كان رجلاً ناصباً سينقل الأردب « كيلة بكيلة » . وإن كان صاحب قوة كبيرة قد ينقل الأردب كله مرة واحدة . إذن فالمرن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً . فإن كثرت القوى قل الزمن . وهات أي فعل بقدرة الله فلن يستغرق أي زمن

إذن قدس الله في كل شيء . والأرض المقدسة هي المطهرة ، وذلك بإرادة الحق سبحانه ، فمما كره أراد سبحانه أن تكون بقعة من لأرض هي الحرم ، لا يتم فيها الاعتداء على حديد أو نبات أو اعتداء بعضهم على بعض . وهل ذلك كلام كوني أو كلام تشريعي ؟

﴿أُولَئِكَ يَرْوُونَ كَلِمَاتٍ حَرَامًا آمَنُوا﴾

(من الآية ٦٧ سورة العنكبوت)

لو كانت للسألة إرادة كونية ، فكان لا بد ألا يحدث خلل أبداً وألا يعتدى أحد على أحد . وما الفرق بين الكون والتشريع ؟ إن الكون يقع لأنه لا معلوم في الأمور القهرية ، فالخلف يريد أن يكون عبداً طويلاً القامة ، فتلك إرادة كونية تحدث ولا تدخل للعبد بها . ولكن إن أراد الحق أن تكون طائعا مصلحاً ، فتلك إرادة تشريعية . والإرادة تكون تشريعية فيها إذا كان للمريد اختيار ، يصحح أن يفعلها ويصحح ألا يفعلها ، لكن الإرادة الكونية هي فيها لا إرادة للإنسان فيه وواقع على رعم أنف الإنسان .

والله سبحانه وتعالى يريد الحرم آمناً . وتلك إرادة تشريعية لأنه حدث أن أهيج فيه أناس ولم يأمنوا . ولو كانت إرادة كونية لما حدثت أبداً . لذلك فهي إرادة تشريعية ، فإن أطمعنا ربنا جمعك الحرم آمناً ، وإن لم نطمع فالذي لا يطيع يصح فيه الناس ويزرعهم ويضعفهم . فمراد الله عز ومطلوبه شرعاً « أن يكون الحرم آمناً » .

ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، فهل هذه الأرض المقدسة كتبها الله لهم

كتابة كوبة أو كتابة تشريعية ؟ إن كانت كتابة كوبة نكاد من اللارم أن يدخوها ولكنه قال :

﴿فَلَهَا مَحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾

(س الآية ٢٦ سورة المائدة)

إذن هي إرادة تشريعية وليست إرادة كوبة . فإن أطاعوا أمر الله وتشجعوا ودخلوا الأرض المقدسة فإسهم يأخذونها ، وإن لم يطيعوه فهي محرمة عليهم . إذن فلا تناقص بين أن يقول سبحانه . إنه كتبها لهم ، ثم قوله من بعد ذلك : إنها محرمة عليهم ، لقد كتبها سبحانه كتابة تشريعية . فإن دخلوها بشجاعة ولم يخافوا ممن فيها واستبسلوا ووثقوا أن وراءهم إلهاً قوياً سيساندهم ؛ فإسهم سيدخلونها ، أما إن لم يفعلوا ذلك فهي محرمة عليهم .

﴿يَنْقُومِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ تَكْرًا وَلَا تَرَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَبِرُوا غَلِيظِينَ ١١﴾

(سورة المائدة)

وجاءت الأرض هنا أكثر من مرة .

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾

(س الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

وعرفنا مراد ذلك القول والدقة هنا أنه سبحانه جاء بأمر السكن في الأرض لبني إسرائيل أي في الأرض عموماً ومكرماً عليهم أن يكونوا قطعاً ومشردين

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَوِيعًا﴾

(س الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

أي أنه سبحانه يجمعهم من كل بلد ويحيى بعد ذلك وعد الآخرة الذي جاء في أول سورة الإسراء :

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ١١﴾

(سورة الإسراء)

لأن الحق حينها قال :

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

أى أنه سبحانه وتعالى يدخل بهذه الآية المسجد الأقصى في مقدسات الإسلام .
وأوضح الحق لهم : يا أيها اليهود أنتم ستعيشون في مكان بعهد من رسولي ، ولكنكم ستفسدون في المكان الذي تعيشون فيه وميتحملكم القوم مرة أو اثنتين وبعد ذلك يسلط الله عبداً له يحوسون حلال دياركم ويشترونكم من هذه البلاد .

والحق يبلغنا : نحن أعلمنا بني إسرائيل في كتابهم ما سيحدث لهم مع الإسلام :

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَلَحَسُوا خَلْلَ الدِّبَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝﴾

(سورة الإسراء)

وبعض الناس يقولون : إن هذا كان أيام بختنصر ، ويقول لهم : انهموا قول الحق : « فإذا جاء وعد أولاهما » وكلمة « وعد » لا تأتي لشيء يسبق الكلام بل الشيء يأتي من بعد ذلك . إذن فلم يكن ذلك في زمان بختنصر . « إذا » الموجودة أولاً هي ظرف لما يستقبل من الزمان ، أى بعد أن جاء هذا الكلام . ثم هل كان بختنصر يدخل ضمن عباد الله ؟ . إن قوله الحق : « عباداً لنا » مقصود به اليهود الإيمانيون ، ويختصر هذا كان فارسياً مجوسياً .

وهذا القول الحكيم يشير إلى الفساد الأول مع رسول الله بعد العهد الذي أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أجلاهم . وهل هي تقتصر على هذه ؟ يقول سبحانه :

﴿ فإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَحَاسُوا خَلْلَ

الَّذِينَ رَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٣٠﴾

(سورة الإسراء)

ولنا أن نسأل : وهل لم يفسد بنو إسرائيل في الأرض إلا مرتين ؟ لا ، لولا أنهم لم يفسدوا في الأرض سوى مرتين ، لكان ذلك بالقياس إلى ما فعلوه أمراً طيباً ، فقد أفسدوا أكثر من ذلك بكثير . ولا بد أن يكون إفسادهم في الأرض المقصودة هو الفساد الذي صنعوه بالأرض التي كانت في حضنة الإسلام ، ومبجته قد قال : « بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأمر شديد » فها دام يوجد « عباد الله » محالو الإيمان وأعدوا العدة فلا بد أن يتحقق وعد الله ، لكن إذا ما تخلى الناس عن هذا الوعد ، فعل الناس الذين يعانون من إفساد بني إسرائيل أن يتلقوا ما قلناه الله :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَلَكْرُةً عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الإسراء)

تكان الكثرة لا ترد إلا إذا كان القوم المؤمنون على غير مطلوب الإيمان . فهذا ما تسأل بعض المؤمنين : ولماذا نجعل يا الله الكثرة لبني إسرائيل ؟ تكون الإجابة : لأنكم أيها الناس قد تختلفتم عن مطلوب العبودية الخالصة لله . وما دعنا قد تختلفنا عن مفهوم « عباد الله » فلا بد أن تحدث في تلك السلسلة العويطة التي نعرفها من عنوان بني إسرائيل . ونسأل الآن في مواجهة اليهود في مرحلة قوله الحق :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَلَكْرُةً عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فلذا كنا عباداً لله فلم يتمكنوا منا . والله سبحانه وتعالى حينما يتكلم بفضية قرآنية فلا بد أن تلي القضية الكونية مصسقة لها .

ولو استمر الأمر بلون كورة من اليهود علينا ، بينما نحن قد ابتعدنا عن منهجنا وأصبح كل تبع هواه ، لكانت القضية القرآنية غير ثابتة . ولكن لا بد من أن تلي أحداث الكون متابعة للقضية القرآنية . ولذلك رأينا أن بعض المعارفين الذين نعتقد قريهم من الله حينما جاء أحدهم خبر دخول اليهود بيت المقدس سجد لله .

فقلنا : « أتسجد لله على دخول اليهود بيت المقدس » ، فقال . نعم . صليق وينا

لأنه قد قال : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » هكذا قال الحق ، وهل يكون دخول لثاني مرة إلا إذا كان هناك خروج من أول مرة ؟ لقد حمد ذلك العارف بالله ربنا لأن قصصها القرآن تتأكد بالكوبيات ، فإذا ما قال الحق :

﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فليت المسألة أنهم لكونهم يردوا لا يعطيه الله الكرّة ولكن للقضية هي أننا عندما نكون عبداً لله حفيظة .. اعتقاداً وسلوكاً .. قولاً وعملاً نتصر عليهم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَا كَثْرًا تَنَفُّوا ﴾

(سورة الإسراء)

وهم أعياء لأنهم يديرون معظم حركة المال في العالم المعاصر . ولأنهم جميعاً في الجيش المدافع عن دولتهم . وذلك معنى بنين وأكثر نقيراً . النمبر هو ما يستمره الإنسان لتجسده ، لأن قوة ذاته قاصره عن العمل . واليهود ليسوا قوة ثانية بمفرده دولتهم ، ولكن وراءهم أهم قوى في العالم المعاصر

إذن فقول الله الحق :

﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا كَثْرًا تَنَفُّوا ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

ثم بعد ذلك يحسم الله فضيحه ويقول لليهود :

﴿ إِنَّا أَنْتُمْ أَحْسَنُ لَأَنْبِيَائِكُمْ وَإِنْ لَأَنْتُمْ فَلَهَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وهل تستمر الكثرة يارب ؟ .

لا . لها هوذا الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْهِرُوا رُجُومَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

كأن الحق يعطينا البشارة بأننا سننتصر ؛ ويكون الانتصار مرهونا بتنفيذ القاعدة التي شرعها الله بأن نكون عباداً لله حقا ، عندئذ سيكفل الله لنا تنفيذ وعده لليهود :

﴿ لِيُسْهِرُوا رُجُومَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وأشرف ما في الإنسان هو الرجاء ، وعندما نكون عباداً لله سنسوه وجوههم ، وفوق ذلك :

﴿ وَلَيَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ حَكَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَيُتَبَّرُوا فاعْلُوا تَقِيَرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

ولم يأت الحق بذكر المسجد من قبل ، لها هوذا قوله الكريم :

﴿ وَقَصَبْنَاهُ إِنْ بَنَى إِسْرَءِيلَ فِي الْكِنْتِ لِنُفِذَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَمَنَّ عُلُوًّا

كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ يُلَاقُوا

بِغُلَّالٍ الذِّيَّارِ وَكَانَ وَعْدًا مَقْعُورًا ۝ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فالحق هنا لم يأت بذكر المسجد في أول مرة . فكيف يكون دخولنا للمسجد إذن ؟ . لقد دخلنا المسجد الأقصى أول مرة في الامتداد الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - والمسجد الأقصى أيام عمر بن الخطاب لم يكن في نطاق بني إسرائيل ، ولكن كان في نطاق الدولة الرومانية ، فدخلنا المسجد أول مرة لم يكن نكايه قبيح . ولكن الحق جاء بأثره الثانية هنا والمسجد في نطاق سيطرة بني إسرائيل :

﴿وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

سنكون نحن إذن عبداً لله ذوى الهأس الشديد الذين سندخل المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة ، وجاء الحق سبحانه بالمسجد هنا ، لأن دخول المسجد أول مرة لم يكن إدلالاً لليهود ، فقد كانت السلطة السهيية في ذلك الزمن تتبع - كما قلنا - الدولة الرومانية .

ومضيف الحق من بعد ذلك :

﴿وَلْيَتَّخِذُوا مَا عَلُوا تُغْيِيراً﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وحقن نبر ما يؤمنون - أى نجعله خراباً - لا بد أن نمر مرة ليعلموا في البنيان .

وعلمنا أن نعد أنفسنا لنكون عبداً لله لنعيش وعد الأخرة وقد جعلها الله وحداً تشريعياً ، فإذا عدنا عبداً لله فسندخل المسجد وننبر ما علوا تغييراً ، والحق سبحانه وتعالى في آيات سورة المائدة التي نحن بصدد خواتمها هنا يأل بلمعة من بلاغه لسيدنا موسى بعد خروجه مع نومه من مصر ، فقال :

﴿يَنْقُومِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كُتِبَ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَبُوا خَسِيرِينَ﴾

(سورة المائدة)

وقلنا إن الكتابة هنا تشريعية وليست كونية ، فلو كان الأمر كونياً لدخلوا الأرض

القدسة بدون عقبات وبدون صراع وبدون قتال . والدليل على أن الكتابة شرعية هو قوله الحق . « ولا تردوا على أدياركم فتقبلوا عاصرين » أى أنكم إن أردتم على أدياركم انقلبتم عاصرين . فإن أطعتم الله ودخلتم الأرض دون إديار ، فستدخلون لأرض ، وإن لم تفعلوا فلن تدخلوها . إذن ليست كتابة الأرض هياكلية ، ولكنها شرعية .

وقوله الحق : « ولا تتردوا على أديباركم » يشرح لنا طبيعة مواجهة الخصم ، فالإنسان حين يواجه خصمه فهو يواجهه برجعه . فإن قرَّ الخصم من ألامه فهو يولى أدياره . والتولى على الأديبار يكون على لوفين : لون هو الإدبار من أجل أن ينحرف الإنسان إلى جماعة وقتة تشتد قوتهم ويقووا على هزيمة العدو أو يصنع مكيدة ؛ ليحيد مواجهة الخصم ، ولون آخر وهو الفراء وذلك مذموم ، ومن المعاصي الموبقات المهلكات . وفي ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ يُوْصِرْكُمْ فَبِعِزَّتِهِ لَا تَنْجِسُوا أَوْصِيَاءَكُمْ إِلَىٰ ذٰلِكَ قَدْ بَيَّأَ يَنْصِبُ

مِنْ أَهْلِ

(من الآية ١٦ سورة الأنعام)

للاارتداد على الأدبار ليس مذموماً إن كان من أجل حيلة أو صنع كمين للعدو .
وفي هذه الحالة لا بأس أن يرتد الإنسان ، أما خلاف ذلك فهو مذموم . وهل
الارتداد على الأنبل رجوع بالظهر إلى الوراء مع الاحتفاظ بالوجه في مواجهة
الخصم ؟ . أو هو الضمت بالوجه ناحية النير وفرار من العدو ؟ . كلا الأمرين
يصح . وقد جاء الأسر إلى بني إسرائيل بعدما الثور لم يدخلوا الأرض فهاذا كان
موقفهم مادامت الكتابة لهذا الأمر تشريعية ؟ .

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَٰ

فَذُخْلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا

فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾

كيف إذن يعلنون هذا التمرد على أمر الحق ؟ وكيف علموا أن فيها قوماً جبارين ؟ ولنا أن ننتبه إلى أن الحق قد قال من قبل :

﴿وَعَشْنَا مِنْهُمْ آثَىٰ عَشَرَ نَفِيًّا﴾

(من الآية ١٢ سورة النجم)

فقد ذهب النقباء أولاً ونجسوا ونقبوا وعرقوا قصة هذه الأرض المقدسة ، وأن فيها جمعة من العمالة الكنعانيين . وساعة رأوا هؤلاء القوم ، قالوا لأنفسهم : هل نستطيع أن نقاوم هؤلاء الناس ؟ إن ذلك أمر لا يصدق ! لذلك لن ندخلها ماداموا فيها . إذن فقد نحدلوا وارتدوا على أديارهم . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين .

وساعة أن نسمع كلمة «جبار» نجد أنها مأخوذة من المعصاة ، فالجبارة هي النخلة التي لا تطوعها يد الإنسان إذا أراد أن يجني ثمارها . وعندما تكون ثمار النخلة في متناول يد الإنسان حين يجني ثمارها فهي دانية الغطف ، أما التي لا تطوعها يد الإنسان لحظة الجني لثمار فهي جبارة ، لذلك أخذ هذا المعنى ليبر من الذي لا يقهر فسمى جباراً ، وقد يكون الجبار مكرهاً ولكن على الإصلاح ، وفي بلادنا نطلق على من يصلح كسور العظام «المجبرين» .

أي أنه يجبر العظام على أن تعود إلى مكانها الطبيعي . وقد يتألم الإنسان من ذلك ، ولكن في هذا إصلاح لحياة الإنسان . ود الجبار اسم من أسماء الله ، لأنه سبحانه يقهر ولا يقهر . وقد كرهت سبحانه وتعالى حتى يصلحنا ويحسبنا بالابتلاءات حتى يحسننا وتستوى حياتنا .

إذن فد «الجبار» صفة كمال في الحق لأنه يستعمل جبروته في الخير ويقهر الظالمين والمعاندين والمكابرين ، وذلك لمصلحة الأخيار الطيبين . وهو سبحانه وتعالى لا يقهر . فعندما يكون في صف جماعة فإن أحداً لا يغلِبهم ، أما الجبار كصفة في الخلق فهي مذمومة ، لأن التجبر هنا بدون أصالة كالتبناء الأجوف . فالتجبر قد يصيبه قليل من الصداق فيرقد متوجهاً .

إننا نرى أمثلة لذلك في حياتنا ، فجد المتجبر يصاب بلزمة قلبية فيعمل على معالجة

إلى المستشفى ، وبعد جباراً آخر يصاب بقليل من الغص ، فيجربى وهو مسك بيده فوضعه عليه الأطفال . ويقولون له مامعته العيب بعيداً فليست جباراً ولا فتوة ولا أى شيء . والجبار إن لواد أن يكون كذلك فعليه أن يكون صاحب رصيد مستمر ، فلا تراه يوماً غير جبار . ولا يكون التجبر صفة ذاتية إلا لله سبحانه وتعالى

ويقول الحق : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » وساعة نسمع « لن » تسبق العمل فنعرف أنها للنهي . والنهي قد يأخذ زمناً طويلاً ، وقد يأخذ زمناً تأييدياً والمقارنة بين الدخول فقط والدخول التأييدي ، أن الدخول الأول له زمن ينهيه ، والدخول الثانى لا زمن له لينهيه كدخول المؤمنين الجنة .

وإذا عين الدخول بغاية كلوصم . « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » أى أن النهي التأييدي مرتبط بغاية وهى خروج القوم الجبارين . والتأييد هنا إضائي لأنهم قالوا : إنهم لن يدخلوا الأرض فى مدة وجود الجبارين .

« فإن يخرجوا منها فإن داخلون » ونقول : وهل الأمم التى تختص إلى الشر وتمارسه تمتنع فيها وجود عناصر الخير ؟ لا ، لأن الحق يبقى بعضاً من عناصر الخير حتى لا ينطمس الخير ، وهذا ما يوصفه الحق فى بنى إسرائيل عندما قالوا لموسى هذا القول ، فقد خالفهم رجلاً منهم .

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

حق الفهم ، لأنهم لو غفلوا لأمر الله لهم بالدخول إلى الأرض المقدسة ولم ينكسوا
لكتهم الله من ذلك . لكن لم يفهم عن الله فيها إلا رجلاان . وهما كالب ،
ويوشع بن نون ، أحدهما من سبط يهوذا والآخر من سبط افرايم ، وهما ابنا يوسف
عليه السلام ، فقد قال : مادام الله قد كتب لكم الدخول ، فهو لا يطلب منا إلا قليلا
من الجهاد .

فحين يأمر الله الإنسان بحمل من الأهل ، فيكفيه أن يتوجه إلى العمل المجاهداً
والمعونة من الله . وصيحاته يقول للعبد :

(أنا عند ظن عبدي بي ، وأد معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ،
وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ غير منهم ، وإن تقرب إلى بشير تقربت إليه
فراعاً ، وإن تقرب إلى فراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)^(١) .

فلذا كان الشأن في المشي أن يتعب الذاهب والسائر ، فإله لا يريد أن يرهق بالمشي
من يقصده ويطلبه ، لذلك يُهرول فضله ورحته - سبحانه - إلى العبد . فالرغبة
الأولى أن يكون العمل لك أنت أي العبد . ومن عظام فضل الله أنه فعل ونب
إليك . وسبحانه يسعد بالعبد الساعي إليه . وأنصرب هذا المثل - والله المثل الأعلى -
لتتعرض أنك أردت أن تحمك سيفاً ، لماذا لا تحمل المسألة ؟ . السيف الذي لمسكه ،
صنعه من الحديد ، والحديد استخرجته من الأرض .
والحق قال .

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إن الحق هو الذي أنزل الحديد ، وهو الذي علمنا كيف نصقل الحديد وتشكله
بالتل :

﴿ وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتَمْتَصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

وأنا أريد من علمه وظائف الأعضاء أن يحددوا لنا ساعة أن يمكك الإنسان شيء وليكن السيف . فبلى عضلة يمكك الإنسان السيف ؟ وكيف يأمرها الإنسان بذلك ؟ . وكم عضلة وكم نخلة عصبية تحركت من أجل أداء هذا الفعل ؟ . هل الرغم من أن الإنسان بمجرد إرادته أن يمكك شيئاً . فهو يمكك به . والإنسان إذا ما مشى خطوة واحدة ، فبلى العضلات بدأ المشي .

إن الإنسان عندما يحرك ذراعاً آلياً في جهاز آلي ، يصمم عشرات الوصلات والأدوات والدورات الكهربائية من أجل تحريك ذراع آلي ، فكيف إذن من عضلات في الإنسان تتحرك بالسير خطوة واحدة ؟ إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك بمجرد الإرادة منه !! . فإذا كانت إرادة الإنسان تفعل لمجرد أن يريد سواء أكانت هذه الإرادة هي الإمساك بالسيف أم حتى المشي خطوة واحدة ، أم حتى الإمساك بالفلم بين الأصبع للكتابة . فليعلم الإنسان أن الإرادة عطاء من الله والإنسان لا يستطيع تحديد مواقع إرادته من جسده فيما يالئنا بالحق حين يريد أمراً ؟

ولنعد إلى الآية التي نحن بصدد خواطرتنا عنها الآن :

﴿ قَالَ رَبُّ الْجِبَلِ مَنْ الَّذِينَ يُخَافُونَ أَنَّمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ آذِنُورًا فَإِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِمُ قَالَ رَبُّ الْجِبَلِ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة المائدة)

لقد أنعم الله على هذين الرجلين بحسن الفهم عن الله ، فقالا لربنا إسرائيل : ساعدوا أنفسكم بدخول هذه الأرض وسينصركم الله . ومثل الرجلين كمثل الأم التي تطلب منها ابنتها أن تدهوله بالسجاح ، فقالت الأم لابنتها : ساعدوك ولكن عليك فقط أن تساعد الدعاء بالإقبال على الاستذكار . وكأن الخوف من مخالفة أمر الله نعمة على هذين الرجلين ، وكأن الفهم عن الله لعبارة نعمة .

« ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » كأنهم بمجرد الدخول سيغلبون هؤلاء العمالقة . فلم يطلب الله منهم قتال هؤلاء العمالقة . بل ساعة يراهم القوم الجبارون يدخلون عليهم فجأة فسوف يذهلهم الرعب

وهم عندما نسجوا الأساطير حول هذه القصة قالوا : « إن أحد هؤلاء العمالقة واسمه عوج بن عناق خرج إلى بستان خارج المدينة ليقطف بعض الثمار لرئيسه ، فحطفت اثنين من هؤلاء الناس وخبأهما في كهف ، وألقاهما أمام رئيسه وهو يقدم المفاكهة إليه وقال الرجل العملاق لرئيسه : هذان من الجماعة التي تريد أن تدخل مدينتنا . هذه هي المبالغة التي صنعتها حولهم من هؤلاء العمالقة ، برغم أن رجلين منها أحسن الفهم عن الله بقلوبهما . « ادخلوا عليهم الباب » ، لأن هذا هو مراد الله ، وهو الذي يحقق لهم النصر

وبعض المفسرين قالوا في شرح هذه الآية . « إن الرجلين اللذين قالوا ذلك ليسا من بني إسرائيل ، لأن هؤلاء المفسرين فهموا القول الحكيم : « قال رجلان من الذين يخافون » قالوا هما رجلان من الذين يخاف منهم بنو إسرائيل ، ونالا لبني إسرائيل : لا ينجيكم ولا يرهيبكم عظم أجسام هؤلاء ، فإن جنود الله ستصركم :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

ويختتم الحق الآية بهذا التنزيل : « وعلم الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أي لا تتوقفوا عند حساب العدد في مواجهة العدد ، والعلة في مواجهة العلة ، ولكن احسبوا الأمر إيماناً لأن الله معكم « إن تنصروا الله ينصركم » .

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

(سورة الصافات)

وعلى المؤمن بالله أن يضع هذا الإيمان في كنف قوته . فإن كان هؤلاء الناس من بني إسرائيل المأمورين بدخول تلك الأرض مؤمنين بحق فليتركوا على الله . بهذا قال هؤلاء القوم :

﴿ قَالُوا يَحْمُسُونَ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ﴾

فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا

قَعِيدُونَ ﴿٢٤﴾

كان خلاصة قولهم لموسى عليه السلام : لا تفرق نفسك معنا ووفر عليك جهنك فمحن لن ندخل هذه الأرض ، مادام هؤلاء العمالة فيها . وإن كنت مصراً على دخولنا هذه الأرض فإذهب أنت وربك فقاتلا وحي بانتظاركما ها فاصدون . وهكذا بلغ بهم الخوف أن سخرؤا من موسى ورب موسى . وهكذا وصل بهم الاستهزاء إلى تلك الدرجة المروية . ولم يكن ذلك بالأمر الجديد عليهم فقد لالوا من قبل :

﴿لَرَأَيْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾

(من الآية ١٥٣ سورة البقرة)

ومن قبل ذلك أيضاً حبسوا العجل . فماذا يقول موسى :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ

بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وكان هارون أخاً لموسى عليه السلام ومرسلاً مثله ، فكان موسى عليه السلام قد أعلن عدم ثقته في هؤلاء القوم الذين أرسله الله إليهم ، حق ولا يوشع بن تون ولا كالب ، وهما الرجلان اللذان قال لبي إسرائيل : إنه يكفى دخول الباب لتهمزوا هؤلاء الناس العمالة . لكن أكانت نفس أخيه مملوكة له ؟ أم أنه قال ما ضحواه : إني لا أملك إلا نفسي وكذلك أخى لا يملك إلا نفسه ، أما بقية القوم فقد سمعت منهم يارب أنهم لن يدخلوا هذه الأرض مادام ها هؤلاء العمالة . إذن فاما وأخى في طرف وبقيّة القوم في طرف آخر ، لذلك انفصل بينا وبين هؤلاء القوم الفاسقين .

والحق سبحانه وتعالى في هذا التعبير القرآن يأتى بهذه الكلمات على لسان سيدنا

موسى والتي تحتل أن يرق لها قلب واحد من أتباع موسى عليه السلام فيقول لموسى :
 إني معك . ولذلك جاء قول موسى . « فافرق بينا وبين القوم الفاسقين » . ومعنى
 الفاسقين - كما عرفنا - هم من خرجوا عن الإيمان ، كما فُتسق الرطبة ؛ فالبلحة
 عندما ترطب فإن قشرتها تسع من حجمها ؛ فتخرج الرطبة من قشرتها ؛ ويقال
 فسقت الرطبة ؛ فكان الإيمان كالجلد والجلد كالقشرة . وهو كخلاف يبط
 بالإنسان . وعندما يفسق الإنسان عن الإيمان فهو يخرج من قانون الصيانة ، وكذلك
 كان فسق بنى إسرائيل ؛ لذلك قال الحق .

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ
 فِي الْأَرْضِ فَلَا قَاسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١٦)

فهل كان التحريم منه أربعين عاماً ؟ أو أنه قال : « إنها محرمة عليهم » وانتهى
 الأمر لأنهم تأبوا على أن يدخلوها ؟ . ولذلك فكل الذين قالوا : « لن ندخلها أبداً
 ماداموا فيها » لم يحش منهم أحد لدخول هذه الأرض . وبعد ذلك صدر الحكم
 الآتي : « أربعين سنة يتيهون في الأرض » فهل هذا القول هو استئناف للقول السابق
 فيكون ظرفاً لـ « محرمة » . أو هو حكم منفصل ؟ .

نصح هذه ، وتصح تلك والتي هو كما نقول : فلان تاه أى سار على غير
 هدى ولا يعرف لنفسه مدخلاً ولا مخرجاً ، والواحد عندما يدخل في مجال متشعب
 المسالك ومتعرج الطرق ، فهو لا يعرف كيفية الخروج منه ، هذا هو التيه . ولكن
 كم فرسخاً هي مساحة التيه ؟ . حذوها العلماء بستة فراسخ [والفرسخ قدر ثلاثة
 أميال] . كيف يتيهون في تلك المساحة الضيقة من الأرض ؟

لقد أراد الله ذلك ؛ لأنهم ساءة بشؤون ويرهقون فينامون ولحق عليهم الصباح
 ليجدوا أنفسهم عند النقطة التي بدأوا منها ، وكانوا يضمنون العلامات لإيضاح
 الطريق ، لكنهم كل صباح كانوا يجدون العلامات قد انتقلت من مكانها . وظلوا

على هذا الوضع وفي هذا التيه إلى الأمد والوقت الذي حددته الله وهو أربعون سنة يتيهون في الأرض . وسين يذهب الله عاصياً يحفظ له من القوت والرزق ما يبقى به حياته ولو كان كافراً؛ لأنه سبحانه هو الذي استدعاهم إلى الوجود، ولهذا لم يضمن عليهم في التيه بما لم يضمن به على الكافرين به سبحانه .

إذن حفظ الحياة أمر ضروري . وعندما يرتكب إنسان ما ذنباً كبيراً في حق المجتمع فإننا نضعه في السجن ، ولكننا نطعمه ونسقيه ، وعندما يرتقى المجتمع الإنسان ، فهو يوفر للسجين عسلاً يتناسب مع مواجه ويحبس عنه حربه الحركة في المجتمع ، والسجين المذنّب يظل في السجن ، ولكنه يأكل ويشرب وينام ويعمل ، فقط تختلف المسألة في النقطة المهمة في الحياة وهي أن يتحرك المتحرك وفق حريته ، فما بالنا بالحقن الأعظم عندما مسجنهم في التيه ؟ لقد أطعمهم الله وسقاهم وأنزل عليهم المن والسلوى .

وقد يقول قائل : إن الله قد أنزل عليهم المن والسلوى ليعيشوا كسالى وغرقى في التكبر والغرور . ونقول : لا . فذلك الإجراء الإلهي من ضمن حكمه البالغة أن يطيل عليهم الوقت . فلو أنه سبحانه وتعالى قد جعلهم يزدهون ويهرثون لانشغلوا بأمور الحياة اليومية ، لكن الحق أراد أن يطيل عليهم الإحساس بالزمن . فالمسألة ليست طعماً وشراباً . ولكن هناك كرامة فوق الطعام وفوق الشراب .

إننا نرى ذلك عندما نسمع عن اعتقالات لبعض الأفراد الذين أسلموا للمجتمع . وتسمح لهم السلطات بالطعام الذي يتيهم من منازلهم . ولكن هؤلاء المعتقلين يشعرون بالضيق من تقييد الحركة . إذن أراد الحق لهم عقاباً صارماً في فترة التيه . ولذلك نجد بعضهم يحسب المسألة والزمن في فترة التيه ، فيقول الواحد منهم ما ذكره الحق :

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ رَفَمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي﴾

وبعد أن رحل موسى عن القوم عبدوا العجل الذي صنعه لهم موسى السامري ،
وعاد إليهم موسى وهاباً لئلا يارون العصب القاسي ، وعاقبهم ريبهم على كفرهم أربعين سنة .
كأن كل يوم من عبادة العجل صار سنة من العذاب في التوبة . ولأنه ربّ ورحيم لم
يتركهم دون أن يحفظ لهم حياتهم بالقوت ، فكان القوت هو المَن والسُّلوى . هل
كان موسى عليه السلام معهم في التوبة أم لا ؟ وهل مات معهم في التوبة أم لا ؟ تلك
أمثلة لا تهمنا الإجابة عنها بالرغم من أن بعض العلماء قد شغلوا أنفسهم بها ، فذلك
أمر لا تنفع ولا تضر . المهم أن بني إسرائيل لم يدخلوا أريحا إلا على يد يوشع بن
نون بعد الأربعين سنة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَنِّي فَاكِرٌ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥٦) قَالَ
فَلَهَا مَحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥٧) ﴿

(سورة المائدة)

ولنا أن نقرأ هذا القول الحكيم كما يلي : « قال ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأني
فاقرق بينا وبين القوم الفاسقين . قال فلها محرمَةٌ عليهم » . وهذا الوقت يمثلنا
الفهم بأن الأرض المقدسة صارت محرمَةٌ عليهم إلى الأبد . وبعد ذلك يأتي أمر الله
بعاقبهم في التوبة أربعين سنة . « أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم
الفاسقين » . أما لو قرأنا هذا القول الحكيم كما يلي : « قال ربّ إني لا أملك
إلا نفسي وأني فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فلها محرمَةٌ عليهم أربعين سنة
يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » فهذه القراءة تتيح لنا الفهم بأن
مدة العقوبة هؤلاء القوم الفاسقين أربعون سنة في التوبة . ودخلوا بعدها مدينة
أريحا .

ويأمر الحق موسى ألا يحزن على هؤلاء القوم الفاسقين ، ذلك أن موسى عليه
السلام عندما دعا الله بقوله « فافرق بيننا » انتابه قلدرٌ من الضيق من هذا الدعاء
وقال لنفسه : لماذا لم ادع لهم بالهداية بدلاً من أن أدهو بالفراق ؟ ، ولذلك قال له
الحق : « فلا تأس على القوم الفاسقين » أي فلا تحزن عليهم لأنهم أوفى بالعذاب
لفسفهم ومخالفاتهم

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۚ﴾

وساعة يتلو الإنسان - أي يقرأ - فهو يتكلم بترتيب ملؤه من صوره ذلك أن الإنسان عندما يرى أمراً أو حادثة فهو يرى المجموع مرة واحدة ، أو يرى كل صورة مكونة للحدث منفصلة عن غيرها . وعندما يتكلم الإنسان فهو يترتب الكلمات ، كلمة من بعد كلمة ، وحرفاً من بعد حرف ، إذن فالمتابعة والتلاوة أمر خاص بالكلام . « واتل عليهم نبأ ابن آدم بالحق » والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر . ولكن النبأ هو الخبر اللافت للنظر . مثال ذلك قوله الحق :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ آسِيَاءَ الْعِظِيمِ ۚ﴾

(سورة النبا)

إذن فكلمة « نبأ » هي الخبر المهم الشديد الذي له وقع وأثر عظيم .

« واتل عليهم نبأ ابن آدم بالحق » وساعة نسمع قوله الحق : « بالحق » فلنعلم أن ذلك أمر نزل من الحق فلا تغيير فيه ولا تبديل . ولذلك قال سبحانه :

﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا ۖ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أي أن ما أنزل من عند الله لم يلبس بغيره من الكلام ، وبالحق الجامع لكل أوامر الخير والنواهي من الشر نزل . وعندما يقول سبحانه : « واتل عليهم نبأ ابن آدم بالحق » فسبحانه يحكي قصة قرآنية تحكي واقعة كونية . وما دام الله هو الذي يقص فهو سيأتى بها على النموذج الكامل من الصدق والمائدة . ولذلك يسميه سبحانه « القصص الحق » :

﴿إِنْ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾

(من الآية ٦٢ سورة آل عمران)

وَيُسَمِّيه سبحانه :

﴿يَمُنُّ بِذُنِّكَ أَحْسَنَ أَنْصَحٍ﴾

(من الآية ٣ سورة يوسف)

وسبحانه يقول : « واتن عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » ونعرف أن آدم هو أول الخلق البشري ، وأن ابني آدم هما هابيل وقابيل ، كما قال المفسرون . وقد قرب كل منهما قرباناً . ولقن ان هو ما يتعرب به لعبد إلى الله ، ود قربان « على وزن « فعلان » . فيقال : « كفرو كفراً » ود عقر عُمراناً . وهي صيغة مألوفة في الحديث . وهل قُدم الاثنان قرباناً واحداً ؛ أم أن كلا منهما قُدم قرباناً خاصاً به ؟ مادام الحق قد قبل من واحد منهما ولم يتقبل من الآخر لمعنى ذلك أن كلا منهما قُدم قرباناً منفصلاً عن الآخر ؛ لأن الله قبل قربان واحد منهما ولم يتقبل قربان الآخر .

وه القربان « مصدر . والمصادر في التثنية وفي الجمع وفي التذكير والتانيث لا يتشبه نطقها أو كتابتها فنحن نصف الرجل بقولنا : « رجل عدل » وكذلك « امرأة عدل » ود رجلاً عدل « ود امرأتان عدل « ود رجال عدل « ود نساء عدل « إذن فالمصدر يستوي فيه المرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث ونعلم أن آدم هو أول الخلق الأدمي ، وجاءت له حواء ؛ وذلك من أجل اكتمال زوجية التكاثر ، لأن التكاثر لا يأتي إلا من ذكر وأنثى :

﴿وَمِنْ كُلِّ نَوْءٍ جَفَقَا زَوْجَيْنِ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الباقعات)

فكل موجود أراد له الحق التكاثر فهو يحقق منه زوجين .

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِثُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ونرى ذلك حين نقوم بفتح السخلة من طلع ذكر السجل . وهناك بعض الكائنات لا نعرفها ذكراً وأنثى ، إما لأن الذكر غير موجود تحت أعيننا ، ولكن يوجد على بعد والرياح هي التي تحمل حبوب التلقيح :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

لنأتى الريح بحبوب التلقيح من أى مكان لتخصب البساتين ، وإما أن الذكورة والأنوثة يوجدان معاً فى شيء واحد أو حمز واحد ، مثال ذلك عود الذرة : حيث نجد ذكوره وأنوثة فى شيء واحد ، فقمّة العود فيها الذكورة ويخرج من كل « كرز » ذرة قدراً من الحبوب الرفيعة التي سميها « الشوشة » . وهذه هي حبال الأنوثة . ويقل الهواء طلع الذكورة من مسلة الذرة إلى « الشوشة » ، وكل شعرة تأخذ من حبوب اللقاح كمايتها لتتضج الحبوب ، وعندما تلتصق أوراق كور الذرة ولا تسمح بخروج الحبوب الرفيعة لحبال الأنوثة ، ولا تصلها حبوب اللقاح ، فيخرج كور الذرة بلا تضج وبلا حبوب مرة . وعندما تحسك بكور الذرة ويفتحه قد نجد بعضاً من حيوه ميتة وهي تلك التي لم تصلها حبوب اللقاح ، لأنها لم تمك خيطاً من الحبال الرفيعة لالتقاط به حبوب اللقاح . وجبة الذرة التي لم يخرج لها خيط رفيع لالتقاط حبوب اللقاح لا تنضج إذن فكل شيء فيه الذكورة والأنوثة .

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

وكذلك قوله : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى)

وكل ما يقال له شيء لا بد له من ذكر وأنثى ، حتى المطر لا بد أن يلقح فلور لم يتم تلقيح أنظر بالسرّات لما نزل المطر ، وحتى الحصى فيه ذرات موجبة وذرات سالبة . وعندما اخترعنا الكهرباء واكتشفنا الموجب والسالب ارتعنا . إذن فعندما يقول الحق :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(سورة الذاريات)

وقوله سبحانه :

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ﴾ (١٥)

(سورة يس)

وهذا أول علم للعرب ، فلم يكونوا من قبل القرآن أمة علم .

وقد أوصل القرآن كل العلم للحرب حتى فاقوا غيرهم ، عندما أدخلوا بأسباب
الله ، لكن عندما توسعوا وواصل غيرهم الأخذ بالأسباب تقدمت الاكتشافات ،
وهذه الاكتشافات تجدنا مطمورة في القرآن :

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ﴾ (١٥)

(سورة يس)

إذن فكل ما يحدث ويكتشف من شيء فيه موجب وسالب أي ذكورا
وأنوثة ، يدخل في نطاق

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

والإنسان سيد الوجود لا يد له من روجين ذكر وأنثى وذلك للتكاثر لا للإيجاد ،
أما الإيجاد فهو لله سبحانه وتعالى الذي أوجد كل شيء من لا شيء . وعندما جاء آدم
وحواء وبدأ اللقاح والتكاثر أخذ عدد سكان الأرض في النمو . ولو أننا رجعنا
بالإنسان في العالم كنه رحمة متأخرة نجد العدد يقل إلى أن يصل إلى آدم وحواء .
مثال ذلك لو عدنا إلى الوراء مائة عام لوجدنا تعداد مصر لا يتجاوز خمسة ملايين
نسمة هل الأكثر ، ولو عدنا إلى الوراء قرونًا أكثر فإن التعداد يقل ، إلى أن نصل إلى
المخلوق الأول الذي خلقه الله وهو آدم وخلق له حواء . فالإنسان بمفرده لا يأتي
مسل .

إذن عندما نجرى عملية الإحصاء للإنسان في العالم ويرجع بها إلى الوراء ، نعود

إلى الخلق الأول وكذلك كل شيء متكاثر سواء أكان حيواناً أم نباتاً . وعندما نسير بالإحصاء إلى الأمام فإننا نسجد الأعداد تتزايد ، وتكون الفقرة كبيرة . وعندما يبلغنا الحق أنه خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منها رجالاً كثيراً وساء ، فإن علم الإحصاء إنما يؤكد ذلك . والتكاثر إنما يأتي بالتزاوج . والتزاوج جاء من آدم وحواء . وأراد الحق أن يورق آدم بتوالم ليتزوج كل توأم بالتوأم المخالف له في النوع من الحمل المختلف . أي يتزوج الذكر من الأنثى التي لم تولد معه في بطن واحدة .

وجاء ربنا لنا بهذه القصة كي يبين لنا أصل التكاثر بياناً رمزياً . أشرح سبحانه : أن التباعد الزوجي كان موجوداً ، ولكنه التباعد الإضافي ، صحيح سيكون هذا الولد أمّا للبنت هذه ، وهذه البنت أخته ؛ لكن حين تكون مولودة مع هذا ، وتأتي بعن ثاني فيها ذكر وأنثى ، فسبكون فيها بُعد إضافي ، فتتزوج البنت هذا البطن بالذكر في البطن الثاني . والذكر للبطن الثاني للبنت في البطن الآخر ، وهذا هو البعد الإضافي الذي كان متاحاً في ذلك الوقت ، لأن العالم كان لا يزال في بداية طفولته الواهية

ونلاحظ مثل هذا الأمر في الريف ، حين يقول فلاح لآخر : « الذرة بتاعتك غايب » ، يقول الفلاح الثاني . إلى أحد من الأرض التي أخذت منها الذرة وأعطيتها تقاوى منها ، فأننا قد زرعنا مدافاً من ذرة ، وأحجر كيلتين أو ثلاثاً استخدمنا تقاوى لأزرحها ، فخرجت الذرة ضعيفة ، فيقول الفلاح الناضج : يا شيخ هات من ذرة جارك . فيكون ذرة جاري فيه شيء من البعد . وبعد ذلك تصير النوعة واحدة ، فيقول الفلاح الناضج : هات من بلد أخرى . وبعد ذلك من بلد ثالثة ، ولندرك فالتهمجين والتكاثر كيف نشأ ؟ من أين تأتي بالتقاوى ؟ كلها جنبنا بها من الخارج يكون النتائج قوياً .

كذلك التزاوج ليكون في هذه الزوجية مواهب ، ولذلك فطن العرب قديماً لها ، ومن العجيب أن هذا العرب البدوي الذي لم يشتغل بثقافة ولم يعرف له تعلماً ولا علماً ، يبتدى إلى مثل هذه الحقيقة اهتداءً يحملها قضية عامة فطرية . ويريد أن يمدح رجلاً بالفتوة ، فيقول عنه :

ففي لم تله بثث هم فيضوى وقد يصري سليل الاقارب

كيف انتهى هذا الشاعر طله ١٢ وبعد ذلك يقول:

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة إلى
خافة أن يضوى على سليلها
أي هو بجها ، لكنه تجاوزها ، حتى لا يضوى سليلها .

ولذلك يقول الشاعر في هذه النضية :

أتصح من كان يمد لهم
تزويج أولاد بنات العم
فليس ينجو من ضوى ومقم

الشاعر العربي الذي ليس في أمة متقفة ولا تعرف التهجين ولا تعرف هذه الأشياء ، انتبه إلى هذه المسألة ، كيف ؟ إما أن يكون قد انتهى إليها في واقع الكون فوجد أن زواج القرينات يُضوّي نسلاً ضميماً ، وإما أن يكون ذلك من رواسب الديانات السابقة القديمة والعنات الأولى التي ظل الإنسان محتفظاً بها ، فإذا أراد الله أن يبدأ تكاثر قلابه أن يتزوج أخ بـأخته ، ولكن سبحانه يريد أن يتباعد ، نعم أخ وأخت لكن يتباعد فتأخذ البطن المختطف ، ولذلك حينما جاءوا لينسبوا قصة ابني آدم قابيل وهابيل ، صحيح اختلفوا . مثلاً : « سقر التكوين » تكلم ، ونحن تأخذ من « سمر التكوين » لأن التفسير فيه لا يهمهم . فقد كان التفسير في المسائل التي همهم ، كمسألة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما المسائل الأخرى لا تهم ، ومع ذلك ففيها أيضاً الكثير .

إنهم يقولون : إن هابيل هو أول قتل في الإنسانية وقتله « قابيل » وبعض القصص تقول : لم يكن يعرف كيف يميت أو يقتله ، فالشيطان مثل له بأنه جاء بطير ووضع رأسه على حجر ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسه حتى قتله ، فعلمه كيف يقتل ، مثلاً سبأى الغراب وبعلمه كيف يدفن ، أما مسألة كيف يقتل هذه م نأت هذا ، إنما كيف يدفن فقد جاءت عندنا .

﴿ فَجَعَلَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ سَوَةَ أَخِيهِ ﴾

فهذه هو أول من نوى وقتل ، لكن كيف تقولون : إنه لم يكن يعرف القتل حتى جاءه الشيطان وعلمه كيف يقتل أخاه ؟ نقول : أنتم لم تتبهروا ، فالحق قال :

﴿لَيْنَ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ
لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨)

قبايل - إذن - فاهم المقتل ، فلا تقل إنه تعلم القتل ، صحيح مسألة الدين هذه جديدة ، والقصة جاءت لتثبت لنا كيف بدأ التكاثر ، ليجمع الله فيه بين الزوجين البعد الإضافي ، لأن البعد غير الإضافي غير ممكن في هذا الوقت فتكون هذه بالنسبة لهذا أجنبية ، وهذا بالنسبة لهذه أجنبي إلى أن يتوسع الأمر ، وبعد ذلك يُعاد التشريع بأن الأخت من أي بطن محرمة على أخيها محرماً أبليها ، وبعد ذلك تتوسع في الأمر وتنقل إلى المحرمات الأخريات من النسب والرضاع فلا بد أن هذه القصة أصلاً هم قالوا تقرب قريباً . . . لماذا ؟ وإذ قريباً قريباً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ،

لماذا يريدان أن يُقرباً قريباً ؟ قالوا: إن أخت قبايل التي كانت في بطن معه كانت حلوة وجميلة ، وأخت هابيل لم تكن جميلة ، فطبقاً لقواعد التباعد في الزوجية كان على هابيل أن يأخذ أخت قبايل ، وقبايل يأخذ أخت هابيل ، فحسد قبايل أخاه وقال : كيف يأخذ الحلوة ، أنا أولى بأختي هذه . وكان سيدنا آدم مازال قريب العهد بالرحى ، فقتل : قربوا قريباً وانظرو . لأنه يعلم جيداً أن القربان سيكون في صف التباعد . إذ قريباً قريباً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . وبعض المفسرين يقول : والله نحن لم نعرف طريقة التقبّل هذه . نقول له : فلتنبهت عن «قربان» في القرآن . فنظروا ما هو القربان ؟ قد وردت هذه الكلمة في القرآن في أكثر من موضع . قال :

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ بِرُسُلِهِ حَتَّى يَأْتِيَ بَرْكَانَ تَاكُلُهُ النَّارُ﴾

(من الآية ١٨٢ سورة الأحقاف)

والحق يقول لهم ردوا عليهم :

﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِى بِآيَاتٍ وَبِأَلَدَى قُلْتُمْ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

« وبالنزى قلتم ، ما هو ؟ إنه القربان الذى تأكله النار . إذى كان القربان معروفاً والاحتكام إلى قربان وتأكله النار علامة التقبل من السماء ويكون صاحبه هو القرب ، والقربان فى مسألة هابيل وقابيل لكى يعرف كل منهما من يتزوج الحلو ومن يتزوج الآخرى ، وتقبل الله قربان هابيل . لكن أرغى المهزوم ؟ لا ، بل حَسَدَ ، وهذا أول تاب على مُرادات الحق فى تكليفه . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقالت لنا القصص : إن هابيل كان صاحب ضرع أى ماشية وبذلك يكون عنده رُبْد ولبن وجبن ، وحيوانات للحوم ، والثانى صاحب زرع ، وقالوا : إن قابيل قَدَّم شِيار زوجه ، وهابيل قَدَّم حيار ماشيته . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . « قال لاقتلتك » وسبحانه قال . « أحدهما » ولم يقل قابيل أو هابيل ، « إذى قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . فقلوه : « قال لاقتلتك » من الذى قال ؟ الذى قال هو من لم يتقبل قربانه ؛ لأنه لم يحقق مُرادَه وعرضه

« قال لاقتلتك قال إنما يتقبل الله من المتقين » . وهل هذا الرد مُناسب لقوله : « لاقتلتك » ؟ نعم ؛ لأن « لاقتلتك » سبب أن قربانك قُبِل وقربانى لم يُقبل . قاله فما دخل أنا هذه العملية ؟ ادخل فى العملية للقابيل للقربان ، فأننا ليس لى دخل فيها ، وربنا لم يتقبله لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين . وهو يعلم أنك لست بمُتقى ؛ فلن يتقبل منك لأنك تأييت عن حكاية الزواج بابتة البطى المخالف ، وهذا أول مُرد على منهج الله وعلى أمره لذلك قال هابيل . لا تُلْمِزنى فأننا لا دخل لى فى القربان المُقبل ؛ لأن هذا من عند الله . والله لم يظلمك ؛ لأن ربنا يتقبل من المتقين . وأنت لست بمُتقى ؛ لأنك لم تُرضَ بالحقم الأول فى أن تبعد البطون « إنما يتقبل الله من المتقين » .

﴿ لَهَا يَسْطَىٰ إِلَيْكَ يَتَّقُنَىٰ مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَىٰ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ

الْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾﴾

(سورة المائدة)

وكلمة « البسط » ضد « القبض » ، وهناك : « بسط له » ، « بسط إليه » .

ونحمد « بسط له » كأن البسط لصالح المبسوط له .

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ ۖ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

ولم يقل : « إلى عباده » بل قال . « لعباده » ، إذن فالبسط لصالح المبسوط له ولذلك لا يكون يالئ إلا في الشر ، وشرحا من قبل هذه المسألة في قوله الحق :

﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكَ أَيْبِهِمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة المائدة)

إذن فالذي يسط لك يعطيك نفعا والذي يسط إليك يكون النفع له هو .

« لكن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك » . ويُسْت « لتقتلني » مدلول « إلى » . والملة لا حيز من مقابلة قوتك بقوة ، لا ، وإنما لأنني أخلف الله ، وليس في هذا تقصير في الدماغ عن نفسي لأنني أريد أن أحنئك تحنيئا يرجعك إلى ضواييك . وساعة يأتي واحد يريد أن يقتل واحداً يقول له . والله لن أقتلك لأنني أخلف ربنا .

إذن فحين له أن يخوفه من الله مسألة مُستفزة في الذهن حتى ولو كانت ضد استبقاء الحياة ، وقد يمر بها في نفسه لأن أخاه كان يستطيع أن يقدم دفاعاً قويا ، لقد رد الأمر إلى الحق الأعلى . فلا تفل كان هابل سلبيا لا إنه صعد الأمر إلى الأقوى . ويقول الحق :

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ آبَائِي وَإِيَّاكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ

النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾

« لا تبوء » أي ترجع من صفة قتل بأن تحمل إثم تلك القطة وتقال عقوبتها .

وه «إثمتك» وكذلك الإثم الذي كان من أجله أنك أردت أن تقتلى ؛ لأنك تأييت على المسيح ، حين لم يتقبل ربنا قربانك . فقد أنمت في عدم قبولك التباعد المطلوب في الزوجية . إذن فأت عنك إثتان : الإثم الأول : وهو رفضك وعدم قبولك حكم الله ومنهجه وهو الذي من أجله لم يقبل الله قربانك ، والإثم الثاني : هو قتل وأنا لا أدخل لي في هذه المسألة ؛ لأن الظالم لا بد أن يأخذ جراه .

إن هابيل يقول : «إني أريد أن نبوء بإثمي وإثمتك» لم يمن أن يكون أخوه عاصياً . بل قال : إن كان يعصى بهذه نبوءة بإثمي ويأخذ جراه ؛ فيكون قد غنى وأراد له أن يعود إلى العقاب ربنا إن فعل وهو لا يريد أن يفعل .

«إني أريد أن نبوء بإثمي وإثمتك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين» وجزاء الصالحين تربية عاجلة للترغيب أمام شعارات الظلم من الظالمين ؛ لأن الحق لو تركها للأخرة لاستشرى الظلم ، والذي لا يؤمن بالأخرة يصبح مهترعاً للظلم ، ولذلك قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى ضرب لنا ذلك المثل في سورة «الكهف» حينما ذكر لنا قصة ذي القرنين : الذي آتاه الله من كل شيء سبباً فاتبع سبباً ، وبعد ذلك بين لنا مهمة من أوق الأسباب واتبع الأسباب ، وجعل قصته في الأرض لعبارة الكون وصلاحه ، وتأمين المجتمع . ماذا قال :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الكهف)

هذا في رأي العين ، فعين تكون راكباً البحر . ترى الشمس تغرب في الماء ، هي لا تغرب في الماء ؛ لأن الماء هو نهاية امتداد أفقك .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾

قَدْ نَالُوا الْقَرْبِينَ إِمَّا أَنْ يُعَذِّبَهُوَ إِمَّا أَنْ تُخَذِّفَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٧﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد خبره : إما أن تعمل هذا وإما أن تعمل ذاك .

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ذلك هو القانون الذي يجب أن يسير في المجتمع حتى لا أترك لمن لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالآخرة أن يستشري في الظلم . فلْيأخذ عقابه في الدنيا .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الطه)

أي قبل الآخرة لهم عذاب ولولئك حين يرى المصير مصراع الظلم ، أو ترى الحقيقة التي حدثت له فهم يأخضون من ذلك العظة ، وجئنا نحن عاصم ظالمين كثيرين نكل بعضهم ببعض ، ولو مكَّن المظلومون منهم ما فعلوا بهم ما فعله بعضهم ببعض ، ولراد الحق أن يجري عذابهم أمامنا لتضخ المسألة .

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ولا ينتهي أمره بذلك ، وبعد ذلك يُردُّ لمن ؟ يُردُّ لله :

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَمَعْدَبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

يعني عذاب الدنيا، إن عذابها سيكون محتملا لأنه عذاب سوط بقدرة العاجزين ، إنما العذاب في الآخرة فهو بقوة القادر الأعلى .

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَمَسْقَرٌ لَهُ مِنْ ءَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾

(سورة الكهف)

تلك هي مهمة الله القوى المتين . إن الذي يظلم بضربه على يده ، والذي يحسن عمله يعطيه الحوائز .

والحق يقول هنا في الآية التي نحن بصدد شرحها عنها :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ مَا أَصْبَحَ

مِنَ الْخَيْرِ ﴾

ولا يقال : طوعت اشيء إلا إذا كان الشيء متائيا على المعص ، فلا تقل : أنا طوعت الماء ، إنما نقول ، طوعت الحديد ، ونحوه . « فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ » فهل نفسه هي التي سقتل وهي نفس التي طوعت ؟

ولست به هنا أن الإنسان فيه ملكتان اثنتان : ملكة فطرية تُحِبُّ الحق وتُحِبُّ الخير ، وملكَة أمورية محاذية للهوى ، فالملكتان تتصارعان .

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ » كأن النفس الشريرة الأهوائية تغلبت على الخيرة ، فكان هناك تمهيدا وتصارعا وتنافعا ، لأن الإنسان لا يحب الظلم إن وقع عليه . لكن ساعة يتصور أنه هو الذي يظلم غيره فقد يقبل على ذلك .

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ » إنه لا يزال فيه بقية من آثار النبوة ؛ لأنه قريب من آدم ، ولا تزال المسألة تتأرجح معه ، والشر من الأخيار ينجس ، والشرق الأشرار يصعد . فقد ثأن لرجل طيب وتثبر أعصابه فيقول : إن رأيته لأصربه رصاصة أو أصدعه صمعتين ، أو أؤبّعه ، والشرير يقول : والله إن قابلك أبصق في وجهه ، أو أصربه صمعتين ، أو أصربه رصاصة . إذن فالشر عند الشرير يتصاعد ، وبعد العملية لا تكفى للمغضب عنده فيصعدها . إنما نفس الخير تُنْقِصُ من غضبها وبعد ذلك ينزل عنها بكلمة ، ولذلك فلاحظ في سورة مائدة : يوسف :

﴿ إِذْ نَالُوا الْيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا فَأَتَيْنَا مِنْهُ خُصْمَةً ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

والمعجب أنهم جاءوا بالتعليل الذي ضدهم ، كي يعرفك أن الهوى والمغضب والحسد والحقد تغلب الموزين ، « ونحن عُصبة » هذه تدل على أنهم أقوياء . وهي التي جعلت أباه يعقوب يعطف على الصغير . أنتم تقولون : « ليوسف وأخوه أحب

إلى أبينا ما ، نعم ؛ لأنه صغير ، وسألوا العبري . مالت تُحب الولد الصغير ، قال :
لأن أباهم الأصغر الأهم معنى ، الكرم مكث معنى طويلاً ، فلما أعرض للصغير الأيام التي
فاته بعض الحب وأعطيه بعض الحنان ، قولهم . « نحن عصبية » هذه ضدهم ، بما
يبدل على أن الرجل ساعة تختلط عليه موازين القيم ، يأتي بالحجة التي ضده ويظن
أنها معاً وبعد ذلك يقولون :

﴿ إِنْ أَبَانَا لَيَسَلَّنْ مُبِينٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

وانفقوا . فبدأوا بقطم :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

وقالوا :

﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

ولأنهم أسباط وأولاد يعقوب تنازوا عن القتل والترح في الأرض وقال قائل
منهم :

﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي حَيِّتٍ أَلْحَبٍ يَلْتَغِيَهُ بِعُضُ النَّيِّرَةِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يوسف)

وهل يرتب أحد النجاة لمن يكرهه ؟

كان النفس مازل فيها خير ، فلولا لئلا : « اقتلوا يوسف » هذه شدة الغضب . أو
« اطرحوه أرضاً » يطرحوه أرضاً فقد يأكله حيوان معتصم ، فقال واحد : نلقه في
غياة الحب ويلتغيه بعض السيارة ، إذن فالأحيار تتنازل .

« بطوحت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » . ونعرف الخسران في
قضية التجارة ؛ لأن هناك مكسباً وهناك خسارة ، ومع مكسب ، أي جاء رأس المال

بزيادة عليه ، وه الخسارة ، أى أن رأس المال قد قُل ، فلماذا قتل أخاه وكان أخوه الوحيد وكان يأتس به في الدنيا ؟ إن هذا حدث من حكمة البعث . فقد أراد أن يأخذ أخاه الخلو ويترك الأخرى ، ولما قُذما القريان ولم يقبل منه تصاعد الخلاف وقتل أخاه ، إذن فَقَد رأس المال ، بينما كان يريد أن يكسب « فأصبح من الخاسرين » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ
كَيْفَ يُورَى سَوَاءٌ أَيْغِيهِ قَالَ يَتَوَلَّى أَعْمَجِرْتُ
أَن أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَى سَوَاءٌ أَخِي
فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾

ونعرف السوءة وهي ما تنكره النفس . وهي من « ساء ، يسوء ، سوء » أى يتكره ، وسينا « الغورة » سوءة ، لأنها تنكره .

« فبعث الله غراباً يبحث في الأرض » . من بعث الله حتى يرى قايلاً كيف يورى سوءة هابيل ، أم أن الغراب هو الذى سبقول له ؟ كلا الأمرين متساو ، لأن ربنا هو الذى بعث ، فإن كنت تنتظر للوسيلة القريبة فيكون الغراب ، وإن كنت تنتظر للوسيلة الباعث يكون هو الله ، فالمسألة كلها واحدة لله ، وأنت حين تنسب الأسباب تجدها كلها من الله .

« قل يا ويلتى » . ساعة تسمح كلمة « يا ويلتى » يكون ما معنيان في الاستعمال : المعنى الأول للويل : هو الهلاك ، وإن أردنا المبالغة في الهلاك نأى بناء التثنية ونقول : ويلة ، ولذلك عندما نحب أن نبالغ في وصف عالم نقول : ملان عالم وفلان عالم وفلان غلامه ، وتأتى التاء هنا لتؤكد المعنى ، إذن فالويل : الهلاك ، و« ويلة » تعنى أيضا الهلاك ، وماذا تعنى « يا ويلتى » ؟

إننا نعرف أن النداء يكون بـ « يا » فكيف ننادى الويل والهلاك ؟ ومن ينادى غير العاقل ؟ نعم ، ينادى ؛ لأنه مادام « الويل » و« الويلة » . الهلاك . كأنك تقول : أنا لم أعد أطيق ما أنا فيه من الهم والغم ، ولا يخلصني فيه إلا الهلاك ، يا هلاكى تعال فهدأ وقتك ! إذن فقوله « يا ويلتى » يعنى يا هلاكى تعال ، والمسى فطن طله المسألة وقال .

كمى بث داء أن ترى الموت شهيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فأى داء هذا الذى تقول فيه يارب أرحمى بالموت !! إذن فابدى براه من ينادى الهلاك هو أكثر من الموت . المعنى الأول : أنك تنادى الهلاك أن يحصر ، ولذلك يقول الحق

﴿ وَرَضِعَ الْكُتُبُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُتَفِئِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا
الَّذِينَ لَا يَحْدُرُ صَعِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا أَتَحَنَّنَا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

إنهم يتمنون الموت ، وكذلك قال قابيل . « يا ويلتى »

وهل تأتيه الويلة عندما يظنها ؟ لا ، فقد انتهت المسألة وصار قاتلاً لأخيه .

والمعنى الثانى : أن تلقى « يلويلتنا » بمعنى التعجب من أمر لا تعطيه الأسباب ، وهناك فرق بين عطاء الأسباب وبين عطاء المسبب . فلو ظل عطاء الأسباب هو التحكم فى نواميس الكون ، لكان معنى هذا أن الحق سبحانه قد راول سلطانه فى ملكه مرة واحدة ، وكأنه خلق الأسباب والنواميس وتركها تتحكم ونقول لا فطلاقة القدرة خلقت الأسباب ، وهى تالى لتثبيت ذاتية القدرة وقبوميتها ، فبقول الحق حينما يشاء : قوهى يا أسباب .

إذن فهناك أسباب وهناك مسبب . والأمر المعجيب لا تعطيه الأسباب . وحين لا يعطى السبب يتعجب الإنسان ، ولذلك يرد الأمر إلى الأصل الذى لا يتعجب منه . وما هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما جاءه الضيوف وقدم لهم الطعام

ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ونفر منهم ولم يأنس إليهم وأوجس منهم جيفة
ويقول الحق عن هذا الموقف :

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ جِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ طَيِّبٍ ۖ فَذَنَّبَتْ امْرَأَتُهُ فِي
صُرَّةٍ مَضَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ بِجُرْزٍ خَفِيمٍ ۚ ﴾

(سورة الدانيات)

وقال الحق أيضاً في هذا الموقف .

﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَاتِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِصْحَاقٍ وَمِنْ وَرَاءِ إِصْحَاقَ يَعْقُوبُ ۚ ﴾

(سورة هود)

وهنا قالت امرأة سيدنا إبراهيم

﴿ يٰٓأَيُّهَا الْمَلَأَتْ لَبًا بِأَبْنَاءٍ ذَكَرْنَاهُمْ وَهُمْ حَبِيبُونَ ۖ هَٰؤُلَاءِ بَشِيرَةٌ لِّكَ إِنَّا فَاعِلُونَ ۚ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة هود)

أي أن الأسباب لا تعطى ، وزدت إلى السبب . (أتعجبين من أمر الله ؟ كان
لك أن تتعجبين من الأسباب لأنها تعطل ، أما حين تصل الأسباب إلى الله ،
فلا عجب .

وقال سيدنا زكريا عليه السلام مثل قولها : فحين رأى السيدة مريم وهو الذي
كملها ، وكان يحىء لها بمظلمات مقرونت حياتها ، وفوحىء بأن عندها رزقا من
طعام وفاكهة . فسألها .

﴿ يٰٓمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا ۚ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

كيف يقول بما ذلك ؟ لا بد أنه رأى شيئا عندها لم يأت فؤاده ، وهنا ردت عليه
لتبنيه بالحقيقة الخالدة

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۚ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة آل عمران)

ويشأه الحق أن تقولها سيدتنا مريم وهي صغيرة السن ، وكأنها تقول ذلك كتهديد ؛ لأنها - كما قلنا سابقا - ستعرض مسألة لا يمكن أن يحلها إلا المسبب ، وسوف تلك بدون رجولة ، وهي مسألة عجيبة ، لذلك كان لا بد أن نعلم هي رأت تنطق

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

وكان الحق يستنها صمداً بأن عليها أن تتذكر أنها هي التي قالت هذه الكلمة ؛ لأن المستقبل سوف يأمر لك بأحداث تحتاج إلى تذكر هذا القول وهي التي تذكّر سيدنا زكريا عليه السلام بهذه الحقيقة . ولتردقة إشارة القرآن إلى الموقع الذي ذكرت له مريم فيه تلك الحقيقة

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

كان ساعة سمع هذه المسألة قرر أن يدعو الله بأسمائه في المحراب نفسه وهل كان سيدنا زكريا لا يعرف تلك الحقيقة ؟ كان يعرف ، ولكن هناك فرق بين حكم يكون في حاشية الشعور ، وبين حكم يكون في بؤرة الشعور

وقول مريم لزكريا : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » جعل القصة تنتقل من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

لماذا لم يدع ربه من البداية ؟ كان سيدنا زكريا سائراً مع الأسباب ورقابة الأسباب قد تذهل وتشتغل عن المسبب ، وعندما سمع من مريم : « يرزق من يشاء بغير حساب » أراد أن يدخل من هذا الباب ، فدعا ربه ، وبشره الحق بأنه سيأتي له بولادة ، وتعجب زكريا مرة أخرى من هذا الأمر شامحاً حالته :

﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَائِرٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة آل عمران)

ومادمت يا زكريا قد دعوت الله أن يهبك الذرية وقصرت قصبه ورق الله لحى يشاء
من حاشية شعورك إلى بؤرة شعورك . فقد جاء أمر الله :

﴿ كَلَّا نِكَ قَالَ رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

إذن فلا بحث في الأسباب والمسببات فهي إرادة الله ويوضح الحق حيثيات
« إن الله يورق من يشاء بغير حساب » ويأتيك بالولد ، يقول سبحانه :

﴿ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

وكل هذه مقدمات من مريم ومن سيدنا زكريا الكفيل لها ؛ ذلك أن سيدنا زكريا
سوف يكون عنصراً شاهداً عندما يأتيها الولد من غير أب وتلد ، وهو كفيل لها ،
وهو الذي سيتعرض لهذا الأمر .

ولماذا كل هذا التحديد ؟ لأن حرق الأسباب وحرق لبراميس وحرق الشئس إنما
حدثت في أمور أخرى غير العرص ، لكن عند مريم سيكون ذلك في العرص وهو
أقدس شيء بالنسبة للمرأة ، لذلك لابد من كل هذه التحديدات . إذن ، هو أمر
عجيب لكنه ليس بعجيب على الله .

وها هوذا قابيل يقول : « يا ويلقى أحجرت أن أكون مثل هذا العراب ؟ كان
عملية العراب أظهرت لقابيل أنه لم يعرف شيئاً يفعلته الطائر الذي أمامه ، فها هي
دى مسألة يفعلها غراب ولا تفعلها أنت يا قابيل ، لقد امتلكت قدرة لتقتل بها
أخاك ، لكنك عاجز أن تعمل مثل هذا الغراب . فقابيل لا يقول - إذن - لا بعد أن
مرّ بمعنى نفسي شديد قاسٍ على وجدانه .

لقد قتل على أخيه وقتله وهو لم يعرف كيف يواريه ، بينما عرف الغراب كيف
يوارى جهة غراب آخر وهكذا أصبح قابيل من النادمين « فأصبح من النادمين » .

إن علينا أن ننته إلى العارفين بين « ندم » و « نقم » وعمل سبيل المثال : هؤلاء
إنسان قد جرؤ على حدود الله وشرب الخمر بالنفود التي كان عليه أن يشتري بها طعام

الأسرة . وعندى عاد إلى مريم ووجد أهله في انتظار الطعام . ندم لأنه شرب الخمر ، لهل كان ندم الرجل عن أنه عصي الله ، أو ندم لأنه لم يشتري طعام لأهله ؟ لقد ندم عن عدم شراء الطعام وحدث ندم مرفوض ، ليس من سوية

وقد يكون هذا الشراب ليحمر قد ارتدى فخريته وخرج مشرب الخمر ووقع على الأرض ، وهذا ندم لأن شرب الخمر أو صله إلى هذا الخل ، وهو ندم لأنه عصي ربه ؟ . أو ندم لأنه صار فراق بين الناس ؟ وكذلك كان ندم قابيل ، لقد ندم عن حيله لأنه لم يعرف ما عرفه العراب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾

نجد الحق قال به قد كتب على بني إسرائيل ما جاء بهذه الآية من قانون واضح ؛ لأن معنى كلمة « من أجل » هو « بسبب » ؛ و « أهل » من أهل شرا عليهم يأخذه ، أى حتى جناية ؛ أى من جريرة ذلك .

أو من هذه الجناية شرعاً هذا الشريعة « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . وهذا مسامحة تسمع « من أجل » « يعرف أنها تعنى « بسبب ذلك » أو « بجريرة ذلك » أو « هذه الجناية كان ذلك » .

ولكن هل هذا الكتب خاص بني إسرائيل ؟ نعم اعلماء قال: إن بني آدم ليس ابني آدم مباشرة ؛ ولكنها من ذرية آدم وهما من بني إسرائيل ونور : من هو إسرائيل أولاً الذي نسب إليه أبناء إسرائيل ؟ إنه يعنوب بن إسحاق ؛ بن إبراهيم ، وإبراهيم يصل إلى نوح بأحد عشر أباً ويصل نوح إلى شيث ، وبعد ذلك إلى آدم ؛ فهل كانت كل هذه السلسلة لا تعرف كيف تدفن الميت إلى أن جاء بنو إسرائيل ؟

طبعاً لا ؛ وما دام الحق أوضح أنه سبحانه قد بعث نوحاً في الأرض ليريه كيف يورث سوة أخيه ، فهذا دليل على أن هابيل هو أول إنسان تم دفنه ، ومن غير المقبول - إذن - أن نقول إن الإنسان لم يعرف كيف يورث جنسان الميت إلى أن وصلت البشرية إلى زمن بني إسرائيل ، وأنهم هم الذين علموا البشرية ذلك !

ولماذا جاء الحق هنا ببني إسرائيل ؟ سبب ذلك أن بني إسرائيل احتاروا لا على قتل النفس فقط بل احتاروا على قتل النفس الهادية ، وهي النفس التي تحمل رساله النبوة ، ولذلك كان التخصص ، فقد قتلوا أنبياءهم الذين حملوا لهم المنهج التطبيقي ؛ لأن الأنبياء يأتون كمبادئ تطبيقية للمناهج حتى يلتفتوا الناس إلى حقيقة تطبيق منهج الله . الأنبياء - إذن - لا يأتون بشرع جديد ، ولكنهم يسبرون على شرع من قبلهم . فلماذا قتل بنو إسرائيل بعضاً من الأنبياء ؟ لقد تولدت لدى بني إسرائيل حميظة ضد هؤلاء الأنبياء .

ونعلم أن الإنسان الخير حين يصح الخير ويراه الشرير الذي لا يقدر على صناعة الخير فتولد في نفس الشرير حميظة وحقد وعصب على فاعل الخير ، ففاعل الخير كلما فعل خيراً إنما يلدغ الشرير ، ولذلك يحاول الشرير أن يربح فاعل الخير من أمامه وكان الأنبياء هم القدوة السلوكية . وقد قال الحق عن بني إسرائيل :

﴿ قَلِمَ تَقْنُونَ أَنْبَاءَ الَّذِينَ قَتَلُوا ﴾

(من الآية ٩١ سورة البقرة)

وجاء الحق هنا به من قبل هذه الحكمة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عداوة مع اليهود ، وقد نهت عليهم الخواطر الشريرة فيحاولون قتل النبي

وقد حاولوا ذلك . مثلاً أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ، ودسوا له السم ، ولدنك قال الله : « من قبل ، أى إن قدرتكم على قتل الأبياء كانت في الماضي ، أما مع محمد المصطفى فلن تمكّنوا منه »

ويقول سبحانه : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » وهذا توصيح لإرادة الحق في تأسيس الوحدة الإيمانية ليحعل من المجتمع الإيماني ربطة بوصفها قول رسول الله فيما رواه أبو موسى الأشعري عنه :

(المؤمن للمؤمن كإنيان يشد بعضه بعضاً)

وبيناك أن ننظر إلى مجزىء على غيرك ، بالباطل ، وتقف مكتوف اليدين ؛ لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسد الواحد . إذا اشكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالنهر والحمى . فإن قتل إنسان إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيماني موقف العاجز . فهذا إفساد في الأرض ، ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفساً واحدة . بل كأنه قتل للناس جميعاً ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد في الأرض .

ويكمل الحق سبحانه الشئ الثاني من تلك القضية الإيمانية . « ومن أحيها فكأنما أحيى الناس جميعاً » ، وهذه هي الوحدة الإيمانية ، فمن يعتدى على نفس واحدة بريئة ، كمن يعتدى على كس الناس ، والذي يسهف إنساناً في مهلكة كأنه أهد الناس جميعاً

وفي التوقيع التكليفي يكون لتطبيق العمل لتلك القاعدة ، والذي يقتل بريئاً عليه لعنة الله وغضبه ويحديه الله ، وكأنه قتل الناس أجمعين ، وإن نظرنا إليها من ناحية الجراء فالجزاء واحد .

« ومن أحيها فكأنما أحيى الناس جميعاً » وسبحانه وتعالى يريد ألا يستقبل المجتمع الإيماني مجزئاً بباطل على حق إلا أن يقف كل المجتمع أمامه ، فلا يقف

المعتدى عليه بمفرده ، لأن الذي يُجرىء أصحاب الشر هو أن يقول بعض الناس كلمة « وأنا مالي »

وإذا أُلما مالية ، هي التي تُجرىء أصحاب الشرور ، ولذلك أقرأوا قصة الثيران الثلاثة : الثور الأسود والثور الأحمر والثور الأبيض ، فقد احتال أَسَد على الثورين الأحمر والأسود ، فسمحا له بأكل الثور الأبيض واحتال الأسد على الثور الأسود فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر ، وجاء الدور على ثور الأسود ، فكان للأسد :

« كُنْتُ يوم أَكَل لثور الأبيض . كان الثور الصمت يرى أن « أنا ماليته » جعلته بها مصرعه لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه .

وما هوذا الحديث النبوي الشريف الذي يمثل القائم على حدود الله ولوقع فيها :

عن ابن عباس بن بشر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل المائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة قصاد بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استنقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » (١)

كذلك مثل القائم على حدود الله ومثل الواقع فيها ، فكان الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : لا تنظروا إلى أن نهمساً قتلنا نفساً بغير حق ، ولكن انظروا إليها كأن القاتل قتل الناس جميعاً ؛ لأن الناس جميعاً متساوون في حق الحياة . ومادام القاتل قد اجتراً على واحد فمن الممكن أن يجترأ على الباقين .

أو أن يكون فعله أضواء لغيره ، ومادام قد استن مثل هذه السُنة ، ستجد كل من ينسب من آخر يقتله ، وتصل السلسلة من الفتلة والقتل تتوالى .

(١) رواه البخاري في الفكرة والشهادات ، ورواه الترمذي في الفص ، ورواه أحمد في مسنده

والحديث النبوي يقول :

« من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء » .

إنه الاحتياط والدقة والقيود : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض ، ولو كان التشريع تشريعاً بشرياً فمَرَّت عليه هذه المسألة يمكن أن يستدركها بعد ذلك بشرح أو تعليل ، ولكن المشرع الأعلى لا يستدرك .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في لأرض » . فكأن من قتل نفساً بنفس أو بفساد في الأرض ، لا يقال عليه : إنه قتل الناس جميعاً ، بل أحياء الناس جميعاً ، لأن التجريم لا يفي فعل بمعنى النص الموضح أن هذا الفعل جريمة ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة . ولا يمكن أن تأتي لوحد ارتكب فعلاً وتقول له : أنا أراحلك به وأعاقبك عليه بغير أن يوجد نص بتجريم هذا الفعل

وهناك توجد قاعدة شرعية قانونية تقول : « لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم » أي أننا نرتب العقوبة على الجريمة ، أو ساعة يُجرَّم فعل يُذكر بجانب التجريم العقوبة ، فهل القصد هو عقاب مُرتكب الحُرْم ؟ لا إنما القصد هو تفتيح العتاب حتى يراه كل إنسان فيل أن يرتكب الجريمة ، والهدف هو منع الجريمة ، ولذلك نجد الحكمة الشريفة القائلة : « القتل أنفى للقتل » ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن ترقى تلك الحكمة إلى قول الحق :

﴿ وَلَكَرِّي الْقِصَاصِ حَيَّةً يَتَأَوَّى إِلَى الْآلَتِيبِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

لأننا يمكن أن نتساءل : متى قتل أنفى للقتل ؟ . وسنجد أن المقصود بالحكمة ليس القتل الابتدائي ولكن قتل الاقتصاص . وهكذا نجد الأسلوب البشري قد فاته اللوحة الفعالة في منع القتل لوجوده في قوله الحق . « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في لأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . وكلمة « أحياها » هنا أكثر من معنى . وبالتحديد لها معنيان : المعنى الأول - أنه أبقي فيها

الروح التي تحرك المادة ، والمعنى الثاني : إحياء الروح الإيمانية ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(س الآية ٢٤ سورة الاحقاف)

ولما أن نلتمت إلى أن الحق وضع الفساد في الأرض مُستحقاً لعقوبة انقراض والفساد هو إخراج الصالح عن صلاحيته ، والمضطوب منا إيمانياً أن لأمر الصالح في ذاته علينا أن نبقى صالحاً ، فإن استطعنا أن نريده صالحاً فلنعمل وإن لم نستطع فستركه على صلاحه .

ولما جاء الحق بعقاب للفساد في الأرض ؟. عدلوا الأرض أنها المنطقة التي استخلف الحق فيها البشر ، وساعة يقول الحق : « أو فساد في الأرض » فمعنى ذلك أن كل فساد عائد على كل مطروف في الأرض وأول مطروف في الأرض أو السيد لها هو الإنسان وعدمه فساد في الإنسان ، فهذا معناه قتل الإنسان .

إذن لا بد أن يكون الفساد في أشياء أخرى : هي الأكران أو الأجناس الأخرى ، الحيوانات والنباتات والجمادات والفساد في هذه الكائنات يكون بإخراجها من مستحوزها ملكية ، كأن تسطو جماعة على بضاعة إنسان آخر ، أو أن يأخذ واحد ثمار زرع لأحد ، أو أن يأخذ بعضاً من إنتاج مصنع مسجور أو حديد أو حلافه .

إن الفساد نوعان : فساد في الأرض وهو متعلق بالمطروف في الأرض ، والمطروف في الأرض سيد وهو الإنسان ، والفساد فيه قتله أو أن تُسبب له اختلالاً في أمنه النفسي كالقلق والاضطراب والخوف . ولاحظ أن الحق سبحانه قد أَمَنَّا على قريش بأنه أطلعهم من جرع وأمنهم من خوف .

إذن فمن الفساد تفريق الناس وترويعهم وهو قسبان . قسم تُفَرِّق فيه من لك حده ثار أو بيتك وبيتة ضغينة أو بغض ، أو أن تفرِّق قوماً لا علاقة بينك وبينهم ولم يصنعوا معك شيئاً فمن يعتدي على إنسان بيت وبيتة مشكلة أو عداوة أو بغضاء ، لا تُسبِّه خلوها على الشريعة ، يأخذ حقه ، ولكنه لا يستوفي في حقه بيده بل لا بد

من حاكم يقرم بذلك كي ينضبط الأمر ويستقيم ، إنه يخرج على الشريعة فقط ن حالة العدوان .

أما الذي يذهب للاعتداء على الناس ولم يكن بينه وبينهم عداوة ؛ فهذه هي الحراية . كأن يخرج ليقطع الطريق على الناس ويخيف كل من يلقاه ويُسبب له القلق والرعب والخوف على نفسه وماله ، والمال قد يكون من جنس الحيوان لو جنس النبات أو جنس الجهاد . وذلك ما يسميه الشرع حراية وستأن لها أية خصوصية .

إذن . فالفساد في الأرض معناه إخراج صالح عن صلاحه مطرورف في الأرض ، والمطرورف في الأرض سببه الإنسان ، والإفساد فيه إما بقتله أو إهلاكه وإشاعة الرعب فيه ، وإما بشيء مملوك له من الأشياء التي دونه في الجنسية مثل الروع أو النباتات أو الحيوانات . فكان الفساد في الأرض - أيضاً - يؤهل لقتل النفس .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . أي أن القتل بغير إفساد في الأرض ؛ هو القتل الذي يستحق العقاب . أما القتل بإفساد في الأرض فذلك أمر آخر ؛ لأن هناك فرقاً بين أن يقتل قصاصاً لو أن يقتل حداً من المشرع ؛ وحتى وهو صاحب الدم عن القاتل في الحراية وقطع الطريق لا ينفع في ذلك ولا يسقط الحد من الذي فعل ذلك ؛ لأنها جريمة ضد المجتمع كله .

وتابع سبحانه : « ولقد جاءتهم رُسُلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لسافرون » والسرف هو المتجارب للحد ، وهو من لا يأخذ قدر تكوينه وموقعه في الوجود ، بل يحاول أن يخرج عن قدر إمكاناته في الوجود

مثال ذلك : رجل حاول أن يسطو على حق غيره في الوجود ؛ متخطياً منزلة الاعتدال فلا يأخذ حقه فقط . مثل قطاع الطريق أو النهابين يأخذون هرق غيرهم وتعودوا أن يعيشوا كذلك وبراحة . والنصيبة لا تكرن في قاطع الطريق وحده ، ولكن تتعداه إلى المجتمع . هيقال : إن فلاناً يجلس في منزله براحة وتكفيه ساعة باللبل ليسرق الناس .

إن الأمر لا يقف عند حدود ذلك الإنسان إنما يتعداه إلى غيره . ويحيا من

ملك مالا في رعب ، وعندما يُفجع في زائد ماله ، يفقد الرعدة في أن يتحرك في الحياة حركة زائدة تنتج فائضاً لأنه لا يشعر بالامس والامان . وعندئذ يفقد العاجز عن الحركة في المجتمع السند والعمود من الذي كان يتحرك حركةً أوسع . إذن من رحمة الله أنه فتح أمام البشر أبواب الآمال في التملك ، مادام السعي إلى ذلك يتم بطرق مشروعة .

ونضرب هذا المثل - والله للكل الأعل - . الرجل المرأى الذي يُقرض ثوباً مائة جنيه ، كيف يطلب المرأى ريادة يمن لا يجد شيئاً يقيم به حياته ؟ إنه بذلك يكون قد أعطى من وجد أزيد مما أخذ منه مع فقره وعجزه . إن ذلك هو الإسراف فيه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا
أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ
يُسْفَوْا مِنْ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

أول شيء في الحرب هو الاستيلاء ، فمعنى أن يحارب قوم قوماً غيرهم أي يربحون في الاستيلاء على حيرات أو ممتلكات اطراف الآخر . فكيف يحارب قوم الله وهو عيب ؟ . وأول حرب لله هي محاولة الاستيلاء على سلطانه ، وهو تشريع . فإن حاولت أيها الإنسان أن تشرع أنت على غير منهج الله فانت تريد أن تستولي على حق الله في التشريع . وهذه أول حرب لله

والذين يحاربون الله أهم الدين يريدون أن يسولوا على ملك الله ؟ لا ؛ لأن يد الله في ملكه أرلا ، وسبقني أبداً وسبقه لئ يسلمه لأحد من عباده فعل ماذا

- إذن - يريدون الاستيلاء ؟ إنهم يريدون تزييف تشريعات الله ، بينما سبحانه هو المشرع وحده والتشريع - كما قلنا - هو قانون صيانة لبدنة إلهية إذ لا تترك خالق الإنسان ليضع القواعد التي تصون البشر ؛ لذلك فأول امتيازات بفعله الناس أنهم يشترعون لأنفسهم ؛ لأن قانون صيانة الإنسان يضعه خالق الإنسان ، وإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان - الذي هو منه - قانون صيانة يقول له : إنك تستولي على حق الله

وكيف يجارون الرسول ؟ .

نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم له وضعان ؛ فإله غيب ؛ لكن لرسول كان مشهداً من مشاهدنا في يوم من الأيام ، وقد حارب بالسيف ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبحت حربه كحرب الله ، فتأخذ سلطته في التشريع ، وهي السلطة الثانية ونقول لها . نحن مشرع لأنفسنا ولا ضرورة لهذا الرسول ، أو أن يقول نظام ما سنأخذ من كلام الله فقط وذلك ما يتشرى بعض البلدان ونقول لكن واحد من هؤلاء : أتؤدى الصلاة ؟ . فيقول : نعم . سأله : كم ركعة صليت المغرب ؟ . فيجيب ثلاث ركعات . سأله : من أين أتيت بذلك ؟ . ومن أين علمت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهي لم تذكر في القرآن الكريم ؟ ؟ ها سيصمت

وسأله : كيف تخرج الزكاة ويأى حساب تحبها ؟ فيقول : أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف بللانة في التقدين والتجارة مثلاً .

يقول له : كيف - إذن - عرفت ذلك ؟ . وأيضاً كيف عرفت الحج ؟ . إذن فللرسول صلى الله عليه وسلم مهمة ، وحرب السى تكون في ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه الصلاة والسلام .

ومثال ذلك هؤلاء الذين يقولون إن أحاديث رسول الله كثيرة . ويقول لهم . كانت مدة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا نحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا يمكن حصرها ، وكل كلام سمعناه وأقره من غيره حديث ، وكل

فعل فعله غيره أممه وأقره ولم يعترض عليه حديث ، فكيف تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف يستكثر بعض الناس قدراً من الأحاديث التي وصلت بعد قدر هائل من التنقيب البالغة ؟ ، لأنهم قالوا : لأن نبعث عن رسول الله ما قاله خير من أن ندخل على رسول الله ما لم يصعله . إسم بدعون أن هذا حفظ للإسلام ولكن قائم أن الله حافظ دينه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وضع القواعد لغلبة الأحاديث فقال

« من كذب على متعمداً فسيبوا معدنه من النار »^(١)

وهما هود ، البخاري يقل عن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والدين قابلوه ، وسيدنا مسلم يعتبر المعاصرة كافية لأنها مطبوعة بالمقابلة وتحري كل ممها الدقة الفائقة . وأي شخص كان له حشنة سلوكية لا يؤخذ بقوله ، ولذلك عندما حاول البعض أن ينال من الأحاديث وقال أحدهم : « أما يكفيني أن أقول لا إله إلا الله » ، تساءلت . كيف لا يذكر أن محمداً رسول الله ؟ وكيف يمكن أن يؤدي لأدان للصلاة ؟ وكيف يؤدي الصلاة ؟ وكيف يمكن أن يفهم قول الحق

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهذا تفويض من الله في أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريع

وكذلك الاجترارات على الأنمة ، هم يجترئون أولاً على النبي ثم يزحفون على الدين كله . رجاء فيهم قول الحق : « إنما حواء الدين يحربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، أي يخرجون الصالح بداته عن صلاحه ليكون فاسداً . الجراء أن يقتلوا أو يقتلوا ، وهذا التمهيل في قوله : (أن يقتلوا أو يقتلوا) جاء للشدة والتقوية ، حتى يقف منهم المجتمع الإيمان العام موقف القائم على هذا الأمر ، والسيطة الشرعية قامت عن الجميع في هذا الأمر ، كما يقال : إن المائب العام نائب عن الشعب في أن يرفع الدعوى ، حتى لا يتشر التقتيل بين الناس ، دون أن يفهموا حكمة كل أمر

« أن يقتلوا أو يقتلوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن علي بن عمر رضي الله عنه

الأرض . ومن « أر » هن تحيرية ، أر أن هـ - كما يقال - « لف وشتر » ؟ واللف هو الطي . والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرقه .

ما اللف ، وما النشر - إذن - ؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قضى وجهي واللسان وحالقي ..

لقد ذكر مُتَعَدِّد ولكن لأحكام غير مذكورة ، هـ هو اللف : جميع المتدعات دون أن يذكر لكل واحد منها شعبه ، ثم جاء بالأحكام عن وفق المحكوم عليه فأكمل بيت الشعر بقوله

راحض وبك شاكراً وغفوراً

ولتقرأ البيت كاملاً .

قضى وجهي واللسان وحالقي
راحض وبك شاكراً وغفوراً

والحق يقول .

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فقوله : « تسكنوا فيه » راحض إلى الليل ، وقوله « ولتبتغوا من فضله » راحض إلى النهار . وهنا جاء باللف ، ثم جاء بالنشر .

والفساد - كما نعلم - له صور متعددة ، فالفساد في الإنسان قد يمتد إلى قلبه أو عقله أو أحد ماله أو الاستيلاء على ماله دون قتله أو إثارة الرعب في نفس الإنسان دون أحد ماله أو قتله . نكأن كلمة الفساد طوي فيها أنوار الفساد ، نفس تقتل ، أو نفس تقتل مع مال يُسلب ويؤخذ ، أو مال يؤخذ دون نفس تقتل ، أو تحويف وتزعزع

ويلول الحق : « أو يتعوا من الأرض » ، والمعنى معناه الطرد والإبعاد ، والطرد لا ينأى إلا لثقت مُستقر ، والإبعاد لا يتأق إلا لثمتكر . إذن ، نفس أن يُنعى لا بد

أن يكون له ثبوت وتمكن في موضع ما ، وهو ما نسميه اصطلاحاً السكن ، أو الوطن ، أو المكان الذي يقيم به الإنسان لأنه ثابت فيه . ومعنى ثابت فيه . أي له حركة في دائرته . إلا أنه يأتى إلى مكانٍ مُستقر ثابت ، ولذلك سُمى سكناً ؛ أي يسكن فيه من بعد تحركه في مجالاته المختلفة . ومعنى الثنى على هذا هو إخراجُه من مسكنه ومن وطنه الذى اتخذه موطناً له وكان مجالاً للإفساد فيه . ولكن إلى أى مكان نُخرج إليه هذا الذى نهكُم عليه بالنفى ؟ قد يقول قائل : أنت إن أخرجته من مكان الفساد فيه وذهبت به إلى مكان آخر فقد تشيع فسادُه !

لا ، لأن النفى لا يتبع له ذلك الإفساد ، ذلك أن الوطن الأول يجعل له إلغاً بجغرافية المكان ، وإلغاً بمن يخضعهم ؛ فهو يعرف سلوك جيرانه ويعرف كيف يخيف فلاناً وكيف يعتصب بضاعة آخر وهكذا . ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فسوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف إلى جغرافية المكان ومواقع الناس فيه ، ومواطن الضعف بهم . وعلى ذلك يكون النفى هو منع الإفساد العائد

وحين يقول سبحانه . « أو يمشوا من الأرض » يعرف أن كلمة « الأرض » لها مدلول وسمى الأرض الآن . الكرة الأرضية . وكانوا قديماً يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه ، ويعد أن عرفنا أن جو الأرض منها صار جو الأرض جزءاً من الأرض . ولذلك قلنا في المقدسات المكانيّة . إن كل جوي يأخذ التقديس من مكانه ؛ فجو الكعبة كعبة ؛ بدليل أن الذى يصل في الدور الثالث من الحرم ؛ ويتجه إلى الكعبة . يصل متوجهاً إلى جو الكعبة . ومن يستقل طائرة ويرحب في إقامة الصلاة يتجه إلى جو الكعبة ، وعندما ازدحم المسجد والحرم المسمى لا يتسع لكل الحجاج أقاموا دوراً ثانياً حتى يسمى الناس فيه . إذن فالمسمى ليس هو المكان المحدد فقط ، ولكن جوه أيضاً له قدسية ، فإن بيتاً كذا مطابقاً فهو يصلح أيضاً كسمى

إذن فجو الأرض يتطبق عليه ما يطبق على الأرض . ولذلك كانوا يحرمون . قبل أن يوجد حيارون مسلمون . أن يُحرم في جو الحرم طيار غير مسلم ؛ لأن الطيار غير المسلم مُحرم عليه أن يدخل الكعبة والحرم . ومادام هناك إسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضاً ممنوع من الطيران في جو الكعبة .

لأن جَوَّ المكان يأخذ قُدسية المكان أو حكمه ؛ فالجَوَّ من الأرض ، ونعرف أن الغلاف الجوي يدور مع الأرض . ومن هذا نعرف العطاءات القرآنية من القائل لكلامه وهو سبحانه الخالق لكونه . ومادام القائل للقرآن هو الخالق للكون ، إذن لا يوجد تضارب بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية . وإنما يوجد انضارب من أحد أمرين : إما أن معتبر الأمر الذي لا يزال في طور النظرية حقيقة في حين أنها لم تصبح حقيقة بعد ؛ وإما أن تفهم أن هذا حقيقة قرآنية ، على الرغم من أنه ليس كذلك ، فإذا كان الأمر هو حقيقة كونية بحق وحقيقة قرآنية بحق ، فلا تضارب على الإطلاق . ودليل ذلك على سبيل المثال قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾

(س الآية ٣٤ سورة لقمان)

ويأتى العلم الحديث بالبحث والتحليل ، ويقول بعض السطحين :

لا ، إن العلم يعرف ما في الرحم من ذكر أو أنثى ونقول : نحن لا نتناش ذلك ؛ لأنها حقيقة كونية وهي لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية ؛ لكننا نسأل : متى يعرف العلماء ذلك ؟ هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مضي مدة زمنية ، ولكن الحق يحسمه قبل مرور أية مدة زمنية . ثم من قال : إن الحق يقصد بعوالم ما في الأرحام ذكر أو أنثى فحسب ؟ وهل لدلوها وجه واحد ؟ لا ، بل له وجوه متعددة فلي يعرف أحد أن ما في الرحم سيكون من بعد إنساناً طويلاً أو قصيراً ؛ ذكراً أو أنثى ؛ شقيماً أو سعيداً ؛ طويل العمر أو قصير العمر ؛ حليماً أو غصوباً . فلماذا يحصر « ما » في مسألة الذكر والأنثى فقط ؟

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أولاً قبل أن يعلم أى عالم وقبل أن يحصل العالم على أية هيئة . ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معملها ما الذى تحمله في بطنها ؟ طبعاً لا ، ونحن لا نعلم ماذا في بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم . ثم هل تذهب كل النساء الحوامل في العالم لطبيب واحد ؟ بالطبع لا ، ولكن الخالق الأعظم يعلم ما في كل الأرحام .

إذن فالحقيقة القرآنية لم نصلها بأية حقيقة كونية ، لكن لصدام يحدث عندما

فهم فهي خطأ أب الحقيقة القرآنية في قوله الحق « ويعلم ما في الأرحام » مقصود به العلم بالذكر والأنثى فقط .

ومثال آخر ، يقول الحق

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾

(من الآية ١٩ سورة الحجر)

ويُخطئ البعض الفهم عن الله عظم أن المقصود بذلك أب الأرض بساط أمام الإنسان . وقد ثبتت لنشر صحيفة كروية هي أن لأرض كروية بالأدلة خلال رحلة ماجلان ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة ، وظهور أعالي الأشياء قبل أسفلها وغير ذلك ، ثم صارت في عصرنا مشاهدة من الأمار الصناعية . إذن هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها ، وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية والفهم الصواب في مدلول الحقيقة القرآنية مقاصد بقوله تعالى « والأرض مددناها » . إما كنها وقفه في مكان محد أرضاً ، أي أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة .

إذن فسبحانه قد مد الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار الإنسان في أي اتجاه ، يجد أرضاً . ولا يتأخر ذلك إلا إذا كنت لأرض كروية . هذه كالتد الخطأ في فهم مدلول الحقيقة القرآنية ، لأن المضارب إنما يشأ من فهم أنها حقيقة كونية وهي ليست كذلك ، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية عن محو خطئ ، فهي لا تتعارضان ، فالعالم هو خالق حبه وهذا عرفنا متأخراً أن الحق من الأرض وأب العلاف الحق يدور مع لأرض ، وكما يقول سرت عن الأرض ، لكنه سبحانه قل وهو العليم

﴿ يَسِيرُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

وهو سبحانه علم أولاً أن الحق من الأرض . فمهما سار الإنسان على اليابسة فعرفه العلاف الحق . إذن فالإنسان إذا مشى في الأرض وليس على الأرض . أما إن سار الإنسان فوق العلاف الحق فهو يسير فوق الأرض

ونعود إلى قوله الحق « أو يسفوا من الأرض » وقد عرفنا أن المعنى هو الطرد والإبعاد ، فأى أرض ينهون منها وإلى أى أرض ؟ ولا يكون الطرد إلا للمستفر

ولا الإبعاد إلا لثابت . وحتى في اللغة نعرف ما يسمى النمل والإنبات . وكل ذلك مأخوذ من شيء جسي . فعندما تأخذ الماء من البئر تنزل إلى قاع البئر ديواً ، وكل دلو ينزل إلى البئر له « رشاء » وهو الحبل الذي تنزل بواسطته الدلو .

إننا ساعة نخرج الدلو من البئر ، يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه . فهل لدينا حركة ثابتة تستطيع بها المحافظة على استطرار الماء إلى تمام حافة الدلو ؟ طبعاً هذا أمر غير ممكن ، بل نجد قليلاً من الماء يتساقط من حواف الدلو ، وهذا الماء المتساقط يسمى « النمل » ؛ لأننا لا نستطيع استعراج الدلو وهو ملآن لأخذه بحركة ثابتة مستقرة بحيث تحافظ على استطرار الماء .

إن الماء كما نعلم - له استطرار دقيق إلى الدرجة التي جعلت البشر يصنعون منه ميزاناً للاستواء ومن « النمل » تؤخذ معان كثيرة ، فهناك « لتمام » وهي الشيء الرائد . إذن كيف يكون النمل من الأرض ؟ وهل تأخذ الأرض بمفهومها العام أو بمعناها الخاص ؟ أي الأرض التي حدث فيها قطع الطريق ؟

إن أخذناها بالمعنى الخاص فالنمل يكون لأي أرض أخرى . وإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فكيف يكون النمل ؟ وبرى أن الحق سبحانه قد قال في موضع آخر من القرآن :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْمَانِ شَرِّ مَا بَيْنَ أَيْمَانِ شَرِّ مَا بَيْنَ أَيْمَانِ الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

هم بلا جدال يسكنون في الأرض . وجاء هذا القول لمعنى مقصود ، ونعرف أننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تمييز مكان في الأرض ، كأن يقول قائل : « اسكن ميت عمر » أو « اسكن المذنب له » أو « اسكن طعنا » ، وهذا تحديد موقع من الأرض للاستقرار ، ونسمى المقصود إذن أن الحق يلدنا أنه سيقطعهم في الأرض قطعاً بحيث لا يستقروا في مكان أبد . وذلك مصداقاً لقول الله

﴿ وَقَطَّعَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

فليس لهم وطن خلاص . ونجت تعزيتهم في كل الأرض ، وهذا هو الواقع الذي

حدث في الكون . أوجد لني إسرائيل استقرار في أي وطن ؟ . لا . وحتى الوطن الذي أقاموه بسبب وعد بلمور لم يترك الحق أمره . بل أعطى وعده للمؤمنين بأن يدخلوا المسجد إذا ما أحسوا العمل لاستردادته . ولزال اليهود بطيئتهم شتاتاً في أنحاء الأرض . ولهم في كل وطن حتى خاص بهم . وتحفظ كل جماعة منهم في أي بلد بذاتيتهم ولا يلويون في غيرهم :

﴿ وَفَلَنَامِسْ بَعْدَهُ لِيَبْنِيَ إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٦١ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين يأن لهم الحق في الجولة الأخيرة سيأتون لفيفاً أي مجتمعين ، لأن الأمة المؤمنة حين يقويها الله لتضرب على هؤلاء القوم ضربة لا بد أن يكونوا مجتمعين . وكان الله قد أراد أن يكون هذا « الوطن القرمي » حتى يتحمسوا فيه وبعد ذلك يرسل الضربة عليهم لأنه جاء بهم لفيفاً ، لذلك لا نحزن لأنه قد صار هم وطن ، فقد جاء بهم لفيفاً .

ويعود إلى الآية التي نحن بصلدها كيف يكون النفي من الأرض ؟ حين يريد الله تحجير مكان فهو يقول على سبيل المثال :

﴿ أَدْسَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

إذن فقد نفى غيرها . وهو يقول أيضاً :

﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وكان المقصود بها مصر .

فإذا أخذنا الأرض بالمعنى العام فحكم « اسكنوا الأرض » . والنفي هو صورة من صور العقوبات للإفساد ، والإفساد في الأرض ينقسم إلى أربعة أقسام : قتل ، قتل وأخذ مال ، أخذ مال فقط ، ترويع . وقد زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً وفعله في سيرته ، فقد جاء لنا بأمر جديد في أمر الإفساد . وكان على

العلماء أن يتجهوا له ، فأول نفي حصل في الإسلام كان نفي رسول الله الحكيم بن أبي العاص من المدينة إلى الطائف ؛ لأن الحكم - والعياذ بالله - كان يُقَلَّدُ بِمِثْيَةِ النَّبِيِّ باستهزاء ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذ مشى تكفياً تكفوفاً كأنه يتحدث من حبيب . فقد كانت مشية النبي التي مشية نحامة . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحكم يقلد بمشيته في استهزاء والتفت أنبي - ذات مرة - فجاءه ، فوجد الحكم يقلده في مشيته فغضه من المدينة إلى الطائف ، وظل الحكم في الطائف طوال حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما جاءت خلافة أبي بكر الصديق ، ذهب أهل الحكم إلى أبي بكر ، فقال :

- ما كنت لأحل عقدة عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهبوا إلى عمر بن الخطاب فلم يوافق . وعندما جاءت خلافة عثمان وكان رضي الله عنه حياً وحجولاً فقال : لقد أخذت كلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم تحمل شهة الإفراج عنه . ويخرج عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وأثناء حياة الحكم في الطائف كان يرى بعض شويحات وبعض غييات وكان يرعاها عند جبهلات الطائف . وكان لهذه المسألة آثار من بعد ذلك . فأتى تعلمون أن معاوية رضي الله عنه أنجب يزيد الذي تولى الخلافة من بعده وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحكم .

وكان خالد بن يزيد الذي ترك الخلافة لمروان صلاً كبيراً في الكهماء وله أخ اسمه عبدالله ، وكان لعبدالله جواد يتسابق بها . وكان يولد من أولاد عبدالمالك بن مروان جواد أيضاً ، وجمرت جواد عبدالله مع جواد ابن عبدالمالك في مضمار سباق ، فلما جاءت خيل عبدالله لتسبق . . حدث خلاف بين عبدالله وابن عبدالمالك ؛ فنهز ابن عبدالمالك عبدالله ، فذهب عبدالله واشتكى لأخيه خالد . وهنا ذهب خالد لعبدالمالك بن مروان ، وقال له .

- لقد حدث من ابنتك لأخي كذا وكذا . وكان عبدالمالك فصيحاً في العرب وما جربوا عليه لحن أبدي . ورأي أولاده على ألا يلحنوا في اللغة . وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للغة دون لحن

فلما دخل خالد إلى عبد الملك أراد أن يجده فيه شيئاً يعيبه به ، قال عبد الملك لخالد : أتكنسى في عبادته وقد دخل على أمي فلم يخل لسانه من اللعن ؟

وقال خالد - معرضاً بالوليد - : والله يا عبد الملك لقد أعجبتني فصاحة الوليد فقال عبد الملك : إن يكن الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا يلحن . فقال خالد : وإن كان عذقه يلحن فإن أخاه خالداً لا يلحن .

فقال عبد الملك : صكت يا هذا فليست في العير ولا في النعير

وأظن أن قصة العير والنعير معروفة فالعير هي التي كانت مع أبي سفيان وعليها البضائع من الشام وتعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نجى بها أبو سفيان والنعير هم الجماعة التي استنفرها أبو سفيان من مكة لأبيه خوف من المسلمين وكانت زعامتهم لعنتية . فالعير كانت زعامته لأبي سفيان والنعير كانت زعامته لعنتية بن ربيعة ، وكان عنتية هو جد خالد لأمه ، وأبو سفيان هو جدّه لأبيه . فقال خالد : ومن أولى بالعير والنعير مني ، جدي أبو سفيان صاحب لعير ، وجدي عنتية صاحب النعير ، ولكن لو قلت غيبات وشبهات وجبيلات وذكر الطائف ورحم الله عثمان لكان أولى . واسكته .

إذن . فالتقى كان أول عذاب أنزله الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهل ما فعله الحكيم ، يعتبر مساداً ؟ . ونقول : إن كل فساد إنما يترتب على الفساد الذي يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان احكامكم يستهري به بشية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يقول مشرع ما : إن السجن يقرم مقام النفي ونقول : لا ، إن السجن الآن فيه الكثير من الرهاية . فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة وأهدف من السجن الإبعاد لتخفيف شرور المفسد وإن كان لا يبعده عن مستقره ووطنه . وذلك أمر متروك للحاكم يفعل كوف يشاء وخاصة إذا لم يكن هناك أرض إسلامية متعددة بحيث يستطيع أن ينفيه من أرض إلى أرض أخرى .

ويجب الحق هذا بقوله : « ذلك لهم حري في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم »

وهذا القول لاحق لعقاب محدد للمفسدين في الأرض المحاريين لله ورسوله وهو :
« أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » .
وهذه العقوبات شري لهم .

إن كلمة « خزي » ترد في اللغة بمعنىين : مرة بمعنى الفضيحة ، « خزي » ،
بخرى ، خزيًا ، أى انتفضح ، ومرة ثانية هي « خري ، بخري ، خراية وخرى » ،
بمعى استحي . والعميان يلتقيان ، فإدام قد انتفضح أمر عبده فهو يستحي مما فعل .
وتلك الأفعال خري ، كالمى قطع طريقا على أناس آمنين ، ونقول لكل صاحب هذا
الفعل . إن قوتك ليست ذاتية بل قوة اختلاسية ، فلو كانت قوتك ذاتية لاستطعت
أن تنهى لحظة أن يأخذوك ليقتلوك أو يصلبك أو يقطعوا يدك ورجلك . فقد جثرت
على العرل الذين ليست لهم استطاعة الدفاع عن أنفسهم ، وفي هذا خري لك
خصوصاً وأنت ترى من كانوا يخافوك وأنت تنال العقاب . وحزبك الآن هو مقدمة
لعذاب آخر في الآخرة ، فسوف تنال عذاباً عظيماً .

« ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » وكل جزاء في الدنيا
إنما يأتي على قدر طاقات البشر في العقاب ، ولكن ماذا إذا وكُلُّوا إلى طاقة
العافات ؟ ها هي ذى عدالة الحق تتجلى ، فهو سبحانه وتعالى يفسح المجال
للمُسرفين على أنفسهم ؛ أولاً بالتوبة ؛ لأن الله الرحيم بعنايه لو أخذ كل إنسان
بجريمة فعلها أو عاقب كل صاحب ذنب بدنيه لاستشري في الأرض حساد كل من
رتكب ذنباً لأنه يش من رحمة الله فتشتد ضرارته وقسوته . ومسيحانه فتح باب لتوبة
لكل من أسرف على نفسه . وإن لم توجد التوبة لعلل المُسرف مايفدا . ومب أن
واحداً من الذين فعلوا ذلك استيقظ ضميره ، فإن تاب قبل أن تقدروا عليه فهناك
حكمكم . أما إن تاب بعد أن يقدر عليه المجتمع فلا توبة له .

ويقول الحق :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ

فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ۝ ٢٤ ﴾

ومادام الإنسان قد قلب وقلم بتسليم نفسه دون أن يقدر عليه المجتمع فقبول التوبة حق له ، ويجب أن تأخذ « أن الله غفورٌ رحيم » في نطلق ما جعله الله لنفسه ، أم ما جعله الله لأولياء المعتدى عليهم فلا بد من العقاب للمعتدى إن طلبه أصحابه .

« إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم »
والقرآن يعامل من المنهج الإيماني عجيبة واحدة . لذلك يُقسَم المسائل إلى فصول كالتقنيات البشرية التي تبرز ؛ للملك نجد القرآن يعامل الأفطرية وكأنها قرص استيقاظ للنفس ؛ لذلك يأخذ النفس إلى أمر توجيها بالطاعة

وضربنا من قبل المثل حينما تكلم القرآن عن مسائل الأسرة في سورة البقرة .
﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ قَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا قَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بَيْنَهُمَا عَقْدُهُ أَيْنَ كَانَ ﴾
وَأَنْ تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَسْأُوا
الْمَعْضِلَ بِهِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِيمٌ ذَكِيٌّ ﴿٢٢٧﴾

(سورة البقرة)

ومن بعد ذلك يأتي إلى أمر الصلاة :

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَكُلُوا وَشَرِبُوا مِنْهُ فَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾
رُكْنَا مَا إِذَا أَمِئْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٨﴾

(سورة البقرة)

وضع الله - إذن - الصلاة بين أمرين من أمور الأسرة ؛ حيث قال من بعد أمره بالحفاظ على الصلاة حتى أثناء القتال

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَيُوفُوا أَوْجَابَهُمْ لِرَبِّهِمْ فَذُكِّرُوا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِتْرَاجٍ ﴾
فَإِنْ تَرَجَعْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴿٢٢٩﴾

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

وجاء بأمر الحفاظ على الصلاة بين المشكلات الأسرية ، وذلك لجعل الدين لبنة واحدة ، وأيضاً لأن النفس المشحونة بالبنطاء وزحام أمور الزواج والوصية والطلاق ، هذه النفس عندما تقوم إلى الصلاة لله فهي تهدأ . ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة . فقد كان إذا حزبه أمر واشتد عليه قدم إلى الصلاة

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يأتى بأمر الدين كأبواب منفصلة ، باب للصلاة ، وآخر للصوم ، وثالث للزكاة ، لا . بل يمزج كل ذلك في حجة واحدة . ولذلك فعندما أنزل بالمفسدين المحاريين لله عقاب التثليل والتصليب والتقطيع والنهي . كان ذلك لتربية مهابة الرعب في النفس الشرية وساعة يستيقظ الرعب في النفس البشرية يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
إِلَّاهَ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ
تَفْلِحُونَ ﴾

لقد أخرجنا من جوار صدم وحديث في عقوبات إلى تقوى الله والتقوى - كما نعرف - أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يؤديه وقاية .

وعرفنا أن الحق سبحانه الذي يقول « تقوا الله » هو بعبه الذي يقول « اتقوا النار » ، وعرفنا كيف نفهم تقوى الله . بأن يجعل بيننا وبين الله وقاية وإن قال قائل :

إن الحق سبحانه يطلب من أن نلتزم بمهجه وأن نكون دائماً في معيته . فلنجدل الوقاية بيننا وبين عقابه . ومن عقابه النار .

إذن فقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » أي أن ننقى صمات الجلال ،

والنار من خلق الله وحده وقوله سبحانه : « وابتغوا إليه الوسيلة » أي يبحث عن الوسيلة التي توصلنا إلى طاعته ورضوانه وإن عبته . وهل هناك وسيلة إلا ما شرعه الله سبحانه وتعالى ؟ وهل يتقرب إنسان إلى أي كائن إلا بما يعلم أنه يحبّه ؟

وعن المستوى البشري نحن نجد من يتساءل : ماذا يحب فلان ؟ . فيقال له : فلان يحب ربطات العنق ، فيهديه عدد من ربطات العنق . ويقال أيضاً : فلان يحب المسيجة الحيلة ، فيحضر له مسجة رائعة . إذن كل إنسان يتقرب إلى أي كائن بما يحب ، فما بالنا بالتقرب إلى الله ؟ وما يحب سبحانه أوصحه لنا في حديثه القدسي :

(من عادي لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي شيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ولئن استعادني لأعيدنه)^(١) .

فالحق سبحانه وتعالى يفسح الطريق أمام العبد ، فيقول سبحانه في الحديث القدسي :

(ما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل)

أي أن العبد يتقرب إلى الله بالأموال التي لم يلزمه الحق بها ولكنها من جنس ما افترضه سبحانه ، فلا ابتكار في العبادات . إذن فابتغاء الوسيلة من الله هي طاعته والقيام على المنهج في « الفعل » و« لا تفعل »

والوسيلة عسماً أيضاً هي منزلة من منازل الجنة . والرسول صلى الله عليه وسلم طلب منا أن نسأل الله له الوسيلة فقال .

(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا علىّ فإنه من صلّى علىّ صلاة

(١) رواه البخاري في الرقاق ، ورواه ابن ماجه في الحن

صلى الله عليه بها عشراً ثم سلو الله لي الوسيلة فإني منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لي الوسيلة حلت به الشفاعة) (١).

ولا نريد أن ندخل هنا في مجال التوسل بالنبي أو الأولياء ؛ لأنها مسألة لا يصح أن تكون مثار خلاف من أحد . فبعضهم يحكم بكفر هؤلاء .

ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبي أو الولي : هذبوا هذا القول قليلاً ؛ إن حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم ؛ فالذي يتوسل إلى الله بالنبي أو الولي هو يعتقد أن له منزلة عند الله . وهل يعتقد أحد أن الولي يجامله ليحيط به ما ليس له عند الله ؟ طبعاً لا . وهناك من قال : إن الوسيلة بالأحياء ممكنة ، وأن الوسيلة بالأموات ممنوعة . ونقول له : أنت تضيق أمراً متسعاً ؛ لأن حيلة الخي لا تدخل لها بالتوسل ؛ فإن جاء التوسل بحضرته صلى الله عليه وسلم إلى الله ؛ فذلك قد جعلت التوسل بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله ؛ فحُبُّكَ له هو الذي يشجع . وإياك أن تظن أنه سيأتي لك بما لا تستحق .

والجهاة التي نقول . لا يصح أن نتوسل بالنبي ؛ لأن النبي انتقل إلى الرفيق الأعلى ، نقول لهم . انتظروا قليلاً وانتهبوا إلى ما قال سيدنا عمر - رضوان الله عليه - ؛ قال : كنا في عهد رسول الله إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ونستسقي به . وما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توسل بعمر العباس . وقلوا لو كان التوسل برسول الله جائزاً بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن التوسل بالنبي بعد انتقاله ، وذهب إلى التوسل بعمر النبي . ونسأل : أقال عمر « كنا نتوسل بشيخ والآن نتوسل إليك بالعباس » أم قال « والآن نتوسل إليك بعمر نبيك » ؟

ولذلك فالذين يسمعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم ؛ لأن التوسل لا يكون بالنبي فقط ولكن اتوسل أيضاً بمن يمت بصلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فساعة يتوسل واحد إلى غيره يعني أنه يعتقد أن الذي توسل به لا يقدر على شيء ، إنما أتوسل به إلى الغير لأنني أعرف أنه لا يستطيع أن يتفدى لي مطلباً . إذن فليبعد

مسألة الشرك بالله عن هذا المجال ، ونقول : نحن نتوسل به إلى غيره لأننا نعلم أن نتوسل إليه هو القادر وأن نتوسل به عاجز . وهذا هو منتهى اليقين ومنتهى الإيمان .

ولكن المتوسل به قد يتفجع وقد لا يتفجع ، وعندما نتوسل سيدنا عمر بالعاص عَمَّ السبي كان يعمل ذلك من أجل المطر . والمطر في هذه الحالة لا يتفجع به رسول الله لذلك جاء بواحد من آل البيت وكأنه قال : « ياربِّ عَمَّ بيك عطشان فمن أجله نريد المطر » .

إذن فتوسل عمر بن الخطاب بعم النبي دليل صد الذين يجمعون التوسل بالنبي بعد الاتصال إلى الرفيق الأعلى . وحتى نخرج من الخلاف نقول : إن العمل بالصالح المتمثل في « اعمل كذا » و « لا تفعل كذا » هو الوسيلة الخالصة . وبذلك نحصل من الخلاف ولا ندخل في مناهات .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون » ولتر الإيثار الإيماني الذي يريد حتى أن يُربيه في النفس المؤمنة بتقوى الله التي تتمثل في الابتعاد عن محارمه ، وابتغاء الوسيلة إلى الله في اتباع أوامره .

إن الذين لم يأتك من أجل نفسك فحسب ، ولكن إيمانك لن يصبح كاملاً إلا أن تحب لأهلك ما تحبه لنفسك ، فإن كنت قد أحبيت لنفسك أن تكون على الذنوب فاحرص جيداً على أن يكون ذلك لإخوانك أيضاً . وإخوانك المؤمنون ليسوا هم فقط الذين يعيشون معك ، ولكن هم المؤمنون لهم أن يوجدوا من بعد ذلك . ولذلك عليك أن تجاهد في سبيل الله لتعلم كلمة الله . وهكذا تتسع المهمة الإيمانية ، فلا تنحصر في النفس أو المعاصرين للإنسان المؤمن . ولذلك يضع لنا الحق الطريق المستقيم ويوضحه ويبيّنه لنا .

وكانت بداية الطريق أن المؤمن بالله حينما وثق بأن الله نعيماً وحزاء في الآخرة هو خير مما يعيشه قديم دمه واستشهد ، لذلك قال صحابي جليل : أليس بيني وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فلما أن أقتلهم وإما أن يقتلوني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وألقى الصحابي غمرات كان يأكلها ودخل المركة .

لا بد إذن أنه قد عرف أن الحياة التي تنتظره خير من الحياة التي يعيشها ؛ ومع ذلك لم يصح الله الجهاد كرسيلة في أول الأمر ، بل ظل يأمرهم بالاستمرار والصبر حتى يترى من يحملون الدعوة قلن يجعلها سبحانه عملية انتحارية .

وبعد ذلك نرى أثناء رحلة الدعوة للإسلام أن صحابياً يحزن لأنه في أثناء القتال قد أفلت منه عمرو بن العاص ، وأن خالد بن الوليد قد هرب . وثبتت الأيام أن البشر لا يعرفون أن علم الله قد أذخر خالداً وأنجده من سيف ذلك الصحابي من أجل أن ينصر الإسلام بحال . وكذلك عمرو بن العاص قد أذخره الله إلى نصر آخر للإسلام .

إذن فالجهاد في سبيل الله ضامن للمؤمن أن يظل منهج الذي آمن به موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، وذلك لا يتأتى إلا بإشاعة المنهج في العالم كله . والنفس المؤمنة إذا وقعت نفسها على أن تجاهد في سبيل الله كان عدها شيء من الإيثار الإيماني . ونعرف أنها أسدلت خير الإيمان وثبتت أن توصله إلى غيرها ، ولا تقبل أن تأخذ خير الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها في غير ديار الإسلام ، وتحرص على أن يكون العالم كله مؤتمت ، وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجد أنها تمثل الفهم العميق لمعنى الحياة ، فالباس إذا كانوا أخيراً استفاد الإنسان من خيرهم كله ، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرهم شيء .

إذن فمن مصلحة الخير أن يشيع خبره في الناس ؛ لأنه إن أشاع خبره فهو يتوقع أن يستفيع بهذا خبر وأن يعود عليه خبره ، لأن الناس يأمن جانب الرجل الطيب ولا ياتهم به شر . لأنه يجب أن يكون كل الناس طيبين وعلى ميران الإيمان ؛ لأنهم إن كانوا على ميران الإيمان فالطيب يستفيد من خيرهم . أما إن بقي الناس على شرهم وبقي الإنسان الطيب على خبره ، فسيظل خير الطيب مهذولاً لهم ويظل شرهم مهذولاً للطيب .

إذن من حكمة الإيمان أن « يعني » الإنسان الخير للغير . وإن دعوة المؤمن إلى سبيل الله ، ومن أجل انتشار منهج الله لا بد من الإعداد لذلك قبل اللقاء في

ساحات المعارك ؛ فقبل اللقاء مع الخصم في ساحة المعركة لا يد من حسن الإعداد . وعندما يمد المؤمن نفسه يجد أن حركة الحياة كلها تكون معه ؛ لأن الدعوة إلى الله تقتضي سلوكاً طيباً ، والسلوك الطيب ينتشر بين البشر ، وهنا يقوى معسكر الإيمان ، ليرتقى سلوكاً وعملاً ، وعندما يقوى معسكر الإيمان يمكنه أن يستخرج كنوز الأرض ويحصى أرواح الإيمان بالتقدم الصناعي والعلمي والعسكري . والحق يقول :

﴿ وَأَرْكَنَ الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

سبحانه أنزل القرآن وأنزل الحديد ، ويتبع ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وجاء معنى البأس من أجل ذلك ، وهذا هو السبب الثاني الذي أوصانا به الحق :

إياكم أن تأخذوا مهبج الله فقط الذي ينحصر في « افعل ولا تفعل » ولكن حللوا مهبج الله بما يحصى مهبج الله وهو التقدم العلمي باستخراج كنوز الأرض وتصنيعها كالحديد مثلاً ، فسبحانه كما أنزل القرآن يجعل المنهج ، فقد أنزل الحديد وعلى الإنسان مهمة استنباط الحديد والمواد الخام التي تسهل لنا صناعة الأجهزة العلمية وتقيم المصانع التي تنتج لنا من الحديد فولاداً ، وبحول الفولاذ إلى دروع ، وتصنع أدق الأجهزة التي تهيء للمقاتل فرصة النصر . وكذلك نذخر المواد العذائية لتكفي في أيام الحرب

إذن حركة الحياة كلها جهاد ، وإياك أن تقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة ، ولكن أعد نفسك للمعركة ؛ لأنك إن أعددت نفسك جيداً وعلم خصمك أنك أعددت له ، ربما امتنع عن أن يجارث . والذي يمنع العالم الآن من معركة صناعة تدمره هو الخوف من قبيل الكتل المتوازنة لأن كل دولة تعد نفسها للحرب ولو أن قوة واحدة في الكون هدمت الدنيا .

وقول الحق : « وجاهدوا في سبيله » نأخذ على أنه جهاد في سبيل مهبج الله ؛

ويدرس هذا النهج ويفهمه ويعد ذلك بجاهد فيه باللسان وبالسان ، ونجاهد فيه بالكتب ونجاهد فيه بالكيفية .

إذن يقول الحق : « وجاهدوا في سبيله » يصح أمة إيمانية مُتَحَصِّرة ، حتى لا تترك الفرصة للكافر بالله ليأخذ أسباب الله وأسراره في لكون فمن يعد الإله الواحد أولى بسر الله من الوجود ، ولو غرضنا أنه لن تقوم حرب ، لكننا نملك المصانع التي تنتج ، وعندنا الزراعة التي تكفي حاجات الناس ، عندنا سحق الكفاية . وما لا تستعمله في الحرب سيمود على السلام . ويجب أن تفهموا أن كل اختراعات الحياة التقدمية تنشأ أولاً لقصد الحرب . وبعد ذلك تهدأ النفوس وتأخذ البشرية هذه الإنجازات لصالح السلام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَاتَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

الحق سبحانه تحدث من قبل عن العفويات والخصاص والتقتيل والتقطيع ، ثم ينقلنا من هذا الجو إلى أن نتقن الله ونبتغي إليه الوسيلة ونجاهد في سبيله حتى نفلح ، وكان لا بد أن يأتينا لنا الحق بالمقابل ، فالمعقاب الذي جاء من قبل كخصاص وقتل هو عقاب دنوي ولكن ماسيان في الآخرة أدهى وأمر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَاتَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(سورة المائدة)

ولنا أن نتصور الحياة الكافرة التي تنكسر في الدنيا ويعتلون ويرتفعون بالهبروت ،

فإذا عن موقعهم يوم القيامة ؟ . لقد أقمتم الجبروت بقوتكم على غيركم ، وما هي في القوة تضع وتعلت . لقد كانت انقوة تعيش معكم في الدنيا بالأسباب الممنوحة من الله لكم . ولم تضمن عليكم سنن الله أن ترتقوا ، وصبحانه قد خلق السنن ومن يبحث في أسباب الله ، يتل نتيجة ما بطل من جهد ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، وما أنتم أولاء تعرفون أن الأسباب ليست ذاتية . وأن قوتكم لم تكن إلا عطلة من الله . ها أنتم أولاء أمم المشهد الحق ، فلو أن ما في الدنيا جميعاً معكم وحق ولو كان ضعف ما في الدنيا وتريدون أن تقدّموه بذية لكم من عذاب جهنم فأنه لا يقبله ، ونلك قيمة الجزى ، ولن يستطيعوا تخليص أنفسهم من عذاب جهنم .

وهذا المشهد يجعل النفس تستشعر أن المسألة ليست لعباً ولا مزلاً ، ولكن هي جد في منتهى الجد . وحل الإنسان أن يقتر العقوبة قبل أن يستلذ بالجريمة . والذي يجعل الناس تستشعر في الإسراف على أنفسهم ، أن الواحد منهم يعزل الجريمة عن عقوبة الجريمة . ولو نادى الإنسان قبل أن يسرف على نفسه العقوبة بالجريمة لما ارتكبها . وكذلك الذي يكسل عن الطاعة ، لو يقارن الطاعة بجزائها لأسرع إليه .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نفترض أن إنساناً في صحراء نظر إلى أهل الحبل ورأى شجرة تفاح ، واستدل على التماح بأن رأى تفاحة عطلة واقعة على الأرض ، وقال الرجل لنفسه : هاأنذا أرى مصارع الناس ؛ فهذا يصعد إلى الجبل فيقع من على حافته . وذلك مهاججه الذئاب . وثالث يتوه عن الطريق . كل ذلك على أمل أن في الشجرة ثماراً . ولا يدري من أن أختار الطريق السليم إلى الثمار . والطريق إلى ثمار الدنيا الطاعة لله ، وهو الطريق إلى ثمار الآخرة .

وأيضاً : الطالب المجتهد الذي يتعلب عن التماس ويعوضاً ويصل ويخرج إلى مدرسته في برد الشتاء ليحصل الدروس . ويعود إلى المنزل لتحم له أمه الطعام ، ولكنه مشغول بالدروس . إن هذا الشاب يستحضر نتيجة هذا الجهد ؛ لذلك فكل تعب في سبيل التعلم صبر سهلاً عليه ، ولو أهمل ونام ولم يحم مبكراً إلى المدرسة ، وإن استيقظ وخرج من المنزل ليتسكع في الطرقات مع أمثاله ؛ يكون في مثل هذه الحالة غير مقلد للنتيجة التي تفوقه إليها الصمّة . والعيب في البشر أنهم يعزلون

العمل عن نتيجة ، ويفصلون بين الجريمة وعقوبتها ، والطاعة من ثوابها . إننا لو وضعنا النتيجة مقابل العمل لما ارتكب أحد معصية ولا أعمل أحد في طاعة .

ولنا أن نتصور مشهد الجبارين في الدنيا وهم في دار الآخرة ، هم بطشوا في الدنيا وبهوا ، ولنفترض أن الواحد منهم قد امتلك كل ما في الدنيا - على الرغم من أن هذا مستحيل - وفوق ذلك أخذ مثل ما في الدنيا معه ويريد أن يقدمه اقتداء لنفسه من عذاب جهنم فبرطبه الحق منه « ما تقبل منهم ولم عذاب أليم » وتلك هي قمة الحزى التي يجب أن يعتمد منها الإنسان .
وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٣٧)

وكلمنا فسهم لعن النار يريدون أن يخرجوا منها ، لكن كيف تأن لهم إدانة الخروج من النار . لا بد - إذن - أن لحظة لمحها عليهم وتقلبهم هنا وهناك تدفعهم إلى النهب إلى القرب من الخارج فيظنون أن العذاب قد انتهى . ألم يقل الحق سبحانه من أجل أن يضع أمامنا التجسيد الكامل لبشاعة الجحيم :

﴿ وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوا يَفْتَنُوا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

هذا القول يوحى أولاً بأن رحمة ما ستصل إليهم ، ولكن ما يأتي بعد هذا القول يرسم المول الكامل ويحمده :

﴿ يُخَاثَلُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذه قمة المول وهناك فرق بين الابتداء الطمع والانتهاه التوس

مثال ذلك السجين العطشان الذي يطلب كوب ماء . ويستطيع السجان أن يقول له : لا ليس هناك ماء . أما إذا أراد السجين تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له : سأق لك الماء ويحضر له كوباً من ماء رلاب ، ويعد السجين يده لكوب الماء ، لكن السجان يسكب كوب الماء أرضاً . هذا هو الابتداء المضمع والانهاء المؤثس . وكذلك رغبهم في الخروج من النار ؛ فلا إرادة لهم في الخروج إلا إذا كانت هناك مظنة أن يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم ، ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء . ﴿ فَنَشَرُّهُمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة آل عمران)

وتثير البشرى في النفس الأمل في العفو ، فيرحلون ولكن تكون النتيجة هي :

﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة آل عمران)

وهكذا يريد لهم الحق صدمة الألم المؤثس بعد الرجاء المطمع

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٢٧ ﴾

(سورة المائدة)

وبعد ذلك بنقلنا الحق إلى قوله سبحانه :

﴿ وَالْمَسَارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٨ ﴾

جاء الحق من قبل بعقاب قطع الطريق والمعتدين في الأرض ، وما يأتى بقضية أخرى يريد أن يصون بها ثمرة حركة المؤمن في مجتمعه ؛ لأن الإيمان بحسب من المؤمن أن يتحرك ، وحتى يتحرك الإنسان لا بد أن يضمن الإنسان ثمرة حركته . أما إن تحرك الإنسان وجماعات الثمرة لم جاء من يأخذها فلا بد أن يزهد المتحرك في

الحركة ، وحين يزهد الإنسان في الحركة يتوقف تقدم لوجوده ؛ لذلك من حطت أن تستمر حركة الحياة ، ولا تستمر حركة الحياة إلا إذا أمن الإنسان على حركته ، وأن تكون حركته فيها شرع الله

وحين يتحرك الإنسان فيها شرع الله ويكسب من حلال ؛ فليس لأحد دخل ؛ لأن حركة هذا الإنسان تفيد المجتمع سواء أكان ذلك في بابه أم لم يكن .

وقلنا من قبل إن الرجل الذي يملك مالاً يكتنزه يجد الحق يأمره بأن يستثمر هذا المال ؛ لأنه سبحانه أمر بفتح أبواب الخير لمن يجد المال ، فيدفع بخايطه بناء عمارة شاهقة في قلب صاحب المال ، فيقول الرجل لنفسه . إن المال عندي مكتنز فلا ينبغي لنفسى عمارة ، ويرين له الحق هذا الأمر . ويعكر الرجل في أن يبني عمارة من عشرة طوابق وفي كل طابق أربع شقق ، وليكن إيجار كل شقة مائة جنيه . وهو حصيلة شهرية لا بأس بها

لقد حسب الرجل المسألة وهو لا يدري أن الله سبحانه وتعالى يقذف في بابه الخواطر ، فيسرع ليشترى قطعة الأرض . وبعد ذلك يأتي بمن يصمم بياض العمارة ومن يقوم بالبناء ، وتخرج العقود المكشوفة . وهكذا يرى أن الثرى قد أن يتبع بهارته كان غيره قد انتفع بماله حتى أكثر طبقات المجتمع فقرا . ويحدث كل ذلك بمجرد الخاطر . ولكل إنسان خواطره ، فالبخيل له من يسرف في ماله ، والكريم له من يكسر من ماله . وإياك أن تظن أن هناك حركة في الوجود خارجة عن إرادة الله فالحق يقول :

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾

(من الآية ٨٩ سورة آل عمران)

وهم يفعلون ذلك لأن الدنوب تطاردهم ، فيعوضون ذلك بإصلاح أفعالهم . ولذلك نجد أن الخير إنما يأتي من المسرفين على أنفسهم فيريدون إصلاح أمورهم وليس هناك من يستطيع أن يأخذ شيئا من وراء الله .

﴿إِنْ أَحْسَنْتَ بِمَعْرِئٍ سَتَجِدَ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

كان الحق سبحانه وتعالى بمجرد الخواطر يدفع الناس إلى ما يريد . نعم فهو غيب قبوم : ولذلك يكون تدبيره في الكون غيباً . وفي قرآنا بمحضه يوماً للسوق و يرى ساحتها في انبوم المحصص وتناميها فتعجب من إبداع محرك الكون : هي الصباح يسير رجال إلى السوق ومعهم عصيهم ولا يحملون شيئاً وهؤلاء داهيون شراء ما يحتاجون إليه ، وآخرون يسوفون أمامهم العجول أو الحمير ، وهؤلاء يذهبون لبيع بضائعهم . و يرى نساء تحمل كل واحدة منهن صفاً من الخصار فعرف أنهم يذهبون لبيع في السوق . و يرى أخريات يحملن سلالاً فارغة ، ونعرف أن كلاً منهن ذاهبة للشراء . وفي آخر النهار نرى المسألة معكوسة . من كان يحمل في الصباح شيئاً حمله غيره ، فمن الذي هيج الخواطر ليذهب من يربح في البيع إلى السوق يبيع ؟

من الذي حرّك الشاري للشراء ؟ هو الحق سبحانه يحقق للرّاعب في البيع أن يوجد المشتري ، ويحقق للرّاعب في الشراء أن يوجد البائع . إنه ترتيب الحق القوم . وسمع من يقول : لقد أنزل في السوق اليوم عشرين طناً من العطاطم وأربعين طناً من الكومة . وعبرها من الأطنان . ونجد آخر النهار أن كل شيء قد بيع . إنها خوطر الله المتوارنة في الناس والتي توازن المجتمع

إذ الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي حركة المتحرك . ويريد أيضاً ألا يفترق الإنسان أو يتمتع بغير مجهود : لأن من يسرق إنما يأخذ بمجهود غيره . وهذا العمل يرهق الغير في العمل .

إن في الإسلام قاعدة هي : عندما تكثر البطالة يقال لك لا تصدق على الناس بفقد من ملكك ، ولكن افتح أي مشروع ولو لم تكن في حاجة إليه كان تحفر بئراً وتردمها بعد ذلك وأعط الأجير أجره حتى لا يعود الإنسان على الكسل ، بل يجب تعويده على العمل ، ومن لا يقدر على العمل فلا بد له من ضمان . قضيات الإنسان لفوته يكون من عمله أولاً ، فإن لم يكن قادراً على العمل ، قضياته من أسرته وقربته ، فإن لم توجد له أسرة أو قرابة ، فأهل محبته مسئولون عنه ، وإن لم يستطع أهل القرية أو المحلة أن يوفرؤا له ذلك ، فبیت المال عليه أن يتكفل بالقرية .

إذن فالأرضية الإيمانية تحثنا على أن نضمن للإنسان العمل ، أو نعوله ونقوم بما

يحتاج إليه إن كان عاجزاً . ولكن الافة أن بعضاً من الناس يحبون عملاً بدائته ، فهذا يرغب في التوظيف في وظيفة لا عمل فيها ، ونقول له :

في العالم المعاصر أزمة عمالة رائدة فتعلم أي مهارة ؛ فماضت الحياة أبداً على طالب قوت من عمل .

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة حين أقام أول مزاد في الإسلام . عندما جاء له رجل من الأنصار يسأله ، فقال له .

(أما في بيتك شيء . قال الرجل : بلى ، جئت تلبس بعمه وبسط بعضه ، وقمب - أي قدح - نشرب فيه من الماء . قال : إيتني بهما . فأتاه بهما . فآخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال : من يزيد على درهم ؟ - مرتين أو ثلاثاً - قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأعرجي وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فاقبله - أي ألقه - إلى أهلك ، واشتر بالأخر قلوماً فائتني به)^(١)

إذن أشار النبي صلى الله عليه وسلم على الرجل وأمره بأن يحضر المجلس الذي يام عليه والقدح الذي يشرب فيه ، حتى يعرف الرجل أنه تاجر في شيء يملكه ، لا في عطاء من أحد . وجه الرجل إلى حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ووجد أن النبي قد سوى له يداً للقدوم وقال للرجل .

(اذهب فاحطب وبيع ، ولا أرينك حسنة عشر يوماً)^(٢)

وذهب الرجل يحطب وبيع امتثالاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وجاء بعد خمسة عشر يوماً وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(هذا خير لك من أن تحمي المسألة نكتة في وجهك يوم القيمة)^(٣) .

(١) رواه أبو داود في الزكاة ، وابن ماجه في التجارات ورواه أحمد

(٢) ، (٣) رواه أحمد وأبو داود في الزكاة وابن ماجه في التجارات

هذه هي التربية .

إذن فالفرص الأساسي أن يحصى الإسلام أفراد المجتمع ، فلهي لا يجد قوته
نساعده بالرأى وبالعلم والقدره والقوة . ولخير أن نعلمهم أن يعملوا لأنفسهم
ولذلك جاء الحق لنا بقصه دي القريين المليئة بالعبر

﴿ حَقِّقْ إِذَا بُعِثَ بَيْنَ الْيَوْمَيْنِ وَحَدَّثَ مِنْهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ (١٣) ﴿
(سورة الكهف)

أي أنه لا توجد صلة للتفاهم . ولكنهم قالوا :

﴿ قَالُوا يٰذَا أَفْقَرَيْنِ إِنْ يَأْجُوحَ وَمَا جُوحٌ مُّسْتَوٍ فِي الْأَرْضِ هَلْ نَجْعَلُ لَهُ خَرَجًا
عَلَّ أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ (١٤) ﴿

(سورة الكهف)

وهو هو دو القريين يعلى أنه في غير حاجة ليهم ، ولكن يكتمهم بعض حتى ينفق لهم
مُرادهم

﴿ تَوَلَّى زُرَّ الْمَدِينَةِ حَقِّقْ إِذَا سَلَوِي بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ قَالَ أَفْجُوحًا حَقِّقْ إِذَا جَعَلَهُ نَدْرًا
قَبَّ أَتَوَيْنَ فَرَّعَ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴾ (١٥) ﴿

(سورة الكهف)

ومن العجيب أن القرآن عندما يحكى أمراً فهو لا يحكىه إلا لغرض ، هم طلبوا من
دي القريين أن يبي سداً ، لكنه اقترح أن يحصى لهم ردياً ، ما لفرق ؟ لمد تبين من
العلم الحديث أن السد قد يحدث له هزة من أي جانب فيهدم كله ، أما الردم فإن
حدثت له هزة يزدد تماسكاً . ولم يعمل دو القريين لهم ، ولكن علمهم كهف يصنعون
الردم ، وذلك حتى لا يعيشوا مع الإحساس بالعجز وهكذا يُعنى القرآن أن
الإنسان لا يبد له من عمل . لكن ماذا إن صرق ؟

أولاً ما هي السرقة ؟ إنها أخذ مالٍ مقوم خفية . فإن لم يكن الاحد حمية فهو
عنصاف ، ومرة أخرى يكون حطفاً ، ومرة رابعة يكون اختلاساً .

فأُخذ له أنواعٌ مُتعددة ؛ فالتاجر الذي يفف في دكانه لبيع أي شيء ، وجاء طفلٌ صغيرٌ وخطف قطعةً من الحلوى وجرى ولا يستطيع التاجر أن يطول الطعل أو أن يقدر على الإمساك به ، هذا خطف . أما الذي يفتصب فهو السى فهو صاحب الشيء على أن يتركه له . أما الاختلاس فهو أن يكون هناك إنسان أمين على مالٍ فَيأخذ منه ، أما السرقة فهي أخذ مالٍ مَقومٌ خطية وأن يكون في حرزٍ مثله ؛ أي يكون في مكان لا يمكن لغير المالك أن يدخله أو يتصرف فيه إلا بإذنه . أما الذي يترك بابه مفتوحاً لو يترك بضاعته في الشارع فهو المتصر . فكما يأمرنا الشرع بالآسرق أحدٌ أحداً ، كذلك يأمر بعدم الإهمال ، بل لابد للإنسان أن يحفل أشيائه ويتوكل . وسببها هو المُشرع العَدْل الذي يقيم البقطة على الجاهل . حدّ الشرع السرقة بما قيمته ربع دينار . وربع الدينار في ذلك الزمن كان يكفي لأن يأكل إنسان هو وعياله ويزيد ، بل إن الدرهم كان يكفي أن يقيم أود أسرة في ذلك الوقت

وكيف نفوم ربع الدينار في زماننا ؟ إن كان لا يكفي لمعيشة ، فوجب أن ترفع النصاب إلى ما يعيش ، وما دام الدينار كان في ذلك الزمان دهماً ؛ فربع الدينار ترفع قيمته . وقديماً كان الجنيه الذهب يساوى سبعة وتسعين قرشاً ونصف القرش . أما الجنيه الذهب حالياً فهو يساوى أكثر من مائتين وسبعين جنيهاً ، وقد يكون هناك إنسان يسرق لأنه محتاج أو جائع ، ولذلك وضع الشرع له قدراً لا يتجاوز المحتاج لحفظ حياته وحياته من يعول هو الدرهم . وسرقة الدرهم لا حد فيها كي لا إثم فيها ، وذلك إذا استنفذ كل الطرق المشروعة في الحصول على القوت ، ونعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الدرهم للرجل وقال :

(اشتر طعاماً لك ولاسرتك) .

وكان الدرهم - كما قلنا - يكفي في ذلك الزمن . والدرهم جرم من اتقى عشر جزءاً من الدينار ، فربع الدينار ثلاثة دراهم ، والدرهم يساوى في زمن هذا أكثر من عشرين جنيهاً .

والساحيون يقولون . إن سيدنا عمر ألغى حدّ السرقة في عام الرمادة ؛ ونقول هم . لا . لم يسقط عمر بن الخطاب الحد ، فالحد باقي ولكنه لم يدخل الحادثة التي حصلت فيه بوجوب الحد . والحادثة التي حدثت في عام الرمادة أو عام الجوع هي

وجود الشبهة . وبطلته كأول أمير للمؤمنين ، لم يدخل الحوادث فيما يوجب الحد .
وفي مسألة عبدالرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة . عندما سرق غليانه ، فماذا حدث ؟
قال الغليان لعمر : كنا جوعى ولم يكن ابن أبي بلتعة يعطينا الطعام . ودرأ سيدنا
عمر الحد بالشبهة .

إذ الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي حركة المتحرك وثمرة حركة المتحرك .
لكن بعض السطحيين في المهم يقولون مثل ما قال المعري .
يد بخمس مئتين عجد وديت
سأبها قطعت في ربع دينار
تناقض مانا إلا الكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وهنا ردّ عليه العالم المؤمن فقال :

أنت تعترض لأنّ نعطى ذبة اليد خميسة دينار ، وعندما يسرق إنسان نقطع يد
السارق لأنها أخذت ربع دينار .

وقال العالم المؤمن :

عسر الأمانة أغلاما وأرحصها
ذل الحياة فافهم حكمة الباري

وبلاحظ أن التشريعات الجنائية وتشريعات العقوبات ليست تشريعات بشرية ،
لكن تشريعات في منتهى الدقة . فلو أن مقتنا يقس للسارق أو اللقعة ، ويقتن
للراى والزانية ماذا يكون الموقف ؟

إن الذى يتكلم هو رب العالمين ، فقال هنا : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما
جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عرير حكيم » . والسرقة عادة ما تكون رعية في
الحاجة وهي غالبا ما تكون من عمل الرجل . أما في الراى والزانية ، فنوأن الرجل
لم ينجح ويستتر بجمال المرأة لما فكر في الرأيا . إذ هي صاحبة الباية . ويتنص
سبحانه على العفوية وجاء بالحكمة . وعندما بشرع للقصاص وهي الحالة التي يعلى
فيها دم أقارب القليل ، فيقول .

أى أنها حيلة ليستفى يوسف أخاه معه . ولو استعمل قانون مهرى ذلك الزم لما أخذ أخاه معه . وهذا كيد لصالح يوسف ، لأن « للام » تعبد الملكية أو النسخة وأصاف إخوة يوسف قاتلين :

﴿ قَالُوا إِنِّي بِسَرِقٍ فَتَدَّ مَرْقَ أَخٍ لَّهِ مِنْ قَبْلِ قَاسِرِهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يوسف)

ولماذا قاتلوا ذلك ؟ أصل هذه المسألة أن يوسف كان يحيا عند عمته وعندما كبر وأرادوا أن يأخذوه أرادت العمه أن تستقيه فهدمت في متاعه قنالا أو منطقة كانت لها من أبيها إسحاق وادعت أنها فقدت ذلك ، فغنموا الولد فعزروا معه على الشيء الذى ادعت عته سرقة فاستقته بشرع بنى إسرائيل وكان جراء السرقة في الشريعة هو الاسترقاق . وبسبب هذا الشرع وجاءت آية حد السرقة تأكيداً لنسخ وإن لم يكن قد نسخ بهذه الآية هي بدية لنسخ « والمساوق والسارقة ما قطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

والسنة هي التى تبيّن لنا كيفية القطع ، وكان القطع المبدى اليمنى لأنها عادة التى تباشر مثل ذلك العمل . وفى إحدى رحلاتى إلى أمريكا ، حدثنى أخ مسلم حسن جماعة تحضر إحدى محاضراتى وقال : إن التيمّن يجب أن يكون فى كل شيء ، فلماذا يأكل البعض بيده اليسرى ؟

قلت إن هذه مسألة تكوينية بدليل أن بعض الناس أجهزتها تحتف ، فليست المسألة ميكانيكية . وأضحت . إن من خيبة بعض الاختراعات البشرية أنها لا تحظى كالحاسب الآلى ولو كان يتقى ويحار لأمكن أن يحظى ، أما العقل فهو يعرف الانتقاء . وقلت : إننى أسأل من لسائل أن يقع فلما وقف حليت منه أن يتقدم جهتي فلما تقدم جهتي مدّ رجله اليمنى ، فقلت تعليقا على هذا : « إنه تكوين خلفى » ولذلك نالنى عنده ولد تتابى عليه يمينه فبيناك أن ترغمه على ذلك لأن مثل هذه العملية أودعها الخالق لتشدّ في الخلق ، ولتظهر قدرة الخالق

فلا داعى لعهر الابن الذى تتابى عليه يمينه ! لأن العلماء قالوا إن مراكز السيطرة ليست فى اليد ولكن فى المخ . وقد أوجد الحق تلك الأمور فى الكون حتى نفهم أن

خالق الكون لم يخلق الكون وتركه بسنه ، لا ، إنه يخرق السن كما أراد . لكن لو
تأى إنسان على استعمال اليد اليمنى في الأكل مثلا وهو قادر على ذلك فإنه يكون مخالفا
لسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبجائبا للمطره

« فاقطعو أيديها جزاء بما كسبا نكلا » وإذا سمعنا كلمة « كسب » فهي تعنى
الأخذ لأكثر من رأس المثل . والسارق يكسب السببة لأنه أخذ ما هو موقوف للصورة .
والنكال : العقاب أو هو العبرة المأمرة وقوع الحزم سواء لم ارتكب الجريمة وكذلك
لم يراها . والحق يقول عن بعض الأمور .

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمْ صَافَّةٌ مِّنْ أَمْزِجِينَ ﴾

(من الآية ٢ سورة التور)

وصورة الإعلان عن تنفيذ عقوبة الفعل المؤتم من أجل الاعتبار والعظة ،
فالتشريع ليس من بشر لبشر ، إنما تشريع خالق لمخلوق . والخالق هو الذى صنع
الصنعة فلا تتعلم على خالق لصنعة . والشريعة لا تقرر مثل هذا العذاب رغبة في
قطع الأبدى ، بل تريد أن تمنع قطع لأبدى

وإن ظل التشريع على الورق دون تطبيق فليس يرتدع أحد . والنبي قالوا « نطع
الأيدي فعل وحشي » ، يقول لهم : إن بدأ واحدة قطعت في السعودية فاستتعت كل
سرقة . وإذا كان القتل أنفى للقتل ، فالقطع أنفى للقطع . أما عن مسألة التشويه
التي يطمطون بها فحادثة سيارة واحدة تشوه عدد من الناس وكذلك حادثة نفجار
لأنسرية « بوتجاز » تعمل أكثر من ذلك . فلا تنظروا إلى قصاص معصولا عن
السرقه إن انتشرت في المجتمع . وإساءة القائمين على الأمر للإجراءات التي يترتب
عليها العقوبات بسى المجتمع بشاعة الجريمة الأولى ، وعندما يحين وقت محاكمة
المجرم تكون الرحمة موجودة .

يكن إن وقع العقاب ساعه الجرم تنته المسألة . وساعة يسمع اللصوص أبا
منقطع يد السارق ، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ولا يرتكب الجرم . لأن المراد
من الجراء العبرة والعظة ومقصد من مقاصد التربية وتذكير للإنسان بمطلوبات الله
عنده إن أخذته العملة في سياسة الحياة فالجاء هنا نكلا أى عقابا وه نكولا وهو

الرجوع عن فعل الذنب أى العبرة المانعة من وقوع الجرم . فكان الجراء كان المقصود منه أن يرى الإنسان من فعلت يده فمتنع عن التكبر فى مثل ما آلت إليه هذه الحالة .

أو أن يحافظ الذى قصعت يده عن ما بقى من جوارحه الباقية ، لأنه قد قُطعت يمينه وإن عاد قُطعت يساره ، فإن عاد قُطعت رجله اليمى ثم إن عاد قطعت رجله اليسرى ويكون النكال لمنع الرجوع للجريمة ، وهو إما رجوع عن رأى العقوبة تقع على السارق أو الرجوع من السارق نفسه إن رأى أى جراحة من جوارحه قد نقصت فيحرص أن يظل الجوارح الباقية له ويعامل الحق حلقه سنة كونه هو ، أن من يأخذ غير حقه يحرم من حقه . ومثال ذلك قوم من بنى إسرائيل قال الله حكما فيهم : لقد استحللتم ما حرمت عليكم فلا جزاء لكم إلا أن أضييق عليكم وأحرم عليكم ما أحللت لكم فقال :

﴿ فَبَطَلْهُمْ مِّنَ الَّذِينَ هَدَوْا حَرَمًا عَلَيْهِمْ عَلَيْهِمْ أُحِلَّتْ مِّنْهُم ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن ليس فى قدرة أحد أن يضحك على الله أو أن يخدع الله أو أن يأخذ ما ليس حقا له . فإن أسرف الإنسان فى تعاطى أشياء حرمها الله عليه فسبى وقت يحرمه الله فيه من أشياء حللها له كالذى أسرف فى شرب الخمر أو فى تناول المواد المخدرة التى تغيب عن الوعى ، يتلبه الحق بما يحرمه محروما من منفع أخرى كانت حلالا وإن أسرف الإنسان مثلا فى تناول الحلوى فإن أسرفه بآتيه ، ويحرم الله عليه أشياء كثيرة

ولو قام السرف على نفسه ما أحله لنفسه بما حرمه الله عليه لوجد الصنفقة بالنسبة له خاسرة . فالذى أسرف بغير حق فى أن يأكل مال أحد ، يرى ماله وهو يضيع أمام عيبه . ولما فى ذلك المثل . كان السادة فى لريف - قديما - يقومون بتنقية الدقيق إلى درجة عالية حتى يصبح فى تمام النقاء من « الردة » . ويسمون هذا النوع من الدقيق « الدقيق العلامة » وكانوا يأكلون منه ويتزكون البقية من الدقيق محتفظا بالردة ليأكله الخدم أو الفقراء ، فتأتى مرة يحرم الأطباء عليهم هذا الدقيق الأبيض ، ولا يجد الواحد منهم طعاما إلا الدقيق « السس » الذى كان يرفضه قديما فعليا - إذن - أن تنظر إليها كفضيحة سائلة فى الكون كله ، ولتجس قول الله أملك .

﴿ فَمِطْلَقٌ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا أَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الباء)

فأنت إن أخذت كسب يد واحدة يحرمك الحق من يد لا من كسب . فإذ زدت حرمك الله من جارحة أخرى ، وهكذا . وتلك سنة كونية تعدل نظام الكون بالنسبة للناس ، وخصوصاً من يستغلون جزاء الآخرة ، ومن يفرغهم ويعرهم ويظلمهم حلم الله عليهم .

وأنت إذا ما نظرت وصنعت لنفسك رفعة جعرافية في البيعة التي تعيش فيها في أسرتك ، أو حيك ، أو بلدك أو أمتك ، فأنت تجد فوما قد حرموا بأنفسهم من غير أن يحرم عليهم أحد ، فتجد واحداً مصاباً - والعياذ بالله - بالسوليا : ولا يقدر أن يأكل قطعة من اللحم ، أو آخر مصاباً بمرض السكر ، وتراه غير قادر على أن يأكل قطعة من الخبز ، أو ملحقه من العسل . لأن أحداً لم يستطيع أن يأخذ شيئاً بدون علم الله . وصنع الله ذلك لأنه عزيز لا يُغلب . فإياك أن تعلم أن بإمكانك أخذ شيء من وراء شرع الله أو نظن أنك قد عدت شرع الله ، فهو سبحانه عزيز لا يُغلب أبداً . ويرى في حياتنا الذين يأخذون أموالاً بغير حق رشوة أو سرقة أو احتلاساً ، نرى مصارف هذه الأشياء أو الرشاري أو الأموال قد ذهبت وانصفت في مهالك ومصائب ؛ إننا نجد ما أخذت ما أخذوه من حرام ، ومالت وجارت على ما كسبه من حلال . وأريد من اسرفين على أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم كشف حساب ، فيكتبوا في ناحية القرش الذي كسبه من حرام ، ويكتبوا في ناحية أخرى كل قرش كسبه من حلال . وليشهد كل مسرف على نفسه في أكل حقوق الناس المصائب التي سببها الله بها ، وليسوف يجد أنه قد صرف لمراعاة المصائب كل الحرام وبعضها من الحلال . ولذلك قال الأثر الصالح : « من أصاب مالا من نهوش أدبه الله في نهيره »^(١) .

وكنتم أعرف اثنين من الناس ، ولكل واحد منهما ولد في التعليم . وكنتم أجد أحدهما يعطى ولده خمسة غروش . فيقول الابن لأبيه . « معي مصروف الأس »

(١) روى القاضي من أبي سلمة الحمصي سرفوما ، وعمره الديلمي لحيي بن جابر وليس محلياً ، والمعنى من

أصاب مالا من غير حله أدبه الله في مهالك وليسور حبيدة

وكان الآخر يعطى ولده عشرة قروش فيقول الابن له : « إنها لا تكفى شيئاً » . وشاء الحق أن يجمعنا نحن الثلاثة في مكتب يتبع وزارة الري بالقرغازيق ، فمما جئنا لنخرج إذا برئيس كتاب تلك المصلحة يأتى نظرف أصفر كبير به أشياء كثيرة ويتناوله لواحد منها ، فسألته : ما هذا ؟ فقال : بعض من الورق الأبيض وبعض من ورق النشاف وهدى من الأقلام حتى يكتب الأولاد واجبهم المدرسى . فقلت له : هذا سر خفية أولادك النواسية وإسرافهم والدروس الخصوصية التي تدفع فيها فوق ما تطيق وسر قول ابنك لك : إن القروش العشرة لا تكفى شيئاً . أما الشخص الآخر فإبته يقول له : لا أريد مصروف يد اليوم لأن معى خمسة قروش هى مصروف أمس ولا أريد أن أخد دروساً خصوصية لأنى أحب الاعتناء على نفسى .

وسبحانه الحق القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . ويقول لنا بلاها :

قال أبو الجلد : « لوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء : قل لقومك . ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ؟ إن كنتم ترون لى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون لى أراكم فلم تهملمنى أهون الناظرين إليكم »^(١) .

إذاً قوله الحق « جزء مما كتبنا تكالاً من الله » واضح تماماً ، ويردف الحق قوله هذا : « والله عزيز حكيم » . وسبحانه عزيز لا يغلبه أحد ، حتى الذى يسرق ، إنما يسرق الرزق المكتوب له ، لأن العلماء اتفقوا على أن الشيء المرسوق رزق أيضاً لأنه يتنفع به . والله ليرصبر لجأه وطرق عليه بابيه . فليأكم أن تحتالوا على قدر الله ، لأنه حكيم فى تقديره .

وكلمة « حكيم » لها فى حياتنا قصة ، كنا ونحن فى مقبل حياتنا التعليمية نحب الأدب والشعر والشعراء ، وبعد أن قرأنا للمعرى وجدنا عنده بعضاً من الشعر يؤول إلى الإلحاد ، فزهدنا فيه وخصوصاً عندما قرأنا قوله فى قصيدته :

نحطمنا الأيام حتى كأننا
رجاج ولكن لا يهاد لنا بك

(١) لورده ابن رجب فى شرحه فى كتاب (جذع العلوم واخكم) .

وأحدنا من ذلك القول أنه ينكر البعث ؛ فقلت . يغيبا الله عنه ولكن صديقا
الشيخ فهمي عبداللطيف - رحمه الله - رأى المعري في الرؤيا وكان مولعا بالمعري ،
فجاء إلى ذات صباح ونمى في الزقاق وقال لي : يا شيخ لقد رأيت المعري الليلة في
الرؤيا وهو غاضب منك أنت لأنك جفوته . فقلت . أنا جفوته لكذا وكذا وأنت
تعلم السب في ذلك . وقال الشيخ فهمي عبداللطيف . هذا ما حصل .

وقلت لنفسى . يجب أن أعيد حسابي مع المعري ، وجئت بنداوين « سقط الزند »
وه لزوم ما لا يلزم . ووجدنا أن لرجل عذرا في أن يمتنع عينا ؛ لأن آفة الناس
الذين يسجدون خواطر أصحاب المكر أنهم لا ينظرون إلى تاريخ مفعولاتهم ،
وقد قال المعري قوله الذي أنكره عليه وقت أن كان شاب مفتونا بفكره وعندما مضج
قال عكسه . وكثير من المكربين يبرون بذلك ، مثل طه حسين والعقاد ، بدأ كل
منها الحياة بكلام قد يؤول إلى الإلحاد ولكنها كتب بعد النضج ما يحمل عطر الإيمان
الصحيح ؛ لذلك لا يصح لمن يحكم عليهم أن يأخذهم بأوليات خواطرهم التي
بدأوها بالنك حتى يصلوا إلى لغير . وجلست أبحث في المعري الذي قال :

نحطنا الأيام حتى كأننا
رجاج ولكن لا يعد لنا ميث

فوجدته هو نفسه الذي قال بعد أن ذهبت عنه المرافقة الفكرية .

زعم المنجم والطبيب كلاما
لا تحتر الأجساد قلت إليك
إن صح قولكما فليست بسماسر
أو صح قولي فالخمس عليكما

كأنه عاد إلى حقيرة الإيمان :

وكذلك قال المعري .

يد بخمس مشين عسجد وديت
ما بها قطعت في ربع دينار

فيه فعلية أن يأكل لصاحب الشيء ويستعمله ويقول له : كنت في غفلة نفسي وفي زهوة الشيطان منى ففعلت كذا وكذا . وأعتقد أن أى إنسان سرق من إنسان آخر وبعد فترة اعترف له وطلب العفو منه فأنا أقسم بالله أنه سيعفو عنه راضيا . وبذلك يستحل الشيء الذي أخذه . لكن لماذا إن كان السارق لا يعرف صاحب الشيء المسروق . كلص . الأتوبيسات ؟

إن كان قد سرق محفظة نفوذ من شخص ووجد العنوان يستطيع أن يرد الشيء المسروق بحالة يريده من مجهول تحمل قيمة المبلغ المسروق ويطلب فيها السماح عن السرقة . وإن لم يعرف من سرقه فعلية أن يقول : الله أعلم بصاحب هذا المبلغ وأنا سأتصدق به في سبيل الله وأقول : يارب ثوابه لصاحبه .

إذن فوجوه الإصلاح كثيرة . وإن كان ينجل من رد الشيء المسروق فليقل : فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة . وفي القرآن تأتي آيات كثيرة عن التوبة : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

كان توبة الله مكتوبة أولا ، ثم يتوب العبد من بعد ذلك . وسبحانه يقول :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة طه)

وللتوبة - كما نعلم - ثلاث مراحل . فالحق حين شرع التوبة كان ذلك إذنا بها وبعد ذلك يتوب العبد ، فيتوب الله عليه ويحور عنه الذنب ويكون الغفران بقبول الله للتوبة . ولذلك يقول الحق : « فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

وَصِفَةُ الْغَفْرِ وَصِفَةُ الرَّحْمَةِ كُلٌّ فِي مَطْلَعِهَا تَكُونُ لَهُ وَحْدَةٌ ، وَهِيَ تَوْبَةُ الْجَانِّ وَرَحْمَةُ الْمَجْنُونِ عَلَيْهِ . وَكَيْفَ « إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » تَوْضِيحٌ لِّمَا أَنَّهُ سَبْحَانَهُ لَهُ طَلَاةُ الْقُدْرَةِ وَهُوَ يَخْفَرُ وَأَنْ يَرْحَمَ قَوْلُكَ أَنْ تَقُولَ . إِنْ فَلَانَا لَا يَسْتَحِقُّ الْغَفْرَةَ وَالرَّحْمَةَ ؛ لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ مَالِكُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الَّذِي أَحْطَى لِلْبَشَرِ مَا يَسْتَحِقُّونَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجِبَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَهُ طَلَاةُ الْقُدْرَةِ فِي الْكَوْنِ ، وَلِلْمَلِكِ يَقُولُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ :

﴿الَّذِي تَعَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ويستخدم الحق سبحانه من أساليب البيان ما يخرجنا عن الغفلة ، فلم يقل :
« الله له ملك السموات والأرض » ، ولو كان قد قال ذلك لكان الأمر خيراً من
التكلم وهو الله ، ولكنه يريد أن يكون الخبر من المخاطب إقراراً من العبد .
ولا يخرج الخبر تخرج الاستفهام إلا وقائل الخبر واثق من أن جواب الاستفهام في
صاحبه ، والمثال على هذا هو أن يأتيك إنسان ويقول : « أنت تهملي » ، فتقول : أنا
أجبت إليك .

ولكن إن أردت أن تستخرج الخبر منه فانت تقولي : ألم أجيب إليك ؟ وبذلك
تستفهم منه ، والاستفهام يريد جواباً . فكان المشوّل حين يجيب عليه أن يدبر ذهنه
في كل مجال ولا يجد إلا أن يقول : نعم أنت أحسنت إلني . ولرجاء ذلك من المتكلم
لكانت دعوى ، لكن إن جاءت من المخاطب فهي إقرار ، ومثال ذلك قول الحق :
﴿الَّذِي تَفْشَرُ لَكَ صَدْرَكَ﴾

(سورة الشرح)

إنه خبرٌ من المتكلم والإقرار من المخلفي . وقد يقول قائل ولماذا لم يقل الحق :
« أشرحنا لك صدرك » ؟ كان من الممكن ذلك ، ولكن الحق لم يقلها حتى لا يكون
في السؤال إيماء بجواب الإثبات بل جاءت بالنفي
وفي وقوله الحق :

﴿الَّذِي تَعَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(سورة الملك)

نجد منطق الآية ليس دهورى من الحق ، ولكنه استفهام للخلق ليدبروا الجواب على هذا ، فلا يجدوا جواباً إلا أن يقولوا . « الله ملك السموات والأرض » . وهذا أسلوب لإثبات الحق والإقرار من العباد ، لا إخباراً من الحق . « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » ، وقد يقول إنسان . إن هناك أجزاء من الأرض ملكا للبشر . ونقول . صحيح أن في الأرض أجزاء هي ملك للبشر ، ولكن هناك فرق بين أن يملك إنسان ما لا يقدر على الاحتفاظ به . . كملك البيت والأرض ، إنه يملك - بكسر الميم - ماله ، وهناك « ملك » - بضم الميم - يملك هو الله . وفي الحديث نجد أن لكل إنسان ملكية ما . ولكن الملك في الأرض يملك القرار في أملاك شعبه ، وهذا في دنيا الأسباب ، أما في الآخرة فالأسباب كلها تمتنع :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ فَهُوَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة طه)

فلا أحد له ملك يوم القيامة .

« ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يُعَذِّبُ من يشاء ويفقر لمن يشاء » والقارىء بإمعان للقرآن يجد فيه عبارات تجمع بين أمرين أحدهما يتقدم ، والآخر يتأخر . ونأتى الأمر في أحياى أخرى بالعكس . ولكن هذا القول هو الوحيد في القرآن الذى يأتى على هذا النسق ، فكل ما جاء في القرآن يكون الغفران مقدماً على العذاب ، لأن الحق سبحانه قال في الحديث القدسي :

(إن رَحِمِي سَبَقَتْ خُصِي)^(١) .

فسإذا جاء العذاب في هذه الآية مقدماً على الغفران : « يعذب من يشاء ويفقر من يشاء » هل السبب هو الثمن في الأسباب ؟ لا ، لأن جمهرة الآيات تأتى بالغفران أولاً ، ثم بالوعيد بالعذاب لمن يشاء سبحانه . ولننظر إلى السياق جاء الحديث أولاً عن السارق والسارقة ، وبعد ذلك عصى نازب . فالسرقة إذن تقتضى التعذيب ، والتوبة تقتضى المغفرة ، إذن فالترتيب هنا منطقي .

(١) رواه البخاري في التوحيد ورواه الحلق . ورواه مسلم في التوبة ورواه الترمذي في الدعوات ، وابن ماجه في

ونلاحظ أن هذا القول قد جاء بعد آية السرفة وبعد آية الإعلام بأن له مُلْكُ
السموات والأرض . ولذلك كان لا بد من تذييل بخدم الاتيين معاً . ليؤكد سيطرة
القدرة . وحين يريد الحق أن يرحم واحداً . فليس في قدرة المرحوم أن يقول :
« لا أريد الرحمة » . وحين يعذب واحداً لن يقول الملعوب - بفتح الذال - :
« لا داعي للعذاب » . فسيطرة القدرة تؤكد أنه لا قدرة لأحد على ردّ العذاب أو
الرحمة . إذن فالآية قد جاءت لتخدم أغراضاً متعددة . فإن حسبناها في ميزان
الأحداث فللحق كل القدرة . وإن حسبناها في ميزان الزمن ، فكيف يكون
الأمر ؟ .

نعرف أن التعذيب للسرفة قسبان .. تعذيب بإقامة الحد ، وفي الآخرة تكون
المغفرة . إذن فالكلام منطقي متسق .

إنني أقول دائماً : إياكم لن نخذعو بأن الكافر يكفر ، والمعاصي بمعنى دون أن
ينال عقابه ؛ لأن من تعود أن يتأثر على منهج الله ، فبكفر أو بمعنى لا بد له من
عقاب . لقد تجرد على المنهج ، ولكنه لا يجرؤ على التمرد على الله .

إن الإنسان قد يتمرد على المنهج فلا يؤمن أو لا يقيم الصلاة ، لكن لا قدرة
لإنسان أن يتمرد على الله ، لأنه لا أحد يقدر على أن يقف في مواجهة الموت ، وهو
بعض من قدرة الله . وسبحانه وتعالى يحكم ما يريد . وقد أراد أن يوجد للإنسان
احتياطاً في أشياء ، وأن يقهر الإنسان على أشياء ، فها من مرتت نفسك على التمرد
على منهج الله عليك أن تحاول أن تتمرد على صاحب المنهج وهو الله . ولن تستطيع
لا في شكك ولا لولئك ولا صحتك ولا ميعاد موتك . وليفتح كل مُتمرد أذنيه ،
وليحرف أنه لن يقدر على أن يتمرد على صاحب المنهج وهو الله . إذن صدق قول
الله : « والله على كل شيء قدير » .

ومن بعد ذلك يقول الحق .

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ

فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَامِهِمْ وَلَمْ
تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ
لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمِهِ الْآخِرِينَ لَمَّا تَوَلَّوْا
يُخْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ
أُرِيدَ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَتَوَقَّه فَاخْذُرُوا وَمَنْ
يُؤْرِدِ اللَّهُ فَتَنَّهُ فَلَئِنْ تَمَّاكَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
أَوْ لَتَمَّاكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١١﴾

نأن في النداء بحرف الإقبال وهو « يا » ويدخله على « المأدى » أى أنك تطلب
إقباله . فهل يطلب إقباله لجرد الإقبال أو لشيء آخر ؟ مثال ذلك قول الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إذن النداء هنا لتلاوة التكليف عليهم . وحين يُنادى الحق سبحانه وتعالى لشرف
من ناداهم وهم رُسُلُهُ ، نجد أنه نادى كل الرُّسل بمشخصاتهم العَلَمِيَّة .
(يا آدم) ، والمُشَخَّص العَلَمِي هو الاسم ، وهو لا يعطى وصفاً إلا لتشخيص
الذات بكون صفاتها .

وكذلك نادى الحق إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١١﴾ قَدْ صَلَّقْتُ الرُّءْيَا ﴾

(سورة الصافات)

وكذلك نادى الحق نوحاً :

﴿ يَنْتُحِ أَهْبَاطَ بَيْتِهِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وكذلك نادى الحق موسى عليه السلام :

﴿ يَمْوِيئُ إِلَىٰ أَنَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وكذلك نادى الحق عيسى ابن مريم عليه السلام .

﴿ يَدْعِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَإِتَ ثَلُتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

كُلُّ الرُّسُلِ ناداهم الحق بِالشَّخْصِ الْعَلَمِيِّ الَّذِي لَا يُعْطَى إِلَّا التَّشْخِيصُ ، ولكن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتَمَ الرُّسُلِ مَا نَادَاهُ اللهُ بِاسْمِهِ أَبَدًا ، إِنَّمَا نَادَاهُ اللهُ بِالْوَصْفِ الزَّائِدِ عَنْ مُشَخَّصَاتِ الذَّاتِ فيقول : (يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ) ، ويقول : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) .

حَقًّا إِنَّ الْجَمِيعَ رُسُلٌ ، ولكنه سبحانه يريد أن يدلنا أن عمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الرُّسُولُ الَّذِي جَاءَ نَاسِخًا لِلْكَلِّ وَمُؤَمَّنًا بِالْكَلِّ ، هو الَّذِي يَسْتَحِقُّ التَّعْدَاءَ بِالْوَصْفِ الزَّائِدِ عَنْ مُشَخَّصَاتِ الذَّاتِ . « يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ » . وهو الرُّسُولُ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ السَّاعَةُ . ولذلك نجد خطاب الحق لرسوله دائماً : « يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ » أو : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ » ، وهذا نوع من التكرير .

واحق يقول هنا : « يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَجْزُنْكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » . أي لَا تَحْزَنْ يَا رَسُولَ اللهِ مِنَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ . وحين يخاطب الحق رسوله لَئِلاَّ يَحْزَنَ ، علينا أن نعرف هِيَ مَاذَا يَكُونُ الْحُزَنُ ؟ . سبحانه يوضح لرسوله : إِيَّاكَ أَنْ تَحْزَنَ لِأَنَّ مَعَكَ فُلٌّ يَنَالُكَ شَرَّ غَصَوبِكَ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ أُخْتَارَكَ رَسُولًا وَأُحْدِثُكَ ، إِيَّاهُمْ لَنْ يَنَالُوا مِنْكَ شَيْئًا .

وقد يكون حزن النبي صلى الله عليه وسلم حزناً من لون آخر ، اسمه الحزن التأسى الذى قال فيه الحق :

﴿ فَعَلَّكَ بَئِضٌ نَّفْسِكَ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ إِنَّ لَهُمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْقَدِيثِ أَسَفًا ۝١٠ ﴾

(سورة الكهف)

لأن الحق لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لما جعل لديهم القدرة على الكفر

﴿ إِنْ تَشَاءُ نَزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَفُلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنَا ۝١١ ﴾

(سورة الشعراء)

وهل الله يريد أعتاقاً ؟ لا . بل يريد قنوباً ، لأن سيطرة القدرة بإسكانها أن تفعل ما تريد ، بدليل أن السماء والأرض والجبال وكل الكائنات أتت للمخالق طائعة . فلا يمكن أن ينأى الكون على خالقه . والقدرة أفادت القهر وأفادت السيطرة والعزة والغلبة في سائر الكون ، ولكن الله أحب أن يأتى عبده - وهو السيد - بالإيمان مختاراً ؛ لأن الإيمان الأول هو إيمان القهر والقدرة ، ولكن الإيمان الثانى هو إيمان المحبة .

وقد صرنا من قبل المثل على ذلك وأوضحه . هب أن عندك خادمين ويطب أحدهما في سلسلة لأنت إن تركته قليلاً يهرب ، وعندما تريده تهذب السلسلة فيأتى ، إنه يأتى لسيطرة قدرتك عليه والقهر منك ، أما الخادم الآخر فأتت تتركه حراً ويأتبك من فور النداء . فأيهما أحب إليك ؟ لاشت أنك تحب الذى يجىء عن حب لا عن قهر . وكل أجناس الكون مُسخرة بالقدرة ، وشاء الحق أن يجعل الإنسان مختاراً لذلك قال :

﴿ وَإِنْ عَرَفْتِ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّهَا أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۝١٢ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فقد رفضت كل الأجناس حمل لأمانة خروفاً وإشفاقاً من أنها قد لا تستطيع القيام بذلك . والحق يقول لرسوله : « لا يحزنك » فلما إذا كان الحزن بسبب الخوف على الميخ منهم ، فالحق ينصره ولن يمحتم منه . وأما إن كان الخوف عليهم فلا ،

لأنه سبحانه خلق الإنسان مختاراً غير مفعولٍ على القيام بتعاليم المنهج ، وسبحانه يُحب أن يعرف من يأتيه حُباً وكرامة .

ويقول الحق لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : « لا يميزك الذين يسرعون في الكفر » .

وهذه رُبوية التعبير ، فنحن نعلم أن السرعة تكون إلى الشيء ، لا في الشيء كما قال الحق :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة آل عمران)

ولكن هنا يجده يقول : « يسارعون في الكفر » . ولو قال الحق : « يسارعون إلى الكفر » لكان قد ثبت لهم إيمان وبعد ذلك يذهبون إلى الكفر ، لا . الحق يريد أن يوضح لنا : أنهم يسارعون في دائرة الكفر . ويعلمنا أنهم في البداية في الكفر ، يسارعون إلى كفر أشد . ونعرف أن « في » في القرآن نستطيع أن نضع من أجلها المجلدات . فقد قلنا من قبل قال الله تعالى : (سيروا في الأرض) .

ولم يقل سبحانه سيروا على الأرض .

واحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٩ سورة النساء)

وهي ليست أموال للمخاطبين ، ولكنها في الأصل أموال السفهاء . ولكن سبحانه يبيننا أن السفهاء غير مأمونين على المال ، ولذلك يأمر الحق بالوصي والتميم على المال ويأمره أن يعتبر للمال ماله حتى يحافظ عليه . ويأمره ألا يجزئ المال ليأكل منه الشيء ، لأن المال إن أكل منه الشيء ودفع له الزكاة ، قد ينصب ويُهد . لذلك قال الحق

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴾

(من الآية ٩ سورة النساء)

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَأَرْزُقْهُمْ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النازعات)

لم يقل ارزقهم منها ، ذلك أنه سبحانه شاء أن يعلمنا أن الورق مطمود في رأس المال ويجب أن يتحرك رأس المال في الحياة حتى لا ينقص بالتمقة ، وحتى لا تستهلكه الزكاة ، وحتى يسفح السفيه رُشدَه ويجد المال قد نما . هذه بعض من معطيات « في » وهناك آية الصلب .

﴿ وَالْأَصْلَبُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة النازعات)

بعض المفسرين يقولون في هذه الآية : « لأصلبكم على جذوع النخل » ونقول : إن الذين قالوا ذلك لم يُفسروا هذه الآية وكان يجب أن يقولوا في تفسير ذلك :

لأصلبكم على جذوع النخل تصلباً قوياً يدخل المصلوب في المصلوب فيه ومثال ذلك لو جئنا بعلو ثقل وربطناه على الأصبع بخيط رقيق وأوثقنا الربط ، فعود الثقب يقوس في الأصبع حتى يصير وكأنه داخل الأصبع . وعندما يقول الحق : « ولأصلبكم في جذوع النخل » فيجب ألا نفهم هذا القول إلا على أسس أنه تصلب على جذوع النخل تصلباً قوياً يدخل المصلوب في المصلوب فيه . وتلك هي البلية في وجود « في » وعدم وجود « على » .

والحق يقول ها . « لا يجرئك الدين يسارعون في الكفر » فكأن المسارعة إما أن تكون بـ « إلى » وإما أن تكون بـ « في » . فإن كانت بـ « إلى » فهي انتقال إلى شيء لم يكن فيه ساحة بدء السرعة ، وإن كانت بـ « في » فهي انتقال إلى صق الشيء الذي كان فيه قبل أن يبدأ المسارعة .

« لا يجرئك الدين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » فالإيمان محله القلب ، والإسلام محله الجوارح ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَآمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة المجرات)

إنهم يسارعون إلى الصف الأول في الصلاة وهذا إسلام ، أما الإيمان فمحمته القلب . إذن فالذين قالوا بأفواههم أما ، هم أن يعرفوا أن منطقة الإيمان ليست الأفواه ولكنها اقنوب . وهم قالوه بأفواههم وما مرت على قلوبهم . وماداموا قد قالوا بأفواههم أما وما مرت على قلوبهم فهؤلاء هم المنافقون ، ومعنى ذلك أنهم في كل يوم ستظهر منهم أشياء تدلهم في الكفر ، لأنهم من البداية قد أبطروا الكفر ، وبعد ذلك يسارعون في مجال الكفر

« من الذين قالو آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ، هم إذن صنفان اثنان يسارعان في الكفر ، المنافقون الذين قالوا بأفواههم أما ، والذين هادوا . ويصفهم الحق بقوله : « يسارعون للكذب » وساعه تسمع مادة « السين » والميم والعين ، فهذا يعنى أن الأدن قد استقبلت صوتاً من مُصَوِّت ، هذا المُصَوِّت إما أن يكون مُتَكَيِّمًا بالكلام الحق فيجذب من الأدن الإيمانية استماعاً بإنصات ، ثم يتعدى الاستماع إلى القبول ، فيقول المؤمن . أنا استمعت إلى فلان ، لا يقصد أنه سمع منه فقط ولكن يقصد أنه سمع وقبل منه ما قال .

إننا نعلم أن كثيراً من الوريثين يسمعون كذباً ، لكن الفصيل هو قبول الكذب أو رفضه . وليس لهم أن يكون الإنسان سامعاً فقط ، ولكن أن يصدق ما يسمع ونرى في الحياة اليومية إنساناً يريد أن يصلح شيئاً من أثاث منزله فيأتي بالأموال اللازمة لذلك ، ويقال هنا عن هذا الرجل . « نجر فهو ناجر » ولا يقال له : « نجار » ؛ لأن النجار هو من تكون حرفته النجارة .

إذن كلمة « سماع للكذب لا تؤدي المعنى » ولكن « سماع » تؤدي المعنى ، أي أن صناعته هي التسامع ، وهذا يقول الحق : « يسارعون للكذب يسارعون لقرم آخرين لا يأتوك » أي إيقروا أن يقبلوا الكذب . وكيف يكون مزاج من يقبل الكذب ؟ . لا بد أن يكون مزاجاً مريضاً بالفطرة

وما معنى الكذب هنا ومن هم السامعون ؟ إما أن يكون المقصود بهم الأخبار والرهبان الذين قالوا لأنبيائهم كلاماً غير نبي من واقع من أجل الحفاظ على مراكزهم . وإما أن يكونوا سامعون للكذب لا لصالحهم هم ، ولكن لصالح قوم

آخريْن . كأنهم يقومون بالتجسس . والتجسس - كما نعلم - يكون بالعين أو بالأذن . وتقدمت هذه الوسائل في زماننا حتى صار التجسس بالصوت والصورة . وكان الحق يريد أن يلفتنا أنهم سيعاون للكذب ، أى أنهم يسمعون لحساب قوم آخرين . والقوم الآخرون السى يسمعون لهم هم القوم الذين أصابهم الكبر والغرور واستكبروا أن يحضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم في الوقت نفسه لا يطبقون الانتظار ويريدون معرفة ماذا يقول رسول الله ، لذلك يرسلون الجواسيس إلى مجلس نبي صلى الله عليه وسلم لينقبوا لهم .

أولئك الساعون للكذب هم ساعون لحساب قوم آخرين لم يأتوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبراً . وهؤلاء المتكبرون هم كبار اليهود ، وهم لا يذهبون إلى مجلس رسول الله حتى لا يضعف مركزهم أمام أتباعهم . وعندما ينفل إليهم الكلام يحاولون تصويره على الفرض الذي يريدون ، ولذلك يقول عنهم الحق . « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ » أى أنهم يحرفون الكلام بعد أن استقر في مواضعه ويستخرجونه منها فيهملوه ويريدونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها وذلك بتغيير أحكام الله ، وقال الحق فيها أيضاً من قبل ذلك :

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة التائيد)

أى أنهم حرفوا الكلام قبل أن يستقر . ساعون للكذب ساعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه . وهم الذين يقولون لا تأتبعهم من حواشيس لاستماع إلى مجلس رسول الله . « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تأتوه فاتحلوا » . فكأنهم أقبلوا على اتى بهذا ، فإن أحدوا من رسول الله معنى يستغيثون تخريفه فعلوا . وإن لم يجدوا ما يحرفونه فعليه الحذر .

ومن دراسة تاريخ القوانين الوضعية نعرف معنى السلطة الزمنية . فالقوانين اتى تواضع عليها بشر ليحكموا بها نظام الحياة تأخرت في الظهور إلى الواقع عن نظام الكهنة ، فقد كان الكهنة يدعون أن لهم صلة بالسما ولذلك كان الحكم لهم ، أى أن التقوى في الأصل هو حكم السما والذي جعل الناس تتجه إلى وضع قوانين خاصة بهم أنهم جربوا الكهنة موجودهم يحكمون في قضية ما حكماً . وفي القضية المشابهة يحكمون حكماً آخر . لقد كان كلام الكهنة مقبولا عندما ادعوا لأنفسهم

الانتساب إلى أحكام السماء . لكن عندما تضاربت أحكامهم خرج الناس على أحكام الكهنة ورفضوها ووضعوا لأنفسهم قوانين أخرى .

والحكاية التاريخية توضح لنا ذلك . فقد رأى أحد أتباع ملك في العصر القديم وحاولوا أن يفهموا عليه الحد الموجود بالتوراة . لكن الملك قال للكهنة : لا أريد أن يُرجم هذا الرجل ويبحثوا عن حكم آخر .

ورسخ الكهنة لأمر الملك وقالوا : نَعْمُ وجه الزَّانِ - أى نُسُود وجهه بالحُصم وهو القُصم - ونجعله يركب حماراً ووجهه إلى الخلف ونطوف به بين الناس بدلاً من الرُّجم . وهكذا أعطت السلطة الزمنية السياسية الأمر للسلطة الزمنية الدينية ليُحْمَرُوا في اقوانين . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حاولوا أن يستغلوا وجوده في استصدار أحكام فيها هولاة ولي . ورفضوا عليه بعضاً من القضايا من أجل ذلك ، فإن جاء الحكم بالتخفيف قبلوه ، وإن كان الحكم مُشَدِّداً لم يقبلوه . وتكررت مسألة الرُّنَا . وحاولوا الحصول على حكم مخفف من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وجاء رسول الله بالحكم الذي نزل من لسياء وهو الرُّجم . ولكنهم قالوا للرُّجم لا . يكفي أن يجلدوه أربعين جلدة وأن نُسُود وجهه وأن يجعله يركب حماراً ووجهه للخلف ويُطاف به . وهنا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ليس عندكم رجل صالح له حسم بالكتاب ؟ وهنا صمتوا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أمور يسكن في ذلك ؟ يقال له : « ابن صوريا » . فقالوا : نعم ، هو أعلم بيود على وجه الأرض . فأمر الرسول بإحضاره ليرى الحكم النازل في الرُّنَا بالتوراة ، وجاء الرجل وناشده رسول الله مالدى لا إله إلا هو ويحق من لوسل موسى ، ويحق من أنزل التوراة على موسى ، ويحق من فلق البحر ، ويحق من أغرق فرعون ، ويحق من ظلمهم بالقيام . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يُنزل فيه كل باطل وأن يشحنه بالطاعة حتى ينطق الحق ، فقال ابن صوريا : نعم نجد الرُّجم للرُّنَا . وهنا سئ اليهود الرجل الصالح .

لقد أرادوا أن يحصلوا على حكم مخفف من رسول الله ليقتلوا الزان صاحب المقام

العالى ، وكذلك الزانية ذات الحسب والنسب ؟ لذلك قال الحق على لسانهم : وإن أويشم هذا ، أي التخفيف أراد بخنوده ، وإن وجلتم العقاب القاسى فاحذروه ولا تقبلوه .

إذن بهم لم يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق ولكنهم يتفنون التخفيف فإن وافق الحكم هراهم قالوا : إن محمداً هو الذى حَكَمَ ، ومن المعجيب أنهم أهداه لمحمد وكلفرون به . وبرغم ذلك يحكمونه .

هذه الواقعة يرويها الإمام مسلم رضى الله عنه وهى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى يهودى ويهودية لى زياً فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال : ما تجدون فى التوراة على من زى ؟ قالوا : نسود وجوهها ونحسبها ونحملها ونخالف بين وجوهها ، ويطلب بها ، قال : (فأتوا بالنواة فأتلرها إن كنتم صادقين) قال : فجاءوا بها ، فقرأوها ، حتى إذا مرّ بآية الرجم وضع القى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرّة فليرفع يده ، فرفع يده لأن تحتها آية الرجم ، فلمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجها ، قال عبدالله بن عمر : كنت فىمن رجمها فلقد رأيت يقرها من الحجارة بنفسه » (١) .

إنهم يريدون الحُكْم السهل المين اللين . وقال البعض : إن سبب نزول هذه الآية هى قصة القود . والقود هو القصاص .

وقصة القود فى إيجاز هى - كما رواها الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنه - أن طائفتين من اليهود هما بنو النضير وبنو قريظة كانتا قد تحاربتا فى الجاهلية ، فظهرت بنو النضير بنى قريظة ، فكانت النضير وهى العريضة إذا قتلت أحداً من بنى قريظة وهى الذليلة لم يقبلوهم أى لم يعطوهم القاتل ليقتلوه بقتلهم . إنما يعطوهم الدية . وكانت قريظة إذا قتلت أحداً من بنى النضير لم يرضوا منهم إلا بالقود فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة لحاكموا إليه فى هذا الأمر فحكم بالتسوية بينهم ، فسأهم ذلك ولم يقبلوا . وأى قصة منها هى مؤكدة للمعنى .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن يرد الله فتنه فلن نملك له من الله شيئا ، والفتنة هي التعذيب بالنار ، وسبحانه يقول :

﴿ يَوْمَ نَمُوتُ عَلَى النَّارِ يُقَنَّنُونَ ﴾ (١٢)

(سورة النازعات)

والفتنة أيضاً هي الابتلاء والاختبار ، ويقال : « فتنت الذهب » أى وصعت الذهب في برقعة وحولته بالحرارة العالية من جسم صلب إلى سائل حتى تستخلصه من المواد العالقة لشابة التي فيه ليصير نقياً . والفتنة في ذاتها ليست مضمومة . ولكن المضموم منها هو النتيجة التي تصل إليها ، أينجح الإنسان فيها أم يرسب ؟ لأن الاختبارات التي يمر بها الإنسان كلها هي فتنة ، والذي ينجح تكون العتنة بالسببة إليه طيبة . والذي يرسب وفشل فالفتنة بالسببة إليه سيئة . وعندما يرد الله فتنة بشر أى يريد اختبارهم . أباتون طوعاً واختياراً أم لا ؟

ومادام الحق سبحانه وتعالى أعطى للإنسان قدرة الاختيار حتى يُثبت صفة المحبوبة فسبحانه أراد ذلك ، ولا أحد يقادر أن يجعل الإنسان مفهوراً . وقد أراد الله اختباراً وأن يتل وأن يختبر . أينجح أم يرسب ، أ يكون مؤمناً أم كافراً :

« ومن يرد الله فتنه فلن نملك له من الله شيئا » . وجعل سبحانه ذلك قانوناً خلفه بمتى الوضوح ، وهناك جانب في الإنسان مُسَخَّر ، وجانب آخر مُخَيَّر . « ومن يرد الله فتنه فلن نملك له من الله شيئا » . أى أن أحداً لا يجرؤ أن يعير نواويس الكون ولن ينير الله نواويس الكون من أجل أى أحد ، لأن النواويس لا بد أن تسير كما أراحها الله حتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد عرفنا ما حدث في أحد ، عتلتنا تحاذل الرماة ولم يسمعوا إلى نصيحة القائد الأعلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أغير الله من أجل وجود حبيبه معهم ؟ لا ، وانهمزوا على رخم وجود رسول الله معهم ، لأن الله أراد للجنة الكونية أن تسير كما هي من أجل إصلاح الأمر . فلو فُرض أنهم انتصروا من أجل خاطر النسي ، ماذا يكون الموقف في أوامره صلى الله عليه وسلم فيما بعد ؟ كان من الممكن أن يقول شخص منهم : « عالفاه وانتصرونا » . إذن لا بد لسنة الله أن تتخذ

﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا جَزَاءٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة التائيه)

لماذا لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ؟ لأنهم منافقون . وفي قلب المنافق مرض . وعندما تأتي أحداث يستفح بها المسلمون فالمنافق يرداد جقداً ومرحسا لأن قلبه ممتلئ بالحل ، ولا يريد الله تطهير قلب إنسان إلا أن يقس على الله ولذلك قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وقال سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٨١ سورة الاحزاب)

فهل علم هداية الله لهم نشأت أولاً ، ثم شأ الكفر ، أو شأ الكفر منهم فجاء عدم الهداية ؟ نعلم أن عدم الهداية مرتبة على أنه ظالم أو كافر ، وقلنا من قبل إن هناك إرادة كونية وإرادة شرعية . والإرادة الكونية هي ما يحدث في كون الله . ولا شيء قد حدث في كون الله غصبا عن الله . والاختيار خلفه الله في الإنسان ليصير الإنسان خيراً بين الكفر والإيمان . وما دام الحق قد خلق الإنسان مختاراً لهذا أو لذلك إذن فهو سبحانه يريد كونيّاً ما يصدر عن الإنسان اختياراً كفوّاً أو هداية . لكن أمر يد هو سبحانه ذلك شرعاً ؟ لا .

إن الشرع أمر سيئوى إما أن يتعلمه العبد وإما أن يعصيه . ويعرف أن هناك أشياء مُراد كونياً وأشياء مُراد شرعياً . والمُراد الكون هو الذي يكون : أما الإنسان لقد خلقه الله وله الاختيار ، فالذي يسرق لا يسرق غصبا عن الله ولكن ما أعطاه له الله من اختيار ومن طاقة ، إما أن يوجهها إلى الخير وإما إلى الشر .

وبعض حين ننظر إلى الساعة التي نضعها حول المعصم وقد صنعها الصانع صالحة

لأن يديرها الإنسان على توقيت أى بلد ، فهل هذا يتم عصيا عن الصانع ؟ لا . وكذلك جهار « التليفزيون » ، إن أذعنا فيه برامج دينية فهو صالح للهدف ، وإن أذعنا فيه حفلة راقصة فهو صالح لذلك أيضا . والذي صمم التليفزيون جعله صالحا لهذا ولذا ، المهم هو توجيه الطاقة وكذلك الإنسان . والإرادة الكونية هي كل ما يكون في ملك الله ، والإرادة الشرعية هي كل ما يكون في شرع الله « افعل ولا تفعل » . ومادام هناك أمر كوني وأمر شرعي فالكون قد أوجده الله لخدمة المؤمنين والكافر والعاصي ، لكن الأمر الشرعي جعله الله للمؤمن .

إذن إيمان المؤمن بأرادة الله كون ، لأنه سبحانه قد وضع الإيمان منهجا ، وأراد الله إيمان المؤمنين شرعا . وكفر الكافر لم يتم خصبا عن الله ولكن الإنسان بخلافه مختارا . صار كفره أمرا كونيا ، ولكنه غير مُراد شرعا ، فكفر الكافر مُراد كونا غير مُراد شرعا . وإيمان الكافر غير مُراد كونا وكفر المؤمن غير مُراد كونا . وبهذا نكون أمام أربعة أقسام في المُراد كون وشرعا . وهذه هي القسمة العقلية .

إذن من يُريد الله فتته كوناً فلا راد لإرادة الله ، فإذا لم يطع الشرع ، فذلك لأنه مخلوق صالح للطاعة وصالح للمعصية .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - المولد يعطى لآبته جنيتها ويقول له : أنت حُر في هذا المبلغ فإن اشتريت مصححا أو كتاب دين أو شيئا تأكله أنت وإخوتك فأكادلك وأستأملك على أشياء كثيرة . أما إن اشتريت ورق اللعب المُسمى « كوتشينة » فسأعضب منك .

وحين يذهب الولد ليشتري ورق اللعب المُسمى « كوتشينة » ، هل اشترى ذلك خصبا عن أبيه ؟ لا . لكن الولد يصيب غير محبوب من أبيه . هذا هو الفارق بين المُراد كونا والمُراد شرعا . وبين المُراد كونا لا شرعا . والمُراد شرعا لا كونا .

« أولئك الذين لم يُريد الله أن يُظهر قلوبهم ، كان ذلك كونا ، لأنه سبحانه جعلهم قابلين للتطهير وقابلين لغيره ، فإن فعلوا أى شيء فهم لن يفعلوه خصبا عن الله ، لذلك يبدل الحق الآية : « هم في الدنيا جزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم » فكان

معنى ذلك أن في قلوبهم أشياء صمد الظهارة ، ولهم في الدنيا خزي . والخزي يطلق على الفضيحة ويطلق على الاستحياء ، والممانيان يمتنيان . وهنا في مجال هذه الآية : أى خزي وأى فتنة ؟ إنها فتتان ، المنافقون واليهود . وكان المنافقون كلما فعلوا شيئاً يتفضح . وعندما يبينون أى شيء فإن الله يخبر رسوله عما يبيتون .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بَیْمَتِهِمْ وَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي حَزَنِ الْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

وكذلك الذين هادوا : بأنهم الخزي أى الافتضاح ، أى أن يصيروا إلى المسترد بعد أن كانوا في المستحسن . والرسول صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واليهود سادة هذه البقعة ، سادتي عليا لأنهم أهل كتاب ، أما الأوس والخزرج فاليون لا يعرفون شيئاً . وكان اقتصاد المدينة في أيدي اليهود ، من مال وصناعة وزراعة وعجبة اجاء . وعندما باتى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يجهدهم السادة ، ثم يتفضح أمرهم وكذبهم ، ويتم إحلاؤهم ، وتسمى ساؤهم ويُقتل بعضهم . وعندما يدبرون كيدا لرسول الله ، يفضحهم الله ، وكل ذلك خزي ، وليس الخزي هو الجزاء الوحيد لهم ، بل يلقون في الآخرة عذاباً أليماً .

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَصُورُكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

وفي اللغة ألفاظ مفردة ، مثال - « سجنجل » وتفتح القاموس فتجد معناها

« البلور » ، وكذلك الصفا والمروة ، وعندما تبحث في القاموس عن كلمة « مروءة » تعرف أن معنى اللفظ بعيد عن النسبة ، فأول عمل للغة أن تعرف معنى اللفاظ بعيداً عن نسبتها . ومهمة القاموس أن يشرح لك معنى اللفظ بعيداً عن النسبة دون إثبات أو نفي ، مثال ذلك « الجرو » معناها هو ما يحيط بك من هوء أو غير ذلك ، لكن القاموس لا يشرح هل الجرو مكهر أو صاف أو بارد .

وإن تقدمنا مرحلة أخرى وأحدنا اللفظ لنصنع له سبته ، كأن نقول : « الجرو صحو » ، هنا نتقل من فهم معنى كلمة « جَو » ، إلى أننا نسبنا الصحو إليه . والكلام المفيد يأتي في النسب . ولا تأتي النسب إلا بعد معرفة معاني الالفاظ . والنسب تعني أن نسب شيئاً إلى شيء ، كأن نقول : « محمد مجتهد » هنا نسبنا لمحمد الاجتهاد ، وذلك بعد أن عرفنا معنى كلمة « محمد » بمفردها ، ومعنى « مجتهد » بمفردها .

إذن الكلام المفيد يتأتى في النسب . وقد تكون الإفادة بضميمة كلمة إلى ما سبقها ، فعندما يسألك إنسان : « من عندك » ؟ فنقول : « محمد » ، هذا القول أفاد ، لأنه انضم إلى كلمة أخرى صار للمعنى : « محمد عندي » .

إذن هناك نسب ، والنسب هي أن تنسب حكماً إلى شيء إما إيجاباً وإما نفياً

والنسبة تنقسم إلى قسمين : نسبة واقعة ، ونسبة غير واقعة . وإن كانت النسبة واقعة فهل نعتنقها ؟ وهل نستطيع أن نقيم عليها دليلاً ؟ إن كانت النسبة الواقعة ومقام عليها الدليل تكون علمياً . وإن كانت نسبة وواقعة وأنت نعتنقها ولا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تقليد ، مثل الطفل الذي يقلد أباه فيقول : « الله أحد » ، والطفل في هذه الحالة لا يستطيع أن يقيم على هذه النسبة دليلاً .

إن العلم أهل مراتب النسب لأنه نسبة معتقدة وواقعة وعليها دليل . أما إذا كانت نسبة معتقدة وغير واقعة ، فهذا هو الجهل ، لأن الجاهل هو الذي يعرف الشيء على غير وجهه الصحيح . أما الأحمق فهو الذي لا يعرف شيئاً ونجد صعوبة في الشرح للجاهل ، مثال ذلك الذي يقول الأرض مسوطة ويدافع عنها ، إنه يقول نسبة بمضغها ، ولكنها غير الواقع لأنها كروية .

والجاهل - إذن - أن تعرف نسبة تعتقدها وهي غير واقعة . ولا يرهق الدنيا غير الجاهل ، لا الأمل ، لأن الأمل له عقل فارغ يكفى أن تقول له الحقيقة فيصدقها ، أما الجاهل فيحتاج إلى أن فحلج من أفكاره المكر الخاطيء ونفزع له الفكر الصحيح .

أما إن كانت النسبة غير واقعة . فالتفى فيها يساوى الإثبات ، وهذا هو الشك . وإن كانت هناك نسبة راجحة فهو الظن . والنسبة المرجوحة هي الهم . إذن هناك عدد من النسب : نسبة عدم ، نسبة تقليد ، نسبة جهل ، نسبة شك ، نسبة ظن ، نسبة وهم . وعلى ذلك يكون الكذب نسبة غير واقعة ، فإن كنت تعتقدها فأنت من الجاهلين .

ويقابل الكذب الصدق ، وعندما يقول الحق : « سهاون للكذب » . فالنسبة هنا غير مطابقة للواقع . ويقتصر المتكلمون بعض النسب التي تأتي في بعض من أسلوب القرآن ويقولون : في القرآن كلام لو تحصناه لوجدناه غير دقيق . مثال ذلك

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

كلام المنافقين هنا قد طابق كلام الله ، ولكن لما يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

النسبة واحدة ، لكن الله يكذب المنافقين . وإن فطنا إلى قول الله حكاية عنهم :

﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

أي أن الله يكذب شهدتهم ، لأن محمداً رسول الله بالفعل ، ولكنهم كاذبون لأنهم لا يعتقدون ذلك ، فالشهادة هي ما يوافق الإنسان ما في القلب .

إذن نوله الحق : « سهاون للكذب أكاثون لسحت » أي أن عملهم الاستماع

للكنب ، وأكل السحت وكلهم يرمقون إن أكلوا حلالاً ، وأكمل صيغة للمبالغة ، وتكون إما في الحدث ، وإما في تكرار أنواع الحدث . يقال : « فلان أكل » ، و « فلان أكل » وهو الإنسان الذي يأكل بشراهة أو يأكل كثيراً ، والمبالغة - إذن - إما أن تكون في الحدث وإما في تكرير الحدث .

« أَكَالُونَ لِلْسُّحْتِ » ومادة « سحت » تعني « استأصل ومحا » ، ولكنها تزيد أنها استأصلته استصلاً لم يبق له أثر أو تعلق الاستصصال إلى ظروفه . مثلاً ذلك عند ظهور بقعة من زيت أو طعام على ثوب ، نستطيع استصصال البقعة ، ونستطيع للمبالغة في استصصالها إلى أن نتحت من الثوب . والسحت استصصال مبالغ فيه لتوجه الجور على الأصل قليلاً . أي يستأصل الذي جاء معه بعض من الأصل أيضاً ، لذلك جاء المخسرون إلى هذا المعنى في شرح الربا لأن الله يصفه بالقول :

﴿ بِمَحَقِّ اللَّهِ الْرِّبَا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة البقرة)

والربا في مفهومنا أنه زيادة ، ولكن الحق أوضح لنا أنه ليس بزيادة ، لأنه يخلل ويستأصل ويأكل ويحكت أصل المال . وظاهر الربا الزيادة وباطنه محق واستصصال .

أما الزكاة فظاهاها نقص ، ولكنها غناء ، وبذلك نرى اختلاف مقاييس الخلق عن مقاييس الحق . وبمثل الواضح : أن النفس تلغض دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا تلغض إلى رزق السلب . فرجل راتبه خمسمائة جنيه ، وآخر راتبه مائة جنيه ، صاحب الراتب البالغ الخمسمائة فتح الله عليه أبواباً محتاج إلى ألف من الجنيهات ، والذي يأخذ مائة جنيه سدّ الحق عنه أبواباً لا تأخذ منه كل راتب بل تبقى له عشرة جنيهات .

هناك - إذن - رزق إيجاب يريد الدخول ، ورزق سلب أن يسلب الحق منك للمصارف في المصائب والمهلك ويبارك لك فيها أحطاك .

والسحت هو كل شيء تأخذه من غير طريق الحلال ، كالرشوة أو الربا أو السرقة أو الاختلاس أو الخطف . وكل أنواع المقامرة والمراهنة ، كل ذلك اسمه سحت .

«ساعون للكذب أكالون للسُّحت» وهذا القول دليل على أن أذنتهم اعتلتت
سباع الكذب ويقبلون عليه . وعندما يقول نحن في الصلاة : «سمع الله لمن
حمده» ، أي أننا ندعو الله أن يقبل الحمد . وهم ساعون للكذب أي يقبلون
الكذب . والسباع جارحة ، والاكل بناء ما به الجارحة لأنه مقوم لها . مثلها يأكل
لينمو ، وإن كان ناضجاً يحفظ له العاقبة والقدرة

فالنمو - إذن - معناه أن يدخل حوله أكثر مما يخرج منه . وبعد فترة يدخل إلى
جسمه هل قدر ما يخرج منه ، ثم الشيخوخة يجد فيها أن ما يخرج أكثر مما يدخل .
وماداموا ساعين للكذب أكالين للسُّحت ، فهم في بولٍ دائم ، لأن أكل السُّحت
حيثية من حيثيات الاستماع للمصطفى للكذب ، لأنهم قد بنوا ذرات أجسادهم من
حرام ، فكيف ترفض أذاهم الكذب ؟ بل أذاهم تستدعي الكذب ، وتستهم
تخترقه . وحيونهم تستدعي المحارم ، وأيديهم تستدعي السرقة ، إنها الأبعاد التي
بنائها أصحابها من حرام .

ولم يقل الحق عنهم : «ساعون» ، بل قال : «ساعون» أي جعلوا صناعتهم
أن يتسموا ، وهم الجواسيس ، وإلا فإذا كان الأمر غير ذلك لكان كل من سمع
كذباً بعد من هؤلاء . والقول مقصود به من جعل السباع صنعة له ، ولا يجعل إنسان
السباع صنعة له إلا إذا كان عبداً لغيره ، والعين للعين يتلصص على أمانة المجالس ،
ولكل مجلس أمانة . فإذا ما حضر إنسان مجلساً فليس له أن يتقل ما في ذلك المجلس
إلى غيره إلا أن يكون ذلك هو صناعته ، وتلك هي مهنة

«ساعون للكذب أكالون للسُّحت» وهنا قصيتان . فهل السباع للكذب سببه
أكل السُّحت ، أم أكل السُّحت سببه السباع للكذب ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حبس خلق الإنسان من طينة الأرض وصوره على شكل
آدم نفخ فيه من روحه ، وحين صورته من طينة الأرض جعل كل مقومات حركة
حياته من طبيعة طينة الأرض ، فإذا ما أخذ الإنسان شيئاً من جل ، اعتلتت الذرات
في نفسه على الهيئة التي خلقها الله . وإن تدخل فيها بحرام جعل في الذرات اختلالاً
تكريناً . وهذا الاختلال التكويني هو الذي جعل أكل الحرام سبباً للكذب . ولولم

يكن فيه تلك الاختلال التكويني الذي صنعه بتعبه لما سمع الكذب أبداً .

أو أنه عندما أكل الشُّعْت حمار سباعاً للكذب . أو سمع كلباً يهوار أكلًا للشُّعْت . ولنلاحظ أن الحق لم يقل : « أكل للشُّعْت » ، ولم يقل : « سمع للكذب » ، ولكنه قال : « ساهون للكذب أَكَلُون للشُّعْت » أى أنهم تعودوا سماع الكذب وتعودوا أكل الشُّعْت ، فالواحد منهم أخذ حراماً من أول الأمر ، وعندما صار أكلًا وسَماعاً للكذب في آن واحد ، اختلت ذرات تكوينه ، ولم يعد في أحماله نور ليرفض الكذب ، بل أقبل عليه ، وبخبره الكذب ثابته بأن يأكل الشُّعْت ، بالأمر دائر بين سماع كذب وأكل سحت .

ونفسية الكذب هي قصة صراع الباطل مع الحق . ومادام الكذب غير مطابق لواقع كوني أو لواقع منهجي تكليفي فهذا يصنع خللاً في الكون . وحينها أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا المثل في ذلك جاء بالمثل في أمر حسي حتى نراه جميعاً :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن كل وادٍ تحمّل على قدر طاقته . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

فقبل أن يتزل السيل من على الجبال إلى الوديان ، يأخذ كل الأشياء التي تصادفه على الجبل من آثار الرياح ، ومن أوراق البسات ، فيترله إلى الوادى ، وتلك هي الأشياء التي تصنع الزبد ونقول عنه في لغتنا العامية : « الرغوى » .

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وإي رابياً ، أى حائياً وعالياً ومطافياً فوق المياه ، لماذا ؟ لأنه مادام زبداً ففيه فقاع هواء تحمّل حجمه أكبر من وزنه . وتصبح كثافته أقل من المياه ، لذلك يطفو فوقها وماذا يكون الموقف بعد ذلك ؟

﴿ فَاحْتَمِلْ السَّيْلَ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ رَدًّا مِّثْلَهُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحديد)

ومن العجيب أنه سبحانه جعل المثلين في الماء والمضاد له وهو النار ، فلماذا يأتى بزبد وقثاء يطفو على المياه ، وكذلك النار حين ندخل فيها المعدن . ومن رأى الحديد ينفخ في كبره على قطعة من الحديد يرى الخبث ، والمواد الغريبة الممزجة بالحديد والتي تنفصل أثناء الصهر عن الحديد ليصير صافيا . إذن فهناك زبد في الحديد تخرجه النار عند صهره ، وزبد يطفو فوق الماء .

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ رَدًّا مِّثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحديد)

ولهذا نرى الباطل وقد أتى عليه زمن ليطفو فوق السطح ، ويخرج الخبث طافيا على أصل الحديد . لكن أبطل الباطل كذلك ؟ نُطْمِئِنُّنَا الْحَقُّ أَنَّهُ يَحْصِي الْحَقَّ لِيَقُولَ :

﴿ فَأَمَّا الْإِزْدُ فَيَنْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحديد)

رحمن نرى الباطل وقد طفا على السطح نفاجاً بعد وقت من الزمن أن الزبد يتهدى ويصبح الماء صافياً ، وكذلك الزبد الذي يطفو على الحديد ، ينفضه الحديد ليعقى صافيا . فإذا رأينا الباطل مرة يعلو ، فنعلم أنه لا بقاء لهذا العلو ، لأن ما يرفع الناس يمحى في الأرض .

ولهذا لا يعلن الحق عن نفسه من البداية ؟ لواد الله ذلك ليجعل الباطل من جنود الحق ، ولو لم يتعض الباطل الناس ويتبعهم أينجهون إلى الحق ؟ لا ؛ لذلك كان لا بد أن يأتى إليهم الباطل ويتبعهم ليبحثوا عن الحق . وهكذا نرى الباطل كجندي من جنود الحق . وضربنا المثل من قبل وعرفنا أن الألم عند المريض من جنود العافية ، فلولا ذلك الألم لاستشرى الداء دون أن يشعر المريض ، فكان الألم يلفتته إلى موضع الداء ويدفعه لبحث عن وسائل الشفاء . وبذلك يتعرف على حلالة العافية .

إذن فالباطل من جنود الحق والألم من جنود الشفاء ؛ لأن أمور الحياة لو سارت على وتيرة واحدة لما عرف الإنسان أوجه الحياة ؛ فلولا ألم يأت الألم إلى المريض لأكله المريض . فإذا كان الألم من جنود الشفاء ، فالكفر أيضاً من جنود الإيمان ؛ لأننا عندما نرى الكفر ونشهد آثار الكفر فساداً في المجتمع ، نتساءل : ما الذي يخلصنا من ذلك ؟ ونعرف أن الذي يخلصنا من الفساد هو الإيمان .

وأكرر ذاتياً : كلمة الكفر بذاتها هي النقيض الأول على الإيمان ؛ لأن الكفر هو السُّرُّ ، ومادام الكفر هو السُّرُّ ، والكافر يستر الإيمان ، وظهور الكفر على السطح دليل وجود الإيمان في الأصل .

ومادام الحق قد قال : « ساهون للكذب الأكالون للسُّحت » فلا بد بعد هذا التشخيص أن يرسم لرسوله أسلوب التعامل معهم : « فإن جاموك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » . فأنت يا رسول الله بالخيار بين أن تحكم بينهم في القضية التي جاموا من أجلها أو تعرض عنهم ، فليس عليك تجاههم إلزام ما ؛ لأنهم الساهون للكذب الأكالون للسُّحت . وهم حينما يأتونك يا رسول الله طلباً لحكم إنما يفعلون ذلك لا رغبة في معرفة الحق ولا هم يلتزمون العدل . بل جاموك مظنة تبسیر أمر الباطل وأكل السُّحت لنفسهم . وقد طلبو الحكم في قضية الزنا وعندهم في التوراة كان الرجم عقاباً للزنا .

لقد ذهبوا رسول الله لأنهم لئلا يسترُوا حكم الزنا في التوراة ، والاكتفاء بالجند وتسويد وجه الزاني وركوبه حماراً في الوضع العكسي بحيث يكون وجهه في اتجاه الليل وقمء في اتجاه رأس الحمار ، وأن يطوفوا بالرائي وهو على هذه الهيئة حول البلدة . ولما لم يسمعوا ذلك الحكم من الرسول ابتعدوا عنه . إذن هم يطلبون التخفيف لأنهم كانوا ساهين للكذب وأكاليين للسُّحت . ولأن الذي سيطبق عليه الحد رجل له جاه وله مكانة وهم يريدون التقرب إليه بتخفيف العقاب عنه . وهل هناك تعارض بين قول الحق في الآية التي نحن بصدد غواطرتها عنده وبين قول الحق :

﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

لا تعارض . والبعض يقول : إن في قوله الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » إلزاماً . ونقول : المعنى الواضح هو أنك يا رسول الله ، إن رجعت جاتب أن تحكم وتقضي بينهم فاحكم بما أنزل الله ، ولننظر إلى الأداء القرآني لأن المتكلم إليه وحكيم : « فإن جاموك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » . وتلاحظ أن الأمر هنا جاء بطريقة تؤكد أن الإعراض ممكن ، لأنهم أرادوا أن يحكم لهم رسول الله على هواهم ، وطمانته الله بأنه سبحانه من شرهم إن أعرض عنهم ، وكان الحق يقول لرسوله : إياك أن تفكر حين تعرض عنهم أنهم سينالونك بالشر لأنك لم تحقق لهم التيسير الذي اجتفوه عنك « وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » وإياك أن تجعل الضرر منهم ترجيحاً للحكم ، فانت بالخيار ، إما أن تحكم وإما أن تعرض . ولا تخش من شرهم لأن الذي أرسلك بحميتك .

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » والحكم في هذه الآية يأل كالقوس في البداية وفي النهاية ، والحكم بينهم يكون بالقسط ، أي بالعدل . والعدل ليس كما يراه الهوى ولكن حسب ما أنزل الله . أي أن الله يحب الذين يزيلون الجور . ومادام الحكم بالعدل يأتي ليزيل الجور ، فكأنه كان من قبل جور مقنن ، إذن فـ « أقسط » أي أزال جوراً مقنناً وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون . والكون كله يسير بمران ، الأرض تدور والشمس تؤدي مهمتها ، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر :

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ١٠ سورة م)

فلان أردتم أن نستقيم لكم أموركم الاختيارية ، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التي حولكم ، فإن كانت بنظام وميزان واعتدلت الأمور ، اعتدلوا - إذن - في إدارة شئونكم حتى تتسجموا كما اتسجم الكون ، ولذلك نقرأ قوله تعالى

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ① وَأَنجُمٌ وَأَشْجُرٌ سَاجِدَاتٍ ② وَالْأَسْمَاءُ رَافِعَاتُهَا ③

وَدَّعَ الْمِيزَانَ ④ أَلَا تَطَعُونَ ⑤ فِي الْمِيزَانِ ⑥ ﴾

(سورة الرحمن)

لما كنتم الرّوازيين العيا في الكون ، ولا تستطيعون إفصاحها لأنّ تسير بنظام لا دخل لكم به ، لذلك هليكم أن تعلموا منها وأن تديروا أمور حياتكم بميزان حتى تستطيع أموركم الاختيارية .

﴿ أَلَا تَطْمَئِنُّوْنَ فِي الْمِيزَانِ ۚ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٤٧﴾

(سورة الرحمن)

فإن رأيت حولك كونا غير مُضطرب ، وغير مُتصادم ، ويزدى حركته دون تعارض أو تصادم ، فافهم أنه قائم على ميزان الحق ، ووضع سبحانه لك ميزانا في الأمور الاختيارية ، والمرجعيات الاختيارية هي أحكام التكليف من الله ، فإن أردت أن تستطيع لك الأمور الاختيارية فسر بها على الميزان الذي وضعه الله .

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمٌ
اللَّهُ تَعَالَى تَوَلَّى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾

يوضح سبحانه : كيف يأتون طلبا للحكم منك وعندهم التوراة ، وهم لم يؤمنوا بك يا محمد رسولا من الله ، فكيف يرضاك من لم يؤمن بك حكما ؟ لا بد أن في ذلك مصلحة مناقضة لما في التوراة ، ولو لم تكن تلك المصلحة مناقضة لنفذوا الحكم الذي عندهم ، وهم إنما جاءوا إليك يا رسول الله طمعا في أن تعطى شيئا من التسهيل وظنوا - والعياد بالله - أنك قد توفر لهم أكل السحت وسباع الكذب .

وكيف يحكمونك وعندهم التوراة ؟ وهي مسألة حجية يجب أن يُفطن إليها ، لأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، فلو حكموك في أمر ليس في التوراة لكان الأمر مقبولا ، لكن أن يحكموك في أمر له حكم في التوراة ، وبعد ذلك يطلعك الله عليه

لتكشفه فتقول يا رسول الله : هاتوا ابن سوريا لئاني بحكم التوراة . ويعترف ابن سوريا بوجود حكم الرجم في التوراة . إذن هم رغبوا في الاحتيال ، ولراد الله أن يثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم لوثاً في الإعلام عن هؤلاء المارقين على أحكام الله ، هم يعلمون أن الرسل أئمة ، لم يقرأ ولم يكتب ، فس الذي أخبره بالحكم الموجود بالتوراة ؟

إذن أخبره من أرسله ، وإذا كانوا قد أرادوا البحث عن حكم تخفف فالحق أراد ذلك ليكون سبباً من أسباب العقوبة لهم .

﴿ وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا دليل على أن الرسول عندما حكم بغير مطلوب تفسيرهم . اعرضوا عن الحكم ولو كانوا طالين للحكم بائس ذي بدء لقبوا بالحكم بالرجم كما قاله لهم رسول الله ، لكنهم غير مؤمنين حتى بتوراتهم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّحِيمُونَ وَالْأَخْيَارُ يَمَاسُحُفُظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَسْتَرُوا بِتَابِعِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

المشى هو الطريق أو الدرب المؤمل للذابة . وثانى على الطريق أحطاب الليل والنهار ، فالطريق مُظلم ليلاً ، وقد تعترض السائر فيه عقبات ، أو قد لا يمشى السائر فى سواء انسييل أى وسط الطريق ، فبقع فى حفرة أو يصطلم بحجر

ويوضح الحق هنا : لقد صنعت لكم الدرب وأنرتكم حتى لا تصطلموا بشيء أو تلقى لكم عقبات ، وتمثل ذلك فى المتبع الذى جاء به موكب الرسل كلهم وقدما كان العالم مفككا ، متاثر الجماعات ، فلا توجد مواصلات ، وتعيش كل جماعة فى انعزال وشبه استقلال ، فإن حصلت داءات فى بقعة ما نظف محصورة فى هذه البقعة ، ويأتى رسول يعالج هذه الداءات ، فهذا يعالج أمر عبادة الأصنام ، وذلك يعالج مسألة الكيل والميزان ، وثالث يعالج الأمور المنظمة للحياة الزوجية ضد اليهود .

هذه الداءات كانت متعددة بتعدد الجهات ، وعندما أراد الحق سبحانه أن يصر الناس بأسرار كونه ليستبطلوا منها ما يقرب المسافات ويصح المشتقات لتلتقى الأمم . وعندما تلتقى الأمم لا يوجد فصل بين الداءات ، فالداء الواحد يحصل فى الشرق ليستقل إلى الغرب . وكأن الداءات تتحد فى العالم أيضاً

إذن لا بد أن يحىء الرسول الجامع ليعالج الداءات كلها ، فبأن صلى الله عليه وسلم الجامع المانع ، فلذا ما قال الحق : إنه أنزل التوراة فيها هدى ونور ، فالإنجيل أيضاً فيه هدى ونور ، وكل هدى ونور فى أى كتاب إنما هو للمنايات الموجودة فى البيئة المنعزلة . مثال ذلك أن سيدنا إبراهيم كان موجوداً ، ومعه فى الزم نفسه سيدنا لوط . وهما هذا سيدنا موسى كان موجوداً . وكذلك سيدنا شعيب ، إذن كانت الرسل تتعاصر فى بعض الأحيان لأن كلا منهم يعالج داء معين . وهكذا كانت الرسالات تأتى محدودة الزمان ومحدودة المكان .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بعثه الله للناس كافة بكل أجناسهم وتقوم على منهجه الساحة ؛ لذلك لم تعد الأرض فى حاجة إلى رسول آخر ، وصار من المنطوق أن يكون هو الرسول الخاتم .

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها السيرون الذين أسلموا » لماذا إذن يأتى

الحق بإسلام الأنبياء هنا ٢ جاء سبحانه بأمر إسلام الأنبياء تشريفا للإسلام لأنه جوهر
مبج كل نبي .

إننا سجد الشعراء يفتنون في هذا المعنى :

ما إن مدحت عمداً مقالتي
لكن مدحت مقالتي بحمد

والشاعر الآخر يقول :

قالوا أبوالصفر من شيبان قلت لهم
كلا لعمري ولكن منه شيبان

والقبيلة بالنسبة لأبي الصقر هي التي تنسب إليه وليس هو الذي ينسب إليها .

ويروى قائلا :

وكم أب قد علا بابن ذرا شرب
كما علا برسول الله عدنان

إذن فالنبيون عندما يصفهم الحق بأنهم أسلموا ، إنما يريد الحق أن يشرف
الإسلام بأن النبيين أسلموا قياهم وزمامهم إلى الله لأنهم وجدوه الخير لهم . وإسلام
النبيين هو الإسلام بمعناه الكامل ، أي هو الانصياع لأوامر الله ، فكلما ذكر بي منهم
في أن هناك شراً سيأتي له بسبب دعوته ، أو أن بضطهده أحد ، أو يحلو لأحد أن
يسىء إليه فهو يسلم أمره الله ، لأن الرسول منهم إنما يقول كلمة الحق ولا يبالى بما
يجدث بعده .

و يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، وهم يحكمون بالثروة بين الذين
هادوا ، أي من يهود ، وكذلك يحكم بها الرمانيون والأخبار . والرمان مسوب
للرب ، أي أن كل تصرفاته مشبوبة إلى الله . والأخبار هم العملاء حملة أوعية
العلم ، لكن هل تعلمونه أو لا تعلمونه بهذا شيء آخر صحيح أن كل عالم وعلة

علم ، لكن قد يتضع هو بعلمه ، وقد لا يتضع ، لكنه ينقل علمه إلى من يتضع به .
ولذلك يقول أحد العلماء .

فخذ بعلمي ولا تركزن إلى حمل
واجسي الشمار وحل العود للنار

فلا تقل : إن هذا العالم يقول لنا كذا وكذا ، ونراه في تصرفاته عكس ما يقول ،
لأن عليك أن تأخذ ثمرة العلم ، واترك العود للنار . ولكن على العالم أن يكون أول
من يمثل ويطبق ما يقوله حتى لا يعذب ولا يدخل تحت قوله تعالى : « يا أيها الذين
آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »

« والريانيون والأخبار بما است حفظوا من كتاب الله ، وعرفنا أن التوراة فيها نور
وهدي ويحكم بها النبيون والريانيون والأخبار بالوسيلة التي طلب الله منهم أن
يحفظوها ، وبما طلبه رسولهم منهم أن يحفظوا هذه التوراة ، وقال الحق .
« است حفظوا » ولم يقل . « حفظوا » ليبين لنا الفارق بين كل كتاب سابق للقرآن وبين
القرآن ، لأننا عرفنا أن كل رسول قد جاء بمعجزة تدل على أنه صادق البلاغ عن
الله .

ولكل الرسل من السابقين على رسول الله معجزة متصلة عن المنهج ، مثال ذلك
سيدنا موسى فمعجزته العصا وقلق البحر ، أما منهجه فهو التوراة . وسيدنا عيسى
معجزته إبراء الأكمه والأبرص ، والمنهج الذي جاء به هو الإنجيل . أما سيدنا رسول
الله فمعجزته هي عين منهجه ، وهي القرآن . وكان الأمر الموجود بالنسبة لكل
رسول مرتبطا بزمانه وجماعته وحتاجا إلى معجزة مناسبة ومنهج مناسب ، لكن
الرسول الذي أرسله الله إلى الناس جميعا وخاتما للأنبياء لا بد أن تطل معجزته عين
منهجه بحيث يستطيع أي مسلم أن يقول حتى قيام الساعة : محمد رسول الله وهذه
معجزته وهي عين منهجه .

وسيفل القرآن معجزة ظاهرة إلى أن تقوم الساعة ، لأن الله أرادها مختلفة عن بقية
المنهج والمعجزات . فالمعجزات السابقة كانت كعود الثقاب الذي يشتعل مرة

واحدة : فمن رآه لحظة الاشتغال فالأمر بالنسبة إليه واضح ، أما من لم يره فهو لن يصدق تلك المعجزة إلا أن يجبره من يصدق . وقد استحفظ الله الربانيين والأخبار بالثبوت ، أي طلب منهم أن يحفظوها ، وكان هذا أمراً تكليفاً ، والأمر التكليفي عُرضة لأن يُطاع وعُرضة لأن يُعصى . واستحفظهم الله الثبوت والإنجيل :

﴿ فَتَسْأَلُ عِطَّائِمًا ذُرِّيَّاتِهِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

وصار أمر المنهج مسياً . وليس هل بالغهم كثيراً ، لأن الأمر إذا توارد على الهال واستقر دائماً في بؤرة الشعور يظل في الدهن ، لكن النسيان يأتي عندما يكون الأمر بعيداً عن الهال .

والحق طلب منهم أن يحفظوا المنهج ، ولكنهم - ماعدا النسيان - لم ينفذوا ، وكل أمر تكليفي يدخل في دائرة الاختيار ، ولذلك نجد أن الأخبار والربانيين قد نسوا ، وما لم ينسوه كنسوه . وأول مرحلة من مراحل عدم الحفظ أنهم نسوا ، والمرحلة الثانية هي كتمان ما لم ينسوه ، والثالثة هي : ما لم يكتبوه حرقوه ولووا به ألسنتهم . وبالتالي اقتصرنا على هذه المراحل فقط ، ولكنهم جددوا بأشياء وقالوا : هي من عند الله وهي ليست من عند الله :

﴿ قَوْلِيلَ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْمَانِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِن عِندِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

إذن فالحفظ منهم لم يتم ، لذلك لم يدع الله القرآن للحفظ بطريق التكليف ؛ لأنه سبحانه اختير البشر من قبل ، ولأنه أراد القرآن معجزة باقية ، لذلك لم بكل الله سبحانه أمر حفظه إلى الخلق ، ولكنه تكفل - سبحانه - بأمر حفظ القرآن .

﴿ إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُمُ حَفِيظُونَ ﴾

(سورة الحجر)

ومصدق هذا المنع ، أن بعضاً من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في هجر منهج الإسلام ومنهج القرآن إلا أنك تجد عجباً ، فبقدر ما بعدهم عن منهج الإسلام تطبيقاً يحفظون على القرآن تحقيقاً ، فيكتبون القرآن بكل ألوان الكتابة وبكافة الأحكام ، وهناك حجم ضخم ترتديه النساء في صدورهن ، وحجم يوضع في اليد ، وبعد ذلك

نجد الكفرة أنفسهم يخترعون طريقة لكتابة القرآن في صفحة واحدة .

إذن فانه يُسخر لحفظ القرآن حق من لم يكن مسلماً . وتلك خواطر من الله . ونحن نرى كل يوم من يتعلمون بسلوكهم عن المنهج لكنهم يرصدون المال لحفظ القرآن . ونجد القرآن محققاً بألف وسيلة حفظ : الرجل يضع في سيارته مصحفاً ، وفي حجرة نومه مصحفاً ، وقد تكون المرأة ساقرة وصدرها مكشوف ولكنها تعلق مصحفاً ذهبياً وهذا يثبت لنا أن حفظ القرآن ليس أمراً تكليفاً . بل هو إرادة الله .

فلو كان الأمر تكليفاً لكان نسيان القرآن وارداً ، لأن المسلمين ابتعدوا في بعض أمورهم عنه كمنهج . ويناسب ذلك أن ينفصلوا عنه حفظاً . ولكن الأمر صار بالعكس . فعل الرغم من بُعد المسلمين عن المنهج ، لكن حفظ القرآن لا يقل أبداً ، ومن العجيب أن الكثيرين من المشرقيين على أنفسهم ، إن سمع واحد منهم أن شيئاً بمس المصحف ، يفهم الدنيا ويقعدها ، فالمسألة ليست مسألة ، ولكنها مسألة الحفاظ جل شأنه . وإن حدث أي تحريف يسير في القرآن من أحداث الإسلام ، نجد أمة الإسلام تقف وقفة رجل واحد . ولقد أراد بعض المدلسين أن يدسوا على القرآن ما ليس فيه وجاءوا إلى آية في سورة الفتح وهي :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وقالوا : « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكانهم يرغبون في ريادة التكريم لرسول الله ، فلما عرف المسلمون ذلك قامت صيحة وأحرقوا تلك المصاحف . ومنع المسلمون التحريف بها كان باب الدخول إليه .

« فلا تخشوا الناس واخشوا » والخشية . خوف متوهم عن تظن أنه قادر على الضر ، ولا أحد غير الله قادر على النفع والضرر ؛ لذلك لا يصح أن يخاف الإنسان من سواه ، أما أن تظن أن السلطان أو القريب منه قادر على الضر ، فهذا أمر غير صحيح ، ويخشى كل إنسان الحق سبحانه وهو جل وعلا نصيحنا أن تكون الخشية منه دون سواه .

وإن غير أحد أحكام المنهج من أجل السلطان أو أقارب السلطان أو أصدقاء

السلطان فذلك عين الفساد . والآفات والشُرور تأتي من ذلك . بل قد لا يدري السلطان شيئاً عن ذلك ، وقد يتدخل قريب للسلطان - دون علم السلطان - ليطلب من العلماء تغيير بعض من المنهج ولا يستسلم له إلا الضعاف منهم ، وقد فطن سيدنا عمر رضي الله عنه إلى هذا الأمر فقال : إن الفساد قد لا يأتي من السلطان ، ولكن من الذين حول السلطان .

والخشبة هنا تكون من غير الله ، ولذلك كان سيدنا عمر يجمع أقاربه والمخلصين حوله ويقول لهم : لقد اعتزمت أن أصبر كذا وكذا فوالذي نفسي بيده من خالفني منكم إلى شيء من هذا جعلت نكالا للمسلمين .

هذا هو أسلوب من أراد أن يخدم ويحكم ولا يحمل أوزاراً ، ويرى صور الفساد إنما جاءت نتيجة مخالفة القاعدة الحكيمة : « فلا تخشوا الناس واخشوا » .

ويتابع الحق من بعد ذلك : « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً » وضمن آيات الله مهما بولغ في تقييدها فلن يتجاوز نفسه هذه الدنيا ؛ لأن الدنيا - كما قلنا سابقاً - لا تقاس بعمرها الحقيقي أي إلى أن يفنى الله البشر ، وإنما دنيا كل حتى تقاس بعمره فيها .

فهب أن الحياة طالت لملايين السنين فما تنفع الفرد المحدود العمر بهذه الملايين من السنين ؟ إذن فدنيا كل إنسان هي مقدار عمره في الحياة . وعمر الفرد في الدنيا له حد محدد غير معروف لأحد غير الله ، فلكل أجل كتاب . ولذلك نجد واحداً يعيش متوسط الأعمار وهو سبعون عاماً . ويختلف العمر من إنسان لآخر ، وقد يموت آخر عند الستين وثالث يموت في الأربعين ورابع يموت في المائة ، وخامس يموت وهو طفل رضيع .

إذن فدنيا الفرد قد تكون لحظة . ومادامت مسألة العمر لا يحكمها زمن ولا يحكمها سبب فهي - إذن - بإرادة الحق غيب .

وأقضية الموت في الوجود جعلها الله شائعة في كل زمن ولم يجعلها الحق بعد الميلاد . بمعنى أن يولد الإنسان ليموت من بعد ذلك ، لا ، فقد يموت الكائن

البشرى وهو جنون في بطن أمه + فهذا هل يسقط من بعد ساعة ، وذاك هل يسقط من بعد شهر أو شهرين ، وجعل الحق لنا ذلك لناخذ من الأمر العيس وهو الجنين في البطن مراسل تكويته . إنه يعطينا شكل الجنين بعد نصف ساعة من التكوين ، ويعطينا شكل الجنين من بعد ساعة . وكل الأجنة في الحيلة والموت موجودة . وعندما نحلل تلك الأشكال نجد أمامنا كل أطوار الجنين ، وكل أطوار الحياة ليكون ذلك واضحاً جلياً حتى لا يحسب أحد لنفسه عمراً في هذه الدنيا .

ومادام الثمن الذي يأخذه المرتشون ليغيروا آيات الله وأحكامه سيمنعهم في هذه الدنيا ، وأعمالهم في هذه الدنيا محدودة ، كان عليهم أن يتذكروا أن حياتهم رهنياً قليلة بالنسبة بعمر الدنيا . وحتى يقوم الإنسان بعملية اقتصادية لا بد أن يتعرف إلى أن عمره محدود بقدر سنوات مجهولة بالنسبة له في هذه الحياة ، وهو عمر محدود مهما طال . وإن قارنها الإنسان بالحياة في العالم الآخر سيجد أن عمره الدنيوي مهين ، فإن نأخذه بعمر خير منه هو عمره في الآخرة ، فذلك هو الفوز العظيم ؛ لأن وجود الإنسان في الدنيا مظلون ، ووجود الإنسان بالنسبة للآخرة متيقن . ونعيم الفرد في الدنيا هو على قدر إمكاناته ولو في السلب . ونعيم الإنسان في الآخرة ينسب إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .

إذن فأي صفقة تكون هي الرابعة ؟ محدود مقابل غير محدود ، ومظلون مقابل متيقن ، ونعيم على قدر مكنته وسلطان الفرد ولو بالسلب مقابل نعيم على قدر طلاقته قدرة الحق ، أي صفقة هي الرابعة ؟ إذن صفقة الدنيا قليلة بالنسبة لما وعد الله به المتقين . ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

ماذا يعنى الحكم بما أنزل الله ؟ .

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل قضية مخالفة في الكون حكماً ، فإذا أردت أيها الإنسان أن تحكم في أمر فعليك أن تبحث عن جوهره بسلسلة تاريخ هذا الأمر . ونجد أن قصة كل الأمور هي العفيدة ، وهو وجود الواجب الأعلى وهو الله ، فإن حكمت بأنه غير موجود فذلك هو الكفر . وإن آمن الإنسان بالله ثم جاء إلى أحكام

الله التي أنزلها وقال : لا ، ليس من المعقول أن يكون الحكم هو هكذا . فهذا لون من رد الحكم على الله وهو لون من الكفر .

أما إن آمن الإنسان بالحكم وقال : إنني أصدق حكم الله ، ولكن لا أقدر على فهمي فهل هذا كفر ؟ أم هل ظلم ؟ إنه ليس كفر ، ويكون ظمناً إن كان حكماً بين اثنين . وهو فسق إن كان بين الإنسان وبين نفسه ؛ لأنه يفسق عن الحكم كما يفسق الرطبة عن قشرتها .

فالفاسق هو من له إطار من الكليقات ويخرج عن هذا الإطار كالرطبة التي خرجت من قشرتها . ومادامت الرطبة قد خرجت من قشرتها فهي عرضة للتلوث .

إذن فإن سمعت قول الله :

﴿ وَمَنْ لَا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وعندما نسمع :

﴿ وَمَنْ لَا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

وعندما نسمع :

﴿ وَمَنْ لَا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة المائدة)

تذكر أحكام الله وحاول أن تقدر على نفسك . وقيل : إن ذلك لليهود ؛ لأن الحق قال :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَبُورٌ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

وقيل : إن الثانية جاءت للنصارى الذين لم يحكموا بالإسجول

ولنا أن نقول رداً على مثل هذه الأقوال . أمم الممكن أن يكون ذلك للأديان السابقة على الإسلام وليس موجوداً بالإسلام ؟ ذلك أمر لا يفله العقل أو المنطق ، فهي آيات نزلت في ساطح الحكم عامة . فإن حكم إنسان في قضية القُمة وهي العقيدة بغير الحق ، فذلك هو الكفر . وإن رد الإنسان الحكم على مشيئة - وهو الحق الأعلى - فهذا لون من الكفر . وإن أمم الإنسان بالعصية وهو مؤمن بالإله فخطيئته نفسه بهذا هو الفسق . وإن حكم إنسان بين اثنين وحده ومال من حكم الله فهذا هو الظلم .

إذن هذه كفرون ، وظالمون ، وفاسقون . تقول لنا : إن ألفاظاً اختلفت باختلاف المحكوم به . فلا يقول أحد : إن تلك آية نزلت لتلك العنة ، وتلك الآية نزلت لعنة أخرى ، وثالثة نزلت لعنة ثالثة ، ولكنها أحكام عامة لمناط التكليف عامة . والحق قال في بداية كل حكم « ومن » ومن كما تعلم كلمة عامة . والدليل على ذلك أن من يحكم بغير ما أنزل الله إنما هو يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً ورد الحكم على الله . وقال الحق في الآية اللاحقة :

﴿ وَكَتَبَ عَلَيْهِمْ قِيَمَ أَنْ أَنْفُسَ بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

إنها أحكام تتعلق بجرائم ، وعقوبات على جرائم ، وهنا يكون الحكم بغير ما أنزل الله ظلماً . إذن فالأمر يختلف حسب المحكوم عليه

وحينما تعرضنا لقضية الخلق الأول وهو خلق آدم ، وطلب الله من الملائكة المكلمين بتدبير أمور الخلق في الأرض أن يسجدوا لآدم . وقلنا إن هذا السجود هو رمزية لأن يكونوا في خدمة آدم ، لأن كل مظهر من مظاهر القوة في الكون لا يرى الملك الذي يديره ، فكل قوة لها ملك معين ، ولأن ذلك الأمر من العيب فنحن لا نراه ، إنها ملائكة مدررات أمر . ونحن ينلهم الحق أن الطاريء على الكون وهو آدم ، وأنهم في خدمته ، ومن أجل ذلك أمرهم بالسجود لآدم . ولذلك تجد أن بعضاً من الملائكة الذين ليسوا من المدررات أمم لم يشملهم الأمر . ويكلم الحق إبليس حينما رفض السجود قال سبحانه :

﴿ أَتَسْكَبْتُمْ أَتَمَّ كُتَّ مِنْ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

إن «العالمين» هم الذين يسبحون الليل والنهار ولا يفترون ولا يدرون ولا يعلمون بأمر آدم . فقد سأل الحق إبليس أنت مستكبر عن السجود أم أنت من العالمين الذين لم يشملهم أمر السجود ؟ قلنا إن إبليس لم يكن من الملائكة ، لأنه ينص القرآن :

﴿لَآ إِبْرِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ولذلك لا يصح أن يكون «إبليس» محل خلاف أهو من الملائكة أم لا ! فهو ليس من الملائكة . وفي القرآن نص صريح يثبت جنسية إبليس . وهو من الجن . وكان من المختارين ، له أن يطيع أو أن يعصى . لأن الجن فاضلون في قانون الاختيار . فإن ألزم الحق نفسه بمنح الله إلزاماً يتساوى به مع الملائكة وجب عليه أن يقوم بذلك . ولكنه لم يفعل . وكان من الواجب أن يطيع إبليس الأمر . وما دام الحق هو الذي أمر بالسجود ، فالأدنى وهو إبليس كان عليه أن يسجد ، لأن المراتب محروطة كما نعلم . رئيس الجمهورية عندما يدخل على الوزراء فهم يطيعون أمره ، وإن كان يجلس مع الوزراء بعض ركلاء الوزارات فهم يعطيمون أوامره ، فلكل أهم يتخلون في الأمر من باب أولى . ولو كان إبليس أعلى من الملائكة لكان أولى له أن يستجيب لأمر الخالق الأعلى ولا يعصى ويتأمر . أما وإنه كان أقل من الملائكة فكان لا بد من باب أولى أن يتصاع لأمر الله لكن إبليس عطل أمر عدم السجود . فقال :

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وفي آية أخرى قال سبحانه :

﴿أَتَسُدُّ لِمَنْ خَلَقْتَ طَبَّ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وحين يتأمر كائن على الحكم ، يتأمر على الحكم الأصم ، أى على الحكم من حيث هو حكم دون النظر إلى الحاكم ، أم على من حكم بالحكم وهو الأعلى سبحانه ؟ . تأمر إبليس على من حكم بالحكم ، ولذلك طرده الحق من الجنة وصار ملعوناً لكن آدم عصى ربه وقرب من اشجرة التي نهاه الله عنها . ومن رحمة الله

نعالي أنه جعل في التكاليفات مقدمات تنطبق على حالة المكلف نفسه ، فلم يقل الحق
لآدم : لا تأكل من الشجرة . ولكنه قال :

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

(من الآية ٢٥ سورة البقرة)

لأن الحق علم أن آدم إنسان ، والإنسان من الأغيار ، وهو عندما يرى الشجرة
بشارها قد لا يقدر على نفسه ، ولذلك كان من الأفضل ألا يقرب من هذه الشجرة .
وسببها أنه يريد أن يحصى الإنسان : لأن التكاليفات التشريعية لا يرفعها الحق ، ولا يعفى
المكلف من القيام بها إلا في الأمر الذي ليس للإنسان فيه اختيار ، ولذلك أراد الحق أن
يحصى الإنسان من الاقتراب من تلك الشجرة حتى لا تغريه وجاء الحق بمثل هذا الأمر في
الحمر فلم يقل : لا تشربوا الخمر . ولكنه قال :

﴿إِنَّمَا أُخْذَ مِنْكُمْ وَاعْتَمِرُوا وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْثَمُ رَحْمٌ مِّنْ قَمَلٍ أَشْيَبَ فَاَجْتَنِبُوا﴾

(من الآية ٩٠ سورة البقرة)

لأن الإنسان لو جلس في مجلس خمر ورأى السكرى قد سعدوا وضحكوا فقد
تواوده نفسه على شرب الخمر . إذن فالأمر بالاجتناب هنا أبلغ من « لا تشربوا » .
ونجد أن تكاليفات الحق إنما تأتي للعمل الزوجي ، ومعنى العمل الزوجي أن يتحرك
الإنسان بلعم . أما بالنسبة للإدراكات فمن احترق أن يدرك الإنسان الأمر . ويترك
الحق لنا حرية حب من نشاء وكراهية من نشاء . ولكن هذا الحب لا يصح أن يصدر
عنه عمل تزويج فتجامله بالباطل . وكذلك الكراهية فليس هناك أمر بالكراهية ،
ولكن إن كره إنسان إنساناً فلا يصح أن يظلمه . فاللهي عنه هو الظلم ، ولذلك قال
الحق :

﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَفَاؤُ قَرْمٍ عَلَى الْآتَمَعُوا﴾

(من الآية ٨ سورة البقرة)

أي لا يجلدكم بعض قوم على ألا تعدلوا . إذن فالحق لم يحرم البغض لأنه مسألة
عاطفية ولكن التحريم ينحصر على الإقدام على عمل يخل بميزان العدل مع من
تكروه . ويجب أن يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن من ظلمه بمعصية ، فلا يجازيه
الإنسان إلا بطاعة الله . وأدم أكل من الشجرة ، فهو - إذن - قد تجاوز مسألة

الاقتراب إلى مسألة الأكل من الشجرة ؛ لأنه لو قرب منها لكان مخالفاً ، فإنا بالنا وهو قد أكل منها أيضاً ؟ إذن فقد أوعى آدم في المحصية ، لكنه قال : (ظلمنا أنفسنا) .

وهذا اعتراف واضح بأن حكمك يا الله هو الحكم الحق ، لكنني لم أقدر على نصي يا رب . إذن فهو لم يرد الحكم على الله ، ولكنه اعترف بأنه لم يقدر على تنفيذ الحكم ، لذلك أعطاه الله كلمات ليقولها فيتوب عليه . وسبحاته هو الذي عصى آدم كيف تكون التوبة . فآدم - إذن - ليس كإبليس الذي رد الحكم على الله ؛ لأن آدم قال : أنا لم أقدر على نصي .

إذن فمن لم يحكم بما أنزل الله راداً للحكم على الله وخطئاً له - سبحانه - فهو كافر . وإن كان حكماً بين اثنين وحكم بنير ما أنزل الله فهو ظالم . أما إن كان حكماً على النفس ولم يقدر عليه الإنسان فهذا فسق . وكل وصف جاء حسب حكمه . ولا داعي - إذن - للجدل ولا للحلاف ولا ادعاء أن هناك قولاً يقصد به اليهود ، وآخر ورد في النصرانية ، ولا يصح أن يزين الإنسان الساطل لأحد ، لأن ورود الحكم بما أنزل الله في الإسلام أمر جازم يوجب الالتزام به .

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ
وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ
بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ
تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

لقد كتب الحق على اليهود في التوراة التي وصفها من قبل بأنها هدى وبور ، كتب

وأوجب عليهم أن النفس بالنفس ، وعليها أن تأخذ كل أمر وما يناسبه من الحدث .
 أى أن النفس تقتل بالنفس . ولكن عندما يقول الحق : « والعين بالعين » ، فهل
 يعنى ذلك أن تقتل العين ؟ لا . ولكن العين تقمع مقابل عين . وكذلك « والأنف
 بالأنف » . أى الأنف المجذوعة ، مقابل جدد أنف أخرى . وكذلك قوله الحق .
 « والأذن بالأذن » أى إصابة أذن بالصمم مقابل إصابة أذن بالصمم . إذن فلكل
 ما يقابله . فهناك النفس تقتل بالنفس وهناك العين تقف بالعين ، وكذلك الأمر فى
 جدد الأنف ، وصمم الأذن .

إن تعبيرات اللغة واسعة تعطى لكل وصف ما يناسبه . فالإنسان مثلاً قد يكون
 جائعاً . ولكن إلى ماذا ؟ إن كان جائعاً لطعام فهو جوعان . وإن أراد حصوية أكل
 ويشتهي اللحم فلا يقال له : جوعان ، ولكن يقال « قريح » . وإن كان يشتهي اللبن
 يقال له : « عثان » ، وإن كان فى حاجة للماء يقال له : « عطشان » . وإن كان
 جائعاً للجنس فهو « شين » .

وذلك يكشف لنا أن الإنسانية تحتاج إلى أمور متعددة ، وكل أمر له اسم . وكل
 شيء له تعبير . ومثال آخر : يقال « ملان جلس » أى قعد . وهذا فى المعنى العام .
 ولكن الجنس يكون من الضطجاع . أما قعد ، فهو عن قيام ، أى كان قائماً
 وقعد . ولذلك قال الحق : « قيماً وقعوداً »

ومثال آخر : يقال : « نظر ، ورى » و « ملح » ، وكل كلمة لها موقعها ، فالنظر
 يكون بجميع عيه . و « رى » أى لحظ لحظاً خفيفاً . و « ملح » أى اختلس النظر
 إليه . وكذلك قوله الحق معناه : أننا كتبنا عليهم فيها أن النفس مقتولة بالنفس ،
 والعين مقتولة بالعين ، والأنف مجذوعة بالأنف ، والأذن مصومة بالأذن ، والس
 مخرجة بالس . وبعد ذلك يقول الحق عن الجروح . « والجروح قصاص » لأن
 الجرح قد يكون فى أى مكان . والقصاص يكون مجزئاً ومساوياً للشيء ، وهو مأخوذ
 من قص الأثر ، أى السير تبعاً لما سارت عليه انقدم السابقة دون انحراف . ولما كان
 القصاص هو أمر مطلوب فيه المماثلة فذلك أمر صعب ، صحيح أن الحق قال :

﴿ قَسِيَّ آفَئِدَتِي عَلَىكَ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلٍ مَّا آفَئِدَتِي عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة البقرة)

لكن القصاص أمر صعب ، فالصفحة من يد جائع متهاة بعكس الصفحة التي تأتي من يد صاحبها في منتهى النشاط والقوة . فكيف يكون القصاص مناسباً لقوة الذي فعل الفعل ؟

يذن لا يصح أن يدخل الإنسان في متاهة . ويمكنه أن يتصدق بالقصاص فلا يأخذه . ونحن نعظم حكاية « تاجر اليدين » ذلك المراهي اليهودي الذي أقرض نفوداً مقبل رحل من لحم صاحب القرض ، وكتب الاثنان التعاقد وجاءا بالشهود . ولم يستطع الرجل أن يسد المال في المهاد ولكن القاضي أنار الله بصيرته . فقال : حذ الرحل من لحم الرجل ولكن إن أنقصت أوقية فسأخذها منك أو إن زدت أوقية فسأخذها منك . فقال المراهي لا أريد .

وقد فس الحق للجريمة ، ولم يخلق سبحانه باب الطموحات الإيمانية ، فقال : « فمن تصدق به فهو كفارة له » . ومعنى « تصدق » أنه دفع وأعطى شيئاً غير مستحق ، ولا واجب عليه أى تبرع به ابتغاء وجه الله . إن انبذ يتصم البشر في تقنيناتهم أنهم يطيلون إجراءات التعاضى ، ساعة تقع جريمة يستمر التحقيق فيها بواسطة القضاء لأكثر من عام فتبهت بشاعة الجريمة في النفس البشرية . ومن الواجب كذلك أن يكون الأمر لولى القصاص ، لأنك إن مكته أرضيت نفسه بأول شفاه . وساعة يعطى الإنسان ذلك الحكم فقد يرهق فيه ، لأن الأمر حين يكون في يده ويقرر على القصاص فمن المحتمل أن يعفو

وسيقبل المتصدق عليه طيلة حياته يدين بحياته أو بجوارحه من جوارحه لصاحب القصاص . وبدلاً من إعازات الثارات تنشأ المودة . وحين يشرع المشرع الأعلى يوضح لنا : لا تحكم بأنك دائماً معتدى عليك ، بل تصور مرة أنك معتد ، ألا تحب في مثل هذه الحالة أن يتصدق عليك صاحب المصاح ؟ وإذا أرادت الحكومات أن تنهى الثارات فلهم في التشريع الأعلى الحكم الواضح .

وفي صعيد مصر ، ساعة يُقتل إنسان يجد الذى عليه الثار يأخذ كفته ويذهب إلى العائلة الطالبة للثأر ، ولحظة يدخل عليهم حاملاً كفته بيديه ، تشفى النفوس من طلب الثأر . ويحيا ، وصاحب الثأر متمصل عليه بالعيش « فمن تصدق به فهو كرامة

له ، تكون الصدقة هنا من ولى القصاص . والفعل « تصدق » يحتاج إلى اثنين هما .
« متصدق » و « متصدق عليه » . وسبحانه الحق يكفر عن المتصدق من الذنوب بقدر
ما تسامح فيه لأخيه ، وهنا يحسن الله الخلق بعضهم حل بعض ؛ لذلك تأتي المسألة
هنا من ناحية صاحب القصاص لترغبه في التصديق .

ومضى الحق الآية بقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »
وعرفنا من قبل ضرورة الحكم بما أنزل الله . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَا إِلَيْنَا يُجِئِلُ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ
وَمُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

وقفنا على آثامهم ، فعيسى جاء من بعد موسى ، فعندما يمشى رجل خلف رجل
تجد أن قفا الأول يكون في وجه الثاني . وعندما يقول الحق : « وقفنا على آثارهم
بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه » أى مصدقاً لموسى لئى جاء بالثبوت . « وآتيناه
الإنجيل فيه هدى ونور » . وعرفنا أن « الهدى والتور » يناسبان الآية التى نزلت إليها
تلك الهداية وذلك النور .

إن هناك مقولات سمها « المقولات الإضائية » ، كأن يقول إنسان في قرية
لابنه : أشعل الضوء . ويشعل الولد المصباح الكبير وسقى ، أما إذا قال إنسان في
مدينة لابنه : أضئ ، النور ، فالابن يضبط على الزر لضئ المصباح الكهربائى .
وهذه الإضافات قد تجعل اللفظ يحمل معنيين . ومثال آخر أكثر وضوحاً : يسكن
الإنسان في منزل ما ، ويعرف أن السقف عال بالنسبة له ، ولكنه أرض بالنسبة
لصاحب الدور الثانى ، إنه علو وسفل وهذا هو المعنى الإضائى . وكذلك عندما

نقول : فلان ابن فلان ، فهذا لا يجمع أن هذا الابن يكون أباً بالنسبة لابنه .

إذن « هدى ونور » هي معان إضافية . وكل « هدى ونور » يناسب البيئة التي نزل فيها . فالبيئة المادية الأولى كانت في حاجة إلى تقنين ، لذلك جاءت التوراة ، ومن بعد ذلك صارت هذه البيئة المادية في حاجة إلى طاقة روحية ، لذلك جاء الإنجيل بكل الروحانيات ، وعندما سئل عيسى ابن مريم عليه السلام في قضية الميراث قال : أنا لم أرسل مورثاً ، فهو يعلم أنه جاء بشحنة روحية فيها مواجيد ومراغظ . ويتابع الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ
وَمَنْ لَمْ يَتَّخِذْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴾

والحق أنزل في الإنجيل أن الأحكام تؤخذ من التوراة . أي أن الإنجيل تضمن إلى جانب روحانياته أسس الأحكام الموجودة في التوراة . ولذلك أوضح الحق : من لم يحكم بما أنزل الله فهو فاسق مادام قد خرج عن الطاعة . فإن خرج أحد عن الطاعة في أمر الألوهية والربوبية فهو كافر . ومن خرج عن الأحكام بالنسبة للحكم بين الناس فهو ظالم . إذن فالسالة كلها متداخلة ، فالشرك ظلم عظيم أيضاً .

وبعد أن تكلم الحق عن التوراة والإنجيل ، جاء بما نزل إلى النبي الخاتم .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ قُلُوبَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ ﴾

بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ
الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا
ءَاتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » نعرف أن هناك شريعاً جاء من أعلى . وهناك من
يريد أن يلبس الناس أهواءه ، فيقول : إن الإسلام دين تقدمي ، أو يقول
الإسلام دين رجعي ، وكلاهما يحاول أن يلبس الإسلام بما ليس فيه ، ويقول :
لا نقولوا ذلك ولكن قولوا الإسلام توفى ، لأنه جاء من الله ، فإن كان للتقدمية مزاي
فهو تقدمي ، وإن كان للرجعية مزاي فهو رجعي ، وإن كان لليمين مزاي فهو يميني
وإن كان لليساو مزاي فالإسلام يساوي ؛ فقد جاء الإسلام بالاستطراق الاجتماعي
والتقدم العلمي الأصيل ؛ لأن مفهوم التقدم هو أن يرتقى الإنسان بنفسه ارتقاءً
متقدماً يجعل الناس متكافئين .

إن الإسلام ليس تقدماً فقط بالنسبة للحياة الدنيا ولكن بالنسبة لحياة أخرى
خالدة فوق هذه الحياة . إن الدين يناقشون تلك الأفكار لا يحسنون فهم أفكارهم
سواء أكانت تقدمية أم رجعية أم يمينية أم يسارية . ونرى أن المناهج المعاصرة التي
تسبب كل هذا الصراع في الدنيا من شرق وغرب هي : الرأسمالية والشيوعية
والاشتراكية والوجودية وغيرها .

وعندما ننظر - على سبيل المثال - إلى القائلين على أمر الثورة الشيوعية عام
١٩١٧ ، نجد قولهم : إنهم مازالوا في بداية الطريق إلى الشيوعية ، ولكنه اختيار
الطريق الاشتراكي .

كان يجب أن يتجهوا إلى ما نادوا به ، ولكن ها نحن أولاء نرى أنهم كلما تقدموا في الزم نراجعوا من أفكارهم الأولى . حتى انقلبوا على أنفسهم . وذلك دليل على أن المنهج الذي اتبعوه لأنفسهم غير صحيح .

والمنهج الرأسمالي أظن كما هو ؟ لا ، لأن الأحداث قد اضطرت الرأسمالية أن تمنح العمال حقوقاً وبذلك لم تبق لرأس المال شرابته . كما سارت الشيوعية إلى معظم أساليب الرأسمالية . والرأسمالية سارت إلى بعض من أساليب الاشتراكية وهما - إذن - يريدان أن يلتقيا . ولكن الإسلام لوجود هذا اللقاء من البداية ، فسخر رأس المال ، واحترم العمل . وكل إنسان لزم حدوده . وضمن وجود واستمرار حركة الحياة . ولذلك نجد أن الرأسمالية تقول : يجب أن توفر الحوافز للعمل . ولم فصل الشيوعية أيضاً إلى مداها ، بل قامت بإهدار حقوق الناس ، ثم ماذا عن الذين لم تمتد إليهم يد الشيوعية - قبل أن توجد - وكان فيهم من يستغل الناس ؟

كان العقل يحتم أن تؤمن الشيوعية بأن هناك آخرة يعاقب فيها من استغلوا الناس من قبل ، ومن مصلحتهم إذن أن توجد آخرة . وكان من اللازم أن يكونوا متدينين . وكذلك الرأسمالية التي لا تعترف إلا بالربح المادي ، امتلأت بمجتمعاتها بالضعفاء الذين فقدوا المعنويات . وقول الحق : « أثرتنا » يعتبر أن هناك منهجاً نزل من أعلى ، وحين تأخذ معطيات البيان القرآني ، نجده سبحانه يبلغنا تعاليمه : « قل تعالوا » . أي ارتفعوا إلى مستوى السماء ولا تهبطوا إلى حضيق الأرض .

ولذلك قال الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » ونرى أن آيات القرآن تتأزر وتخدم كل منها الأخرى . ونزول الكتاب بالحق يحتاج إلى صدق دليل أنه ينزل من الله حقاً ، وأن تأتي كل قوانين الحق في حركة الحياة بالانسجام لا بالتناحر ، وهناك آية تشرح كلمة « الحق » :

﴿ وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)
أي أنه نزل من عند الله وليس من صناعة بشر . (وبالحق نزل) أي نزل بالمنهج من عند الله الذي يقيم منطق الحق في كل نفس وكل مكان ، وينص كل حق يقيم حركة الحياة .

وهنا اجعلت الآية ، فقالت : « وأنزلنا إليك الكتاب بلحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، لى أن القرآن مصدق للكتب السماوية السابقة . وما الفارق بين كلمة « الكتاب » الأولى التى جاءت فى صدر الآية ، وكلمة « الكتاب » الثانية ؟

إننا نعلم أن هناك « ال » للجس ، و « ال » للمعهد ، يقال « لقيت رجلاً فأكترت الرجل » ، لى الرجل المعهد الذى قابله . فكلمة الكتاب الأولى اللام فيها للمعهد لى الكتاب للمعهد المعروف وهو القرآن ، وكلمة الكتاب الثانية يراد بها الجنس لى الكتب المنزلة على الأشياء قبله ، فالقرآن مهيمٌ رقيبٌ عليها ، لأنها قد دخلها التحريف والتزييف .

كلمة « الحق » - إذن - تعنى أن كتاب الله الخاتم لكتبه المنزلة وهو القرآن قد نزل بلحق الثابت فى كل قضايا الكون ومطلوب حركة الإنسان . ونزل بلحق بحيث لم يصبه تحريف ولا تغيير .

إذن فالحق هو فى مضمونه وفى ثبوت نزوله . وقد نزل القرآن بعد كتب أنزلها الله متناسبة مع الأزمنة التى نزلت فيها ، لأنه سبحانه خلق الخلق لمهمة أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن يعمرُوا هذا الكون بما أمّدهم به من عقل وفكر ، وطاقات تنفذ ، ومادة فى الكون تتفعل ، فإن أرادوا أصل الحياة مجرداً عن أى ترقى أو إسعاد فلهم فى مقومات الأرض ، يعطيهم ، وإن أرادوا أن يرتقوا بأنفسهم فعملهم أن يعملوا العقل الذى وهب الله ليعلم الطاقات التى خلقها الله فى المادة التى خلقها الله ، ويبحثوا بأخلاق أسرار الله من الوجود .

إن أسرار الله فى الوجود كثيرة ، وتفعل لنا وإن لم نعرف نحن السر فنجد الجاذبية التى تمسك الأفلاك تفعل لنا ، وإن لم نكن قد اكتشفنا الجاذبية إلا أخيراً . والكهرباء السارية فى الكون سلباً وإيجاباً تفعل لنا وإن لم نعرف ما تتطوى عليه من سر .

إن الحق سبحانه حين يهد ميلاد سر فى الكون سبحانه يمد الحق بأسباب بروز هذا السر . واعلموا أن كل سر من أسرار الكون المستخر للإنسان له ميلاد كميلاد

الإنسان نفسه ، إما أن يصادف - هذا الميلاد - حمل العقل في مقدمات تنتهي إليه ،
وحيثئذ يأن الميلاد مع مقدمات استعمالها البشر فوصلوا إلى النتيجة ، ثملاً مثل
التمرين الهندسي الذي يقرم الطالب بحله بعد أن يعطيه الأستاذ بعضاً من
المعطيات ، ويستخدمها التلميذ كمقدمات ليستنتج ما يريد المدرس أن يستنتجه من
مطلوب الإثبات . فإن صادف أن العقل بحث في الشيء معطياً وتجريبياً وصل ميلاد
السر مع البحث . وإن جاء ميلاد السر في الكون ، ولم يشغل الإنسان نفسه ببحث
مقدمات توصل إليه ، وأراد الله ذلك الميلاد للسر فماذا يكون الموقف ؟

أمنع الله ميلاد السر لأننا لم نعمل ؟ لا . بل يخرج سبحانه السر إلى الوجود كما
نسمع دائماً عن مصادفة ميلاد شيء حل يد باحث كان يبحث في شيء آخر . فنقول : إن
هذا السر خرج إلى الوجود مصادفة

وإذا نظرت إلى الابتكارات والاختراعات وأمهات المسائل التي اكتشفت لوجدتها
من الصنف الثاني ، ونجد المفكر أو العالم وقد عرق في بحث ما ، ثم يعطيه الله سرّاً
من أسرار الكون لم يكن يبحث عنه ، فيقال عن الاكتشاف الجديد : إنه جاء مصادفة ،
وحيثما جعل الله لكل سر ميلاداً ، فهو قد أعطى خلقه حياة من واسع فضله ،
وأعطاه قدرة من فيض قدرته وأعطاء علماء من بعده (وعلماء من لدنا علماء) ، ووهبه
حكمة يؤتي بها خيراً ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً . وهو سبحانه وتعالى
يريد من خلقه أن يتفاعلوا مع الكون ليبرروا الأشياء ، وإذا كان سبحانه يريد ما أن نعلم هذا
الاتصال فلا بد أن يضع للنهج الذي يصون طاقاتنا ونكرنا بما يندمها .

والذي يبدد أفكار الناس وطاقاتهم هو تصارع الأهواء ، فالهوى يصادم الهوى ،
والفكرة قد تصادم فكرة ، وأهواء الناس مختلفة ، لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن
يضمن لنا اتفاق الأهواء حتى يصدر في كل حركاتنا عن هوى واحد ، وهو ما أنزله
المخالق الأعلى الذي لا يغير تلك الأهواء . أما ما لا تخلف فيه الأهواء فتركنا لكم
نبحث فيه ، لأننا سنتفق فيه قهراً . ولذلك نقول دائماً : لا توجد اختلافات في
الأفكار العملية التجريبية المادية ، فما وجدنا كهرباء روسية ، وكهرباء أمريكية لأن
المعمل لا يجامل . والمادة الصماء لا تحابي . والنتيجة العملية تخرج بوصوحها
واحدة .

إننا نرى اتفاق العلماء شرقاً وغرباً في معطيات المادة التجريبية وتحاول كل بلد أن يسرق من البلد الآخر ما انتهى إليه من نتائج لتدخنها على حصارها ، بينما يختلف الأمر في الأهواء البشرية ، فكل بلد يحاول أن يبعد هوى الآخر عن حدوده ، لأن الأهواء لا تلتقي أبداً ، وأحق قد وضع حركة الحياة لتعمل بـ « اعمل كذا » و « لا تعمل كذا » مما تختلف فيه الأهواء ليضمن الاتحاد وعدم تعاند الطائفت فينا . بل تتساند معاً .

﴿ وَلَوْ أَتَعَاحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المائدة)

إذن فمنهج الله في كونه إنما جاء لينظم حركة الإنسان فيها تختلف فيه الأهواء . أما الحركة فيها لا تختلف فيه الأهواء فقد تركها سبحانه حرة طليقة . لأن البشر يتفقون فيها قهراً عنهم ، لأن اللذة لا تهمل والعمل لا يجاهل

ولذلك قلنا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله نبياً حافئاً أعطى بـ « اعمل ولا تفعل » أما بالنسبة للأمر المأدب المعمل فقد جعل أمره في ذات النبي صلى الله عليه وسلم . فعندما قُبِمَ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كان أهلها يأبرون النخل ، أي يلقحونه ليثمر . فمر النبي صلى الله عليه وسلم يقوم يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » .

فلم يأبروا النخل ، فخرج شيخاً ، أي بشراً وديئاً ، وشاب النخل . ومر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما لنعنكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينعمهم ذلك فليصعوه ، فإن إنما ظننت غناً فلا يؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإن لن أكذب على الله عر وجل » .

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« إنما أنا بشر ، إذ أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر »

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلمها قضية كونية مادية تجريبية معملية :
(أنتم أعلم بكم دنياكم) (١) .

أى أنه صلى الله عليه وسلم ترك للأمة إدارة شئونها التجريبية ، ولم يكن ذلك القول تركاً للحبل على العارب في شئون المنهج ، فقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم لفصل فيما تتدخل فيه السماء ، وفيما تتركه السماء للبشر ، وأعمار الناس - كما يعلم - تختلف ، فنحن نقول للإنسان طفولة ، وله فتوة ، وشباب ، وله اكتمال رجولة ونضج ؛ لذلك يعطى الحق من الأحكام ما يتناسب هذا المجتمع ، يعطى أولاً الاحتياج الذى للطفولة ، وعند عصر الفتوة يعطيه المسائل الإدراكية ، وعندما يصل إلى الرشد يعطيه زمام الحركة في الكون على صورة المنهج ، فكانت رسالة الإسلام على ميعاد مع رشد الزمان ، فأين الحق سبحانه أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يفتقروا ليحموا حركة الإنسان من أهواء البشر . وكانت الرسل تأتى من عند الله بالبلاغ للمجتمعات البشرية السابقة على الإسلام . وكانت السماء هى التى تؤدب ولكن عندما اكتمل رشد الإنسية ، رأينا الرسول يبلغ ، ويؤكد الله فى أن يؤدب من يخرج على منهج الله فى حركة الحياة ، لأنه صلى الله عليه وسلم أصبح مأموناً على ذلك .

وإذا نظرت إلى الكون قديماً لوجدته كوناً انعزالياً ، فكل جماعة فى مكان لا تعلم شيئاً عن الجماعة الأخرى ، وكل جماعة لها نظامها وحركتها وعيشتها وداءاتها . والإسلام جاء على اجتماع البشر جميعاً . فقد علم الله أولاً أن لإسلام سيجىء على ميعاد مع إلقاء فوارق الزمن والمسافات ، وأن الداء يصبح فى الشرق فلا يبيت إلا وهو فى الغرب ، وكذلك ما يحدث فى الغرب لا يبيت إلا وهو فى الشرق .

إذن فقد انحدرت الداءات ولا بد أن يكون الدواء واحداً فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جامعاً للزمان وجامعاً للمكان وماتوا أن يحىء رسول آخر بعده ، وأن العالم قد وصل إلى قمة نضجه . فإذا ما جاء الإنسان ليعلم منهج الله بـ « افعل » ولا « تفعل » ، وجد أن المنهج محروس بدئنهج ، بمعنى أن الكتب السابقة على القرآن فيها « افعل » و « لا تفعل » ، والقرآن أيضاً فيه « افعل » و « لا تفعل » لكن المنهج

السابق على القرآن كان مطلوباً من المنزل إليهم أن يحفظوا عليه ، وما دام قد طلب الحق منهم ذلك فكان من الواجب أن يمثلوا لطاعته لكنهم تركوا المنهج . فكل منهج عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يهمل ، ولم يحفظوا الكتب وحدث فيها التحريف بمراحله المختلفة والتي سبق أن ذكرناها وهي التسهل وهو منمثل في قومه الحق .

﴿ وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة النازعات)

وما لم ينسوه كتبوا بعضه ، فقال الحق فيهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْمَنِيُّ مِنْ بَعْدِ مَا يَنْتَهُ النَّاسُ فِي
الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة البقرة)

وما لم يكتموه حرقوه ولوا للستهم به وقال الحق :

﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ نَفَرٌ يَأْمُرُونَ بِالْكِتَابِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة آل عمران)

ولم يقتصروا على ذلك بل وضعوا من عندهم أشبه وقالوا إنها من عند الله . وكان أمر حفظ كتب المنهج السابقة موكولا لهم ولذلك قال الحق عنهم :

﴿ يَمَّا اسْتُخِفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

أي أن الحق طلب منهم أن يحفظوا على المنهج ، وكان يجب أن يطعموه ولكن أهلهم آثر العصيان . فلما عصى البشر المنهج ، لم يأمن الله البشر من بعد ذلك على أن يستحفظهم على القرآن ، وكأنه قال : لقد جربتم فلم تحفظوا على المنهج ، ولأن القرآن منهج خاتم لن يأتي له تعديل من بعد ذلك فسألتني أنا أمر حفظه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّتُ الدِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(سورة الحجر ٩)

ومادام الحق هو الذي يحفظ المنهج فالقرآن مهيمن على كل الكتب ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد ضمن عدم التحريف فيه إذن فالكتاب المهيمن هو القرآن ، ومادام القرآن هو المهيمن فهو حقيقة ما يسمى بالكتاب .

ودليل العهد هو قول الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب » أما قوله : « ومصدقاً لما بين يديه من الكتاب » فالقصد به لزوم التوراة والإنجيل ومصحف إبراهيم وموسى ، ثم جاء القرآن مهيمناً على كل هذه الكتب .

وساعة سجد وصفاً وصف به غير الله وسمى به الله نفسه في الموقف ؟ تعرف أن هذه صفات بلغت في تخصصها به مقامها الأعلى بالله ، مثل قولنا : « الله سميع » والإنسان سميع ، و « الله غني » ويقال : « فلان غني » ؛ فإذا سمي الحق باسم وجد في الخلق ، فليس من المتصور أن يكون هذه صفة مشتركة بين العبد والرب ، ولكننا نأخذ ذلك في ضوء : « ليس كمثل شيء » .

إن أي اسم من هذه الصفات على إطلاقه لا ينصرف إلا لله ، فإن قلت : « الغني » على إطلاقه فهو اسم لله ، وإن قلت : « الرحيم » على إطلاقه فهو اسم لله . فإذا أطلق اللفظ من أسماء الله على إطلاقه فهو الله ، واسم « المهيمن » يطلق هنا على القرآن وهو اسم من أسماء الله . ومن معنى « مهيمن » أنه مسيطر

ومن أمثلة الحياة أننا نرى صاحب مصنع يطلق يد مدير في شئون العمل ، وهذا يعني أنه مؤمن ومسيطر وأمين ، ولا بد أن تنتبه ، أي رقيب ، وهو شهيد ، إذن فالذين فسروا كلمة « مهيمن » على أنه مؤمن قول صحيح .

والذين فسروا كلمة : « مهيمن » على أنه « مؤمن » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « رقيب » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « شهيد » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه قائم على كل أمر فون صحيح . وإذا رأيت اختلافات في تفسير اسم واحد من أسمائه - سبحانه - فلتعلم أن الحق يصلق عليه كل ذلك ، وباللزام لا يكون « رقيباً » إلا إذا كان « شهيداً » ، ولا يكون « شهيداً » إلا إذا كان قائماً على الأمر ، ولا يكون كل ذلك إلا إذا كان مؤمناً ومؤمناً .

إذنه « مهيمن » هو قيم وشاهد ورفيق . ومادام القرآن قد جاء مصدقاً ما بين يديه من الكتاب فعل أى مجال يهيمن ؟ نحن نعرف مدلول الكتاب بأنه نور من عند الله ، فإن جئ الكتاب الذى نزل من عند الله كما هو فالقرآن مصدق لما به ، أما إن لعبت فى ذلك المنهج أهواء البشر فالقرآن مهيمن لأنه يصحح المنهج وينقي من أهواء البشر . « فاحكم بينهم بما أنزل الله » . « احكم » مأخوذة من مادة « حكم » ، « والحكمة » هى قطعة الحديد التى توضع فى فم الحصان ويربدها باللباس ، حتى تتحكم فى الحصان . والحكمة هى ألا تدع المحكوم يفلت من إرادة الحاكم .

وحين يقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » فهل يحدث ذلك أيضاً مع غير المؤمنين ؟ نعم . فإذا ما جاء إليك يا رسول الله أناس غير مؤمنين وطلبوا أن تحكم بينهم فاحكمهم بما أنزل الله . ولذلك قال الحق :

﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة التوبة)

لكن لماذا جاءوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم برغم عدم إيمانهم به ؟

جاءوا إلى الرسول ليحكم بينهم ؛ لأنهم ألفوا أن يبيحوا ما حرم الله شهوات الدنيا وأخذوا لأنفسهم سلطة زمنية ، وماداموا قد أخذوا لأنفسهم سلطة زمنية أنستهم حكم الله . وأرادوا - على سبيل المثال - أن يخرجوا على حكم الرجم وتخفيفه ، ولذلك ذهبوا إلى النبی ، فإن حكم هو بالتخفيف أخذوا بالحكم المخفف ، وإذا لم يحكم بالتخفيف فهم لن يأخذوا بالحكم ، هم ذهبوا إليه صلى الله عليه وسلم بقصد التيسير وقالوا له : أنت تعلم أن لنا سلطاناً وأن لنا نفوذاً ونحن نريد أن تحكم لنا لأنك صدمنا بحكم لنا سنؤم بك وبعد ذلك تأتى إليك باقى جماعتنا ليؤمنوا بك ويتبعوك .

لقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك تطبيقاً لقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » فإذا كان عندهم كتاب التوراة مصوناً من التحريف ، فالرسول يشير عليهم بالحكم الموجود فى التوراة ، ولذلك عندما استدعى صلى الله عليه وسلم أهلهم علمائهم بالتوراة حاول بعضهم أن يصع يده على

السطور التي بها الحكم ؛ فالحكم بما أنزل الله يكون من التوراة إن لم يبدل ، أما إذا كان الحكم قد بدله الناس فالحكم من القرآن ؛ لأن القرآن هو المهيمن . فالحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ؛ لأنهم بهذه الأهواء يريدون أن يسروا على أنفسهم ليستفوا لأنفسهم السلطة الرمية ، ووصفهم الحق :

﴿ أَشْتَرَوْا بِعَابِتِ اللَّهِ ثَمًّا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

هم - إذن - يريدون أن يستبدلوا بآيات الله مصلحتهم في الحكم . ويقول الحق : « ولا تتبع أهواءهم عما جلتك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاج » ، وإن افترضنا أن بعضاً من التوراة لم يحرف ، وبه حكم أراد الإسلام أن يبدله ، فماذا أمر يتبع ؟ إن الاتباع هنا يكون للقرآن لأنه هو المهيمن ، فسبحانه أراد بالقرآن أن يصحح ويعدل ويغير .

إن مناهج الأديان في العقائد ثابتة لا تغيير فيها ، وأما ما يتصل بالأحكام التي تحكم أفعال الإنسان فله سبحانه وتعالى ينزل حكماً لقوم يلائمهم ثم ينزل حكماً آخر يلائم قوماً آخرين . ولذلك نجد أن سيدنا عيسى قال :

﴿ وَلَا أُحِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُجِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٥١ سورة آل عمران)

أي أن هناك أشياء كانت محرمة في دين اليهود . وجاء عيسى عليه السلام ليحلل بعضاً من هذه المحرمات ، وكان التحريم مناسياً بني إسرائيل في بعض الأمور ، وجاء المسيح عيسى ابن مريم ليحلل لهم بعضاً من المحرمات ، وكان تحريم بعض الأمور بني إسرائيل بهدف التأديب :

﴿ قُلْ لِمَنْ أَلْزَمَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتِ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة البقرة)

إذن فقد يكون تحريم الشيء بسبب الضرر النافق منه ، أو هدف التأديب ؛ لأن الإنسان أحل لنفسه ما حرمه الله عليه .

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » والشرعة هي الطريق في الماء . والمنهج هو الطريق في اليابسة . ومقومات حياة الإنسان هي من الماء ومن الغذاء الذي يخرج من الأرض ، فكللت جعل الحق سبحانه وتعالى في القيم هذين الاثنين ، الشرعة والمنهج ، ومادام سبحانه قد جعل لكل منا شرعة ومنهاجا ، فلماذا قال في موضع آخر من القرآن :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة النور)

معنى هذا القول هو الاتفاق في أصول العقائد التي لا تختلف أبداً باختلاف الأزمان . ففى بدء الإسلام نجد أنه جاء ليؤصل لعقيدة أولاً بلا هوادة ، فتأدى بوحدة الله ، وعدم لشرك به ، وصفات الكمال المطلق فيه ، وعدم تعدد الأله . أما بقية الأحكام الفعلية فقد جعلها مراحل . وكان يحسم قليلاً بقليل . إذن فالمراحل إنما جاءت في الأحكام الفعلية ، أما العقائد فقد جاءت كما هي وحسم لا هوادة فيه

إذن فقوله الحق : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » هذا القول مقصود به العقائد . ومادام قد شرع لنا في الدين ما وصى به نوحاً ، فهذا توصية بأعمال تتعلق أيضاً برس نوح ، وسبحانه الذي وضع لنا المنهاج الذي نسير عليه في زماننا . إذن فالأمور متساويان . والمهم هو وحدة المصدر المشرع

ويقول الحق : « ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة » . فلو شاء لجمع « الفعل » ولا « تفعل » واحدة في كل المناهج ، ولكن ذلك لم يكن متناسباً مع اختلاف الأزمان والأقوام الانعزالية قبل الإسلام بداءاتها المختلفة ، لذلك كان من المنطقي أن تأتي الأحكام مناسبة للداءات .

﴿ وَتَرَىٰ أَنَّهُ لِيَجمعَكُمُ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنَّ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآءِ تَسْكُرٍ فَأَسْتَفِيضُوا ﴾

التحيرت إلى الله مرجعكم جميعاً

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وسبحانه وتعالى لو شاء لجمعنا أمة واحدة في « افعل » و « لاتفعل » ولكنه

- سبحانه - لم يرد ذلك حتى لا يألّف الناس العبادة وتصير كالعادة عندهم ، فحيثما يألّف الناس أداء العبادات ، فهم بذلك يحرّمون ثلّة التكليف والإيمان بالتكليف ، فكان لا بد أن يأتي لتشريع مناسبا لكل زمان . وذلك ليعرف بين قوم وقوم ، ففى الصوم - حل سبيل المثال - نجد أن الحق يسمح لنا بالطعام والشراب والجنس فى الفترة ما بين الإفطار والسحور ، فالحق يأتى إلى الشيء الرتيب ويأتى فيه أمر الله بالامتناع عنه لفترة زمنية معينة . ولا يقرب المؤمن هذه المحرمات فى زمان معين ، ولا يقرب غيرها فى أى زمان ومكان . مثل شرب الخمر ، أو أكل لحم الخنزير . واؤمّس لا يقرب هذه الأشياء بطبيعة اختياره . ويأتى الصوم ليعلمه ويذريه حل الانصياع للتكليف فيحرّمه الحق من الطعام طول نهار شهر رمضان وكذلك الشراب والجنس .

المسألة - إذن - ليست رتبة أبدأ . بل هي ابتلاء واختبار للبشر ، ولكن ليعلمكم بها أأنكم والابتلاء - كما نعلم - ليس أمرا مذموما فى ذاته ، هو مذموم باعتبار ما تؤول إليه نهايته ، ومادام سبحانه يتلينا قيا أأنا فيجب أن نكون حكما وأن نسابق إلى الخير :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

والتسابق إلى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح فى الابتلاء ، والنجاح يعطى أكثر مما ننال بعدم الانصياع . إذن فالابتلاء فى مصلحتنا ، لأنه يعطى الناجحين فيه نجاحاً أأخذ ، وفصارى ما يرينه الشيطان للناس أو ما تتخيله نفوس الناس ، أن تمر الشهوة العابرة وتنفق فى الدنيا العابرة . وبعد ذلك يأتى العذاب المقيم . وعندما نوازن هذا الأمر كصفقة نجدها خاسرة ، لكن إن نجحنا فى ابتلاء الله لنا فلذلك هو الفوز العظيم . فاستبقوا خيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فمنا كتم به تحتلفون .

أى تسابقوا فى الوصول إلى الخيرات ، لأن الخير إن يقاس بمائدته ، فلأياكم أن تفهموا أن الله حرّمكم شهرات الدنيا لأنه يريد حرمانكم ، ولكنه حرّمكم بعضاً من شهوات الدب لأنها مفسدة . وكان التحريم لزمن محدود ليعطيكم نعم ومتع الآخرة المصلحة فى زمن غير محدود ، وهذا هو كل الخير .

« إلى الله مرجعكم جميعاً » والكل يرجع إلى الله سواء ملتزم أو المنحرف ، وأمام الحق نرى القول الفصل : « فنبينكم بما كنتم فيه تختلفون » . ومادام هناك اختلاف فلا بد أن يوجد من أخذ جانب الخير ومن أخذ جانب الشر ، ولو أن الله قال لنا : « ستأخذون الخير » وسكت عن الشر لكان ذلك كامراً ، لكنه يعطينا الصورة الكاملة . وينح ذلك قول الحق :

﴿ وَإِنْ أَحَكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَخَذَرَهُمْ أَنْ يَفْتَسِحُوا عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ لَفَيَسِفُونَ ﴾ (١٦)

وقد يقول قائل : إن الله سبحانه وتعالى قال من قبل :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وتكون الإجابة : أن الحق بين إن القرآن قد نزل مهيمناً ، وعلى الرسول أن يباشر مهمة التنزيل ، لذلك يال هنا قوله : « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله » بلاخاً للرسول وليضاحاً : أنا أنزلت إليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمناً فاحكم ، فإذا جاءك قوم بشيء مخالف لما نزل من القرآن ، فاحكم بينهم بالقرآن . والذي زاد في هذه الآية هو قوله الحق : « وأحلوهم أن يفتسحوا » والحل هو احتياط الإنسان واحترازه بمن يريد أن يوقع به ضرراً في أمر ذي نفع ، والذي يرغب الضر قد يزين لنفسه ولغيره الضر كأنه الخير ، على الرغم من أن ما في باطنه هو كل الشر .

إذن فالحل هو ضرورة الانتباه لمن يريد بالإنسان شراً حتى لا يدنس عليه ضرراً في صورة نفع ، كان يال خصم ويقول لك : سأضع لك كذا وأفعل من أجلك كذا وكذا . يجب عليك هنا أن تقول له : لا .

والخيل - إذن - يقتضى حقلاً مركباً ، ولذلك كانوا يعرفون الخيل من الغراب .
فها هوذا الغراب يعلم ابنه فى قصة شعبية فيقول الغراب لابنه .

احذر الإنسان ؛ لأن الإنسان عندما ينحني ليلتقط شيئاً من الأرض فهو يلتقط
قطعة من الطوب ليرميك بها . وهنا يقول الغراب الصغير لوالده : وماذا أفعل لو كان
هذا الإنسان ينجىء قطعة الطوب فى جيبه ؟ إنها قصة توحى بأن الغراب حذر
بفطرته

ونرى مثل ذلك فى مظهر الأشياء كالمرايا التى يزين للناس أن يضعوا أمراهم
عنده ويعطيهم فائدة تبلغ عشرين بالمائة ، هذه صورة شيء يفع ولكنها صولة
بالفعل ؛ لأنها تزيد المال ظاهراً ولكن ينطبق عليها قول الله (يحق الله الريا)

وهذا أمر صار يزينه الخصم وكأنه أمر نافع . ولحق يطلب من رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يكون حذر ، فإذا يكون المطلوب من الأتباع ؟ . إنه الحذر نفسه ؛
لأن أفضل البشر وجهه الله إلى الحذر : « واحذروهم أن يعتنوك » لأن الصورة التى
دخلوا بها هى صورة ترين الخداع ، فقد قالوا : نحن جئناك لتحكم بنا ، فإن
حكمت لصالحنا فلسوف نبتلك ، وهذا أمر يبدو فى صورة شيء نافع . وجله انقول
الحق ليحسم هذه المسألة : « واحذروهم أن يعتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك »
وهنا يحذر الله رسوله من الفتنة عن بعض ما أنزله إليه سبحانه .

ويتابع الحق : « فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً
من الناس لفاسقون » وهم إن تولوا ، فاعلم أن الله يحبك أن تتزلق إلى شبهة
باطل . فهم قد اختاروا أن يوفلوا فى الكفر ، وفى الاعتماد عن منهج الله ، ومصيبهم
ببعض عذبه مقابل ذنوبهم ، وسبحانه لا يصيبهم ظلاً ، بل يصيبهم ببعض اللنوب
التي ارتكبوها . وهو أعلم بهم ، لأنه الأعلم بالناس جميعاً .

ويحتم الحق الآية بقوله : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » أى خارجون عن
طاعة كتبهم ورسولهم ؛ لأن طاعة الكتب السابقة على القرآن تنهى عن ضرورة
الإيمان بالرسول النبى الأمين صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

يُحَرِّمُ الْمَعْرُوفَ وَيُحِلُّ الْمُنْكَرَ وَيُحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا عَلَيْهِمْ أَنْجَبَتْ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٧﴾

(سورة الاعراف)

إذن فطريق الفلاح كان مكتوباً في التوراة والإنجيل ، وكان الأمر باتباع محمد
صلى الله عليه وسلم النبي الأسمى موجوداً في الكتب السابقة على القرآن ، وكانت
البشارة بمحمد رسولاً من عند الله بأمر بكل الخير ونهي عن كل الشر ويحل للناس
كافة الأسماء التي تحسن الفطرة الإنسانية استقبها ، ويحرم عليهم أن يزيهوا ويغيروا
للنبي الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يستسلموا للعباد ، فقد
جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليبرل عنهم عبثه تزييف المنهج فمن اتبع نور
رسول الله صلى الله عليه وسلم أحس بالحاجة والفوز . ومن لم يتبع هذا النور فهو
المتخارج عن طاعة كتاب السماء . ومحاولة إنكار رسالة رسول الله محكوم عليها
بالفساد ، فالعارفون بالتوراة والإنجيل يعرفون وصف رسول الله صلى الله عليه
وسلم من هذه الكتب .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْعَنُونَ
الَّذِينَ هُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾

(سورة البقرة)

ونعلم جميعاً ما فعله عبدالله بن سلام عندما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ليعلن إسلامه . قال عبدالله بن سلام :

-لأنا أشد معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم مني باني .

فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- : وكيف ذلك يا بن سلام ؟

قال عبدالله بن سلام : لأني أشهد أن محمداً رسول الله حقاً وبيعتاً وأنا لا أشهد

بذلك هل ابني لأن لا أدرى ، أحداث النساء . فقال عمرو بن الخطاب

- رفقك الله يا ابن سلام .

ولكن بعض علماء بني إسرائيل وأخبارهم كتبوا البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا يرجون الرئاسة والطمع في الهدايا التي كان يقدمها الناس إليهم . لذلك عمدوا إلى صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وكتبوها . وما داموا قد فعلوا ذلك فلنعلم أن الله يريد أن يصيرهم ببعض ذنوبهم .

ونلاحظ أن الحق حين أجرى على لسان رسوله خطباً إلى اليهود . ولم يأت على لسانه صلى الله عليه وسلم اتهام شامل لليهود ، بل اتهام لبعضهم فقط ، وإن كان هذا البعض كثيراً ، فلنعلم أن ذلك هو أسلوب صيانة الاحتيال ، لأن بعضهم يدير أمر الإيمان بقلبه . صحيح أن كثيراً منهم فاسقون ، ولكن القليل منهم غير ذلك فيها هوذا أبو هريرة رضي الله عنه ينقل لنا ما حدث :

- زنى رجل من اليهود بأمرأة وقال بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه نبي مبعوث للتخفيف فإن أفتانا بغيا دون الرجم قبلناها واحتججناها عند الله وقتلنا فتيا نبي من أنبيائك فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد مع أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى في امرأة ورجل زنيا ؟ فلم يكلمهم حتى ذهب إلى يئزاسهم .

وهناك طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من شاب رفض أن يتكلم بالكلام غير الصدق الذي يتكلمه قومه وقال الشاب : إنا نجد في التوراة الرجم . وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجم .

عن البراء بن عازب قال : مرَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم يهودي مُتَّعِماً مجلوداً ، فدعاهم فقال : هكذا تمجدون الزاني في كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تمجدون حدَّ الزاني في كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك تشدتي بهذا

لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكما إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقدنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوصيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أمأثوه) ، فأمر به فرجم فانزل الله : (يا أيها الرسول لا يحرمك الذين يسارعون في الكفر) إلى قوله : (وإن أوتيتهم هذا فخطوه) يقولون ائتوا بهذا أمركم بالتحميم والجلد فحدوه ، وإن أفتاكمم بالرجم فاحلروا^(١) .

إذن فالكثير منهم فاسقون ، والقليل منهم غير فاسق لأنهم يديرون فكرة لإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ولو أن الاتهام كان شاملاً لكل بأنهم فاسقون ، لما أحسن الذين يفكرون في أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالنور الذي جاء به . وعندما قال الحق : « وإن كثيراً منهم فاسقون » يعني أن الدين يديرون في رؤوسهم فكرة الإيمان برسول الله سجدون لنور وأصباح في كنياته .

وتساءل : لماذا أرادوا أن يلوا أحكام الله ليحمفوا لأنفسهم سلطة رسمية ونمناً تابعاً من تلك الأشياء التي يتقاصونها ، لماذا يفعلون ذلك ؟
ها هو قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا
لَمَوْ يُؤْفِقُونَ ﴾

والجاهلية هي نسبة إلى جاهل . ولو كانت نسبة مأخوذة من الجهل لجاء القول « جهلية » ، لكن الحق يقول هنا « جاهلية » نسبة إلى جاهل . وحتى نعرف معنى الجاهل بالتحديد لا بد لنا أن نتذكر ونستعيد تقسيم النسب الذي قلناه قديماً ، ونعرف أن كل لفظ نتكلم به له معنى ، وساعة نسمع اللفظ فالمعنى يأتي إلى ذهن

إفرادياً مثلاً نسمع كلمة « جبل » يوقفز إلى الذهن صورة الجبل ، لكن لا توجد حالة واضحة للجهل ، لأن الكلمة لم تكن مصحوبة بحكم .

إذن فهناك معنى للفظ ، ولكن هذا المعنى لا يستغل بفائدة . ولكن إن قلنا إن القاهرة مكتظة بالسكان ، أو أن مرافقتها متعبة ، هنا نكون قد أتينا بحكم يوضح لنا ماذا نقصد بقولنا القاهرة .

إن هناك فرقاً بين اللفظ حين يؤدي إلى معنى مفرد لا حكم له ، وبين لفظ له حكم ، ولذلك نجد العربي القديم حين يأتيه لفظ بلا حكم لم يكن ليقبله . وما هوذا رجل عربي قال : أشهد أن محمداً رسول الله - بفتح اللام في كلمة « رسول » - وبهذا القول تكون « رسول الله » صفة لمحمد وليس فيها الخبر المطلوب . لذلك قال عربي آخر : ومعدا يصنع محمداً ؟ ليثبت القائل إلى أنه لم يتلق الخبر إذن كل لفظ له معنى ، وهذا المعنى مفرد ولا بد له من نسبة .

مثلاً نقول لصديق . « محمد » ، ويعرف هذا لصديق محمداً ، فيسألك : وما لمحمد ؟ ويقول هذا إنما يطلب الخبر ليعرف ماذا حدث له أو منه ، فتقول : « محمد زاول أمس » . وهكذا تكتمل الفائدة .

إذن فكل لفظ من الألفاظ المفردة له معنى حين يفرد . فإذا ما جاء الحكم تنشأ عنه النسبة . وإن كانت النسبة واقعة ويعتقدها قائلها ، ويستطيع إقامة الدليل عليها فهذه نسبة علم ، لأن العلم نسبة مجرّوم بها وواقعة وتستطيع إقامة الدليل عليها تماماً مثلاً نقول : الأرض كروية . حيث توحي الكلمة أولاً بصورة الأرض وأضغنا إليها نسبة هي « كروية » لأننا نعتقد أنها كروية والواقع يؤكد ذلك ، فإذا ما جئنا بالدليل عليها فهذه نسبة علم إذن فالعلم نسبة معتقده واقعة وعليها دليل .

أما إذا كانت النسبة واقعة ومعتقده ولا يستطيع التدليل عليها فذلك هو التقليد منها يكرر الطعل عن والده بعضاً من الحقائق ولكنه لا يستطيع إقامة الدليل عليها ، إنه يقلد من يتق به ، إذن فالمرحلة الأقل من العلم هي التقليد . أما إذا كان الإنسان يعتقد أن النسبة قد حدثت ولكن الواقع غير ذلك ، فهذا هو الجهل ، فالجهل ليس

معاً أنك لا تعرف ، ولكن أن تعرف قضية مناقضة للواقع . والجاهل يخلف عن الأمل ، فالأمل هو الذي لا يعرف ، أما الجاهل فهو الذي يعرف قضية مخالفة للواقع ومتشبه بها .

والحكم الجاهلية يخون ، وأحق هنا يتساءل : هل يرغبون في الاستمرار بالاعتقاد الخطيء الجاهل ؟ والأمر مع الأمل - كما عرفنا - يختلف عن الأمر مع الجاهل ، لأنه يكفيك أن تقول للأمل العلم الذي تريد تعليمه إياه ويقبله منك ، أما الجاهل فلا بد للتعامل معه من حدين . الأول أن نجعله يخدمه ويستبعد من باله القضية الخاطئة ، والذي أن نجعله يفتنح بالقضية الصحيحة . والذي يرهق الدعاة إلى الدين هم الجهلة هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً خاطئاً يتضمن قصايا خاطئة .

لكن ماذا إن كانت لنسبة مجالاً للنفي ومجالاً للإثبات ؟ إن كان النفي مساوياً للإثبات فهي نسبة شك وإن طلب الإثبات فهذا ظن وإن كان النفي راجعاً فذلك هو الوهم وهكذا يتضح لنا أن قضية الجهل قضية صعبة ، والذي يسبب التعصب في هذه الدنيا هم الجهلة ؛ لأنهم يعتقدون في قضايا خاطئة ، فإذا كان هناك حكم من الله . فلماذا لا يرتضون إذن ؟ أيريدون حكم الجاهلية ؟ وكان أهل الكتاب أنفسهم يسهون حكم الجاهلية .

وللحظ أن هذا السفيه كان في زمن المواجهة بين الجاهلية وبين أهل الكتاب . وكانوا يستمتحون على أهل المدينة ومكة . وكثيراً ما قالوا . لقد أضلنا عهد نبى منتمعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم ولكن ما إن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قالوا المكس ، ماذا قالوا للجاهلين ؟ ها هوذا الحق يجبرنا بما قالوا

﴿ أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَطِيعُوا لِلَّذِينَ

كَفَرُوا هَتُّؤَالَهُ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِيمَانِ أَمَّا سَبِيلًا ۝١٦﴾

(سورة النساء)

وقد ذهب بعض من أحبار اليهود إلى قريش ، وسألهم بعض من سادة قريش : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم فأخبرونا عما روى محمد . فقال الأحبار .

ما أنتم وما محمد ؟ فقال سادة قريش : نحن نضر الكوماء^(١) ونسقى اللبن على الماء ونمك العاني^(٢) ونصل الأرحام ونسقى الححيح وديننا القديم ودين محمد الحديث فقال الأخبار : أنتم خير منه وأهدى سبيلاً . وبدلت زوروا القول .

وسفل الرواة قصة أخرى في هذا الموضع . أن واحداً من أخبار اليهود قال لأبي سفيان : أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه . وقال الأخبار ذلك حسداً لرسول الله .

إذن فهل يرتضى أهل الكتاب حكم الجاهلية ؟ لا . ولكنه التافس والتضارب وما داسوا قد تافسوا مع أنفسهم صار من السهل أن يتافسوا مع الكتب الذي نزل إليهم . ولذلك يتساءل الحق

« أفحكم الجاهلية يبغون » ثم يأتي من بعد ذلك بأن قيل وهو قوله . « ومن أحسن من الله حكماً » . ومبجته لم يقل . إن الأحسن في الحكم هم المسلمون بجواز أن يكون من المسلمين من ينحرف ، لذلك رد الأمر إلى ما لا يتغير أبداً وهو حكم الله . وحين يقرر سبحانه ذلك فإنه - أزلاً - يعلم أنه سيأتي قوم مسلمون وينحرفون عن المنهج .

ومن يرى في بعض الأحيان سلوكاً منحرفاً من مسلم ، فهل نلتصق بهذا السلوك بالإسلام ؟ لا . بل ننظر إلى حكم الله في كتابه . وعندما يرى أن حكم الله يحرم فعلاً وله عقوبة ، فلعقوبة تقع على المسلم المنحرف أيضاً . والمثال قوله الحق :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وهذا الحكم يطبق على مسلم وغير المسلم ، إذن فلا نقول هذا حكم المسلمين وذلك حكم الجاهلية . ولكننا نقول . إنه حكم صاحب المنهج وهو الله .

ونلاحظ أن هناك استنفهاً في قوله الحق . « ومن أحسن من الله حكماً » . والاستنفهاً هو نقل صورة الشيء في اللمس ، لا نقل حقيقة الشيء . وساعة يطلب

(١) الكوماء : الناقة العظيمة النام

(٢) العاني . الأسير

الحكم من المخاطب أن ينقل إليه القهم ، هنا نقول : هل كان المتكلم لا يعلم الحكم ؟ قد يصح ذلك في الحيلة العادية وقد نراه حين يقول إنسان لآخر :

من زارك أمس ؟ فنكون أمام حالة استفهام عن الذي زاره ، تلك هي حقيقة الاستفهام ، لكن ما بالنا إذا كان الذي يتكلم ويستفسر لا تخفى عليه خافية ، إنه - سبحانه - يطلب منا أن نجيب على سؤاله : « ومن أحسن من الله حكماً » . وتلك عظمة الأداء .

وأخرب مثلاً آخر - والله المثل الأعلى - عندما يأتيك إنسان ويدعي أنك لم تحسن إليه لأنه كان سجيناً مثلاً وأنت الذي أخرجته من السجن . فتقول له : من الذي ذهب ودفع عنك الكفالة وأخرجك من الحبس ؟

إنك أنت الذي فعلت ولا ترهد أن تقول له : لقد فعلت من أجلك كذا وكذا ، ولكنك ترهد هو أن يعطى بما فعلته له ، ولا تقول ذلك إلا وأنت واثق أنه لن يجد جواباً إلا الاعتراف بأنك أنت الذي صنعت له كذا وكذا ، وبذلك تصبح لمسألة إقراراً وليس إنخيراً .

« ألهكم لجاهلية يبعون » فالخلق عالم أهم حين يسيرون وموسمهم في الحواب ، لن يجحدوا إلا أن يقولوا : يارب أنت أحسن حكماً . وهذا إقرار منهم وإنكار أيضاً . أما عند المؤمن فالأمر يختلف تماماً ؛ لأن المؤمن يعترف ويقر بفضل الله عليه .

« ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » فإحدى يفهم أن حكم الله هو الأفضل هم القوم الذين دخلوا إلى مرحلة اليقين . ونعلم أن مراحل اليقين تتفاوت فيها بينها ، فعندما يخبرك إنسان صادق في قضية ما فأنت تعلم هذه القضية . كأن يقول لك : لقد ذهبت إلى نيويورك . وهذه المدينة تقع على حافة من الجزر وبها جارات شاهقة والمنشآت منتشرة فيها . والناس تبدو وكأنها محسوسة من قرط الحوس على الثروة . وسنسمع هذا الصادق فأنت تأخذ على محمل الجد وتعتبر كلامه بقينا وهذا هو علم اليقين ، أي أنه إنخيار من إنسان تثق فيه لأنه صادق .

وبعد ذلك يأتي هذا الإنسان ليوجه لك الدعوة ، فتركب معه الطائرة ، وتطير

الطائرة هل ارتفاع يسارى لربمين ألف قدم ، وبعد إحدى عشرة ساعة تهب الطائرة قليلاً ، لترى أضواء مدينة صاحبة ، ويقول لك صاحبك : هذه هي نيويورك ، وتلك هي ناطحات السحاب . هكذا صر علم اليقين عين يقين .

وعندما نزلان معاً إلى شوارع نيويورك فأنتما نسيران إلى جزيرة مانهاتن . ونصعد إلى برج التجارة أعلى ناطحات السحاب في نيويورك ، وهذا هو حق اليقين .

إذن : فمراحل اليقين ثلاث : علم يقين : إذا أخبرك صادق بخبر ما ، وعين يقين : إذا رأيت أنت هذا الخبر ، وحق يقين : إذا دخلت وانغمست في مضمون وتفاسير هذا الخبر . وقد بدأ قلت لتلاميذى مثلاً محمداً لاوضح الفارق بين ألران اليقين ، قلت لهم : لقد رأيت في أندوتسيا ثمرة من ثمار الموز يبلغ طول الثمرة الواحدة نصف المتر . وبالطبع صدقنى التلاميذ ، لأنهم يصدقون قولى . وقد نقست لهم صورة علمية . وصار لديهم علم يقين . وبعد ذلك أدخل إلى عرفة وأنتع حقيبة وأخرج منها ثمرة الموز التى يبلغ طولها نصف المتر . وبذلك يصير علم اليقين عين يقين . وبعد ذلك أمسكت بسكين ونمت بتقسير ثمرة الموز وررعت كل واحد منهم قطعة . وهكذا صار لديهم حق يقين . وحين يطلق الحق « اليقين » فهو يشمل النى علم والذي تحقق

فأهل الأدلة ، علموا علم اليقين ، وأهل المراتى والمجاهدات علموا عين اليقين ، وأهل الفيوضات والتجليات وصلوا إلى حق اليقين . والمؤمنون بالله يقول الواحد منهم : أنا بمجره علم اليقين موقن تماماً ولا أنتظر حق اليقين لأنى لا أجرو على التكذيب ، لذلك بعد أن سيدنا الإمام عليا - كرم الله وجهه - يقول : لو انكشف حق الحجاب ما اردت يقيناً .

والحق سبحانه وتعالى يعطين هذه الصورة في قوله الحق :

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرُ ۖ حَقُّ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۚ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۚ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۚ﴾

وإبداءه تكون علم اليقين ، ثم نرى الجحيم ونحس نسيجه على الصراط فتصير عين اليقين ، ومن لطف الله أنه جعلنا - نحن المسلمين - لا نواها حق اليقين . وهو القدس .

﴿ وَإِنْ مَسَّكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة مريم)

هو يعطينا صورة الجحيم لكن حينما أراد الحق أن يعطينا صورة حق اليقين ، فقد جاء بها في قوله الحق :

﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْجِعِ الْجُحُومِ ۝ وَبِقَعْرِ نَقْمٍ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأَنْطَرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَفْتُونَ ۝ وَجَعَلُوا رِزْقَكَ أَكْثَرَ تَكْذِيبًا ۝ ﴾

(سورة الواقعة)

كل ذلك مقدمة ليقول الحق :

﴿ إِنْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ أَتَقْبَلُ ۝ ﴾

(سورة الواقعة)

وما يذكره الحق هنا من منزلة المصدق المؤمن إن هذه المنزلة هي الجنة ويرى ذلك عين اليقين . أما منزلة المكذب الكافر ، فله مكانه في النار ؛ لذلك سيرى كل الناس النار كعين اليقين أما من يدخله الحق النار - والعياد بالله - فسيعان منها حق اليقين ، وسينعم المؤمنون بجنة حق اليقين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۚ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَيَنْهَ عَنْهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ ۚ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾

فلنحظ أن الخطأ هنا للذين آمنوا . والمسي عنه هو اتحاد اليهود والنصارى أولياء . وما معنى الولي ؟ الولي هو الناصر وهو المعين . وهذا القول مأخوذ من ولي يلى ، أى يقف فى جانبه . ونسمى الذى يوب عن المرأة فى عهد النكاح « الولي » وكذلك « ولي المقتول » . والمراد هو . يا من آمنتم لاحظوا حمماً أنكم أصحاب مهمة وهى أن تخرجوا الصلوات من الشر . هذه الصلوات غثلت فى تحريف ديانات كان أصلها الهدى فصارت إلى ضلال ، فإياكم أن تضعوا أيديكم فى أيديهم لطلب المعونة والنصرة

إذن قوله الحق : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » هو حكم تكليفى . وحشبه الإيمان بالله . فممن قد آمنت بالله فكل من تقدر أنت فى إيمانه بمحالفته لمخرج ربه لا يصح أن يكون مؤمناً على نصرتك ، لأنه لم يكن أميناً على مامنه فهل توقع منه أن يعينك على الأمانة التى معك ؟ لا ، لأنه لم يكن أميناً على ما نزل عليه من صريح . والولاية نصرة ، والنصرة العمل الناصر لمساعدة المنصور . وهل تجد فيهم انفعالاً لك ينصرك ويعينك ، أو يتظاهرون بنصرتك ، ولتعلموا أنهم سيقولون ما قاله الحق .

﴿ تَوَخَّأْوا مِنْكُمْ مُّارَدُونَ إِلَّا خَلَا ﴾

(من الآية ١٧ سورة التوبة)

إنهم لو دخلوا فى صفوفكم لعلوا فيكم مثلبا يفعل المذنبون ، فما بالناس بالدين خابوا أمانة الكتب المنزل عليها ؟ إذن فالولاية والنصرة والمعونة يجب أن تكون من متحد معك فى الغاية العليا . وما دام هناك من يختلف مع الإسلام فى الغاية العليا وهى الإيمان فلا يصح أن يأتمن المسلم . ومبجانه يقول : « بعضهم أولياء بعض »

وقد يتساءل الإنسان : كيف يقول الحق فيهم

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة البقرة)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَنَبِيِّنَا كَذِبٌ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول جل شأنه :

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

نحن - إذن - أمام ثلاثة أقسام : يهود ، ونصارى ، ومشركون ، وقد قال مشركو قريش مثل قول أهل الكتاب شقيهم برغم أنهم في خلاف متضارب وكل منهم ينكر الآخر ، وسبحانه قال :

﴿مُتَّعِرِينَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ﴾

(من الآية ١١ سورة المائدة)

فكيف من بعد ذلك يقول سبحانه : « بعضهم أولياء بعض » ؟ وهذا أمر يحتاج إلى وقفة إيمان لنرى الصورة كاملة ، ونعلم أن الذين يخالفون منهج الحق قد يصح أن يكون بينهم خلاف على السلطات الزمنية ، لكنهم عندما يواجهون حقائقاً قاهرة على دحر كل بنيان أكاذيبهم يتفقون معاً . وهذا ما نراه في الواقع الحياتي : معسكر الشرق - الذي كان - يعادى معسكر الغرب ، ولكن ما إن يجرى شيء يتصل بالإسلام حتى يتعقروا معاً على الرغم من هزيمة المعسكر الشرقي ، لأن الإسلام يهجه خطراً على هؤلاء وهؤلاء وعلى سلطاتهم ولكن في الحقيقة رحمة بهم إنه يخرجهم من الظلمات إلى النور وهم يتصرفون في ضوء ما قاله الحق : « بعضهم أولياء بعض » .

وعندما يتفرد كل منهم بالآخر فإنه ينطبق عليهم قول الحق :

﴿فَأَقْرِبُوا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾

(من الآية ١١ سورة المائدة)

هكذا نفهم طبيعة العلاقات بين أعداء الإسلام

ويقول الحق : « ومن يتوكلهم منكم فإنه منهم » أي أن من يتخذهم نصراء ومعينين

فلا بد أنه يقع في شرك النفاق ؛ لأنه سيكون مع اسلمين بلسانه ومع اعداء الإسلام بقلبه .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ، ونعرف أن الظلم هو نقل حق إلى غير صاحبه ، وأهل مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ، فالحق يقول :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة النفاق)

ذلك أن الإنسان حين يظلم إنساناً آخر ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر فهل هناك إنسان يقدر على أن يأخذ من الله شيئاً ؟ لا ، فالإنسان لا يستطيع أن يظلم الله ، لكنه ينال عقوبة الشرك وهذا ظلم خائب للنفس والذي يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الحيلة .

لأن الظلم حينما يحقق للظالم نفعاً فهو ظلم حين ، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنسان بالله ولا يأخذ إلا العقاب الصارم . فإذا كان المشرك يتأخر على منحه الله في الأشياء فهل يجرؤ على أن يتأخر على قدرات الله غير الاختيارية فيه كالموت مثلاً ؟ .

والحق بأمر الإنسان بالإيمان ومتعلقات الإيمان من شهادة بربوبيته وإيمان برسالة وكتبه واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً . والمشرك يتأخر على الإيمان والتكاليف فهل يجرؤ على التأخر على المرض أو الموت ؟ لا ؛ لذلك فهو يظلم نفسه ظلماً خائياً ، والحق سبحانه لا يهديه ، لأن معنى الهداية هو أن يهدي الإنسان من يذله على الطريق الموصل للغاية . فهداه أي دله على الطريق الموصل للغاية ولا يتحنى سبحانه على خلقه فلا يهديهم ، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمنوا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ
يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ
أَوْ آتٍ مِّنْ عِندِهِ، فَيُصْصِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
تَلِيدٌ﴾

المجال هنا كان عن انهي عن اتخاذ أمل الكتاب أولياء من دون الله ، ومن سمع
هذا الهمي وفي قلبه الإيمان بعد النصيحة . ولكن الذي طمس المرض - وهو النفاق -
قلبه فهو الذي يتولاهم . وهو يسارع إلى هذه الولاية . ويعرف أن المسارعة هي
تقليل الزمن في قطع المسافة الموصلة للعناية فإذا كانت هناك مسافة تقتضي السيرة لمدة
خمس عشرة دقيقة فالمسارعة تفرص على الإنسان أن يقطعها في وقت أقل من ذلك
ومناك « يسارع إلى » و« يسارع في » ، مثل قول الحق :

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

والعناية هنا هي المغفرة من الله وعلى المؤمن أن يسارع إليها ، أما عندما يقال «
يسارع في كذا » أي أنه كان في الأصل متغصناً في هذا الموضوع وعندما يقول
الحق « يسارعون فيهم » أي كآهم كانوا مع هؤلاء الكفار من البداية ، ولذلك
فالمسارعة في ظمرتهم . وبذلك يتهافون عليهم والعلة العامة أن في قلوبهم مرضاً
جعلهم يبتكرون ويلعنون أسباباً ، هذه الأسباب هي « نخشى أن تصيبنا دائرة »

والمؤالاة هنا من الخوف أن تلور الدوائر ، وبتحاج إليهم لأن عندهم الأموال
والسلاح ، وهذا ما قاله المنافق عبدالله بن أبي : فقد قال . أما رجل أخشى الدوائر .
أي أنه يخشى الأحداث والمصائب . مثبها نقول « الأيام دول » ولكن كلمة
« دول » هي انتقاليه وقد لا يكون فيها ضرر ، أما « دوائر » فهي انتقالية فيها ضرر
وعكس ذلك ما قاله عبادة بن الصامت قال رضي الله عنه

.. أنا سآخذ ولاية الله ورسوله والمؤمنين وسأفصن عني ولاية اليهود والنصارى

وأورد الحق قول المصدق : « نحشى أن نصيب دائرة عسى الله أن يأتي بالفتح »
وساعة نسمع كلمة « الفتح » ، فنعرف أدلّ مدلولاتها أنه الحكم .

﴿ رَبَّنَا فَتَحْ يَمِينَ وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

أى احكم يا رب بيننا وبينهم

إذن فقول الحق : « عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده » أى احكم لدى
يصح جداً لمسألة مولاة أهل الكتاب والذين لا يعلمون

والأمر من عند الله هو حكم من الله أيضاً يحاطب المؤمنين به والمؤمن بالله أنه
أعمال تؤدى كأنساب إلى مسلمات ، وقد يأتي للمؤمنين أشياء بدون مقدمات مهم .
وهى الفصل من الله . إذن عسى الله أن يأتي بالفتح ، أى بأسباب أنتم تصنعونها
وتعدون ما استطعتم من عبادة وعدة وتؤدوهم ، ولذلك قال فى آية أخرى :

﴿ قُلْ أَوْحَيْنِي عَنِ رَبِّ رَحِيمٌ وَلَا تَكُفَّ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحشر)

مثال ذلك ما حدث لى النصير ، فكان لإحلاء ، واستولى المسلمون على أرض
بى قريظة ، وهذا هو الفتح من عند الله . وسبحانه - إذن - يعامل المؤمنين
معامتي الأولى أن يصح المؤمنين مقدمات تؤدى إلى نتائج

﴿ فَتُؤْتَاهُمْ فِيهِمْ اللَّهُ يَأْتِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

ومن جعل الحق كتاب المؤمنين مسداً ، أما الثانية فهى الأمر من عنده بالصحة
بالربوبية .

وساعة نسمع « عسى » ولعل « وهذا معناه الرجاء » والرجاء أن المتكلم يرجو أن
يقع ما دخلت عليه « عسى » مثال ذلك قولنا : « عسى أن تكرم زيداً » ومن
يقولها إنما يرجو سامعها أن يكرم زيداً ، وهذا يعنى أن القائل ليس فى يده إكرام
زيد . أما إذا قل القائل : « عسى الله أن يكرم زيداً » ، فهذا نقل للرجاء من الشر

إلى الله . والقاتل هنا بشر ويتكلم عن بشر ، ولرجو هو الله ، وقدره الله أوسع من كل قدرة . هنا ندخل في اتساع دائرة الرجاء فما بالنا إذا كان اتكلم هو الله ؟ إذن فهذا إطماع من كريم لا بد أن يتحقق .

ونتمرف بذلك على درجات الرجاء : رجاء من بشر لبشر ، رجاء بشر من إله لبشر ، رجاء إله من إله لبشر ، ولأن الرجاء الأخير من المالك الأعلى لذاته فهو الذي يعطى ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ، وقد تحقق ذلك في واقع الأمر ، ومساءة قالوا : نخشى أن نصيبنا دائرة ونحن نحفظ بالعلاقة مع أهل الكتاب من أجل الولاية والنصرة . جاءت من بعد ذلك النصرة بالفتح وأمر من الله ، فماذا كان موقفهم ؟

صار الموقف هو : فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ، أي أنهم صاروا إلى الندم . وبذلك صار قولهم : « نخشى أن نصيبنا دائرة » هو كشف لما في قلوبهم من مرض الشقاق ، وقد دخلوا على المرض وهربوا عنه بهذا الكلام سنرا لما في قلوبهم ، فكان الذي أسروه في قلوبهم هو كراهية هذا الدين وكراهية هذا المنهج وأنهم لا يحبون أن يستعمل هذا المنهج على غيره .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يدنا عن أن القول الذي نشأ منهم : « نخشى أن نصيبنا دائرة » لم يكن هو السبب المباشر . ولكن السبب هو المرض في قلوبهم . والمرض : أنهم لا يحبون أن يتصر منهج الإسلام ، لأنهم يعيشون على ثروات المخالفين للدين ، ومساءة تكون السيطرة للإسلام ينتهي ثراؤهم . وكذلك كان أهل الكتاب في المدينة قبل أن يأتي الإسلام كانوا أصحاب العلم والمال والجاه ، وكانت الأوس والخزرج يأخذون منهم المال بالوبا ويشترون منهم السلاح ، ويأخذون منهم العلم . ولما جاء الإسلام ضاع من اليهود كل ذلك فتمكن من قلوبهم المرض ، لأن الإسلام سلبهم السلطة الزمنية ، هذه السلطة التي جعلتهم يحرقون كتب الله . فإذا كانوا قد دخلوا مع الله في تحريف كتبه ، أفلا يدخلون معكم - أيها المسلمون - في عداوة ويلبسون عليكم بأنهم يعينون وهم يخذلون ؟

« فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » ومساءة يسمعون هذا القول الرياس

وهو قرآن يتلى ويتعد بتلاوته ويُقرأ في المساجد ويسمعونه ، ولم يكن هناك فتح ، ولم يكن هناك أمر ، وسمعهم الله بمصيرهم . « فاصبحوا على ما أسروا في أنفسهم ماعمين » ومعنى ذلك أنه سبحانه كتب الذي في نفوسهم . مثلما قال من قبل : « ويقولون في أنفسهم » . أى أنهم قالوا في أنفسهم وسمعهم الخالق . ولو لم يقولوا في أنفسهم لأعلموا أنهم لم يقولوا ذلك ، لكنهم بهتوا حين كشفهم الحق وفضحهم وسجل ما في أنفسهم وأورد مضمون القول ، وكان من اللازم أن يعترفوا بمضمون القول ، وكان لا بد لهم أن يتجهوا إلى الإيمان . لكنهم لم يفعلوا فصاروا إلى الندم . بنص الآية التي نزلت قبل أن يأت فتح أو أمر من الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ
جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا
خَاسِرِينَ ﴾ ٥٢٠

هنا يرى المؤمنون رأى العين ندم هؤلاء . والندم انكسار القلب في الحاضر على تصرف سابق مثلما يرتكب إنسان حماقة وتظهر آثارها من بعد ذلك ، فيقول : يا ليتني لم أكن قد فعلت ذلك . إنه انكسار نفس على تصرف سابق وانكسار النفس يتضح على بشرة الوجه . وساعة يأت الفتح تجد المنافقين وأهل الكتاب مكبوتين كتباً قسرياً وهو الكبت الذي لا يمرز صاحبه عليه فيدعى أنه فرحان ، إنه قسرى يلحاح بنية ، وظهور أثر ذلك على وجوههم .

وهنا يفتن المؤمنون إلى ذلك فيقولون . « أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم » . ولو كان هؤلاء المنافقون من الصادقين لفرحوا ولكانت أساريرهم متهللة ، ولطهرت عليهم الغبطة . لكنهم صاروا عكس ذلك ، صاروا ماعمين مكبوتين .

« ويقول الدين آمنوا أهؤلاء الذين اتسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمحكم حبطت ،
أى حبط عملهم وقولهم : « إنا معكم » . والحبط هو . كما قلنا . الانتفاخ الذى
يصبب البهيمة التى تأكل طعاما غير مناسب لها ، فيظن الناس أنها قد سمعت ولكنهم
يلفتنون يجعلون أنها مصابة بانتفاخ قاتل .

« حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » والخسارة فى معناها الواضح أن يفل رأس
المال . لقد فسد المنافقون ذلك ليستروا أنفسهم وراء المسلمين ولم يلم لهم هذا الأمر
واكتشفوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ
يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى
الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَحَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ
ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

والخطاب هنا للمؤمنين ، وكل بدء مثل هذا قد يبعث بحكم من الأحكام أو
بشارة من البشائر أو وعيد للمخالف . والذى بأتى فيه شبه إشكال وليس
بإشكال ، هو أن يأتى هذا القول ويكون ما بعده أمر بالإيمان كقوله الحق : « يا أيها
الذين آمنوا آمنوا » فبعبارة يناديهم كمؤمنين ويطلب منهم الإيمان ، ومثال ذلك قول
القائل : « يا قائم قم » برغم أن المفروض أن يكون يقول : « يا قائم اجلس » أو
« يا قائم تعال » ، أو « يا قائم انصرف إلى فلان » ، فكيف إذن يقول الحق :
« يا أيها الذين آمنوا آمنوا » . هنا يقول : ما الإيمان ؟ الإيمان هو استقرار العقيدة فى
القلب فلا تظلمو للذهن لتناقض من جديد . ونسمى ذلك عقيدة ، أى أمر معقودا فى
القلب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى حينما يحاطب مؤمنا ويطلبه أن يؤمن ، فمعنى ذلك أن

الحق بقول : أنت آمنت قبل أن أتاديك وبسر الإيمان ناديتك فحافظ على هذا الإيمان دائماً . وجدد دائماً إيمانك لأنى ناديتك بوصف الإيمان الذى عرفته فيك .

إن الحق يوضح : يا أيها الذين آمنوا داموا على إيمانكم ولتكن كل لحظة من لحظات حياتكم المفضلة في إيمان عالٍ مرتقى قبل أن أتكلّم معكم بوصف الإيمان أنتم آتمتم أولاً ناديتكم فحافظوا على ذلك واثبتوا على إيمانكم

ومعنى قوله : « من يرتد منكم عن دينه » أى من يتراجع منكم عن الإسلام فسيأتى الله بعرض عنه ، وسيأتى بقوم لن يكونوا مثل هؤلاء المرتدين . إذن فمن يرتد فعليه أن يفهم أنه لن يتنص مجد الله وحده ؛ لأن الذى لذن لشرعه أن ينزل على رسول وبى عاتم لن يجعل هذا الرسول وهذا المصحح تحت رحمة أغيار الناس . فإن خرج أناس من المنهج فبالله يستبدل بهم غيرهم . وفى هذه الآية أسلوب يخالف آية البقرة في الوجه الإعرابى ، وسبحانه يقول في آية البقرة :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ ،
وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَأَنفُسُ كَثِيرٌ مِّنَ الْقَتْلِ
وَلَا زَلُولٌ بِقَاتِلِهِمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمُ عَن دِيَارِكُم بِإِذْنِ اللَّهِ تَتَذَكَّرُونَ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم
عَن دِينِهِ بَعَثَ اللَّهُ كَافِرًا وَلَوْ كَفَرَ قُلُوبُكَ خَطَبَ أَتَمَّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلِلَّهِ
أَتَمُّنَ الْآلَاءِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾

(سورة البقرة)

هنا وجدنا الحق بقول : « ومن يرتد منكم عن دينه » أما في الآية التى نحن بصدددها في سورة المائدة فهو سبحانه يقول « من يرتد منكم عن دينه » ونجد الأسلوبين مختلفين . وإحكمة العليا في أن الحق سبحانه وتعالى يأتي في كتابه بآيات متحدة في المعنى إلا أن وجه الإعراب فيها يختلف لهدلنا أن القرآن نزل إلى الناس كافة . وقبل أن يزل القرآن كانت هناك لغتان : لغة تميم ، ولغة الحجاز

وكان الاختلاف بين اللغتين محصوراً في الكلمة التى بها تضعيف ، أى فيها حرفان

من شكل واحد أى متماثلان . وكلمة « يرتد » بها « دالان » وأصلها « يرتدد » .
و« يرتد » بها مثلاً والنطق بهي صحيح . ولذلك حاول الناس في مثل هذه الحالة أن
يدغموا مثلاً في مثل . ولذلك كان من اللازم أن تُسكن الحرف الأول من المثليين
والمفروض أن « الدال » الثانية ساكنة ، لأن « مَنْ » شرطية جازمة . والدال الأولى
أصلها بالكسر . ولا بد من الإدغام . والإدغام يقتضى إسكان الحرف الأول . إذن
من أجل الإدغام ففعل ذلك .

ونحن نعلم أن الساكنين لا يلتصقان ، وكان تسكين الحرف الأول لأنه ضرورى
للإدغام ، أما الحرف الساكن الآخر فهو العارضى . فتتصرف فيه ، ولذلك نحركه
بالتفتيح حتى نتخلص من التقاء الساكنين . ولذلك نقول : « من يرتد » بالتفتيح .

وجاء في ذات مرة سؤال يقول : كيف يأتى القرآن بـ « يرتد » بالنصب أى
بالتفتيح ؟ وقلت : إنها ليست « فتحة نصب » ، والسائل يفهم أن « مَنْ » إما اسم
موصول ، وإما هى « مَنْ » الشرطية ، فلو كانت اسماً موصولاً ؛ لكان القول « من
يرتد » - بالنصب - وإن كانت « مَنْ » الشرطية جاءت بالتسكين ولأن ما قبلها جاء
ساكناً للإدغام تحلصنا من التسكين بالفتحة وهى « فتحة » نتخلص من ساكنين ،
لأنه - كما قلت - لا يلتصق ساكتان .

والذى يظهر لما ذلك هو آية البقرة التى قال فيها الحق : « ومن يرتد » بدليل أنه
عندما عطف قال : « ويمت » بالجزم عطفاً على يرتد . أما السبب في أن جواب
الشرط واضح في آية المائدة أنه لم يأت فعل جواب أو عطف ، وجواب الشرط هو
قول الحق : « فسوف يأتى الله يقوم يحبهم ويحبونه » ويدل على ذلك دخول الفاء على
كلمة سوف لكن لو كان الحق قد قال : من يرتد مكم عن دينه يأتى الله يقوم يحبهم
ويحبونه كان يمكن الفهم بسرعة أن « مَنْ » شرطية ، لأن كلمة « يأتى » جاءت
مجزومة بحذف آخرها ، ومن هنا يتضح أن الفتحة في « يرتد » هى فتحة التخلص
من التقاء الساكنين .

وما السبب في أن الحق يأتى بآية على هذا النسق ، وآية أخرى على ذلك النسق ؟
نحن نعلم أن القرآن قد نزل بلغة قریش وكانت قریش تمتلك السيادة ولم تكن

هناك قبيلة بقادرة على مواجهاة قريش . ونعرف جميعاً أن رحلة قريش إلى اليمن لم يكن ليخرج إنسان أن يتعرض لها ، وكذلك في رحلة قريش إلى الشام ، لأن قريشا تستوطن حيث يوجد بيت الله الحرام الذي يحج إليه كل عرب . ويوم أن يتعرض أحد لقوافل قريش فعليه أن ينتظر العقاب له أو نقيته ، إند فالتيت لحرام هو الذي أوجد لهم تلك المهابة لذلك ينههم الحق إلى ذلك عندما قال في سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ وَرَسُولٌ عَلَيْهِمْ طَيْرٌ أَبَابِيلٌ ۚ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ يَّسْجَلٍ ۚ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝۱ ﴾

(سورة الفيل)

وقد تم وعيد الله لأصحاب الفيل ، لأنهم أراحوا هدم بيت الله الحرام ثم يتبع الحق سورة الفيل بقوله في سورة قريش :

﴿ لَا يَلْتَفِتُنَّ لِقُرَيْشٍ ۚ إِذْ لَتَيْهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ ۝۱ ﴾

(سورة قريش)

ليوضح سبحانه أنه من ضمن أسباب صيانة بيت الله الحرام أن حفظ سبحانه لقريش الأمان في رحلة الشتاء والصيف ، ولو تهدم البيت الذي يحقق لقريش السيادة فحجم الناس على القرشيين من كل جانب ، لأنه القائل في شأن من قصدهم هدم بيت الله الحرام

﴿ مَجْمَعُهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝۱ ﴾ ﴿ لَا يَلْتَفِتُنَّ لِقُرَيْشٍ ۚ ۝۱ ﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ سورة قريش)

وما دامت تلك المسألة قد صعبها الله بقريش ، فلا بد لهم من عبادة رب هذا البيت :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝۱ ﴾

(سورة قريش)

إذن فقريش أحدثت السيادة بين العرب بمكانة البيت ، وأنددت السيادة أيضاً في الدنيا ، وكانت كل أسواق العرب تعقد هناك ، وأشهرها سوق عكاظ ، وكان يتصب في قريش خلاصة اللغات لجميلة من القبائل المختلفة وهكذا أحدثت اللغة

المصفاة للتنقية ، فكل شاعر كان يقدم أفضل ما عنده من شعر . وكل خطيب كان يأخذ بأحسن ما عنده من خطب . وبذلك كانت قريش تسمع أجود الكلمات . ولهذا كانت اللغة التي عندهم هي اللغة العالية . ولذلك عندما جرى لزمين كتابة القرآن كانت الوصية :

إن اختلف عليكم شيء فاكتبوه بلغة قريش ؛ لأن لغة قريش أخذت من اللغات محاسنها . وهو تميم والحجاز كانوا مختلفين في بعض الأشياء . ولذلك كنا نسمع - عندما نتعلم الإعراب - قول المعلم وهو يسألنا : هل « ما » حجازية أو تميمية ؟ وهذا يدلنا على أن هناك خلافاً بين النطق في القبيلتين .

وفي الآية التي نحن بصددها ندغم ونقول : « من يرتد » وفي آية البقرة ننطقها دون إدغام فنقول : « ومن يرتدد » .

وكان الحق جاء بآية على لغة الحجاز وآية على لغة تميم ، وذلك برهان جديد على أن القرآن لم يأت ليحقق سيادة لقريش ، إنما هو للناس كافة ؛ لذلك نجد من كل لهجة كلمة ، ليوضح أن القرآن لغوهم الناس جميعهم .

وعندما تقرأ قول الحق :

﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

(من الآية ٥١ سورة المائدة)

نعلم أنه سبحانه يعلمنا أنه قادر على أن يأتي بأهل إيمان خير السنين ليرتدوا عنه ، تماماً كما أخبرنا من قبل .

﴿وَمَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَنُحِلُّهُمْ فِيهَا مَا يُخْلِدُونَ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

والقول هنا : خبر عن مصير المرتد إلى جهنم بعد أن تقوم الساعة .

ولكن القول . « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه »
 يدل على أن إهراءه سيحدث قبل أن تقوم القيامة . ومن ذا الذي يستطيع أن يتصور
 أن لها ينزل قرآنا يتحدى به ثم يأتي في القرآن بقصة مارالت في الغيب ويتجاوز بها ،
 إن لم تكن ستفتح ؟ . والحق يقول : « سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه »
 « سوف » تخبرنا بموقف قادم سيأتي من بعد ذلك . ونقول هنا : من الذي يستطيع
 أن يتحكم في اختيارات الناس للإيمان ؟ . لا أحد يستطيع أن يتحكم في اختيارات
 الناس للإيمان إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي يتحكم ويحكم ويحبرنا بأنه سوف
 يأتي أناس يؤمنون بدلاً من المرتدين .

أما إن ارتد أناس ، وانتظروا أن يروا البديل لهم ، ولم يأت فينا يكون الأمر ؟
 لا بد أن تنصرف الناس عن الدين . ولم يكن الحق ليجاوز ويجري على لسان محمد
 بأن قرماً سيرتلون وهو لا يعلم أيأت قوم مرتدون ؟ والعدم جاء في هذه الآية كما جاء
 في كل القرآن من الله جل وعلا . وقد قلنا الحق قطية كونية : « سوف يأتي الله
 بقوم يحبهم ويحبونه » . وهل هناك قوم يحبهم الله وهم لا يحبونه ؟ ونقول : إن هذا
 لا يحدث مع الله ، وإن كان يحدث في الحياة البشرية مثلما قال الشاعر العربي :

أنت الحبيب ولكني أعود به
 من أن أكون محباً غير محبوب

وشقاء المحبين إنما يأتي من أن العاشق يحب أحداً ، وهذا الحبيب لا يبادل
 الحب ؛ لذلك يظل العاشق باكياً طوال عمره . ولنا أن نلاحظ أن حب الله هو
 السابق في هذا القول الكريم : « سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » ؛ لأن هذه
 هي صفة الانكشاف للعالم ، لقد علم الحق أنهم سينجهون إليه فأحبهم ، وعندما
 جاءوا فعلوا ما جعلهم محبوبين لله ، ثم ما هو الحب ؟ . إنه ودادة القلب . وقسا
 الكثير من قبي في أمر ودادة القلب . ويعرف أن هناك لونا من الحب يتحكم فيه
 العقل . ولونا آخر من الحب لا يتحكم فيه العقل ولكن يتحكم فيه العاطفة .

ومثال هذا عندما نذهب إلى طبيب ويصف لنا دواء مرأ غير مستساغ الطعم ،
 ونجد الإنسان الموصوف له الدواء يذهب إلى الصيدلية للسؤال عن الدواء ، فإن لم

يحمده فهو يلف ويدور ويسأل في كل صيدليات البلد فإن لم يحمده فهو يرمى المسافر إلى الخارج لعله يأتي له بالدواء . وإذا جاء له صديق بهذا الدواء فهو يحتل بالامتنان بالسرور . أيقبل المريض على الدواء غير المستساغ بمحافته أم بمقته ؟ إنه يقبى على الدواء غير المستساغ الطعم ومحبته بعقله . والحب العقل - إذن - هو إثار النافع .

ومثال ذلك نجد الوالد لايس غيبى يحب ابناً ذكياً لإنسان غيره .

الوالد - ها - يحب ابنه الغيبى بمحافته . ولكنه يحب ابن جاره لأنه يمتلك وصيداً من الذكاء . إذن هناك حب عقل وحب عاطفى وهذا ما يحدث فى المجال البشرى لكن بالنسبة لله فلا .

وعندما يقول الحق : « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » أى أنهم يحبون الله بعقولهم ، وقد يتسامى الحب إلى أن يصير بمحافتهم ، وقد يجرب ذلك حين يرى الله على أناس أشياء هى شر فى ظاهرها ، ولكنهم يظلون على عشق لله . ومعنى ذلك أن حبهم لله انتقل من عقولهم إلى عاطفتهم . وسيدنا عمر جرى معه حل هذا الإشكال . كيف ؟

لقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » (١) .

وهناك من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أحب إليه من ماله وولده لكن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه - قال أنت أحب إلى من مالى وولدى أما نفسى فلا وأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم القول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » (٢) .

وها علم عمر -رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد الحب العقل ، لأن عمر رضى الله عنه علم أيضاً أن الحب العاطفى لا يكلف به ، ولذلك قال عمر : الآن أحبك عن نفسى ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم . الآن

يا عمر . أى كأنه فى هذه اللحظة قد اكتمل إيمان عمر . إذن فحبب الله لا تقل فيه أيها المؤمن هل هو حب عقل أو حب عاطفى ؟ لأن المراد بحب الإله هو دوام قيوضاته حل من يحب ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فالحق يلقاه فى أحضان نعمه ويتجلى عليه برزقته .

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحْسَنُهُمْ وَزِيَادَةٌ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

والحسنى هى الجنة . أما الزيادة فقد قال المفسرون : إنها روية المحسن .

« فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، وعندما يقول الحق : « سوف » فلنعلم أن ما يأتى بعدما هو من إعلانات النبوة التى جاءت على لسان محمد فى قرآن الله ، لأن ذلك الأمر قد حدث كما جاء فى قرآن الله ، فقد ارتد قوم وانقسموا فى الردة إلى قسمين : قسم ارتد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم ارتد على عهد أبى بكر ، ومنهم من ارتد على عهد عمر . ونحن نتفكر إلى ما بعد « سوف » لا بد أن تعرف أن هناك امتداداً زمنياً

وأول الارتداد كان فى اليمن ، وكان ذلك بعد حجة الوداع وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان فى اليمن كاهن مشعوذ اسمه قَبِيْهَةَ بن كعب ، ويقال له : ذو الحِجَار ، أو ذو الحِجَر فى رواية أخرى ، وهو الذى يعرف فى كتب التاريخ الإسلامى باسم الأسود الغنصى . هو أحد الكذابين اللذين ذكرهما النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « بَيْنَمَا أَنَا بِأَهْلِي إِذْ أُوتِيتُ خَزَائِنَ الْأَرْضِ ، فَوُضِعَ فِي يَدَيَّ سَوَارِسٌ مِنْ ذَهَبٍ فَكَبَّرْتُ عَلَى رَأْسِي ، فَلَوَجِى إِلَيَّ أَنَّ أُنْمَحِيَهَا فَتُفْتَحَتْهَا فَعَلْنَا فَأَوَّلَتْهَا الْكَذَابِيُّنَ الَّذِينَ أَنَا بَيْنَهُمَا صَاحِبُ صَنْعَاءَ وَصَاحِبُ الْيَمَامَةِ » (١) .

وكان لهذا الكاهن حمارٌ رَوْضَهٌ صاحبه رياصة من لون خاص تماماً كتدوين

(١) رواه البخارى فى التعمير والتهذيب والمغازى ، ودواه مسلم فى الرزى ، والترمذى فى الرقى ، وابن ماجه فى

الفرود ، فكان يقول له : قف . فيقف . ويقول له : سر . فيسير . واعتبر هذا الكاهن أن مثل هذا الأمر للمجاهد هو معجزة . أو كان الرجل اسمه « فوالخيار » أي أنه كان يرتدى خماراً على وجهه . ومن العجيب أن أي مرتد لم يطالبه من يتبعه بعلامة صلبه في السوة .

إن أول شيء في التأكد من صحة قول أي إنسان : « أنا نبي » أن يسأله الناس من علامة الصديق في السوة وأن يتعمروا على معجزته ، لكننا لا نجد ذلك في مرتد أبداً . وكيف لا يسأل الناس الذين يتبعون المرتد عن نفسه وعن دعواه أنه نبي وعن معجزته التي تدل على صدق رسالته ، وهو ما يحدث مع أي رسول ، كيف يؤمن أناس بفرد بدون معجزة ؟ .

هنا نذهب إلى الجانب النفسي من الأمر ويقول : إن التدين أمر فطري والإنسان الذي ليس له دين يغضب ويحزن عندما يقول له : يا قليل الدين . ولذلك نجد أن المبطل من هؤلاء يقول : أنا على دين . إنه لا يتصور أنه مبطل بلا دين . ولذلك قال الحق

﴿لَكَرِّدِينُكَ وَلِي دِينِ﴾

(سورة الكافرون)

فكان الأصل في العطرة الأصلية أن الدين ضرورة للإنسان ، وما دام الأمر كذلك فلماذا لا يقل كل الناس على الدين ؟ لأن الدين ليس مجرد اسم أو صفة ، ولكنه التزام بتكاليف . والذي يجعل الناس في حشيه من الدين هو مشقة التكاليف ؛ لذلك فعندما يأتي إنسان ويقول : أنا نبي ومعجرتي أنني خففت عليكم الصلاة والزكاة والصيام وأباحت لكم النظر إلى نساء بعضكم .

لا بد أن يسأل لعاب أصحاب الموى الدين لا بصيرة لهم ويقولون : إن مثل ذلك ليس جليل ، ويستسلمون ويتدمعون أنفسهم بأنهم متدينون وورع تحفلهم من بعض التزامات التدين ، إن المرء ليتعجب من مدعى البرة في الزم القديم وحتى عصره هذا لأننا لم نجد أحداً من المتضمين قد وقف أمام مدع وقال له :

ما معجرتك ؟ ولكن الكل سأل : ما منهجك ؟ وعندما سأل أهل اليمن دا الخيار : ما منهجك ؟

كانت إجابته: إنه أسقط عنهم بعض التكاليف بداية من تقليل الصلاة والزكاة إلى إباحة الاختلاط بنساء قريتهم . واستراح بعضهم لذلك المنهج وذهلوا وخفلوا عن طلب المعجزة . وكل الذين أدهوا النبوة كانوا من هذا الصنف . ولذلك نجد أن كل مدع للنبوة يحاول التخفيف من المنهج ، فهناك من خفف الزكاة . وجاءت امرأة اسمها سجاح خففت الصلاة . وجاء ثالث ليخفف الربا فيبيحه . لكن أهدأ منهم لم يأت بمعجزة . واتبعه بعضهم لمجرد تسهيل المنهج . وملحى النبوة إنما يرضى النفوس التي لا تطيق ولا تقوى على مشقة المنهج بأن تكون مندبنة ملتزمة به .

ومثال ذلك ما حدث في الإسكندرية عندما ظهر مدع للنبوة . وأباح منكرات مشيراً ، واتبعه بعض من التلمذيين الذين أرادوا دينا على هواهم ، وكذلك كان الأمر في البداية . وعندما جاء ذو الحمار ، أو ذو الحمار ، وهو كما قلنا : مشعوذ ، وكان كما يصفه المؤرخون يسمى قلوب من يسمع منطقه وكان يرمي الأحاجيب ، واستطاع بذلك أن يستولي على منبث اليمن ، وأعلن ارتداده . وغلب على صنعاء وعلى ما بين الطائف إلى البحرين . وجعل يستطير شره استنارة الحريق .

وكان سيدنا معاذ بن جبل هو الرائي على اليمن من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنجز سيدنا معاذ بن جبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إن كاهناً اسمه ذو الحمار أو ذو الحمار ، قد ارتد .

ويذهب سيدنا معاذ إلى حضرموت . وهناك يأتيه كتاب من النبي صلى الله عليه وسلم يأمره فيه أن يبعث الرجال لمصاوبة ذي الحمار . ويبحث المسلمون المتحمسون بما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يدخل على ذي الحمار رجل ديلمى اسمه فيروز فيقتله على فراشه .

وعلى الرغم من بعد المسافة بين اليمن والمدينة ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ليلتها . « قتل اللبنة الأسود العنسي »^(١) .

وبعد ذلك يأتي الخبر في آخر الشهر أن مدعى النبوة قد قتل . وتلك من إهجمات

النبوة . إذن لقد تعرض المؤمن على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم للهزة من العقيدة بحكاية ذى الحمار وذى الحبر . وكانت قصة ذى الحمار كانهض الواقع الذى يرى المناعة ، وأخبرهم الله بها أولاً : « من يرد منكم عن دينه فسوف يأبى الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

وذلك ليعطى الحق سبحانه وتعالى المؤمنين مناعة إيمانية وكأنه يقول للمؤمنين : لا تظنوا أنكم لن تتعرضوا إلى هزات هائلة دينية بل ستعرضون . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : قد يجوز أن يفهم الناس أنى وأنا حتى أقوم على منبج الله فى الأرض فإذا أنا مت ربما ارتدوا عن الدين .

ورسول الله عندما يلخ فلك للمؤمنين عن الله - سبحانه - إنما كان ذلك بقصد تربية المناعة . فلو فوجئ المسلمون بالردة ولم يكن الله قد أخبرهم بها لما كان عندهم احتياط مناعى والاحتياط المناعى هو أول عملية فى الوقاية . ونعلم أن العلم المعاصر استطاع فصل الميكروب أو الفيروس المسبب لمرض وبائى ، ويقوم العلماء بإضعاف هذا الميكروب أو الفيروس ، ثم يوضع قليل من هذا الميكروب أو الفيروس بعد إضعافه فى الجسم البشرى ، فتتحرك فى الجسم أجهزة الوقاية والحماية لتقاتل هذا الميكروب أو الفيروس وتنتصر عليه ، وبذلك تمنحك قوى الوقاية والحماية داخل الجسم القدرة على مقاومة هذا المرض ، وهكذا أراد الحق بهذا القول الكريم : « من يرد منكم عن دينه فسوف يأبى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . إذن حين يوجد الارتداد ، لا يفجأ المسلمون بهذا الارتداد ، ويثقون تماماً أنه بمجرد عي الارتداد فإن وعد الله الآخر يحى . « فسوف يأبى الله بقوم يحبهم ويحبونه » فلا هزع عند المؤمنين ساعة يحدث الارتداد ولا زلزلة فى النفوس . ومناعة يأبى الارتداد يقول المؤمن :

إن الذى صدق فى أنه يحدث الارتداد ، سيصدق فى قوله : « فسوف يأبى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وإذا رأيت « السين » تسبق قولاً فإن هذا يعنى أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث قريب وقليل مثل قوله الحق :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾

أما عندما نقرأ « سوف » فنعلم أن الزمن الذي يفصل بين الحدث والحدث منسج وبعيد . ولذلك نحر برى أن الردة قد امتدت في عهد أبي بكر - رضى الله عنه - وفي عهد عمر - رضى الله عنه - .

وما هي ذى مواصفات النعم الذين يأتى بهم الله في قوله : « سوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أئمة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ؟ » إنها مواصفات مست : يحبهم الله ، ويحبون الله ، أدلة على المؤمنين ، أئمة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم .

وكيف يكون الإنسان المؤمن ذليلاً وعزيراً في آن واحد ؟ لأن الحق لا يريد أن يطبعنا على لون واحد من الانفعال ، ولكنه يريد لنا أن نتعمل تبعاً للموقف . فعندما يحتاج الموقف إلى أن يكون المؤمن عطوفاً فالمؤمن يواجه الموقف بالعاطفة . وعندما يحتاج الموقف إلى الشدة فالمؤمن يواجه الموقف بالشدة . وإن احتاج الموقف إلى الكرم ، فالمؤمن يقابل الموقف بالكرم . فإسلم - إذن - بتفعل انفعالا مناسباً لكل موقف ، وليس مطوعاً عن انفعال واحد . ولو انطبع المؤمن على موقف ذلة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب العزة فلا يجدها ولو طبع المؤمن على عزة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب الذلة فلا يجدها ، لذلك جعل الحق قلب المؤمن ليناً قابلاً على مواجهة كل موقف بما يناسبه .

والمؤمن عرير أمام عدوه لا يغلب ، ويحببه بقوة . والمؤمن يخضع جناح الذل من الرحمة لوالديه امتثالاً لأمر الحق سبحانه .

﴿ وَأَخِصُّنَّ جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ أَرْحَمِهِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

وهل إذا خضع المؤمن جناح الذل لوالديه . اتخذ ذلك عزته ؟ لا بل ذلك أمر يرفع من عزة الإنسان . وأحق يريد المؤمن أن يكون غير مطبوع على لون واحد من الانفعال ، ولكن لكل موقف انفعاله . ونحن نتعمل المؤمن للمواقف المختلفة فهو يميز ما يحتاج إليه كل موقف . أدلة على المؤمنين أئمة على الكافرين ، ويمال في الذلة . « ذليل لعلان » فليأذا - إذا - يقول الحق ها . « أدلة على المؤمنين » ،

« على » تعيد العلو . والبدلة تعيد المكانة المنخفضة ، فكيف يأتي هذا التعبير ؟ لقد جاء هذا القول على هذا الشكل لحكمة هي : أن المؤمن ما دام يحب الله ويحبه الله . وساعة يكون في ذلة لأخيه المؤمن بهذا يرفع من قدره . وهي ليست ذلة بالمعنى المتعارف عليه ، ولكنه ليس جائب وعطف ورحمة . إذن فقوله الحق : « أدلة عن المؤمنين » يعني أن المؤمنين يحفظون على غيرهم من المؤمنين حتى يبدو هذا العطف وكأنه ذلة . وبعض العلماء يقول : إن الامة « ذان » و « لام » تدل على معنيين متقابلين ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا ثُمَّ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة يس)

أي جعلناها خاضعة لتصرفهم . وهذا التذليل يس بفهم من الإنسان للأعنام ولكنه بتسخير من الله . وهي ميسرة لخدمة الإنسان ومثال آخر . قوله الحق :

﴿ فَاتَّبَعْنِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلًّا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النحل)

أي متطامنة مهابة . إذن فهذه ذلة اللين . وهناك « ذُل » - بضم الذال - وهو ضد العز . وهناك « ذَل » - بكسر الذال - وهو اللين . إذن فالتدل بكسر الذال هو ضد الصعوبة ؛ أي اللين . والتدل - بضم الذال - هو ضد العز ، فإذا أردنا ذلة اللين ؛ فذل المؤمن للمؤمن من الذل ، وإن أردنا الذلة التي هي ضد العز ، فهي من الذل . وعندما يكون المؤمن على ذلة للمؤمن . فهي ذلة اللين والعطف . وعندما يريد الحق الشيء ليتداني للمؤمن ولا يتعبه ، فهو يقول .

﴿ قَطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝١٤﴾

(سورة الحاقة)

وفي آية أخرى يقول سبحانه .

﴿ وَذَلَّلْتُ نُطْرُقَهَا تَذَلِيلًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الإنسان)

أي ذللت عناقيدها . فالماكية تنزل إلى المكان الذي يوجد فيه المؤمن وإن وقف المؤمن لعناله يده أن يقطف الثمار . وإن اضطجع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار

لأنها تتلصق له . وإن دام المؤمن لتدافق قطاف الشهيد إلى مكانه وبذلك يستطيع أن يأكل منها في أي وقت وصل أي وضع .

وهنا يأتي الحق بالقول الحكيم : « أذلة على المؤمنين » أي أن ذلة المؤمن لأحبه المؤمن ترفع منزلته . وبها يكون المؤمن أهلاً لأن ترفع منزلته ، لأنه مصطفى بأن الله يحبه وأنه يحب الله ، ولا توجد رفعة أكثر من هذه رفعة . ولذلك نجد القول للأنور : (من تواضع لله رفعة) .

أي من تواضع وفي بالله الله فإن الله يرفعه .

« أعزة على الكافرين » وهذا هو الوصف الثالث للمؤمنين في تلك الآية بعد قوله الحق : (فسوف يأتي الله بقوم يحبونه أخلة على المؤمنين) .

إن المؤمن عزيز على الكافرين بأنه لا يئلب ، وما دام هو يعرف ذلك فهو يضم إلى الجهاد في سبيل الله . « يجاهدون في سبيل الله » وكلمة « الجهاد في سبيل الله » تخصص لونا من الجهاد ، فالإنسان قد يجاهد حية أو دفاهاً من جنسيته أو أي انتفاء آخر ، وكل هذه الانتفاءات ن عرف لدينا لا قيمة لها إلا إذا نبعت من الانتفاء إلى مسج الله ، لتكون كلمة الله هي العليا

وعندما ستل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل القتال :

فيما جاء عن أن موسى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فسن في سبيل الله ؟ قال . « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » (١)

وما دام المؤمن محبباً من الله ويحب الله وذليلاً عن المؤمنين وعزيزاً على الكافرين ،

(١) رواه البخاري في الجهاد ، وسلم في الإمارة ودواه أحد .

ما دام الأمر كذلك فعندما يتولى مؤمن أمر قيادة غيره من المؤمنين فلا أحد منهم يأنف أن يكون تحت قيادته . ولذلك يخرج المؤمن من دائرة الاستعلاء والاستكبار ، لأنه يجاهد في سبيل الله ولو جاءه إنسان ليلومه على ذلك فهو لا يسمع له . وكان سبحانه يوضح . تبها جيئاً إلى أن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله والذين هم أدلة على المؤمنين وأجرة على الكافرين ويجاهدون في سبيل الله فلا يظن أنهم يمأى عن سخرية الساخرين ، وهوى المستهزئين . ولوم اللاتمين يريدونهم عن هذه العملية .

ولذلك يقول الحق . « ولا يخافون لومة لائم » وقد وضع ذلك على مر تاريخ الإسلام وجاء الحق يقوم بحبهم ويحبونه وهم أدلة على المؤمنين وأجرة على الكافرين وجاهدوا في سبيل الله وما خافوا لومة لائم

وساعة نستعرض هذه الآية نجد أن « سوف » ابتدأ مدلولها الأول في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين سئل رسول الله عن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم هذه الصفات ، أشار بيده مرة إلى أبي موسى الأشعري ، وقال صلى الله عليه وسلم : « هم قوم من هنا »^(١) .

وعندما نزل قوله تعالى :

﴿وَلَا تَحْرِيْبُهُمْ لَمَّا يَتَّخِذُوا يَمِيْنًا﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

سأل أبو هريرة - رضي الله عنه - رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هم يا رسول الله ؟ . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال . « لو كان الإيمان عند الثريا لنالته رجل من هؤلاء »^(٢)

وقد حدثت الردة الأولى في اليمن ، وكانت في قوم أبي موسى الأشعري ، وكتب رسول الله إلى معاذ بن جبل - كما أوصحنا - وبعد ذلك تطوع قيروز ليدلهم ودخل على من كان يدعى البوة ذى الحمار أو ذى الحمار ، وقتله . وأخبر رسول الله صلى الله

(١) حديث مرسل صحيحه الحاكم ورواه الطبري في المعجم

(٢) روى البخاري ومسلم في فضائل الصحابة واحد ٤١٧/٢

عليه وسلم ليبتها بالأمر . ولكن خبر القتل جاء بعد أن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وكانت تلك من علامات النبوة .

وحدث - أيضاً - في زمانه صلى الله عليه وسلم أن ادعى مسيلمة الكذاب أنه نبي . وكتب مسيلمة إلى رسول الله كتاباً ، يقول : **بين مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله** .

ولم يقدر على نزع صفة النبوة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء في كتاب مسيلمة : « **أنا بعد** . فإن الأرض نصيبها لي ونصفها لك ، كأنه قد فهم أن المسألة بالنسبة لرسول الله تحتاج إلى فسخة ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات فيها هيات النبوة :

(**من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى** ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) (١) .

ولم يسمع مسيلمة كلام رسول الله ، وجهزت الحملة لترسل إليه لتأديبه . وجاء عهد أبي بكر - رضي الله عنه - ، وكانت المعركة على أشدها . وجاء « وحشي » الذي قتل حمزة - رضي الله عنه - في موقعة أحد . وأراد أن يكفر عن سيئاته فذهب وقتل مسيلمة . ولذلك كان يقول كلمته المشهورة : **أنا قتلت في الجاهلية خير الناس** - يقصد حمزة - و**قتلت في الإسلام شر الناس** - يقصد مسيلمة - وانتهى أمر مسيلمة .

وجاء إنسان ثالث في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه « **طلحة بن عويّل** » من بني أسد وادّعى النبوة ، وكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذهب إليه وكان « **خالد بن الوليد** » وساعة علم الرجل أن خالداً هو الذي جاء لقناله لاذ بالفرار ، ولكنه من بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه .

ونلاحظ أننا نتعلق « **الردة** » بكسر الراء ، وصفاً لتلك الأمور التي حدثت وقويت

(١) رواه أبو حنيفة في مسنده ، وابن سعد في الطبقات الكبرى من ١٨٠ رواية الإمام المصنف

هذه ايقابلة . ولا نسميها ردة ، فتح الرء ، لأن الرد - بفتح الرء - يكون عودة إلى حق ، أما الردة - بكسرة الرء - فتكون إلى باطل ، مثال ذلك قوله سبحانه وتعالى .

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى آثَمِهِ وَآلِ الْأَرْسُولِ﴾

(من الآية ٩٩ سورة النساء)

أما الذي يرتد فهو يرتد إلى باطل .

ومن العجيب أن كلمة « الردة » التي جعلها الإسلام علامة على الانتقال من الإيمان إلى الكفر يستعملها أعداء الإسلام الذين لا يؤمنون بأديان ما ، فعلمهم يترك الشيوعية أحد أتباعها يقولون . لقد حدثت ردة . وكان من الواجب لو أنهم أصحاب مبادئ أصيلة أن يختاروا لفظاً آخر لكن لا يوجد في اللغة لفظ يعبر عن الرجوع إلى الباطل إلا كلمة « ردة » وكذلك كلمة « منبر » لا توجد - أيضاً - إلا في الإسلام ، وهو موقف الواقع من المصلين يوم الجمعة . وعندما يأتون إلى تصيف جماعة متطرفة إلى اليسار فهم يقولون : « منبر اليسار » ويقول : لماذا تأخذون هذه الكلمة من عندنا ؟ .

ومثال آخر عندما يكتب كاتب : هذه الراجعة تتعد في محراب الفس . ونقول : لماذا تستخدم كلمة « محراب » ؟ عليك أن تبحث عن كلمة أخرى . وكل ذلك يدل على أن كلمات الإيمان هي الكلمات المعبرة ولذلك يسهبون إليها .

ويؤخذ في ظاهر الأمر على الإسلام أن من يرتد يُقتل .

ونقول : أيظن أحد أن هذه ضد الإسلام ؟ لا إنها لصالح الإسلام ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه عديم يقبل على الإسلام فهو يقبل على الدين الكامل ؛ لأن من يخرج عليه يهرده ويقتل . وعلى من يفكر في الدخول إلى الإسلام أن يحاط بحياته إذن فالإسلام لا يسهل لأحد الدخول فيه ، ولكنه يصعب عملية الدخول . ويتجه كل فرد إلى ضرورة الاستئذان قبل الدخول في الإسلام ؛ لأنه دخول إلى دين كامم وليس طوقاً أو لعباً .

إن على من يرغب في الدخول في الإسلام أن يفكر جيداً وأن ينتهي إلى الحق ؛

لأن حياته ستكون لمن الرجوع عن الإسلام وهذا دليل على جدية هذا الدين وعدم السماح بالعبث في عمليات التحول فيه . وحين يصعب الإسلام عملية الدخول فيه إنما يعطى فرصة الاختيار ليعلم من يختار لدين الإسلامى أن يرى أن الرجوع عن الإسلام ثمنه الحياة . ومساءة يطلب دين لم يفكر الإنسان جيداً قبل أن يدخل فيه فهل فى ذلك خداع أو نصيحة ؟ إنما النصيحة وهى عمية لصالح الإسلام ، وهى أمر على ليعلم كل دافع فى الإسلام أن هذا هو الشرط

ولو أن الإسلام يريد تسهيل المسألة لقال : تعال إلى الإسلام وأخرج منى تريد . لكن الدين الحق لا يخدع أحداً . وسبحانه يقول :

﴿يَسِّرْكَ مِنْ غَلَبِكَ عَنْ يَمِينٍ وَيَسِّرْكَ مِنْ غَلَبِكَ عَنْ شِمَالٍ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الانفال)

وتكلمنا من قبل عن الرداءات التى حدثت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن كلمة «سرف» التى جاءت فى قوله : «فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه» يدل على الامتدادية . وقد حدثت ردة فى عهد أبى بكر - رضى الله عنه - وظهر سبعة ادعوا النبوة ، مثال ذلك «بنو قزاعة» قوم عيينة بن حصن ارتدوا وأرسل إليهم أبوبكر - رضى الله عنه - من حاربه . وكذلك قوم عطفان ارتدوا .

وكذلك قوم قرّة بن هبيرة بن سلمة ، وكذلك بنو سائب . قوم الفجاعة بن عبد ياليل ، فأرسل لهم أبوبكر من يؤدبهم . وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة ، وبعض من بنى تميم الذين ادعوا النبوة سمحاح بنت المنذر والى تزوجت مسيلمة . وكذلك «كدة» قوم الأشعث بن قيس ، وكذلك قوم الحصم بن ضبيعة وهم بنو بكر بن وائل فى البحرين . وقضى عليهم سيدنا أبوبكر مما جعل كثيراً من القوم يقولون : إن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم كل تلك الأوصاف هم أبوبكر ومن معه . ولكن أجمع ذلك أن كل جماعة سيكون فيها مثل أبى بكر - رضى الله عنه - ؟ لا . ومثال ذلك على بن أبى طالب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم حبيب :

عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : كان على رضى الله عنه يخلف عن النبى

صل الله عليه وسلم في حويز ، وكان به رمد فقال : أنا أتخف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج على فحقق بالسيف صلى الله عليه وسلم فلما كان مساء الليلة التي فتحتها في مباحها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية - أو ليأتين - غدا رجلاً يحبه الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله . يفتح الله عليه . فلما نحن بعلل وما مرجوه ، فقالوا هذا هو ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتح الله عليه »^(١) .

وفي عهد سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لم تحدث إلا ردة واحدة ، جاءت من الفساسنة بقيادة جبلة بن الأيهم وهم من الشام وكانوا مواليين لروم ، وكان جبلة هو رئيسهم وأسلم وجاء ليظوف بالبيت الحرام جهيلان كزيميم للفساسنة . وكان لهم العظمة في الجهاد والملابس . وكان يرتدي رداء طويلاً فوطي ، أحد الناس رداه ، فسقط ، فلفظه جبلة ، وأبغ الرجل عمر بن الخطاب . وقال عمر بن الخطاب : إنه الفعاصر . وقال سيد الفساسنة : إن أشتري هذه اللطمة بألف دينار ولم يقبل الرجل معرض سيد الفساسنة ألين من الدنانير فرفض الرجل ، فزادها إلى عشرة آلاف ولم يقبل الرجل .

وقال جبلة لعمر : أنظرنى حتى أفكر في المسألة . فلما أنظره عمر ، هرب الرجل إلى الشام ونصر . هكذا يتضح لنا أعاق كلمة « سوف » وأى زمن تأخذ ، إن لها امتدادات حتى زماننا .

إن الردة في زماننا جاءت من فارس ممثلة في البهائية والبابية ، وهدف المرتد يكون جاء الدنيا ، إن كان يريد حكم ، ووسيلة المرتد تيسير التكليف لمن يتبعه في الارتداد . ومن يدعى لنفسه النبوة والقررة على الإنيان بنشرهم جديد إنما يطلب لنفسه جاء الدنيا ، والذي يتبع ذلك المدعى للنبوة إنما يقصد لنفسه تيسير التكليف .

ولماذا تيسير التكليف ؟ لأن الإنسان مؤمن بمطوته وديبل ذلك أننا إذا واجهنا إنساناً غير مؤمن ، وقلنا له : أنت قليل الدين . يعصب وينور ، لأنه لا يتصور أن يتزع أحد منه أنه متدين بشكل ما . ونرى إنساناً قد يسرف على نفسه كثيراً لكنه

(١) رواه البخاري - واللفظ له - في جهاد وفي فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - برواه مسلم في فضائل

الصحاب ، والترمذي في ألقاب ، وابن عسجق في القصة ، وأحمد ٩٩/١ ، ٨٠

ساعة يسمع إماماً آخر يسب الدين يثور ويغضب ويتحول إلى مدافع عن دين الله ،
وتلك هي العطرة الإيمانية التي فطر الله كل الناس عليها . والذي يجعل الدين أمراً
شاقاً على النفس البشرية ليس فطره الدين ، ولكنه تكليف التدين ، لأنه أمر يدخل
في الاختيار . وقد جعل الحق التكليفات الإيمانية كلها في ساطع الاختيار البشري ، ولم
يشأ أن تكون أمراً قهرياً . ولو شاء سبحانه أن يجعل كل الناس مؤمنين لما قدر أحد
على الكفر

﴿ نَعَلَتْ بَنِعَجٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِنْ أَشَاءَ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً
فَقُتِلَتْ أَفْسَقُتْهُمْ لَوْلَا حَاصِرِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

فليس في قدرة أحد أن يتأبى عن الله ، ولكنه شاء أن يجعل تكليف الإيمان مسألة
اختيارية . والإنسان حر في أن يفعل تكاليف الإيمان أو لا يفعلها ، وفي كلتا الحالتين
سيبقى الخزاء . مثال ذلك : « اللسان » خلقه الله صالحاً أن يقول : « لا إله إلا الله
محمد رسول الله » ، وهذا اللسان نفسه صالح لأن يقول : « والعياذ بالله » . أنا
لا أؤمن بالله .

ولا يعصى اللسان صاحبه ، فقد خلقه الله مجبراً للتعبير عن مكنونات قلب
الإنسان وخاصة لإرادة الإنسان . ومثال آخر من مصوغاتنا نحن . جهاز
التليفزيون الذي صممه البشر ليكون آلة متفاداة ومسخرة لما يرسله الإنسان فيه من
برامج ، فإن أرسل الإنسان في جهاز التليفزيون أفلاماً وبرامج دينية وعلمية
تستكشف آيات الله في الكون وتثبت قيم الإنسان على الإيمان فهذا اختيار إيمان .
وإن أرسل الإنسان أفلاماً حليلة تحض على المجون والفسق فهذا اختيار يلحق
الإنسان بدائرة المفسدين في الأرض .

إذن فالحق خلق الإنسان صالحاً لتطبيق تكاليف الإيمان وصالحاً للخروج عن
التكليف . وحين يأمر الله عباده أن يطبقوا أو يتعدوا التكليف الإيمان فهو يعلم أن
قدرة الإنسان تسع التكليف ؛ لأنه العليم بعباده ، ولو لم يكن باستطاعتهم تنفيذ
التكليف لما كفرهم به . وكلنا نعرف الفرق بين « العباد » و « العبيد » ؛ فكل
المكائنات عبيد لله ، والإنسان من عبيد الله إن كان متكبراً على التكليف ، وإن خرج

على التكليف فهو مسير في أمور لا يقدر على الخروج منها ، فلا يستطيع أحد بإرادته أن يتوقف عن التنفس ، وهو - كما نعلم - أحد المعصيات التي تجري عن الرغم من الإنسان

ولا أحد يستطيع أن يتنفس عندما ينتهي أحله كذلك لا أحد يستطيع أن يقاوم المرض إن أصابه . إذن فكيف الإنسان ويخروجه عن طاعة الله في أشياء لا معنى أنه خارج في مطلق أموره عن الله ، لأن الحق فعال لما يريد ، فلا أحد يتحكم في بدايته حين يولد ، ولا أحد يتحكم في نهايته حين يموت ، وهناك أمور بين قوسيّ الميلاد والموت ما من أحد يقاوم على التحكم فيها ، وإرادة الاختيار إنما توجد في بعض الأمور فقط . أما كل ما عدا ذلك فهو قهري ، وكلنا عبيد لله في ذلك . لكن الحق تعالى أعطى لنا الاختيار في بقية أمور الحياة .

والدكي حقاً هو من يسأل ربه : لقد خلقتني بأرب مختاراً . وماذا تحب أنت أن أفعل ؟ هنا يجد الإنسان نفسه أمام أوامر الله ونوحيه وأمام المنهج بمطلوباته ، هذا المنهج الذي يوضح للمؤمن ما الذي يمكن أن يفعله وما الذي يمكن أن يتجنبه . ويقول المؤمن : إني أخرج من اختياري إلى مرادك يا رب . ولنعبد الذي يتبارك عن اختياره إلى مراد خلقه هو واحد من العباد الذين وصفهم الحق بأسم عباد الرحمن .

ونرى في حياتنا العادية نموذجاً لما يحدث بين رب الأسرة وأفرادها ، فرب الأسرة يقول لأبنائه : أستم تربونون التره ، فأى مكان تحبون الذهاب إليه ؟

يجيب أحد أفراد الأسرة . لندهب إلى المكان العلاني . ويحيب آخر : أنت حر أو أن تصحبنا إلى أى مكان تريد ، المهم فقط أن تكون معنا . ومن المؤكد أن الذى يقول مثل هذا القول لرب الأسرة ينال منزلة رفيعة في قلبه . فإذا كان هذا يحدث بين إنسان وإنسان مثله فما بالنا بالاستحسان الذى يناله العبد حين يقول ذلك لخالقه الأكرم ؟ لا بد أن ينال منزلة راقية ، لأنه قد خرج من دائرة العبيد إلى دائرة العباد الذين قال عنهم الحق :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ لِرَبِّهِمْ إِحْسَادًا وَفِينَا ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ
جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿١٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين يحبهم ويحبونه . أما الذي يتمرّد على منهج الله فعليه أن يعرف أنه غير قادر على أن يتمرّد على قدر الله . وأراد الحق أن يعطينا متعة إيمانية حين قال : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأق الله بغيرهم ويحبونه » وتتجل تلك المتعة في أن المؤمن لا بد أن يلتفت إلى هؤلاء الذين يرتدون عن دين الله بادعاء أنهم أنبياء من بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هذه الآية توضح لنا ما جدد وما يجد من أمر هؤلاء المرتدين ، والراحد منهم يعلن : أنا نبي مرسل . ويجد هذا النبي المزيف من يستمع له ويصدق به ويتبعه ، ولا يجد من يسأله : إن كنت نبياً لها معجزتك ؟ لكنه يجد من يصدقون هذا الزيف طوى في نفوسهم .

هذا الحوى يتلخص في أن مثل هذا النبى المزيف يأتى بمنهج ميسر يخدع به أتباعه الذين يخدعون أنفسهم بأن الواحد منهم متدين ، لكنه يتبع مفهجا ضالاً . وكثير من الذين ادعوا أنهم أنبياء وأنه هو المهدي المنتظر لم يسألهم أحد : ما المعجزة الدالة على صدق نبوتكم ؟ لأن النبى المزيف من هؤلاء يلهى الناس بالتخفيف من التكليف .

إننا نجد بعضاً من المثقفين أو الذين يدعون أنهم يعملون عقولهم في كل شيء يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد رأينا منذ أعوام قليلة العجب العجائب ، عندما ادعى أحدهم النبوة . وآمن به واتبعه عدد من الرجال والنساء . وكانت المرأة المتروكة تدخل على هذا النبي المزيف لتقبله ويقبلها من شفيتها وأمام زوجها . أين نخوة الرجل - إذن - في مثل هذا الموقف ؟ إنه التديليس الضال الذي يدعى لنفسه الهداية ، إنها هداية إلى الجحيم .

وهل تتبع تلك التيارات من الإسلام ؟ لا ، بل تلقى من قوم يخضون الإسلام .

ويصطادون الرجل الذي تظهر عليه المواهب والمخايل ، ويقنعونه بأنه يمكن أن يلعب دور النبي المزيف .

مثال ذلك الهندي ميزرا غلام أحمد الذي جاء بالقاديانية . ونعلم أن الإنجليز قد استعمروا الهند لسنوات طويلة ، وكانوا يعتبرونها درة التاج البريطاني . ونعلم أن خصوم الإسلام وعلى رأسهم الاستعمار يحاولون أن يتألوا من الإسلام ؛ لأنهم رأوا أن التمسك بالدين أتاح للمسلمين فتح الامبراطوريات لا بالسيف ولكن بحماية حق الاعتقاد .

إذا كانت الدعوة قد نشأت في الجزيرة العربية ؛ فقد امتدت إلى آفاق الأرض . وانهزمت الفرس والروم أمام الذين يحملون راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ومن بعد ذلك نجد أن الذين هزموا التار هم المسلمون ، وكذلك اشتعلت الحروب الصليبية في حملات متتابعة ، ولكن المقاتلين تحت راية الإسلام أنزلوا بهم الهزيمة الضلعية .

إن الذي أزهق الاستعمار من الإسلام طاقة الإيمان والقتال في سبيله ولذلك جاء ميزرا غلام أحمد وحاول أن يضعف الفكرة على الجهاد عند المسلمين ، فقال : لقد جئت لكم لألغي الجهاد من العقيدة الإسلامية . وجرؤ ميزرا غلام أحمد ، وأعلن إلغاء القتال . والحق يقول في كتابه الكريم :

﴿ كُنِبَ عَلَيْكَ الْفِتَالُ وَهُوَ كَرِهٌ لَكَ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وسبحانه بقدرته بهل ولا يهمل . وجاء بهاء الكوليرا في الهند سنة ١٩٠٨ ليقتض على غلام أحمد وينهى وجوده تأكيداً لقوله الحق :

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة المائدة)

وظهر أيضاً في فارس وهي موطن سلمان الفارسي من ادعى لنفسه النبوة ، وكان من الذكاء بحيث حاول التسلل إلى الإسلام ، لينقلب عليه من بعد ذلك ، قال الرجل : أنا الباب ومن بعدى سيأتي المهدي .

وعندما سأل الناس : وماذا تحمل من منهج ؟ أجاب : جئت لأخفف عنكم بعض التكالييف ، لأن الإسلام صار بتكالييفه لا يناسب العصر . واتبعه أناس ، وثار عليه أناس . ومن اتبعوه ، ذهبوا إليه بغية تخفيف المنهج ، ومن ثاروا عليه كانوا من القوم الذين يحبهم الله ويحبونه ، وجامعوا له بالعلماء يناقشونه ويحاجونه فاعترف بأنه غلط ، وأعلن التوبة في المسجد الكبير . وعند ذلك تركه الناس .

لكن هذا الرجل وجد من يلتقطه ليعيده إلى ضلاله وتضليله ، التقطه فنصل روسيا في فارس ، وهياً له ملجأ ، وأرعى إليه أن يعلن أن توبته إغا كانت هرباً من القتل . واستطاع هذا الباب ، واسمه على محمد الشيرازي أن يثال دعاية واسعة وخاصة بعد أن انضمت إلى دعوته ثلثة أسماها « قرة العين » وكانوا يلقبونها بالطاهرة . ووقفت لخطب خطبة في الناس . ومن يقرأ تلك الخطبة يعرف إلى أي انحلال كان يدعو ذلك الباب .

وأعلنت هذه المرأة أن الإسلام قد انقضت مدته كدين ، وأن الباب قد اختفى لفترة ، لأنه في انتظار شرع جديد ، وأن العالم يمر بفترة انتقال ، وصار ينزل المنهج الجديد على الباب . وقالت تلك « الطاهرة » : إن التشريع المختص بالمرأة ، والذي جاء إلى الباب هو :

« المرأة زهرة خلقت لتُشَمَّ وتُشَمَّ ، ولا يمنع ولا يحجب عنها ولا ضيقها ، وما دامت المرأة زهرة إذن فهي نجسة وتقطف » وإلى الأحباب تُهدى وتنحف .. إلى أن تقول في نهاية خطابها : لا تحجبوا حلالكم عن أحبائكم (١) .

ومن يرغب في أن يعرف مسلسل الفضائح الخلقية التي جاءت في خطاب « قرة العين » تلك فليقرأ كتاب « نقطة الكاف » للباب الكاشاني طبعة لندن صفحة ١٥٤ . هذا ما جاء به الباب من بعد أن أعلن إلغاء الإسلام :

لا تحجبوا حلالكم عن أحبائكم فإنه الآن لا منع ولا حد ، خلوا حظكم من الحياة ، فإنه ليس بعد الهات شيء . وهذه خلاصة الانحلال الذي جاء به هذا

لا تحجبوا حلالكم عن أحبائكم فإنه الآن لا منع ولا حد ، خلوا حظكم من الحياة ، فإنه ليس بعد الهات شيء . وهذه خلاصة الانحلال الذي جاء به هذا

المدعو بالباب ، لقد أعلن أنه لا حساب ولا يوم آخر ، وأن المرأة عرضها مشاع تضم وتشتم . والغريب أن بعضاً من المتزوجين قد اتبهوه . وقالوا عن أنفسهم : إنهم متدينون ، لقد أخذوا ظاهر الأمر واعتبروا الفسوق الذي جاء به هذا الباب وأسموه ديناً بعد أن سهل لهم بتعاليمه الفساد ، فأخذوا الانحلال عن التكليف ، وادعوا أن ذلك دين (!)

هكذا أراد خصوم الإسلام للإسلام . وفنصل روسيا القيصرية هو الذي شجع هذا الرجل وحاه في عام واحد وستين ومائتين بعد الألف من الهجرة . وبرغم ذلك حكم أهل فارس بإعدامه بعد موجة السخط العام ، ولم يستطع أن يتقلده أحد ، وتم إعدامه فعلاً . والذين قرأوا أقواله لحظة الإعدام عرفوا كيف أنه تذلل وخضع ويكفى . ولو كان مبعوثاً بحق من عند الله لما تذلل وخضع وطلب النجاة . ولا مثلاً بالسرور والخبور ، لأنه ذاهب إلى الله .

لقد عرف هذا الرجل الدجال إلى أي عقاب سيذهب ، لذلك بكى واسترحم . ولما قتل الباب ، أعلن واحد من رجاله وهو ميرزا حسين أن الكتاب الذي جاء به الباب كتاب كاذب ، وكان اسمه « البيان » . وقال ميرزا حسين على : إنه جاء بكتاب اسمه « الأقدس » . كأن المسألة كلها خداع للناس وتبرير الخداع .

ولو رجعنا إلى كتاب يسمونه « بهجة الصدور » مؤلفه حيدر بن علي البهائي لوجدنا كل الانحرافات الممكنة ، فالبهائ يقول : استر ذهبك وذهابك ومذهبك ، أي لا نجعل أحداً يعرف ثروتك ، ولا إلى أي مكان تذهب ولا نقل للناس : إنك بهائي حتى لا يقتلوك . واعتبر البهائيون أن القرآن قد انتهت مدته وأن كتاب « الأقدس » هو كتاب فوق القرآن .

ويقرر كتاب « الأقدس » أن القدس لا بد أن تكون وطناً لليهود وأن موسى سيد الرسل جميعاً . وما يدلنا على أن ذلك الرجل كان صنعة الاستعمار والصهيونية ، أنهم أقاموا له حفل تكريم في بريطانيا ومنحوه وسام الفروسية الإنجليزى ، لأنه رجل خدم الاستعمار .